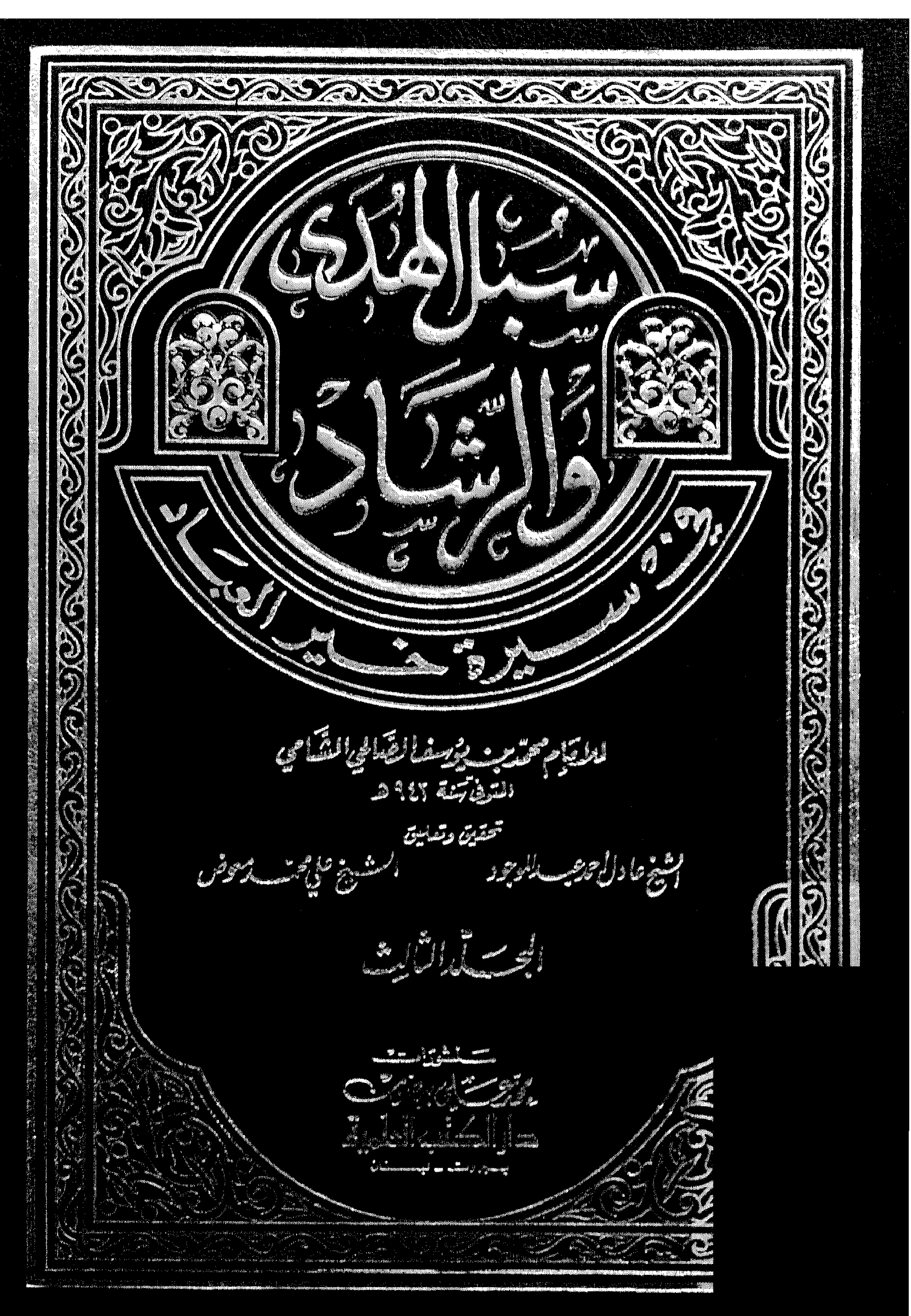

سبل الهدى والرشاد
في سيرة خير العباد
للإمام محمد بن يوسف الصالحي الشامي
المتوفى سنة ٩٤٢ هـ
تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمد معوض
المجلد الثالث
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

سُبُلُ الهُدَى وَالرَّشَاد
فِي سِيرَةِ خَيْرِ العِبَادِ

للإمام محمّد بن يوسف الصّالحي الشّامي
المتوفى سنة ٩٤٢ هـ

تحقيق وتعليق
الشيخ عادل أحمد عبد الموجود
الشيخ علي محمّد معوض

الجزء الثالث

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لدار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٠٠/١٢١٢/٤٧٨١٣٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

جماع أبواب معراجه
صلى الله عليه وسلم

قد كنتُ أفردتُ كتاباً حافلاً في هذا الباب سَمَّيْتُه: «الآيات البَيِّناتِ في معراجِ سيد أهل الأَرض والسماوات»، ثم ظَفِرتُ بأَشياء لم يتيَسَّر الوقوف عليها إذ ذاك، فجمعتُ كتاباً آخر سَمَّيْتُه: «الفضل الفائق في معراج خير الخلائق»، فاجتمع فيه فوائد ونفائس لا توجد مجموعة إلا فيه، فرأَيْتُ أَن أَذكر هنا خلاصته:

الباب الأول

في بعض فوائد قوله تعالى

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَه لِنُرِيَهُ من آياتِنا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِير﴾ [الإسراء ١].

الكلام على هذه الآية من وجوه:

الأول: في سبب نزولها: قال الإمام العالِم العَلاَّمة أَبو حَيَّان أَثير الدين محمد بن يوسف الغَرْنَاطِي - بفتح الغين المعجمة وسكون الراء وبالطاء المهملة - في تفسيره المسمى بالنهر: «سبب نزولها أَن رسول الله ﷺ لما ذَكَر الإِسراء به كَذَّبوه، فأَنزلها الله تعالى».

الثاني: في وجه اتصال هذه السورة بما قبلها: قال الإِمام فخر الدين الرازي، والبرهان النسفي: «وجه الإتصال بما قبلها أَن في تلك السورة ذِكْرَ الخليل ﷺ وذِكْرَ أَوصافه الشريفة، وتشريعاته العَلِيَّة من الحضرة الأَزَلية، والأَمر باتباع مِلَّة الحنيفية، والاقتداء به في العقائد الدينية، وفي هذه السورة ذكر من اتَّبع مِلَّته بالصدق، وأَقام سُنَّتَه على الحق، وفي آخر تلك السورة أُمِرَ نَبِيُّنا ﷺ: **﴿ادْعُ إِلى سَبِيل رِبِّكَ بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنة﴾** [النحل ١٢٥]. وأَمره بعد ذلك بالصَّبْر فقال: **﴿وَاصْبِرْ وما صَبْرُكَ إِلاَّ باللهِ ولا تَحْزَنْ عَلَيْهِم ولا تَكُ في ضَيقٍ مِمَّا يَمْكُرُون﴾** [النحل ١٢٧] والصَّبر هو التَّحَملُّ للمكاره، والتَّحَملُّ من جملة ما يُؤَدِّي إِلى التَّجَمُّل، ومنه ما ذُكِر في أَول هذه السورة.

النَّهْر: لما أَمره الله تعالى بالصبر، ونهاه عن الحُزْن عليهم، وأَن يَضِيقَ صَدْرُه من مَكْرِهم، وكان من مكرهم نِسْبَتُه إِلى الكذب والسِّحْر والشِّعْر وغير ذلك مما رَمَوْهُ به، فأَعقب الله تعالى ذلك بشرفه وفضله واحتفائه به وعلوّ منزلته عنده.

الشيخ رحمه الله تعالى في مناسباته: «هذه السورة والأَربعة بعدها من قديم ما نزل، روى الشيخان عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أَنه قال في سورة بني إِسرائيل والكهف ومريم وطه والأَنبياء: هُنَّ من العِتاق الأُوَل وهُنَّ من تِلادي».

التِّلاد - بكسر المُثَنَّاة الفوقية وتخفيف اللام أَي مما حُفِظ قديماً، وهذا وجه في ترتيبها، وهو اشتراكها في قِدَم النزول وكونها مَكِّيَّات، وكلها مشتملة على القصص.

وظهر لي في وجه اتصالها بسورة النحل أَنه سبحانه وتعالى لما قال في آخرها: **﴿إِنَّما جُعِلَ السَّبْتُ على الذين اخْتَلَفُوا فيه﴾** [النحل ١٢٤]. فَسَّر في هذه السورة شريعة أَهل السبت وشأنهم، فذكر فيها جميع ما شُرِع لهم في التوراة.

كما روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «التوراة كلها في خمس

عشرة آية من بني إسرائيل». وذكر عصيانهم وفسادهم وتخريب مسجدهم، ثم ذكر استفزازهم النبي ﷺ وإرادتهم إخراجه من المدينة وسؤالهم إياه عن الروح. ثم ختم السورة بآيات موسى التسع، وخطابه مع فرعون. وأخبر أن فرعون أراد أن يستفزهم من الأرض فأُهلِك. وَأَوْرَث بني إسرائيل الأرض من بعدهم. وفي ذلك تعريض بهم أنهم كما استفزوا النبي ﷺ من المدينة، فسيخرجون منها ويَرِثها هو وأصحابه كنظير ما وقع لهم مع فرعون لما استفزهم. وقد وقع ذلك أيضاً. ولما كانت السورة مُصَدَّرة بتخريب المسجد الأقصى افتتحت بذكر إسراء سيدنا محمد المصطفى إليه، تشريفاً لحلول ركابه الشريف وجَبْراً لما وقع من تخريبه. انتهى.

الثالث: في حكمة استفتاحها بالتسبيح:

ابن الجوزي في زاد المسير: الحكمة في الإتيان به هنا وجهان: **أحدهما:** أن العرب تُسَبِّح عند الأمر العجيب، فكأن الله تعالى عَجَّب خَلْقَه بما أسدى إلى رسول الله ﷺ من الإسراء به.

الثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم، لأنه ﷺ لما حَدَّثهم عن الإسراء به كَذَّبوه، فيكون المعنى تَنَزَّه الله تعالى أن يَتَّخذ رسولاً كَذَّاباً.

القاضي تاج الدين السبكي في تذكرته سأل الإمام: ما الحكمة في افتتاح سورة الإسراء بالتسبيح والكهف بالتحميد؟ وأجاب بأن التسبيح حيث جاء قُدِّم على التحميد نحو: ﴿ **فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ** ﴾ [النصر ٣] سبحان الله والحمد لله.

وأجاب ابن الزَّمْلَكاني - بفتح الزاي واللام -: [أَنّ] سورة سبحان لما اشتملت على الإسراء وكَذَّب المشركون به النبيَّ ﷺ، وتكذيبه تكذيب لله تعالى، أُتِيَ «بِسُبْحَان» لتنزيه الله عزَّ وجل عما يُنْسَب إليه من الكذب، وسورة الكهف لما نزلت بعد سؤال المشركين عن قصة أصحاب الكهف وتأخير الوحي نزلت مُبَيِّنةً أن الله تعالى لم يقطع نعمته على نَبِيِّه ولا على المؤمنين، بل أتم عليهم النعمة بإنزال الكتاب، فناسب افتتاحها بالحمد على هذه النعمة.

الرابع: في الكلام على سبحان الله:

محمود الكرماني في «برهانه»: «كلمة استأثر الله تعالى بها، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل ثم بالماضي في الصَّفّ والحَشْر لأنه أسبق، ثم بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى استيعاباً لهذه الكلمة من جميع جهاتها»، انتهى.

وقوله: «فبدأ بالمصدر» أي بالاسم الموضوع موضع المصدر.

وروى الحاكم أَن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه، سأَل رسول الله ﷺ عن معنى «سبحان الله»، فقال: «تنزيه الله من كل سوء».

وروى ابن أَبي حاتم عن علي رضي الله تعالى عنهما، قال: «سبحان الله، اسم يُعَظِّم الله تعالى به نفسه ويتحاشى به عن السوء».

الماوردي رحمه الله تعالى: «هو ذِكْرٌ يُعَظِّم اللهُ تعالى به لا يصلح إِلا له».

وأَما ما ذِكْرَهُ في قول الشاعر.

«سبحان من علقمة الفاخر».

فعلى سبيل الشذوذ.

صاحب النَّظْم[1]: «السَّبْح ـ في اللغة ـ التباعد، يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً﴾ [المزمل ٧]، أَي تباعداً طويلاً. فمعنى سبح الله تعالى بعده عما لا ينبغي. وللتسبيح مَعَانٍ أُخَر ذكرتُها في كتاب: القول الجامع الوجيز الخادم للقرآن العزيز.

الإِمام موفق الدين بن يعيش رحمه الله تعالى في شرح المُفَصَّل: «اعلم أَنهم قد عَلَّقوا الأَعلام على المعاني فأَطلقوها على الأَعيان، فمن ذلك قولهم: سبحان، وهو عندنا عَلَمٌ واقِعٌ على معنى التسبيح، وهو مصدر معناه البراءة والتنزيه وليس منه فِعْل، وإِنما هو واقع التسبيح الذي هو المصدر في الحقيقة، جُعِل عَلَماً على هذا المعنى فهو معرفة لذلك، ولا ينصرف للتعريف وزيادة الأَلف والنون. وأَما قول الشاعر: «سُبْحَانَهُ ثم سُبْحَاناً يعود له»، ففي تنوينه وجهان: أَن يكون ضرورة، والثاني: أَن يكون أَراد الفكرة».

الضياء بن العِلْج رحمه الله، في البسيط: «لفظ المصدر لأَنه مصدر سَبَّح إِذا قال: سبحان الله، ومدلول سبحان التنزيه لا اللفظ».

قلنا: التسبيح بمعنى التنزيه أَيضاً لأَن معنى سَبَّحْتُ نَزَّهْتُ الله تعالى، فتطابقا حينئذٍ على معنى التنزيه، فصَحَّ تعليق سبحان على التسبيح، واستعماله عَلَماً قليل، وأَكثر استعماله مُضَافاً اما إِلى فاعله أَو إِلى مفعوله. فإِذا أُضيف فليس بعَلَم لأَن الأَعلام لا تُضَاف.

قال: وقيل «سبحان» في البيت مضاف حُذِف المضاف إِليه للعلم به وليس بعلم».

---

(١) أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني القاضي بجرجان ثم بالري ذكره الشيخ أبو إسحاق في طبقاته فقال: كان فقيهاً أديباً شاعراً وفيه يقول الصاحب بن عباد:

إذا نحن سلمنا لك العلم كله فدع هذه الألفاظ ننظم شذورها

انظر شذرات الذهب ٥٦/٣، ٥٧.

أبو عمرو بن الحاجب[1] رحمه الله تعالى في أماليه: «الدليل على أن سبحان عَلَم للتسبيح قول الشاعر:

قَدْ قُلْتُ لَـمَّا جَاءَنِي فَخْرُهُ ... سُبْحَانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الْفَاخِرِ[2]

ولولا أنه عَلَم لوجب صَرْفُه لأن الألف والنون في غير الصفات إنما تمنع مع العَلَمية».

الشهاب السمين رحمه الله تعالى في إعرابه: «قيل هو مصدر لأنه سُمِع له فِعْلٌ ثلاثي، وهو من الأسماء اللازمة للإضافة. وقد يُفْرَد، وإذا أُفْرِد مُنِع من الصرف للتعريف، وزيادة الألف والنون كما في البيت السابق. وقد جاء مُنوَّناً كقوله:

سُبْحَانَهُ ثُمَّ سُبْحَاناً يَعُودُ لَهُ ... وَقَبْلَنَا سَبَّحَ الجُودِيُّ وَالْجُمُدُ[3]

فقيل ضرورة وقيل هو بمنزلة قبل وبعد، إن نوى تعريفه بقي على حاله، وإن نُكِّر أُعْرِب، منصرفاً. وهذا البيت يساعد على كونه مصدراً لا اسم مصدر لوروده منصرفاً. ولقائل القول الأول أن يجيب عنه بأن هذا نكرة لا معرفة. وهو من الأسماء اللازمة النصب على المصدرية فلا تنصرف. والناصب له فِعْلٌ مُقَدَّر لا يجوز إظهاره».

أبو شامة رحمه الله: «حيث جاء منصوباً نصب المفعول المطلق اللازم إضمار فعله، وفعله إما فعل أَمْر أو خَبَر. وهو في هذه السورة مُحْتَمِلٌ للأمرَيْن أي سَبِّحوا الذي أسرى بعبده أو سُبِّح الذي أسرى بعبده، على أن يكون إبتداء ثناء الله تعالى على نفسه كقول (الحمد لله رب العالمين)».

القرطبي رحمه الله تعالى: «العامل فيه على مذهب سيبويه الفِعْل الذي من معناه لا من لفظه إذ لم يجئ من لفظه فِعْل، وذلك مثل قعد القُرْفُصَاء واشتمل الصَّمَّاء. فالتقدير عنده أُنَزِّه الله تعالى تنزيهاً، فوقع «سبحان الله» مكان[4] قولك تنزيهاً». انتهى.

الزمخشري رحمه الله تعالى: «سُبْحَانَ عَلَمٌ للتسبيح كعثمان لرجل وانتصابه بفِعْل

---

(١) عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس، أبو عمرو جمال الدين بن الحاجب: فقيه مالكي، من كبار العلماء بالعربية، كردي الأصل. ولد في أسنا (من صعيد مصر) ونشأ في القاهرة، وسكن دمشق، ومات بالإسكندرية سنة ٦٤٦ هـ. وكان أبوه حاجباً فعُرِف به. من تصانيفه «الكافية» في النحو، و«الشافية» في الصَّرْف، و «منتهى السول والأمل في علمي الأصول والجدل». انظر الأعلام ٢١١/٤ .

(٢) البيت للأعشى ويروى

أقولُ لما جاءني فخره ... سُبحان من علقمة الفاخر

انظر لسان العرب ١٩١٤/٢.

(٣) البيت لأمية بن أبي الصَّلْت انظر اللسان ١٩١٥/٢

(٤) في أ: فهو بمنزلة.

مُضْمَر [متروك إظهاره، تقديره] أُسَبِّحُ الله سبحان. ثم نزل منزلة الفعل فَسَدَّ مَسَدَّه ودَلَّ على التنزيه البليغ من جميع القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله».

الطيبي رحمه الله تعالى: «وذلك في جلب هذا المصدر في أصل هذا التركيب للتوكيد، وهو أُسَبِّح تسبيحاً ثم أسبح سبحان، ثم في حذف العامل وإقامته مقامه للدلالة على أن المقصود بالذات هو المصدر، والفعل تابع، فيفيد الإخبار بسرعة وجود التنزيه».

ورُوِي عن الكسائي أنه جُعِل مُنَادى تقديره يا سبحانك، وأباه الجمهور.

السفاقسي والسمين[1]: «ورُدَّ بأنه لم يُسْمع دخول حرف النداء عليه، وزعم بعضهم أن لفظه لفظ التثنية ومعناه كذلك كَلَبَّيْك. وهو غريب. ويلزمه أن يكون مُفْرَدُه سُبْحاً وألا يكون منصوباً بل مرفوعاً، وأن نونه لم تسقط بالإضافة وأن فتحها يلزم».

ومن الغرائب أيضاً ما حكاه الماوردي عن أبان بن تَغْلِب ـ بالمثناة الفوقية والغين المعجمة ـ أَنَّ سبحان كلمة أصلها بالنبطية «شبهانك» فعُرِّبَت «سبحانك». والذي أُضيف إلى سبحان مفعول به لأنه المُسَبَّح، ويجوز أن يكون فاعلاً لأن المعنى تنزه الذي أسرى بعبده.

الخامس: في الكلام على «أَسْرَى»:

البرهان النسفي: قال أهل اللغة: أَسْرَى وسرى لغتان. زاد غيره: يختصان بسَيْر الليل.

السمين: فيكون سَرَى وأَسْرَى كسقى وأسقى. والهمزة هنا ليست للتعدية، خِلافاً لابن عطية، وإنما المُعَدِّي الباء في «بعبده». وتقدم في البقرة أنها لا تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول عند الجمهور، خلافاً للمبرد. وبسط الكلام على ذلك هنا وفي البقرة.

السفاقسي: الباء للتعدية وترادف الهمزة عند الجمهور خلافاً للمبرد والسهيلي في أنها تقتضي مصاحبة الفاعل للمفعول في الفعل بخلاف الهمزة حتى قال السهيلي: إذ قلت قَعَدْتُ به فلا بُدَّ من مشاركة ولو باليد. ورُدَّ عليهما بالآية: ﴿ذَهَبَ اللهُ بنورهم﴾ [البقرة ١٧] لأن الله لا يوصف بالذهاب مع النور. ورُدَّ عليهما أيضاً بقول الشاعر:

---

(١) أحمد بن يوسف بن محمد، وقيل: عبد الدائم، العلامة شهاب الدين أبو العباس الحلبي ثم المصري، النحوي المقرئ الفقيه، المعروف بابن السمين. قرأ النحو على أبي حيان، والقراءات على ابن الصائغ، وسمع وولي تصدير إقراء النحو بالجامع الطولوني، وأعاد بالشافعي، وناب في الحكم بالقاهرة، وولي نظر الأوقاف بها، وصنف تصانيف حسنة، منها تفسير القرآن مطول، وقد بقي منه أوراق قلائل، قال الحسيني: في عشرين سفراً، وإعراب القرآن سماه الدر المصون في أربعة أجزاء، ومادته فيه من تفسير شيخه أبي حيان إلا أنه زاد عليه، وناقشه في مواضع مناقشة حسنة وقد قمنا بتحقيقه، وأحكام القرآن وشرح التسهيل شرحاً مختصراً من شرح أبي حيان، وشرح الشاطبية. قال الإسنوي: كان فقيهاً بارعاً في النحو، والتفسير، وعلم القراءة، ويتكلم في الأصول خيراً ديناً. توفي في جمادى الآخرة، وقيل: في شعبان سنة ست وخمسين وسبعمائة بالقاهرة. ابن قاضي شهبة ١٨١٣.

دِيارُ الَّتي كَانَتْ وَنَحْنُ عَلَى مِنىً   تَحُلُّ بِنَا لَوْلاَ نَجَاءُ الرَّكَائِبِ[١]

أَي تحلنا فالباء هنا للتعدية، ولم تَقْتَضِ المشاركة لأن الديار لم تكن حراماً فتصير حلالاً، ولكون الباء بمعنى الهمزة لا يُجْمَع بينهما، فلا يُقال أَذْهَبْتُ بزيد.

وَجَزَمَ ابن دِحْيَة ـ بفتح الدال وكسرها ـ وابن المنير، بما قاله المُبَرّد فقالا: «يُؤْخَذ من قوله: «أَسْرَى بعبده» ما لا يُؤْخَذ إن قيل: بَعَثَ إلى عبده، لأن الباء تفيد المصاحبة، أَي صَحِبَهُ في مَسْرَاه بالإلطاف والعناية والإسعاف». زاد ابن دحية: «ويشهد لذلك قوله ﷺ: «اللهم أنت الصاحب في السفر».

ويؤخذ من ذلك أن من قال: لله عَلَيَّ أن أَحُجَّ بفلان، يلزمه الحَجّ معه، بخلاف ما لو قال: للهِ عليَّ أن أُحِجَّ فلانا، فإنه يلزمه أن يُجَهِّزه للحج من ماله. والفرق بين الصورتين ما تعطيه الباء من المصاحبة». انتهى. وتقدم رَدُّ ذلك.

الحافظ: «أَسْرَى مأخوذ من السُّرَى وهو سَيْر الليل، فقول العرب أَسرى وسرى إذا سار ليلاً، هذا قول الأكثر».

وقال الحوفي: أَسرى سار ليلاً، وسرى سار نهاراً».

قال الحافظ في موضع آخر: «وقيل أَسرى سار من أَول الليل، وسرى سار من آخره» وهذا أَقرب. ولم يختلف القراء في أَسْرَى، بخلاف قوله تعالى في قصة لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود ٨١]. فقُرِئت بالوصل والقطع، وفيه تعقيب على من قال من أَهل اللغة: إن أسرى وسرى بمعنى.

قال السهيلي: «السُّرى من سَرَيْتُ إذا سِرْتُ ليلاً، يعني فهو لازم. والإسراء يتعدى في المعنى، لكن حُذِف مفعوله حتى ظَنَّ من ظَنَّ أنهما بمعنى واحد، وإنما معنى «أَسرى بعبده»، جعل البراق يُسْرِي به، كما تقول: أَمْضَيْتُ كذا أَي جعلتُه يَمْضي، لكن حُذِف المفعول لقوة الدلالة عليه، والاستغناء عن ذِكْرِه، إذ المقصود بالذكر المصطفى لا الدابة التي سارت به. وأَما قصة لوط فالمعنى: سِرْ بهم على ما يتحملون عليه من دابة ونحوها، هذا معنى قراءة القطع. ومعنى الوصل: سِرْ بهم ليلاً، ولم يأت مثل ذلك في الإسراء، إلا أَنه لا يجوز أن يُقال: «سَرَى بعبده» بوجه من الوجوه».

قال الحافظ والنسفي: «الذي جزم به هو من هذه الحيثية التي قَصَر فيها الإشارة إلى أنه سار ليلاً على البُرَاق. والآن لو قال قائل: سِرْتُ بزيد بِمَعْنَى صاحبته لكان المعنى صحيحاً.

---

(١) البيت لقيس بن الخطيم انظر اللسان ٩٧٢/١ .

السادس: في الكلام على العبد:

أَجمع المسلمون على أَن المراد بالعبد هنا سيدنا محمد رسول الله ﷺ، وهو لُغَةً المملوك من نوع مَنْ يَعْقِل. قال في المُحْكَم: «العَبْدُ الإِنسانُ حُرّاً كان أَو رقيقاً، لأَنه مملوك لبارئه». وقال غيره: «إِنه مُشْتَقٌّ من التَّعَبُّد وهو التَّذَلُّل».

قال ابن الأَنباري: «العبد الخاضع لله من قولهم: طريق مُعَبَّد إِذا كان قد وَطِئَها الناس».

وللإِمام جمال الدين بن مالك[1] بيتان في جموع عَبْد، وذَيَّل الشيخ رحمة الله عليهما بمثلهما ووَطَّأَ قبلهما ببيت، فقال:

جُمُوعٌ لِعَبْدٍ لابْنِ مَالِكٍ نَظْمُهَا ... وَزِدْتُ عَلَيْهَا مِثْلَهَا فَاسْتَفِدْ وَجُدْ
عِبَادٌ عَبِيدٌ جَمْعُ عَبْدٍ وَأَعْبُدٍ ... أَعَابِدُ مَعْبُوداً مُعَبَّدَةٍ عُبُدْ
كَذَلِكَ عُبْدَانٌ وعِبِدَّانُ أُثْبِتَا ... كَذَاكَ العِبِدَّى وَامْدُدْ اَنْ شِئْتَ أَنْ تَمُدْ
وَقَدْ زِيدَ أَعْبَادٌ عُبُودٌ عِبِدَّةٌ ... وخَفِّفْ بِفَتْحٍ وَالعِبِدَّانِ إِنْ تَشُدْ
وأَعْبِدَةٌ عَبْدُونَ ثُمَّتَ بَعْدَهَا ... عَبِيدُونَ مَعْبُوداً بِقَصْرٍ فَخُذْ تَسُدْ

الإِسنوي[2] رحمه الله تعالى: «قال سيبويه: العبد في الأَصل صفة، ولكنه استُعْمِل استعمال الأَسماء».

الشيخ زكريا[3] رحمه الله تعالى في فتح الرحمن «قال تعالى: ﴿بِعَبْدِهِ﴾ دون نبيه أَو حبيبه لئلا تُضِلَّ أُمته أَو لأَن وصفه بالعبودية المضافة إِلى الله تعالى أَشرف المقامات».

---

(١) محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجيّاني، أبو عبد الله، جمال الدين: أحد الأئمة في علوم العربية. ولد في جيان (بالأندلس) وانتقل إلى دمشق فتوفي فيها. أشهر كتبه «الألفية» في النحو، وله «تسهيل الفوائد»، و «شرحه له» توفي سنة ٦٧٢هـ. الأعلام ٢٣٣/٦، بُغْيَةُ الوُعَاةِ ٥٣، وغاية النهاية ١٨٠/٢.

(٢) عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر بن علي بن إبراهيم، الإمام العلامة، منقح الألفاظ، محقق المعاني، ذو التصانيف المشهورة المفيدة، جمال الدين أبو محمد القرشي، الأموي، الإسنوي المصري. ولد بإسنا في رجب سنة أربع وسبعمائة، وقدم القاهرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة، وسمع الحديث، واشتغل في أنواع من العلوم، توفي فجأة في جمادى الآخرة سنة اثنتين وسبعين وسبعمائة، ودفن بتربته بقرب مقابر الصوفية. ومن تصانيفه: جواهر البحرين في تناقض الحبرين والتنقيح على التصحيح ـ وشرح المنهاج للبيضاوي وهو أحسن شروحه وأنفعها ـ والهداية في أوهام الكفاية ـ والمهمات ـ والتمهيد ـ وطبقات الفقهاء ـ وطراز المحافل في ألغاز المسائل ـ ومن تصانيفه أيضاً: كافي المحتاج في شرح منهاج النووي. انظر الطَّبقات لابن قاضي شهبة ٩٨/٣، ٩٩، ١٠٠، والبدر الطالع ٣٥٢/١، والعقد المذهب لابن الملقن ٢٨٧، والأعلام ١١٩/٤، وشذرات الذهب ٢٢٤/٦.

(٣) زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، أبو يحيى: شيخ الإسلام. قاض مفسر، من حفاظ الحديث. ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة وكف بصره سنة ٩٠٦هـ. نشأ فقيراً معدماً، له تصانيف كثيرة منها «فتح الرحمن في التفسير»، و «تحفة الباري على صحيح البخاري» و «فتح الجليل» تعليق على تفسير البيضاوي، و «شرح إيساغوجي» في المنطق، و «شرح ألفية العراقي» في مصطلح الحديث، و «شرح شذور الذهب» في النحو، و «تحفة نجباء العصر». توفي سنة ٩٢٦هـ. الأعلام ٤٦/٣.

الأُستاذ أَبو علي الدَّقَّاق(١) رحمه الله تعالى: «ليس للمؤمن صفة أَتَمّ ولا أَشرف من العبودية، ولهذا أَطلقها الله تعالى على نبيه في أَشرف المواطن، كقوله: ﴿سُبْحَانَ الذي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء ١]، ﴿الحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنْزَلَ على عَبْدِهِ الكتاب﴾ [الكهف ١]، ﴿فَأَوْحَى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحَى﴾ [النجم ١٠]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ على عَبْدِهِ﴾ [الفرقان ١].

الشيخ عبد الباسط البلقيني رحمه الله: «ومن هنا يؤخذ الجواب عن وصفه ﷺ بذلك ووصف يحيى عليه السلام بالسيادة في قوله تعالى: ﴿وسَيِّداً، وَحَصُوراً﴾ [آل عمران ٣٩].

الأُستاذ أَبو القاسم القشيري(٢) رحمه الله: «في معناه أَنشدوا:

يَا قَوْمِ قَلْبِي عِنْدَ زَهْرَاءَ ... يَعْرِفُهُ السَّامِعُ وَالرَّائِي

لاَ تَدْعُنِي إِلاَّ بِيَا عَبْدَهَا ... فَإِنَّهُ أَشْرَفُ أَسْمَائِي»

العَوْفِي رحمه الله: «والسبب في ذلك أَن الإِلٰهية والسيادة والربوبية إِنما هي في الحقيقة لله عز وجلّ لا غير. والعبودية في الحقيقة لمن دونه. فإذا كان في مقام العبودية فهو في رتبته الحقيقية، والرتبة الحقيقية أَشرف المراتب إِذ ليس بعد الحقيقة إِلا المجاز، ولا بعد الحق إِلا الضلال».

البرهان النسفي رحمه الله: «قيل لما وصل النبي ﷺ إلى الدرجات العالية والمراتب الرفيعة في المِعْراج، أَوحى الله تعالى إليه: يا محمد أشرفك؟. قال: يا رَبِّ تنسبني إِلى نفسك بالعبودية، فأنزل الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ الآية.

وأَقوال القوم في العبد والعبودية كثيرة، والأَلفاظ مختلفة معانيها، وكل أَحد يتكلم

---

(١) الحسين بن علي بن محمد، الأستاذ أبو الدقاق النيسابوري، الزاهد العارف، شيخ الصوفية. تفقه بمرو عند الخضري، وأعاد عند القفال وبرع في الفقه، ثم سلك طريق الصوفية، وصحب الأستاذ أبا القاسم النصراباذي، وأخذ الطريقة عنه، وزاد عليه حالاً ومقالاً، واشتهر ذكره في الآفاق، وانتفع به الخلق، ومنهم أبو القاسم القشيري صاحب الرسالة، وحكى عنه أحوالاً وكرامات. مات في ذي الحجة سنة ست وأربعمائة، وقيل: سنة خمس. انظر طبقات ابن قاضي شهبة ١٧٨/١.

(٢) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة بن محمد، الأستاذ أبو القاسم القشيري النيسابوري. أحد العلماء بالشريعة والحقيقة. أخذ الطريقة عن الشيخ أبي علي الدقاق وأبي عبد الرحمن السلمي، ودرس الفقه على أبي بكر الطوسي حتى فرغ من التعليق وقرأ الكلام على أبي بكر بن فورك وأبي إسحاق الاسفراييني وبرع في ذلك، وحج مع البيهقي وأبي محمد الجويني. ذكره الخطيب البغدادي ومات قبله، وقال: كتبنا عنه وكان ثقة، وكان يقص، وكان حسن الموعظة، مليح الإشارة، وكان يعرف الأصول على مذهب الأشعري والفروع على مذهب الشافعي. وقال ابن السمعاني: لم ير أبو القاسم مثل نفسه في كماله وبراعته، جمع بين الشريعة والحقيقة. وقال ابن خلكان: صنف أبو القاسم التفسير الكبير، وهو من أجود التفاسير، وصنف الرسالة في رجال الطريقة، وذكر له الذهبي مصنفات أخر. ولد في ربيع الأول سنة ست وسبعين وثلاثمائة، وتوفي في ربيع الآخر سنة خمس وستين وأربعمائة عن تسع وثمانين سنة، ودفن إلى جانب أستاذه أبي علي بالمدرسة. ابن قاضي شهبة ٢٥٤/١١.

بلسان حاله على قدر مقامه، فقال أَبو حفص النيسابوري رحمه الله: «العبد هو القائم إِلى أَوامر سيده على حَدّ النشاط حيث جعله محل أَمره».

ابن عطاء[1] رحمه الله: «العَبْد الذي لا مِلْك له».

الجَريري ـ بفتح الجيم ـ: «حقيقة العبد هو الذي يَتَخَلَّق بأخلاق رَبّه».

رُوَيْم رحمه الله تعالى: «يتحقق العبد بالعبودية إِذا أَسلم القياد من نفسه وتَبَرَّأَ من حوله وقوته، وعلم أَن الكل له وبه».

عبد الله بن محمد رحمه الله: «حُزْتَ صِفَةَ العبودية إِن كنتَ لا ترى لنفسك مِلْكاً، وتعلم أَنك لا تملك لها نفعاً ولا ضراً. ورحم الله من قال:

وَكُنتُ قَدِيماً أَطْلُبُ الوَصْلَ مِنْهُمْ   فَلَمَّا أَتَانِي الْحِلْمُ وَارْتَفَعَ الْجَهْلُ
تَيَقَّنْتُ أَنَّ الْعَبْدَ لاَ مَطْلَبَ لَهُ   فَإِنْ قَرَّبُوا فَضْلٌ وَإِنْ أَبْعَدُوا عَدْلُ
وَإِنْ أَظْهَرُوا لَمْ يُظْهِرُوا غَيْرَ وَصْفِهِمْ   وَإِنْ سَتَرُوا فَالسَّتْرُ مِنْ أَجْلِهِمْ يَحْلُو

الإمام الرازي رحمه الله، دل قوله بعبده على أن الإسراء كان بجسد رسول الله ﷺ، لأَن العبد اسم للجسد والروح، قال تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى، عَبْداً إِذا صَلَّى﴾ [العلق: ٩، ١٠].

السابع: في الكلام على قوله تعالى: «لَيلاً».

الحافظ رحمه الله تعالى: «ليلاً ظرف للإسراء وهو للتأكيد، وفائدتُه رَفْع تَوَهُّم المجاز، لأَنه قد يُطْلَق على سَيْر النهار أَيضاً، ويُقَال بل هو إِشارة إِلى أَن ذلك وقع في بعض الليل لا في جميعه، والعرب تقول: سَرَى فلان ليلاً إِذا سار بَعْضَه، وسَرَى في ليلة إِذا سار في جميعها. ولا يقال أَسرى ليلاً إِلا إِذا وقع سَيْرُه في أَثناءِ الليل، وإِذا وقع في أَوله يقال أَدْلَجَ، ومن هذا قوله تعالى في قصة موسى وبني إِسرائيل: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيلاً﴾ [الدخان: ٢٣]، أَي من وَسَط الليل».

أَبو شامة رحمه الله تعالى: إِنما نُسِب السُّرَى إِلى الليل لما كان السُّرَى واقعاً فيه كقوله تعالى: ﴿والنَّهَارَ مُبْصِراً﴾ [يونس: ٦٧]، أَي يُبْصَر فيه، فهو من باب قوله: «لَيْلٌ نائم وساهر، أَي يحصل فيه النوم والسَّهَر، وهذا باب من أَبواب المجاز معروف».

---

(١) أحمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو الفضل تاج الدين، ابن عطاء الله الإسكندري: متصوف شاذلي، من العلماء. كان من أشد خصوم شيخ الإسلام ابن تيمية. له تصانيف منها «الحكم العطائية ـ ط» في التصوف، و «تاج العروس ـ ط» في الوصايا والعظات، و «لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن ـ ط» توفي بالقاهرة. وينسب إليه كتاب «مفتاح الفلاح» وليس من تأليفه.

واستشكل كثير من الناس كون «ليلاً» ظرفاً للإسراء. ووجه الإشكال أنه قد تَقَدَّم أن الإسراء هو سَيْرُ الليل، فإذا أُطْلِق الإسراء فُهِمَ أنه واقعٌ ليلاً، فهو كالصَّبُوح في شُرْب الصباح، لا يحتاج إلى قوله: شَرِبْتُ الصَّبُوحَ صباحاً.

وجوابه أن الأمر وإن كان كذلك إلا أن العرب تفعل مثل ذلك في بعض الأوقات إذا أرادت تأكيد الأُمور. والتأكيد نَوْعٌ من أنواع كلامهم وأُسلوبٌ منه. والعرب تقول: أخذ بيده، وقال بلسانه. وفي القرآن العزيز: ﴿وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم﴾ [آل عمران: ١٦٧]، ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٢٦]، وقال جرير:

سَرَى نَحْوَهَا لَيلاً كَأَنَّ نُجُومَه   قَنَادِيلُ فِيهِنَّ الذُّبَالُ المُفَتَّلُ[1]

الذُّبال: جمع ذُبَالة ـ بضمّ الذال المعجمة وهي الفتيلة.

الجوهري[2]: «وإنما قال ليلاً، وإن كان السُّرَى لا يكون إلا بالليل للتأكيد، كقولهم: سِرْتُ أمس نهاراً والبارحة ليلاً.

الزمخشري: [فإن قلتَ الإسراء لا يكون إلا بالليل فما معنى ذِكْرِ الليل؟ قلت]: أراد بقوله ليلاً بلفظ التنكير تقليل مدة الإسراء وأنه وقع السُّرَى في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة أربعين ليلة، وذلك أن التنكير فيه قد دَلَّ على معنى البعضية، ويشهد لذلك قراءة عبد الله وحُذَيْفَة «من الليل» أي بعض الليل كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩] يعني الأمر بقيام الليل في بعض الليل.

قال أبو شامة: «وهذا الوجه لا بأس به، وقد زاد شيخنا أبو الحسن ـ يعني السخاوي في تفسيره أيضاً وتقريراً، فقال: وإنما قال: «ليلاً»، والإسراء لا يكون إلا بالليل، لأن المدة التي أُسْرِيَ به فيها لا تُقْطَع في أقل من أربعين يوماً، فقُطِعَت به في ليل واحد المعنى سبحان الذي أسرى بعبده في ليل واحد من كذا إلى كذا، وهو موضع التعجب». قال: «وإنما عُدِل عن لَيْلةٍ إلى ليل، لأنهم إذا قالوا: سَرَى ليلةً، كان ذلك في الغالب لاستيعاب الليلة، فقيل: ليلاً أي في ليل».

وَتَعَقَّب صاحب الفوائد كلام الزمخشري بكلام تَعَقَّبه فيه الطيبي، ثم قال الطيبي:

---

(١) انظر ديوان جرير (٣٤٣).

(٢) إسماعيل بن حماد الجوهري، أبو نصر. لغويّ، من الأئمة. وخطه يذكر مع خط ابن مقلة. أشهر كتبه «الصحاح» ـ وله كتاب في «العروض» ومقدمة في «النحو» أصله من فاراب، ودخل العراق صغيراً، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية، وعاد إلى خراسان، ثم أقام في نيسابور.. توفي ٣٩٣هـ الأعلام ٣١٣/١.

«ويمكن أن يراد بالتنكير التعظيم والتفخيم، والمقام يقتضيه، ألا ترى كيف افْتُتِحت السورة بالكلمة المُنَبِّهَة عنه؟ ثم وصف المُسْرَى به بالعبودية، ثم أردف تعظيم المكانين بالحرام وبالبركة لِمَا حَوْلَه، يُعَظِّم الزمان ثم يُعَظِّم الآيات بإضافتها إلى صيغة التعظيم، وَجَمْعَهَا لتشمل جميع أنواع الآيات، وكُلُّ ذلك شاهِدُ صِدْق على ما نحن بصدده، والمعنى ما أَعْظَمَ شأن مَنْ أُسْرِي [به] مِمّن حُقِّق له مقام العبودية، وصُحِّح له استنهاله للعناية السرمدية ليلاً، أي ليل له شأن جليل.

ابن المنير رحمه الله تعالى: «وإنما كان الإسراء ليلاً لأنه وقت الخَلْوَة والاختصاص عُرْفاً، ولأنه وقت الصلاة التي كانت مفروضة عليه في قوله تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ٢] وليكون أَبْلَغَ للمؤمن في الإيمان بالغيب، وفِتْنَةً للكافر».

ابن دحية رحمه الله: «كرم الله نبينا ﷺ ليلاً بأمور منها: انشقاق القمر، وإيمان الجِنّ به، ورأى أصحابُه نيرانَهم، كما في صحيح مسلم، وخرج إلى الغار ليلاً. والليل أصل، ولهذا كان أول الشهور، وسوادُه يجمع ضَوْء البَصَر، ويُحِدّ كليلَ النَّظَر، ويُسْتَلَذُّ فيه بالسَّمَر. وكان أكثر أسفاره ليلاً. وقال عليه الصلاة والسلام: «عليكم ـ بالدُّلْجَة فإن الأرض تُطْوَى بالليل». والليل وقت الاجتهاد للعبادة. وكان ﷺ يقوم حتى تَوَرَّمت قدماه. وكان قيام الليل في حَقِّه واجباً، فلما كانت عبادته ليلاً أُكْرِم بالإسراء [به] فيه ليكون أَجْرُ المُصَدِّق به أكثر، ليدخل نيمن آمن بالغَيْب دون من عاينه نهاراً، وقَدَّم الحَقُّ تبارك وتعالى اللَّيْلَ في كتابه على ذِكْر النهار، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢]، ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُوراً﴾ [الفرقان: ٦٢] إلى غير ذلك من الآيات».

وصَحَّ أنه ﷺ قال: «يَنْزِل رَبُّنَا تَبَارَكَ وتعالى كُلَّ لَيْلَةٍ إلى السَّماءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُول: مَنْ يَدْعُونِي فأَستجيب له، مَنْ يَسْأَلُنِي فأُعْطِيه، ومن يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِر له»، الحديث(١).

وهذ الخَصِيصة لم تُجْعَل للنهار، نَبَّه بها ﷺ لِمَا في ذلك الوقت من الليل من سَعَة الرحمة ومضاعفة الأجر وتعجيل الإجابة، ولإبطال كلام الفلاسفة أن الظُّلْمَة من شأنها الإهانة والشَّرّ، لأن الله تعالى أكرم أقواماً في الليل بأنواع الكرامات كقوله في قصة إبراهيم ﷺ: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ [الأنعام: ٧٦] الآية. وفي لفظ بقوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِن

(١) أخرجه البخاري ٦٦/٢ (دار الفكر) ومسلم ٥٢١/١ (١٦٨ـ ٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥ـ ٤٧٣٣) وابن ماجه (١٣٦٦) والبيهقي في السنن ٢/٣

اللَّيْلِ﴾ [هود: ٨١]. وفي موسى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسى ثلاثين لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] وناجاه ليلاً، وأمره بإخراج أهله ليلاً.

بعض أَهل الإشارات: «لما محا الله آية الليل، ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] انكسر الليل، فَجُبِرَ بأَن أُسْرِيَ فيه بمحمد ﷺ». انتهى.

أَبو أُمامة بن النَّقَّاش رحمه الله: «ليلة الإسراء أَفضل من ليلة القَدْر في حق النبي ﷺ، وليلة القَدْر أَفضل في حق الأُمة، لأَنها لهم خَيْرٌ من عَمَلٍ أَكثر من ثمانين سنة ممن كان قبلهم. وأَما ليلة الإِسراء فلم يأْتِ في أَرجحية العمل فيها حديث صحيح ولا ضعيف، ولذلك لم يُعَيِّنها النبي ﷺ».

ويؤخذ من قول الإمام البلقيني رحمه الله في قصيدته التي مدح فيها النبي ﷺ :

أَوْلاكَ رُؤْيَتَهُ فـي لَـيْلَـةٍ فَـضُـلَـتْ ... لَيَالِيَ القَدْرِ فِيهَا الرَّبُّ أَرْضَاكَا

أَن ليلة الإِسراء أَفضل من ليلة القَدْر.

قال في الاصطفاء: «ولعل الحكمة في ذلك اشتمالها على رؤيته تعالى التي هي أَفضل كل شيء، ولذا لم يجعلها ثواباً عن عمل من الأَعمال مطلقاً، بل مَنَّ بها على عباده المؤمنين يوم القيامة تفضُّلاً منه تعالى.

تنبيه: اختُلِف هل الليل أَفضل من النهار؟ فَرَجَّح كُلاًّ مُرَجِّحون. وقد أَلَّف الإِمام أَبو الحسين بن فارس(١) اللغوي كتاباً في التفضيل بينهما فذكر وجوهاً في تفضيل هذا ووجوهاً في تفضيل هذا.

الثامن: في الكلام على قوله تعالى (مِنَ المَسْجِدِ الحرام):.

«مِنْ» ههنا لابتداءِ الغاية.

الزركشي رحمه الله في كتابه: «إِعلام الساجد بأَحكام المساجد»: المَسْجِد لُغَةً مَفْعِل بالكسر اسم لمكان السجود وبالفتح اسم للمصدر».

---

(١) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: من أئمة اللغة والأدب. قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان. أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الريّ فتوفي فيها سنة ٣٩٥هـ، وإليها نسبته. من تصانيفه «مقاييس اللغة ـ ط» «المجمل»، و «الصاحبيّ» في علم العربية، ألفه لخزانة الصاحب بن عباد، و «جامع التأويل» في تفسير القرآن، أربعة مجلدات، و «النيروز»، و «الإتباع والمزاوجة» و «الحماسة المحدثة» و«الفصيح» و«تمام الفصيح» و «متخير الألفاظ» و «ذمّ الخطأ في الشعر» و «اللامات» و «أوجز السير لخير البشر» الأعلام ١/١٩٣.

قال أبو زكريا الفَرّاء(١): «كل ما كان على فَعَل يَفْعُل كدَخَل يَدْخُل، فالمَفْعِل منه بالفتح إسماً كان أو مصدراً، فلا يقع فيه الفرق مثل دَخَل مَدْخَلاً. ومن الأسماء ما ألزموها كسْرَ العين منها: المَسْجِد والمَطْلِع والمَغْرِب والمَشْرِق وغيرها، فجعلوا الكَسْر علامةً للاسم، وربما فتحه بعض العرب. وقد رُوِيَ المَسْجِد المَسْجَد والمَطْلِع المَطْلَع».

قال: «والفتح في كله جائز وإن لم نسمعه».

قال في الصحاح: «والمَسْجَدَ بالفتح جبهة الرجل حيث يصيبه السجود.

وقال أبو حَفْص الصِّقلي ـ بفتحتين ـ في كتاب تثقيف اللسان «ويقال مسجد بفتح الميم، حكاه غير واحد، فتحصلنا فيه على ثلاث لغات».

والمِسْجَد بكسر الميم الخُمْرة بضم الخاء المعجمة وهي الحصير الصغير، قاله العسكري.

وأما عرفاً فكل موضع من الأرض لقوله ﷺ: «جُعِلت ليَ الأرضُ مسْجِداً وطَهُوراً». قلتُ وسيأتي الكلام على هذا الحديث في الخصائص.

ولما كان السجود أشرف أفعال الصلاة لقُرْب العبد من ربّه اشتُقَّ اسم المكان منه، فقيل مَسْجِد، ولم يقولوا مَرْكِع. ثم إن العُرْف خَصَّص المَسْجِد بالمكان المُهَيّأ للصلوات الخمس حتى يخرج المُصَلَّى المُجْتَمَع فيه للأعياد ونحوها، فلا يُعْطَى حُكْمَه، وكذلك الرُّبُط والمدارس فإنها هُيِّئت لغير ذلك.

التاسع: في الكلام على قوله: الحرام.

أبو شامة: أصل الحرام المنع، ومنه البيت الحرام، وفلان حرام أي محرم وهو ضد الحلال، وذلك لما مُنِع منه المُحْرِم مما يجوز لغيره، ولِمَا مُنِع في الحرم مما يجوز في غيره من البلاد.

الماوردي رحمه الله في كتاب الجزية من حاويه: «كلُّ مَوْضِع ذَكَر اللهُ تعالى فيه المَسْجِدَ الحرام فالمراد به الحَرَم، إلا في قوله تعالى: ﴿ **فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ** ﴾ [البقرة: ١٤٤] فإنه أراد به الكعبة.

الحافظ رحمه الله تعالى: «لفظ المسجد الحرام في الأصل حقيقة الكعبة فقط، وهو

(١) يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، مولى بني أسد (أو بني منقر) أبو زكرياء، المعروف بالفراء: إمام الكوفيين، وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب. كان يقال: الفراء أمير المؤمنين في النحو. من كتبه «المقصور والممدود»، و «المذكر والمؤنث»، وكتاب «اللغات». واشتهر بالفراء، ولما مات وُجِدَ «كتابُ سيبويه» تحت رأسه فقيل: إنه كان يشيع خطأه وَيَتَعَمَّدُ مخالفته. توفي سنة ٢٠٧هـ انظر الأعلام ٨/١٤٥، ١٤٦. ووفيات الأعيان ٢/ ٢٨٨، وغاية النهاية ٢/٣٧١.

المَعْنِيُّ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وبقوله ﷺ لما سأله أبو ذَرّ عن أَول مسجد وُضِع في الأَرض فقال: «المسجد الحرام». واستعمله بعد ذلك في المسجد المحيط بالكعبة في قوله: «صلاةٌ في المسجد الحرام بكذا وكذا صلاة»، على وجه التغليب المجازي. وفي قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً من المَسْجِدِ الحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١] على قول من يقول المراد به مكة، لأَنه كان في بيت أم هانئ. وفي دور مكة والحرم حولها في قوله: «ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام». كل ذلك من باب التغليب المُسَوِّغ للمجاز المُتَوَسَّع فيه وإلا لَزِم الاشتراك في موضع لفظ المسجد الحرام، والمجاز أولى منه، وكيف يقال بالاشتراك؟ والفهم ما تبادر عند الإطلاق إلى الكعبة، أو إليها مع المسجد حولها، ولا يتبادر إلى مكة كلها إلا بقرينة». انتهى مُلَخَّصاً.

العاشر: في الكلام على الأقصى.

البرهان النسفي رحمه الله: «اتفقوا على أن المراد به مسجد بيت المقدس، وسُمِّيَ بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام».

الزمخشري رحمه الله: «سُمِّي الأقصى لأنه لم يكن وراءه مسجد».

الكفيل: فثبتَ له هذا النَّعْت وإن كان وراءه بعد[1] مساجد هي أقصى منه، لأن العَلَمية إذا أُثْبِتَتْ لسبب لم يَضُرّ زَوَالُ السبب».

ابن دحية رحمه الله: «وهو مَعْدِن الأنبياء من لدن الخليل ﷺ، ولذا جُمِعُوا له هناك كلهم، وأنهم في محلتهم ودارهم، ليدل ذلك على أنه الرئيس المُقَدَّم، والإمام الأعظم ﷺ».

أبو شامة: «هو بيت المقدس الذي عَمَرَهُ نَبِيُّ الله سليمان ﷺ بأمر الله عزَّ وجلَّ، وما زال مُكَرَّماً مُحْتَرَماً، وهو أحد المساجد الثلاثة التي لا تُشَدُّ الرِّحَالِ شرعاً إلا إليها، أي لا تقصد بالزيارة والتعظيم من جهة أمر الشارع إلا هذه الثلاثة. وكان أبعد مسجد عن أهل مكة أو من النبي ﷺ، والأقصى أفعل من القَصِيّ والقاصي هو البعيد».

ابن أبي جَمْرَة ـ بفتح الجيم وبالراء ـ رحمه الله: «والحكمة في إسرائه ﷺ أولاً إلى بيت المقدس، لإظهار الحق على من عاند، لأنه لو عُرِج به من مكة إلى السماء، لم يجد لمعاندة الأعداء سبيلاً إلى البيان والإيضاح. فلما ذكر أنه أسرى به إلى بيت المقدس سألوه عن أشياء من بيت المقدس كانوا رأوْها وعَلِموا أنه لم يكن رآها قبل ذلك. فلما أخبرهم بها

(١) في أ: كانت بعد وراءه

حصل التحقق بصدقه فيما ذكر من الإسراء به إلى بيت المقدس في ليلة. وإذا صَحَّ خَبَرُه في ذلك لَزِم تصديقه في بقية ما ذُكِرَ». انتهى.

وقيل: ليحصل له العروج مستوياً من غير تعويج لِمَا رُوِي عن كعب أن باب السماء الذي يقال له مَصْعَد الملائكة يقابل باب بيت المقدس، قال: وهو أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

الحافظ: «وفيه نظر. وقيل ليجمع بين القِبْلَتَيْن، لأن بيت المقدس كان هجرة غالب الأنبياء فحصل له الرحيل إليه في الجملة ليجمع بين أسباب الفضائل. وقيل لأنه محل الحَشْر، فأَراد الله تعالى أن تطأَه قَدَمُه ليسهل على أُمته يوم القيامة وقوفهم ببركة أَثر قدميه. وقيل أَراد الله سبحانه وتعالى أن يُرِيَه القبلة التي صلى إليها مدة، كما عُرِفت الكعبة التي صلى إليها. وقيل لأَنه مجمع أرواح الأنبياء فأَراد الله تعالى أن يُشَرِّفهم بزيارته ﷺ. وقيل لتفاؤل حصول التقدير له حِساًّ ومعنى.

ابن دحية: «ويحتمل أن يكون الحق سبحانه وتعالى أَراد ألاَّ يُخْلِيَ تربةً فاضلةً من مشهده وَوَطْءِ قَدَمَيْه، فتَمَّم تقديس بيت المقدس بصلاة سيدنا محمد فيه. فلما تمم تقديسه به، أخبر ﷺ أنه: لا تُشَدّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام لأنه مولده ومسقط رأسه وموضع نُبُوَّته، ومسجد المدينة، لأنه محل هجرته وأرض تربته، والمسجد الأَقْصَى، لأنه موضع معراجه ﷺ».

رموز الكنوز: «فإن قيل الإسراء والمِعراج كانا في ليلة واحدة، فَهَلاَّ أخبرهم تعالى بعروجه إلى السماء؟ قلت: استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً، فلما ظهرت أَمارات صدقه، وصَحَّت لهم براهين رسالته، واستأنسوا بتلك الآية الخارقة، أخبرهم بما هو أعظم منها وهو المعراج، فحدَّثَهم النبي ﷺ، وأنزل الله تعالى سورة النَّجم».

الإمام الرازي والبرهان: «اعلم أن كلمة «إلى» لانتهاء الغاية فمدلول قوله تعالى: ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ أنه وَصَل إلى ذلك المسجد، ولا دلالة في اللفظ على أنه دَخَل».

قلت: قال المحققون: إذا كانت «إلى» لانتهاء الغاية، فإن دَلَّت قرينة على دخول ما بعدها عُمَل بها، نحو قرأت القرآن من أَوَّله إلى آخره. فالقرينة هنا ذِكْرُ الآخر وجَعْلُه غاية. وقيل القرينة هي كون الكلام مسبوقاً لحفظ القرآن كله، وذلك مُنَافٍ لخروج الغاية، فَتَعَيَّن دخولُها، أو دَلَّت القرينة على خروج ما بعدها عُمِل بها نحو: ﴿أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]. والقرينة في آية الإسراء العِلْمُ لا يُسْرَى به إلى البيت المقدس ولا يدخله وصَرَّحَت السُّنَّة الصحيحة بما اقتضته القرينة من دخوله ﷺ بيت المقدس.

الحادي عشر: معنى قوله: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَه﴾:

الراغب رحمه الله: «البَرَكة ثبوت الخير الإلهي في الشيء، والمُبَارَك ما فيه ذلك الخير».

المصباح: «البركة الزيادة والنَّمَاء، وبَارَكَ الله تعالى فيه فهو مُبَارَك، والأصل مُبَارَك فيه».

الأُنموذج: فإن قيل: كيف قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، ولم يَقُل باركنا عليه أو فيه، مع أن البركة في المسجد تكون أكثر من خارج المَسْجِد وحَوْله، خصوصاً المسجد الأقْصَى؟ قلنا أراد البركة الدنيوية كالأنهار الجارية والأشجار المُثْمِرة، وذلك حوله لا فيه. وقيل أراد البركة الدينية فإنه مقر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومُتَعَبَّدهم وَمهبط الوحي والملائكَة. وإنما قال: ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهِ﴾، لتكون بركته أَعَمّ وأشمل، فإنه أراد بما حوله ما أحاط به من أرض الشام وما قاربه منها، وذلك أوسع من مقدار بيت المقدس، ولأنه إذا كان هو الأصل، وقد بَارَكَ في لواحقه وتوابعه من البقاع كان هو مُبَارَكاً فيه بالطريق الأَوْلَى بخلاف العكس. وقيل أراد بالبركة: الدينية والدنيوية وَوَجْهُهُما ما مَرَّ.

وقيل المراد: باركنا ما حوله من بَرَكَةٍ نشأت منه، فَعَمَّت جميع الأرض، لأن مياه الأرض كلها أصل انفجارها من تحت صخرة بيت المقدس». انتهى.

الكفيل: «فإن قيل إذا كانت البركة حول المسجد الأقصى فماذا يتميز عليه المسجد الحرام؟ قلت: البَرَكة حول المسجد الأقصى باعتبار الدنيا ورفاهيتها وخصبها، والبركة حول المسجد الحرام باعتبار الدين والفضل وتضعيف الحسنات فيه للطائفين والعاكفين والمتوطنين والوافدين، لأن الأَجر يكون على قدر النَّصَب، وهو واد غير ذي زَرْع، نَزَّهه الله عن خصب الدنيا وسعتها، لئلا يكون القصد إليه ممزوجاً بقصد الدنيا، فهذه البَرَكة الدينية أفضل من تلك البركة الدنيوية». انتهى.

«وحَوْلَهُ» منصوب على الظرف أي أوقعنا البَرَكَة حَوْلَه، وقيل تقديره: بَارَكْنَا ما حوله.

أبو عبيد الهَرَوِي رحمه الله تعالى: «رَأَيْتُ الناس حَوْلَهُ وحوالَيْه وحَوَاله ويُجْمَع أحوالاً».

الراغب: حَوْلَ الشيء جانِبُه الذي يمكن أَن يَتَحَوَّل إليه والضمير راجع إلى المسجد الأَقصى».

الثاني عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ من آيَاتِنَا﴾.

السَّمِين وابن عادل(١): «قرأ العامة بنون العَظَمة، جَرْياً على «بَارَكْنَا»، وفيه التفات من

(١) عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي، أبو حفص، سراج الدين: صاحب التفسير الكبير «اللباب في علوم الكتاب» توفي سنة ٨٨٠ . انظر الأعلام ٥/٥٨.

الغيبة في قوله: ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ إلى التكلم في «باركنا» و«لنُرِيَه»، وقرأ الحسن «لِيُرِيَه» بالمثناة التحتية أي الله تعالى».

وعلى هذه القراءة في الآية أربع التفاتات، لأنه التفت أولاً من الغيبة في «أَسْرَى»إلى التكلم في «باركنا». ثم التفت ثانياً من التكلم في «باركنا» إلى الغيبة. «لِيُرِيَه». ثم التفت ثالثاً إلى التكلم في «آيَاتِنا». ثم التفت رابعاً إلى الغيبة في ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

الزمخشري: «وطريقة الالتفات من طرق البلاغة.

الطيبي: «وذكرك أن قوله: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ» يدل على مَسْرَاه من عالَم الشهادة إلى عالم الغَيْب، فهو بالغيب أنسب. وقوله: ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ دالّ على إنزال البركات وتعظيم شأن المُنْزِل، فهو بالحكاية على التفخيم أَحْرَى. وقوله: «لِيُرِيَهُ» بالياء إعادة إلى مقام السّرّ والغيبوبة من هذا العَالَم، فالغيبوبة بهما أَلْيَق. وقوله: «مِنْ آيَاتِنَا» عوْدٌ إلى التعظيم على ما سَبَق وقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصيرُ﴾ إشارة إلى مقام اختصاصه بالمَنْح والزُّلْفَى وغَيْبَة شهوده في عين «بي يسمع وبي يُبْصر» فالعود إلى الغيبة أَوْلَى» انتهى.

ومعنى الرؤية هو ما أُرِيَ تلك الليلة من العجائب والآيات الدَّالَّة على قُدْرَة الله تعالى ومنها ما ذكره في القصة.

أبو شامة: «مِنْ» هنا للتبعيض، وإنما أُتِيَ بها هنا تعظيماً لآيات الله، فإن هذا الذي رآه محمد ﷺ وإن كان جليلاً عظيماً فهو بعض بالنسبة إلى جملة آيات الله وعجائب قدرته وجليل حكمته. والآية العلامة الظاهرة على ما يلازمها، فمن عَلِم ملازمة العِلْم للطريق المنهاج، ثم وجد العِلْم على أنه وجد الطريق، وكذا إذا وجد شيئاً مصنوعاً، فإنه يعلم أنه لا بُدَّ له من صانع، فآية الشيء علامته الظاهرة، ثم غلب ذلك على صدق الرسل، وعلى الإلهية وكرامات الأولياء وما أشبه ذلك».

البرهان النسفي: «فإن قيل الآية تدل على أنه تبارك وتعالى ما أراه إلا بعض الآيات وقال في حق إبراهيم ﷺ ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّموات والأَرْضِ﴾ [الانعام: ٧٥]، يدل على أنه تعالى أراه جميع الآيات، فيلزم أن يكون مِعْراج إبراهيم أفضل من معراج محمد ﷺ، فنقول: ملكوت السموات والارض بعض آيات الله أيضاً بعضاً مخصوصاً، والبعض المطلق أفضل من البعض المخصوص، إذ المطلق يُصْرَف إلى الكامل. والجواب المشهور عنه هو أن بعض آيات الله أفضل من ملكوت السموات والأرض. انتهى.

الثالث عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾.

السمين: «الصحيح أن الضمير في «إنَّه» لله تبارك وتعالى».

الطيبي: «ولا يبعد أن يرجع الضمير إلى العبد، كما نقله أبو البقاء عن بعضهم، قال: «إنه

السميع»، لكلامنا، «البصير» لذاتنا. وأما تَوَسُّط ضمير الفعل فللإشعار باختصاصه بهذه الكرامة وَحْدَهُ، ولعل السِّرّ في مجيء الضمير مُحْتَمِلاً للأَمْرَيْن الإشارة إلى المطلوب وأنه ﷺ إنما رأى رب العِزَّة وسمع كلامه به».

الماوردي: «في الحكمة بالإتيان بالسميع والبصير هنا وجهان: أحدهما: أنه تعالى وصف نفسه بهما، وإن كانا من صفاته اللازمة لذاته في الأحوال كلها، لأنه حِفْظٌ لرسوله عند الإسراء به في ظلمة الليل، فلم يَضُرّه ألاَّ يُبْصِر فيها، وسمع كلامه دُعَاءه فأجابه إلى ما سأل. الثاني: أن قومه لما كذَّبوه حين أخبرهم بإسرائه، فقال: السميع، يعني لما يقولونه من تصديق أو تكذيب. البصير، فيما يفعله من الإسراء والمعراج.

الزمخشري: «إنه هو السميع» لأقوال محمد، «البصير» بأفعاله، العالِم بتَهَذُّبِها وخلوصها فيُكْرِمه ويُقَرِّبه على حسب ذلك.

ولم يَتَعَقَّب ذلك الطيبي ولا السَّكُوني - بالفتح والضمّ - في التمييز مع مبالغته في التنكيب[1] والاعتراض عليه. وقال صاحب الكفيل: «ذَكَر صِفَتَي السمع والبصر تنبيهاً على أنه عَلِم حيث يجعل رسالاته وكراماته، والبصير بآياته، وكما أنه أعلم فهو أسمع وأبصر. والمراد أنه السميع لمن صَدَّق بالإسراء البصير بمن كَذَّب به»، ثم ذكر كلام الزمخشري السابق، ثم قال: «وفي كلامه هذا إيماءٌ إلى القول بإيجاب الجزاء وتلويح إلى اعتقاده أن فضائل النبوة مكتسبة، فاحذر هذه العقيدة. انتهى.

الغزالي رحمه الله: المقصد الأسنى: «السميع هو الذي لا يعزُب عن إدراكه مسموع وإن خَفِي، فيسمع السِّرّ والنجوى، بل ما هو أدق وأخفى، ويدرك دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصَّمَّاء، يسمع بغير أَصْمِخَةٍ وآذان، وسَمْعُهُ مُنَزَّه عن أن يتطرّق إليه الحَدثَان. ومهما نَزَّهْت السمع عن تغير المسموعات وقَدَّسْتَه عن أن يسمع بأُذن وآلة عَلِمْتَ أن السمع في حقه عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات. ومَنْ لم يدقق نظره فيه وقع بالضرورة في بحر التشبيه فخُذْ حِذْرَك ودَقِّق فيه نَظَرَك».

وقال أيضاً: «البصير هو الذي يُشَاهِد ويَرَى ولا يعزُب عنه ما تحت الثَّرى، وإبصاره مُنَزَّهٌ عن أن يكون بحَدَقَة وأجفان، مُقَدَّسٌ عن أن يرجع عن انطباع الصور والألوان في ذاته تعالى، كما تنطبع في حَدَقة الإنسان، وإن ذلك من التغير والتأثير المقتضى للحَدَثان. وإذا نُزِّه عن ذلك كان البَصَر في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المصنوعات، والله تعالى أعلم بالصواب».

---

(١) التنْكِيبُ: التنْحِيَة. انظر المعجم الوسيط ٩٥٨/٢.

الباب الثانـي

فـي تفسير أول سورة النجم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم. والنَّجْمِ إذا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وما يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى. إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى. عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى. ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى. وَهُوَ بالأُفُقِ الأَعْلَى. ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى. فَكَانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى. أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى. وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى. عِنْدَ سِدْرَةِ المُنْتَهَى. عِنْدَها جَنَّةُ المَأْوَى. إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى. مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى. لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم: ١: ١٨].

الكلام على هذه الآيات من وجوه: الأول: في سبب نزولها.

النهر: «سَبَبُه قول المشركين إن محمداً يختلق القرآن».

الثاني: في مناسبة هذه السورة لما قبلها:

قال الإمام الرازي والبرهان النسفي رحمهما الله، قد قيل: إن السُّوَر التي تقدمت وهي التي أقسم الله تعالى فيها بالأسماء دون الحروف: الصَّافَّات والذاريات والطور وهذه السورة بعدها، فالقَسَم في الأُولى لإثبات الوحدانية، كما قال: ﴿إِنَّ إِلَهَكُم لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]. وفي الثانية لوقوع الحَشْر والجزاء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّما تُوعدُون لَصَادِقٌ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ [الذاريات: ٥، ٦]. وفي الثالثة لدوام العذاب بعد وقوعه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ﴾ [الطور: ٧، ٨]. وفي هذه السورة لبيان النبوة كما قال تعالى: ﴿والنَّجْمِ إِذَا هَوَى﴾ [النجم: ١] إلخ. لتكمل الأصول الثلاثة: الوحدانية والحشر والنبوة».

والوجه الآخر في المناسبة لما قبلها هو أن الكفرة بالغوا في المكابرة والمعاندة في حق النبي ﷺ، وطعنوا فيما نطق به من الكلام، كما مرَّ بيانُه في تلك السورة، فقال في هذه ما يَدُلّ على صدقه في دعواه، وصِدْق ما نطق به وأَجراه مُؤَكّدًا بالقَسَم.

وأَما مناسبة أَول هذه السورة إلى آخر ما قبلها فمن وجوه: **أحدها:** أَن اختتام تلك السورة بالنجم وافتتاح هذه السورة بالنجم مع القَسَم. **ثانيها:** أَنه تعالى أَمر رسول الله ﷺ بالصبر في آخر تلك السورة، كما قال تعالى: ﴿واصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الطور: ٤٨] والصَّبْر أَمْرٌ صعب، فذكر في أَول هذه السورة ما يدل على علوّ منزلته وعظم شأنه ليسهل عليه ذلك الأَمر.

ثالثها: لما قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْه وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور: ٤٩] بَيَّنَ له أَنه جَزَاهُ بخير، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ٢] وزاد الشيخ رحمه الله

تعالى، في مناسبته وجهاً آخر، وهو أَن [سورة] الطور فيها ذِكْر ذُرِّية المؤمنين وأَنهم تَبَعٌ لآبائهم، وهذه فيها ذِكْر ذُرِّية اليهود في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْض وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ﴾ [النجم: ٣٢].

فقد رَوَى ابنُ المُنْذِر وابن حِبَّان عن ثابت بن الحرث الأنصاري قال: «كانت اليهود تقول إذا هلك لهم صَبِيّ صغير هو صِدِّيق، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «كَذَبَتْ يهود، ما من نَسَمة يخلقها الله في بطن أُمّه إلا أَنه شقيّ أَو سعيد». فأَنزل الله تعالى عند ذلك: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ الآية. ولما قال الله تعالى هناك في المؤمنين: ﴿أَلْحَقنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِم من شيء﴾ [الطور: ٢١] أَي ما نقصنا الآباء مما أَعطينا البَنِين مع نفعهم بعمل آبائهم، قال هناك في الكفار أَو في الكبار: ﴿وأَن لَيْسَ للإِنْسَان إِلاَّ مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩]، خلاف ما ذكر في المؤمنين الصغار». انتهى.

أَبو حَيَّان رحمه الله: «هذه السورة مكية، ومناسبتها لآخر ما قبلها ظاهر، لأَنه تعالى قال: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّله﴾ [الطور: ٣٣] أَي اختلق القرآن، ونسبوه إِلى الشِّعر، وقالوا هو كاهن، هو مجنون، فأَقسم تعالى أَنه ﷺ ما ضَلَّ، وأَن ما أَتى به هو الوَحْي من الله. وهي أَول سورة أَعلن رسول الله ﷺ بقراءتها في الحرم، والمشركون يسمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإِنس غير أَبي لهب فإِنه رفع حفنة من تراب إِلى جبهته وقال يكفي هذا». قلت: ذكر أَبي لهب هنا غريب.

روى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: أَول سورة نزلت فيها سجدة، النجم، فسجد رسول الله ﷺ، وسجد الناس كلهم إِلا رجلاً رأَيته أَخذ كفاً من تراب فسجد عليه، فرأَيته قُتِل كافراً وهو أمية بن خلف. وروى ابن مردويه وابن خلف عن أَبي هريرة رضي الله تعالى عنه أَن رسول الله ﷺ سجد في النجم وسجد من حضر من الجن والإِنس والشجر، زاد ابن أَبي شيبة إِلا رجلين من قريش أَرادا بذلك الشهرة، وسمى أَحد الرجلين المُبْهَمَيْن في الرواية السابقة، والثاني الوليد بن المغيرة كما عند ابن سعد. وروى البخاري عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإِنس.

الثالث: في الكلام على القَسَم الواقع هنا.

الشيخ رحمه الله تعالى في الإِتقان: [وقد قيل ما معنى القسم منه تعالى؟ فإِنه إِن كان لأَجل المؤمن] فالمؤمن يُصَدِّق بمجرد الإِخبار من غير قَسَم، وإِن كان لأَجل الكافر فلا يفيده، وأُجيب بأَن القرآن نزل بلغة العرب، ومن عادتها القَسَم إِذا أَرادت أَن تؤكد أَمراً.

وأَجاب الأُستاذ ـ بضم الهمزة وبالذال المعجمة ـ أَبو القاسم القُشَيْري رحمه الله تعالى

بأَن الله ذكر القَسَم لكمال الحجة وتأكيدها وذلك أَن الحَكَم يفصل باثنين إما بالشهادة وإما بالقَسَم، فذكر تعالى في كتابه النوعَيْن حتى لا يبقى لهم حُجَّة فقال: ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨] وقال: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣] وعن بعض الأعراب أنّه لما سمع قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: ٢٢] ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣]، صاح وقال: من ذا الذي أغضب الجليل حتى ألجأه إلى اليمين؟ ولا يكون القَسَم إلا باسمٍ مُعَظَّم، وقد أقسم الله تعالى بنفسه، في القرآن في سبعة مواضع، بقوله: ﴿قُلْ إِي وَرَبِّي﴾ [يونس: ٥٣]، ﴿قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ [مريم ٦٨]، ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]، ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [النساء: ٦٥]، ﴿فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج: ٤٠]، والباقي كله قَسَم بمخلوقاته. فإن قيل: كيف أقسم بالخَلْق وقد ورد النهي عن القسم بغير الله تعالى؟ قلنا أُجيبَ عنه بأوجه: الأول أنه على حذف مضاف أي ورب النَّجم. وكذا الباقي. الثاني: أن العرب كانت تُعَظِّم هذه الأشياء وتُقْسِم بها فنزل القرآن على ما يعرفونه. الثالث: أن الأقسام إنما تكون بما يُعَظِّمه المُقْسِم ويُجِلُّه وهو فوقه. والله سبحانه وتعالى ليس فوقه شيء، فأقسم تارةً بنفسه وتارةً بموضوعاته لأنها تدل على بادئ وصانع.

ابن أبي الإصبع[1] رحمه الله تعالى في كتابه أسرار الفواتح: «القَسَم بالمصنوعات يستلزم القَسَم بالصانع لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل.

وروى ابن حاتم عن الحسن قال: «إن الله تعالى يُقْسِم بما شاء من خَلْقِه وليس لأحد أن يُقْسِم إلا بالله تعالى.. والقَسَم إما ظاهر وإما مُضْمَر وهو قسمان: قِسْمٌ دلَّت عليه اللام نحو ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٦] وقِسْمٌ دَلَّ عليه المعنى نحو: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] تقديره: واللهِ... وأكثر الأقسام في القرآن المحذوفة الفِعْل لا تكون إلا بالواو، فإذا ذُكِرت الباء أُتِي بالفِعْل كقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩] ﴿يَحْلِفُونَ بِاللّهِ﴾ [النساء: ٦٢] ولا تجد الباءَ مع حذف الفِعْل، ومن ثم أخطأ من جعل قسماً

(١) حرثان بن الحارث بن محرث بن ثعلبة، من عدوان، ينتهي نسبه إلى مضر: شاعر حكيم شجاع جاهلي. لقب بذي الإصبع لأن حية نهشت إصبع رجله فقطعها، ويقال: كانت له إصبع زائدة. وعاش طويلاً حتى عدّ في المعمرين. له حروب ووقائع وأخبار. وشعره مليء بالحكمة والعظة والفخر، قليل الغزل والمديح، وهو صاحب القصيدة المشهورة التي يقول في أولها:

«أأسيد إن مالاً ملكت فسر به سيراً جميلا»

انظر الأعلام ١٧٣/٢ .

بالله: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ [الأعراف: ١٣٤]. ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُه فقد عَلِمْته﴾ [المائدة: ١١٦].

ابن القيم: «اعلم أن الله سبحانه وتعالى يُقْسِم بأُمور على أمور وإنما يُقْسِم بنفسه المَوْصُوفَة بصفاته وآياته المستلزِمة لذاته وصفاته. وأقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنه من عظيم آياته، فالقَسَم إما على جملة خبرية وهو الغالب كقوله تعالى؛ ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّه لَحَقٌّ﴾ [الذاريات: ٢٣] وإما على جملة طلبية كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣]، مع أن هذا القَسَم قد يُراد به تحقيق المُقْسَم عليه، فيكون من باب الخَبَر، وقد يُراد به تحقيق القَسَم فالمُقْسَم عليه يُراد بالقَسَم توكيده وتحقيقه، فلا بُدّ أَن يكون مما يَحْسُن فيه ذلك كالأُمور الغائبة والخفية إذا أُقْسِم على ثبوتها فأما الأُمور المشهورة الظاهرة كالشمس والقمر والليل والنهار والسماءِ والأرض، فهذه يُقْسَم بها ولا يُقْسَم عليها. وأَما ما أَقْسَمَ عليه الرَّبُّ فهو من آياته، فيجوز أَن يكون مُقْسِماً به ولا ينعكس».

الإمام الرازي رحمه الله تعالى: «أقسم تعالى في بعض السور بمجموع كقوله تعالى: ﴿والذَّارِيَاتِ﴾، وفي بعضها بإفراد كقوله ﴿والطُّورِ﴾، ولم يقل والأطوار والبحار، والكلمة فيه أَن أكثر الجموع أقسم عليها بالمتحركات. والريح الواحدة ليست بثابتة مستمرة حيث يقع القسم عليها، بل هي مُتَبَدِّلة بأفرادها، مستمرة بأنواعها، والمقصود منها لا يحصل إلا بالتبدُّل والتغيُّر، فقال: ﴿والذَّارِيَاتِ) إشارة إلى النوع المستمر لا إلى الفرد غير المستقر. وأَما الجبل فهو ثابت غير متغيِّر عادةً، فالواحد من الجبال قائم زماناً ودهراً فأَقسم في ذلك بالواحد. وكذلك قوله: «والنجم»، ولو قال: والريح، لَمَا عُلِم المُقْسَم به وفي الطور عُلِم. والسُّوَر التي افتتاحها القَسَم بالأَسماءِ دون الحروف، كان القَسَم فيها لإثبات أَحد الأَصول الثلاثة وهي: الوحدانية والرسالة والحَشْر وهي التي يتم بها الإيمان.

ثم إنه تعالى لم يُقْسِم لإثبات الوحدانية إلا في سورة واحدة من تلك السُّوَر وهي: «الصَّافَّات»، حيث قال تعالى فيها: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصافات: ٤]، وذلك لأنهم وإن كانوا يقولون: أَجَعَلَ الآلهةَ إلهاً واحداً، على سبيل الإنكار فقد كانوا يبالغون في الشرك، لكنهم في تضاعيف أَقوالهم وتصاريف أَحوالهم كانوا يُصرِّحون بالتوحيد، وكانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

فلم يبالغوا في الحقيقة والإنكار المطلوب الأَوّل، فاكتفى بالبرهان ولم يُكْثِر من

الأَيْمان في سورتين منها أَقسم لإِثبات صدق رسول الله ﷺ، وكونه رسولاً في إِحداهما بأَمر، وهو قوله تعالى: ﴿والنَّجْمِ إِذَا هَوَى، مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ [النجم: ١، ٢]. وفي الثانية بأَمْرَين وهو قوله تبارك وتعالى: ﴿والضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى، مَا ودَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ [الضحى: ١، ٢، ٣] وذلك لأَن القَسَم على إِثبات رسالته قد كَثُرَ بالحروف والقرآن العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿يس وَالْقُرآنِ الحَكِيم، إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِين﴾ [يس: ١، ٢، ٣]. وقد ذكرنا الحكم فيه أَن من معجزات النبي ﷺ القرآن، فأَقسم به ليكون في القَسَم إِشارة واقعة إِلى البرهان. وفي باقي السُّورَ كان المُقْسَم عليه الحشر والجزاء، وما يتعلق به يكون إِنكارهم في ذلك خارجًا عن الحد، وعدم استيفاء ذلك في سور القَسَم بالحروف. وأَقسم تعالى بمجموع السلامة المؤنثة في خمس سُوَر، ولم يُقْسِم بمجموع السلامة المُذَكَّرة في سورة أَصلاً. فقال ﴿والصَّافَّاتِ﴾ [الصافات: ١]، ﴿والذَّارِيَات﴾ [الذاريات: ١]، ولم يقل «والصالحين من عبادي»، ولا المقربين، إِلى غير ذلك، مع أَن الذكور أَشرف وذلك لأَن المجموع بالواو والنون في الأَمر الغالب، لمن يعقل..

وقد ذكرنا أَن القَسَم بهذه الأَشياء ليس لبيان التوحيد إِلا في صورة ظَهَرَ الأَمر فيه، وحصل الاعتراف منهم، ولا للرسالة لحصول ذلك في سورة القَسَم بالحروف والقرآن، بقي أَن يكون المقصود إِثبات الحشر والجزاء، لكن إِثبات الحشر لثواب الصالح وعقاب الطالح، ففائدة ذلك راجعة إِلى من يعقل فيلزم أَن يكون القسم بغيرهم. والسُّور التي أُقْسم فيها لإِثبات الوحدانية أَقسم في أَول الأَمر بالساكنات حيث قال: ﴿والصَّافَّات﴾ وفي السُّوَر الأَربع الباقية أَقسم بالمتحركات فقال: ﴿والذَّارِيَاتِ﴾، ﴿والمُرْسَلاَتِ﴾ [المرسلات: ١]، و﴿النَّازِعَاتِ﴾ [النازعات: ١] ﴿والْعَادِيَاتِ﴾، وذلك لأَن الحشر فيه جمع وتفريق، وذلك بالحركة أَلْيَق. وفي السور الأَربع أَقسم بالرياح على ما بَيَّنَّ، وهي التي تجمع وتُفَرِّق، فالقادر على تأْليف السحاب المتفرق بالرياح الذارية والمرسلة قَادِرٌ على تأْليف الأَجزاء المتفرقة بطريق من الطرق التي يختارها بمشيئته تبارك وتعالى».

وقال الإِمام أَيضاً في موضع آخر: «اعلم أَنه تعالى لم يُقْسِم على الوحدانية ولا على النبوة كثيرًا، لأَنه أَقسم على الوحدانية في سورة الصافات، وأَما النبوة فأَقسم عليها بأَمر واحد في هذه السورة، وبأَمرين في سورة «والضحى»، وأَكْثَرَ من القَسَم على الحشر وما يتعلق به. فإن قوله تعالى: ﴿واللَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾ [الليل: ١] وقوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ البُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، إِلى غير ذلك، كلها في الحشر وما يتعلق به، وذلك لأَن دلائل الوحدانية كثيرة، كلها عقلية كما قيل:

وَفِـي كُـلِّ شَـيْءٍ لَـهُ آيَـةٌ   تَـدُلُّ عَـلَـى أَنَّـهُ وَاحِـدُ(١)

ودلائل النبوة أيضاً كثيرة، وهي المعجزات المشهورة المتواترة، وأما الحشر فإمكانه يثبت بالعقل، وهذا أظهر، وأما وقوعه فلا يمكن إثباته إلا بالسمع، فأكثَرَ فيه القَسَم ليقطع به المُكَلَّف ويعتقده اعتقاداً جازماً.

الرابع: في الكلام على النَّجْم [النجم: ١]:

صاحب القاموس: «في المطلع النَّجْم الكوكب الطالع والجمع أَنْجُم وأَنْجَام ونُجوم ونُجُم، والنَّجْم أيضاً الثُّرَيَّا، والنَّجْمُ من النبات ما نَجَمَ على غير ساق، والنَّجْم الوقت المضروب».

اللباب لابن عادل: «سُمِّي الكوكب نَجْماً لطلوعه، وكلُ طالع نَجْماً»، يقال: نَجَمَ السِّنُّ والقَرْنُ والنَّبْتُ إذا طَلَع، زاد القرطبي: «ونَجَمَ فلان ببلد كذا أي خرج على السلطان».

ابن القيِّم: «اختلف الناس في المراد بالنَّجْم، فقال الكلبي عن ابن عباس: أَقْسَمَ بالقرآن إذ أُنْزِل نجوماً على رسول الله ﷺ: أربع آيات وثلاث آيات والسورة، وكان بين أوله وآخره عشرون سنة، وكذلك روى عطاء عنه، وهو قول مقاتل والضحاك ومجاهد، واختاره الفَرّاء».

والهُوِيّ على هذا القول النزول من أعلى إلى أسفل، وعلى هذا سُمِّي القرآن نجماً لتفرقه في النزول. والعرب تسمي التفرق تَنَجُّماً والمتفرق مُنَجَّماً. ونُجُوم الكتابة أقساطها، وتقول جعلتُ مالي على فلان نجوماً مُنَجَّمة، كل نجم كذا وكذا. وأصل هذا أن العرب كانت تجعل مطالع منازل القمر ومساقطها مواقيت لحلول ديونها وآجالها، فيقولون: إذا طلع النجم - يريدون الثُّرَيَّا - حَلَّ عليك كذا، ثم جُعِل كل نجم تفريقاً وإن لم يكن مُوَقَّتاً بطلوع نَجْم.

قال الإمام الرازي: «ففي هذا القَسَم استدلال بمعجزات النبي ﷺ على صدقه، وهو كقوله تعالى: ﴿**يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾ [يس: ١، ٢، ٣] وقال ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة وعطية: يعني الثُّرَيَّا إذا سقطت وغابت، وهُوِيُّها مغيبُها، وهو الرواية الأخرى عن مجاهد، والعرب إذا أطلقت النَّجْم تعني به الثريا، قال الشاعر:

إِذَا طَـلَـعَ الـنَّـجْـمُ عِـشَـاءً   ابْـتَـغَـى الـرَّاعِـي كِـسَـاءً(٢)

وفي الحديث: «ما طلع نَجْمٌ قط وفي الأرض من العاهة شيء إلا ارتفع»، رواه الإمام

(١) البيت لأبي العتاهية وقبله

فيا عجبا كيف يعصى الإله   أم كيف يجحده الجاهد

ولله في كل تحريكة   وفي كل تسكينة شاهد

انظر الديوان. دار الكتب العلمية ص ٦٢.

(٢) البيت في الكشاف ٤/٢٧.

أَحمد، وأَراد بالنجم الثريا. وهذا القول اختاره ابن جرير والزمخشري. وقال السمين إنه الصحيح، لأَن هذا صار عَلَماً بالغَلَبَة»، وقال عُمَر بن أَبي ربيعة:

أَحْسَنُ النَّجْمِ في السَّمَاءِ الثُّرَيَّا وَالثُّرَيَّا فِي الأَرْضِ زَيْنُ النِّسَاءِ

قال الإِمام الرازي: «ومناسبة هذا القول إِن الثريا أَظهر النجوم عند الرائي لأَن له علامة لا تلتبس بغيره في السماء ويظهر لكل أَحد. والنبي ﷺ يتميز عن الكل بآيات بيِّنات، فأَقسم به، ولأَن الثريا إِذا ظهرت من المشرق بالبلد حان إِدراك الثمار، وإِذا ظهرت بالشتاء أَو الخريف تقل الأَمراض. والنبي ﷺ إِذا ظهر، قَلَّ الشك والأَمراض القلبية وأَدْرَكَتْ الثمار الحكمية».

وقال أَبو حَمْزة، بالحاءِ المهملة والزاي، «والثمالي - بضم المثلثة وتخفيف الميم وباللام: يَعْنِي النجوم إِذا انتثرت يوم القيامة. وقيل أَراد به الشِّعْرَى. وقال السدِّي والثوري: «أَراد به الزُّهَرَة». وقال الأَخفش: «أَراد به النَّبْت الذي لا ساق له، ومنه قوله تعالى: ﴿والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦] وهُوِيُّهُ سقوطه.

قال الإِمام الرازي: «لأَنَّ النَّبَاتَ به نباتُ القوى الجسمانية وصلاحها، والقوة العقلية أَولى بالإِصلاح، وذلك بالرسُل، وإِصلاح السُّبُل، ومن هذا يظهر أَن المختار هو النجوم التي في السماءِ لأَنها أَظهر عند السامع. وقوله تعالى: ﴿إِذا هَوَىٰ﴾ أَدلُّ عليه، ثم بعد ذلك القرآن لما فيه من الظهور، ثم الثريا.

وقال جعفر بن محمد - رضي الله عنهما -، كما نقله القاضي: «أَراد به النبي - ﷺ - إِذ نزل ليلة المِعْراج والهُوِيّ النزول».

صاحب السراج: «ويعجبني هذا التفسير لملاءمته من وجوه، فإِنه ﷺ نَجْمُ هداية، خصوصاً لما هُدي إِليه من فَرْض الصلاة تلك الليلة، وقد عَلِمْت منزلة الصلاة من الدين، ومنها أَنه أَضاء في السماءِ والأَرض. ومنها التشبيه بسرعة السَّيْر، ومنها أَنه كان ليلاً، وهو وقت ظهور النَّجم، فهو لا يَخْفَى على ذي بَصَر وأَما أَرباب البصائر فلا يمترون كأَبي بكر الصِّدِّيق - رضي الله عنه -». انتهى.

وقال مجاهد في رواية عنه: «نجوم السماءِ كلها». وجزم أَبو عُبَيْدة وقال: ذهب إِلى لفظ الواحد بمعنى الجمع، قال الشاعر:

فباتَتْ تَعُدُّ النَّجْمَ في مُسْتَحِيرَةٍ[1]

أَي تَعُدّ النجوم. قال ابن جرير: «وهذا القول له وجه، ولكن لا أَعلم أَحداً من أَهل التأويل قاله». انتهى.

---

(١) هذا شطر بيت للراعي النميري. انظر الكشاف ٢٧/٤.

قلت: قد تقدم نقله عن مجاهد، ونقله الماوردي عن الحسن أيضاً. وقال الإمام الرازي: «ومناسبة ذلك أن النجوم يُهْتَدَى بها فأقسم بها لما بينهما من المشابهة والمناسبة».

وقال ابن عباس في رواية عِكرمة: أراد التي تُرْمَى بها الشياطين إذا سقطت في آثارها عند استراق السمع. وهذا قول أبي الحسن الماوردي. وسببه أن الله تعالى لما أراد بَعْثَ محمد ﷺ وسلم رسولاً، كَثُر انقضاض الكواكب قبل مولده، فذُعِر أكثر العرب منها وفزعوا إلى كاهن، كان يُخبرهم بالحوادث، فسألوه عنها فقال: انظروا إلى البروج الاثني عشر فإن انْقَضَّ منها شيء فهو ذهاب الدنيا، وإن لم ينقَضّ منها شيء فسيحدث في الدنيا أمْرٌ عظيم، فاستشعروا ذلك، فلما بُعِث النبي ﷺ كان هو الأمر العظيم الذي استشعروه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، هوى لهذه النبوة التي حدثت.

الإمام الرازي: «إن الرجوم تبعد الشياطين عن أهل السماءِ والأنبياء يبعدون الشياطين عن أهل الأرض.

ابن القيم: «وهذه الراوية عن ابن عباس أظهر الأقوال، ويكون الحق سبحانه وتعالى قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المُشَاهَدَة التي نصبها آيةً وحفظاً للوحي من استراق الشياطين له، على أن ما أتى به رسوله حَقٌّ وصِدْق لا سبيل للشياطين ولا طريق لهم إليه، بل قد حرس بالنجم إذا هوى رصداً بين يدي الوحي وحَرَساً له، وعلى هذا فالارتباط بين المُقْسَم به والمُقْسَم عليه في غاية الظهور، وفي المُقْسَم به دليلٌ على المُقْسَم عليه، فإن النجوم التي تُرْمَى بها الشياطين آيات من آيات الله تعالى، يحفظ بها دينَه وَوَحْيَه، وآياته المُنَزَّلة على رُسُله، بها ظهر دينُه وشَرْعُه، وأسماؤه وصفاته. وجُعِلت هذه النجوم المشاهَدة خدماً وحَرَساً لهذه النجوم الهادية. وليس بالبَيِّن تسمية القرآن عند نزوله بالنجم إذا هوى ولا تسمية نزوله هُوياً، ولا عهد في القرآن بذلك فيُحْمَل هذا اللفظ عليه وليس بالبَيْن أيضاً تخصيص هذا القسم بالثُّرَيَّا وحدها إذا غابت، وليس بالبَيِّن القَسَم بالنجوم عند تناثرها يوم القيامة؛ بل هذا مما يُقْسِم الرب عليه، ويدل عليه بآياته، فلا يجعله نفسه دليلاً لعدم ظهوره للمُخَاطَبِين ولاسيما منكرو البَعْث. فإنه سبحانه وتعالى إنما يستدل بما لا يمكن جحده ولا المكابرة فيه، فأظهر الأقوال قول الحسن وابن كثير وهذا القول له اتجاه».

الخامس: في الكلام على «هَوَى»:

السمين: «العامل في «إذا» إما فِعْل القَسَم المحذوف وتقديره: أُقْسِم بالنجم وقت هُوِيِّه». قال أبو البقاءِ وغيره: «وهو مُشْكِل، فإن فِعْل القَسَم إنشاء، والإنشاء حال. و«إذا» لِمَا يُسْتَقْبَل من الزمان، فكيف يتلاقيان؟.

الطيبي نقلاً عن المقتبس: «الوجه أن «إذا» قد انسلخ عنها معنى الاستقبال، وصار للوقت المجرد، ونحوه: آتيك إذا احْمَرَّ البُسْر، أي وقت إحمراره، فقد عُرِّيَ عن معنى الاستقبال لأنه وقت الغيبة عنه، بقوله: آتيك».

قال الشيخ عبد القاهر: «إخبار الله تعالى بالمتوقع مقام الإخبار بالواقع، إذ لا تكلف فيه، فيجري المستقبل مجرى المُحَقَّق الماضي».

السمين: «وإما مُقَدَّرٌ على أنه حال من النَّجْم، إذ أقسم به حال كونه مُسْتَقِراً في زمان هُوِيِّه. وهو مُشْكِل من وَجْهَيْن: أحدهما: أن النَّجْم جُثَّة والزمان لا يكون حالاً عنها، كما لا يكون خبراً، الثاني: «إذا» للمستقبل، فكيف تكون حالاً؟.

وأُجيب عن الأول: المراد بالنجم القطعة من القرآن، والقرآن، نزل مُنَجَّماً في عشرين سنة. وهذا تفسير ابن عباس وغيره. وعن الثاني: بأنها حال مُقَدَّرَة، وأما العامل فهو نفس النجم الذي أريد به القرآن، قاله أبو البقاء. وفيه نظر لأن القرآن لا يعمل في الظَّرف، إذا أريد به أنه اسم لهذا الكتاب المخصوص. وقد يقال إن النَّجْم بمعنى المُنَجَّم كأنه قيل: والقرآنِ المُنَجَّم في هذا الوقت».

المصباح: هَوَى يَهْوِي من باب ضَرَب هُوِيّاً بضمّ الهاء وفتحها، وزاد ابن القوطية هواءً بالمَدّ، سقط من أعلى إلى أسفل قاله أبو زيد وغيره». قال الشاعر:.

فَشَج بِهَا الأَمَاعِزَ وَهْيَ تَهْوِي هُوِيَّ الدَّلْوِ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ[1]

يُرْوَى بالفتح والضَّمّ.

الراغب: «الهوى سقوط من علو». ثم قال: «والهُوِيّ ذهاب في إنحدار والهَوِيّ ذهاب في ارتفاع». وقيل: «هوى في اللغة مَقْصِدُه السفل أو مصيره إليه وإن لم يقصده». وقال أهل اللغة: هَوى بفتح الواو يَهْوِي هوياً سقط من علو، وهَوَى يَهْوَى هوىً أي صَبَا.

القرطبي: هَوَى وانهوى فيه لغتان بمعنى وقد جمعهما الشاعر في قوله:.

وكم منزلٍ لولايَ طِحْتَ كما هَوَى بأَجْرَامِه من قُلَّةِ النِّيق مُنْهَوِي

النِّيق بكسر النون المُشَدَّدة أرفع موضع في الجبل.

الإمام الرازي: «الفائدة في تقييد القَسَم بالنجم بوقت هَوِيِّه أنه إذا كان في وسط السماء بعيداً عن الأرض لا يهتدي به السَّاري، لأنه لا يعلم به المشرق من المغرب ولا الجنوب من الشمال: فإذا زال تَبَين بزواله، وتميَّز جانبٌ عن جانب، كذلك النبي ﷺ خفض جناحه

---

(١) انظر ديوان زهير ص ٨٩، ٩٤.

للمؤمنين، وكان على خلق عظيم وخُصَّ الهُوِيُّ دون الطلوع لعموم الاهتداء به في الدين والدنيا. أما الدنيوي فلِمَا ذُكِر، وأما الديني فكما قال الخليل ﷺ ﴿لاَ أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وفيه لطيفة وهي أن القَسَم بالنجم يقتضي تعظيمه، وقد كان من المشركين من يعبده، فنَبَّه بهُوِيِّه على عدم صلاحيته للإلهية، وهُوِيُّه أُفُولُهُ.

السادس: في الكلام على قوله: ﴿ما ضَلَّ صاحِبُكُم وما غَوَى﴾: [النجم: ٢] السمين: «هذا جواب القَسَم».

الإمام الرازي والبرهان النسفي: أكثر المُفسِّرين قالوا: لا نُفرِّق بين الضلال والغَيّ. وقال بعضهم: إن الضلال في مقابله الهُدَى، والغَيّ في مقابله الرُّشْد، قال تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦]، وتحقيق الفَرْق فيه أن الضلال أَعَمّ استعمالاً في المواضع، تقول: ضَلَّ بعيري ورَحْلي ولا تقول: غَوَى، فالمراد من الضلال ألا يجد السالك إلى مَقْصِده طريقاً مستقيماً. والغواية ألا يكون له إلى القصد طريق مستقيم، ويدل على هذا أنك تقول للمؤمن الذي ليس على طريق السَّداد: إن سَعْيَه غَيْرُ رشيد، ولا تقول: إنه ضال. فالضَّالّ كالكافر، والغاوي كالفاسق، فكأنه تعالى قال: ﴿ما ضَلَّ﴾ أي ما كفر، ولا أقل من ذلك، فما فَسَق، ويؤيد ما ذكرنا قَوْلُه تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُم رُشْداً﴾: [النساء: ٦] الآية. أو يقال: الضلال كالعدم والغواية كالوجود الفاسد في الدرجة والمرتبة. ويحتمل أن يكون معنى «ما ضَلَّ» أي ما جُنَّ، فإن المجنون ضالّ، وعلى هذا فهو كقوله تعالى ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم: ٢] الآية. فقوله: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأَجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ [القلم: ٣]، إشارة إلى أنه ما غَوَى بل هو رشيد مُرْشِد إلى حضرة الله تعالى. وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، إشارة إلى قوله هنا: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى﴾ [النجم: ٣]، فإن هذا خُلُقٌ عظيم. وقد أشار قوله تعالى ﴿ما ضَلَّ﴾ إلى أنه على الطريق، ﴿وما غَوَى﴾ إشارة إلى أنه على الطريق المستقيم ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى﴾ إلى أنه مسلك الجادَّة، ركب من الطريق، فإنه إذا ركب متنه كان أسرع وصولاً إلى المَقْصِد، ويمكن أن يقال إن قوله ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوى﴾ دليلٌ على أنه ما ضَلَّ وما غَوَى، وتقديره: كيف يَضِلّ أو يَغْوِي وهو لا يَنْطِق عن الهوى؟ وإنما يضل من يتبع هواه، ويدل عليه قوله تبارك وتعالى: ﴿ولا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ [ص: ٢٦].

القرطبي: وقيل ما غوى ما خاب مما طلب قال الشاعر:.

فَمَنْ يَلْقَ خَيْراً يَحْمَدِ النَّاسُ أَمْرَهُ ... وَمَنْ يَغْوِ لاَ يَعْدَمْ عَلَى الغَيِّ لائِماً

أي من خاب في طلبه لامه الناس، ثم يجوز أن يكون إخباراً عما بعد الوحي، ويجوز أن

يكون إخباراً عن أحواله على التعميم، أي كان أبداً مُوَحِّداً لله. وهو الصحيح.

ابن القيم: نفى الله سبحانه وتعالى عن رسوله الضلال المُنَافي للهدى والغَيّ المنافي للرشد، ففي ضمن هذا النفي الشهادة له بأنه على الهدى والرشد، فالهدى في علمه والرشد في عمله، وهذان الأصلان هما غاية كمال العبد، وهما سعادته وصلاحه، وبهما وصف النبي ﷺ خلفاءه، فقال: «عليكم بِسُنَّتِي وسُنَّة الخلفاءِ الراشدين المهديين من بعدي»(١).

«فالرَّاشد ضد الغاوي، والمهدي ضد الضال وهو الذي زكت نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح وهو صاحب الهدى ودين الحق، لا يشتبه الراشد المهدي بالضالّ الغَاوي، إلا على أجهل الخَلْق وأعماهم قلباً وأبعدهم من حقيقة الإنسانية، ورحم الله القائل:

وَمَا انْتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ ... إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الأَنْوَارُ وَالظُّلَمُ

والناس أربعة أقسام: الأول: ضالٌّ في علمه، غاو في قصده وعمله، وهؤلاء سواد الخَلْق، وهم مخالفو الرسل. الثاني: مهتدٍ في علمه غاوٍ في قصده وعمله، وهؤلاء هم الأمة الغَضبيّة ومَنْ تَشبَّه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به. الثالث: ضال في علمه ولكن قصده الخير وهو لا يشعر، الرابع: مهتدٍ في علمه راشدٌ في قصده وهم ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقَلِّين عدداً فهم الأكثرون عند الله قَدْراً، وهم صفوة الله تعالى من خَلْقه. وتَأَمَّلْ كيف قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾، ولم يقل: محمداً، تأكيداً لإقامة الحجة عليهم بأنه صاحبهم، وهم أعلم الخَلْقِ به وبحاله وأقواله وأعماله، وأنهم لا يعرفونه بكذب ولا غيّ ولا ضلال، ولا ينقمون عليه أمراً واحداً قط. وقد نَبّه تعالى على ذلك بقوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ﴾ [المؤمنين: ٦٩]، وبقوله: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ﴾ [التكوير: ٢٢].

السابع: في الكلام على قوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾: [النجم: ٣].

قال [تعالى] أولاً: «ما ضَلَّ» و«وما غوى»، بصيغة الماضي، وعَبَّر هنا بصيغة المستقبل، وهو ترتيب في غاية الحُسْن، أي ما ضَلَّ حين اعتزلكم وما تعبدون حين اختلى بنفسه. وما ينطق عن الهوى الآن حيث أُرْسِل إليكم وجُعِل شاهداً عليكم، فلم يَكُنْ أولاً ضالاً ولا غاوياً، وصار الآن مُنْقِذاً من الضلالة ومُرْشِداً وهادياً، والله سبحانه وتعالى يصون من يريد إرساله في صِغَره عن الكفر والمعايب، فقال تعالى: ﴿ما ضَلَّ﴾ في صغره لأنه لا ينطق عن الهوى.

---

(١) أخرجه أبو داود ٢٠١/٤ (٤٦٠٧) والترمذي [٢٦٧٦] وابن ماجه (٤٢) وأحمد في المسند ١٢٦/٤ والطبراني في الكبير ٢٤٦/١٨ والبيهقي في السنن ١١٤/١٠ وابن عبد البر في التمهيد ٦٦/٨.

ابن عادل: «فاعل ينطق إما ضمير النبي ﷺ، وهو الظاهر، وإما ضمير القرآن كقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الجاثية: ٢٩].

ابن القَيِّم: تَنَزَّه تعالى عن نُطْق رسوله ﷺ عن أن يَصْدُر عن هوىً، وبهذا الكمال هداه وأَرشده، ولم يَقُل: وما ينطق بالهوى، لأن نَفْيَ نُطْقِه عن الهوى أَبلغ، فإنه يتضمَّن أَن نُطْقَه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به؟ فَتَضَمَّن نَفْيَ الأَمْرَيْن: نَفْيَ الهوى عن مصدر النُّطْق، ونَفْيَه عن النطق نفسه، فَنُطْقُه بالحق، ومصدره الهُدَى والرشاد، لا الغَيّ والضلال.

اللباب: قال النحاس(١): «قول قتادة أَوْلَى وتكون» «عن» على بَابِها أَي ما يَخْرُج نُطْقُه عن رأيه، إنما هو بِوَحْي من الله تعالى، لأَن بَعْدَه ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]. وقيل: هو بمعنى الباء، أَي ما ينطق بالهوى، أَي ما يتكلم بالباطل، وذلك أَنهم قالوا: إن محمداً يقول من تلقاء نفسه». المصباح: الهوى مقصور مصدر هَوِيتُه من باب تَعِب إذا أَحْبَبْتَه وعَلِقْتَ به، ثم أُطْلِق على ميل النفس وانحرافها عن الشيء ثم استُعْمِل في ميل مذموم فيقال اتَّبعَ هواه».

الإمام البيهقي: «وأَحسن ما يقال في تفسير الهَوَى أَنه المحبة، لكن من النفس، يقال هَوِيْتُهُ بمعنى أَحببتُه. والحروف التي في هَوِيَ تدل على الدُّنوّ والنزول والسقوط ومنه الهاوية، فالنفس إذا كانت دَنِيَّة وتركت المعالي وتَعَلَّقت بالسفاسف فقد هَوَت فاختص الهوى بالنفس الأَمَّارة بالسوء».

الشعبي: «إنما سُمِّي الهوى هَوًى لأَنه يَهْوِي بصاحبه». وقال بعض الحكماء: «الهوى إله معبود، له شيطان شديد، يخدمه شيطان مَرِيد، فمن عَبَد أَوثانه، وأَطاع سلطانه، واتَّبَع شيطانه، خَتَم اللهُ تعالى على قلبه، وحُرِم الرَّشَادَ من رَبِّه، فأَصبح صريع غَيِّه، غريقَ ذنبه، وقال عَزَّ من قائل ﴿أَفَرَأَيتَ مَن اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فمن يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بغَيْرِ هُدىً مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠].

وقال النبي ﷺ: «ثلاث مُنْجِيات وثلاث مُهْلِكات، فالمنجيات: خشية الله في السِّرّ والعلانية، والحكم بالعدل في الرضا والغضب، والاقتصاد في الفقر والغِنى، والمهلكات: شُحٌّ

---

(١) أحمد بن محمد بن إسماعيل المراديّ المصري، أبو جعفر النحاس: مفسر، أديب. مولده ووفاته بمصر. كان من نظراء نفطويه وابن الأنباري. زار العراق واجتمع بعلمائه. وصنف «تفسير القرآن» و «إعراب القرآن» و «تفسير أبيات سيبويه» و «ناسخ القرآن ومنسوخه» و «معاني القرآن» انظر الأعلام ٢٠٨/١.

مُطاع، وهوى مُتَّبع، وإعجاب المرء برأيه»[١]. رواه البَزَّار عن أَنَس.

وقال ﷺ: «ما تحت ظل السماء من إله يُعْبَد من دون الله، أَعظم عند الله من هوًى مُتَّبع»[٢]. رواه الطبراني عن أَبي أُمَامة. وقال بعض الحكماء: «الهوى خادع الأَلباب، صادّ عن الصواب، يُخرِج صاحبه من الصَّحِيح إِلى المعتلّ، ومن الصريح إِلى المُخْتَلّ، فهو أَعْمَى يُبْصِر، أَصم يسمع». كما قال النبي ﷺ: «حُبُّك الشيء يعمي ويُصِم»[٣]. وقال آخر: «على قدر بصيرة العقل يرى الإنسان الأَشياء، فمن سلِم عَقْله من الهوى يراها على حقيقتها، والنفس الكَدِرَة المتبعة لهواها ترى الأَشياء على طبعها. وقيل كان على خاتَم بعض الحكماء: «من غلب هواه على عقله افتُضِح». وقال ابن دُرَيْد في مقصورته:

وَآفَةُ الـعَـقْـلِ الْـهَـوَى فَـمَـنْ عَـلاَ عَـلَـى هَـوَاهُ عَـقْـلُـهُ فَـقَـدْ نَجَـا

الثامن: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

الإمام الرازي: «هذا تكملة للبيان، وذلك أَن الله تعالى لما قال: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ كَأَنَّ قائلاً يقول فَعمَّ ذا ينطِق، أَعَن الدليل والاجتهاد؟ فقال: لا، إِنما ينطق عن حضرته تعالى بالوحي، وهذا اللفظ أَبلغ من أَن لو قيل: هو وَحْيٌ يُوحَى. وكلمة «إِنْ» استُعْمِلَت مكان «ما» للنَّفْي، كما استُعْمِلت «ما» للشرط مكان «إِنْ».

اللباب: «يُوحَى صِفَةٌ لِوَحْي، وفائدة المجيء لهذا الوصف أَنه يَنْفِي المجاز، أَي هو وَحْيٌ حقيقةً لا مُجَرَّد تسمية كقولك: هذا قَوْلٌ يُقَال. وقيل تقديره: يُوحَى إِليه، ففيه مزيد فائدة». ونقل القرطبي عن السجستاني أَنه قال: «إِن شِئْتَ أَبْدَلْتَ ﴿إِن هو إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾ من ﴿ما ضَلَّ صاحِبكُم﴾ قال ابن الأَنباري: وهذا غلط لأَن إِنْ الخفيفة لا تكون مُبْدَلة من «ما» بدليل أَنك لا تقول: والله ما قُمْتُ إِن أَنا لقاعد».

ابن القَيِّم: «أَعاد الضمير على المصدر المفهوم من الفعل، أَي ما نطقه إِلا وَحْيٌ يُوحَى، وهذا أَحسن من قول مَنْ جعل الضمير عائداً إِلى القرآن فإِنه يَعُمّ نُطْقَهُ بالقرآن والسُّنَّة، وأَن

---

(١) ذكره العجلوني ٣٨٦/١ بنحوه وعزاه للبزار والطبراني عن أنس بسند ضعيف.

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ٧١٥/٢ والفتني في تذكرة الموضوعات (١٧٢) وذكره الهيثمي في المجمع ١٨٨/١.

(٣) أخرجه أبو داود (٥١٣٠) وأحمد في المسند ١٩٤/٥ والخطيب في التاريخ ١١٧/٣ وذكره العجلوني في الكشف ٤١٠/١ وقال: قال في المقاصد: رواه أبو داود والعسكري عن أبي الدرداء مرفوعا وموقوفاً والوقف أشبه، وفي سنده ابن أبي مريم ضعيف، ورَوَاه أحمد عن ابن أبي مريم فوقفه، والرفع أكثر ولم يصب الصغاني حيث حكم عليه بالوضع، وكذا قال العراقي ابن أبي مريم لم يتهمه أحد بكذب إنما سرق له حلى فأنكر عقله، وقال الحافظ ابن حجر: تبعا للعراقي ويكفينا سكوت أبي داود عليه فليس بموضوع ولا شديد الضعف فهو حسن انتهى. وقال القاري: بعد أن ذكر ما تقدم فالحديث إما صحيح لذاته أو لغيره مرتق عن درجة الحسن لذاته إلى صحة معناه، وإن لم يثبت مبناه.

كليهما وَحْيٌ. قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣] وهما القرآن والسُّنَّة.

وروى الداري(١) عن يحيى بن أَبي كثير(٢) قال: «كان جبريل ينزل على النبي ﷺ بالسُّنَّة كما ينزل عليه بالقرآن». قلتُ وفي الصحيحيْن أَن رجلاً سأَل النبي ﷺ وهو بالجِعْرَانة [فقال: يا رسول الله] كيف ترى في رجل أَحْرَم بعُمْرَة بعد ما تَضَمَّخ بالخَلُوق؟ فنظر إليه رسول الله ﷺ ساعة ثم سكت..

فجاءه الوَحْي، ثم سُرِّيَ عنه، فقال: أَين السائل؟ فجيء به فقال: انزع عنك الجُبَّة واغسل أَثَر الطِّيب واصنع في عُمْرَتِك ما تصنع في حِجَّتِك(٣).

وروى الإمام أَحمد وأَبو داود عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنتُ أَكتب كل شيء أَسْمعه من رسول الله ﷺ، أُريد حِفْظَه، فنهتني قريش وقالوا: تكتب كل شيء سمعته من رسول الله ﷺ، ورسول الله ﷺ بَشَر يتكلم في الرضا والغضب. فأَمسكت عن الكتابة حتى ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأَومأَ بأَصبعه إلى فيه وقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج مني إلا حقاً»(٤).

وروى الإمام أَحمد عن أَبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لا أَقول أَلا حقاً». وقال بعض أَصحابه: «إنك تداعبنا يا رسول الله، قال: إني لا أَقول إلا حقاً»(٥).

وروى الإمام أَحمد والطبراني والضياء في صحيحه عن أَبي أُمَامَة رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «لَيَدْخُلَنَّ الجَنَّة بشفاعة رجل مثل الْحَيَّيْن أَو مثل أَحد الحيَّيْن ربيعة ومُضَر. فقال رجل: يا رسول الله وما ربيعة ومُضَر؟ قال: إني ما أَقول إلا ما أُقَوَّله»(٦) ـ الثاني

(١) [عبد الله بن كثير الدّاري المكي، أبو مَعْبَد، القارئ، أحد الأئمة صدوق، من السادسة، مات سنة عشرين ومائة] انظر التقريب ٤٤٢/١.

(٢) يحيى بن أبي كثير الطائي، مولاهم، أبو نصر اليمامي، ثقة، ثبت، لكنه يدلّس ويرسل، من الخامسة، مات سنة اثنتين وثلاثين، وقيل قبل ذلك. التقريب ٣٥٦/٢.

(٣) أخرجه البخاري ٧/٣ (١٧٨٩) ومسلم ٨٣٦/٢ (٦ ـ ١١٨٠).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٤٦) وأحمد في المسند ١٦٢/٢ والدارمي ١٢٥/١ والحاكم في المستدرك ١٠٦/١.

(٥) أخرجه الترمذي (١٩٩٠) وأحمد في المسند ٣٤٠/٢ والبيهقي في السنن ٣٤٨/١٠ وابن عبد البر في التمهيد ٤/ ٢٢١ وذكره الهيثمي في المجمع ١٧/٩ والسيوطي في الدر ١٢٢/٦ وابن كثير في البداية والنهاية ٥٥/٦.

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٨٤/١٠ وعزاه لأحمد والطبراني بأسانيد وقال: ورجال أحمد وأحد أسانيد الطبراني رجالهم رجال الصحيح غير عبد الرحمن بن ميسرة وهو ثقة.

بضم الهمزة وفتح القاف والواو المُشَدَّدَة - أَي ما يُقَوِّلُه الله من الوَحْي، ولهذا مزيد بيان في أَبواب عِصْمَتِه.

الإمام الرازي؛ «هو ضمير معلوم أَو ضمير مذكور، فيه وجهان: أَشهرهما أَنه ضمير معلوم، وهو القرآن، كأَنه تعالى يقول: «ما القرآن إلا وحي»، وهذا على قول من قال: ليس المراد بالنجم القرآن، وأَما على قول من قال: هو الوحي فضمير مذكور. والوجه الثاني: أَنه عائد إلى مذكور ضِمْناً، وهو قولُ النبي ﷺ وكلامُه، وذلك لأَن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ في ضمنه النطق وهو كلامٌ وقَوْلٌ، فكأَنه تعالى يقول: وما كلامُه ولا نُطْقُه إلا وَحْي. وفيه وجه آخر، وهو أَن قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٣] رَدٌّ على الكفرة حيث قالوا: قَوْلُه قَوْلُ كاهن، وقالوا: قَوْلُه قَوْلُ شاعر، فقال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤]، وليس بقول شاعر كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُون، وَلاَ بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُون﴾ [الحاقة: ٤١، ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هو إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾، إبلغ من قول القائل: هو وَحْيٌ، وفيه فائدة غير المبالغة، وهي أَنهم كانوا يقولون: هو قول كاهن، هو قول شاعر. والمراد نَفْي قولهم وذلك يحصل بصيغة النفي فقال: ما هو كما تقولون، وزاد فقال: بل هو وَحْي.

أَنوار التنزيل: «احْتَجَّ بهذه الآية مَنْ لم يَرَ الاجتهاد للنبي ﷺ. وأُجِيبَ عنه بأَنه إذا أُوحِيَ إليه أَنْ يجتهد كان اجتهاده وما يُسْنَد إليه واجباً وفيه نظر لأَن ذلك حينئذ بالوحي».

الطيبي «هذه الآية واردة في أَمر التنزيل وليس فيها لـمُسْتَدِلّ أَن يَسْتَدِلَّ شيئاً من أَمر الاجتهاد نفياً ولا إثباتاً، لأَن الضمير في «هو» للقرآن، بدليل من فَسَّر النجم بنجوم القرآن». وبَسَط الكلام على ذلك، ثم أَورد حديث طلحة بن عبيد الله في تأْبير النخل[1]، وسيأْتي مع الكلام عليه في أَبواب عصمته ﷺ.

وقال الإمام الرازي: «القول بأَن النبي ﷺ لم يجتهد خلاف الظاهر: فإنه في الحرب اجتهد وحَرَّم، قال الله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ ما أَحَلَّ اللهُ لَكَ﴾ [مريم: ١]، وأَذِنَ، قال الله تعالى: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٣].

التاسع: في الكلام على قوله تعالى: «عَلَّمه شديدُ القُوَى» [النجم: ٥].

التِّبْيَان: «أَخبر تعالى عن وصف من عَلَّمه بالوحي أَنه مضادّ لأَوصاف الشيطان مُعَلِّمُ الضَّلاَلَة والغَوَاية، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّة عِندَ ذِي العَرْشِ مَكِين﴾ [التكوير: ٢٠]

---

(١) تأبير النخل: تلقيحه. انظر المعجم الوسيط ٢/١.

وفي وصفه بذلك تنبيه على أُمور:

الأول: أَنه بقوته يمنع الشياطين أَن تَدْنُو منه وأَن ينالوا منه شيئًا أَو يزيدوا فيه أَو ينقصوا منه، بل إِذا رآه الشيطان هرب منه ولم يقربه.

الثاني: أَنه مُوال لهذا الرسول الذي كذبتموه ومعاضِدٌ له ومُوَادٌّ له ونَاصِرٌ، كما قال تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [التحريم: ٤] الآية. ومن كان هذا القَوِيُّ وَلِيَّه ومن أَنصاره وأَعوانه ومُعَلِّمَه. فهو المَهْدِيُّ المنصورُ. واللَّهُ هاديه وناصِرُه.

الثالث: أَن من عادى هذا الرسول فقد عادى صاحبَه ووَلِيَّه جبريل، ومن عادى ذا القوة والشدة فهو عرضة للهلاك.

الرابع: أَنه قادر على تنفيذ ما أُمِر به بقوته فلا يعجز عن ذلك مُؤَادٍ له كما أُمِر».

السمين: «فاعل عَلَّمه جبريل ﷺ وهو الظاهر. قال الماوردي والقرطبي إنه قول الجميع إلا الحَسَن، فإنه، قال هو الباري تعالى لقوله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ [الرحمن: ١، ٢] ويكون «ذو مِرَّة» تمام الكلام».

اللباب: «يجوز أَن تكون هذه الهاء للنبي ﷺ، وهو الظاهر، فيكون المفعول الثاني محذوفاً أَي علمه النبي ﷺ الوحي أَي المُوحَى، ويجوز أَن يكون للقرآن والوحي، فيكون المفعول الأَول محذوفاً أَي علمه النبي.

الإمام الرازي: «الأَوْلى أَن يقال الضمير للنبي ﷺ، تقديره عَلَّم محمداً شديدُ القُوَى جبريل، ويكون عائداً إلى صاحبكم، تَقْدِيرُه: ما ضَلَّ صاحبكم، وشديدُ القُوَى هو جبريل، أَي قواه العلمية والعملية كلها شديدة، ثم في قوله: ﴿**شَدِيدُ الْقُوَى**﴾ فوائد:

الأُولى: أَن مدح المُعَلِّم مَدْحٌ للمُتَعَلِّم، فلو قال: عَلَّمه جبريل ولم يصفه ما كان يحصل للنبي ﷺ فضيلة ظاهرة.

الثانية: أَن فيه رَدّاً عليهم بحيث قالوا: أَساطير الأَوَّلين، فقال: لم يُعَلِّمه أَحَدٌ من الناس عَلَّمه شديدُ القُوَى.

الثالثة: فيه الوثوق بقول جبريل ﷺ، ففي قوله تعالى: ﴿**شديدُ القُوَى**﴾ جميع ما يوجب الوثوق لأَن قوة الإدراك شرط الوثوق بقول القائل على ما عرف، وكذلك قوة الحفظ، فقال: (شَديدُ القُوَى) ليجمع هذه الشرائط، فيصير كقوله تعالى: ﴿**ذي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِين، مُطاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ٢٠، ٢١].

اللباب: «شَدِيدُ القُوَى من كافة الصفة المشبهة لمرفوعها فهي غير حقيقية، هذا ما جزم

به الزمخشري وتابعوه». وقال صاحب الكفيل: «بل هي مضافة إلى مفعولها، وبسط الكلام على ذلك، والشديد البيِّن القوة».

روى ابن عساكر عن معاوية بن قُرَّة[1] ـ بضم القاف وتشديد الراءِ ـ رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لجبريل: «مَا أَحْسَنَ مَا أَثْنَى عليك رَبُّكَ: «ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» ما كانت قُوَّتُكَ وما كانت أَمَانَتُكَ؟ قال: أما قُوَّتي فإني بُعِثْتُ إلى مدائن لوط وهي أربع مدائن، وفي كل مدينة أربع مائة ألف مقاتل سوى الذرارى، فحملتهم من الأَرض السفلى حتى سمع أَهلُ السماء أَصواتَ الدجاج ونُباح الكلاب، ثم هَوَيْتُ بهن فقلبتُهن. وأَما أَمانتي فلم أُؤمر بشيء فَعَدَوْتُه إلى غيره». وقال محمد بن السائب: «من قوة جبريل أَنه اقتلع مدائن قوم لوط من الماءِ الأَسود فحملها على جناحه حتى رفعها إلى السماءِ حتى أَسمع أَهل السماءِ نُبَاح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها، ومن قوته أَيضاً أَنه أَبصر إبليس يكلم عيسى ابن مريم ﷺ على بعض عُقاب الأَرض المقدسة فنفحه بجناحه نفحةً فأَلقاه في أَقصى جبل بالهند. ومن قوته هبوطه من السماء على الأَنبياءِ صلوات الله وسلامه عليه وعليهم، وصعوده إليها في أَسرع من طرفة عين».

العاشر: في الكلام على قوله تعالى: «ذو مِرَّةٍ» [النجم: ٦].

القرطبي: قال قطرب: تقول العرب لكل جَزْل الرأْي حصيف العقل ذو مِرَّة، قال الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقَاكُمْ ذَا مِرَّةٍ ... عِنْدي لِكُلِّ مُخَاصِمٍ مِيزَانُهُ

وكان من جزالة رأيه وحصافة عقله أَن الله تعالى ائتمنه على وحيه إلى جميع رُسُله.

الجوهري: «والمِرَّة القوة وشدة العقل، ورجل مرير أَي قوى ذو مِرَّة. قال:

تَرَى الرَّجُلَ النَّحِيفَ فَتَزْدَرِيهِ ... وَحَشْوُ ثِيَابِهِ أَسَدٌ مَرِيرُ

ابن القَيِّم: «أَي جميل المنظر، حسن الصورة، ذو جلالة، ليس شيطاناً، أَقبح خلق الله تعالى وأَشوههم صورة، بل هو من أَجمل الخَلْق وأَقواهم وأَعظمهم أَمانة ومكانة عند الله، وهذا تعديل لسند الوحي والنبوة، وتزكية له، كما ذُكِر نظيرُه في سورة التكوير، فَوَصَفَه بالعلم والقوة وجمال المنظر وجلالته. وهذه كانت أَوصاف الرسول البشري والملكي، وكان رسول الله ﷺ أَشجع الناس وأَعلمهم وأَجملهم وأَصفاهم نفساً.

الإمام: «في قوله: «ذو مِرة» وجوه: الأَول: ذو قوة، قلت ورواه الفَرْيَابِي عن مجاهد

(١) معاوية بن قُرَّة بن إياس المُزَني أبو إياس البَصْري. عن علي مرسلاً، وابن عباس وابن عمر. وعنه قتادة وشعبة وأبو عَوَانة وخلق. وثقه ابن معين وأبو حاتم. قال خليفة: مات سنة ثلاث عشرة ومائة، ومولده يوم الجمل. انظر الخلاصة ٣/٤١، ٤٢.

ويدل على هذا قوله ﷺ: «لا تَحِل الصدقةُ لغَنِيٍ ولا لذي مِرَّةٍ سَوِيّ». رواه الإمام أحمد. الثاني: ذو كمال في العقل وفي الدين جميعاً. الثالث: ذو منظرٍ وهيبةٍ عظيمة. الرابع: ذو خُلُقٍ حَسَن». قلت زاد الماوردي خامساً: ذو غَنَاءٍ.

قلت: ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإنه ﷺ متصف بها. فإن قيل: على قولنا ذو مِرَّة، قد تقدم بيان كونه شديدَ القُوَى، فكيف تقول قواه شديدة وله قوة؟ فالجواب من وَجْهَيْن: أحدهما: أن ذلك لا يحسن إذا كان وصفاً بعد وصف، وأما إذا جاء بدلاً فيجوز، كأنه قال: عَلَّمه ذو قوة، ونزل شديد القوى فليس وصفاً له وتقديره ذو قوة عظيمة أو كاملة. الثاني: أن إفراد «مِرَّة» بالذكر ربما تكون لبيان أن قواه المشهورة شديدة وله قوة أُخرى لَخصَّه الله تعالى بها.

على أنَّا نقول المراد ذو شدة وهي غير القوة، وتقديره عَلَّمه مَنْ قَوَاه الشديدة، وفي ذاته أيضاً شِدّة، فإن الإنسان ربما يكون كثير القوة صغير الجُثَّة. وفيه لطيفة وهي أنه تعالى أراد بقوله: ﴿شديد القوى﴾، أي قوة العلم، وبقوله: ﴿ذو مِرَّة﴾، أي شدة في الجسم، قَدَّم العِلْمِيَّة على الجِسْمِيَّة، كما قال تعالى: ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي العِلْمِ وَالجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وتقدم الكلام على «ذو» في اسمه ﷺ: ﴿ذو الوسيلة﴾، فراجعه.

الحادي عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿فاستوى، وهو بالأُفُق الأَعلى﴾: [النجم: ٦-٧].

اللباب: «قال مكي: استوى يقع للواحد وأكثر ما يقع من إثنين ولذلك جعل الفَرَّاء الضمير لإثنين».

الماوردي والقرطبي: «فاستوى» يعني جِبْريل أي ارتفع وعلا إلى مكانه في السماء، بعد أن عَلَّم محمداً ﷺ، قاله ابن المُسَيَّب وابن جُبَيْر. وقال الإمام: «إنه المشهور»، وقيل «فاستوى» أي ظهر في صورته التي خلقه الله تعالى عليها، لأنه كان يأتي النبي ﷺ في صورة الآدميين كما كان يأتي إلى الأنبياء، فسأله رسول الله ﷺ أن يُرِيَه نفسه التي خلقه الله عليها، فأراه نَفْسَه مَرَّتَيْن: مَرَّة في الأرض ومَرَّة في السماء، فأما في الأرض ففي الأُفق الأعلى، وكان النبي ﷺ بِحِرَاء، فطلع له جبريل من المشرق، فَسَدَّ الأرض إلى المَغْرب، فَخَرَّ النبي ﷺ مَغْشِيّاً عليه، فنزل إليه في صورة الآدميين وضَمَّه إلى نفسه وجعل يمسح الغُبَار عن وجهه، فلما أفاق النبي ﷺ قال: «يا جبريل ما ظننتُ أن الله تعالى خلق أحداً على مثل هذه الصورة». فقال: يا محمد، إنما نشرتُ جَنَاحَيْن من أجنحتي وأن لي ستمائة جَنَاح سعة كل جَنَاح ما بين المشرق والمغرب. فقال: «إن هذا لعظيم». فقال له: وما أنا في جَنْب ما خلقه الله إلا يسيراً، ولقد خلق الله تعالى إسرافيل له ستمائة جَنَاح، كل جناح قَدْر أجنحتي، وإنه

ليتضاءل أَحياناً - يتضاءل بالضاد المعجمة والهمز- من مخافة الله تعالى حتى يكون بقدر الوَصَع - بفتح الواو والصاد وبالعَيْن المهملتين، يعني العصفور الصغير، قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣].

وأَما في السماء فعند سِدْرة المنتهى، ولم يره أَحد من الأَنبياء على تلك الصورة إِلا نبينا ﷺ.

ابن كثير: «وهذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإِسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأَرض في أَوائل البعث بعد فترة الوحي».

اللباب: «في الضمير وجهان: أَحدهما: وهو الأَظهر أَنه مبتدأ، «وبالأُفق» خبَرُه، والضمير لجبريل أَو للنبي ﷺ. ثم في هذه الجملة وجهان: **الأَول**: أَنها حال من فاعل «فاستوى» قاله مكي. قال القرطبي: والمعنى فاستوى جبريل عالياً على صورته ولم يكن النبي ﷺ قبل ذلك رآه عليها حتى سأَله إِياها على ما ذكرنا»، انتهى.

«**الثاني**: أَنها مستأنفة، أَخبر الله تعالى بذلك، ثانيهما: أَن «وهو» معطوف على الضمير المستتر في استوى. وضمير استوى إِما أَن يكون لله تعالى وهو قول الحَسَن أَو لجبريل أَو لمحمد، وهذا ضعيف، لأَنه يقال استوى هو وفلان ولا يقال استوى وفلان إِلا في ضرورة الشِّعْر، والصحيح استوى جبريل وجبريل بالأُفق الأَعلى على صورته الأَصلية لأَنه كان يتمثَّل للنبي ﷺ إِذا نزل بالوَحْي في صورة رجل، فأَحب النبي ﷺ أَن يراه على صورته الحقيقية فاستوى جبريل في أُفق المشرق فملأَ الأُفق».

وروى الإِمام أَحمد، وعَبْد بن حُمَيْد، وابن المنذر، والبيهقي، وأَبو نُعَيم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: رأَى رسول الله ﷺ جبريل في صورته، له ستمائة جَنَاح، كل جناح منها قد سَدَّ الأُفُق وتسقط من أَجنحته التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم.

وروى الإِمام أَحمد عن ابن عباس في الآية قال: سأَل النبيُّ ﷺ جبريل أَن يراه في صورته، فقال: ادعُ رَبَّك، فدعا رَبَّه عزَّ وجلَّ، فطلع عليه سَوَادٌ من قِبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه رسول الله ﷺ صَعِق، فأَتاه فَقَرُبَ منه ومَسَح الغُبار عن وجهه.

المصباح: «الأُفُق بضمتين الناحية من الأَرض ومن السماء والجمع آفاق، زاد في الصحاح: والأُفْق بضمة فسكون مثل عُسْر وعُسُر».

الماوردي: «في الأُفُق الأَعلى ثلاثة أَقوال: أَحدها: مطلع الشمس قاله مجاهد، الثاني: هو بالأُفق الذي يأْتي منه النهار قاله قتادة يعني طلوع الفجر، الثالث: هو أُفق السماء وهو جانب من جوانبها، قاله ابن زيد، ومنه قول الشاعر:

أَخَذْنَا بِآفَاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ   لَنَا قَمَرَاهَا وَالنُّجُومُ الطَّوالِعُ

الثاني عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾: [النجم: ٨].

الإمام الرازي: «**فيه وجوه: الأول:** وهو أشهرها أن جبريل دنا من النبي ﷺ، أي بعد ما مَدَّ جناحه وهو بالأُفُق الأعلى عاد إلى الصورة التي كان يعتاد النزول عليها، وقَرُب من النبي ﷺ».

القرطبي: أي دنا جبريل بعد استوائه بالأُفُق الأعلى «فتدلّى» على النبي ﷺ، المعنى أنه لما رأى النبي ﷺ من عظمة جبريل ما رأى وهاله ذلك، رَدَّه الله تعالى إلى صورة آدمي حين قرب من النبي ﷺ بالوحي. هذا قول الجمهور، انتهى. وعليه ففي تَدَلَّى ثلاثة أقوال: **الأول** أن الدنوّ والتدلي بمعنى واحد كأنه قال: دنا فَقَرُب.

اللباب: «ذهب الفرّاء إلى أن الفاء في «فَتَدَلّى» بمعنى الواو، والتقدير: ثم تدلى عليه الصلاة والسلام ودنا. ولكنه جائز إذا كان معنى الفِعْلَيْن واحداً قَدَّمْتَ أيهما شئت، تقول دنا فَقَرُب، وقَرُب فدنا، وشَتَمَنِي فأساء وأساء فشتمني لأن الشتم والإساءة شيء واحد، وكذلك قوله تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتْ السَّاعَةُ وانْشَقَّ القَمَرُ**﴾ [القمر: ١]، أي انشقّ القمر واقتربت الساعة. **القول الثاني:** في الكلام تقديم وتأخير، تقديره: ثم تَدَلَّى من الأُفُق فدنا من النبي ﷺ. **القول الثالث:** أن دنا بمعنى قصد القُرْب من النبي ﷺ وتحرك عن المكان الذي فيه فتدلّى فنزل إلى النبي ﷺ.

الوجه الثاني: أن المراد دنا من ربه تبارك وتعالى، والمراد بالدنوّ هنا المنزلة كما في قوله ﷺ حاكياً عن ربه عز وجل: «من تَقَرَّب مني شِبْراً تَقَرَّبْتُ منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيتُه هرولة»(١) وهذا إشارة إلى المعنى، ولهذا مزيد بيان في شرح القصة.

الوجه الثالث: دنا جبريل من ربه، قاله مجاهد.

الوجه الرابع: أنه النبي ﷺ، دنا من ربه، ويُحْمَل هو والذي قبله كما قال الإمام الرازي على القُرْب من المنزلة. والذي عليه الجَمّ الغفير هو دنوّ جبريل من النبي ﷺ.

الثالث عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿فكان قابَ قَوْسَيْنِ أو أَدْنَى﴾. [النجم: ٩].

اللباب: «ها هنا مضافان محذوفان نضطر لتقديرهما، أي فكان مقدار مسافة قربه منه مقدار مسافة قاب».

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم من رواية أبي ذر رضي الله عنه ٢٠٦٨/٤ (٢٢- ٢٦٨٧).

الإمام الرازي: «أي فكان بين جبريل ومحمد ﷺ مقدار قوسين أو أقل، فهذا على استعمال العرب وعادتهم، فإن الأميرَيْن منهم أو الكبيرَيْن إذا اصطلحا وتعاقدا خرجا بقوسيهما، جعل كل واحد منهما قوسه بطَرَف قوس صاحبه، ومن دونهما من الرعية يكون كَفُّه بكَفِّ صاحبه فيَمُدان باعَيْهِما، لذلك فسُمِّي مبايعة. وعلى هذا ففيه مقدار قَوْسَيْن أو كان جبريل سفيراً بين حضرة الله تعالى عنه ومحمد ﷺ فكان كالتَّبَع لمحمد ﷺ، فصار كالمُبَايِع الذي يَمُدّ الباع لا القوس».

اللباب: القاب: القَدر تقول: هذا قاب هذا، أي قَدْرُه ومثله: القِيب والقاد والقِيد والقِيس.

الجوهري: «وقال بعضهم في الآية أراد قابَيْ قَوْس فقلبه. وفي الحديث الصحيح: لقابُ قَوْس أحدكم [أو موضع قِدِّه] من الجنة خَيْرٌ من الدنيا وما فيها». والقوس معروفة، وهي ما يُرْمَى بها وهي مؤنثة وشَذُّوا في تصغيرها، فقالوا قويس من غير تأْنيث، وإنما ضرب المَثَل بالقوس لأنها لا تختلف بالقاب وإن لم يَجْر لها ذكْر لعدم اللَّبْس».

الواحدي: «المراد بالقوس التي يُرْمى بها عند الجمهور، قال: وقيل المراد الذراع لأنها يُقَاس بها».

القرطبي: «وقال سعيد بن جبير، وعطاء، وإبو إسحق الهَمْداني، وأبو وائل[1] شقيق ابن سلمة «فكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ» أي قَدْر ذراعين، والقوس الذراع يُقاس بها كل شيء، وهي لغة بعض الحجازيين، وقيل هي لغة أزد شنوءة أيضاً». قلتُ: ورواه ابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود أيضاً.

قال الحافظ: وينبغي أن يكون هذا القول هو الراجح، فقد روى الطبراني وابن مَرْدَوَيه والضياء بسند صحيح عن ابن عباس قال: القاب والقيد والقوسان الذراعان.

اللباب: «أو» هنا كهي في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ لأن المعنى بأحد هذين المقدارين في رأي الرائي أي لتقارب ما بينهما لا[2] يشك الرائي في ذلك. وقال ابن القَيِّم: «أو» هنا ليست للشك بل لتحقيق قدر المسافة، وأنها لا تزيد على قوسين البتة، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، تحقيقاً لهذا القدر وأنهم لا ينقصون عن مائة ألف أو يزيدون رجلاً واحداً، ونظيره قَوْلُه تعالى: ﴿ثم قَسَت قلوبكم من بعد

---

(١) شقيق بن سلمة الأسدي، أبو وائل، الكوفي، ثقة، مخضرم، مات في خلافة عمر بن عبد العزيز، وله مائة سنة. التقريب (٣٥٤١١).

(٢) سقط في أ.

ذلك فهي كالحجارة أَو أَشدّ قسوة﴾ [البقرة: ٧٤]، أَي لا تنقص قسوتها عن قسوة الحجارة، بل إن لم تزد على قسوة الحجارة لم تكن دونها. وهذا المعنى أَحسن وأَلطف وأَدق من قول من جَعَل «أَو» في هذا الموضع بمعنى بل، ومن قول من جعلها للشك بالنسبة إلى الرائي، وقول من جعلها بمعنى الواو فتأَمَّله، وجزم بذلك ابن كثير.

اللباب: «أَدنى أَفعل تفضيل، والمُفَضَّل عليه محذوف أَو أَدنى من قاب قوسين، فمعنى الآية: ثم دنا جبريل بعد استوائه في الأُفُق الأَعلى من الأَرض، فتَدَلَّى، فنزل إلى محمد ﷺ، فكان قاب قوسين أَو أَدنى بل أَدنى.

تنبيه: هذا الذي قلناه من المُقْتَرِب الدَّاني الذي صار بينه وبين محمد ﷺ قاب قوسين أَو أَدنى، إنما هو جبريل، نقله القاضي عن الجمهور. وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: إنه هو الصحيح في التفسير، كما دَلَّ عليه كلام أَكابر الصحابة. قال ابن القَيِّم: لأَن جبريل هو الموصوف بما ذُكر من أَول السورة إلى قوله: **﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخرى، عندَ سدْرَةِ المُنْتَهى﴾** [النجم: ١٣، ١٤] هكذا فَسَّره النبي ﷺ في الحديث الصحيح لعائشة، قالت عائشة رضي الله عنها: سَأَلْتُ رسول الله عن هذه الآية، فقال: «ذاك جبريل لم أَره في صورته التي خُلق عليها إلا مَرَّتَيْن»، رواه مسلم، ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

الأَول: أَنه قال: **﴿عَلَّمهُ شَديدُ القُوَى﴾** وهذا جبريل الذي وصفه بالقوة في سورة التكوير.

الثاني: أَنه قال: **﴿ذو مرَّة﴾** [النجم: ٦] أَي حسن خُلُق، وهو الكريم في سورة التكوير.

الثالث: أَنه قال: **﴿فاستوى وهو بالأُفُق الأَعلى﴾** وهي ناحية السماء العليا وهذا استواء جبريل.

الرابع: أَنه قال: **﴿ثم دنا فتدَلَّى، فكان قاب قوسين أَو أَدنى﴾**، فهذا دنو جبريل، وقد نزل إلى الأَرض حيث كان رسول الله ﷺ بها. وأَما الدنو والتَدَلّي في حديث المعْراج فرسول الله ﷺ كان فوق سبع سموات.

الخامس: أَنه قال: **﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخرى عند سدْرَة المنتهى﴾**. والذي عند السِّدْرة قطعاً هو جبريل، وبهذا فَسَّره النبي ﷺ، فقال: «ذاك جبريل».

السادس: أَن الضمير في قوله: «ولقد رآه»، وقوله: «دنا فَتدلَّى»، وقوله: «فاستوى»، وقوله: «وهو بالأُفُق الأَعلى» واحد، فلا يجوز أَن يُخَالَف بين المُفَسِّرين من غير دليل.

السابع: أنه سبحانه وتعالى أَخبر أَن هذا الذي «دنا فَتَدَلَّى» كان بالأُفُق الأَعلى، وهو أُفق السماء، فدنا من الأَرض فتدلى لرسول الله ﷺ، والدنو والتدلي الذي في حديث شريك غير هذا، وكذا جزم ابن كثير بأَن الدنو والتدلي في حديث شريك غير الذي في الآية.

وروى مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في هذه الآية قال: «رأَى بفؤاده مرتين»، فجعل هذا إِحداها، ولهذا مزيد بيان في الباب الثالث.

الرابع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [سورة النجم: ١٠].

ابن عادل مُتابعاً الإِمام الرازي: «في فاعل أَوحي وجهان: الأَول: أَن الله تعالى أَوحى، وعلى هذا ففي «عَبْده» **وجهان: أَحدهما**: أنه جبريل، أَي أَوحى الله تعالى إِلى جبريل، وعلى هذا ففي فاعل أَوحى الأَخير وجهان: **أَحدهما**: أَنه الله تبارك وتعالى أَيضاً. والمعنى حينئذ: فأَوحى الله تعالى إِلى جبريل الذي أَوحاه الله تعالى أَيهما أَكثر تفخيماً وتعظيماً للموحي، **ثانيهما**: فاعل أَوحى الثاني جبريل، أَي أَوحى الله تبارك وتعالى إِلى جبريل ما أَوحى جبريل، وعلى هذا فالمراد من الذي أُوحي إِليه جبريل يحتمل وجهين: **أَولهما**: أَن يكون مُبَيِّناً، وهو الذي أَوحى جبريل إِلى محمد ﷺ، **ثانيهما**: أَن يكون عامًّا. أي أَوحى الله تعالى إِلى جبريل ما أَوحى إِلى كل رسول. وفيه بيان أَن جبريل أَمين لـم يَخُنْ في شيءٍ مما أُوحِيَ إِليه، وهذا كقوله تعالى ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾ [الشعراء: ١٩٣] وقوله ﴿**مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ٢١].

الوجه الثاني: في «عَبْده»، على قولنا هو الله تعالى، أَنه محمد ﷺ، أَي أَوحى الله تعالى إِلى محمد ما أَوحى إِلى كل رسول به أَبْهَمَهُ للتفخيم والتعظيم.

الوجه الثاني في فاعل أَوحي الأَول: هو أَنه جبريل أَوحى إِلى عبده أَي إِلى عبد الله يعني محمداً ﷺ، ما أَوحى إِليه رَبُّه عز وجل، قاله ابن عباس في رواية عطاء، والكلبي، والحسن، والربيع، وابن زيد. وعلى هذا ففي فاعل أَوحى الثاني وجهان: أَحدهما: أَنه جبريل إِي أَوحى جبريل إِلى عبد الله ما أَوحى جبريل للتفخيم، وثانيهما: أَن يكون هو الله تعالى أَي أَوحى جبريل إِلى محمد ما أَوحى الله تعالى إِليه.

وفي ﴿**ما أَوحى**﴾ وجوه: الأَول: فضل الصلاة، الثاني: أنّ أَحداً من الأَنبياء لا يدخل الجَنَّة قبلك ولا قبل أُمَّتك. الثالث: أَن «ما» للعموم، والمراد كل ما جاء به جبريل».

الخامس عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الفؤاد ما رأَى﴾ [النجم: ١١].

ابن القَيِّم: «أَخبر اللّهُ تعالى عن تصديق فؤاده لـما رأَته عيناه، وأَن القلب صَدَّق العين،

وليس كمن رأَى شيئاً على خلاف ما هو به، فكَذَبَ فؤادُه بَصَرهُ، بل ما رآه ببصره صَدَّقه الفؤاد وعلِمَ أنه كذلك. يُقَال كَذَبَته عَيْنه وكَذَبَهُ قَلْبُه وكَذَبَهُ جَسَدُه إذا أَخلف ما ظَنَّه وحَدَسَهُ. قال الشاعر:

كَذَبَتْكَ عَيْنُكَ أَمْ رَأَيتَ بِوَاسِطٍ غَلَسَ الظَّلاَمِ مِنَ الرَّبَابِ خَيَالا[1]؟

أي أَرَتْكَ ما لا حقيقة له. فنَفَى اللّهُ تعالى هذا عن رسول الله ﷺ، وأَخبَر أَن فؤاده لم يَكْذب ما رآه».

الماوردي: «في الفؤاد قولان: أَحدهما: أَنه أَراد صاحب الفؤاد،، فعَبَّر عنه بالفؤاد، لأَنه قُطْب الجسد وبه قوَامُ الحياة. الثاني: أنه أَراد نفس الفؤاد لأَنه محل الاعتقاد».

اللباب: «قرأَ هشام[2] وأَبو جعفر[3] بتشديد الذال من «كَذَبَ»، والباقون بتخفيفها. فأَما الأُولى فإِن معناها أَن ما رآه محمد ﷺ بعَيْنه صَدَّقه قلبُه، ولم ينكر الداري «أَل» لتعريف ما عُلم حالُه لسَبْق ذكْر محمد ﷺ في قوله: «إِلى عَبْده» وفي قوله (وهُوَ بالأُفُق الأَعلى) وقوله (ما ضَلَّ صَاحِبُكُمْ)، أَي لم يَقُل إِنه خيال لا حقيقة. و «ما» الثانية مفعول له موصولة، والعائد محذوف، ففاعل «رأَى» ضمير يعود على النبي ﷺ».

وأَما قراءة التخفيف فقيل فيها كذلك. وكَذَبَ يتعدى بنفسه. وقيل هو على إِسقاط الخافض أَي فيما رآه، قاله مكي وغيره. قال حَسَّان بن ثابت رضي الله تعالى عنه:

لَوْ كُنْتِ صَادِقَةَ الَّذِي حَدَّثْتِنِي لَنَجَوْتِ مَنْجَا الحَارِثِ بنِ هِشَامِ[4]

أَي في الذي حَدَّثْتني، وجَوَّز «ما» في وَجْهَيْن: أَحدهما: أَن تكون بمعنى «الذي»، فيكون المعنى: ما كَذَبَ الفؤاد الذي رأَى بعينه، والثاني: أَن تكون مصدرية.

---

(١) البيت للأخطل انظُر اللسان ٣٢٨١/٤.

(٢) هشام بن عمار بن نصير بن ميسرة أبو الوليد السلمي وقيل: الظفري الدمشقي، إمام أهل دمشق وخطيبهم ومقرئهم ومحدثهم ومفتيهم، ولد سنة ثلاث وخمسين ومائة، وقال النسائي: لا بأس به وقال الدارقطني: صدوق كبير المحل، وكان فصيحاً علامة واسع الرواية، قال عبدان الأهوازي: سمعته يقول ما أعدت خطبة منذ عشرين سنة وقال محمد بن حريم: سمعته يقول في خطبته: قولوا الحق يريكم الحق منازل أهل الحق يوم لا يقضي إلا بالحق، وقال أبو علي أحمد بن محمد الأصبهاني المقري لما توفي أيوب بن تميم رجعت الإمامة في القراءة إلى رجلين: ابن ذكوان وهشام، قال: وكان هشام مشهوراً بالنقل والفصاحة والعلم والرواية والدراية رزق كبر السن وصحة العقل والرأي فارتحل الناس إليه في القراءات والحديث، مات سنة خمس وأربعين. ومائتين وقيل سنة أَرْبَع وأربعين غاية النهاية ٣٥٤/٢، ٣٥٥.

(٣) يزيد بن القعقاع الإمام أبو جعفر المخزومي المدني القارئ ء أحد القراء العشرة تابعي مشهور كبير القدر، ويقال اسمه جندب بن فيروز وقيل: فيروز، مات بالمدينة سنة ثلاثين ومائة وقيل: سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: سنة تسع وعشرين وقيل: سنة سبع وعشرين وقيل: سنة ثمان وعشرين. انظر غاية النهاية ٣٨٢/٢، ٣٨٣، ٣٨٤.

(٤) انظر ديوان حسان بن ثابت ص ٢١٣، ٢١٤.

ابن القَيِّم: فيكون المعنى: ما كَذَّبَ فؤادُه رُؤيَتَه، وعلى التقديرَيْن فهو إخبار عن تطابق رؤية القلب لرؤية البصر وتوافقهما، وتصديق كل واحد منهما لصاحبه، وهذا ظاهر في قراءة التشديد. وقد استشكلها طائفة منهم المُبَرِّد، وقال في هذه القراءة بُعْد، لأنه إذا رأى بقلبه فقد عَلِمَه أيضاً بقلبه، وإذا وقع العلم فلا كذب معه، فإذا كان الشيء في القلب معلوماً فكيف يكون معه تكذيب؟.

والجواب عن هذا من وَجْهَيْن: أحدهما: أن الرجل قد يتخيل الشيء على خلاف ما هو به فيُكَذِّبه قلبُه، إذ يُريه صورةَ المعلوم على خلاف ما هي عليه كما تُكْذِبُه عينُه، فيقال كَذَبه قلبُه وكَذَبه ظَنُّه وكَذَبَتْهُ عَيْنُه، فنفى ذلك سبحانه وتعالى عن رسول الله ﷺ، وأخبر أن ما رآه الفؤاد كما رآه، كمن يرى الشيء على حقيقة ما هو به، فإنه يصح أن يقال لم تَكْذِبْهُ عَيْنُه. الثاني: أن يكون الضمير في «رأى» عائد إلى الرائي لا إلى الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رآه البصر، وهذا بحمد الله لا إشكال فيه، والمعنى: ما كذب الفؤاد بل صَدَّقه، وعلى القراءتين فالمعنى: ما أوهمه الفؤاد أنه رأى ولم يَرَ وَلااتَّهم بَصَرَه». انتهى.

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «ويجوز أن يكون فاعل «رأى» ضميراً يعود على الفؤاد [أي] لم يشك قلبه فيما رأى بعينه». قال الزمخشري: [ما كَذَب فؤاد محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام، أي ما قال فؤاده، لما رآه: لم أعرفه ولو قال ذلك لكان كاذباً، لأنه عرفه، يعني أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ولم يشك في أن ما رآه حق].

فما كَذَب الفؤاد، هذا على قراءة التخفيف، يقال كَذَبه إذا قال له الكذب، وأما على قراءة التشديد فمعناه: ما قال إن الذي رآه كان خفياً لا حقيقة له. وأما الرائي فقيل هو الفؤاد كأنه تعالى قال: ما كذب الفؤاد ما رآه الفؤاد، أي لم يقل إنه جنّ أو شيطان، بل تَيَقَّن أن ما رآه بفؤاده صدق صحيح. وقيل الرائي هو البَصَر أي ما كَذَب الفؤاد ما رآه البَصَر، ولم يتدارك أن ما رآه البصر خيال. ويُحْتَمَل أن تكون «أل» للجنس أي جنس الفؤاد، ويكون المعنى: ما كذب الفؤاد ما رأى محمد ﷺ، أي شهدت القلوب بصحة ما رآه محمد ﷺ.

واختلفوا في المرئي ما هو؟ فقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: رأى رسول الله ﷺ جبريلَ عليه حُلَّتا رفرف أخضر قد ملآ ما بين السماءِ والأرض. رواه الفِرْيَابِي والترمذي وصححه. وقيل رأى الآيات العجيبة. وقال ابنُ عباس رضي الله تعالى عنهما: رأى رَبَّه بفؤاده مَرَّتَيْن، رواه مسلم وغيره. وسيأتي الكلام على رؤية الله تعالى في الباب الثالث.

السادس عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿أَفَتُمَارُونَه على ما يرى﴾. [النجم: ١٢].

ابن القيِّم: «أنكر عليهم سبحانه وتعالى مكابرتَهم وجَحْدَهم له على ما رآه مما يُنْكَر على الجاهل مكابرته لعالم، ومماراته له على ما عَلِمَه».

اللباب: «قرأ الأخوان: «أَفَتَمْرُونَه» بفتح التاء وسكون الميم، والباقون «تمارونه»، وعبد الله بن مسعود والشعبي: «أَفَتُمْرُونه» بضم التاء وسكون الميم. **فأما الأولى ففيها وجهان: أحدهما:** أنه من مَرَيْتُهُ حَقَّه إذا غَلَبْتُه عليه وجَحَدْتُه إياه، وعُدِّيَ بعَلَى لتضمُّنه معنى الغَلَبة، وأنشدوا:

لَئِنْ هَجَرْتَ أَخا صِدْقٍ وَمَكْرُمَةٍ لَقَدْ مَرَيْتَ أَخاً مَا كَانَ يَمْرِيكا

لأنه إذا جحده حَقَّه فقد غَلَبَه عليه. قال المُبَرِّد: يُقَال مَرَاهُ عن حَقِّه وعلى حَقِّه إذا منعه منه ودفعه عنه. قال ومثل «على» بمعنى «عن» قَوْلُ بني كعب بن ربيعة رضي الله عليك أي رضي عنك».

ابن القيم: «على بابها ليست بمعنى «عن» كما قاله المُبَرِّد، بل الفعْل مُتَضَمِّن معنى المكابرة، وهذا في قراءة الألف أظهر.

الثاني: أنه من مراه كذا على كذا أي غلبه فهو من المراء وهو الجِدال». وأما الثانية: فهي من ماراه يماريه، جادله واشتقاقه من مَرَى الناقة، لأن كل واحد من المتجادلين يَمْرِي ما عند صاحبه. وكان من حقه أن يَتَعَدَّى بفي كقولك: جادله في كذا. وإنما ضُمِّن الغَلَبة فعُدِّي تعديتها. وأما قراءة عبد الله فمن «ماراه» رباعياً، والمعنى: «أفتجادلونه»، أي كيف تجادلونه على ما يرى مع أنه رأى ما رأى عَيْن اليقين؟ ولا شك بعد الرؤية. .

القرطبي: «والمعنيان متداخلان لأن مجادلتهم جحود، وقيل: إن الجحود كان دائماً منهم وهذا جدال جديد».

ابن القَيِّم: «القوم جمعوا بين الجدال والدَّفع في الإنكار، فكان جدالهم جدال جحود ودفع لا جدال استرشاد وتبيين للحق. وإثبات الألف يدل على المجادلة، والإتيان بعلى يدل على المكابرة، فكانت قراءة الألف مُتَضَمِّنَةً للمَعْنَيَيْن جميعاً، وذلك أنهم جادلوا حين أُسْرِيَ به، فقالوا صفْ لنا بيت المَقْدِس، وأَخْبِرْنَا عن عِيرنا في الطريق، وغير ذلك مما جادلوه به. والمعنى: أفتجادلونه جدالاً ترمون به دَفْعَه عَمَّا رآه وعَلِمَه وتَيَقَّنَه؟ فإن قيل: هَلاَّ قيل: أفتمارونه على ما رأى؟ بصيغة الماضي، لأنهم إنما جادلوه حين أُسْرِيَ به كما تقدم، وما الحكمة في إبرازه بصيغة المضارع؟ فالجواب أن التقدير: أفتمارونه على ما يرى؟ فكيف وهو قد رآه في المساء، فماذا تقولون فيه»؟.

السابع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿ولقد رآه نَزْلَةً أُخرَى﴾. [النجم: ١٣].

ابن القيِّم: «أَخبر تعالى عن رؤيته لجبريل مرة أُخرى. فالمرة الأُولى كانت دون السماء بالأُفُق الأَعلى والثانية كانت فوق السماء عند سدْرَة المنتهى».

ابن كثير: «هذه هي المرة الثانية التي رأَى رسول الله ﷺ فيها جبريل على صورته التي خلقه الله عليها، وكانت ليلة الإسراء... وتقدم عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه كان يثبت الرؤية ليلة الإسراء ويستشهد بهذه الآية، وتابعه جماعة من السلف والخلف، وقد خالفه جماعات من الصحابة والتابعين». قلتُ وسيأْتي تحقيق ذلك في بابه.

اللباب: «الواو في «ولقد» يُحْتَمَل أَن تكون عاطفة، ويُحْتمل أَن تكون للحال، أَي كيف تجادلونه فيما رآه، وهو قد رآه على وجهٍ لا شك فيه؟ والنَّزْلَة فَعْلَة من النزول كجلسة من الجلوس، وفي نَصْبِها ثلاثة أَوجه: أَحدها: أَنها منصوبة على الظَّرْف الذي هو مَرَّة، لأَن الفَعْلَة إِسم للمَرَّة من الفعْل، فكانت في حكمها. قال الشهاب الحلبي: وهذا ليس مذهب البصريين، وإِنما هو مذهب القُرَّاء، نقله عنه مكي. الثاني: أَنها منصوبة نصب المصدر الواقع موقع الحال، أَي رآه نازلاً نَزْلَةً أُخرى، وإِليه ذهب الحوفي وابن عطية الثالث: أَنها منصوبة على المصدر المؤكد، فقدَّره أَبو البقاء مرةً أُخرى أَو رؤيةً أُخرى. قال الشهاب الحلبي: وفي تأْويل نَزْلة برؤية، نَظَر، وأُخرى تدل على سبق رؤيةٍ قبلها، وعند سدْرَة المنتهى ظرف مكان لرأَى».

الثامن عشر: في الكلام على السِّدْرَة وإِضافتها إِلى المنتهى.

قال الإِمام الرازي: «يَحْتَمل وجوهاً: أَحدها: إِضافة الشيء إِلى مكانه كقولك: أَشجار بلدة كذا، فالمنتهى حينئذ موضع لا يتعداه مَلَك أَو روح من الأَرواح. قال كعب الأَحبار: هي في أَصل العَرْش على رؤوس حَمَلة العَرْش، وإِليها ينقضي علْمُ الخلائق وما خَلْفها بحيث لا يعلمه إِلا الله تعالى. ثانيها: إِضافة المَحَلِّ إِلى الحَالِّ فيه، كقولك: كتاب الفقه، وعلى هذا فالتقدير: سدْرة عندها منتهى العلوم. ثالثها: إِضافة المِلْك إِلى مالكه كقولك: دَارُ زَيْد أَو شجرة زيد، وحينئذ المنتهى إِليه محذوف تقديره: سدْرَة المنتهى إِليه. قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٣]. فالمنتهى إِليه هو الله تعالى، وإِضافة السدْرَة إِليه حينئذ كإِضافة البَيْتِ للتشريف والتعظيم، كما يقال في التسبيح: يا غاية رُغْبَاه ويا منتهى أَمَلاه».

القرطبي: «اختُلف لمَ سُمِّيت سدْرة المنتهى على أَقوال تسعة: الأَول لأَنه ينتهي إِليها ما هبط من فوقها فيُقْبَض منها وإِليها ينتهي ما يَعْرُج من الأَرض، رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود. الثاني: علْمُ الأَنبياء ينتهي إِليها ويَعْزُب عما وراءها، قاله ابن عباس. الثالث: أَن الأَعمال تنتهي إِليها وتُقْبَض منها، قاله الضَّحَّاك. الرابع: لانتهاء الملائكة والأَنبياءِ إِليها

ووقوفهم عندها. الخامس: لأَن أَرواح الشهداء تنتهي إِليها، قاله الربيع بن أَنس. السادس: لأَنه تأْوي إِليها أَرواح المؤمنين، قاله قتادة. السابع: لأَنه ينتهي إِليها كل من كان على سُنَّة محمد ﷺ ومنهاجه، قاله علي بن أَبي طالب رضي الله تعالى عنه، والربيع بن أَنَس أَيضاً. الثامن: [هي شجرة على رؤوس حَمَلة العرش] إِليها ينتهي علم الخلائق. التاسع: لأَن من رُفع إِليها فقد انتهى في الكرامة».

الماوردي: «فإن قيل: لِمَ اخْتيرَتْ السِّدْرَة دون غيرها؟ قيل لأَن السدْرة تختص بثلاثة أَوصاف: ظلٌّ مديد، وطعم لذيذ، ورائحةٌ ذَكيَّة، فشابهت الإِيمان الذي يجمع قولاً ونيَّةً وعملاً، فظلُّها من الإِيمان بمنزلة العمل لتجاوزه، وطعمها بمنزلة النِّيَّة لكمونه أَي استتاره، ورائحتها بمنزلة القول لظهوره».

الصحاح: «السِّدْر شجر النبق الواحدة سدْرة والجمع سِدْرَات أَي بكسر فسكون وسِدِرَات بكسرتَيْن، وسِدَرَات بكسر ففتح، وسِدَر بكسر ففتح»، وسيأتي في شرح القصَّة الكلام على أَصلها.

تنبيه: جاء في النَّهْي عن قطع السِّدْر أَحاديث. فروى أَبو داود والطبراني والبيهقي والضياء في صحيحه عن عبد الله بن حُبْشِيّ بضم المهملة ثم مُوَحَّدة ساكنة، ثم معجمة بعدها ياء ثقيلة، ابن جُنَادة، بضم الجيم وبالنون والدال المهملة، السَّلولي، بفتح السين المهملة ولامَيْن، رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قطع سدْرَةً صَوَّب الله رأْسه في النار»، زاد الطبراني يعني من سِدْر الحَرَم. وقال أَبو داود رحمه الله تعالى: يعني من قَطَع السِّدْرَ في فلاة يستظلّ بها ابن السبيل والبهائم عَبَثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها. وروى البيهقي عن أَبي ثور أَنه سأَل الشافعي عن قطع السِّدْر فقال: لا بأْس به. وقد رُوِيَ أَن النبي ﷺ قال: «اغسلها بماءٍ وسِدْر»، فيكون محمولاً على ما حمله عليه أَبو داود. وقال البيهقي: وروينا عن عُرْوة أَنه كان يقطعه وهو أَحد رواة النهي، فيشبه أَن يكون النهي خاصاً كما قال أَبو داود.

وقال الخَطَّابي: سُئِل المُزَني[1] عن هذا فقال: وجهه أَن يكون النبي ﷺ سئل عَمَّن هجم على قطع سِدْرٍ لقوم أَو يتيم أَو لمن حَرَّم الله تعالى أَن يُقْطَع عليه، فتحامل عليه فقطعه فاستحق ما قاله، فتكون المسأَلة سبقت لسامع فسمع الجواب ولم يسمع المسأَلة وجُعل نظيره

(١) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق أبو إبراهيم، المزني، المصري، الفقيه الإمام صاحب التصانيف. أخذ عن الشافعي وكان يقول: أنا خلق من أخلاق الشافعي، كان زاهداً، عالماً، مجتهداً، مناظراً، محجاجاً، غواصاً على المعاني الدقيقة، صنف كتباً كثيرة؛ قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي. ولد سنة خمس وسبعين ومائة وتوفي في رمضان، وقيل: في ربيع الأول سنة أربع وستين ومائتين، وكان مجاب الدعوة. انظر طبقات ابن قاضي شهبة ٥٨/١.

حديث أُسامة بن زيد أن رسول الله ﷺ قال: «إنما الربا في النسيئة»، فسمع الجواب ولم يسمع المسألة وقد قال: «لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مثْلاً بِمثْلٍ يداً بيد». واحتج المزني بما احتج به الشافعي من إجازة النبي ﷺ أن يُغْسَل الميت بالسدر، ولو كان حراماً لم يَجُز الانتفاع به. وقال: والورق من السِّدْر كالغُصْن. قال: وقد سَوَّى رسول الله ﷺ، فيما حَرَّم قَطْعَه من شجر الحرم بين ورقه وغيره، فلما لم يَمْنَع من ورق السِّدْر، دَلَّ على جواز قطع السِّدْر.

قال الشيخ رحمه الله تعالى في فتاويه: «والأَوْلى عندي في تأويل الحديث أنه محمول على سِدْر الحرم، كما وقع في رواية الطبراني. قال ابن الأثير في النهاية: «قيل أَراد به سِدْرَ مكة لأنها حَرَم وقيل سِدر المدينة، نهى عن قطعه ليكون أُنساً وظلاً لمن يهاجر إليها، وقيل أَراد السِّدْر الذي يكون في الفلاة يستظلّ به أبناء السبيل والحيوان أَو في مِلْك إنسان، فيتحامل عليه ظالم فيقطعه بغير حق، ومع هذا فالحديث مضطرب الرواية فإن أَكثر ما يُرْوَى عن عروة بن الزبير، وكان هو يقطع السدر ويتخذ منه أَبواباً. قال هشام: وهذه أَبواب من سِدْرٍ قَطَعَهُ أَبي، وأَهل العلم مُجمعون على إباحة قطعه».

وروى أَبو داود عن حَسَّان بن إبراهيم قال: «سأَلتُ هشام بن عروة عن قطع السِّدر، وهو مُسْنِد ظهْره إلى قصر عروة، قال: ترى هذه الأَبواب والمصاريع إنما هي من سِدْر قطعه أَبي من أَرضه».

التاسع عشر: في الكلام على قوله تعالى: ﴿عندها جَنَّة المأوى﴾ [النجم: ١٥]

قال القرطبي: هذا تعريف بموضع جنة المأوىٰ وأَنها عند سدرة المنتهى، وهي عن يمين العرش، وقيل أَوى إليها آدم عليه الصلاة والسلام إلى أَن أُخرِج منها. وقيل: إن أَرواح المؤمنين كلهم في جنة المأوى، وهي تحت العرش فيتنعمون [بنعيمها ويتنسمون بطيب ريحها]. وقيل: لأَن جبريل وميكائيل عليهما السلام يأويان إليها.

اللباب: «جملة إبتدائية في موضع الحال، والأَحسن أَن يكون الحال الظرف، وجنة المأوى فاعل به. والعامة أَن جَنَّة إسم مرفوع وقرأ أَمير المؤمنين علي، وأَبو الدرداء[١]، وأَبو هريرة، وابن الزبير، وأَنس من الصحابة رضي الله تعالى عنهم وزرّ بن حُبَيْش، ومحمد بن كعب من التابعين: جَنَّهُ فعْلاً ماضياً، والهاء ضمير المفعول يعود للنبي ﷺ، والمأوى فاعل

(١) عويمر بن زيد بن قيس الأنصاري، أبو الدرداء، مختلف في اسم أبيه وإنما هو مشهور بكنيته، وقيل: اسمه عامر، وعويمر لقب، صحابي جليل، أول مشاهده أحد، وكان عابداً، مات في آخر خلافة عثمان، وقيل: عاش بعد ذلك. التقريب ٩١/٢.

بمعنى سَتَرَةُ إِيواء الله إِياه. ويقال ضَمَّه البيت والليل، وقيل جَنَّهُ بظلاله ودخل فيه».

قال الإمام الرازي: «ويحتمل أَن يكون الضمير في «عندها» على هذه القراءة عائداً إلى النَّزْلَة، أَي عند النَّزْلَة جَنَّ محمداً المأْوى، أَي سَتَرَهُ، والصحيح أَنه عائد إلى، السِّدْرَة».

اللباب: «وهذا قول الجمهور، وقد أَنكرت عائشة رضي الله تعالى عنها هذه القراءة، وتَبِعَها جماعة وقالوا: «أَجَنَّ الله من قرأَها». فإذا ثبتت قراءة عن مثل هؤلاءِ فلا سبيل إلى ردها. ولكن المستعمل إنما هو «أَجَنَّه» رباعياً، فإن استُعْمل ثلاثياً تَعَدَّى «بعلى»، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ الأنعام: ٧٦]. وقال أَبو البقاء: هو شاذٌ والمستَعْمَل: أَجَنَّهُ».

العشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿إِذ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦].

ابن القَيِّم: «لما ذكر سبحانه رؤية محمد ﷺ لجبريل عليه السلام عند سدرة المنتهى، استطرد منها وذكر أَن جَنَّة المأْوى عندها وأَنه يغشاها من أَمْرِه وخَلْقه ما يغشى، وهذا من أَحسن الاستطراد، وهو أُسلوب لطيف جداً في القرآن».

اللباب: «إذ» منصوب يراه.

الإمام: «العامل في «إذ» ما قبلها أَو ما بعدها، فيه وجهان. فإن قلنا ما قبلها ففيه احتمالان: أَظهرهما رآه أَي رأَى وقت ما يَغْشَى السِّدْرَة الذي يَغْشَى. والاحتمال الثاني العامل فيه الفعل الذي في النزلة أي رآه نزلة أخرى، تلك النزلة وقت ما يغشى السدرة ما يَغْشَى، أَي نزوله لم يكن إلا بعد ما ظهرت العجائب عند السِّدْرة وغَشيَها ما غَشيها، فحينئذ نزل محمد نَزْلَةً، إشارة أَنه لم يرجع من غير فائدة. وإن قلنا العامل فيه ما بعدها فالعامل: ما زاغ البصر، أَي ما زاغ بَصَرُه وقت غشيان السدرة ما غشيها.

واختلفوا فيما يغشى السدرة فقيل فَرَاشٌ أَو جرادٌ من ذهب وهو قول ابن عباس وابن مسعود والضَّحَّاك. قال القرطبي: ورواه ابن مسعود وابن عباس مرفوعاً إلى النبي ﷺ قال: «رأَيتُ السِّدْرَة يغشاها فَرَاشٌ من ذهب ورأَيتُ على كل ورقة ملكاً يُسَبِّح الله تعالى».

قلتُ وقول الإمام: «إن هذا ضعيف، لأَن ذلك لا يثبت إلا بدليل سمعي، فإن صَحَّ فيه خَبَر وإلا فلا وجه له قصور شديد، فإن الحديث في صحيح مسلم وغيره. ومثْلُه لا يقال بالرأْي. وقيل: ملائكة يَغْشَوْنها كأَنهم طيور يرتقون إليها مُتشوِّقين مُتَبَرِّكين بها زائرين كما يزور الناس الكعبة، وقيل يغشاها أَنوار الله تعالى لأَن النبي ﷺ لما وصل إلى السِّدْرَة تجلى لها ربه تبارك وتعالى كما تجلى للجبل، فظهرت الأَنوار، ولكن السِّدْرَة كانت أَقوى من الجبل وأَثبت، فجُعل الجَبَلُ دَكًّا، ولم تتحرك الشجرة وخَرَّ موسى صعقاً، ولم يتزلزل محمد ﷺ».

قلتُ: ولا منافاة بين هذه الأقوال، فقد ورد أن كلاً منها يغشاها كما سيأتي ذلك في القصة. وقيل أبهمه تعظيماً له كأنه قال: إذْ يَغْشَى السدرَة ما الله أعلم به من دلائل ملكوته وعجائب قدرته.

الإمام: «يغشى يستر، ومنه الغواشي أو من معنى الإتيان، يقال فلان يَغْشَانا كل وقت أي يأتينا، الوجهان محتملان».

الحادي والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿ما زاغ البَصَر﴾:

الصحاح: «الزَّيْغ المَيْل، وقد زاغ يَزِيغ وزاغ البَصَر أي مال».

ابن القَيِّم: «قال ابن عباس: «ما زاغ البَصَر يميناً ولا شِمالا، ولا جاوز ما أُمِرَ به». وعلى هذا المُفِسّرون، فَنَفَى تعالى عن نبِيِّه ﷺ ما يَعْرِض للرائي الذي لا أدب له بين أيدي الملوك والعظماء من التفاته يميناً وشمالاً لما بين يديه، وأخبر عنه بكمال الأدب في ذلك المقام، وفي تلك الحضرة، إذ لم يلتفت جانباً، ولم يَمُدّ بَصَرَه إلى غير ما أُرِيَ من الآيات وما هناك من العجائب، بل قام مقام العَبْد الذي أوجب أدَبُه إطراقَه وإقبالَه على ما أُريد له دون التفاته إلى غيره، ودون تطلعه إلى ما لم يَرَه، مع ما في ذلك من ثبات الجأش وسكون القلب وطمأنينته. وهذا غاية الكمال. فزَيْغ البَصَر التفاتُه جانباً، وطغيانُه مَدُّهُ أمامه إلى حيث ينتهي. فنَزَّهَ في هذه السورة عَمَلَه عن الضَّلال وقَصْدَه عن الغَيّ ونُطْقَه عن الهوى وفؤادَه عن تكذيب بَصَره، وبصره عن الزيغ والطغيان. وهكذا يكون المدح:

تِلْكَ المَكَارِمُ لاَ قَعْبانِ مِنْ لَبَنٍ ... شِيبَا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبْوَالاً

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «اللام في البَصَر تَحْتَمِل وَجْهَيْن: أحدهما: المعروف وهو بَصَر محمد ﷺ، أي ما زاغ بَصَر محمد، وعلى هذا فعدم الزَّيْغ لوجوه: إن قلنا الغاشي للسِّدْرَة هو الجراد أو الفَرَاش، فمعناه لم يلتفت محمد إليه ولم يَشْتَغِل به، ولم يقطع نظره عن مقصوده. وعلى هذا فَغَشَيَان الجراد والفَرَاش يكون ابتلاء وامتحاناً للنبي ﷺ. وإن قلنا أنوارَ الله تعالى ففيه وجهان: أحدهما: لم يلتفت يُمْنَةً ويُسْرَة، بل اشتغل بمطالعتها، وثانيهما: ما زاغ البصر بضعفه، ففي الأول بيان أدب محمد ﷺ، وفي الثاني بيان قوته. الوجه الثاني في اللام: أنها لتعريف الجنس، أي ما زاغ بَصَرُه أصلاً في ذلك الموضع لعِظَم الهيبة. فإن قيل: لو كان كذلك لقال: ما زاغ بَصَرٌ، فإنه أدَلّ على العموم لأن النَّكِرَة في مَعْرِض النَّفْي تَعُمّ. فالجواب هو كقوله تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] ولم يَقُل لم يدركه بَصَر.

الثاني والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿وما طغى﴾: [النجم: ١٧].

اللباب تبعاً للإمام الرازي: «فيه وجهان: أحدهما أنه عطف جملة مستقلة على جملة

أخرى. الثاني: أنه عطف جملة تقديره مُقَدَّرَةً على جملة. فمثال المستقلة: خرج زيد ودخل عمرو، ومثال المُقَدَّرة: خرج زيد ودخل، الوجهان جائزان هنا. أما الأول فكأنه تعالى قال عند ظهور النور: ما زاغ بَصَرُ مُحَمَّدٍ وما طغى محمد بسبب الالتفات، ولو التفت لكان طاغياً. وأما الثاني فظاهر. فإن قيل بأن الغاشي للسِّدْرَة جراد، فالمعنى لم يلتفت إليه وما طغى، أي ما التفت إلى غير الله تعالى، ولم يلتفت إلى الجراد ولا إلى غير الجراد، بل إلى الله سبحانه وتعالى. أما على قول من قال غَشِيها نور، فقوله تعالى: «ما زاغ» أي ما مال عن الأنوار. وما طغى، أي ما طلب شيئاً وراءه. وفيه لطيفة وهي أن الله تعالى قال: ما زاغ وما طغى ولم يَقُل ما مال وما جاوز، لأن الميل في ذلك الموضع والتجاوز مذمومان، فاستعمل الزَّيْغ والطغيان فيه. وفيه وجه آخر، وهو أن يكون ذلك بياناً لوصول النبي ﷺ إلى شدة اليقين الذي لا يقين فوقه، ووجه ذلك أن بصره ﷺ ما زاغ أي ما مال عن الطريق، فلم يَرَ الشّيء على خلاف ما هو عليه بخلاف من ينظر إلى عين الشمس مثلاً، ثم ينظر إلى شيء أبيض فإنه يراه أصفر وأخضر، يزيغ بَصَرُه عن جادَّة الإبصار. وقوله: ﴿وما طغى﴾ أي ما تَخَيَّل المعدوم موجوداً، وقيل: «وما طغى» أي ما تَخَيَّل المعدوم موجوداً وقيل: «وما طغى» أي ما جاوز ما أُمِر به».

الثالث والعشرون: في الكلام على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨].

اللباب: «في الكبرى وجهان؛ أظهرهما أنه مفعول رأى من آيات ربه حال مَقْدَمِه، والتقدير: لقد رأى الآيات الكبرى من آيات ربه. والثاني أن «من آيات ربه» هو مفعول الرؤية، والكبرى صفة لآيات ربه. وهذا الجمع يجوز وصفه بوصف المؤنثة الواحدة، وحسنه هنا كونها فاصلة».

الإمام الرازي: «في الكبرى وجهان: أحدهما: أنهما صفة لمحذوف تقديره لقد رأى من آيات ربه. ثانيهما: صفة لآيات ربه، فيكون مفعول رأى محذوفاً تقديره: رأى من آيات ربه الكبرى آيةً أو شيئاً.

القرطبي: «ويجوز أن تكون «من» زائدة، أي رأى آيات ربه الكبرى. وقال بعضهم: آيات ربه الكبرى هي أنه رأى جبريل عليه السلام في صورته».

قال الإمام: «والظاهر أن هذه الآيات غير تلك لأن جبريل وإن كان عظيماً لكن ورد في الأخبار أن لله ملائكة أعظم منه. والكبرى تأنيث الأكبر، فكأنه تعالى قال: رأى من آيات ربه آيات هي أكبر الآيات. وروى الإمام أحمد والترمذي وصَحَّحه، عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «رأى جبريلَ في حُلَّةٍ من رَفْرَف قد ملأ ما بين السماء والأرض».

قال الحافظ: «وبهذه الرواية يُعْرَف المراد بالرفرف وأنه حُلَّة، ويُؤَيِّده قَوْلُه تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [الرحمن: ٧٦]. وأَصل الرفرف ما كان من الديباج رقيقاً حَسَن الصفة. ثم اشتهر استعماله في الستر، وكل ما فضل من شيء وعُطِف وثُنِّي فهو رفرف».

القرطبي: «هو ما رأَى تلك الليلة في مسراه في عوده وبدئه وهذا أَحسن».

قال الإمام: «وهذه الآية تدل على أَن النبي ﷺ لم يَرَ الله تعالى ليلة المعراج وإنما رأَى آيات الله تعالى وفيه خلاف، ووجه الدلالة أَنه تعالى ختم قصة المعراج ها هنا برؤية الآيات وقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾ [الإسراء: ١] إلى أن قال: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ ولو كان رأَى ربه لكان ذلك أَعظم ما يمكن، فكانت الآية للرؤية، وكان أَكبر شيء هو الرؤية».

ابن كثير: «وبهاتَيْن الآيتين استدل من ذهب من أَهل السُّنَّة إلى أَن الرؤية تلك الليلة لم تقع لأَنه قال: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ ولو كان رأَى ربه لأَخبر بذلك ولقال ذلك للناس».

خاتمة: اشتملت هذه الآيات على قَسَمِه تعالى على هداية نبيه محمد ﷺ، وتنزيهه عن الهوى وصدقه فيما تلا، وأَنه وَحْيٌ يُوحَى، يُوصِّله إليه جبريل الشديد القوي عن الله تبارك وتعالى العَليّ الأَعلى، واحتوت أَيضاً على تزكية جملته ﷺ وعصمته من الارتياب في هذا المَسْرَى، ثم أَخبر تعالى فيها عن فضيلته بقصة الإسراء وانتهائه إلى سِدْرة المنتهى، وتصديق بصره فيما رُوي أَنه رأَى من آيات ربه الكبرى.

الباب الثالث

في اختلاف العلماء

في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه تبارك وتعالى ليلة المِعْراج

اعلم أن الصواب الذي عليه أهل الحق [أن] رؤية الله سبحانه وتعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضاً على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يَرَوْنَ الله تعالى. وزعمت طوائف من أهل البدع أن الله تعالى لا يراه أحدٌ من خَلْقه، وأن رؤيته مستحيلة عقلاً. وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح.

وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسُّنَّة وإجماع الصحابة ومن بعدهم من سَلَف الأُمَّة على إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة للمؤمنين. ورواها أحد وعشرون صحابياً عن النبي ﷺ، وآيات القرآن العظيم فيها مشهورة، واعتراضات المبتدعة عليها، لها أجوبة مذكورة في كتب المتكلمين من أهل السُّنَّة.

وأما رؤية الله تعالى في الدنيا فممكنة عقلاً وسَمْعاً، ومذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في خَلْقه، ولا يُشْتَرَط فيها اتصال الأَشِعَّة ولا مقابلة المرئي ولا غير ذلك. ولكن جرت العادة في رؤية بعضنا بعضاً بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط.

وقد قرَّر أئمتنا المتكلمون ذلك بالدلائل الجَلِيَّة، ولا يلزم من رؤية الله تعالى إثبات جهة الله - تعالى عن ذلك - بل يراه المؤمنون لا في جهة، كما يعلمون أنه لا في جهة. وبيان الدليل العقلي على جوازها بطريق الاختصار أن الباري سبحانه وتعالى موجود، وكل موجود يَصِحُّ أن يُرَى، فالباري عَزّ وجَلّ يَصِحُّ أن يُرَى. أما الصغرى فظاهرة، وأما الكبرى، فلأن الحكم يدور مع عِلَّته وجوداً وعدماً. وقد تَبَيَّن أن الموجود هو العِلَّة لصحة الرؤية، ولا يلزم من جوازها وقوعُها وعَدَمُ تَعَلُّقِها، إنما هو لِجَرْيِ عادته تعالى بعَدَم خَلْقِها فينا الآن، مع جواز خَلْقها فينا، إذ هي غير مستحيلة وهنا أبحاث مَحَلُّها الكتب الكلامية.

وبيان الدليل الشَّرعي على جوازها في الدنيا أن موسى بن عمران، رسول الله وكليمه، العارف به سأل الله سبحانه وتعالى الرؤية، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] مع اعتقاده أنه تعالى يُرَى، فسألها. **وفي هذه الآية دليلان. الأول:** مُحال أن يجهل نَبيٌّ ما يجوز على الله تعالى وما لا يجوز عليه، بل لم يسأل إلا جائزاً غَيْرَ مُحَال، لاستحالة سؤال المُحَال من الأنبياء، ولكن وقوعه ومشاهدته من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، ومن

أَعلمه إِياه وأَطلعه عليه، فقال له تعالى غَيْرَ نافٍ للجواز: «لن تراني»، دون لن أُرَى الـمُؤْذنة بنفيه أَي لن تُطيق ولا تَحْتَمل رؤيتي الآن لتَوَقُّفها على مُعَدٍّ لها في الرائي لم يوجد فيك بعد. ومَثَّل له مثالاً بما هو أَقوى من بَنِيَّه موسى ﷺ وأَثْبَت، وهو الجَبَل في قوله: ﴿وَلَـٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وهذا هو الدليل الثاني: وبيانه أَنه تعالى عَلَّق رؤية موسى إِياه تعالى باستقرار جبل المناجاة في مكانه وقت التجلي له، والشيء الـمُعَلَّق بالممكن ممكن، إِذ معنى التعليق الإِخبار بثبوت الـمُعَلَّق عند ثبوت الـمُعَلَّق به. وعلى هذا فالشرطية خبرية إِذا كان الجزاء في الأَصل خبريًّا كما هنا. فثَبَت إِمكان الرؤية ضرورة أَن الله تعالى أَخبر بوقوعها على بعض التقادير، والـمُحَال لا يقع على شيء من التقادير أَصلاً، وإِذا ثَبَتَ الإِمكان انتفى الامتناع وبالعكس وهنا أَبحاث محلها الكتب الكلامية. وقول موسى ﷺ: «**تُبْتُ إِلَيكَ**»، أَي من الإِقدام على سؤالي إِياه في الدنيا ما لم تُقَدِّره لي. وقيل: إِن قوله ﴿تُبْتُ إِلَيكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] إِنما كان لما غَشِيَه من شدَّة ما أَفْضَى به إِلى أَن صُعِق، كما تقول من فعل جائرٍ عَرَاكَ منه مَشَقَّة: تُبْتُ عن فعل مثله.

وقال القاضي أَبو بكر الهُذَلي، في قوله تعالى: ﴿لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] أَي ليس لبَشَرٍ أَن يُطيق النَّظَر إِلَيَّ في الدنيا وأَن من نظر إِلَيَّ في الدنيا مات، أَي في الحال، بشهادة صَعْق موسى إِذ رأَى الجَبَل» وقال القاضي: «وقد رأَيتُ لبعض السلف والمتأَخرين أَن رؤيته تعالى في الدنيا ممتنعة، لا من حيث ذاتها، لثبوت جوازها فيها بما مَرَّ، وإِنما امتنعت فيها لضعف تراكيب أَهل الدنيا وقواهم، وكونها مُتَغَيِّرة عُرْضة للآفات من نوائب مقلقلة ونواكب للأَكباد معلقة تنذر بالموت والفَنَاء، فلم تكن لهم قوة على الرؤية في الدنيا. فإِذا كان في الآخرة ورُكِّبوا تركيباً آخر ورُزِقوا قُوَّى ثابتة باقية وأُتِمَّت أَنوار أَبصارهم وقلوبهم حَصَل بذلك قُوَّةٌ على الرؤية في الآخرة».

وقد رأَيت نحو هذا للإِمام مالك بن أَنس رحمه الله قال: «لم يُرَ في الدنيا لأَنه باقٍ ولا يُرَى الباقي بالفاني. فإِذا كان في الآخرة ورُزِقوا أَبصاراً باقية رُئِيَ الباقي بالباقي» وهذا الذي قاله الإِمام مالك كلام حسن مليح، وليس فيه دلالة على الاستحالة إِلا من حيث ضعف القُدْرَة، فإِذا قَوَّى اللهُ تعالى مَنْ شاءَ أَقدَره على حَمْل أَعباء الرؤية في حقه في أَي وقت كان.

قال الحافظ: «ووقع في صحيح مسلم ما يؤيد هذه التفرقة في حديث مرفوع فيه: «واعلموا أَنكم لن تَرَوْا رَبَّكم حَتَّى تموتوا». وأَخرجه ابن خُزَيْمَة ـ بخاء معجمة مضمومة فزاي مفتوحة ـ من حديث أَبي أُمَامة، ومن حديث عُبَادة بن الصامت. فإِذا جازت الرؤية في الدنيا

عقلاً، فقد امتنعت سمعاً. لكن من أثبتها للنبي ﷺ له أن يقول إن المتكلم لا يدخل في عموم خطابه».

قال القاضي: «ولا حجة لمن استدل على منعها بقوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] لاختلاف التأويلات في الآية، فقد قيل: المراد بالإدراك الإحاطة، فلا نَفْيَ فيها لمطلق الرؤية، وقيل: لا تدركه أبصار الكُفَّار، وقيل غير ذلك: والجواب الصحيح أنه لا دلالة في هذا النفي على عموم الأوقات ولا حال من الأحوال لأنه مَسْكُوتٌ عنه. فمن أين أن المراد لا تدركه الأبصار في وقت من الأوقات ولا حال من الأحوال؟ بل يَتَعَيَّن الحمل على النفي بالنسبة إلى دار الدنيا جمعاً بين الأدلة السمعية».

وقال أبو العباس القرطبي في المُفْهِم: «الأبصار» جَمْع مُحَلَّى بالألف واللام، فيقبل التخصيص، وقد ثَبَت ذلك سَمْعاً في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥] فيكون المراد الكُفَّار، بدليل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] قال: فإذا جازت في الآخرة جازت في الدنيا لتساوي الوقتين بالنسبة إلى الرائي» انتهى.

قال الحافظ: «وهو استدلال جيد».

وقد يُسْتَدَلّ بهذه الآية على جواز إمكان الرؤية، إذ لو امتنعت الرؤية لما حصل التَّمَدُّح في الآية بنفي الرؤية، ووجه المُلَازَمَة أن الممتنع مُنْتَفٍ في حد ذاته، فلا يكون نَفْيُه صفة مدح، لأنه ضروري كالمعدوم الممتنع الرؤية، لا يُمْدَح بعدم رؤيته، إذ لا يكون: «المعدوم لا يُرَى» تمدحاً، لامتناع رؤية المعدوم. وقد ثبت التمدح بنفي عدم رؤيته تعالى فتكون رؤيته ممكنة، والحاصل أن التمدح بنفي عدم الرؤية إنما يكون في إمكان رؤيته تعالى لكنه لا يُرَى للامتناع وتعذر الإبصار والتحجب بحجاب الكبرياء والجلال لا في أنه لا يُرَى لامتناع رؤيته تعالى. لكن الصفات السلبية على هذا، صفات تَمَدُّح، وإن جعلنا الإدراك في الآية عبارة عن الرؤية على وجه الإحاطة بجوانب المرئي وحدوده. فدلالة الآية حينئذ على جواز الرؤية بل على تحققها بالوقوع، أظهر من دلالتها على الجواز بما ذُكِر من التَّمَدُّح. إذ المعنى على هذا لا تدركه الأبصار، إذ نظرتَ إليه على وجه الإحاطة، لأنه تبارك وتعالى، مع كونه مرئياً بالأبصار لا تدركه الأبصار على وجه الإحاطة، لتعاليه قطعاً عن التناهي وعن الاتصاف بالحدود التي هي النهايات والجوانب على ما تَبَيَّنَ في كتب الكلام.

والإحاطة بما لا يتناهى مُحال. ولهذا مزيد بيان يأتي في الكلام على حديث عائشة رضي الله عنها. ومع القول بجوازها في الدنيا، لم يحصل لبشر غير نبينا ﷺ، على ما في

ذلك من الخلاف، ومن ادّعاها غيره فهو ضالّ. كما جزم بكفره الإمام موفق الدين الكواشي[١] ـ بالفتح والتخفيف وبالمعجمة ـ والإمام المهدوي[٢] في تفسيريهما، والإمام جمال الدين الأَرْدُبيلي[٣] ـ بالفتح وسكون الراء وضم الدال المهملة وكسر الموحدة وسكون التحتية ـ في كتاب «الأَنوار»، إذ قد سأَلها نبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران، ولم تحصل له، أَفتحصل لآحاد الناس؟ هذا مما يُتوَقفُ فيه.

فصل: وإذا عُلِم ما تقرر ففي رؤية النبي ﷺ لربه تبارك وتعالى ليلة المعراج مذهبان: فنفتها عائشة وهو المشهور عن ابن مسعود، وجاء مثله عن أَبي هريرة، وإليه ذهب كثيرون من المُحَدِّثين والمتكلمين. وبالغ الحافظ عثمان بن سعيد الدارمي، فنقل فيه الإجماع، والثاني أَنه رآه. وروى عبد الرزاق عن مَعْمَر عن الحسن أَنه كان يحلف بالله أَن محمداً ﷺ رأَى ربه. وروى ابن خُزَيْمَة عن عروة بن الزبير إثباتها، وكان يشتد عليه إنكار عائشة لها. وبه قال سائر أَصحاب ابن عباس، وبه جزم كعب الأَحبار والزهري ومعمر وآخرون. وبه قال الشيخ أَبو الحسن الأَشعري[٤] وغالب أَتباعه. وجنح ابن خُزَيْمَة إلى ترجيحه بما يطول ذِكْرُه. ثم اختلفوا:

---

(١) أحمد بن يوسف بن الحسن بن رافع بن الحسين بن سويدان الشيباني الموصلي، موفق الدين أبو العباس الكواشي: عالم بالتفسير، من فقهاء الشافعية. من أهل الموصل. كان يزوره الملك ومن دونه فلا يقوم لهم ولا يعبأ بهم. من كتبه: «تبصرة المتذكر» في تفسير القرآن، و «كشف الحقائق» و «تلخيص في تفسير القرآن العزيز». توفي ٦٨٠هـ. الأعلام ٢٧٤/١.

(٢) أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي التميمي، أبو العباس: مقرئ أندلسي أصله من المهدية بالقيروان. رحل إلى الأندلس في حدود سنة ٤٠٨ وصنف كتباً، منها «التفصيل الجامع لعلوم التنزيل» وهو تفسير كبير للآيات، يذكر القراءات والإعراب، واختصره وسماه «التحصيل في مختصر التفصيل» توفي نحو ٤٤٠هـ. الأعلام ١٨٤/١.

(٣) محمد بن عبد الغني الأردبيلي، جمال الدين: نحوي. له «شرح انموذج الزمخشري» في النحو. توفي سنة ٦٤٧هـ. الأعلام ٢١١/٦.

(٤) علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة بن أبي موسى، الشيخ أبو الحسن الأشعري البصري. إمام المتكلمين، وناصر سنة سيد المرسلين، والذابّ عن الدين، والمصحح لعقائد المسلمين. مولده سنة ستين ومائتين، وقيل: سنة سبعين. أخذ علم الكلام أولاً عن أبي علي الجبائي شيخ المعتزلة، ثم فارقه، ورجع عن الاعتزال، وأظهر ذلك، وشرع في الرد عليهم، والتصنيف على خلافهم. وقال أبو بكر الصيرفي: وهو من نظراء الشيخ أبي الحسن، كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري فحجرهم في أقماع السمسم. قال الخطيب البغدادي: أبو الحسن الأشعري المتكلم، صاحب الكتب والتصانيف في الرد على الملحدة وغيرهم من المعتزلة والرافضة، والجهمية والخوارج، وسائر أصناف المبتدعة. وهو بصري سكن بغداد إلى أن تُوفي. وقد جمع الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر له ترجمة حسنة، ورد على من تعرض له بالطعن، وذكر فضائله، ومصنفاته، ومتابعته في كتبه المذكورة السنة، وانتصارها لها، وذبه عنها ومن أخذ عنه من العلماء الأعلام، سمّاه «تبيين الكذب المفتري فيما نسب إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري»، وهو كتاب مفيد مطبوع ومتداول بين أهل العلم توفي في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة.

انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ١١٣/١، ١١٤، وتاريخ بغداد ٣٤٦/١١ ووفيات الأعيان ٤٤٦/٢ والبداية والنهاية ١٨٧/١١ وطبقات الشافعية للسبكي ٢٤٥/٢ وتبيين كذب المفتري ص ١٢٨ وشذرات الذهب ٣٠٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٥٩/٣ والجواهر المضية ٣٥٣/١.

هل رآه بعينه أو بقلبه؟ والقولان رُويا عن الإمام أحمد. وقال الإمام النووي: الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى رَبَّه بِعَيْنَيْ رأسه ليلة المعراج، وبسط الكلام على ذلك واستدل بأشياء نوزع في بعضها كما سيأتي بيانه في ذكر أدلة المذهب الأول.

وذهب جماعة إلى الوقف في هذه المسألة ولم يجزموا بنفي ولا إثبات لتعارض الأدلة، ورَجَّح ذلك الإمام أبو العباس القرطبي في المُفْهِم، وعَزَاه لجماعة من المحققين، وقوّاه بأنه ليس في الباب دليل قاطع. وغالب ما استدلت به الطائفتان ظواهر متعارضة قابلة للتأويل. قال: وليست المسألة من التعظيمات فيُكْتَفَى فيها بالدلالة الظَّنِّية، فإنما هي من المعتقدات فلا يُكْتَفَى فيها إلا بالدليل القطعي.

وقال السبكي رحمه الله في السيف المسلول: «ليس من شرطه أن يكون قاطعاً متواتراً بل متى كان حديثاً صحيحاً ولو ظاهراً وهو من رواية الآحاد، جاز أن يُعْتَمدَ عليه في ذلك لأن ذلك من مسائل الاعتقاد التي يُشْتَرط فيها القَطْعُ، على أنَّا لسنا مُكَلَّفين بذلك». انتهى.

وقال القاضي في الشفاء وغيره: «لا مِرْيَةَ في الجواز، إذا ليس في الآيات: ﴿**لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿**لَنْ تَرَانِي وَلَـكِنِ انْظُرْ إِلَى الجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي**﴾ [الأعراف: ١٤٣] نَصّ في المنع للرؤية، بل هي مشيرة للجواز كما تَقَرَّر ذلك. وأما وجوب وقوعها لنبينا ﷺ، والقول بأنه رآه بعينه، فليس فيه قاطع أيضاً ولا نَصّ يُعَوَّل عليه، إذ المُعَوَّل عليه فيه على آيَتَيْ النَّجْم: ﴿**مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾ [النجم: ١١] و ﴿**مَا زَاغَ البَصَرُ وَمَا طَغَى**﴾ [النجم: ١٧]. والتنازع بين الأئمة فيهما مأثور، والاحتمال لهما من حيث دلالتهما على الرؤية وعدمها ممكن، لعدم صراحتهما بها، لا أَثَر قاطع متواتر عن رسول الله ﷺ بذلك. وحديث ابن عباس أنه رآه بعينه أو بفؤاده إنما نشأ عن اعتقادٍ لم يُسْنِدْهُ إلى النبي ﷺ حتى يُعْتَبَر فيجب العمل باعتقاد مُضَمَّنِه من رؤيته رَبَّه. ومِثْلُه حديث شريك عن أبي ذَرّ في تفسير الآية بأن النبي ﷺ رأى رَبَّه، وحديث مُعَاذ: «رَأَيْتُ رَبِّي في أَحْسَن صورة»[1]، مضطرب الأسناد والمتن. وحديث أَبي ذَرّ مُخْتَلِفٌ من حيث اللفظ مُحْتَمِلٌ لأن يكون رآه أو لم يَرَه، مُشْكِلٌ من حيث جَعَل ذاتَه نوراً، فرُوِيَ: «نورٌ أَنَّى أَرَاه»[2] ـ بفتح أوله وتشديد النون ـ أي نوراً لن أراه، أي لِجَرْيِ العادة بأن النور إذا غشى البَصَر حجبه في رؤيته لما وراءه، ورُوِي: «نورانِيّ؛ أي بكسر النون الثانية وتشديد التحتية».

---

(١) أخرجه السيوطي في اللآلئ ١٥/١ وأخرجه من طرق بنحوه الخطيب في التاريخ ١٥٢/٨ وابن سعد في الطبقات ٧/ ٣٠٤ وابن الجوزي في العلل ١٦/١ وابن أبي عاصم في السنة ٢٠٤/١.

(٢) أخرجه مسلم (١٦١) والترمذي (٣٢٨٢) وأحمد في المسند ١٥٧/٥ وأبو نعيم في الحلية ٦١/٩ وسيأتي بتمامه في نص المصنف رحمه الله.

قال القاضي: «وهذه الراوية لم تقع لنا، ولا رأيتُها في أصل من الأُصول، ومُحَالٌ أن تكون ذاته تعالى نوراً، إذ النور جسم يتعالى الله عَزَّ وَجَلّ عنه، ومن ثَمَّ كانت تسميته نوراً بمعنى ذي النور أو خالقه. وفي الحديث الآخر: سألت رسول الله ﷺ هل رأيتَ ربك؟ فقال رسول الله ﷺ: «رأيْتُ نُوراً». وليس يمكن الاحتجاج بواحد منهما لإفصاحهما بأنه لم يَرَه، فإن كان الصحيح «رأَيتُ نوراً»، فقد أَخبر رسول الله ﷺ بأنه لم يَرَ الله تعالى، وإنما رأى نوراً منعه وحجبه عن رؤية الله تعالى. وإلى قوله: «رأَيتُ نوراً» يرجع قوله: «نور أنَّى أَراه»، أي كيف أَراه مع كون حجابه النور المُغَشِّي للبصر، وهذا الحديث مثل الحديث الآخر من حيث المعنى: حجابُه النور، كما رواه مسلم وغيره. وقال أيضاً في الإكمال: وقف بعض مشايخنا في هذا. وقال: ليس هذا عليه دليل واضح، ولكنه جائز، ورؤية الله تعالى في الدنيا جائزة.

ذكر أدلة القول الأول

زاد الشيخان وعبد الرَّزَّاق وَعَبْد بن حُمَيْد والترمذي وابن جرير وغيرهم عن مسروق، زاد عبد الرَّزَّاق ومن بعده عنه، قال: لقي ابن عباس كعباً بعرفة فسأله عن شيء فقال ابن عباس: إنَّا بنو هاشم نَزْعُم، وفي لفظ نقول: إن محمداً ﷺ رأَى رَبَّه مَرَّتَيْن. فكَبَّر كعب حتى جاوبته الجبال. ثم قال: «إن الله قَسَّم رؤيته وكلامه بين محمد وموسى عليهما السلام [فكَلَّم موسى مرتين] ورآه محمد ﷺ مرتين». ثم اتفقوا. قال مسروق: فدخلتُ على عائشة فقلت يا أُمَّتَاه، هل رأَى محمد رَبَّه؟ فقالت: لقد قَفَّ شَعْري بما قُلْتَ، أَيْنَ أَنت من ثلاث من حَدَّثَكَهُنّ فقد كَذَب، وفي لفظ: فقد أَعْظَمَ على الله الفِرْيَة، مَنْ حَدَّثك أن محمداً رأى رَبَّه فقد كَذَب وفي لفظ فقد أعظم على الله الفِرْيَة، ثم قرأَتْ ﴿**لا تُدْرِكُه الأَبْصَارُ وهو يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِير**﴾ [الأنعام: ١٠٣]، ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَه اللَّهُ إلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَاب**﴾ [الشورى: ٥١]، ومَنْ حَدَّثَك أَنه يعلم ما في غَدٍ فقد كَذَب، وفي لفظ: فقد أَعْظَمَ على الله الفِرْيَة، ثم قرأَت: ﴿**وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِب غَداً**﴾ [لقمان: ٣٤] ومن حَدَّثَك أَنه قد كَتَم فقد كَذَب، وفي لفظ فقد أَعْظَمَ على الله الفِرْيَة، ثم قرأت: ﴿**يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَم تَفْعَل فما بَلَّغْتَ رسالته**﴾ [المائدة: ٦٧] ولكنه رأَى جبريل في صورته مَرَّتَيْن.. زاد الإمام أَحمد ومسلم قال ومسروق: وكنتُ متكئاً فجلستُ فقلت: أَلم يَقُلْ اللَّهُ تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى**﴾ [النجم: ١٣]. إن أَول هذه الأُمة سأَل رسول الله ﷺ عن ذلك فقلت: يا رسول الله هل رأَيتَ ربك؟ فقال: «لا، إنما رأَيتُ جبريل مُنْهَبِطاً».

وروى الإمام أَحمد عن طريق هَمام، ومسلم عن طريق مُعَاذ بن هشام عن أَبيه، ومن طريق يزيد بن إبراهيم، ثلاثتهم عن قَتادة عن عبد الله بن شقيق، قال: قلت لأَبي ذر: لو رأَيتُ

رسول الله ﷺ لسألته، فقال: عن أي شيءٍ كنتَ تسأله، قال: كنتُ أسأله: هل رأى ربه تبارك وتعالى. قال: إني قد سألته قلت: يا رسول الله: هل رأيت ربك؟ فقال: «نُورٌ أنّى أراهُ» وفي رواية: رأيت نوراً.

تنبيهاتٌ

الأول: قال جماعة: لم تَنْفِ عائشة وقوع الرؤية بحديث مرفوع، ولو كان معها لذكرته، وإنما اعتمدت الاستنباط على ما ذكرت من ظاهر الآية وما قالوه غفلة عن قولها: إنها سألت النبي ﷺ عن ذلك فقالت: يا رسول الله هل رأيت ربك؟ فقال: **«إنما رأيتُ جبريل منهبطاً»**.

الثاني: من قال: إن النبي ﷺ خاطبها على قَدْر عقلها، ومن حاول تخطئتها فيما ذَهَبَتْ إليه فهو مخطئ قليل الأدب.

الثالث: قول ابن الجوزي: «إن أبا ذرّ سأل رسول الله ﷺ قبل الإسراء، فأجابه بما أجابه، ولو سأله بعد الإسراء لأجابه بالإثبات، ضعيف جداً، فإن عائشة رضي الله عنها سألته بعد الإسراء ولم تثبت لها الرؤية».

الرابع: احتجاج عائشة بالآية خالفها فيه ابن عباس، فروى الترمذي وحسَّنه من طريق الحَكَم بن أبان عن عكرمة عن ابن عباس قال: محمد رأى ربه. قلت: أليس الله تعالى يقول: «لا تدركه الأبصار»؟ قال: «وَيْحك، ذلك نوره إذا تجلّى بنوره الذي هو نوره، وقد رأى رَبَّه مَرَّتَيْن». والحاصل أن المراد بالآية الإحاطة به عند رؤيته، لا نَفي أصل رؤيته. وقال النووي: المراد بالإدراك الإحاطة، والله تعالى لا يُحَاط به، وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نَفي الرؤية بغير إحاطة، وأما احتجاجها بقوله تعالى: ﴿**وما كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَه الله الا وَحياً**﴾ [الشورى: ٥١] فالجواب عنه من أوجه: أحدها: أنه لا يلزم مع الرؤية وجود الكلام حال الرؤية، فيجوز وجود الرؤية من غير كلام، الثاني: أنه عام مخصوص بما تقدم من الأدلة، الثالث: ما قال بعض العلماء إن المراد بالوحي هنا الكلام من غير واسطة، وأن القول وإن كان مُحْتَمَلاً لكن الجمهور على أن المراد بالوحي هنا الإلهام والرؤيا في المنام وكلاهما يسمى وَحْياً. وأما قوله تعالى ﴿**أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ**﴾ . فقال الواحدي وغيره بمعناه غير مجاهر لهم بالكلام بل يسمعون كلامه تعالى من حيث لا يَرَوْنَه، وليس المراد أن يكون هناك حجاب يفصل مَوْضِعاً عن موضع، ويدل على تحديد المحجوب، فهو بمنزلة ما يُسْمَع من وراء حجاب حيث لم يُرَ المُتَكَلِّم.

الخامس: قول كعب: «وكَلَّمه موسى مرتين»، فيه نظر. والحق أنه كَلَّمه أكثر منهما، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى**﴾[طه ١٧] وقوله عز وجل:

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ٨٣]. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [طه ٨٥] وقوله تقدَّس اسمُه: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقوله تعالى: ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [طه: ٤٣]، وقوله عز وجل ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ﴾، إلى غير ذلك من الآيات.

السادس: في غريب ما سبق.

«يا أمتاه»: أصله يا أمّة[١] والهاء للسَّكْت فأُضيفت إليها ألف الاستغاثة فأُبْدِلت تاء، ثم زيدت هاء السَّكْت بعد الألف. ووقع في كلام الخطّابي إذا نادوا قالوا يا أمّة عند السَّكْت وعند الوصل «يَا أَمتا». فإذا تَفَجَّعُوا للنُّدْبَة قالوا: «يا أَمّتاه» والهاء للسكت.وتَعَقَّبه الكرماني بأَن قول مسروق: «يا أَمّتاه» ليس للنُّدْبَة، إذ ليس هو تَفَجُّعاً عليها. قال الحافظ: وهو كما قال.

قَفَّ[٢] شَعْري: قام من الفَزَع لِمَا حصل عندها من هيبة الله واعتقدته من تنزيهه واستحالة وقوع ذلك. قال النَّضْر ـ بالنون والضاد المعجمة ـ ابن شُمَيْل[٣] ـ بضم الشين المعجمة وفتح الميم وسكون التحتية وباللام: القَفّ ـ بفتح القاف وتشديد الفاء ـ كالقشعريرة، وأَصله القَبْض والاجتماع لأن الجلد ينقبض عند الفزع فيقوم الشعر لذلك.

«أين أنت من ثلاث»، أَي كيف يغيب فَهْمُك عن هذه الثلاث وكان ينبغي أن يكون مُسْتَحْضِرَها ومعتقِدَ الكَذبَ ممّن يَدَّعي وقوعها.

«الفِرْيَة» بالكسر: الكذب وجمعها فِرَى كعِنَب.

ذكر أدلة القول الثاني

تقدم حديث مسروق عن ابن عباس وكعب. وروى النَّسائي بإسناد صحيح عن طريق عِكْرِمة عن ابن عباس قال: أَتعجبون أن الخُلَّة تكون لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ؟ ورواه ابن خزيمة بلفظ: «إن الله اصطفى إبراهيم بالخُلَّة». إلى آخره. وروى ابن إسحق عن عبد الله بن أَبي سَلَمة أن ابن عُمَر أَرسل إلى ابن عباس رضي الله عنهم يسأَله: هل رأى محمد رَبّه؟ فأَرسل إليه أن نَعَم.

تنبيهات

الأول: قال الحافظ ابن كثير وابن حجر وغيرهما: جاءت عن ابن عباس أَخبار مُطْلَقة

---

(١) انظر لسان العرب ١/١٤٤.

(٢) انظر اللسان ٥/٣٧٠٤، ٣٧٠٥.

(٣) النضر بن شميل بن خَرَشة بن يزيد المازني التميمي، أبو الحسن: أحد الأعلام بمعرفة أيام العرب ورواية الحديث وفقه اللغة. توفي بمرو. من كتبه: «الصفات» كبير، في صفات الإنسان والبيوت والجبال والإبل والغنم والطير والكواكب والزروع؛ و «كتاب السلاح» و «المعاني» و «غريب الحديث» و «الأنواء». توفي ٢٠٣هـ الأعلام ٨/٣٣.

كما تقدم وأخبار مُقَيَّدة، فيجب حَمْلُ مُطْلَقِها على مُقَيَّدِها. فمن المُقَيَّدة ما رواه مسلم عن أَبي العالية في قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قال: «رآه بفؤاده مَرَّتَيْن». ورَوَى أيضاً عن طريق عطاء عنه قال: «رآه بقلبه». ورَوَى ابن مَرْدَويه من طريق عطاء عنه أيضاً في الآية قال: «لم يره رسول الله ﷺ بعينه إنما رآه بقلبه». وروى النَّسائي وابن خُزَيْمة عن أَبي ذَرّ في الآية قال: «رآه بقلبه ولم يَرَه بعينه». ورَوَى ابن جرير وابن أَبي حاتم من طريق موسى بن عبيد عن محمد بن كعب القُرَظي - بالظاء المعجمة المشالة وبالتحتية - قال ابن جرير عن بعض أَصحاب النبي ﷺ، قلنا: يا رسول الله، هل رأَيتَ رَبَّك؟ قال: لم أَره بعيني، رأَيتُه بفؤادي مَرَّتَيْن»، ثم تلا ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] وموسى ضعيف.

الثاني: قال الحافظ: المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب، لا مجرد حصول العِلْم لأَنه ﷺ كان عالماً بالله تعالى على الدوام. بل مراد من أَنه أَثبت له أَنه رآه بقلبه أَن الرؤية التي حصلت له خُلِقَت في قلبه كما تُخْلَق الرؤية بالعين لغيره، زاد صاحب السراج: «بخلاف غيره من الأَولياء، فإنهم إذا أُطلقوا الرؤية والمشاهدة لأَنفسهم، فإنهم إنما يريدون «المعرفة» فاعْلَمْه، فإنه من الأمور المهمة التي يغلط فيها كثير من الناس». انتهى. والرؤية لا يُشْتَرَط لها شيءٌ مخصوص عقلاً ولو جرت العادة بخَلْقها في العين. قال الواحدي: «وعلى القول بأَنه رآه بقلبه جعل الله تعالى بَصَرَه في فؤاده، أَو خَلَق لفؤاده بَصَراً حتى رأَى رَبَّه رؤية صحيحة كما يُرَى بالعين».

الثالث: على هذه الآثار المُقَيَّدة عن ابن عباس يمكن الجمع بين إِثبات ابن عباس ونَفْي عائشة، بأَن يُحْمَل نَفْيُهَا على رؤية البصر وإِثباتُها على رؤية القلب.

الرابع: قال ابن كثير: [فَأَما الحديث الذي رواه الإِمام أَحمد: حدثنا أَسود بن عامر حدثنا حَمَّاد بن سلمة عن قتادة عن عِكْرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما] قال: قال رسول الله ﷺ: «رأَيتُ ربي عَزَّ وجَلَّ»، فإنه حديث إِسناده صحيح. على شرط الصحيح لكنه مختصر من حديث المنام كما رواه الإِمام أَحمد عن ابن عباس.

الخامس: قال ابن كثير: من روى عن ابن عباس أَنه رآه ببصره فقد أَغرب فإنه لا يصح في ذلك شيء عن الصحابة. وقول البغوي: وذهب جماعة إِلى أَنه رآه بعينه، وهو قول أَنس والحسَن وعِكْرِمة فيه نظر. قلت: سبق البغوي إِلى ذلك الإِمام أَبو الحَسَن الواحدي وقول ابن كثير: إِنه لم يصح في ذلك شيء عن الصحابة فليس بِجَيِّد، قال: فقد روى الطبراني بسَنَد صحيح عن ابن عباس أَنه كان يقول: نظر محمد إِلى رَبِّه مَرتَيْن: مَرة ببصره ومَرة بفؤاده.

الباب الرابع

في أي زمان ومكان وقع الإسراء

وفيه فصلان: الأول في مكانه. ففي رواية أنه كان عند البيت كما عند البخاري في باب بدء الخَلْق وفي باب المِعْراج في الحطيم، وربما قال في الحِجْر، والشك من قتادَة كما بَينه الإمام أحمد في روايته عن عَفان عن همام ولَفْظُه: «بينا أنا في الحطيم»، وربما قال قتادة في الحِجْر. قال الحافظ: والمراد بالحطيم هنا الحِجْر، وأَبْعَدَ مَنْ قال: المراد به ما بين الركن والمقام، أو ما بين زمزم والحجر. قال: وهو وإن كان مختلَفاً في الحطيم بل هو الحجر أَم لا فالمراد به هنا بيان البقعة التي وقع ذلك فيها لأَنها لم تتعدد لأَن القصة متحدة باتحاد مخرجها.

وفي رواية الزهري عن أَنَس: «فُرِج سقف بيتي وأَنا بمكة»، وفي رواية الواقدي أَنه: «أُسْرِي به من شِعْب أَبي طالب»، وفي حديث أُم هانئ عند الطبراني أَنه «بات في بيتها»، قالت: ففقدتُه من الليل/ فقال: إن جبريل أَتاني». قال الحافظ: والجمع بين هذه الأَقوال أنه بات في بيت أُم هانئ، وَبيتُها عند شِعْب أَبي طالب، ففُرِج عن سقف بيته، وأَضاف البيت إليه لأَنه كان يسكنه، فنزل منه منزلة المالك، وأَخرجه إلى المسجد، وكان به أَثَر النعاس، ثم أَخرجه إلى باب المسجد، فأَركبه البُراق. قال: وقد وقع في مُرْسَل الحَسَن عند ابن إسحاق فأَتاه فأَخرجه إلى المسجد، وهو يؤيد هذا الجمع». انتهى.

وقال بعضهم: ليس بين قوله: «بينا أَنا في المسجد الحرام» وبين قوله: «في بيتي» وبين أُم هانئ، تنافٍ لأَنه قد يكون المراد بالمسجد الحرام.

الفصل الثاني: في زمانه: الصواب الذي اتفق عليه العلماء: أَن الإسراء كان بعد البعثة. أَما ما وقع في رواية شريك من قوله: «جاءه ثلاثة نَفَر قبل أَن يُوحَى إليه»، وفيه «فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أَتَوْه ليلة أُخرى»، ولم يُعَيِّن المدة التي بين المجيئَيْن، فيُحْمَل على أَن المجيء الثاني كان بعد أَن أُوحِيَ إليه، وحينئذ وقع الإسراء والمعراج، وإذا كان بين المجيئَيْن مدة فلا فرق بين أَن تكون المدة ليلة واحدة أَو ليالٍ كثيرة أَو عدة سنين.

قال ابن كثير: «وهذا الحمل هو الأَظهر»، وجزم به ابن القَيِّم، وجرى عليه الحافظ، قال: «وبهذا يرتفع الإشكال عن رواية شريك، ويحصل به الاتفاق بأَن الإسراء كان في اليقظة بعد البعثة وقبل الهجرة، ويسقط تشنيع الخَطابي وابن حزم بأَن شريكاً خالف الإجماع في دعواه أَن المِعراج كان قبل البعثة». قال الحافظ: «وأَما ما ذكره بعض الشُّراح أَنه كان بين الليلتين اللتين أَتاه فيهما الملائكة سبع وقيل تسع وقيل ثلاثة عشر، فيُحْمَل على إرادة السنين كما فَهِمه الشارح المذكور، وأَجاب بعضهم بأَن القَبْلِية هنا هي في أَمر مخصوص وليست

مطلقة، واحتُمِل أَن يكون المعنى قبل أَن يُوحَى إِليه في شأْن الإِسراء والمعراج مثلاً، أَي أَن ذلك وقع بَغْتَة قبل أَن يُنْذَرَ به. ويؤيده قوله في حديث الزهري: فُرِج سقف بيتي. انتهى.

واختلفوا في أَي سنةٍ كان، فجَزَم جَمْعٌ بأَنه كان قبل الهجرة بسنة، وجرى عليه الإِمام النووي، وبالغ ابن حَزْم فنقل فيه الإِجماع. وقال القاضي: قبل الهجرة بخمس سنين لأَنه لا خلاف أَن خديجة صَلَّت معه بعد فَرْض الصلاة، ولا خلاف أَنها توفيت قبل الهجرة، ولا خلاف أَن فَرْض الصلاة كان ليلة الإِسراء، وتَعَقَّبه ابن دِحْيَة بأَن المراد بالصلاة التي صَلَّتها معه هي التي كانت من أَول البعثة، وكانت ركعتَيْن بالغداة وركعتَيْن بالعَشِيّ، وإِنما الذي فُرِض ليلة الإِسراء الصلوات الخَمْس. وقد قالت عائشة رضي الله عنها: «إِن خديجة رضي الله عنها ماتت قبل أَن تُفْرَض الصلاة»، رواه ابن سعد، ويعقوب بن سفيان. فالمُعْتَمَد أَن مراد من قال: بعد أَن فُرِضَتْ الصلاة، ما فُرِض قبل الصلوات الخمس، إن ثبت ذلك. ومراد عائشة بقولها: ماتت قبل أَن تُفْرَض الصلاة، أَي الخمس، فيُجْمَع بين القَوْلَيْن بذلك. ويلزم منه أَنها ماتت قبل الإِسراء وقد حكى العسكري أَنها ماتت قبل الهجرة بسبع سنين وسيأْتي تحقيق ذلك في ترجمتها.

واختلفوا في أَي الشهور كان [الإِسراء] فجزم ابن الأَثير وجَمْعٌ، منهم النووي في فتاويه كما في النُّسَخ المُعْتَمَدة، بأَنه كان في ربيع الأَول، قال النووي: «ليلة سبع وعشرين». وجرى عليه جَمْعٌ، وهكذا عن الفتاوى الإِسنوي في المهمات، والأَذْرَعي - بفتح أَوله والراء وسكون الذال المعجمة بينهما - في التوسط، والزركشي في الخادم، والدميري في حياة الحيوان، وغيرهم. وكذا رأَيتُه في عدة نسخ من الفتاوى وفي بَعض النسخ من شرح مسلم كذلك، وفي أَكثرها ربيع الآخر كما في نسخ الفتاوى. ونقله ابن دحية في الابتهاج، والحافظ في الفتح، وجَمْعٌ عن الحربي. والذي نقله عنه ابن دِحْية في كتابيه: التنوير والمعراج الصغير، وأَبو شامة في الباعث، والحافظ في فضائل رجب، ربيع الأَول. وقيل: كان في رجب، وجزم به النووي في الروضة تَبَعاً للرافعي، وقيل في رمضان، وقيل في شوال.

قال ابن عطية بعد أَن حكى الخِلاف والتحقيق: «إِنه كان بعد شَقّ الصحيفة وقبل بيعة العقبة». قال ابن دِحْيَة: «ويمكن أَن يُعَين اليوم الذي أَسفرت عنه تلك الليلة، ويكون يوم الاثنين». وذكر الدليل على ذلك بمقدمات حساب من تاريخ الهجرة، وحاصل الأَمر أَنه استنبطه، وحاول موافقة كون المولد يوم الاثنين وكون المبعث يوم الاثنين وكون المعراج يوم الاثنين وكون الهجرة يوم الاثنين وكون الوفاة يوم الاثنين. قال: فإِن هذه أَطوار الانتقالات النبوية وجوداً ونبوة ومِعْراجاً وهِجْرَة ووفاة، فهذه خمسة أَطوار، فيكون يوم الاثنين في حقه ﷺ كيوم الجمعة في حق آدم عليه الصلاة والسلام فيه خُلِقَ وفيه أُنزل إِلى الأَرض وفيه تاب الله عليه وفيه مات، وكانت أَطواره الوجودية والدينية خاصة بيوم واحد. انتهى.

وروى ابن أَبي شيبة عن جابر وابن عباس رضي الله عنهما قالا: «وُلِد رسول الله ﷺ يوم الاثنين وفيه بُعِث وفيه عرج إِلى السماء وفيه مات». وقولهما: «وفيه عرج إِلى السماء» أَراد الليلة لأَن الإِسراء كان بالليل اتفاقاً.

تنبيه: ذكر أَبو الخَطَّاب بن دحية أَن الإِسراء كان في الليلة التي بين الأَحد والاثنين على القول بأَن الليلة تَتْبَع اليوم الذي قبلها. ثم قال: «ويدل على أَن الليلة تَتْبَع اليوم الذي قبلها أَن ليلة عَرَفَة هي التي قبلها بإِجماع، وكان بعضهم يقول: ليلة السبت في ظَنِّ الناس هي ليلة الجمعة». انتهى. والذي ذكره النحاة في باب التأْريخ أَن ليلة كل يوم هي التي قبله، لأَن أَول الشهر ليلة، وآخره يوم. وبذلك صَرَّح أَئمتنا الشافعية في غير موضع من كتبهم. وليلة عرفة وإِن تأَخَّرت عن يومها شَرْعاً فذلك في الحُكْم، وهو مشروعية الوقوف في هذا الوقت المخصوص، ولا يُعْتَرَض على ما سبق بقوله تعالى: ﴿وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ لأَن المُفَسِّرين ذكروا فيه مَعْنَى غير هذا، فقال مجاهد: «في قضاء الله تعالى وعلمه لا يفوت اللَّيْلَ النَّهارُ حتى يدركه فيذهب بظُلْمَتِه، وفي قضاء الله وعلمه لا يفوت النَّهَارَ الليلُ حتى يدركه فيذهب بضَوْئِه». رواه ابن المنذر.

وقال الضَّحَّاك: «لا يذهب الليل من ههنا حتى النهار من ههنا». رواه ابن إِبي حاتم. وقال البغوي: «أي هما يتعاقبان بحساب معلوم لا يجيءُ أَحَدُهما قبل وقته». وقيل لا يدخل أَحدهما في سلطان الآخر، فلا تطلع الشمس بالليل ولا يطلع القمر بالنهار وله ضوء. فإِذا اجتمعا وأَدرك كل واحد منهما صاحبه قامت القيامة، وقيل: لا يتصل لَيْلٌ بليل ولا يكون بينهما نهار فاصل. والله أعلم.

الباب الخامس

في كيفية الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهل تكرر أم لا

وفيه فصلان: الأول: اعلم أنه لا خِلاَف في صحة الإسراء به ﷺ. إذ هو نَصّ القرآن على سبيل الإجمال، وجاءت بتفصيله وشرح عجائبه أحاديث كثيرة منتشرة عن جماعة من الصحابة يأتي ذكرهم بعد في باب مُفْرَد، وإنما الخِلاف في كيفية الإسراء، فاختلف العلماء في ذلك على أقوال: **الأول** وهو قول الأكثر إنه كان بالروح والجَسَد معاً يقظةً لا مناماً، من مكة إلى بيت المقدس، إلى السموات العُلا إلى سُدْرة المنتهى إلى حيث شاءَ العَلِيّ الأعلى.

قال القاضي وغيره: «وهو الحق وعليه تدل الآية نَصّاً وصحيح الأخبار إلى السموات استفاضةً ولا يُعْدل عن الظاهر من الآية والأخبار الواردة فيه، ولا عن الحقيقة المتبادرة إلى الأذهان من ألفاظهما، إلى التأويل، إلا عند الاستحالة وتَعَذُّر حَمْل اللفظ على حقيقته، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تُؤْذِن بتأويل، إذ لو كان مناماً لقال: سبحان الذي أسرى بروح عبده، ولم يقل: بِعَبْدِه، والعبد حقيقةً هو الروح والجسد، ويدل عليه قوله تعالى ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] أي ما عَدَل عن رؤية ما أُمِر برؤيته من عجائب الملكوت وما جَاورَها لصراحة ظاهرة في كونه بجسده يقظةً لأنه أضاف الأمر إلى البَصَر، وهو لا يكون إلا يَقَظَةً بجسده بشهادة: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨]. ولو كان مناماً لَمَا كانت فيه آية ولا معجزة خارقة للعادة تُورث عدم صِدْقِه، وإن كانت رؤيا الأنبياء وحياً، إذ ليس فيها من الأبلغية وخَرْق العادة ما فيه يقظةً. وأيضاً لو كان مناماً لما استبعده الكُفَّار ولا كَذَّبوه، ولا ارْتَدَّ به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، لبُعْدِه عن ساحة العادة، ووقوعه في زمن يُسْتَبْعَد فيه جداً، إذ مثل هذه المنامات لا يُنْكَر، بل لم يكن منهم ذلك الاستبعاد والتكذيب، والارتداد والافتتان إلا وقد علموا أن خَبَره إنما هو عن جسمه وحال يقظته».

وقد روى البخاري في باب الإسراء من صحيحه، وسعيد بن منصور في سننه عن ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] هي رُؤْيا عَيْن أُريها رسول الله ﷺ ليلة الإسراء. زاد سعيد: «وليست رؤيا منام».

قال الحافظ: «إضافة الرؤية للعين للاحتراز عن رؤيا القلب. وقد أثبت الله تعالى رؤيا القلب في القرآن بقوله: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ورؤية العين بقوله: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧]. وأما ما رواه ابن مَرْدَوَيه عن طريق العَوْفي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في الآية قال: «رأى أنه وصل مكة وأصحابه. فلما رَدَّهُ المشركون كان

لبعض الناس في ذلك فِتْنَة». وما رواه ابن مردويه عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، رفَعَه قال: «رأيت كأن بني أُمية يتعاورون مِنْبَري هذا»، فقال: هي ﴿دنيا تنالهم﴾، ونزلت هذه الآية، فكلاهما إسناد ضعيف والصحيح ما تَقَدَّم، وجزم بما قاله ابن عباس إنها رؤيا عَيْن ليلة الإسراء مجاهد وسعيد بن جُبَيْر والحَسَن ومسروق وإبراهيم وقتادة وعبد الرحمن ابن زيد وغير واحد.

تنبيه: قال ابن دحية: «جنح البخاري إلى أن ليلة الإسراء كانت غير ليلة المِعْراج لأنه أفرد لكل منهما ترجمة» قال الحافظ: «ولا دلالة في ذلك على التغاير عنده، بل كلامه في أول الصلاة ظاهر في اتحادهما، وذلك أنه ترجم باب: كيف فُرِضت الصلاة ليلة الإسراء، والصلاة إنما فُرِضت في المعراج، فدَلَّ على اتحادهما عنده، وإنما أَفرد كُلاًّ منهما بترجمة لأن كلاً منهما يشتمل على قصة منفردة وإن كانا وقعا معاً.

القول الثاني: إن الإسراء كان بالجَسَد يقظةً إلى بيت المقدس وإلى السماء بالروح، ذَهَب إلى هذا طائفة واحتَجُّوا بقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلى المَسْجِدِ الأَقْصى﴾ [الإسراء: ١٠] فجعل المسجد الأقصى غايةً للإسراء الذي وقع التَّعَجُّب فيه من حيث أنه كان في بعض ليلة. والتَّعَجُّب فيه من الكُفَّار تَعَجُّب استحالة، ومن المؤمنين تَعَجُّب تعظيم القُدْرَة الباهرة. ووقع التَّمَدُّح بتشريف النبي ﷺ، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه. ولو كان الإسراء إلى مكانٍ زائدٍ على المسجد الأقصى لذكره تعالى فيكون ذِكْرُه أبلغ في المدح من عدم ذكره فيه..

وأجاب الأئمة عن ذلك بأن استدرجهم إلى الإيمان بذكر الإسراء أولاً، فلمَّا ظهرت أَمَارات صِدْقِه، وصَحَّت لهم براهينُ رسالتِه، واستأنسوا بتلك الآية الخارقة، أخبرهم بما هو أعظم منها، وهو المِعْراج، فَحَدَّثَهم النبي ﷺ به، وأنزله الله تعالى في سورة النَّجْم. ويُؤَيِّد وقوع المِعْرَاج عَقِب الأسراء في ليلة واحدة رواية ثابت عن أنس رضي الله عنه عند مسلم: «أُتِيتُ بالبُرَاق فَرَكِبْتُهُ حتى أتيتُ بيت المقدس»، فذكر القصة إلى أن قال: «ثُمَّ عُرِجَ بنا إلى السماء الدنيا» وحديث أبي سعيد الخُدْري: بالخاء المعجمة المضمومة وبالدال المهملة - عند ابن إسحق: «فلما فَرَغْتُ مما كان في بيت المقدس أُتِي بالمِعْراج». فذكر الحديث.

القول الثالث: إن الإسراء كان بالروح وإنه رؤيا منام، مع اتفاقهم أن رؤيا الأنبياء وَحْي بشهادة: ﴿يا بُنَيَّ إِنِّي أَرى في المَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقوله ﷺ: «الأنبياء تَنَامُ أَعْيُنُهم ولا تَنَامُ قُلوبُهم»(١).

---

(١) جزء من حديث أخرجه البخاري ٦/٦٧٠ (٣٥٧٠).

واحتجَّ من قال بهذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] ولو كان يقظةً لقال: «الرؤية» بالتاء، وقول أَنس في حديثه في رواية شريك: «وهو نائم بالمسجد الحرام». وذكر القصة الواردة لليلة الإسراء، ثم قال في آخرها: «استيقظت ـ أَي انتبهت ـ من منامي وأَنا في المسجد الحرام». وهذا المذهب يُعْزَى لمعاوية بن أَبي سفيان رضي الله عنه فإِن ابن إِسحاق قال: «حَدَّثني يعقوب بن عُتْبَة بن المُغِيرة بن الأَخْنس أَن معاوية بن أَبي سفيان كان إِذا سُئِل عن مَسْرَى رسول الله ﷺ قال: «كانت رُؤْيَا من الله تعالى صادقة». ويعقوب وإِن كان ثقة إِلا أَنه لم يُدْرِك معاوية فالحجة منقطعة.

ويُعْزَى أَيضاً إِلى عائشة رضي الله عنها، قال ابن إِسحق: «حَدَّثني بعض آل أَبي بكر أَن عائشة زوج النبي ﷺ كانت تقول: «ما فُقِد جسد رسول الله ﷺ ولكن أُسْرِي بروحه». كذا فيما وقفتُ عليه من نُسَخ السيرة «فُقِد» بالبناء للمفعول. وفي الذي وقفتُ عليه من نسخ الشِّفَا للقاضي «ما فَقَدْتُ» بالبناء للفاعل وإِسناد الفعل إِلى تاء المُتَكَلِّم.

وأَجيب عن الأَول بأَن «الرؤيا» قد تكون بمعنى «الرؤية» في اليقظة كما نقله أَبو الخَطَّاب ابن دحية عن ابن عباس. قال الشيخ السهيلي في الروض: «وأَنشدوا للراعي يصف صائداً:

وَكَبَّرَ لِلرُّؤْيَا وَهَشَّ فُؤَادُهُ ... وَبَشَّرَ قَلْباً كَانَ جَمّاً بَلابِلُهْ

وقوله: ﴿إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] يدل على أَنها رؤية عَيْن، وإِسراء شخص، إِذا ليس في الحُلْم فتنة للناس من تَعَجُّبهم تَعَجُّب استحالة، حتى ارتدَّ كثيرٌ ممن آمن. وقال الكُفَّار: «يَزْعُم محمد أَنه أَتى بيت المقدس وَرَجَعَ إِلى مكة في لَيْلَتِه، والعِيرُ تَطَّرِد إِليها شهراً مُقْبِلة وشهراً مُدْبِرة. ولو كانت رؤيا نوم لم يَسْتَبْعِد أَحَدٌ منهم هذا، فمعلوم أَن النائم قد يرى نفسه في السماء وفي المَشْرِق وفي المَغْرِب فلا يُسْتَبْعَد منه ذلك، ويؤيد كونها يَقَظَةً ما ورد من شربه تلك الليلة الماء الذي كان لكفَّار قريش، وضعوه في بعض مراحلهم في قَدَح وغَطّوه، فأَصبحوا ولاماء فيه، فعَجِبُوا لذلك. وإِرشاد أَصحاب العِير الذين نَدَّ بعيرُهم حين أَنفره حِسُّ البُرَاق حتى دَلَّهم عليه، فأَخبر أَهلَ مكة بأَمارة ذلك، حتى ذكر الغرارتَيْن السوداء والبَرْقاء، وَوَعْدُهُ لقريش بقدوم العِير التي أَرشد أَصحابَها إِلى بعيرهم وشرب مائهم أَن يَقْدَموا يوم الأَربعاء». كما سيأتي بيان ذلك مبسوطاً في القصة. وهذا كله لا يكون إِلا يقظة وقد تقدم في القول الأَول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أَنه قال في الآية: هذه رؤيا عين أُرِيَها رسول الله ﷺ ليلة الإِسراء فراجِعْهُ.

وأُجيب عن الثاني وهو قوله: «بينا أَنا بين النائم واليقظان، ثم استيقظت» بأَنه لا حجة في ذلك إذ يَحْتَمِل قَوْلُه «بين النائم واليقظان» إلى آخره أنه أَول وصول المَلَك كان وهو نائم بشهادة حديث الحَسَن: «بينا أَنا نائم في الحِجْر جاءني جبريل فَهَمَزَني بَعقِبه، فجلستُ فلم أَرَ شيئاً فَعُدتُ لمضجعي»، إلى أَن قال: «فَجرَّني إلى باب المسجد فإذا أَنا بِدَابَّة» أَو أَنه محمول على ابتداء الحال، ثم لما خرج إلى باب المسجد، فأَركبه البُرَاق فاستمر في يقظته. وليس في الحديث أَنه كان نائماً في القصة كلها. وأَما قوله: «ثم استيقظت وأَنا بالمسجد الحرام»، قال الحافظ: «إن قيل بالتَّعَدُّد فلا إشكال وإلا حُمِل على أَن معناه أَفَقْتُ أَي أَفاق مما كان فيه من شغل البال بمشاهدة عجائب الملكوت ورجع إلى العالم الدنيوي فلم يرجع إلى عالم البشرية إلا وهو بالمسجد الحرام».

قال ابن كثير: «ويؤيد ذلك أَنه ﷺ كان إذا أُوحِيَ إليه يستغرق فيه فإذا انتهى رجع إلى حالته الأُولى، فَكُنِّيَ عنه بالاستيقاظ كما في حديث عائشة، حين ذهب رسول الله ﷺ إلى الطائف فكَذَّبوه، قال: «فرجعت وأَنا مهموم فلم أَستَفِق إلا بقرن الثعالب» أَي وهو مكان. وفي حديث أَبي أُسَيْد ـ بضم الهمزة وفتح المهملة ـ حين جاء بابنه إلى رسول الله ﷺ ليُحَنِّكه، فوضعه على فخذ رسول الله ﷺ. واشتغل رسول الله ﷺ بالحديث مع الناس. فرفع أَبو أُسَيْد ابنه ثم استيقظ رسول الله ﷺ، فلم يجد الصبي فسأَل عنه فقالوا «رُفِع»، فَسمَّاه المُنْذِر أَحد رواته استيقاظاً. وهذا المَحْمَل أَحْسَن من تغليط شريك.

تنبيه: قال بعضهم إنه ﷺ كان تلك الليلة نائم العَيْن حاضر القلب، غَمَّض عينيه لئلا يشغله شيء من المحسوسات عن الله. قال القاضي: «هذا غير صحيح لأَن المقام مشاهدة عجائب الملكوت بشهادة قوله تعالى: ﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ [الإسراء: ١]، ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ [النجم: ١٨]، إذْ المتبادر منه رؤية العَيْن، ولا يصح أَيضاً أَن تكون في وقت صلاته بالأَنبياء.

وأَما ما يُعْزى لعائشة رضي الله عنها، فلم يرد بَسَند يصلح للحجة بل في سَنَده انقطاع وارد مجهول كما تقدم. وقال أَبو الخَطَّاب بن دِحْية في التنوير: إنه حديث موضوع عليها. وقال في مِعْراجه الصغير: «قال إمام الشافعية القاضي أَبو العباس بن سُرَيْج: هذا حديث لا يصح وإنما وُضِع رَدّاًللحديث الصحيح». انتهى.

وعلى تقدير أَن يكون صحيحاً ورد بالبناء للمفعول فعائشة رضي الله عنها لم تُحَدِّث عن مشاهدة لأَنها لم تكن زوجة إذ ذاك، أَو بالبناء للفاعل: «ما فَقَدْتُ جسده الشريف» فعائشة لم يدخل بها إلا بالمدينة بالإجماع، ولا كانت وقت الإسراء في سِنّ من يَضْبطُ الأُمور، لأَنها في سنة الهجرة كانت بنت ثمان سنين. فعلى القول بأَن الإسراء كان قبلها بسنة تكون بنت سبع،

وعلى القول بأكثر من ذلك تكون أصغر من ذلك، وعلى قول من قال: إن الإسراء كان بعد البعث بعام لم تكن وُلدت.

تنبيه: قال في زاد المعاد: «ينبغي أن يُعْلَم الفرق بين أن يقال: كان الإسراء مناماً وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم. وعائشة ومعاوية لم يقولا: كان مناماً، وإنما قالا: الإسراء بروحه ولم يُفْقَد جَسَدُه. وفَرْق بين الأمرين، فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصُوَر المحسوسة، فيَرَى كأنه عُرِج به إلى السماء، أو ذُهِب به إلى مكة أو أقطار الأرض، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والذين قالوا: عُرِج برسول الله ﷺ طائفتان: طائفة قالت عُرِج بروحه وبَدَنِه، وطائفة قالت عُرِج بروحه ولم يُفْقَد بَدَنُه. وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أُسرِيَ وعُرِج بها حقيقةً وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة. وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلى السموات سماءً سماءً، حتى ينتهي بها إلى السماء السابعة، فتقف بين يدي الله تعالى فيأمر فيها بما يشاء، ثم تنزل إلى الأرض».

«والذي كان برسول الله ﷺ ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المفارقة. ومعلوم أن هذا أمْرٌ فوق ما يراه النائم. لكن لما كان رسول الله ﷺ في مقام خرق العوائد، حتى شُقَّ بَطْنُه وهو حَيّ لا يتألم بذلك، عُرِج بذات روحه المقدسة حقيقةً من غير إماتة. ومَنْ سواه: لا يَنَال بذات روُحه الصُّعُودَ إلى السماوات إلا بعد الموت والمفارقة، إلى آخر كلامه، وسيأتي بتمامه في باب حياته ﷺ في قبره.

الفصل الثاني: في تكرره:

ذهب جماعة منهم الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن إسماعيل الشهير بأبي شامة رحمه الله تعالى إلى أن الإسراء وقع مراراً، واحْتَجَّ بما رواه سعيد بن منصور، والبَزَّار، والبيهقي، وابن عساكر عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بينا أنا نائم إذ جاء جبريل عليه السلام فوكَزَ بين كَتِفَيّ، فقُمْتُ إلى شجرة فيها مثل وَكْرَي الطَّيْر، فقعد جبريل في أحدهما وقَعَدْتُ في الآخر، فسَمَتْ وارْتَفَعَتْ حتى سَدَّتْ الخافقَيْن، وأنا أُقَلِّب طَرْفي، فلو شِئْتُ أن أمّس السماء لمسست وفُتِح لي بابٌ من أبواب السماء فرأيتُ النور الأعظم، وإذا دون الحجاب رَفْرَف الدُّرّ والياقوت، وفي رواية فَدُلِّي بسبب وهبط النور فوقع جبريل مَغْشِيًّا عليه كأنه حِلْس، فعرفتُ فَضْلَ خشيته على خشيتي، فأوحى الله تعالى إليَّ ما شاء أن يُوحِي، وفي رواية: فأَوْحَى إليَّ نبياً ملكاً أو نبياً عبداً وإلى الجَنَّة ما أنت، فأَومأ إليَّ جبريل وهو مضطجع: أن تَوَاضَعْ. قال: قلتُ: لا بل نبياً عَبْداً.

شرح غريب ما سبق

«وكَزَ»(١) ضرب برفق.

«وَكْرَي(٢) الطائر» تثنية بفتح الواو وهو عُشّ الطائر إنْ كان في جبل أَو شجر، والمراد هنا بيتان شبيهان بعُشّه في الهيئة والوضع لا في المقدار. «نَمَتْ» زادت.

«الخافقان» طرفا السماء والأَرض أَو المشرق والمغرب وخوافق السماء جهاتها التي تهب منها الرياح الأَربع.

«لمَسِسْتُ» بكسر أَول سينيه وفتحها وقد يُخَفَّف وتُنْقَل حركتها إِلى الميم وقد تُتْرَك الميم مفتوحة.

«أُقَلِّبُ طَرْفي» حال من الضمير قبله أَي مُقَلِّباً بَصَري في آيات الله في الآفاق.

«حِلْس»(٣) بكسر الحاءِ والسين المُهْمَلَتَيْن: كِسَاءٌ يلي ظهر الدابّة تحت الرَّحْل يُشَبَّه به من لَزِمَ شيئاً من خَشْيَة أَو نحو ذلك.

«السَّبَبُ» في الأَصل الذي يُتَوَصَّل به إِلى الماء ثم استُعِير لكل ما يُتَوَصَّل به إِلى شيء.

قال الحافظ: «وحديث أَنَس السابق رجاله لا بأْس بهم إِلا أَن الدارقُطني ذكر له عِلَّة تقتضي إِرساله. وعلى كل حال فهي قصة أُخرى، الظاهر أَنها وقعت بالمدينة، قال ولا بُعْد في وقوع مثل ذلك في المنام، وإِنما المُسْتَغْرَب وقوع التعدد في قصة المعراج التي وقع فيها السؤال عن كل نبي وسؤال أَهل كل سماء: هل بُعِث إِليه؟ وفَرْض الصلوات الخَمْس وغير ذلك، فإِن تَعَدُّدَ مِثْل ذلك في اليقظة لا يتجه، فيتعَيَّن رَدّ بعض الروايات المختلفة إِلى بعض والترجيح، إِلا أَنه لا بُعْد في وقوع جميع ذلك في المنام، ثم وقوعه في اليقظة على وَفْقِه ولهذا مزيد بيان في الباب الثامن.

وذهب جماعة منهم المُهَلَّب شارح البخاري، وحكاه عن طَائفة، وأَبو نصر القشيري، والبغوي، والسهيلي، ونقل تصحيحه عن شيخه القاضي أبي بكر العربي، وجزم به النووي في فتاويه أَن الإِسراء وقع مَرَّتَيْن: مَرَّة في النوم ومَرَّة في اليقظة. قالوا: «وكانت مرة النوم توطئة له وتيسيراً عليه، كما كان في بدء نُبُوَّته الرؤيا الصادقة، ليسهل عليه أَمر النبوة، فإِنه أَمر عظيم

(١) انظر لسان العرب ٤٩٠٦/٦.
(٢) المعجم الوسيط ٣٥٣/٢.
(٣) اللسان ٩٦١/٢.

تضعف عنه القوى البشرية، وكذلك الإسراء سَهَّله عليه الرؤيا لأَن هَوْله عظيم، فجاء في اليقظة على توطئة وتَقْدِمة رِفْقاً من الله تعالى بعبده وتسهيلاً عليه».

قال الحافظ: «ومن المستغرب قول ابن عبد السلام في تفسيره: إن الإسراء كان في النوم واليقظة ووقع بمكة والمدينة، فإن كان يريد تخصيص المدينة بالنوم ويكون كلامه على طريق اللّف والنَّشْر غير المُرَتَّب فيُحْتَمَل، ويكون الإسراء الذي اتصل بالمِعْراج وفُرِضت فيه الصلاة بمكة، والآخر في المنام بالمدينة، وينبغي أَن يُزَاد فيه أَن الإسراء في المنام تكرر بالمدينة النبوية. ففي الصحيح في الجنائز حديث سَمُرَة الطويل، وفي غيره حديث عبد الرحمن بن سَمُرة الطويل، وفي الصحيح حديث ابن عباس رضي الله عنهما في رؤيا الأَنبياء، وحديث ابن عُمَر في ذلك.

قلت وسيأْتي في باب مناماته ﷺ ما فيه مَقْنَع.

الباب السادس

في دفع شُبْهَة أهل الزَّيْغ في استحالة المِعْراج

اعلم أَن الإِسراء برسول الله ﷺ لم يُخالِف في وقوعه أَحَدٌ من المسلمين، وإِنما طَعَن فيه أَهلُ الزَّيْغ بِشُبَهٍ باطلة. وقد تَصَدَّى الإِمام الرازي وغيره للرد عليهم، وأَنا مُورِد تلك الشُّبَه ثم أُتبِعها بالرد. قال أَهل الزيغ والضلالة قَبَّحَهُم الله تبارك وتعالى: «الحركة البالغة في السرعة إِلى هذا الحد غير معقولة، ولو صَعَد إِلى السموات لوجب خَرْق الأَفلاك، وذلك مُحَال، وصعود الجِرْم الثقيل إِلى السموات غير مقبول، ولأَن هذا المعنى لو صَحّ لكان أَعظم من سائر معجزاته، وكان يجب أن يظهر ذلك عند اجتماع الناس حتى يستدلوا به على صدقه من ادِّعاء النبوّة، فأَما أَن يحصل ذلك في وقت لا يراه فيه أَحد ولا يشاهده فإِن ذلك يكون عَبَثاً لا يليق بالحكيم».

وأُجيب عن الأَول أَن الحركة البالغة في السرعة إِلى هذا الحد ممكنة في نفسها، والله قادر على ذلك، ويدل على صحته أَن الفَلَك الأَعظم يتحرك من أَول الليل إِلى آخره ما يَقْرُب من نصف الدور، وثبت في الهندسة أَن نسبة القطر إِلى الدور نسبة الواحد إِلى ثلاثة وسُبْع فبتقدير أَن رسول الله ﷺ ارتفع من مكة إِلى ما فوق الفلك الأَعظم فهو لم يتحرك إِلا إِلى مقدار نصف القطر. فلما حصل في ذلك القدر من الزمان نصف الدور كان حصول الحركة بمقدار نصف القطر أَوْلَى بالإِمكان، فهذا برهان قاطع على الارتفاع من مكة إِلى ما فوق العَرْش في مقدار ثلث الليل وأَنه أَمْرٌ ممكن في نفسه. وإِذا كان كذلك كان حصوله في كل الليل أَوْلى بالإِمكان.

وأَيضاً ثبت في الهندسة أَن ما بين طرفي قرص الشمس ضعف ما بين طرفي كرة الأَرض مائة وستين مرة، ثم أَنَّا نشاهد طلوع القرص يحصل في زمان لطيف سريع، فَدَلَّ على أَن بلوغ الحركة في السرعة إِلى هذا الحد أَمْرٌ ممكن في نفسه. فإِن كان الكلام مع من لا يعرف الهندسة فنقول له: أَنت تشاهد الشمس و القمر والنجوم تقطع من الشروق إِلى الغروب مسافة لا يُقْدَر على قطعها في أَعوام كثيرة.

وأَيضاً كانت الرياح تُسَيِّر لسليمان بن داود عليهما السلام إِلى المواضع البعيدة في الأَوقات اليسيرة، قال الله تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ: ١٢]، والحِسُّ يدل على ذلك وهو أَن الرياح تنفذ عند شدة هبوبها من مكان إِلى مكان آخر في غاية البُعْد في اللحظة الواحدة. وقد أَحضر الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب كرسيَّ بلقيس من أَقصى اليمن إِلى

أَرض الشام في أَقل من لمح البصر. والأَجسام متماثلة في تمام ماهياتها، فلما حصل مثل هذه الحركة في حق بعض الأَجسام وجب إِمكان حصولها في سائر الأَجسام، فهي ممكنة والله تعالى قادر على حصولها في جسد النبي ﷺ.

والجواب عن الثاني: وهو خَرْق الأَفلاك فليس بِمُحَال وقد منعه النُّفَاة للجنة والنار. قال الشيخ سعد الدين: «ادّعاء استحالة المعراج باطل؛ لأَنه إِنما ينبني على أَصول الفلاسفة من امتناع الخَرْق والالتئام على السموات، وإِلا فالخَرْق والالتئام على السمٰوات واقع عند أَهل الحق، والأَجسام العلوية والسفلية متماثلة مُرَكَّبة من الجواهر الفردة المتماثلة، يصح على كل من الأَجسام ما يصح على الآخر ضرورة التماثل المذكور، فإِذا أَمكن خرق الأَجسام السفلية أَمكن خرق الأَجسام العلوية والله قادر على الممكنات كلها، فهو قادر على خرق السموات وقد ورد به السمع فيجب تصديقه».

والجواب عن الثالث: فكما أَنه يُسْتَبْعَد صعود الجسم الكثيف يُسْتَبْعَد نزول الجسم اللطيف الروحاني من العَرْش إِلى مركز العالم. فإِن كان القول بمعراج النبي ﷺ في الليلة الواحدة ممتنِعاً كان القول بنزول جبريل عليه السلام من العَرْش إِلى مكة في اللحظة الواحدة ممتنِعاً كذلك، ولو حكمنا بهذا الامتناع كان ذلك طعناً في نُبُوَّة جميع الأَنبياء عليهم الصلاة والسلام والقول بثبوت المعراج فَرْعٌ على تسليم جواز أَصل النبوة، فيلزم القائل بامتناع حصول هذه الحركة امتناع نزول جبريل عليه السلام. ولما كان ذلك باطلاً، كان ما ذكروه باطلاً.

والجواب عن الرابع: إِن في كونه ليلاً فوائد منها: ليزداد الذين آمنوا إِيماناً بالغَيْب، ويفتتن الذين كفروا زيادة على فتنتهم، وقد قال الله تعالى: **﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾** [الإسراء: ٦٠]، ومنها أَنه وقت الخَلْوة والاختصاص عُرْفاً، فإِن بين جليس الملك نهاراً وجليسه ليلاً فَرْقاً واضحاً، والخصوصية لليل، ورحم الله من قال:

اللَّيْلُ لِي وَلأَحِبَّائِي أُنَادِمُهُمْ   قَدِ اصْطَفَيْتُهُمْ كَيْ يَسْمَعُوا وَيَعُوا

وقد أَخبر النبي ﷺ بالعلامات التي تفيد اليقين من وصف بيت المقدس ووصف العِير التي مَرَّ بها في طريقه، وأَنها تصل إِليهم في وقت كذا، فكان كما ذَكَر كما سيأْتي مُفَصَّلاً. ومع ذلك قالوا: **﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾** [الأحقاف ٧]. فلا فَرْق بين أَن يُرِيَهم ذلك نهاراً وأَن يُخْبِرهم بِخَبَرٍ يُفيد اليقين، وقد أَراهم انشقاق القمر فقالوا: هذا: **﴿سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾** [القمر: ٤].

الباب السابع

في أسماء الصحابة الذين رَوَوا القصة عن النبي صلى الله عليه وسلم

أُبيّ بن كعب رضي الله عنه، رواه عنه ابن مَرْدَوَيه من طريق عُبَيْد بن عُمَيْر، ومن طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً، وعبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المُسْنَد، وابن مَرْدَوِيه وابن عساكر بلفظ حديث أَنَس عن أَبي ذَرّ حرفاً بحرف. قال الحافظ في أَطراف المُسْنَد: «إنه وقع تحريف وكان في الأَصل: «عن أَبي ذَرّ» فسقط من النسخة لفظة «ذرّ» فظُنَّ أَن «أَبِي» [هي] «أُبَيّ»، فأُدْرِج في مُسْنَد أُبَيّ بن كعب غَلَطاً».

قلتُ: نَبَّه الدَّارقُطْنِي في العِلَل على أَن الوهم فيه من أَبي ضَمْرَة أَنَس بن عياض.

وأُسَامة بن زيد، ذكره أَبو حفص النسفي في تفسيره ولم أَقف على حديثه .وأَنَس بن مالك فروايته عن النبي ﷺ من غير واسطة رواه عنه الإمام أَحمد ومسلم من طريق ثابت البُنَاني. والشيخان من طريق شريك بن عبد الله، وابن مَرْدَوَيه من طريق كثير بن خُنَيْس - بضم الخاء المعجمة وفتح النون وسكون المُثَنَّاة التحتية فسين مهملة - والنسائي، وابن مردويه من طريق يزيد بن أَبي مالك وابن أَبي حاتم من وجه آخر.

وابن جرير وابن مردويه والبيهقي من طريق عبد الرحمن بن هاشم(١)، ورُوِي من طريق عبد العزيز بن صهيب(٢)، والطبراني من طريق ميمون بن سِيَاه(٣) - بكسر السين المهملة بعدها مثناة تحتية - وابن جرير من طريق أَبي سلمة بن سليم وابن مَرْدَوَيه من طريق أَبي هاشم عن علي بن زيد وعن ثُمَامة - بضم المثلثة أَوله، وابن سعد وسعيد بن منصور، والبزار عن أَبي عمران الجَوْني - بفتح الجيم - وعند بعض هؤلاء ما ليس عند الآخر.

وبُرَيْدة - بضم أَوله وفتح الراء وسكون المثناة التحتية - ابن الحُصَيْب - بحاء مضمومة فصاد مفتوحة مهملتين - رضي الله عنه، ورواه الترمذي والحاكم وصَحَّحه، وبلال بن حمامة، وبلال بن سعد ذكرهما أَبو حَفْص النسفي. وجابر بن عبد الله رضي الله عنهما رواه الشيخان ورواه الطبراني وابن مردويه بلفظ آخر بسَنَد صحيح. وحُذَيْفَة بن اليمان رضي الله عنه رواه ابن

---

(١) عبد الرحمن بن يولس بن هاشم، أبو مسلم المستملي، البغدادي، مولى المنصور، صدوق، طعنوا فيه للرأي، من العاشرة، مات سنة أربع وعشرين، أو بعدها. التقريب ٥٠٣/١.

(٢) عَبْد العَزيز بن صهيب البناني، البصري، ثقة، مات سنة ثلاثين. التقريب ٥١٠/١.

(٣) ميمون بن سياه، أبو بحر البصري. كان أسن من الحسن البصري، وثقه أبو حاتم، والبخاري. وقال أبو داود: ليس بذاك. وضعفه يحيى بن معين. ميزان الاعتدال ٢٣٣/٤.

أبي شَيْبَة وأَحمد والترمذي وصَحَّحه وسَمُرة بن جُنْدُب رضي الله عنه رواه ابن مردويه.

وسهل بن سعد رضي الله عنه رواه ابن عساكر، وشدَّاد بن أَوْس رضي الله عنه رواه البَزَّار والطبراني والبيهقي وصَحَّحه. وصُهَيْب بن سِنان رضي الله عنه رواه الطبراني وابن مردويه وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما رواه الإِمام أَحمد وأَبو نُعَيْم وابن مردويه من طريق قابوس - بالقاف والمُوحَّدة - عن أَبيه بسَنَد صحيح. والإِمام أحمد وأَبو يُعْلَى من طريق عِكْرِمة. والشيخان من طريق أَبي العالية ومن طريق عِكْرمة. والإِمام أَحمد والنسائي والبَزَّار بسند صحيح عن طريق سعيد بن جُبَيْر. والإمام أَحمد وابن أَبي شيبة والبزار بسند صحيح من طريق زُرَارة بن أَوْفَى، وهذه الطرق كلها مُخْتَصَرَة.

وعبد الله بن عمر بن الخَطَّاب رضي الله عنهما رواه أَبو داود والبيهقي. وعبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما رواه ابن سعد وابن عساكر. وعبد الله بن الزُّبَيْر رضي الله عنهما. وعبد الله بن أَبي أَوْفَى رضي الله عنهما ذكرهما أَبو حَفْص النَّسَفي. وعبد الله بن أَسعد بن زُرَارة رضي الله عنهما رواه البَزَّار والبغوي وابن قانع كلاهما في معجم الصحابة. وعبد الله بن مسعود رضي الله عنه رواه مسلم من طريق مُرَّة، وابن عَرَفة من طريق أَبيه عن عُبَيْد الله. والإِمام أَحمد وابن ماجه من طريق مُؤثر - بضم الميم وسكون الواو وكسر المثلثة - ابن عَفَازَة بفتح المهملة والفاء ثم زاي - الكوفي.

والبَزَّار وأَبو يُعلى والطبراني من طريق عَلْقَمة، والبيهقي من طريق زِرّ - بكسر الزاي وبالراء - ابن حُبَيْش - بضم الحاء المهملة وفتح الموحدة وسكون التحتية وبالشين المعجمة. وعبد الرحمن بن عابس[1]، ذكره ابن دِحْية في التنوير. والعباس بن عبد المطلب، وعثمان بن عَفَّان رضي الله عنه ذكره أَبو حَفْص النسفي. وعلي بن أَبي طالب رضي الله عنه رواه الإِمام أَحمد وابن مردويه. وعمر بن الخطاب رضي الله عنه رواه الإِمام أَحمد وابن مردويه. وأَنس بن عياض ذكره ابن دحية. ومالك بن صعصعة رضي الله عنه رواه عنه الإِمام أَحمد والشيخان وابن جرير والبيهقي وغيرهم. وأَبو بكر الصديق رضي الله عنه ذكره ابن دحية. وأَبو أَيوب الأَنصاري رضي الله عنه رواه الشيخان في أَثناء حديث أُبَيّ بن كعب.

وأَبو الحمراء رضي الله عنه رواه الطبراني. وأَبو الدرداء رضي الله عنه ذكره أَبو حفص النسفي. وأَبو ذَرّ الغِفاري رضي الله عنه رواه الشيخان. وأَبو سعيد الخُدْرِي - بضم الخاء

---

(١) عبد الرحمن بن عابس بن ربيعة النخعي، الكوفي، ثقة، مات سنة تسع عشرة. التقريب ١/٤٨٥.

المعجمة والدال المهملة ـ رضي الله عنه رواه ابن جرير وابن أَبي حاتم والبيهقي من طريق أَبي هارون العبدي[١] وهو مُتَكَلَّم فيه.

وقد روى البيهقي عن أَبي الأَزهر قال: حدثنا زيد بن أَبي حكيم قال: «رأَيت رسول الله ﷺ في النوم، فقلت: يا رسول الله أَين رجل من أُمتك يقال له سفيان الثوري لا بأْس به؟ فقال النبي ﷺ: لا بأْس به. حدَّثنا عن أَبي هريرة عن أَبي سعيد الخُدْرِيّ عنك أَنك ليلة أُسْرِي بك قُلْتَ: رأَيتُ في السماء، فَحَدَّثْتُه بالحديث، فقال: نعم. فقلت: يا رسول الله إِن ناساً من أُمتك يُحَدِّثون عنك في الإِسراء العجائب. فقال: ذاك حديث القُصَّاص».

وأَبو سفيان بن حرب رضي الله عنه ذكره أَبو حفص النسفي. وأَبو سلمة بن دحية وأَبو سلمى راعي رسول الله ﷺ ذكره أَبو حفص النسفي. وأَبو ليلى الأَنصاري رضي الله عنه رواه الطبراني وابن مردويه. وأَبو هريرة رضي الله عنه رواه مُطَوَّلاً ابن جرير وابن أَبي حاتم والبيهقي والحاكم وصححه من طريق أَبي العالية، وفي سنده أَبو جعفر الرازي وهو صدوق الحفظ، ومختصراً الشيخان من طريق سعيد بن المُسَيَّب، والإِمام أَحمد ومسلم من طريق أَبي سلمة. والإِمام أَحمد وابن ماجه عن طريق أَبي الصلت. وابن مردويه عن طريق سليمان التَّيْمي. وابن سعد وسعيد بن منصور والطبراني من طريق مولاه. وأَسماء بنت أَبي بكر رضي الله عنها رواه ابن مردويه. وأُم المؤمنين عائشة رضي الله عنها رواه الحاكم وصححه والبيهقي وابن مردويه من طريق الزهري عن عروة عنها. وابن مردويه من طريق هشام عن أَبيه عنها.

وأُم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ورضي الله عنها ذكره أَبو حفص النسفي. وأُم سلمة أُم المؤمنين رضي الله عنها رواه أَبو سعيد وابن عساكر. وأُم هانئ رضي الله عنها رواه الطبراني وأَبو يُعْلَى وابن عساكر عن طريق أَبي صالح وابن إِسحق بلفظ آخر. والله أعلم.

---

(١) عمارة بن جوين، أبو هارون العبدي. تابعي لين بمرّة. كذبه حماد بن زيد. وقال أحمد: ليس بشيء، وقال ابن معين: ضعيف، لا يصدق في حديثه. وقال النسائي: متروك الحديث قال الجوزجاني: أبو هارون كذاب مُفْتَرٍ. توفي سنة أربع وثلاثين ومائة. ميزان الاعتدال ٣/١٧٣، ١٧٤.

الباب الثامن

في سياق القصة

اعلم رحمني الله وإياك أن في حديث كل من الصحابة السابق ذكرهم في الباب السابع ما ليس في الآخر، فاستخرتُ الله تعالى وأدخلتُ حديث بعضهم في بعض ورتَّبتُ القصة على نَسَقٍ واحد، لتكون أحلى في الآذان الواعيات، وليَعُمّ النفع بها في جميع الحالات. فإن قلت إن أحاديث المعراج كل حديث منها مخالف للآخر. فقد يكون المعراج تَعَدَّد بعددها فلِمَ جَعَلْتَ الكُلَّ قِصّةً واحدة؟.

فأقول: قال في «زاد المعاد»: «هذه طريقة ضُعَفاء الظاهرية من أرباب النَّقْل الذين إذا رأوا في القصة لفظةً تخالف سياق بعض الرواة جعلوه مَرّةً أُخرى فكلما اختلفت عليهم الرواة عَدَّدُوا هم الوقائع والصواب الذي عليه أئمة النقل أن الإسراء كان مَرّةً واحدة بمكة بعد البعثة، ويا عَجَباً لهؤلاء الذين زعموا أنه وقع مِراراً كيف ساغ لهم أن يَظُنّوا أنه في كل مرة تُفْرَض عليه الصلاة خمسين، ثم يتردَّد بين رَبِّه وبين موسى حتى تصير خمساً، ثم يقول: «أَمْضَيْتُ فريضتي وخَفَّفْتُ عن عبادي»، ثم يعيدها في المرة الثانية خمسين ثم يحطها عشراً عشراً؟.

قال الحافظ عماد الدين بن كثير رحمه الله تعالى في تاريخه، بعد أن ذكر أنه لم يقع في سياق مالك بن صعصعة ذِكْرُ بيت المقدس: «وكان بعض الرواة يحذف بعض الخَبَر للعلم به، أو ينساه، أو يذكر ما هو الأهم عنده، أو ينشط تارةً فيسوقه كُلَّه، وتارةً يُحَدِّث مُخاطِبَه بما هو الأنفع له» «ومَنْ جعل كل رواية خالفت الأُخرى مَرّةً على حِدَة، فأَثْبَتَ إسراءات متعددة فقد أبعد وأغرب وهرب إلى غير مَهْرَب ولم يحصل على مطلب»، «وذلك أن كل السياقات فيها تعريفه بالأنبياء، وفي كلها تُفْرَض عليه الصلوات، فكيف يُدَّعَى تعدد ذلك؟ هذا في غاية البُعْد»، «ولم يُنْقَل ذلك عن أحَدٍ من السلف ولو تَعَدَّد هذا التعدد لأخبر النبي ﷺ به أُمَّته ولنقله الناس على التكرار». انتهى.

وقال الحافظ في الفتح نحوه وزاد: «ويلزم أيضاً وقوع التعدد في سؤاله ﷺ عن كل نبي وسؤال أهل كل باب: هل بُعِث إليه؟ وفَرْض الصلوات الخَمْس وغير ذلك، فإن تعدد مثل ذلك في القصة لا يَتَّجِه، فيتعيَّن رَدّ بعض الروايات المختلفة إلى بعض أو الترجيح إلا أنه لا يُعَدّ وقوع مثل ذلك في المنام توطئة ثم وقوعه يَقَظَة». انتهى مُلَخَّصاً.

إذا عُلِم ما تقرر فأقول: «بينما النبي ﷺ عند البيت في الحِجْر، إذ أتاه جبريل وميكائيل ومعهما مَلَك آخر، فقال أوَّلُهم: أيُّهم؟ فقال أوسطهم هو خيرهم. فكانت تلك الليلة، فلم يرهم حتى ليلة أُخرى. فقال الأول: هو هو. فقال الأوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سَيِّدَ القوم

الأَوسط بين الرجلين. فرجعوا عنه حتى إذا كانت الليلة الثالثة، رآهم، فقال الأَول: هو هو، فقال الأَوسط: نعم، وقال الآخر: خذوا سيد القوم الأَوسط بين الرجلين. فاحتملوه حتى جاءوا به زمزم، فأَلْقَوه على ظهره فَتَولاَّه منهم جبريل».

وفي رواية: «فُرِج سقف بيتي، فنزل جبريل، فشَقَّ من ثُغْرَة نَحْره إِلى أَسفل بطنه، ثم قال جبريل لميكائيل: ائتيني بطست من ماء زمزم كيما أُطَهِّر قلبه وأَشرح صدره، فاستخرج قلبه، فغَسَله ثلاث مرات، ونزع ما كان فيه من أَذى، واختلف إِليه ميكائيل بثلاث طسوت من ماء زمزم، ثم أَتى بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإِيماناً، فأَفرغه في صدره، وملأَه حِلْماً وعِلْماً ويقيناً وإِسلاماً. ثم أَطبقه ثم خَتَم بين كتفيه بخاتم النبوة، ثم أُتِي بالبُرَاق مُسْرَجاً مُلْجَماً، وهو دابة أَبيض، طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، مضطرب الأُذنين، إِذا أَتى على جَبَل ارتفعت رجلاه، وإِذا هبط ارتفعت يداه، له جناحان في فخذيه يحفز بهما رجليه».

وعند الثعلبي بسَنَد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما: «له خَدٌّ كخدّ الإِنسان وعُرْف كعُرْف الفَرَس وقوائم كالإِبل وأَظلاف وذنب كالبقر». انتهى. «فاستصعب عليه» وفي رواية «فشَمَس[1]»، وفي رواية كأَنها صَرَّت[2] أُذنيها فَرَزَّها جبريل وقال: مَهْ أَبمحمدٍ تفعلين هذا؟» وفي رواية: «فوضع جبريل يده على مَعْرَفته ثم قال: «أَلا تستحي يا بُرَاق؟ فوالله ما ركبَك خلق» - وفي رواية - عَبْدٌ لِلّه قطّ أَكرم على الله منه. فاستحى حتى ارْفَضَّ عَرَقاً، وقَرَّ حتى رَكِبَها» - وفي رواية - رَكِبَه. وكانت الأَنبياء تركبها قبله». وقال أَنس بن مالك: «كانت الأَنبياء تركبها قبله». وقال سعيد بن المُسَيَّب، وأَبو سَلَمة بن عبد الرحمن: «وهي دابة إِبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام».

فانطلق به جبريل - وفي رواية - فانطلقت مع جبريل. وعند أَبي سعيد النيسابوري في الشرف: فكان الآخذ بركابه جبريل، وبزمام البُرَاق ميكائيل - وفي رواية: جبريل عن يمينه، وميكائيل عن يساره. فساروا حتى بلغوا أَرضاً ذات نخل. فقال له جبريل: انزل فَصَلِّ ههنا، ففعل، ثم ركب. فقال له جبريل: أَتدري أَين صَلَّيت؟ قال: لا. قال: صَلَّيت بطَيْبَة وإِليها المهاجر. فانطلق البُرَاق يَهْوِي به، يضع حافره حيث أَدرك طرفه. فقال جبريل: انزل فَصَلِّ، ففعل. ثم ركب. فقال جبريل: أَتدري أَين صَلَّيتَ؟ قال: لا. قال: صَلَّيتَ بمَدْيَن عند شجرة

---

(١) شمس الدابة شموساً، وشماساً: جمحت ونفرت. انظر المعجم الوسيط ٤٩٦/١.

(٢) صَرَّ الفرس والحمار بأُذنِه يصرُّ صراً وصرَّها، وأَصَرَّ بها: سوَّاها ونصبها للاستماع. انظر لسان العرب ٢٤٣٠/٤.

موسى. ثم ركب. فانطلق البُرَاق يهوي. ثم قال: انزل فَصَلِّ. ففعل. ثم ركب. فقال: أتدري أين صَلَّيْت؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتَ بطور سينا حيث كَلَّم الله موسى.

ثم بلغ أرضاً بدت له قصوراً. فقال له جبريل: انزل فَصَلِّ. ففعل، ثم ركب وانطلق البُرَاق يهوي. فقال له جبريل: أتدري أين صَلَّيْتَ؟ قال: لا. قال: صَلَّيْتَ ببيت لحم، حيث وُلِد عيسى. وبينا هو يسير على البُرَاق إذ رأى عِفْريتاً من الجنّ، يطلبه بشعلةٍ من نار، كلما التفت رآه. فقال له جبريل: ألاَ أعَلِّمك كلمات تقولهن، فإذا قلتهن طَفِئَتْ شُعْلَتُه وخَرَّ لِفيه؟ فقال رسول الله ﷺ: بلى، فقال جبريل: «قُلْ أعوذ بوجه الله الكريم، وبكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهُنّ بَرٌّ ولا فاجر، من شَرِّ ما ينزل من السماء، ومن شَرِّ ما يَعْرُج فيها، ومن شَرِّ ما ذرأ في الأرض، ومن شَرِّ ما يخرج منها، ومن شَرِّ فِتَن الليل والنهار، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير يا رَحْمٰن». فانكبَّ لفيه وانطفأت شعلتُه.

فساروا حتى أتَوْا على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تُضَاعَف لهم الحَسَنة بسبعمائة ضِعْف، وما أنفقوا من شيء فهو يُخْلِفُه. ووجد ريحاً طيبة، فقال: يا جبريل ما هذه الرائحة؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها، بينا هي تَمْشُط بنت فرعون إذ سقط المشْط، فقالت: بسم الله، تَعِسَ فرعون. فقالت ابنة فرعون: أوَلَكِ رَبٌّ غير أبي؟ قلت: نَعَم، رَبِّي ورَبُّكِ الله. وكان للمرأة ابنان وزوج فأرسل إليهم فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحساناً منك إن قتلتنا أن تجعلنا في بيت - وفي رواية قالت: إن لي إليك حاجة. قال: وما هي؟ قالت: تجمع عظامي وعظام ولديّ، فتدفِنَّا جميعا. قال: ذلك لَكِ بما لَكِ علينا من الحق، فأمَر بنُقْرَةٍ من نُحَاس فأُحْمِيَت، ثم أُمِر بها لتُلْقَى فيها هي وأولادُها، فأُلْقُوا واحداً واحداً، حتى بلغوا أصغر رضيع فيهم، فقال: يا أُمَّه قَعِي ولا تقاعسي فإنك على الحق. قال: وتكلم أربعة وهم صِغَار: هذا وشاهد يوسف وصاحب جُرَيْج وعيسى ابن مريم عليه السلام.

ثم أتى على قَوْم تُرْضَخ رؤوسُهم، كلما رُضِخَتْ عادت كما كانت. ولا يفتر عنهم من ذلك شيء. فقال: يا جبريل مَنْ هؤلاء؟ فقال: هؤلاء الذين تتثاقل رؤوسهم عن الصلاة المكتوبة. ثم أتى على قوم على أقبالهم رِقاع وعلى أدبارهم رقاع، يَسْرَحُون كما تَسْرَح الإبل والغَنَم، ويأكلون الضَّريع والزَّقُّوم ورَضْف جهنَّم وحجارتها. فقال: مَنْ هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يُؤَدُّون صَدَقات أموالهم، وما ظلمهم الله شيئاً، ثم أتى على قوم بين أيديهم لَحْمٌ نضيج في قدور، ولَحْمٌ آخر نَيِّءٌ خبيث، فجعلوا يأكلون من النَّيِّءِ الخبيث ويَدَعُون النضيج. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أُمَّتِك تكون عنده المرأة الحلال الطَّيِّب، فيأتي

امرأةً خبيثة، فيبيت عندها حتى يُصْبِح، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طَيِّباً، فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه حتى تُصْبح.

ثم أتى على خَشَبةٍ على الطريق لا يَمُرّ بها ثَوْبٌ ولا شيء إلا خَرَقَتْه. فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذا مثل أقوام من أُمّتِك يقعدون على الطريق فيقطعونه، وتلا: ﴿**ولا تَقْعُدوا بكلّ صِراطٍ تُوعِدُون**﴾ [الأعراف: ٧٦] ورأى رجلاً يَسْبَح في نهرٍ من دَم، يُلْقَمُ الحجارة، فقال: مَنْ هذا؟ قال: آكِلُ الرِّبا. وأتى على قوم قد جمع الرجل منهم حِزْمَةً عظيمة لا يستطيع حَمْلَها، وهو يزيد عليها، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل من أُمّتِك تكون عنده أمانات الناس لا يَقْدِر على أدائها، ويريد أن يَتَحَمَّل عليها.

ثم أتى على قوم تُقْرَض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد كلما قُرِضت عاد، لا يَفْتُر عنهم من ذلك شيء، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خُطَباء الفتنة من أُمتك يقولون ما لا يفعلون. ومَرَّ بقوم لهم أظفار من نحاس يَخْمِشون وجوههم وصدورهم، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويَقَعُون في أعراضهم.

وأتى على حجر صغير يخرج منه ثور عظيم، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج فلا يستطيع، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها. وأتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة كريح المسك، وسمع صوتاً، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: هذا صوت الجنة تقول: يا رب إيتني بما وعدتني، فقد كثرت غُرَفي واستبرقي وحريري وسندسي، وعبقري[1] ولؤلؤي ومَرْجاني وفضتي وذهبي، وأكوابي وصِحَافي وأباريقي ومراكبي وعسلي ومائي، ولبَني وَخَمْري. قال: لكِ كُلُّ مسلمٍ ومسلمة ومؤمنٍ ومؤمنة، ومَن آمن بي وبِرُسُلي، وعمل صالحاً، ولم يُشرِك بي، ولم يتخذ من دوني أنداداً، ومن خشيني فهو آمن، ومن سألني أعْطيتُه، ومن أقْرَضنِي جَزيْتُه، ومن توَكلَ عَلَيَّ كفيتُه، إني أنا الله لا إله إلا أنا، لا أُخلِف الميعاد، وقد أفلح المؤمنون، وتبارك الله أحْسَن الخالقين. قالت: قد رَضِيت.

وأتى على وادٍ فسمع صوتاً مُنكراً ووجد ريحاً مُنتِنة، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا صوت جهنم تقول: يا رب إيتني بما وعدتني، فقد كثرت سلاسلي وأغلالي وسَعيري وحَميمي وضريعي وغسَّاقي وعذابي، وقد بَعُدَ قعْري واشتدّ حَرِّي، فأْتِني بما وعدتني. فقال: لكِ كُلُّ مُشرِكٍ ومُشرِكة، وكافر وكافرة، وخبيث وخبيثة، وكلُّ جَبَّار لا يؤمن بيوم الحساب: قالت: قد رَضِيت.

---

(١) عبقري قيل: هو الدِّيباج. وقيل: البُسُط المَوْشِيَّة. وقيل: الطَّنافس الثِّخانُ. انظر النهاية لابن الأثير ١٧٣/٣.

ورأى الدَّجّال في صورته رؤية عين لا رؤيا منام، فقيل: يا رسول الله كيف رأيته؟ فقال: «رأيته فيلمانياً أقمر هجان إحدى عينيه قائمة كأنها كوكب دُرِّيّ، كأن شعْر رأسه أغصان شجرة، أُشبِّهُه بعبد العُزَّى بن قطن»(١). ورأى عموداً أبيض كأنه لؤلؤة، تحمله الملائكة، فقال: ما تحملون؟ قالوا: عمود الإسلام، أُمِرنا أن نضعه بالشام. وبينا يسير إذ دعاه داعٍ عن يمينه: يا محمد، أنظِرْني أسألك. فلم يُجِبْه. فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي اليهود، أمَا إنك لو أجَبْته لتهوَّدت أمَّتُك. وبينا هو يسير إذ دعاه عن شِماله: يا محمد أنظِرْني أسألك، فلم يُجبْه، فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا داعي النصارى، أما إنك لو أجَبْته لتنصَّرت أُمَّتُك.

وبينا هو يسير، إذا بامرأة حاسرة عن ذراعها وعليها من كل زينة خلقها الله تعالى. فقالت: يا محمد أنظِرْني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: تلك الدنيا، أَما إنك لو أجبتها لاختارت أُمتك الدنيا على الآخرة. وبينا هو يسير فإذا هو بشيء يدعوه متنحياً عن الطريق، يقول: هَلُمّ يا محمد، فقال جبريل، سِرْ يا محمد، فقال: من هذا؟ هذا عدو الله إبليس، أراد أن تميل إليه. وسار فإذا هو بعجوز على جانب الطريق، فقالت: يا محمد أنظِرْني أسألك، فلم يلتفت إليها، فقال: من هذه يا جبريل؟ قال: إنه لم يبق من الدنيا إلا ما بقي من عُمْر هذه العجوز. وبينا هو يسير إذ لقيه خلق من خلق الله، فقالوا: السلام عليك يا أوّل، السلام عليك يا آخر، السلام عليك يا حاشر، فقال جبريل: ارْدُدْ السلام، فرَدّ، ثم لقيه الثانية فقال له مثل ذلك، ثم لقيه الثالثة فقال له مثل ذلك. فقال: من هؤلاءِ يا جبريل؟ قال: إبراهيم وموسى وعيسى.

ومَرَّ على، موسى وهو يصلي في قبره الكثيب الأحمر، رجل طوال سبط آدم كأنه من رجال شنوءة، وهو يقول يرفع صوته: أكرمته وفَضَّلته، فُدِفع إليه، فسَلَّم عليه فَرَدّ عليه السلام، وقال: من هذا معك يا جبريل؟ فقال: هذا أحمد، فقل: مرحباً بالنبي العربي الذي نصح لأُمته ودعا له بالبركة وقال: سَلْ لأمتك اليسر.

فساروا فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا موسى بن عمران، قال: ومن يُعَاتِب؟ قال: يُعَاتِب رَبّه. قال: أوَ يرفع صوته على ربه؟ قال جبريل إن الله تعالى قد عرف له حِدَّته ثم مرّ برجل قائم يصلي قال: من هذا معك يا جبريل قال جبريل: هذا أخوك محمد، فرحب به ودعا له ببركة فقال: سل لأمتك اليسر، فقال من هذا يا جبريل: قال هذا أخوك عيسى. ومَرَّ على شجرة كان ثمرها السرح، تحتها شيخٌ وعياله، فرأى مَصَابِيحَ وَضَوْءًا. فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا أبوك إبراهيم. فسَلَّم عليه فَرَدَّ عليه السلام. وقال: منْ هذا معك يا جبريل؟ قال: هذا ابنك

(١) أخرجه مسلم بنحوه ٢٢٥٠/٤ وأحمد في المسند ١٧٤/١.

أَحمد. فقال: مرحباً بالنبي العربي الذي بَلَّغ رسالة ربه ونَصَح لأُمَّته، يا بُنيَّ إِنك لاقٍ رَبَّك الليلة، وإِن أُمتك آخر الأُمم وأَضعفها، فإِن استطعت أَن تكون حاجتك أَو جُلُّها في أُمتك فافعل. ودعا له بالبركة.

فسار حتى أَتى الوادي الذي في المدينة يعني بيت المقدس، فإِذا جهنم تنكشف عن مثل الروابي. فقيل: يا رسول الله كيف وجدتها؟ قال: «مثل الحُمَم» ثم سار حتى انتهى إِلى المدينة، فدخلها من بابها اليماني، وإِذا عن يمين المسجد وعن يساره نوران ساطعان. فقال: يا جبريل ما هذان النوران؟ قال: أَما الذي عن يمينك فإِنه محراب أَخيك داود، وأَما الذي عن يسارك فعلى قبر أَختك مريم. فدخل المسجد من باب فيه تميل الشمس والقمر، فأَتى جبريل الصخرة التي ببيت المقدس، فوضع أصبعه فيها فخرقها، فشَدَّ بها البُرَاق، وفي رواية مسلم، فربطه بالحَلْقة التي تَرْبُط بها الأَنبياء. فلما استوى بها النبي ﷺ في صخرة المسجد، قال جبريل: يا محمد هل سأَلت ربك أَن يُريَك الحور العِين؟ قال: نعم، قال جبريل: فانْطَلِقْ إِلى أُولئك النسوة فسَلِّمْ عليهن، وهُنَّ جلوس عن يسار الصخرة، فانتهى إِليهن، فسَلَّم عليهن، فرَدَدْنَ عليه السلام. فقال: من أَنْتُنَّ؟ فقُلْنَ: «خَيرات حسان»، :ساءُ قوم أَبرار، نقوا فلم يَدْرَنوا، وأَقاموا فلم يظعنوا، وخُلِّدوا فلم يموتوا.

ثم صَلَّى هو وجبريل كل واحد ركعتين فلم يلبث إِلا يسيراً حتى اجتمع ناس كثيرون، فعرف النبيين من بين قائم وراكع وساجد، ثم أَذَّن مُؤَذِّن وأُقيمت الصلاة، فقاموا ينتظرون من يَؤُمُّهم، فأَخذ جبريل بيده فقَدَّمه فصَلَّى بهم ركعتين. وفي رواية: ثم أُقيمت الصلاة، فتدافعوا حتى قَدَّموا مُحمداً. وعند الواسطي عن كعب: فَأَذَّن جبريل ونزلت الملائكة من السماء وحشر الله له المرسلين، فصلى النبي ﷺ بالملائكة والمرسلين، فلما انصرف، قال جبريل: يا محمد، أَتدري من صَلَّى خَلْفَك؟ قال: لا. قال: كُلُّ نبيٍّ بعثه الله تعالى.

وفي حديث أَبي هُرَيْرة رضي الله عنه، عند الحاكم وصَحَّحه البيهقي: فلقي أَرواح الأَنبياء، فأَثْنوا على ربهم. فقال إِبراهيم: «الحمد لله الذي اتخذني خليلاً وأَعطاني مُلْكاً عظيماً وجعلني أُمَّةً قانتا يُؤْتَمّ بي، وأَنقذني من النار، وجعلها عليّ بَرْداً وسلاماً. ثم إِن موسى أَثنى على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمدلله الذي كَلَّمني تكليماً وجعل هلاك فرعون ونجاة بني إِسرائيل على يدي، وجعل من أُمّتي قوماً يهدون بالحق وبه يعدلون». ثم إِن داود أَثنى على ربه فقال: «الحمد لله الذي جعل لي مُلْكاً عظيماً، وعَلَّمني الزبور، وأَلان لي الحديد، وسَخَّر لي الجبال يُسَبِّحن والطير، وأَعطاني الحكمة وفصل الخطاب».

ثم إِن سليمان أَثنى على ربه فقال: «الحمد لله الذي سَخَّر لي الرياح وسَخَّر لي

الشياطين والإنس يعملون لي ما شئت من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجوابي وقدور راسيات، وعَلَّمني منطق الطير وأتاني من كل شيء فضلاً، وسَخَّر لي جنود الشياطين والإنس والجن والطير، وفَضَّلَني على كثير من عباده المؤمنين، وأتاني ملكاً عظيماً لا ينبغي لأحد من بعدي وجعل مُلْكي مُلْكاً طيباً ليس فيه حساب ولا عقاب».

ثم إن عيسى بن مريم أثنى على ربه تبارك وتعالى فقال: «الحمد لله الذي جعلني كلمته وجعل مَثَلي مَثَل آدم خلقه من تراب. ثم قال له: كن فيكون، وعَلَّمني الكتاب والحكمة، والتوراة والإنجيل، وجعلني أُبْرِئ الأكمه والأبرص وأُحْيِي الموتى بإذن الله، ورفعني وَطهَّرني. وأعاذني وأُمي من الشيطان الرجيم، فلم يكن للشيطان علينا سبيل».

فقال النبي ﷺ: «كلكم أثنى على ربه وإني مُثْنٍ على ربي»، فقال: «الحمد لله الذي أرسلني رحمةً للعالمين وكافَّةً للناس بشيراً ونذيراً، وأنزل عَلَيَّ الفُرْقَان فيه تِبْيَان كل شيء، وجعل أُمتي خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس، وجعل أُمّتي وَسَطاً، وجعل أُمّتي هم الأولون والآخرون، وشرح لي صدري ووضع عني وِزْري ورفع لي ذِكْري وجعلني فاتحاً وخاتماً». فقال إبراهيم ﷺ: «بهذا فَضَلَكُمْ محمد ﷺ».

ثم تذاكروا أَمْرَ الساعة، فَرَدُّوا أَمْرَهم إلى إبراهيم فقال: «لا عِلْم لي بها». فردوا أمرهم إلى موسى فقال: «لا عِلْمَ لي بها». فردوا أمرهم إلى عيسى فقال: «أما وَجْبَتُها فلا يعلمها إلا الله، وفيما عهد إليَّ ربي أن الدَّجَّال خارج، ومعي قضيبان، فإذا رآني ذابَ كما يذوب الرصاص، فيهلكه الله تعالى إذا رآني، حتى أن الحجر ليقول: يا مسلم إن تحتي كافراً فتعالَ فاقتله، فيهلكهم الله ثم يرجع الناس إلى بلادهم وأوطانهم فَعِنْدَ ذلك يخرج يأجوج ومأجوج. وهم من كل حَدْب يَنْسِلون فيطأُون بلادهم لا يأتون على شيء إلا أهلكوه، ولا يمرون على ماء إلا شربوه، ثم يرجع الناس فيشكونهم إليّ، فأدعو الله تعالى عليهم، فيهلكهم ويُميتهم حتى تحوي الأرض من ريحهم، فيُنْزِل الله تعالى المطر، فيجرف أجسادهم حتى يقذفهم في البحر. ففيما عهد إليّ ربّي أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المُتِمّ لا يدري أهلها متى تفجأهم بولادتها ليلاً أو نهاراً».

وأخذ النبي ﷺ من العطش أشد ما أخذه، فأُتِي بقدحَيْن أحدهما عن اليمين والآخر عن الشمال في أحدهما لبن والآخر عَسَل - وفي رواية أُتِيَ بآنية ثلاث مُغَطَّاةٌ أفواهها، فأُتِيَ بإناءٍ منها فيه ماء فشرب منه قليلاً، وفي لفظ أنه لم يشرب منه شيئاً، ثم دُفِع إليه إناءٌ آخر فشرب منه حتى رَوِيَ، ثم دُفِع إليه إناءٌ آخر فيه خمر، فقيل له: اشرب فقال: «لا أُريده قد رَوِيتُ». فقال جبريل: «إنها سَتُحَرَّم على أُمّتك». وفي رواية: فعرض عليه الماء والخمر واللبن، وفي

رواية العسل بدل الماء فشرب من العسل قليلاً، وتناول اللبن فشرب منه حتى رَوِيَ، فضرب جبريل منكبيه وقال: «أَصَبْتَ الفِطْرة، ولو شَرِبْتَ الخمر لَغَوت أُمَّتُكَ ولم يتبعك منهم إلا القليل، ولو شَرِبْتَ الماء لغرقت أُمّتك»، وفي رواية قال شيخ «مُتَّكِئ على مِنْبَر له لجبريل: «أخذ صاحِبُك الفِطْرَة، وإنه لمُهْتَدٍ». ثم أُتِي بالمعراج الذي تَعْرُجُ عليه أرواح بني آدم، فلم ير الخلق أحسن من المعراج، له مَرْقاةٌ من فضة ومَرْقَاة من ذهب. وفي رواية لأبي سعيد في شرف المصطفى أنه أُتِي بالمعراج من جَنَّة الفردوس مُنَضَّدٍ باللؤلؤ، عن يمينه ملائكة وعن يساره ملائكة، فصعد هو وجبريل حتى انتهيا إلى باب من أبواب السماء الدنيا يُقَال له باب الحَفَظَة وعليه مَلَك يقال له إسماعيل، وهو صاحب السماء الدنيا - وفي حديث جعفر بن محمد عند البيهقي: «يسكن الهواء فلم يصعد إلى السماءِ قط ولم يهبط إلى الأرض قط إلا يوم مات النبي ﷺ»، انتهى - وبين يديه سبعون أَلف مَلَك مع كل مَلَك جنده مائة أَلف.

فاستفتح جبريل باب السماء: قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أَوَ قد أُرْسِل إليه؟ - وفي رواية: بُعِث إليه؟ قال: نَعَم، قيل: مَرْحَباً به وأَهلاً، حَيَّاه الله من أَخ ومن خليفة، فنِعْمَ الأخ ونِعْمَ الخليفة، ونعْمَ المجيء جاء ففتح لهما. فلما خلصا إلى السماءِ، فإذا فيها آدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته، تُعْرضُ عليه أرواح ذريته المؤمنين فيقول: رُوحٌ طَيِّبة ونَفْسٌ طَيِّبَة، إجعلوها في عِلِّيِّين، ثم تُعْرضَ عليه أرواح ذريته الكُفَّار، فيقول: رُوحٌ خبيثة ونَفْسٌ خبيثة، اجعلوها في سِجِّين وعن يمينه أسودة وباب تخرج منه ريح طيبة وعن شماله أَسْوِدة وباب تخرج منه ريح خبيثة، فإذا نظر عن يمينه ضَحِك واستبشر، وإذا نظر عن شِماله حزِن وبكى.

فسَلَّم عليه النبي ﷺ، فرَدَّ عليه السلام، ثم قال: مَرْحباً بالابن الصالح والنبي الصالح، فقال النبي ﷺ: يا جبريل من هذا؟ قال: هذا أَبوك آدم، وهذه الأَسودة نسَم بنيه، فأَهل اليمين منهم أَهل الجنة، وأَهل الشِمال منهم أَهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضَحِك، وإذا نظر عن شِماله بكى، وهذا الباب الذي عن يمينه باب الجنة، إذا نظر من يدخله من ذُرِّيته ضحك واستبشر، والباب الذي عن شِماله باب جهنم، إذا نظر من يدخله من ذريته بكى وحزِن.

ثم مضى ﷺ هنيهة، فإذا هو بأَخْونَةٍ عليها لحم مشرح ليس يقربه أَحد، وإذا بأَخونة عليها لَحْمٌ قد أَرْوَحَ وأَنْتَن، عنده ناس يأْكلون منه. فقال: يا جبريل مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أُمَّتك يتركون الحلال ويأْتون الحرام. وفي لفظ: وإذا هو بأقوام على مائدة عليها لحم مَشْوِي كأحسن ما رُؤِي من اللحم، وإذا حوله جِيفَ، فجعلوا يُقْبِلون على الجِيَف يأكلون منها ويَدَعُونَ اللحم. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الزنَاة يُحِلّون ما حَرَّم الله عليهم ويتركون ما أَحَلَّ الله لهم.

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام بطونُهم أمثال البيوت فيها الحياة تُرى من خارج بطونهم، كلما نهض أحدُهم خرَّ، فيقول: اللهم لا تقم الساعة، قال: وهم على سابلة آل فرعون، فتجيء السابلة فتطؤهم فسمعتهم يَضِجون إلى الله تعالى. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء من أمتك ﴿الذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إلاَّ كَمَا يَقُومُ الذي يَتَخبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ثم مضى هنيهة فإذا هو بأقوام مَشَافِرُهم كَمَشَافِرِ الإبل، فتُفْتَح أفواههم ويُلْقَمون حجراً، وفي رواية: يُجْعَل في أفواههم صَخْرٌ من جهنم، ثم يخرج من أسافلهم، فسمعهم يَضِجون إلى الله تعالى. فقال: يا جبريل من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ﴿الَّذِينَ يَأْكُلون أمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْماً إنَّما يأكلون فِي بُطونِهِم نَاراً وَسَيَصْلَوْن سَعِيراً﴾ [النساء: ١] ثم مضى هنيهة فإذا هو بنساء مُعَلَّقات بثُدِيِّهِنّ ونساء مُنَكَّسات بأرجلهن، فَسَمِعَهنَّ يَضْجِجْنَ إلى الله تعالى، فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء اللاتي يزنين ويَقْتُلْنَ أولادهن. ثم مضى هنيهة إذا هو بأقوام يُقْطَع من جنوبهم اللحم فيُلْقَمُونَه، فيقال له: كُلْ كما كنت تأكل من لحم أخيك. فقال: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الهَمَّازون من أُمَّتك اللَّمَّازون..

ثم صعدا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيّاه الله من أخ ومن خليفة، فنِعْمَ الأخ ونِعْمَ الخليفة ونِعْمَ المجيء جاء. ففتح لهما. فلما خَلَصا فإذا هو بابْنَيْ الخالة: عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريا، شبيه أحدهما بصاحبه: ثيابُهما وشَعْرُهما ومعهما نَفَرٌ من قومهما. وإذا بعيسى جَعْدٌ مربوع الخَلْق إلى الحُمَرَة والبياض سبط الشَّعْر كأنما أُخْرِج من ديماس أي حَمَّام شَبَّهُه بعُرْوة بن مسعود الثقفي.

فسَلَّم عليهما فردَّا عليه السلام، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودَعَوَا له بخير.

ثم صعدا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟. قال: محمد. قيل: أوَقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأهلاً، حَيّاه الله من أخ ومن خليفة فنِعْمَ الأخ ونِعْمَ الخليفة ونِعْمَ المجيء جاء. ففتح لهما فلما خَلَصا فإذا هو بيوسف ومعه نَفَرٌ من قومه فسَلَّم عليه، فَرَدَّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح ودعا له بخير، وإذا هو قد أُعْطِيَ شطر الحُسْن، وفي رواية أَحْسَن ما خَلَق الله، قد فضل الناس بالحُسْن كالقمر ليلة البدر على سائر الكواكب. قال: من هذا يا جبريل؟ قال: أخوك يوسف.

ثم صعدا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن

معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأَهلاً حَيَّاه الله من أَخ ومن خليفة، فنِعْمَ الأخ ونعم الخليفة ونِعْمَ المجيء جاء. فلما خَلَصا فإذا هو بإدريس فقد رفعه الله مكاناً عَلِياً، فسَلَّم عليه فرَدَّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأَخ الصالح والنبي الصالح ثم دعا له بخير.

ثم صعدا إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل، فقيل: من هذا؟ فقال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقَدْ أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأَهلاً، حَيَّاه الله من أَخ ومن خليفة، فنِعْمَ الأَخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. ففتح لهما، فلما خلصا فإذا هو بهارون، ونصف لحيته بيضاء ونصف لحيته سوداء، تكاد تضرب إلى سُرَّته من طولها، وحوله قوم من بني إسرائيل، وهو يقص عليهم فسلم عليه فرَدَّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأَخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له. فقال: يا جبريل مَنْ هذا؟ فقال: الرجل المُحَبَّبُ في قومه هارون بن عمران.

ثم صعدا إلى السماء السادسة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأَهلاً، حَيَّاه الله من أَخ ومن خليفة، فنِعْم الأَخ ونِعْم الخليفة ونِعْم المجيء جاء، ففتح لهما، فجعل يَمُرّ بالنبي والنبيين معهم الرهط، والنبي والنبيين معهم القوم، والنبي والنبيين ليس معهم أَحد. ثم مَرَّ بسواد عظيم، فقال: «من هذا» قيل ا: موسى وقومه ولكن ارفع رأسك فإذا بسواد عظيم قد سَدَّ الأُفُق من ذا الجانب ومن ذا الجانب فقيل له: هؤلاء أُمتك وسوى هؤلاء سبعون أَلفاً يدخلون الجنة بغير حساب. فلما خلصا فإذا بموسى بن عمران، رجل آدم طوال كأَنه من رجال شنوءة، كثير الشَّعْر، لو كان عليه قميصان لنَفَذَ شَعْرُه دونهما.

فسَلَّم عليه النبي ﷺ فردَّ عليه السلام، ثم قال: مرحباً بالأَخ الصالح والنبي الصالح، ثم دعا له بخير، وقال: يَزْعُم الناس أَني أَكرم على الله من هذا، بل هذا أَكرم على الله مني. فلما جاوزه النبي ﷺ بكى. فقال له: ما يُبْكيك؟ فقال: أَبكي لأَن غلاماً بُعِث من بعدي يدخل الجنة من أُمته أَكثر مما يدخل الجنة من أُمتي، ويَزْعُم بنو إسرائيل أَني أَكرم بني آدم على الله. وهذا رجل من بني آدم خَلَفِي في دنيا وأَنا في أُخرَى، فلو أَنه بنفسه لم أُبَالِ، ولكن معه كل أُمته. ثم صعد.

فلما انتهينا إلى السماء السابعة رأَى فوقه رعداً وبرقاً وصواعق، فاستفتح جبريل، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: أَوَقد أُرْسِل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به وأَهلاً، حَيَّاه الله من أَخ ومن خليفة، فنِعْم الأَخ ونعم الخليفة ونعم المجيء جاء. ففُتِح لهما فسمع تسبيحاً في السموات العُلا مع تسبيح كثير: سَبَّحت السموات العلى من ذي

المهابة مشفقات؛ سبحان العَلِيّ الأَعلى، سبحانه وتعالى. فلما خلصا فإذا النبي ﷺ بإبراهيم رَجُلٌ أَشمط، جالسٌ عند باب الجنة، على كُرْسيٍّ مُسْنِداً ظَهْرَه إلى البيت المعمور، ومعه نَفَرٌ من قومه، فَسلَّم عليه النبي ﷺ، فَردَّ عليه السلام، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح وقال: مُرْ أُمّتَك فلْيكثِروا من غِراس الجنة فإن تُرْبتها طَيِّبة وأَرضها واسعة. فقال له: وما غِراسُ الجَنَّة؟ قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله العَلِيّ العظيم». وفي رواية: «أَقْرِىء على أُمَّتك مني السلام، وأَخبِرْهم أن الجنة طيبة التُّرْبة عَذْبة الماء وأَن غِرَاسَها؟ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أَكبر». وهو أَشبه ولده به، وعنده قَوْمٌ جلوس بيض الوجوه أَمثال القراطيس، وقومٌ في أَلوانهم شيء، فقام هؤلاء الذين في أَلوانهم شيء، فدخلوا نهراً، فاغتسلوا فيه فخرجوا وقد خَلَصَتْ أَلوانُهم وصارت مثل ألوان أَصحابهم. فجاءوا فجلسوا إلى أَصحابهم فقال: يا جبريل مَنْ هؤلاء البيض الوجوه ومَنْ هؤلاء الذين في أَلوانهم شيء وما هذه الأنهار التي دخلوها؟ فقال: أَما هؤلاء البيض الوجوه فقومٌ لم يلْبِسوا إيمانَهم بظلم، وأَما هؤلاء الذين في أَلوانهم شيء فقوم خلطوا عملاً صالحاً وآخرَ سيئاً فتابوا فتاب الله عليهم، وأَما هذه الأَنهار فأَولها رحمة الله والثاني نعمة الله والثالث ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ [الإنسان: ٢١] وقيل له: هذا مكانك ومكان أَمتك، وإذا هو بأُمَّتِه شطرين: شطر عليهم ثياب كأَنها القراطيس، وشطر عليه ثياب رُمْد[١]، فدخل البيت المعمور، ودخل معه الآخرون الذين عليهم الثياب البيض وحجب الآخرون الذين عليهم الثياب الرُّمْد وهم على خير، فصَلَّى ومَنْ معه من المؤمنين في البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون أَلف مَلَكَ لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، آخر ما عليهم، ثم خرج ومن معه.

وفي حديث عند الطبراني بسَنَد صحيح: «مَرَرْتُ ليلة أُسْرِيَ بي على الملأ الأَعلى فإذا جبريل كالحِلْس[٢] البالي من خشية الله، وفي رواية عند البزار «كأَنه حِلْس لاطئ». انتهى، ثم أُتِي بإناءٍ من خَمْر وإناءٍ من لبن وإناءٍ من عسل، فشرب اللبن، فقال جبريل: اختارت[٣] أُمَّتُك الفِطْرة، وفي رواية: هذه الفطرة التي أَنت عليها وأُمَّتُك. ثم رُفِع إلى سِدْرة المنتهى، وإليها ينتهي ما يعرض من الأَرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط من فوق فيقبض منها. وإذا هي شجرةٌ يخرج من أَصلها أَنهارٌ من ماءٍ غَيْر آسِن، وأَنهارٌ من خَمْر لَذَّةٌ للشاربين، وأَنهارٌ من عسل مُصَفًّى، يسير الراكب في ظلها سبعين عاماً لا يقطعها. وإذا نَبِقُها مِثْلُ قِلال هَجَر، وإذا ورقها

---

(١) رُمْد: أي عبر فيها كدورة كلّون الرَّماد، واحدها أَرْمَد. انظر النهاية لابن الأثير ٢/٢٦٢.

(٢) حلس جمع حِلْس، وهو الكِساء الذي يلي ظهر البعير تحت القتب، شبَّهها به للزومها ودوامها. انظر النهاية لابن الأثير ٤٢٣/١.

(٣) في أ: أصاب الله بك.

كآذان الفيلة، تكاد الورقة تُغَطِّي هذه الأمة، وفي رواية: الورقة منها مُغَطِّيةٌ للأمة كلها. وفي لفظ عند الطبراني: الورقة منها تُظِل الخلق، على كل ورقة مَلَك، تغشاها ألوان لا يُدْرى ما هي، فلما غَشِيَتها من أمر الله تعالى ما غشيها تغيَّرت، وفي رواية: تحوَّلت ياقوتاً وزبرجداً فما يستطيع أحدٌ أن ينعتها من حُسْنها، فيها فَرَاشٌ من ذهب، وفي رواية يلوذ بها جرادٌ من ذهب.

فقيل له: هذه السدرة ينتهي إليها كل أحد من أمتك خلا(١) على سبيلك، وإذا في أصلها أربعة أنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران، فقال: ما هذه يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفُرات. وفي رواية: فإذا في أصلها عَيْنٌ تجري يقال لها السلسبيل، ينشقّ منها نهران: أحدهما الكوثر، يَطَّرِد عَجَاجاً مثل السَّهْم، عليه خيام اللؤلؤ والياقوت والزبرجد، وعليه طيورٌ خُضْر أنعم طير، رأى فيه آنية الذهب والفضة، تجري على رضراض من الياقوت والزمرد، ماؤه أشد بياضاً من اللبن، فأخذ من آنية، فاغترف من ذلك الماء، فشرب فإذا هو أحلى من العسل، وأشدّ ريحاً من المسك، فقا له جبريل: هذا هو النهر الذي خباك به رَبُّك، والنهر الآخر نهر الرحمة فاغْتَسِل فيه، فغُفِر له ما تقدم من ذنبه وما تأخَّر.

وفي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه ﷺ رأى جبريل عند السدرة له ستمائة جناح، جناحٌ منها قد سَدَّ الأُفُق، تتناثر من أجنحته التهاويل: الدرّ والياقوت مما لا يعلمه إلا الله تعالى. انتهى. ثم أخذ على الكوثر حتى إذ دخل الجنة فإذا فيها ما لا عَيْنٌ رأت ولا أُذُنٌ سمعت ولا خَطَر على قلب بَشَر، فرأى على بابها مكتوباً: الصَّدَقة بعشر أمثالها، والقَرْض بثمانية عشر. فقال: يا جبريل ما بالُ القرض أفضل من الصدقة؟ قال: لأن السائل يسأل وعنده، والمُسْتقرِض لا يسأل إلا من حاجة. فاستقبلته جارية فقال: لمن أنتِ يا جارية؟ فقالت: لزيد بن حارثة.

ورأى الجَنَّة من دُرَّة بيضاء وإذا فيها جنابذ(٢) اللؤلؤ. فقال: يا جبريل، إنهم يسألوني عن الجنة. فقال: إخبِرهم أنها قيعان تُرَابُها المسك، وسمع في خارجها وَجْساً(٣)، فقال: يا جبريل ما هذا؟ قال: بلال المؤذن. فسار فإذا هو بأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خَمْر لَّذةٍ للشاربين، وأنهار من عَسَل مُصَفًّى، وإذا رُمَّانها كالدِّلاء، وفي رواية: وإذا فيها رُمَّان كأنه جلود الإبل المُقَتَّبة، وإذا بطيرها كالبَخَاتي(٤). فقال أبو بكر: يا رسول الله إن تلك الطير لناعمة. قال:

(١) خلا عليه: اعتمد عليه. انظر المعجم الوسيط ٢٥٣/١.

(٢) جنبذ في صفة الجنة «فيها جنابذُ من لؤلؤ» الجنابذُ جمع جُنْبُذَة: وهي القُبَّة. انظر النهاية لابن الأثير ٣٠٥/١.

(٣) الوَجْس: الصوتُ الخفيُّ، وتوجَّس بالشيء: أحسّ به فتسمَّع له، انظر النهاية لابن الأثير ١٥٦/٥. والمعجم الوسيط ٢/ ١٠٢٥.

(٤) البُخْتية: الانثى من الجمال البُخْت، والذكر بُخْتِيٌّ، وهي جِمال طوال الأعناق، وتُجْمع على بُخْتٍ وبخاتيّ، واللفظة معربة. انظر النهاية لابن الأثير ١٠١/١.

أَكَلَتْهَا أَنعم منها وإني لأَرجو أَن تأْكل منها. وبينا هو يسير بنهر على حافيته الدّر المُجَوَّف، وإذا طينة مسك أَذفر فقال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هو الكوثر.

ثم عُرِضت عليه النار فإذا فيها غضب الله وزجره ونقمته، ولو طُرِح فيها الحجارة والحديد لأَكلتها، فإذا بقوم يأْكلون الجِيَف، فقال:. من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأْكلون لحوم الناس. ورأَى رجلاً أَحمر أَزرق فقال: من هذا يا جبريل؟ قال: هذا عاقر الناقة. ورأَى مالك خازن النار، فإذا رجل عابِس يُعْرَف الغضب في وجهه، فبدأَ النبي ﷺ بالسلام، ثم أُغْلِقَت دونه، ثم رُفِع إلى سدرة المنتهى، فغشيها من أَنوار الخلائق ومن أَنوار الملائكة أَمثال الغربان حين يَقُضّ على الشجرة وينزل على كل ورقة مَلَك من الملائكة فغشيها سحابة من كل لون.

وفي حديث أَن جبريل قال له: إن رَبَّك يُسَبِّح. قال: وما يقول؟ قال: يقول: «سُبوحٌ قُدوس، رَبّ الملائكة والروح، سبقت رحمتي غضبي». فتأَخر جبريل، ثم عَرَج به حتى ظهر لمستوى سمع فيه صريف(١) الأَقلام. ورأَى رجلاً مُغَيَّباً في نور العَرْش، فقال: مَنْ هذا؟ مَلَك، قيل: لا، قال: نبي، قيل: لا، قال: من هو؟ قيل: هذا رجل كان في الدنيا لسانه رَطْبٌ من ذِكْر الله، وقلبه مُعَلَّق بالمساجد، ولم ينتسب لوالديه قط، فرأَى ربه سبحانه وتعالى، فَخَرَّ النبي ﷺ ساجداً، وكَلَّمه ربه تعالى عند ذلك. فقال له: يا محمد. قال: لَبَّيْك يا رب. قال: سَلْ: فقال: إنك اتخذتَ إبراهيم خليلاً، وأَعْطَيْته مُلْكاً عظيماً وكَلَّمْتَ موسى تكليماً، وأَعْطَيْتَ داود مُلْكاً عظيماً وسَخَّرْتَ له الجنّ والإنس والشياطين وسَخَّرْتَ له الرياح وأَعطيته مُلْكاً لا ينبغي لأَحد من بعده. وعلَّمْتَ عيسى التوراة والإنجيل، وجعلته يُبْرِئ الأَكمه والأَبرص ويحيي الموتى بإذنك، وأَعَذْتَه وأُمَّه من الشيطان الرجيم فلم يكن للشيطان عليهما سبيل.

فقال الله سبحانه وتعالى: قد اتخذتُك حبيباً. قال الراوي: وهو مكتوب في التوراة: حبيب الله. وأَرسلتُك للناس كافةً بشيراً ونذيراً، وشَرَحْتُ لك صدرك، ووضعتُ عنك وِزْرَك، ورفعتُ لك ذِكْرَك، لا أُذْكَر إلا وذُكِرْتَ معي وجعلت أمتك خير أمة أخرجت للناس وجعلتُ أُمتك أُمَّةً وَسَطاً، وجعلتُ أُمتك هم الأَولون والآخرون، وجعلت أُمتك لا يجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أَنك عبدي ورسولي، وجعلت من أُمتك أَقواماً قلوبُهم أَناجيلُهم، وجعلتك أَوَّلَ النبيين خَلْقاً وآخِرَهم بعثاً، وأَوَّلَهم يُقْضَى له، وأَعْطَيْتُكَ سبعاً من المثاني لم أُعْطِها نبياً قبلك، وأَعطيتُك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عَرْشي لم أُعْطِها نبياً قبلك، وأَعطيتُك الكوثر،

(١) أَسمع صريف الأقلام أي صوت جريانها بما تكتبه من أقضية الله تعالى ووحيه، وما ينتسخونه من اللوح المحفوظ. انظر النهاية لابن الأثير ٢٥/٣.

وأعطيتُك ثمانية أَسهم: الإسلام والهجرة والجهاد والصدقة وصوم رمضان والأَمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأني يوم خلقتُ السموات والأَرض، فَرَضْتُ عليك وعلى أُمتك خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فقُمْ بها أَنت وأُمتك.

قال أَبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فَضَّلَني ربي: أَرسلني رحمةً للعالمين، وكافَّةً للناس بشيراً ونذيراً، وأَلقى في قلوب عَدُوِّي الرُّعْبَ من مسيرة شهر، وأُحلَّ لي الغنائم، ولم تَحِلّ لأَحد قبلي، وجُعِلت لي الأَرض مسجداً وطهوراً، وأُعطيت فواتح الكَلِم وخواتمه وجوامعه، وعُرِضْتُ على أُمتي فلم يَخْفَ عليَّ التابع والمتبوع ورأَيتهم على قوم ينتعلون بالشَّعْر، ورأَيتهم أَتَوا على قوْمٍ عِرَاض الوجوه صِغار الأَعين كأَنما أُخْرِمَتْ أَعْيُنهم بالمَخِيط فلم يَخْف عَليَّ ما هم، لا قويٌّ من بعدي، وأُمِرْت بخمسين صلاة». انتهى. وأُعْطي ثلاثاً: أَنه سَيِّد المُرْسَلين وإِمام المُتَّقين وقائد الغُرِّ المُحَجَّلين.

وفي حديث ابن مسعود: أُعطِي رسول الله ﷺ الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يُشْرِك بالله من أُمته شيئاً المُقْحِمات[1].

ثم انجلت عنه السحابة وأَخذ بيده جبريل، فانصرف سريعاً، فأَتى على إِبراهيم، فلم يقل شيئاً، ثم أَتى على موسى، قال: ونعم الصاحب كان لكم، فقال: «ما صنعت يا محمد؟ ما فَرَضَ عليك رَبُّك وعلى أُمتك؟» قال: فَرضَ عَلَيَّ وعلى أُمتي خمسين صلاة كل يوم وليلة». قال: «فارْجع إِلى ربك فاسأَله التخفيف عنك وعن أُمتك، فإِن أُمتك لا تُطِيق ذلك، فإِني قد خَبَرْتُ الناسَ قبلك وبَلَوْتُ بني إِسرائيل وعالجتُهم أَشدَّ المعالجة على أَدنى من هذا فضَعفوا وتركوه، فأُمتك أَضعف أَجساداً وأَبداناً وقلوباً وأَبصاراً وأَسماعاً». فالتفت النبي ﷺ إِلى جبريل يستشيره، فأَشار إِليه جبريل أَن نعم إِن شئت، فرجع سريعاً حتى انتهى إِلى الشجرة، فغشيته السحابة، وخَرَّ ساجداً.

وقال: «رَبِّ خَفِّف عنا»، وفي لفظ: «عن أُمتي فإِنها أَضعف الأُمم». قال: «قد وضعت خمساً»، ثم انجلت السحابة، ورجع إِلى موسى فقال: «وضع عني خمساً». قال: «ارجع إِلى ربك فاسأَله التخفيف فإِن أُمتك لا تُطِيق ذلك». فلم يزل يرجع بين موسى وبين ربه، يَحُطّ عنه خمساً خمساً، حتى قال: «يا محمد»، قال: «لبَّيْك وسَعْدَيْك» قال: «هُنّ خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عَشر، فتلك خمسون صلاة لا يُبَدَّلُ القولُ لديّ ولا ينْسَخُ كِتَابِي تَخْفِيفَها عنك كتخفيف خمس صلوات، ومن هَمَّ بحَسَنةٍ فلم يعملها كُتِبَتْ له حسنة فإِن

(١) المُقْحِمات: أي الذُّنوب العِظام التي تُقْحِم أَصْحَابها في النار: أي تلقيهم فيها. انظر النهاية لابن الأثير ٤/١٩.

عملها كتبت له عَشْراً، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم يكتب شيئاً فإن عملها كُتِبت سيئة واحدة». فنزل حتى انتهى إلى موسى، فأخبره فقال: «ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإن أمتك لا تُطيق ذلك». قال له: «قد راجعتُ ربي حتى استحييتُ منه ولكن أرضى وأُسَلِّم». فناداه منادٍ أن «قد أَمْضَيْتُ فريضتي وخففت عن عبادي»(١).

فقال له موسى: «اهبط بسم الله». ولم يَمُرّ على الملأ من الملائكة إلا قالوا له: «عليك بالحِجَامة(٢)». وفي لفظ: «مُرْ أُمَّتَك بالحِجامة». ثم انحدر، فقال جبريل: «مالي لم آت لأهل السماء إلا رَحَّبوا بي وضحكوا إليَّ، غير واحد سَلَّمْتُ عليه فرَدَّ السلام ورَحَّب بي ودعا لي، ولم يضحك إليَّ. قال: قال: «مالك خازن النار، لم يضحك منذ خُلِق، ولو ضحك لأحد لضحك إليك». فلما نزل إلى السماء الدنيا نظر أسفل منه، فإذا هو بِرَهَجٍ ودُخَان، فقال ما هذا يا جبريل؟ قال: هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، لا يتفكرون في ملكوت السموات والأرض، ولولا ذلك لَرَأَوْا العجائب.

ثم ركب منصرفاً، فمرَّ بعير لقريش بمكان كذا وكذا، منها جَمَلٌ عليه غرارتان غرارة سوداء وغرارة بيضاء، فلما حاذى العير نَفَرت واستدارت وصرخ ذلك البعير وانكسر، ومَرَّ بعِيرٍ قد ضَلُّوا بَعيراً لهم قد جمعه فلان، فسَلَّم عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد.

ثم أتى أصحابه قبيل الصبح بمكة، فلما أصبح قطع وعرف أن الناس تُكَذِّبه، فقعد حزيناً، فمرَّ عليه عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء؟ قال: نعم. قال: ما هو؟ قال: أُسْرِيَ بي الليلة. قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: نعم. فلم يَرَ أنه يُكَذِّبه مَخافةَ أن يَجْحَدَه الحديث إن دعا قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ قال: نعم، قال يا معشر بني كعب بن لؤي.

فانفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. فقال: حَدِّث قومك بما حَدَّثتني فقال النبي ﷺ: «إني أُسْرِيَ الليلة بي». قالوا: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس، قالوا: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال: نعم، فمن بين مُصَفِّق ومن بين واضع يده على رأسه مُتَعَجِّباً، وضَجُّوا وأعظموا ذلك. فقال المُطْعِم بن عدِيٍّ: كُلُّ أَمْرِك قبل اليوم كان أَمَماً غير قولك اليوم، أنا أشهد أنك كاذب، نحن نضرب أكباد الإبل إلى البيت المقدس مُصْعِداً شهراً ومنحدراً شهرا، أتَدَّعي أنت أنك أتيته في ليلة؟ واللات والعُزَّى لا أُصدقك.

---

(١) أخرجه البخاري، ٣٤١/٧ (٣٨٨٧).

(٢) أخرجه البخاري بلفظ، إن أمثل ما تداويتم به الحجامة، (٥٦٩٦).

فقال أبو بكر لمُطْعِم: بِئْسَ ما قلت لابن أخيك، جَبَهْتَه وكَذَّبْتَه، أما أنا فأشهد أنه صديق صادق. فقالوا: يا محمد صِفْ لنا بيت المقدس، كيف بناؤه وكيف هيئته؟ وكيف قُرْبُه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه. فذهب ينعت لهم بناءه كذا وهيئته كذا، وقُرْبَه من الجبل كذا، فما زال ينعته لهم حتى التبس عليه النَّعْت فكُرِب كَرْباً ما كُرِب مثله، فجيء بالمسجد وهو ينظر إليه حتى وُضِع دون دار عقيل أو عُقال، فقالوا: كم للمسجد من باب؟ ولم يكن عَدَّها، فجعل ينظر إليه ويَعُدُّها باباً باباً، ويُعْلِمهُم، وأبو بكر يقول: صَدَقْتَ صَدَقْتَ، أشهد أنك رسول الله. فقال القوم: أمّا النعت فوالله لقد أصاب.

ثم قالوا لأبي بكر: أفتُصَدِّقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يُصْبح؟ قال: نعم إني لأُصدِّقه فيما هو أبعد من ذلك، أُصَدِّقُه بخبر السماء في غُدْوَةٍ أو رَوْحة. فبذلك سُمّي أبو بكر الصديق. ثم قالوا: يا محمد أخبِرْنا عن عِيرِنا. فقال «أتَيْتُ على عِير بني فلان بالرَّوْحاء قد ضَلُّوا ناقةً لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيتُ إلى رحالهم، فليس بها منهم أحد، وإذا قَدَحُ ماءٍ فشربت منه، ثم انتهيت إلى عِير بني فلان في التنعيم يقدمها جمل أوْرَق عليه مِسْح أسود وغرارتان سوداوان وها هي ذه تطلع عليكم من الثَّنِيَّة». قالوا: فمتى تجيء؟ قال يوم الأربعاء. فلما كان ذلك اليوم، انصرفت قريش ينظرون وقد وَلَّى النهار، ولم تجيء. فدعا النبي ﷺ، فزيد له في النهار ساعة، وحُبِست عليه الشمس، حتى دخلت العِير، فاستقبلوا الليل. فقالوا: هل ضَلَّ لكم بعير؟ قالوا: نعم. فسألوا العِير الأُخَر فقالوا: هل انكسر لكم ناقة حمراء؟ قالوا: نعم. قالوا: فهل كان عندكم قصعة من ماء؟ فقال رجل: أنا والله وضعتُها فما شربها أحد، متأوِّلاً أُهْرِيقت في الأرض. فرمَوْه بالسحر، وقالوا: صَدَق الوليد، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

فائدة: أخرج ابن مَرْدَوِيه عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ، منذ أُسْرِيَ به ريحُه ريحُ عروس وأطيب من ريح عروس. شعر ويرحم الله تعالى من قال:

سَادَ الأَنَامَ مُحَمَّدٌ خَيْرُ الوَرَى … بِفَضَائِلٍ جَلَّتْ عَنِ الإِحْصَاءِ
وَجَوَامِعِ الكَلِمِ الَّتِي مَا نَالَهَا … أَحَدٌ مِنَ الفُصَحَاءِ وَالْبُلَغَاءِ
وَإِلَى الخَلائِقِ كُلِّهِمْ إِرْسَالُهُ … فَشَفَى الْقُلُوبَ الجَمَّةَ الأَدْوَاءِ
وَلَهُ الشَّفَاعَةُ وَالْوَسِيلَةُ فِي غَدٍ … وَمَقَامُهُ السَّامِي عَلَى الشُّفَعَاءِ
وَيَجِيءُ يَوْمَئِذٍ كَمَا قَدْ قَالَهُ … أَنَا رَاكِبٌ وَالرُّسْلُ تَحْتَ لِوَائِي
وَلَقَدْ دَنَا مِنْ رَبِّهِ لَمَّا دَنَا … فِي لَيْلَةِ المِعْرَاجِ وَالإِسْرَاءِ
سَمِعَ الخِطَابَ بِحَضْرَةٍ قُدْسِيَّةٍ … مَا حَلَّهَا بَشَرٌ مِنَ الْعُظَمَاءِ

وَبِرُؤْيَةِ الجَبَّارِ فَازَ وَيَا لَهَا مِنْ نِعْمَةٍ عَظُمَتْ عَلَى النُّعْمَاءِ
مَا نَالَ مُوسَى وَالْخَلِيلُ وَمُجْتَبَى مَا نِلْتَهُ يَا سَيِّدَ الشُّفَعَاءِ
يَا كَنْزَ مُفْتَقِرٍ وَمَلْجَأَ عَائِذٍ يَا أَفْضَلَ الأَجْوَادِ وَالكُرَمَاءِ
أنتَ الوسيلةُ للإله فسلْ لنَا عفواً عن الزَّلَّاتِ والأهْواء
وَدُخولنا الجنَّات أوَّل وَهْلَةٍ وشفاعة للمُفْسِدِ الخطّاءِ
بكَ نستغيثُ ونستجيرُ ونلتجي مِنْ ذِي البلاءِ وفتنةِ الأهْواءِ
ونرومُ فضلاً مِنْ جنابِكَ سيِّدي وَشَفَاعَةً يَا سَيِّدَ الشُّفَعَاءِ
فَإِلَيْكَ سَاقَ [اللَّهُ] سُحْبَ صلاتِه وَجَزَاكَ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَاءِ
وَعَلَى صَحَابَتِكَ الرِّضَى مُتَعَدِّداً وَالآلِ وَالأَتْبَاعِ وَالعُلَمَاءِ

ولله دَرُّ البوصيري حيث قال مخاطباً للذات الشريفة:

سَرَيْتَ مِنْ حَرَمٍ لَيْلاً إِلَى حَرَمٍ كَمَا سَرَى البَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ
وبِتَّ تَرْقَى إِلَى أَنْ نِلْتَ مَنْزِلَةً مِنْ قَابِ قَوْسَيْنِ لَمْ تُدْرَكْ وَلَمْ تُرَمِ
وقدَّمَتْكَ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ بِهَا وَالرُّسْلُ تَقْدِيمَ مَخْدُومٍ عَلَى خَدَمِ
وأنتَ تَخْتَرِقُ السَّبْعَ الطِّبَاقَ بِهِم فِي مَوْكِبٍ كُنْتَ فِيهِ صَاحِبَ العَلَمِ
حَتَّى إِذَا لَمْ تَدَعْ شَأْواً لِمُسْتَبِقٍ مِنَ الدُّنُوِّ وَلاَ مَرْقَىً لِمُسْتَنِمِ
خَفَضْتَ كُلَّ مَقَامٍ بِالإِضَافَةِ إِذْ [نُودِيتَ] بالرَّفْعِ مِثْلَ المُفْرَدِ العَلَمِ
كَيْمَا تَفُوزَ بِوَصْلٍ أَيِّ مُسْتَتِرٍ عَنِ العُيُونِ وَسِرٍّ أَيِّ مُكْتَتَمِ
فَحُزْتَ كُلَّ فَخَارٍ غَيْرِ مُشْتَرَكٍ وَجُزْتَ كُلَّ مَقَامٍ غَيْرِ مُزْدَحَمِ
وَجَلَّ مِقْدَارُ ما وُلِّيتَ مِنْ رُتَبٍ وَعَزَّ إِدْرَاكُ مَا أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ
بُشْرَى لَنَا مَعْشَرَ الإِسْلاَمِ إِنَّ لَنَا مِنَ العِنَايَةِ رُكْناً غَيْرَ مُنْهَدِمِ
لَمَّا دَعَا اللَّهُ دَاعِينَا لِطَاعَتِهِ بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أَكْرَمَ الأُمَمِ

الباب التاسع

في تنبيهات على بعض فوائد تتعلق بقصة المِعْراج

الأول: قال ابن المنير: كانت كرامته ﷺ في المناجاة على سبيل المفاجأة كما أَشار إِليه بقوله: «بينا أَنا». وفي حق موسى عليه الصلاة والسلام عن ميعاد واستعداد فَحُمِلَ عنه ﷺ أَلَمُ الانتظار. ويُؤخذ من ذلك أَن مَقَام النبي ﷺ بالنسبة إِلى مقام موسى مقام المُرَاد بالنسبة إِلى مقام المريد.

الثاني: قال ابن دحية في قوله: «فُرِج سَقْفُ بيتي»، يقال: لِمَ لم يدخل من الباب مع قوله تعالى: ﴿وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، فالحكمة في ذلك المبالغة في المناجاة، والتنبيه على أَن الكرامة والاستدعاء كانا على غير ميعاد، ولعل كونَه فرج عن سقف بيته تَوْطئة وتمهيد لكونه فُرِج عن صدره، فأَراه المَلَك، بإفراجه عن السقف فالتأَم السقف على الفَوْر، كَيْفِيَّةَ ما يُصْنَع به، وقَرَّب له الأَمر في نفسه بالمآل المُشَاهَد في بيته لُطْفاً في حقه وتبييناً لبَصَره، ولعله فُرِج عن سقف بيته حتى لا يَعْرج المَلَك، وقد جاء في هذا الأَمر المهم العظيم على شيءٍ سواه، فانصَبَّ له من السماء انصبابةً واحدة وهي خَرْق الحِجاب.

ولو أَنه جاء على العادة من الباب لاحتاج أَن يَلِج صَحْنَ الدار، ثم يَعْرُج إِلى البيت الذي هو فيه وقال الحافظ: قيل الحكمة في نزوله عليه من السقف المبالغة في مفاجأَته بذلك والتنبيه على أَن المراد منه أَن يَعْرُج به إِلى جهة العُلُوّ.

الثالث: الرجلان اللذان كان النبي ﷺ نائماً بينهما تلك الليلة: حمزة وجعفر رضي الله عنهما، نبَّه عليه الحافظ. قال ابن أَبي جمرة: وفي هذا تواضعه ﷺ وحُسْنُ خُلُقِه، إِذ أَنه في الفضل حيث هو، ومع ذلك كان يضطجع مع الناس ويقعد معهم، ولم يجعل لنفسه المُكَرَّمة مَزِيَّةً عليهم، وفيه دليل على جواز نوم جماعة في موضع واحد، ولكن يشترط في ذلك أَن يكون لكل واحد منهم ما يَسْتُر به جَسَده عن صاحبه.

الرابع: تقدم في أَبواب صفاته الكلام على شَقّ الصَّدْر وخاتم النبوة والطست والذهب وزمزم.

الخامس: في الكلام على جبريل وفيه فوائد:

الأولى: في لغات اسمه وهي إِحدى وعشرون:

الأولى: جِبْرِيل بكسر الجيم والراء وياء ساكنة وهي قراءة نافع[١] وأَبي عمرو[٢] وابن عامر[٣]، وحَفْص[٤] عن عاصم[٥] وهي لغة الحجازيين. **الثانية:** جَبْرِيل كذلك إلا أنه بفتح الجيم وهي قراءة ابن كثير. **الثالثة:** جَبْرَءِل كذلك إلا أنه بزيادة همزة مكسورة بعد الراء وحذف الياء وهي قراءة أَبي بكر[٦] عن عاصم. **الرابعة:** جَبْرَئِيل كذلك إلا أنه بزيادة ياء بعد الهمزة وهي قراءة حمزة والكسائي ولغة تميم وقيس وكثير من أَهل نجد كما قاله الفَرَّاء. **الخامسة:** جَبْرَايِل كذلك إلا أَنه بزيادة أَلف بعد الراء وهي رواية حمزة ونعيم بن سعيد وغيرهما عن الأَعمش ورواية أَبان بن تَغْلِب[٧] - بفتح المثناة وسكون المعجمة وكَسر اللام - وأَبان بن يزيد العطار من رواية الثلاثة: بَكَّار ويونس وعُبَيْد، عنه كلاهما عن عاصم وأَبو رجاء وأَبو غَزْوان عن طلحة ذكره الأَهوازي. **السادسة:** جِبْرائيل كذلك إلا أَنه بكسر الجيم على وزن إِسرائيل وهي إِحدى الروايات عن عكرمة ورواها عنه الزبير، وقرأَ بها ابن صدقة عن يحيى ذكره ابن عيسى. **السابعة:** جَبْراءِل بفتح الجيم والراء وهمزة بدون ياء، وفي رواية رزين وابن قيس وابن خُثَيْم وأَبي عمران وإسماعيل عن الحسن وغيرهم وإِسحاق بن سويد بخلاف عنه والحسن الرازي[٨] عن أَصحابه

---

(١) نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم الليثي بالولاء المدني: أحد القراء السبعة المشهورين. كان أسود، شديد السواد، صبيح الوجه، حسن الخُلق، فيه دعابة. أصله من أصبهان. اشتهر في المدينة وانتهت إليه رياسة القراءة فيها، وأقرأ الناس نيفاً وسبعين سنة، وتوفي بها سنة ١٦٩هـ. الأعلام ٨/٥.

(٢) زبان بن العلاء بن عمار بن العريان بن عبد الله بن الحسين بن الحارث بن جلهمة بن حجر بن خزاعي بن مازن بن مالك بن عمرو بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن الياس بن مضر بن معد بن عدنان الإمام السيد أبو عمرو التميمي المازني البصري أحد القراء السبعة، قال الحافظ أبو العلاء الهمذاني: هذا الصحيح الذي عليه الحذاق من النساب وقد قيل: إنه من بني العنبر وقيل: من بني حنيفة وحكى القاضي أسد اليزيدي أنه قيل إنه من فارس من موضع يقال له كازرون. قال عبد الوارث: وَلد أبو عمرو بمكة وَنَشأ بالبصرة ومات بالكوفة سنة أربع وخمسين ومائة. غاية النهاية ١/٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٢.

(٣) عبد الله بن عامر بن يزيد، أبو عمران اليحصبي الشامي: أحد القراء السبعة. ولي قضاء دمشق في خلافة الوليد بن عبد الملك. ولد في البلقاء، في قرية «رحاب» وانتقل إلى دمشق، بعد فتحها، وتوفي فيها. قال الذهبي: مقرئ الشاميين، صدوق في رواية الحديث. انظر الأعلام ٤/٩٥.

(٤) حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي بالولاء، أبو عمر، ويعرف بحفيص: قارئ أهل الكوفة. بزاز، نزل بغداد، وجاور بمكة. وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءته، وهو ابن امرأته وربيبه، ومن طريقه قراءة أهل المشرق. توفي ١٨٠هـ. الأعلام ٢/٢٦٤.

(٥) عاصم بن أبي النجود ابن بهدلة الكوفي الأسدي بالولاء، أبو بكر: أحد القراء السبعة. تابعي، من أهل الكوفة، ووفاته فيها. كان ثقة في القراءات، صدوقا في الحديث. قيل: اسم أبيه عبيد، وبهدلة اسم أمه. توفي ١٢٧هـ. الأعلام ٣/٢٤٨.

(٦) شعبة بن عياش بن سالم الأزدي الكوفي الخياط، أبو بكر: من مشاهير القراء. كان عالماً فقيهاً في الدين. توفي في الكوفة سنة ١٩٣هـ. الأعلام ٣/١٦٥.

(٧) أبان بن تَغْلِب: بفتح المثناة وسكون المعجمة وكسر اللام، أبو سعد الكوفي، ثقة تُكُلِّم فيه للتشيع، من السابعة، مات سنة أربعين. التقريب ١/٣٠.

(٨) الحَسَنُ بن شُعَيب أَبُو عَلي الرَّازِي مقرئ، روى القراءة عرضاً عن الفَضْلُ بن شَاذَانَ، رَوى القِراءة عنه عرضاً عبد الرحيم. انظر غاية النهاية ١/٢١٥.

وأَحمد بن يزيد وهي إِحدى الروايات عن عكرمة أَيضاً. **الثامنة:** جبرايل كذلك إلا أنه بياء ساكنة بدل الهمزة على الجمع بين التقاء الساكنين وهي قراءة طلحة بن مَصْرف اليامي[1]. **التاسعة:** جَبْرِييل بفتح الجيم والراء وياءين أُولهما مكسورة والثانية ساكنة وهي إِحدى الروايتين عن ابن مُحَيصِن[2] ويحيى بن يَعْمُر وأَبان بن يزيد العطار[3] عن عاصم. **العاشرة:** جبرئيّل كذلك إلا أَنه بهمزة عِوَض الياء الأُولى وتشديد اللام وهي إِحدى الروايات عن ابن مُحَيْصِن ويحيى بن يعمر وأَبان بن يزيد العطار عن عاصم. **الحادية عشرة:** جَبْرِءِلّ كذلك إلا أَنه بحذف الياء بعد الهمزة وقرئ بها شاذاً. **الثانية عشر:** جَبْرَيْل بفتح الجيم والراء وياء ساكنة لا غير، وهي قراءة محمد بن طلحة بن مَصْرَف وابن مُحَيْصِن في إِحدى الروايات عنه. **الثالثة عشر:** جبرإِل كذلك إلا أَنه بهمزة بدل الياء مُشَدَّدَة مكسورة ولام لا غير، وقد نقلها أَبو عمر الداني في المُجْتَبى في الشواذ عن ابن يَعْمُر[4] أَيضاً. **الرابعة عشرة:** جَبْرَال بفتح الجيم والراء وأَلف ولام لا غير. **الخامسة عشرة:** جِبْرال كذلك إلا أَنه بكسر الجيم. **السادسة عشرة:** جَبْرِين بفتح الجيم وكسر الراء ونون بدل اللام. **السابعة عشرة:** جِبْرين كذلك إلا أَنه بكسر الجيم. قال الفَرّاء هي لغة بني أَسد. **الثامنة عشرة:** جَبرَئِين بفتح الجيم والراء وهمزة مكسورة بعدها ياء ساكنة ونون، نقلها ابن الأَنباري في كتاب الرد على من خالف مصحف عثمان. **التاسعة عشرة:** جِبْرِين كذلك إلا أَنه بكسر الجيم نقلها ابن الجوزي وبرهان الدين الجَعْبَرِي. **العشرون:** جَبْرَئيل بفتح الجيم والراء وهمزة ساكنة بعدها ياء. **الحادية والعشرون:** جبراييل على وزن ميكاييل، نقل جميع ذلك الإِمام العَلاَّمة محب الدين بن شيخ الحساب والفرائض الإِمام العالم العَلَّامة شهاب الدين بن الهائم في الغُرَر، ومن خَطِّه نقلت.

الفائدة الثانية: قال في الروض الأُنُف: «ومعنى جبريل: عبد الرحمن أَو عبد العزيز، هكذا جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما موقوفاً ومرفوعاً أَيضاً والوقف أَصَحّ. وأَكثر الناس أَن آخر الاسم منه أُعجمي وهو «إِيل»[5]، وكان شيخنا يعني ابن العربي يذهب مذهب طائفة من

---

(١) طلحة بن مصرّف بن عمرو بن كعب اليامي: بالتحتانية، الكوفي، ثقة قارئ فاضل، من الخامسة، مات سنة اثنتي عشرة أو بعدها. التقريب ٣٧٩/١، ٣٨٠.

(٢) محمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي بالولاء، أبو حفص المكي: مقرئ أهل مكة بعد ابن كثير، وأعلم قرائها بالعربية. انفرد بحروف خالف فيها المصحف، فترك الناس قراءته ولم يُلحقوها بالقراءات المشهورة. وكان لا بأس به في الحديث. روى له مسلم والترمذي والنسائي حديثاً واحداً. توفي سنة ١٢٣هـ. الأعلام ١٨٩/٦.

(٣) أبان بن يزيد العطار البصري، أبو يزيد، ثقة له أفراد، من السابعة، مات في حدود الستين. التقريب ٣١/١.

(٤) يحيى بن يَعْمَر، بفتح التحتانية والميم بينهما مهملة ساكنة، البصري، نزيل مَرو وقاضيها، ثقة فصيح، وكان يرسل، من الثالثة، مات قبل المائة، وقيل بعدها. انظر التقريب ٣٦١/٢٠.

(٥) إيل: اسم الله تعالى بالعبرية. انظر المعجم الوسيط ٣٤/١.

أَهل العلم في أَن هذه الأَسماء إِضافتها مقلوبة وكذلك الإِضافة في كلام العجَم يقولون في «غُلام زيد». زيد غلام فعلى هذا يكون «إِيل» عبارة عن العبد ويكون أَول الاسم عبارة عن اسم من أَسماء الله تعالى.

قلتُ: روى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن المنذر عن عِكْرِمة، وأَبو الشيخ عن علي بن الحسين قالوا: اسم جبريل عبد الله وميكائيل عُبَيْد الله، وكل شيء راجع إِلى «إِيل» فهو مُعَبَّد لله عزَّ وجلَّ، زاد علي بن الحسين وإِسرافيل عبد الرحمن، زاد عِكرمة: «والإِيل»: الله.

قال الماوردي: «ولا يُعْلَم لابن عباس مخالف في ذلك»، وقال السهَيْلي: «إِنه قول الأَكثر». وقال الشيخ شهاب الدين الحلبي رحمه الله تعالى في شرح الشاطبية: «اختلف الناس في هذا الاسم هل هو مشتق أَم لا؟ والذي عليه الجمهور أنه لا اشتقاق» إذ الأَسماء الأَعجمية لا اشتقاق لها. وقال آخرون: بل هو مشتق من جبروت الله تعالى.

وكذلك اختلفوا فيه هل هو اسم بسيط لا تركيب فيه أَو هو مُرَكَّب؟ فإِن جَبْر» معناه «عَبْد»، «وإِيل» هو اسم الباري تعالى وقد قيل ذلك في إِسرافيل، ثم اختلفوا في تركيبه، هل هو مُرَكَّب تركيب إِضافة أَو تركيب مَزْج؟ فذهب بعضهم إِلى الأَول، ورُدَّ بأَنه كان ينبغي أَن يُعْرب إِعراب المتضايفَيْن، فيجري الأَول منهما مجرى الإِعراب، ويجرى الثاني ويُنَوَّن، إِذ لا مانع له من الصَّرْف، كما انصرف «إِلّ» في قول من جعله اسماً لله تعالى من قوله عَزَّ وجَلّ: ﴿**لا يَرْقُبُونَ فِـي مُؤمِن إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً**﴾ [التوبة: ١٠] وهذا كما تقول: جاءني عبدُ الله، ورأَيتُ عبدَ الله وَمَرَرْتُ بعبدِ الله. وذهب آخرون كأَبي العباس المهدوي إِلى أَنه مُرَكَّب تركيب مزج كبعلبك وحضرموت، وهذا قريب إِلا أَن بعضهم رَدَّ عليه بأَنه كان ينبغي أَن يُبْنَى الأَول على الفتح ليس إِلا، وأَنت كما رأَيتهم يكسرون الراء في بعض اللغات. ورَدَّ عليه بعضُهم أَيضاً بأَنه لو كان مُرَكَّباً تركيب مَزْج لجاز أَن يُعْرَب إِعراب المتضايفين أَو يُبْنَى على الفتح كأَحد عشر، فإِنه مركب تركيب مزج يجوز فيه هذه الأَوجه، فكونه لم يُسْمَع فيه البناءُ ولا جريانه جريان المتضايفين دليلٌ على عدم تركيبه تركيب مَزْج. وهذا الردّ مردود لأَنه جاء على أَحد الجائزين، واتفق أَنه لم يستعمل إِلا كذلك. انتهى.

قال السهيلي: «واتفق في اسم جبريل عليه السلام أَنه موافق من جهة العربية لمعناه وإِن كان أَعجمياً، فإِن الجَبْر هو إِصلاح ما وَهَى، وجبريل مُوَكَّلٌ بالوَحْي، وفي الوحي إِصلاح ما فَسَد وجَبْرُ ما وَهَى من الدين، ولم يكن هذا الاسم معروفاً بمكة ولا بأَرض العرب، فلما أَخبر النبيُّ ﷺ خديجة به انطلقت تسأَل مَنْ عنده عِلْم الكتاب كعَدَّاس ونسطور الراهب وورقة.

فقالوا لها: قُدُّوس قُدُّوس أنَّى لهذا الاسم أن يُذْكَر في هذه البلاد» كما تَقَدَّم بيانُ ذلك.

الفائدة الثالثة: في بعض فضائله: ذكره تعالى في كتابه في خمسة وثلاثين مَوْضِعاً بالصريح وغيره، وذكره باسمه في ثلاثة مواضع: في البقرة في مَوْضِعَيْن ﴿**قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِـجِبْرِيل**﴾ [البقرة: ٩٧]، ﴿**مَنْ كَانَ عَدُواً لِلهِ ومَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيل**﴾ [البقرة: ٩٨]، والثالث في التحريم ﴿**وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللهَ هُوَ مَوْلاَهُ وَجِبْرِيلُ**﴾ [التحريم: ٤]، وذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم في أربعة مواضع الأول والثاني والثالث في آل عمران ﴿**فَنَادَتْهُ الـمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الـمِحْرَابِ**﴾ [آل عمران: ٣٩]، وهو جبريل وحده بدليل قراءة ابن مسعود رضي الله عنه ﴿**وَإِذْ قَالَتِ الـمَلاَئِكَةُ يا مَرْيَمُ إِنَّ الله اصْطَفَاكِ**﴾[آل عمران ٤٢] ﴿**إِذْ قَالَت الـمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ**﴾ [آل عمران: ٤٥] والرابع في النحل: ﴿**يُنَزِّلُ الـمَلاَئِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ**﴾ يعني جبريل والرُوح الوَحْي. وذُكِر بلفظ الروح في ثمانية مواضع بلفظ الروح مُطْلَقاً، وبإضافته إلى نفسه وبإضافته إلى القدس وهو الطهارة، وبوصفه بالأمانة، فقال: ﴿**تَعرُجُ الـمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ إليه**﴾ [المعارج: ٤] يعني جبريل ﴿**تَنَزَّلُ الـمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا**﴾ [القدر: ٤]، ﴿**فَأَرْسَلْنا إِلَيْهَا رُوحَنَا**﴾ [مريم: ١٧]، ﴿**وأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ القُدُسِ**﴾ [البقرة: ٨٧] وفي المائدة ﴿**إِذْ أَيَّدتُكَ بِرُوحِ القُدُسِ**﴾ [المائدة: ٩] وفي النحل ﴿**قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْـحَقِّ**﴾ [النحل: ١٠٢]، وفي الشعراء ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ، عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الـمُنْذِرِينَ**﴾ [الشعراء: ١٩٣، ١٩٤]، ووصفه في موضع واحد بسبع صفات جميلة وهي: الرسالة والكرم والقوة والقُرْبَة والمكانة وطاعة الملائكة والأَمانة، وذلك في سورة التكوير في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُول كَرِيم، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي العَرشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير:١٩، ٢٠، ٢١].

وروى أَبو الشيخ في العَظَمة عن جابر بن عبدالله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَقربُ الـخَلْق إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل وإنهم من الله بمسيرة أَلف سنة». وروى أَبو الشيخ عن وَهْب. قال: هؤلاء الأَربعة أَملاك: جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك الموت، أَوَّل مَنْ خلقهم الله من الملائكة وآخر من يُميتُهم، وأَول من يُحْيِيهم وهم المدبرات. وروى أَبو الشيخ عن خالد بن أَبي عمران قال: جبريل أَمين الله تعالى إلى رُسُله، وميكائيل يُلقي الكتب التي ترفع من أَعمال الناس وإسرافيل بمنزلة الحاجب.

وروى أَبو الشيخ عن عكرمة بن خالد أَحد التابعين أَن رجلاً قال: يا رسول الله أَي الملائكة أَكرم على الله؟ قال: لا أَدري فجاءه جبريل فقال: يا جبريل أَي الملائكة أَكرم على الله؟ قال: لا أَدري، فعَرَج جبريل، ثم هبط فقال: جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَك

الموت، فأما جبريل فصاحب الحرب وصاحب المرسلين وأما ميكائيل فصاحب كل قطرة تسقط وكل ورقة، وأما مَلَك الموت فهو مُوَكَّل بقبض روح كل عبد في بَرٍّ أو بَحْرٍ، وأما إسرافيل فأمين الله بينه وبينهم.

التنبيه السادس: في لغات ميكائيل وهي سبع: الأولى وهي الأفصح: ميكال بوزن ميقات وميعاد وبها قرأ أبو عمرو. الثانية: مكائيل: بهمزة فياء وهي قراءة نافع. الثالثة: ميكائيل بياءين وهي قراءة باقي السبعة. الرابعة: ميكئيل بهمزة بعد الكاف فمُثَنَّاة تحتية وهي قراءة ابن مُحَيْصِن. الخامسة: كذلك [أي ميكئل] إلا أنه لا ياء بعد الهمزة وبها قَرَأَ بعضُهم. السادسة: ميكاييل بياءين صريحتين بعد الألف وبها قرأ الأعمش. السابعة: ميكاءِيل بهمزة مفتوحة بعد الألف.

التنبيه السابع: في الكلام على البُرَاق، وهو بضمّ المُوحَّدة وتخفيف الراء مُشْتَقٌّ من البَرِيق فقد جاء في لونه أنه أبيض أو من البَرْق لأنه وُصِف بسرعة السَّيْر أو من قولهم: شاة بَرْقاء إذا كان خلال صوفها الأبيض طاقات سوداء، ولا ينافيه وَصْفُه في الحديث بالبياض لأن البَرْقاء من الغَنَم مَعْدُودةٌ في البيض. وفي حديث أبي هُرَيْرة رضي الله عنه عند أحمد والحارث: «أَبْرِقوا فإنّ دَمَ عَفْرَاء أَزْكَى عند الله من دَمِ سَوْدَاوَيْن»، فجعل البَرْقاء مقابلة السوداوَيْن تفضيلاً للبياض، فلهذا يكون البُرَاق أفضل الألوان ويجوز أن يجْمَع بين المعنيَيْن فيُسَمى بُرَاقًا لِلوْنِه ولسرعة مسيره فيكون ذلك من قبيل مُجْمَليْ اللفظ المُشترَك دفعةً واحدة في اللفظ ويُحتمَل ألا يكون مُشتقاً.

قال ابن أبي جَمْرَة: وإنما كان ركوب النبي ﷺ على البُرَاق إشارة إلى أن الاختصاص به لأنه لم يُنْقل أن أحداً مَلَكه بخلاف جنسه من الدوابّ. قال: والقُدْرة صالحة لأن يَصْعَد بنفسه بغير بُرَاق، لكن كان البُرَاق بشارةً له في تشريفه، لأنه لو صَعِد بنفسه لكان في صورة ماشٍ، والراكب خلاف الماشي. وقال ابن دِحْيَة: رُبَّما مُزِجَ خَرْقُ العادة بالعادة تأنيساً، وقد كان الحَقُّ قادراً على أن يرفع نَبِيَّه ﷺ بدون البُرَاق، ولكن الركوب وصِفَة المركوب المُعْتَاد تأنيس في هذا المقام العظيم بِطَرَف من العادة، ولعل الإسراء بالبُرَاق إظهارٌ للكرامة العُرْفِيَّة، فإن المَلِك العظيم إذا استدعى وَلِيًّا له وخِصِّيصاً به، وأشخصه إليه بَعَثَ إليه بمركوب سَنِيٍّ، يحمله عليه في وفادته إليه. ولم يكن البُرَاق بشكل الفَرَس ولكنه بشكل البَغْل وكان ذلك - والله تعالى أعلم - للإشارة إلى أن الركوب في سَلْم وأَمْن لا في حربٍ وخَوف، أو لإظهار المعجزة في الإسراع العجيب من دابة ما يوصف شكلها بالإسراع الشديد عادةً.

فإن قيل: فقد ركب النبي ﷺ البغلة في الحرب، فالجواب: كان ذلك لتحقيق نبوته

عليه الصلاة والسلام في مواطن الضرب والطعن والانتشاب في نَحْر العدو، ولِمَا كان الله تعالى خَصَّه بمزيد من الشجاعة والقوة. وإلا فالبغال عادةً من ركوب الطمأْنينة والأَمَنَة، فَبَيَّنَ أن الحرب عنده كالسِّلْم قُوَّةُ قلب وشجاعةُ نَفْس، وثِقَةٌ وتَوَكُّل. وركبت الملائكة في الحرب على الخَيْل لا غير لأَنها بصدد ذلك عُرْفاً دون غيرها من المركوبات. ولَطُف شكل البراق لما وصفه، عن شكل البغل، وما لَطُف من البغال واستدار أَحْمَدُ وأَحْسَن من المُطَهَّمات[١] منها، وذلك بخلاف الخيل.

ولم يُسَمِّ الله سبحانه وتعالى سَيْرَ البراق برسوله ﷺ طيراناً، وإنما سَمَّاه بما يُسَمَّى به السير المعتاد وسير الليل عند العرب سُرَى، فيؤخذ من هذا أَن الوَلِيّ إذا طُويت له الأَرض البعيدة في الساعة الواحدة يتناوله اسم المسافر، ويشمله أَحكام السَّفَر باعتبار القَصْر والفِطْر. وإنما لم يُذْكَر البُرَاق في الرجوع لأَن ذلك معلوم بذكره في الصعود، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُم الحَرَّ﴾ [النحل: ٢] يعني والبرد.

قال في فتح الصفا: فإن قيل: هَلاَّ كان الإِسراء على أَجنحة الملائكة والريح كما كانت تحمل سليمان عليه الصلاة والسلام أَو الخطوة كطَيِّ الزمان؟ قلت المراد إطلاعه على الآيات الخارقة للعادة، وما يتضمَّن أَمراً عجيباً، ولا عَجَب في حَمْل الملائكة أَو الريح بالنسبة إلى قَطْعِةِ هذه المسافة، بخلاف قَطْعِها على دابّة في هذا الحجم المَحْكِيّ عن صفتها، ووقع من تعظيمه بالملائكة ما هو أَعظم من حَمْله على أَجنحتها فقط. فقد أَخذ جبريل بِرِكَابه وميكائيل بزِمام البُرَاق، وهما من أَكابر الملائكة، فاجتمع له ﷺ حَمْلُ البراق، وما هو كَحَمْلِ البُراق من الملائكة وهذا أَتَمّ في الشرف.

واختلفت الأَقاويل في صفته، فنُقِل عن ابن عباس رضي الله عنهما ما ذُكِر. وقال صاحب الاحتفال: إنه دون البغل وفوق الحمار، وَجْهُه كوجه الإِنسان، وجَسَدهُ كجَسَد الفرس وقوائمه كقوائم الثور وذَنَبُه كذَنَب الغزال. وقال غيره: جَسَدُه كجسد الإِنسان وذَنَبُه كَذَنب البعير وعُرْفُه كعُرْف الفَرَس وقوائمه كقوائم الإِبل وأَظلافه كأَظلاف البَقَر وصَدْرُه كأنه ياقوتة حمراء وظَهْرُه كأنه دُرَّة بيضاء. له جناحان في فخذيه وهذا كله لم يَصِحّ منه شيء، وما ذكره عن ابن عباس أَمثلها، ولعل السِّرّ في كونهما في فخذيه لِثِقَل مُؤَخَّر الدابَّة، أَو لأَن ذلك جارٍ على هذا الأَمر في خَرْق العادة، أَو لأَجل الراكب، لأَنهما لو كانا في جنبَيه على العادة لكانا تحت فَخْذَي الراكب أَو فوقهما، ويَحْصُل له من ذلك مشقَّة بضَمِّهما ونشرهما خصوصاً مع السرعة العظيمة.

---

(١) المُطَهَّم: المُنْتَفِخُ الوَجْه. وقيل: الفَاحِش السِّمَن. وقيل: النَّحِيفُ الجسم، وَهُوَ مِنَ الأَضْدَادِ. انظُرِ النِّهَاية لابن الأثير ١٤٧/٣.

وفي بعض الآثار أنه ليس بذَكر ولا أُنثى، فاقتضى ذلك أن يكون مُفْرَداً بالخلْق بهذه الصِفة من غير توليد، وقد قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات: ٤٩] ونقل الشيخ سعد الدين أن الملائكة الكِرَام لا ذكور ولا إناث إلى آخر ما ذكره. وفي أثر آخر أن جبريل خاطبه خطاب المؤنث.

واخْتُلِف في الحكمة في استصعاب البُرَاق، فقال ابن بَطَّال: إنما استَصْعَب عليه لبُعْدِه بركوب الأَنبياء قبله، ويُؤَيِّده ما في المبتدأ لابن إسحاق رواية وَثِيمَة بن موسى في ذكر الإسراء، «فاستصعب البراق وكانت الأَنبياء تركبها قبلي» وكانت بعيدة العهد بركوبهم فلم تكن رُكِبَتْ في الفترة.

وقال ابن دحية وابن المنير: «إنما استصعب تيهاً وزَهْوَاً بركوب النبي ﷺ، وأراد جبريل بقوله: أبمحمد تستصعب؟ استنطاقه بلسان الحال إذ أنه لم يقصد الصعوبة، وإنما تاه بركوب النبي ﷺ، ولهذا قال: فارْفَضَّ عَرَقَاً، فكأنه أجاب بلسان الحال، فبَرِئ من الاستصعاب، وعرق من خَجَل العِتاب، وذلك قريب من رجفة الجَبَل به حتى قال: اثبت فإنما عليك نَبيٌّ وصِدِّيق وشهيد، فإنها هِزَّة طَرَب لا هِزَّة غضب، كما سيأتي الكلام على ذلك مبسوطاً في المعجزات. قال الشيخ قاسم بن قَطْلُوبُغا الحنفي رحمه الله تعالى: ولا يَبْعُد أن يقال إنما كان استصعابه فَرَقاً من هيبة سيدنا رسول الله ﷺ.

التنبيه الثامن: قال الحافظ: من الأَخبار الواهية أن البُرَاق لما عاتبه جبريل عليه السلام اعتذر إليه البراق بأنه مَسَّ الصُّفْراء اليوم، وأن الصفراء صَنَمٌ من ذهب عند الكعبة، وأن النبي ﷺ مَرَّ به فقال: «تَبًّا لمن يعبدك من دون الله»[1]، وأن النبي ﷺ نَهَى زيد بن حارثة أن يمسَّه بعد ذلك، وكسره يوم الفتح. وقال في الزهر: هذا لا ينبغي أن يُذْكَر ولا يُعْزَى لسيدنا رسول الله ﷺ. قال الإمام أحمد ـ روى عنه ابنُه عبد الله أنه قال: «هو موضوع» وأنكره جداً.

التنبيه التاسع: قال الحافظ: من الأَخبار الواهية ما ذكره الماوردي والثعلبي والقرطبي في التذكرة من طريق الكلبي عن إبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الموت والحياة جسمان؛ فالموت ليس يجد ريحَه في شيء إلا مات، والحياة فَرَس بلقاء أُنثى وهي التي كان جبريل والأَنبياء يركبونها لا تمرّ بشيء ولا يجدريحَها شَيءٌ إلا حَيِيَ.

التنبيه العاشر: اختُلِف في ركوب جبريل على البراق مع النبي ﷺ، وعلى القول به هل ركب أَمام النبي ﷺ أم خَلْفَه؟ فعند الإمام أَحمد عن حُذَيْفة رضي الله عنه أن

---

(١) انظر الفتح ٢٠٧/٧.

رسول الله ﷺ أُتِي بالبراق فلم يزايل ظَهْرَه هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس. وفي رواية عنه عند ابن حِبّان أَن جبريل حَمَله على البراق رديفاً له، وفي لفظ «فرَكِبَه خَلْفَ جبريل فسار بهما». وفي حديث إبي ليلى أَن جبريل أَتى النبي ﷺ بالبراق فحمله بين يديه، رواه الطبراني. وفي حديث ابن مسعود، رَفَعَه: «أُتِيتُ بالبراق فَرَكِبْتُه خَلْفَ جبريل». والصحيح أَنه كان مُعَدّاً لركوب الأَنبياء قبل سيدنا رسول الله ﷺ(١).

وروى الفاكهي بسند حسن عن علي رضي الله عنه قال: «كان إبراهيم يزور إسماعيل وأُمه على البراق». وفي حديث أَبي سعيد رضي الله عنه: «وكانت الأَنبياء تركبها قبلي». رواه البيهقي وغيره. وقال أَنس رضي الله عنه: «وكانت تُسَخَّر للأَنبياء قبلي»، رواه النسائي وابن مَرْدَويه. وقال سعيد بن المُسَيَّب وأَبو سَلَمة بن عبد الرحمن: «أُسْري برسول الله ﷺ على البُراق، وهي دابّة إبراهيم التي كان يزور عليها البيت الحرام»، رواه ابن جرير.

التنبيه الحادي عشر: قوله في حديث ابن عبّاس رضي الله عنهما: «وتكلم أَربعةٌ وهم صغار» فذكر ابن الماشطة وشاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى بن مريم. وروى الشيخان من حديث أَبي هريرة مرفوعاً: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة»، فذكر عيسى وصاحب جريج وابن الماشطة. وفي حديث مسلم عن صُهَيْب رضي الله عنه في قصة أَصحاب الأُخدود: أَن امرأَةً جيءَ بها لتُلْقَى في النار أَو لتَكْفُر ومعها صبيٌ يرضع فتقاعست فقال: يا أُماه اصبري فإنك على الحَقّ. وفي رواية عند ابن قتيبة: إنه كان ابن سبعة أَشهر. وروى الثعلبي عن الضحاك أَن يحيى بن زكريا تكلم في المهد وذكر البغوي في تفسيره أَن إبراهيم الخليل عليه السلام تكلم في المهد. وفي سير الواقدي أَن النبي ﷺ تكلم في أَوائل ما وُلِد. وقد تكلم في زمان النبي ﷺ مبارك اليمامة كما سيأْتي في المعجزات، فهذه عشرة، وتقدم نَظْمهم في أبواب المولد، وسيأتي الكلام على ذلك مبسوطاً في المعجزات. وإذا عُلِم ذلك فقوله ﷺ: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة»(٢)، قاله قبل أَن يعلم الزيادة على ذلك.

التنبيه الثاني عشر: ذُكِر في القصة نزوله ﷺ عن البُرَاق وصلاتُه بعِدَّة مواضع كما هو مذكور في القصة. وقال حُذَيْفة رضي الله عنه: «إن رسول ﷺ لم يزايل ظَهْرَ البراق هو وجبريل حتى انتهيا إلى بيت المقدس». قال الحافظ: «وهذا لم يُسْنِده حُذَيْفة إلى النبي ﷺ، فيُحْتَمَل أَنه قاله عن اجتهاد». قلتُ: ويدل على ذلك إنكارهُ رَبْط البراق والصلاةَ

(١) أخرجه مسلم ١٤٥/١ (٢٥٩- ١٦٢) وانظر مسند الإمام أحمد ١٤٨/٣ والحاكم في المستدرك ٦٠٦/٤ الدر المنثور للسيوطي ١٣٦/٤.

(٢) أخرجه البخاري ٢٠١/٤ ومسلم ١٩٧٦/٤ وأحمد في المسند ٣٠١/٢ والحاكم في المستدرك ٥٩٥/٢.

في بيت المقدس، مع ورود الأَحاديث الصحيحة عن جماعة من الصحابة بوقوع ذلك كما سيأْتي.

التنبيه الثالث عشر: أَنكر حُذَيفة رضي الله عنه رَبْطَ البُرَاق، فروى الإِمام أَحمد والترمذي عنه أَنه لما قيل له: رَبَط البراق قال: أَخَافُ أَن يفرّ منه وقد سَخَّره له عالم الغيب والشهادة؟ قال البيهقي والسهيلي: والمُثْبِت مُقَدَّمٌ على النَّافِي، يعني من أَثبت رَبْطَ البراق في بيت المقدس معه زيادة عِلْم على مَنْ نَفَى، فهو أَولى بالقبول. قال الإِمام النووي: وفي ربط البراق الأَخذ بالاحتياط في الأُمور وتعاطي الأَسباب، وأَن ذلك لا يَقْدَح في التَّوَكُّل إِذا كان الاعتماد على الله سبحانه وتعالى. وقال السهيلي: وفي هذا من الفقه التنبيه على الأَخذ بالحزم مع صِحَّة التوكل وأَن الإِيمان بالقَدَر كما رُوِي عن وَهْب بن مُنَبّه لا يمنع الحَزْم من تَوَقِّي المهالك، قال وهب: وَجَدْتُه في سبعين كتاباً من كتب الله القديمة، وهذا نحو من قوله ﷺ: «اعْقِلْها وتَوَكَّلْ»(١). فإِيمانه ﷺ بأَنه قد سُخِّر له كإِيمانه بِقَدَر الله تعالى وعِلْمِهِ بأَنه قد سبق في أُم الكتاب ما سبق، ومع ذلك كان يتزود في أَسفاره، ويُعِدّ السلاح في حروبه، حتى لقد ظَاهَرَ بين دِرْعَين في غزوة أُحُد ورَبْطُه للبراق من هذا الفن.

التنبيه الرابع عشر: في بعض فضائل بيت المقدس وفيه فوائد: **الأُولى:** في مبدأ خَلْقه: روى أَبو بكر الواسطي عن علي رضي الله عنه قال: كانت الأَرض ماءً، فبعث الله تعالى ريحاً فمسحت الماء مَسْحاً، فظهرت على الأَرض زَبَدَة فقَسَّمها أَربع قِطَع، خلق من قطعة مكة ومن أُخرى المدينة ومن أُخرى بيت المقدس ومن أُخرى الكوفة. وتقدم حديث أَبي ذرّ في الباب الأَول من أَبواب بعض فضائل بلده المنيف فراجعْه. وروى الإِمام أَحمد والنَّسَائي وابن ماجه والحاكم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إِن سليمان عليه السلام لما بنى بيت المقدس سأَل رَبَّه خِلالاً ثلاثاً فأَعطاه إِياها: سأَله حكماً يصادف حكمه فأَعطاه إِياه وسأَله مُلْكاً لا ينبغي لأَحَد من بَعْدِه فأَعطاه إِياه، وسأَله أَيُّما رجلٌ خرج من بيته لا يريد إِلا الصلاة في هذا المسجد يعني بيت المقدس خرج من خطيئته كيوم وَلَدَتْه أُمُّه». قال النبي ﷺ: «ونحن نرجو أَن يكون الله تعالى قد أَعطاه ذلك»(٢).

وروى ابن أَبي شيبة والواسطي عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إِن بيت المقدس لَمُقَدَّس في السموات السبع بمقداره في الأَرض» وروى الواسطي عن عطاء

---

(١) أخرجه ابن حبان (٢٥٤٩) وأبو نعيم في الحلية ٣٩٠/٨ وذكره العجلوني في كشف الخفا ١٦١/١ وعزاه للترمذي عن أنس.

(٢) أخرجه النسائي في المساجد باب (٦) وأحمد في المسند ١٧٦/٢ وذكره السيوطي في الدر ١٦٠/٤.

الخراساني قال: «لما فرغ سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام من بناء بيت المقدس أنبت الله شجرتين عند باب الرحمة أحدهما تُنْبت الذهب والأُخرى تُنْبِت الفِضَّة، فكان كل يوم تُنْزَع من كل واحدة مائة رطل ذهب وفِضَّة، ففُرِشَ المسجد، بلاطة ذهباً وبلاطة فضة. فلما جاء بختنصر خَرَّبه واحتمل منه ثمانين عجلة ذهباً وفضة فطرحهما برومية».

وروى الواسطيّ عن سعيد بن المُسَيَّب رحمهما الله تعالى أن سليمان عليه السلام لما فرغ من بناء بيت المقدس فَرَّغ له عشرة آلاف من قُرَّاء بني إسرائيل: خمسة آلاف بالليل وخمسة آلاف بالنهار، فلا تأتي ساعةٌ من ليل أو نهار إلا والله تعالى يُعبَد فيه. وروى الواسطي عن كعب الأَحبار أَن سليمان بن داود عليهما السلام لما فرغ من بناء المسجد خَرَّ ساجداً شكراً لله وقال: «يا رَبِّ مَنْ دخله من خائف فأَمِّنْه أَو من داع فاسْتَجِبْ له أَو مُسْتَغْفِر فاغْفِرْ له»، فأَوحى الله تعالى إليه: «إني قد أَجَبْتُ لآل داود الدعاء». قال: فذبح أربعة آلاف بقرة وسبعة آلاف شاة، وصنع طعاماً كثيراً ودعا بني إسرائيل إليه.

والآثار في هذا كثيرة، وقد ذكر المؤرخون في عمارته وما فيه من الجواهر والمعادن واليواقيت في سمائه وأَرضه وجدرانه ما تعجز عنه ملوك الدنيا. فلما دخل بختنصر خَربه وأَخذ تلك النفائس التي فيه، وذِكْرُ ذلك هنا ليس من غرضنا. الثانية: في بعض فضله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى الذِي بَارَكْنا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١] وهذه الآية هي المُعَظِّمة لقدره بإسراء رسول الله ﷺ إليه قبل عروجه إلى السماء وإخبار الله تعالى بالبركة حوله. وتقدم الكلام على ذلك. وقال تعالى: ﴿ونَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الأَرْضِ التي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾[الأنبياء: ٧١].

روى أَبو المعالي المشرف بن المُرَجَّى المقدسي في فضائله عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: «الجَنَّةُ تَحِنُّ إلى بيت المقدس، وصخرة بيت المقدس من جَنَّة الفِرْدَوْس». وروى الواسطي عن مكحول قال: «من صَلَّى في بيت المقدس ظهراً وعصراً ومَغْرِباً وعِشاءً، ثم صَلَّى الغَداةَ خرج من ذنوبه كيوم وَلَدَتْهُ أُمُّه».

وروى أَيضاً عن كعب قال: «في بيت المقدس، اليوم فيه كأَلف يوم وشَهْرٌ فيه كأَلف شهر والسَّنَةُ فيه كأَلف سنة، ومن مات فيه كأنما مات في السماء». وروى الحاكم عن أَبي ذَرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «في بيت المقدس لِنِعْمَ المُصَلَّى، وليوشكن أَلا يكون للرجل مثل بَسْط فَرْشِه من الأَرض حيث يرى منه بيت المقدس خَيْرٌ له من الدنيا جميعاً أو قال خير من الدنياوما فيها». وروى الواسطي عن كعب قال: «إن الله ينظر إلى بيت المقدس كل يوم مَرَّتَيْن». والآثار في فضله كثيرة.

الثالثة: في أسمائه: الأول: المسجد الأقصى وتقدم الكلام عليه. الثاني: مَسْجِد إيلياء بوزن كِبْرِياء. وحكى البكري وغيره قَصْرَ أَلِفِهِ، وحكى ابن يونس في شرح التعجيز. وابن الأثير في النهاية بتشديد الياء. وحكى صاحب المطالع وغيره حذف الياء الأولى وكسر الهمزة وسكون اللام والمدّ، قال محمد بن سهل الكاتب: معنى إيلياء بيت الله. وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما في مُسْنَد أبي يَعْلَى: «الإيلا» بالألف واللام، قال النووي: وهو غريب.

الثالث والرابع: «بَيْتُ المَقْدِس» بفتح الميم وإسكان القاف وكسر الدال مُخَفَّفَة، «والبَيْتُ المُقَدَّس» بضم الميم وفتح القاف والدال المشددة. قال الواحدي: «معناه المُطَهَّر»، قال: أبو علي المقدسي: «وأما بيت المقدس يعني بالتخفيف فلا يخلو إما أن يكون مصدراً أو مكاناً، فإن كان مصدراً كان كقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٤] ونحوه من المصادر، وإن كان مكاناً فالمعنى بيت المكان الذي جعل فيه الطهارة أو بيت مكان الطهارة، وتطهيره على معنى إخلائه من الأصنام وإبعاده منها»، وقال الزَّجّاج: «البيت المُقَدَّس أي المكان المُطَهَّر، وبيت المَقْدِس أي المكان الذي يُطَهَّر فيه من الذنوب، هذا ما ذكره الواحدي»، وقال غيره: «البيت المُقَدَّس وبيت المَقْدِس لغتان الأولى على الصفة والثانية على إضافة الموصوف إلى صفته كصلاة الأولى ومسجد الجامع.

قال ابن سُرَاقة[1]: «ويقال الأرض المقدسة ثلاثة: فَلَسْطِين ـ بفاء مفتوحة فلام مفتوحة ـ والأُردن ـ بهمزة مضمومة فراء ساكنة فدال مهملة مضمومة فنون، قال البكري: مُشَدَّدَة ـ ودمشق، وهو ما أدرك بَصَرُ إبراهيم ﷺ حين رُفِع على الجبل وقيل له: «ما أدرك بَصَرُك فهو ميراث لك ولولدك من بعدك».

الخامس: بيت القُدْس: بضم الدال وإسكانها بغير ميم، ذكره الحازمي[2] في أسماء الأماكن ونقل عن ابن الأثير أيضاً.

السادس: سَلَّم بتشديد اللام لكثرة سلام الملائكة فيه. قال ابن بَرّي: وأصله «شلم» بالشين المعجمة لأن الشين المعجمة في العربية سين، فالسلام شلام واللسان لشان والاسم اشم، وقال البكري في حرف الشين المعجمة: «شَلَّم»[3] بفتح أوله وثانيه وتشديده على وزن

---

(١) محمد بن يحيى بن سراقة العامري، أبو الحسن: فقيه فرضي. من أهل البصرة. صنف كتباً في فقه الشافعية والفرائض ورجال الحديث. ووقف ابن الصلاح على «كتاب الأعداد» له. توفي سنة ٤١٠هـ. انظر الأعلام ١٣٦/٧.

(٢) محمد بن موسى بن عثمان بن حازم، أبو بكر، زين الدين، المعروف بالحازمي: باحث، من رجال الحديث. أصله من همذان، ووفاته ببغداد. له كتاب «ما اتفق لفظه واختلف مسماه» في الأماكن والبلدان المشتبهة في الخط، و «الفيصل» في مشتبه النسبة، و «الاعتبار في بيان الناسخ والمنسوخ من الآثار» في الحديث، و «عجالة المبتدي وفضالة المنتهي»، توفي سنة ٥٨٤هـ. الأعلام ١١٧/٧.

(٣) انظر لسان العرب ٢٣١٨/٤.

فَعَّل اسم لبيت المقدس. وقال الهَمْداني: «شَلَّم»: وقد تُعَرِّبها العرب فنقول: شَلِم. وحكى ابن القَطَّاع: شَلاَّم على وزن فَعَّال. وقال ابن الأَثير: «شلّم» بالمعجمة وتشديد اللام اسم لبيت المقدس ويُرْوَى بالمهملة وكسر اللام سَلِم كأَنه عَرَّبه. ومعناه بالعبرانية: بيت السلام.

السابع: رُوي عن كعب الأحبار، أَن الجنة في السماء السابعة بحيال بيت المقدس والصخرة، ولو وقع حَجَرٌ منها لوقع على الصخرة ولذلك دُعِيَت: أُورى شَلِم، ودُعِيَت الجنة: دار السلام

الثامن: أُوْرِي شلم، بضم الهمزة وسكون الواو وكسر الراء وسكون التحتية وفتح الشين المعجمة وكسر اللام المخففة، كذا قال أَبو عُبَيْدة مَعْمَر بن المُثَنَّى، والأَكثرون بفتح الشين واللام. **التاسع:** كَوْرة إِلْيَا، **العاشر:** أُورى شَلَم. **الحادي عَشَر:** بيت إِيل، أَي بيت الله. **الثاني عشر:** «صِهْيَوْن»: بصاد مهملة مكسورة فهاء ساكنة فُمُثَنَّاة تحتية فواو فنون، ذكره البكري. قال: وهو بفتح الصاد اسم قبيلة. **الثالث عشر:** «مصرث» بميم فصاد فراء فثاء مثلثة. **الرابع عشر:** «بابوش»: بموحدتين وآخره شين معجمة. **الخامس عشر:**: «كورشيلاه». **السادس عشر:** «صلعون»: ذكر هذه الأَسماء ابن خالويه. **السابع عشر:** سليم. **الثامن عشر:** «فُسْط مصر» بضم الفاء. **التاسع عشر:** أَرض المَحْشَر والمَنْشَر. **العشرون:** المحفوظة. **الحادي والعشرون:** المُقَرَّقة. **الثاني والعشرون:** مدينة الجنة.

الرابعة: في خصائصه: الأُولى في مضاعفة الصلاة فيه: وقد اختلفت الأَحاديث في مقدارها: **الأول:** خمسمائة صلاة: روى الإِمام أَحمد وابن ماجه والبَزَّار والقاسم الحافظ أَبي القاسم بن عساكر عن أَبي الدَّرْداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ. قال: «الصلاة في بيت المقدس بخمسمائة صلاة[١]». **الثاني:** أَلف صلاة: روى ابن ماجه عن ميمونة رضي الله عنها، قالت: قلت: يا رسول الله افْتِنا في بيت المقدس، فقال رسول الله ﷺ: «أَرْض المَحْشَر والمنشر، ائتوه فصلوا فيه فإِن صلاةً فيه كأَلف صلاة[٢]». قال النووي: لا بأْس بإِسناده، وقال الذهبي: حديث مُنْكَر. **الثالث:** خمسون أَلف صلاة: روى ابن ماجه عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الرجل في بيته بصلاة، وصلاته في مسجد القبائل بخمس وعشرين صلاة، وصلاته في المسجد الذي يُجَمَّع فيه بخمسمائة صلاة، وصلاته في المسجد الأَقصى بخمسين أَلف صلاة». وصلاته في المسجد الحرام بمائة أَلف

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٤ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: ورجاله ثقات وفي بعضهم كلام وهو حديث حسن.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٤٠٧) والطحاوي في مشكل الآثار ٢٤٩/١ وابن حجر في المطالب (١٣٦٥) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٨١٩٨) والعجلوني في كشف الخفا ٣٤٥/١.

صلاة[1]». **الرابع:** مائتان وخمسون: روى الطبراني في معجمه عن أبي ذرّ رضي الله عنه، مرفوعاً: «صلاةٌ في مسجدي أفضل من أربع فيه[2]»، يعني بيت المقدس، فدلَّ على أن الصلاة في بيت المقدس بمائتين وخمسين صلاة. الخامس: بعشرين ألف صلاة، رُوِي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما ولهذا مزيد بيان في أبواب فضائل المدينة الشريفة.

الثانية: استحباب شَدّ المطيّ إليه لما رواه الشيخان: «لا تُشَدّ الرِّحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام والمسجد الأقصى[3]».

الثالثة: استحباب خَتْم القرآن فيه: روى سعيد بن منصور في سننه عن أبي مِجْلَز ـ بكسر الميم وحُكِي فتحها وإسكان الجيم وفتح اللام وبالزاي ـ واسمه لاحق بن حميد، قال: «كانوا يَسْتَحِبُّون لمن أتى المساجد الثلاثة أن يختم بها القرآن قبل أن يخرج».

الرابعة: استحباب المجاورة به: روى الحاكم عن ثور بن يزيد عنْ مكحول قال: «كان عُبَادة بن الصامت وشَدَّاد بن أوس رضي الله عنهما يسكنان بيت المقدس». وقد سكنه عِدَّة من الصحابة رضي الله عنهم.

الخامسة: يُسْتَحَبُّ الصيام فيه فقد رُوِي: «صومٌ في بيت المقدس براءةٌ من النار».

السادسة: استحباب الإحرام بالحج والعُمْرَة منه: روى أبو داود عن أم سَلَمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من أَهَلَّ بحجَّة أو عُمْرَة من المسجد الأقصى غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخر[4]».

السابعة: يُستحب لمن لم يقدر على زيارته أن يُهْدِي له زيتاً، روى أبو داود وابن ماجه واللفظ له عن ميمونة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله: أَفْتِنا في بيت المقدس. قال: «أَرضُ المَحْشَر والمَنْشَر، إيتوه فصلُّوا فيه فإن صلاةً فيه كألف صلاة في غيره». قلت: يا رسول الله أرأيت إن لم أستطع أن أصل إليه؟ قال: «فتُهْدي إليه زيتاً ليُسْرَج فيه فمن فعَل ذلك فهو كمن أتاه». المَحْشَر مَفْعَل من الحَشْر وهو الجمع يعني يوم القيامة، فإذا فتحتَ الشين فهو المصدر، وأمَّا الموضع فهو بالكسر. قال الجوهري: المَحْشِر بالكسر موضع الحَشْر. انتهى. وذكر صاحب مختصر العين أن المَحْشَر بالكسر والفتح الموضع الذي يُحْشَر إليه الناس والمنشر موضع النشور وهو قيام الموتى من قبورهم.

الثامنة: حُكِي عن بعض السلف أن السيئات تُضَاعَف فيه، رُوِي ذلك عن كعب

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١٤١٣) وابن الجوزي في العلل ٨٦/٢.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٤ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: رجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه البخاري ٧٠/٣ (١١٩٧) ومسلم ٩٧٦/٢ (٤١٥- ٨٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود (١٧٤١) والبيهقي ٣٠/٥ والبخاري في التاريخ ١٦١/١.

الأَحبار وأَنه لما كان يأْتي من حمص للصلاة فيه، فإِذا صار منه قَدْرَ ميل اشتغل بالذِّكر والتلاوة والعبادة حتى يخرج منه بقدر ميل أَيضاً ويقول: «السيئات تضاعف فيه»، أَي تزداد قُبحاً وفُحْشاً لأَن العاصي في زمان أَو مكان شريف أَشد جُرْأَةً وأَقل خوفاً من الله تعالى. وذكر أَبو بكر الواسطي عن نافع قال: قال لي ابن عُمَر: «اخرج بنا من هذا المسجد فإِن السيئات تُضَاعَف فيه كما تُضَاعَف الحسنات».

التاسعة: أَن الدَّجَّال لا يدخل بيت المقدس. روى ابن أَبي شيبة في المُصَنَّف عن سَمُرَة بن جُنْدَبُ رضي الله عنه عن النبي ﷺ وذكر الدَّجَّال فقال: «وإِنه سيظهر على الأَرض كلها إِلا الحَرَم وبيت المقدس [وأَنه يحصر المؤمنين في بيت المقدس قال: فيهزمه اللهُ وجنوده حتى إِن جِذْم الحائط وأَصل الشجرة ينادي: يا مؤمِن: هذا كافر يستتر بي تعالى اقْتُلْهُ إِلى آخره].

العاشرة: أَن الصخرة في المسجد الأَقصى كالحجر الأَسود في المسجد الحرام. روى أَبو نُعَيْم عن وَهْب بن مُنَبِّه قال: «إِن الله تعالى قال لصخرة بيت المقدس: لأَضَعَنَّ عليكِ عَرْشي وَلأَحْشُرَنَّ إِليك خَلْقي وليأْتينَّك يومئذ داود راكباً؛ وروى أَبو بكر الواسطي وابن عساكر عن يزيد بن جابر في قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ**﴾ [ق ٤١]، قال: «يقف إِسرافيل على صخرة بيت المقدس فينفخ في الصور فيقول: « يا أَيتها العظام النَّخِرة والجلود المتمزِّقة والأَشعار المُتَقَطِّعَة إِن الله يأمرك أَن تجتمعي لفصل الخطاب». وروى ابن جرير وابن أَبي حاتم والواسطي عن قتادة في الآية قال: «كنا نتحدث أَنه يُنَادى من بيت المقدس من الصخرة وهي أَوسط الأَرض»، وحدثنا أَن كعباً قال: هي أَقرب الأَرض إِلى السماء بثمانية عشر ميلاً.

الحادية عَشْرَةَ: يُكْرَه استقبال بيت المقدس واستدباره بالبول والغائط ولا يَحْرُم قاله في الروض.

الثانية عشرة: رُوِيَ أَنه من دُفِن في بيت المقدس وُقِيَ فِتْنَةَ القبر وسؤال الملَكَيْن ومَنْ دُفِن في زيتون المِلَّة [يعني بإِيلياء] فكأَنما دُفِن في السماء الدنيا.

وروى أَبو نعيم في تاريخه عن أَحمد بن جعفر بن سعيد قال حدثنا يحيى بن مُطَرِّف حدثنا محمد بن بكر، حدثنا يوسف بن عطيه، عن أَبي سفيان، عن الضَّحَّاك بن عبد الرحمن ابن عَرْزَب ـ بفتح المهملة وسكون الراء وفتح الزاي ثم مُوَحَّدة، وقد تبدل ميمًا ـ عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من مات في بيت المقدس فكأَنما مات في السماء»[1].

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٢/٢٢٠.

الثالثة عشرة: روى الخطيب في المُوَضِّح عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أَول من يدخل الجنة الأَنبياء ثم مؤذنو البيت ثم مؤذنو بيت المقدس ثم مؤذنو مسجدي ثم سائر المؤذنين»(١).

الرابعة عشرة: ليحذر من اليمين الفاجرة فيه وكذا في المسجد الحرام ومسجد المدينة فإن عقوبتها مُعَجَّلة. رُوي أَن عمر بن عبد العزيز أَمر بحمل عُمَّال سليمان بن عبد الملك إلى الصخرة ليحلفوا عندها فحلفوا إلا واحداً، فدى يمينه بأَلف دينار، فما مَرَّ الحَوْل على واحد منهم بل ماتوا كلهم.

الخامسة عشرة: روى ابن جرير عن أَبي أُمَامة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال طائفة من أُمتي ظاهرين على الحق لا يَضُرُّهم من خالفهم»(٢). قيل: فَأَيْنَ هم يا رسول الله؟ قال: «بِبَيْتِ المقدس أَو بأَكناف بيت المقدس». وروى أَبو يَعْلَى عن أَبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تزال عصابة من أُمتي يُقاتلون على أَبواب دمشق وعلى أَبواب بيت المقدس وَمَا حَوْلَه لا يَضُرُّهم خِذْلانُ من خذلهم ظاهرين على الحق إلى أَن تقوم الساعة»(٣).

السادسة عشرة: روى أَبو المعالي المشرف بن المُرَجَّى المقدسي قال: «من حَجَّ وصَلَّى في مسجد المدينة، ومسجد الأَقصى في عام واحد خرج من ذنوبه كيوم ولدته أُمه». وإذا ثبت ذلك فقول النووي: «إنه لا أَصل لذلك» فيه نظر.

السابعة عشرة: ذكر الدارمي: «أَنه لا يجوز الاجتهاد يُمْنَةً ولا يُسْرَةً بمحراب بيت المقدس» وأَلحقه بمسجد المدينة.

الثامنة عشرة: نَصَّ الصيدلاني والماوردي والروياني والبغوي والبَنْدَنِيجي - بفتح المُوَحَّدة وسكون النون الأُولى وكسر الثانية ثم تحتية والجيم - والجُوَيْني في مختصره والغزالي في الخلاصة والخراساني في كافيه على استحباب صلاة العيد في مسجد بيت المقدس وأَن فعلها فيه أَوْلى من المُصَلَّى.

التاسعة عشرة: قال ابن سُرَاقة في كتاب الأَعداد: «أَكبر مساجد الإسلام واحد وهو

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في العلل ٣٩٣/١ والبغدادي في موضع أوهام الجمع والتفريق ٥٠/١.

(٢) أخرجه البخاري ١٢٥/٩ ومسلم في كتاب الإمارة (١٧٠) وأخرجه أبو داود في كتاب الفتن باب (١) والترمذي (٢١٩٢) وابن ماجه (٦) وأحمد في المسند ١٨١/٩.

(٣) أخرجه ابن عدي في الكامل ٢٥٤٥/٧ وذكره ابن حجر في المطالب (٤٢٤٤) والمتقي الهندي في الكنز (٣٥٠٥١).

بيت المقدس». وقيل: «ما تَمَّ فيه صَفٌّ واحدٌ قط لا في عيد ولا في جمعة ولا غير ذلك».

العشرون: يُسْتَحب لزائره زيارة الأَماكن المشهورة بآثار الأَنبياء لاسيما مواضع صلاة نبينا ﷺ.

الحادية والعشرون: حَشْر الكعبة إلى بيت المقدس: روى الواسطي في فضائل بيت المقدس عن خالد بن مَعْدان ـ بفتح الميم ـ قال: «لا تقوم الساعة حتى تُزَفَّ الكعبة إلى الصخرة زَفَّ العروس، فيتعلَّق بها جميع من حَجَّ واعتمر، فإذا رأتها الصخرة قالت: مرحباً بالزائرة والمزور إليها». ورُوِي أيضاً عن كعب قال: «لا تقوم الساعة حتى يُزَفَّ البيت الحرام إلى بيت المقدس فيَنْقادان إلى الجَنَّة، فيها أَهْلُها، والعَرْض والحساب ببيت المقدس» وروَى ابن مردويه والأَصفهاني في ترغيبه والدَّيْلَمي عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة زُفَّتْ الكعبة: البيت الحرام إلى قبري فتقول الكعبة: السلام عليك يا محمد، فأقول: عليك يا بيت الله، ما صنع بك أُمتي بعدي؟ فتقول: يا محمد من أَتاني فأَنا أَكفيه وأَكون له شفيعاً، ومن لم يأْتني فأَنت تكفيه وتكون له شفيعاً»[1]. وروى الجندي عن الزُّهْري نحوه.

التنبيه الخامس عشر: أَنكر حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه صلاة النبي ﷺ ببيت المقدس تلك الليلة، واحتج بأَنه لو صلى فيه لكُتِب عليكم الصلاة فيه. قال البيهقي وابن كثير: والمُثْبِت مُقَدَّم على النَّافي، يعني من أَثبت الصلاة في بيت المقدس، وهم الجمهور من الصحابة معه زيادةُ عِلْم على من نفى ذلك، فهو أَوْلى بالقبول. والجواب عما استند إليه حذيفة رضي الله عنه منع التلازم في الصلاة إن كان أَراد بقوله كُتِب عليكم الفَرْض، وإن أُريد التشريع فيلتزمه، وقد شَرَع النبي ﷺ في بيت المقدس، فَقَرَنهُ بالمسجد الحرام ومسجده في شَدِّ الراحلة وذَكَر فضيلةَ الصلاة فيه في غير ما حديث.

التنبيه السادس عشر: تظافرت الروايات على أنه ﷺ صَلَّى بالأَنبياء قبل العروج وهو أَحد الاحتمالين للقاضي، وقال الحافظ: «إنه الأَظهر»، والاحتمال الثاني «أَنه ﷺ صَلَّى بهم بعد أَن هبط من السماء أيضاً فهبطوا. وصححه الحافظ ابن كثير، وقال صاحب السراج: «وما المانع من أَنه ﷺ صلَّى بهم مرتين، فإن في بعض الأَحاديث ذكرَ الصلاة بهم بعد ذكره المعراج».

التنبيه السابع عشر: قيل: كيف يصلي الأَنبياء وهم أَموات في الدار الآخرة وليست

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٣٧/١ وعزاه لابن مردويه والأصبهاني في الترغيب والديلمي.

دار عمل؟ وأَجاب القاضي وتَبِعه السبكي بجوابين: الأَول: إنا نقول: إنهم كالشهداء بل أَفضل، والشهداء أَحياءٌ عند ربهم، فلا يَبْعُد أَن يحجُّوا وأَن يُصَلُّوا كما ورد في الحديث الآخر، وأَن يتقربوا إلى الله تعالى بما استطاعوا لأَنهم وإن كانوا قد توفوا فهم في هذه الدنيا التي هي دار العمل حتى إذا فنيت مُدَّتُها، وتَعْقُبُها الآخرة التي هي دار الجزاء انقطع العمل، وحاصله أَن البَرْزَخ ينسحب عليه حكم الدنيا في استكثارهم من الأَعمال وزيادة الأُجور. الثاني ولفظه للسبكي رحمه الله تعالى: «إنا نقول إن المُنْقَطِع في الآخرة إنما هو التكليف، وقد تحصل الأَعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها والخضوع لله تعالى. ولهذا ورد أَنهم يُسَبِّحون ويَدْعُون ويقرأُون القرآن وانظر إلى سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة، أَليس ذلك عبادةً وعملاً؟ وعلى كلا الجوابين لا يمتنع حصول هذه الأَعمال في مدة البَرْزخ».

وقد صَح عن ثابت البُناني التابعي أنه قال: «اللهم إن كنت أَعْطَيْتَ أَحداً أَن يصلي في قبره فأَعْطِني ذلك». فرؤي بعد موته يُصَلِّي في قبره، ويكفي رؤيه النبي ﷺ لموسى قائماً يصلي في قبره، لأَن النبي ﷺ وسائر الأَنبياء لم يُقْبَضُوا حتى خُيِّرُوا بين البقاء في الدنيا وبين الآخرة فاختاروا الآخرة. ولا شك أَنهم لو بقوا في الدنيا لازدادوا من الأَعمال الصالحة ثم انتقلوا إلى الجنة، فلو لم يعلموا أَن انتقالهم إلى الله تعالى أَفضل لما اختاروه، ولو كان انتقالهم من هذه الدار يفوت عليهم زيادة فيما يقرب إلى الله تعالى لما اختاروه. انتهى ولهذا مزيد بيان يأتي في باب حياته في قبره ﷺ.

التنبيه الثامن عشر: هذه الصلاة التي صلاها النبي ﷺ بالأَنبياء عليهم الصلاة والسلام، الصواب أَنَّها الصلاة المعروفة لأَن النص يحمل على حقيقتها الشرعية قبل اللغوية إلا إذا تَعَذَّرَ حَمْلُه على الشرعية، ولم يتعذَّر هنا فوجب حَمْلُه على الشرعية. وعلى هذا قال بعضهم: «كانت الصلاة التي صَلاَّها العِشَاء» وقال بعضهم: «إنها الصبح».

قلت: وليسا بشيء سواء قلنا صَلّى بهم قبل العروج أَو بعده لأَن أَول صلاة صَلاَّها النبي ﷺ من الخمس مطلقاً الظُّهر بمكة باتفاق، ومن حمل الأَولية على مكة فعليه الدليل، والذي يظهر والله تعالى أَعلم أَنها كانت من النَّفْل أَو كانت من الصلاة المفروضة عليه قبل ليلة الإسراء، وفي فتاوى النووي ما يؤيد الثاني.

التنبيه التاسع عشر: قال بعضهم: ورؤيته إياهم ﷺ في السماء محمولة على رؤيته أَرْوَاحَهُمْ إلا عيسى، لما صَحَّ أَنه رُفِع بجسده، وقد قيل في إدريس أَيضاً ذلك. وأَما الذين صَلُّوا معه في بيت المقدس فيحتمل الأَرواح خاصةً، ويؤيده ما في حديث أَبي هريرة رضي الله تعالى عنه، عند الحاكم والبيهقي، «فلقي أَرواح الأَنبياء»، وفيه دليل على تَشَكُّل الأَرواح

بصور أجسادها في علم الله تعالى، ويحتمل الأرواح بالأجساد ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم عن أنس رضي الله عنه عند البيهقي. وبعث الله له آدم فَمَنْ دُونَه من الأنبياء. وعند البَزَّار والطبراني: «فنُشِر لي الأنبياء، من سَمَّى اللهُ تعالى ومن لم يُسَمِّ، فصَلَّيْتُ بهم».

التنبيه العشرون: قول سيدنا إبراهيم ﷺ: «وأعطاني مُلْكاً عظيماً»: قال ابن دِحْيَة: لا يُعْهَد لإبراهيم مُلْك عُرْفي، فإما أن يُرَاد بالمُلْك الإضافة إليه نفسه وذلك لقهره لعظماء الملوك، وناهيك بالنمرود، وقد قهره الله تعالى لخليله وأعجزه عنه، وغاية المُلْك العظيم قهر المَلِك العظيم، فالقاهر أعظم من المقهور قطعاً. ويحتمل أن يُرَاد الإضافة إلى نَبِيِّه وذُرِّيَّته وذلك نحو مُلْك يوسف الصِّدِّيق ﷺ وهلم جَرّا كمُلْك داود وسليمان والكل من ولد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وفي التنزيل: ﴿فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٥٤] والإشارة هنا إلى ذُرِّيته. وإما أن يُرَاد مِلْكُ النفس في مَظِنَّةِ الاضطراب مثل مِلْكه لنفسه. وقد سأله جبريل فقال: أَلَكَ حاجة؟ فقال: أما إليكَ فلا.

التنبيه الحادي والعشرون: اختُلِف في تقديم الآنية هل هو قبل العروج أو بعده؟ واختُلِف في عددها فأكثر الروايات أنه كان قبله. روى أحمد والشيخان والنسائي والترمذي من حديث أنس عن مالك بن صعصعة رضي الله تعالى عنه: «ثم رُفِع إلى البيت المعمور»، إلى أن قال: «ثم أُتيت بإناءين: أحدهما خَمْر والآخر لَبَن»، وعند البخاري في الأشربة من طريق شُعْبَة عن قَتَادة عن أَنَس مرفوعاً: «رُفِعْتُ إلى سِدْرةِ المُنْتَهَى فإذا فيها أربعة أنهار» قال: «وأُتِيتُ بثلاثة أقداح»[1]. لم يذكر شُعْبَة في الإسناد مالك بن صَعْصَعَة. وعند ابن عائذ من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه في حديث المعراج بعد ذكر رؤيته إبراهيم في السماء السابعة: «ثم انطلقنا فإذا نحن بثلاثة آنية مُغَطَّاة».

قال السُّهَيْلي وابن دِحية وابن المنير وابن كثير والحافظ: «لعلَّه قُدِّم مَرَّتَين جَمْعاً بين الروايات». قال ابن كثير والحافظ: «وأَما الاختلاف في عدد الآنية وما فيها فيُحْمَل على أن بعض الرواة ذَكَرَ ما لم يَذْكُر الآخر، ومجموعها أربعة آنيَة فيها تُعْرَض الآنية مَرَّتَيْن وأربعة أشياء من الأنهار الأربعة التي تخرج من أصل سِدْرَة المنتهى».

التنبيه الثاني والعشرون: إذا قلنا بِعَرْض الآنية مرتين ففائدة عَرْض الخمر [مع] إعراضه عنها في المرة الأولى وتصويبِ جبريل له، تكثيرُ التصويب والتحذير. وهل كانت

---

(١) أخرجه البخاري ٧/١٩٨ كتاب الأشربة (٥٦١٠) أخرجه الحاكم في المستدرك ١/٨١ وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣١٨٤٦).

الخمر من خمر الجَنَّة أَو من جنس خَمْر الدنيا؟ فإن كان الأَول فَسَبَبُ تَجَنُّبِها صورتُها ومضاهاتها للخمر المُحَرَّمة، ويكون ذلك أَبلغ في الوَرَع. وإن كان الثاني فاجتنابُها واضح. وعلى التقدير الأَول يُسْتفاد منه فائدة: وهو أَن من وَضَع من الماء ونحوه من الأَشربة ما يُضَاهي الخمرَ في الصورة وهَيَّأَهُ بالهيئة التي يتعاطاها [بها] أَهل الشهوات من الاجتماعات والآلات فقد أَتى مُنْكرًا وإن كان لا يُحَدّ. وذكر أَصحابنا أَن إدارة كأْس الماء على شاربه تَشَبُّهاً بشارب الخمر حرامٌ، ويُعَزَّر فاعلُه.

التنبيه الثالث والعشرون: قال ابن دِحْيَة: اعلم أَن التَّخْيير قد يكون بين وَاجِبَيْن كخصال الكَفَّارة وقد يكون بين مُبَاحَيْن، وأَما التَّخْيير بين واجب وممنوع أَو مباح وممنوع فمستحيل، فانظر في إحضار اللبن والخمر، هل أُريد به الإباحة لهما والإذْن فيهما؟ كما لو أَحْضَرْتَ طعامَيْن لضيف وأَبَحْتَهُمَا له، فما معنى إختياره لأَحدهما؟ وما معنى قول جبريل: «اخْتَرْتَ الفِطْرَة» أو «أَصَبْتَ، أَصاب الله بك»؟ وإن كان المراد الإذن في أَحدهما لا بِعَيْنِهِ، بحيث يكون الآخر ممنوعاً لَزِمَ التَّخْيير بين ممنوع ومُبَاح، وذلك لا يُتَصَوَّر، والذي يرفع الإشكال إن شاء الله تعالى أَن يكون المراد تفويض الأَمر في تحريم ما يُحَرَّم منها وتحليل ما يَحِلّ إلى إجتهاد النبي ﷺ وَسَداد نظره المعصوم. فلما نظر فيها أَدّاه اجتهادُه إلى تحريم الخمر وتحليل اللبن، فوافق الصواب في علم الله تعالى، فقال له جبريل: «أَصَبْتَ»، وعلى تقدير أَلا تكون الخمر مُحَرَّمة لأَنها إنما حُرِّمت بالمدينة فيكون تَوَقِّيها وَرَعاً وتعريضاً بأَنها سَتُحَرَّم.

التنبيه الرابع والعشرون: قال أَبو الخَطَّاب الكلبي: «الفِطْرة تُطْلَق على الإسلام وتطلق على أَصل الخِلْقة، فمن الأَول قوله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»[(١)]. ومن الثاني قوله تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١]، أَي مبدئ خَلْقهما، وقول جبريل: «اخْتَرْتَ الفِطْرة» أَي اخْتَرْتَ اللبن الذي عليه بُنِيت الخِلْقة وبه يَنْبُت اللحم، أَو اخترتَه لأَنه الحلال الدائم في دين الإسلام، وأَما الخمر فحرام فيما يستقر عليه الأَمر، وقد تكون الإشارة بتقديم اللبن إلى أَن شعار العلم في التعبير، كما ورد أَنه عليه الصلاة والسلام قال: «رَأَيْتُ كأَني أُتيتُ بقدح من لبن فَشَرِبْتُ حتى أَرى الرِّيَّ يخرج من أَظفاري ثم ناولتُ فضلي عمر بن الخطاب»، قالوا: يا رسول الله ما أَوَّلْتَه؟ قال: «العلم»[(١)].

والإسراء وإن كان يقظة إلا ربما وقعت في اليقظة إشارة إلى حكم الفَأْل يُعَبَّر كما يُعَبَّر في المنام. ولهذا كان النبي ﷺ يحب الفَأْلَ الحَسَن، فكأَنه لما مُلِئَ قلبُه إيماناً وحكمةً أَردف

(١) أخرجه البخاري ١٢/٤١٠ (٧٠٠٦).

ذلك بالعلم مطلقاً، ويجعل الله تعالى ذلك اللبن سبباً في تَرَادُف العلم وأشجان القلب النبوي بأنوارها. وقال القرطبي: يحتمل أن يكون تسمية اللبن فطرة لكونه أَوَّلَ شيءٍ يدخل بطن المولود ويَشُقُّ أمعاءه، والسِّرّ في ميل النبي ﷺ إليه دون غيره لكونه مألوفاً له، ولأنه لا ينشأ عن جنسه مَفْسَدة، وافْهَمْ قَوْلَ جبريل «أَصَبْتَ»، فإن اختيار الخمر خَطَأٌ عُصِم منه النبي ﷺ، وكانت المسألة حينئذ اجتهادية لأن الخمر لم تكن حُرِّمت بعد، فقد وقع تخييره في مُلْك الله الأعظم.

التنبيه الخامس والعشرون: ظاهر قوله: «ثم أُتِي بالمعراج» أن العروج كان لا على البُراق وفي ذلك خلاف، فظاهر حديث مالك بن صعصعة أنه استمر على البراق حتى عُرِج به إلى السماء، وهو مقتضى كلام ابن أَبي جَمْرَة وابن دحية. قال الحافظ: «لكن في غير هذه الرواية من الأخبار أن العُروج لم يكن على البراق بل رقي في المعراج وهو السُّلَّم، ويؤيده قوله في حديث ثابت عن أنس كما في صحيح مسلم: «ثم أُتيت بالمعراج».

وقال الحافظ ابن كثير: «إنه لَمَّا فَرَغَ ﷺ من أَمْر بيت المقدس نُصِب له المعراج وهو السُّلَّم، فصَعَد فيه إلى السماء، ولم يكن الصعود على البُراق كما قد تَوَهَّمَه بعض الناس، بل كان البراق مربوطاً على باب مسجد بيت المقدس ليرجع عليه إلى مكة».

وقال الشيخ رحمه الله تعالى: «إنه الصحيح الذي تَقَرَّرَ من الأَحاديث الصحيحة».

التنبيه السادس والعشرون: نَوَّعَ ابنُ دِحْية المِعْراج إلى عَشْرة أنواع على عدد سني الهجرة، منها سبعة معاريج إلى السموات السبع، والمعراج الثامن إلى سِدْرة المنتهي والمعراج التاسع الذي سَمِع فيه صريفَ الأقلام في تصريف الأقدار، والمعراج العاشر إلى العرش والرَّفْرَف والرؤية وسيأتي ما أبداه من الحِكَم في ذلك.

التنبيه السابع والعشرون: ورد أَن بين الدرجة والدرجة في الجَنَّة خمسمائة عام وأن الدرجة تهبط كالإبل لِيَصْعَدَ عليها وَلِيُّ الله تعالى ثم تُرْفَع به إلى مكانها والظاهر أن دَرَجَ المعراج كذلك.

التنبيه الثامن والعشرون: لا يُتَوَهَّم بما تسمعه في قصة المعراج من الصعود والهبوط أن بين العَبْد وربِّه مسافة، فإن ذلك كُفْر، نَعُوذُ بالله من ذلك، وإنما هذا الصعود والهبوط بالنسبة إلى العبد لا إلى الرَّبّ، والنبي ﷺ مع انتهائه لَيْلَتَئِذٍ إلى أن كان قاب قوسين أو أدنى، لم يجاوز مقام العبودية، وكان هو ونَبِيُّ الله يونس بن مَتَّى ﷺ إذا التقمه الحوت وذهب به إلى البحار يَشقها حتى انتهى به إلى قرار البحر، في مُبَاينة الله تعالى خَلْقَه وعدم الجهة والتحيز والحَدّ والإحاطة سواء. وقد ذهب به مسيرة ستة آلاف سنة ذكره الإمام البغوي وغيره.

وإذا عَلِمْتَ ذلك فالمارد بترقِّيه ﷺ وقَطْع هذه المسافات إظهارُ مكانته عند أَهل

السموات وأنه أفضل المخلوقات. ويُقَوِّي هذا المراد بكونه أركبه البراق ونَصَب له المعراج وجعله إماماً للنبيين والملائكة، مع أنه تعالى قادرٌ على أن يرفعه بدون البراق والمعراج.

ويُقَال لأصحاب الجهة: إنما منعكم من اعتقاد الحق استبعادكم موجوداً إلا في جهة، فأَحَلْتُم ذلك. فأَخبِرُونا عن العَرْش والفَوْق هل ذلك قديم؟ أَو مُحْدَث؟ فإن قالوا قديماً جاهروا بقِدَم العالَم وأَدّى ذلك إلى مُحَالَيْن: أحدهما أن يكون مع الباري تعالى في الأَزَل غَيْرُهُ، والقديمان ليس أحدهما بأن يكون مكاناً للثاني بأَوْلَى من الآخر. ثانيهما أن الجهة والمكان إما أن يكونا جسْمَيْن، وهذا يُؤَدِّي إلى جواز وجود الأجساد كلها، وهو قول من قال بِقِدَم العالَم، نعوذ بالله من ذلك. وإن قالوا: مُحْدَث، قل فقد صَدَّقْتُم بأن الرَّبَّ تعالى كان موجوداً أولاً ولا جهة، والمستحيل [لا] ينقلب جائزاً أو واجباً لأن الحادث لا يحتاج إليه القديم، فإنه قَبْلَ كَوْنِه كان مستغنياً عنه، وهو على استغنائه عنه لم يَزَل وكذلك لا يزال، ومُحَالٌ أن يكون خالق الكل مُفْتَقِراً إلى بعض مخلوقاته. وما ورد من الاستواء والنزول وغير ذلك من الصفات التي يُشْكِل إجراؤها على ظاهرها، نُؤْمِن به ونَكِلُ عِلْمَ معناه إلى الله تعالى، ولا نُشبِهُهُ تعالى بِخَلْقِه ولا نَنْفِي الصفات التي أثبتها لنفسه وأثبتها له رسول الله ﷺ(١).

التنبيه التاسع والعشرون: نَقَل ابن دِحْيَة عن ابن حبيب، والحافظ عن ابن المنير عن ابن حبيب وأَقَرَّه: أن بين السماءِ والأرض بحراً يسمى المكفوف تكون بحار الدنيا بالنسبة إليه كالقَطْرة من المحيط، فعلى هذا يكون ذلك البحر انفلق لنبينا ﷺ فهو أعظم من انفلاق البحر لِمُوسَى عليه الصلاة والسلام.

التنبيه الثلاثون: في قدر ما بين السماءِ والأرض: روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وحَسَّنه، وابن خُزَيْمة في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال: «أتدرون كم بين السماءِ والأرض»؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة، وبين كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكِثْف كل سماء خمسمائة سنة، وفوق السماء السابعة بَحْرٌ من أعلاه وأسفله كما بين السماءِ والأرض ثم فوق ذلك ثمانية أوعال(٢) بين أظلافهن ورُكَبِهن مثل ما بيْنَ سماء إلى سماء وفوق ظهورهن العرْش وبين أعلاه وأسفله كما بين السماءِ والأرض ثم الله تعالى فوق ذلك.

وروى إسحق بن راهويه والبَزَّار بسند صحيح عن أبي ذَرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما بين السماءِ والأرض خمسمائة عام وغِلَظ كل سماء خمسمائة عام

---

(١) سقط في أ.

(٢) ثمانية أوعَال: أي ملائكة على صورة الأوْعَال. انظُر النِّهاية لابن الأثير ٥/٢٠٧.

كذلك إلى السماءِ السابعة، والأرضون مثل ذلك. وما بين السماءِ السابعة إلى العرش مثل جميع ذلك»[١].

وروى ابن جرير وابن المنير عن ابن مسعود وناسٌ من الصحابة رضي الله عنهم قالوا: إن الله عز وجل كان عَرْشُه على الماءِ لم يخلق شيئاً غير ما خلق، فلما أراد أن يخلق الخَلْق أخرج من الماءِ دخاناً فارتفع فوق الماءِ فَسَمَا عليه فسمَّاه سَمَاءً، ثم أيْبَس الماء فجعله أرضاً واحدة، ثم فَتَقَهَا فجعلها سَبْعَ أرْضين في يومين: الأَحد والاثنين، فخلق الأَرض على الحوت، وهو الذي ذكره الله تعالى في قوله﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، والحوت في الماءِ والماءِ على ظهر صفاة والصفاة على ظهر مَلَك والمَلَك على صخرة والصخرة على الريح، وهي الصخرة التي ذكر لقمان ليست في السماءِ ولا في الأَرض، فتَحَرَّك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأَرض فأَرسى عليها الجبال فَقَرَّتْ وخلق الجبال فيها وأَقوات أَهلها وشجرها وما ينبغي لها في يومين: الثلاثاء والأَربعاء، ثم استوى إلى السماءِ وهي دُخَان، والدُّخَان من تَنَفُّس الماء حين تَنَفَّس فجعلها سماء واحدة ثم فَتَقها فجعلها سبع سموات في يومين: الخميس والجمعة وإنما سُمِّي الجمعة لأَنه جمع فيه خَلْقَ السموات والأَرض وأَوْحَى في كل سماء أَمْرَها أَي خَلَق خَلْقَها من الملائكة والخَلْق الذي فيهما من البحار والجبال والبرد وما لا يُعْلَم، ثم زَيَّن السماءِ الدنيا بالكواكب، فجعلها زينة وحِفْظاً من الشياطين.

وروى ابن أَبي حاتم عن جبير بن مُطْعِم رضي الله عنه قال: «إن الله تعالى على عَرْشِه وعَرْشُه على سمواته، وسمواته على أَرضه هكذا»، وقال بأَصبعه: «مثل القُبَّة» وروى ابن حاتم عن القاسم بن أَبي بَزَّة ـ بالزاي المعجمة ـ قال: «ليس السماء مُرَبَّعة ولكنها مَقْبُوَّة يراها الناس خضراء» وروى ابن راهويه والطبراني في الأَوسط، وابن المُنْذِر، وابن أَبي حاتم عن الربيع بن أَنَس قال: «السماء الدنيا مَوْجٌ مكفوف والسماءُ الثانية زُمُرُّدة بيضاء والثالثة حديد والرابعة نُحاس والخامسة فِضَّة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة حمراء»، زاد ابن أَبي حاتم: «وما فوق ذلك صحاري من نور، ولا يعلم ما فوق ذلك إلا الله تعالى ومَلَكٌ هو مُوَكَّلٌ بالحُجُب يقال له ميطاطروس». وروى أَبو الشيخ وابن أَبي حاتم عن كعب قال: «السماء أَشَدُّ بياضاً من اللبن واخْضَرَّت من خُضْرَة جبل قاف».

شرح الغريب

«الموج» ـ بميم فواو فجيم ـ ما ارتفع من فوران الماء. «المكفوف» ـ بميم

(١) ذكره السيوطي في الدر ٤٣/١ وعزاه لاسحاق بن راهويه في مسنده والبزار وأبي الشيخ في العظمة وابْن مردويه والبيهقي.

فكاف بفاءين بينهما واو ـ المحبوس.

التنبيه الحادي والثلاثون: استفتاح جبريل باب السماء يُحْتَمل أن يكون بقرْع أو صَوْت. قال الحافظ: «والأشبه الأول لأنه صوت معروف». قلتُ: في حديث ثابت البُنَاني عن أنس رضي الله عنه: «فَقَرَع الباب». قال ابن دحية: وفي استفتاح جبريل لأبواب السماءِ دليلٌ على أنه صادف أبوابها مُغْلَقة، وإنما لم تُهَيَّأْ للنبي ﷺ بالفتح قبل مجيئه، وإن كان أبلغ في الإكرام، لأنه لو رآها مُفَتَّحة لظَنّ أنها لا تزال كذلك، ففُعِل ذلك لِيَعْلَم أن ذلك فُعِل من أجْله، وأن الله تعالى أراد أن يُطْلِعَهُ على كَوْنِه معروفاً عند أهل السموات، وقول أمين الوحي لما قيل له: من هذا؟ «جبريل»: سَمَّى نفسه لئلا يَلْتَبِسَ بغيره ولا يحتاج إلى موقف لِلْمُرَاجَعَة في المَرَّة،فإنه معهود عندهم نزولُه وصعودُه ولذلك قَدَّم اسمه لأنه الرسول بإحضار النبي ﷺ.

واستنبط ابن دحية وتبعه ابن المنير من قول المَلَك: «مرحباً» إلى آخره، جواز رَدّ السلام بغير لفظه. وتَعَقَّبا بأن قول المَلَك: مرحباً، ليس رَدَّ السلام، فإنه كان قبل أن يُفْتَح الباب، والسياق يُرْشِد إليه. وقد نَبَّه على ذلك ابنَ أبي جَمْرَة. ووقع في رواية أن جبريل قال له عند كل نَبِيّ: «سَلِّمْ عليه»، فرَدَّ عليه السلام.

التنبيه الثاني والثلاثون: ينبغي للمُسْتَأْذِن إذا قيل له هذا أن يُسَمّي نَفْسَه فيقول: محمد الشامي مثلاً، ولا يقتصر على قوله: محمد، مثلاً، لأن المُسَمَّى بمحمد كثير، فيشتبه عليه، ولا يقول: «أنا» فإن جبريل ههنا لم يقل: «أنا»، بل سَمَّى نفسه، ولم يَرِد أن أحداً من الملائكة سُمَّى جبريل غير أمين الله تعالى على وَحْيِه. وأنكر النبي ﷺ على الذي استأْذن عليه فقال: «من هذا؟» فجعل يقول: «أنا» فقال النبي ﷺ: أنا أنا إنكاراً لذلك[1]. وكُرِهت هذه اللفظة لِوَجْهَيْن: أحدهما أن فيها إشعاراً بالعظمة. وفي الكلام السائر أول من قال: أنا إبليس فشَقِيَ حيث قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾،[الأعراف: ١٢]، وتَعِس فرعون حيث قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ [النزعات: ٢٤] والثاني أنها مُبْهَمَة لافتقار الضمير إلى العَوْد، فهي غير كافية في البيان، والضمير إذا عاد وتَعَيَّن مُضْمَرهُ كان أعْرَف المعارف، والمُسْتَأْذِن محجوب عن المُسْتَأْذَنِ عليه غَيرُ مُتَعَيِّن عنده فكأنه أحاله على جهالة.

التنبيه الثالث والثلاثون: قَوْلُ الخازن: «وقد بُعِث إليه؟» أراد الاستفهام فحذف الهمزة للعلم بها أي: «أوَ قد بُعِث إليه؟» قال العلماء: ليس هذا الاستفهام عن البَعْثَ الذي هو الرسالة لأنه كان مشهوراً في الملكوت الأعلى، بل البعث للمعراج، وقيل: بل سألوا تعجباً من

(١) أخرجه البخاري ٣٧/١١ (٦٢٥٠).

نعمة الله تعالى بذلك أَو استبشاراً به، وقد علموا أَن بَشَراً لا يَتَرَقَّى هذا الترقي إِلا بإِذن الله تعالى وأَن جبريل لا يصعد بمن لا يُرْسَل إِليه. وقول الخازن: «من معك؟» يُشْعِر أَنَّهم أَحَسُّوا معه برفيق وإِلا لكان السؤال: «أَمَعَكَ أَحد؟» وذلك الإِحساس إِما بمشاهدة لِكَوْن السماء شَفَّافة، وإِما لأَمر معنوي بزيادة أَنوار، ولَزِمَ من البَعْث إِليه ﷺ الإِذْن في إِزالة الموانع وفتح أَبواب السماء. ولم يتوقَّف الخازن على أَن يُوحَى إِليه بالفتح، لأَنه لَزِم عنده من البَعْث الإِذْن، وفي قول الخازن: «مَرْحباً به» إِلى آخره ما يدل على أن الحاشية إِذا فهموا من سيدهم عَزْماً لإِكرام وافد أَن يُبَشِّروه بذلك وإِن لم يأذن لهم فيه، ولا يكون في ذلك إِفشاء للسِّر، لأَن الخازن أَعلم النبي ﷺ حال استدعائه أَنه استدعاء إِكرام وإِعظام، فعَجَّل بالبُشْرى والفراسة الصادقة عند أَهلها وفي محلها يحصل [بها] العلم كما يحصله الوحي، ولم يخاطبه الخازن بصيغة الخطاب فيقول: «مرحباً بك» وإِنما أَراد التحية بصيغة الغيبة، والسِّرُّ في ذلك أَنه حَيَّاه قبل أَن يفتح الباب وقبل أَن يصدر من النبي ﷺ خطاب، ولهذا قال المَلَك لجبريل: «ومن معك؟» فخاطبه بصيغة الخطاب، لأَن جبريل خاطب الملك، فارتفع حكم الغيبة بالتخاطب من الجانبين، ويجوز أَن يكون حَيَّاه بغير صيغة الخطاب تعظيماً له لأَن هاء الغيبة ربما كانت أَفخم من كاف الخطاب.

التنبيه الرابع والثلاثون: قول جبريل حين سُئِل: «مَنْ معه» فقال: «محمد»، دليلٌ على أَن الاسم أَرفع من الكُنْيَة لأَنه أَخبر باسمه ولم يُخْبر بكنيته، وهو عليه الصلاة والسلام مشهور في العالَمِيْن العلوي والسفلي، فلو كانت الكُنْيَة أَشرف من الاسم لأَخبر بها.

التنبيه الخامس والثلاثون: قال ابن أَبي جمرة: «استفهام الملائكة»: «وقد أُرْسِل إِليه؟» دليل على أَن أَهل العالم العلوي يعرفون رسالته ومكانته لأَنهم سأَلوا عن وقتها: هل جاء؟ لا عنها، ولذلك أَجابوا بقولهم: «مرحباً ونعم المجيء جاء» وكلامهم بهذه الصيغة أَدَلُّ دليل على ما ذكرناه من معرفتهم بجلالة مكانته وتحقيق رسالته لأَن هذا أَجَلّ ما يكون من حسن الخطاب، والترفيع على المعروف من عادة العرب. وقد قال العلماء في معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَـاتِ رَبِّـهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٨] إِنه رأَى صورة ذاته المباركة في الملكوت فإِذا هو عروس المملكة».

التنبيه السادس والثلاثون: وقع في رواية أَنَس ومن رواية أَبي ذَرّ رضي الله عنهما: «قلتُ لجبريل: مَنْ هذا؟ قال: أَبوك آدم». وظاهره أَنه سأَل عنه بعد أَن قال له آدم: «مَرْحَباً». ورواية مالك بن صَعْصَعَة بعكس ذلك، وهي المُعْتَمَدة، فتُحْمَل هذه عليها، وليس في رواية أَبي ذَرّ ترتيب. وفي قول آدم: «مَرْحباً بالابن الصالح»، إِشارة إِلى افتخاره بأُبُوَّته للنبي ﷺ.

وظاهر قوله في رواية آدم: «تُعْرَض عليه أَرواح ذُرِّيته» إلى آخره أَن أَرواح بني آدم من أَهل الجنة والنار في السماء. قال القاضي: «وهو مُشْكِل، فقد جاء أَن أَرواح المؤمنين مُنَعَّمة في الجنة وأَن أَرواح الكُفَّار في سِجِّين، فكيف تكون مجتمعة في السماء؟ وأَجاب بأَنه يُحْتَمَل أَنها تُعْرَض أَوقاتاً فصادف وقت عَرْضها مرور النبي ﷺ، ويدل على أَن كونهم في النار في أَوقات دون أَوقات قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِياً﴾، [غافر: ٣] واعْتُرِض بأَن أَرواح الكفار لا تُفْتَح لهم أَبواب السماء كما هو نص القرآن»، والجواب ما أَبداه القاضي احتمالاً أَن الجنة كانت في جهة يمين آدم والنار كانت في جهة شماله وكان يُكْشَف له عنهما.

وقال الحافظ: «ويُحْتَمَل أَن النَّسَم المَرْئية هي التي لم تدخل الأَجساد بعد وهي مخلوقة قبل الأَجساد ومستقرها عن يمين آدم وشِمَاله، وقد أُعْلِم بما سيصيرون إِليه فلذلك كان يستبشِر إِذا نظر إِلى من على يمينه ويحزن إِذا نظر إِلى من على يساره، بخلاف التي في الأَجساد فليست مُرَادَة قطعاً وبخلاف التي نُقِلت من الأَجساد إِلى مستقرها من الجنة أَو النار فليست مُرَادَة أَيضاً فيما يظهر، وبهذا يندفع الإِيراد، ويعرف أَن قوله: «نَسَمُ بنيه» عام مخصوص أَو أُريد به الخصوص». انتهى.

وقال في الفتح في باب المعراج: «وظهر لي الآن احتمالٌ آخر وهو أَن يكون المراد من «خَرَجتْ من الأَجساد لا أَنها مستقرة ولا يلزم من رؤية آدم لها وهو في السماءِ الدنيا أَن تُفْتَح لها أَبواب السماء ولا أَن تَلِجَها، ويؤيد هذا ما رواه ابن إِسحاق: فإِذا أَنا بآدم تُعرَض عليه أَرواح ذريته المؤمنين فيقول: روحٌ طَيِّبة ونَفْسٌ طيِّبة اجعلوها في عِلِّيِّين، ثم تُعْرَض عليه أَرواح ذريته الفُجَّار فيقول: روحٌ خبيثة ونَفْسٌ خبيثة اجعلوها في سِجِّين. وفي حديث أَبي هريرة: فإِذا عن يمينه باب يخرج منه ريحٌ طيبة وعن شِماله باب يخرج منه ريحٌ خبيثة، فهذا لو صَحَّ لكان المصير إِليه أَولى من جميع ما تقدم ولكن سنده ضعيف وظاهرها عدم اللزوم المتقدم» انتهى.

وقال السهيلي: «فإِن قيل كيف رأَى عن يمينه أَصحاب اليمين؟ ولم يكن إِذا ذاك منهم إِلا نفر قليل، ولعله لم يكن مات تلك الليلة منهم أَحد، وظاهر الحديث يقتضي أَنهم كانوا جماعة، والجواب أَن يُقال: إِن كان الإِسراءُ رؤيا بقلبه فتأْويلها أَن ذلك سيكون وإِن كانت رؤيا عَيْن فمعناها أَن أَرواح المؤمنين رآها هنالك لأَن الله يَتَوَفَّى الخَلْق في منامهم كما قال في التنزيل ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرى إِلى أَجَلٍ مُسَمّىً﴾ [الزمر: ٤٢] «فَصَعِدَ بالأَرواح إِلى هنالك ثم أُعِيدت إِلى أَجسادها».

وقال ابن دِحْية: «فإِن قيل: كيف تكون نَسَم السُّعَداء كلهم في السماء، وقد كان حين الإِسراء جماعة من الصحابة رضي الله عنهم في الأَرض وهم من السعداء؟ فالجواب: أَن آدم

إنما رآهم في مواضعهم ومقارّهم في الأَرض، ولكنه يراهم من الجانب الأَيمن فالتقييد للنظر لا للمنظور».

وفي قول جبريل للنبي ﷺ: «هذا أَبوك آدم فَسلِّم عليه» ما يقتضي أَن القادم يبدأُ بالسلام على المُقِيم.

التنبيه السابع والثلاثون: وقع في رواية شريك: «فإِذا هو في السماءِ الدنيا بنَهْرَيْن يَطَّرِدان ـ أَي يجريان ـ النيل والفُرات، ويُجْمَع مُنْصَرفُهما» ـ أَي أَصلهما. وظاهر هذا يخالف حديث مالك بن صَعْصَعَة فإِن فيه بعد ذِكْر سِدْرة المنتهى: «فإِذا أَصْلُها أَربعة»، فذكر منها النيل والفرات، ويُجْمَع بينهما بأَن أَصل منبعهما من تحت سدرة المنتهى ومقرهما في السماء الدنيا ومنها ينزلان إِلى الأَرض.

التنبيه الثامن والثلاثون: وَقَع في رواية شريك أَيضاً: «ثم مضى النبي ﷺ في السماء الدنيا فإِذا هو بنهر آخر عليه قصور من لؤلؤ وزبرجد، فضرب يده فيه فإِذا طينُه مِسْكٌ أَذْفَر فقال: **يا جبريل ما هذا؟** قال: هذا الكوثر الذي خَبَأَ لك رَبُّك، وهذا مما استُشْكِل في رواية شريك، فإِن الكوثر في الجنة وإِن الجنة في السماء السابعة. وقد روى الإِمام أَحمد عن طريق حُمَيْد الطويل عن أَنس، رَفَعَهُ: «دخلتُ الجنة فإِذا بنهر حافتاه خيام اللؤلؤ، فضربتُ بيدي في مجرى مائه فإِذا هو مِسْك أَذفر». فقال جبريل: «هذا الكوثر الذي أعطاك الله تعالى». وأَصل هذا الحديث عند البخاري بنحوه، وأَخرجه في التفسير عن قتادة عن أَنس رضي الله عنه، ولكن ليس فيه ذِكْرُ الجنة. ورواه أَبو داود من طريق سليمان التيمي عن قتادة ولفظه: «لما عُرِج بنبي الله ﷺ عَرَض له في الجنة نهر»، قال الحافظ: ويمكن أَن يكون في هذا الموضوع شيء تقديره: ثم مضى به في السماء الدنيا إِلى السماء [السابعة] فإِذا هو بنهر، قال تلميذه الحافظ قطب الدين الخيضري في الخصائص: «وهذا بعيد إذ بينه وبين السماءِ السابعة خمس سماوات أُخرى وكل منها له صفة خلاف صفة الأُخرى ولها أَبواب وخُدَّام غير الأُخرى، فإِطلاق المسير إِليها وذكرها بعد السادسة مما يبعده أَيضاً، ولكن يقال من غير استبعاد: إِن أَصلَ النهر ـ الذي هو الكوثر ـ في الجنة، وجعل الله تعالى منه فرعاً في السماءِ الدنيا عَجَّل لنبيه ﷺ رُؤْيَته استبشاراً لأَنها أَول المراتب العلوية، ويؤيد هذا قول جبريل: «خَبَأَ لك رَبُّك». انتهى.

التنبيه التاسع والثلاثون: في قول آدم: «مرحباً بالابن الصالح والنبي الصالح»، ثناءٌ جميل جليل للنبي ﷺ، ووصفه بالصلاح مكرراً مع النبوة، أَي صالح مع النبيين جميعاً، وفيه تنويه بفضيلة الصلاح وعلو درجته، ولهذا وُصِف النبي ﷺ. قال بعضهم: وصلاح الأَنبياء صلاحٌ خاصّ لا يتناول عموم الصالحين. واحْتُجَّ على ذلك بأَنه قد تَمَنَّى كثير من الأَنبياء أَن يلحق بالصالحين، ولا يَتَمَنَّى الأَعلى أَن يلحق بالأَدنى، ولا خِلاف في أَن النبوة أَعلى من

صلاح الصالحين من الأُمم. وبهذا تحقق أن الصلاح المضاف إلى الأنبياء غير الصلاح المضاف إلى الأمم، فصلاح الأنبياء صلاح كامل لأنه يزول بهم كل فساد، فلهم كل صلاح ومَنْ دونهم الأَمثل فالأَمثل، فكل واحد يستحق اسم الصلاح على قدر ما زال به أَو منه من الفساد، واقتصر الأَنبياء صلوات الله وسلامه عليهم على وصفه ﷺ بالصلاح وتواردوا على ذلك لأَن الصلاح يشمل خصال الخير، ولذلك كررها كل منهم عند وَصْفه.

والصالح هو الذي يقوم بما يلزمه من حقوق الله تعالى وحقوق العباد، فمن ثَمَّ كانت كلمةً جامعة مانعة شاملة لسائر الخصال المحمودة، ولم يقل له أَحد: مرحباً بالنبي الصادق ولا بالنبي الأَمين لِمَا ذكرنا من أَن الصلاح شامل لسائر أَنواع الخير.

التنبيه الأَربعون: إنما رأَى أَكَلَةَ الربا مُنْتَفِخَةً بطونهم لأَن العقوبة مشاكلة للذنب، فآكل الربا يربو بطنُه كما أَراد أَن يَرْبُوَ مالُه بأَكل ما حُرِّم عليه فَمُحِقَتْ البركة من ماله وجُعِلت نَفْخاً في بطنه حتى يقوم **﴿كَمَا يَقُومُ الَّذِي يتخبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ المَسّ﴾**. وإنما جُعِلوا بطريق آل فِرْعَوْن يَمُرّون عليهم غُدُوًّا وعَشِيّاً، لأَن آل فرعون هم أَشدُّ الناس عذاباً فضلاً عن غيرهم من الكُفّار، وهم لا يستطيعون القيام. ومعنى كَوْنِهم في طريق جهنّم بحيث يُمَرّ بالكفار عليهم أَن الله سبحانه وتعالى قد أَوْقَف أَمْرَهم بين أَن ينتهوا فيكون خيراً لهم وبين أَن يعودوا ويُصِرُّوا فيُدْخِلهم النار، وهذه صفة مَنْ هو في طريق النار، قال الله تعالى: **﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾** [البقرة: ٢٧٥] وفي بعض الأَحاديث أَنه رأَى بطونهم كالبيوت يعني أَكَلَة الربا، وفيها حَيّات تُرَى من خارج البطون.

التنبيه الحادي والأَربعون: فإن قيل: هذه الأَحوال التي ذكرها عن أَكَلَة الربا، إن كانت عبارة عن حالهم في الآخرة، فآل فرعون قد أُدْخِلوا أَشَدَّ العذاب وإنما يُعْرَضون على النار غُدُوّاً وعَشِيّاً في البرزخ، وإن كانت الحال التي رآهم عليها فأَيُّ بطونٍ لهم وقد صاروا عِظاماً ورُفَاتاً ومُزِّقوا كل مُمَزَّق؟ فالجواب أَنه إنما رآهم في البرزخ، وهذه الحال هي حال أَرواحهم بعد الموت. وفيها تصحيحٌ لمن قال: الأَرواح أَجساد لطيفة قابلة للنعيم والعذاب، فخلق الله تعالى في تلك الأَرواح من الآلام ما يَجِدُه من انتفخ بطنُه حتى وُطِئ بالأَقدام ولا يستطيع معه قياماً. وليس في هذا دليل على أَنهم أَشدّ عذاباً من آل فرعون، ولكن فيه دليل على أَنه يطؤهم آلُ فرعون وغَيْرُهم من الكفار الذين لم يأْكلوا الربا، ما داموا في البرزخ إلى أَن يقوموا يوم القيامة كما يقوم الذي يتخبّطه الشيطان من المَسّ، ثم ينادي منادي الله تعالى **﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذَابِ﴾** [غافر: ٤٦]. وكذلك ما رأَى من النساء المُعَلَّقات

بثُدِيِّهن يجوز أن يكون رأى أرواحَهُنّ وقد خُلِق من الآلام ما يَجدُه من هذه حالُه، ويُحتَمَل أيضاً أن يكون مُثِّلَت له حالهُنَّ في الآخرة.

التنبيه الثاني والأربعون: ذِكْرُه لإدريس في السماء الرابعة مع قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مريم: ٥٧]، مع أنه قد رأى موسى وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما في مكان أعلى من مكان إدريس، فذلك - والله تعالى أعلم - لِمَا ذُكِر عن كعب الأحبار أن إدريس خُصَّ من بين جميع الأنبياء بأنه رُفِع قبل وفاته إلى السماء الرابعة، رَفَعه مَلَكٌ كان صديقاً له وهو المَلَك المُوَكَّل بالشمس. وكان إدريس سأله أن يُرِيَه الجنة فأَذِنَ له الله في ذلك، فلما كان في السماء الرابعة رآه هنالك مَلَك الموت فتعجب وقال: أُمِرْتُ أن أقبض روح إدريس الساعة في السماء الرابعة فقبضه هنالك، فرفعه حَيّاً إلى ذلك المكان العَلِيّ الذي خُصَّ به دون سائر الأنبياء، قاله السهيلي.

وتقدم الكلام في النسب النبوي على قوله: «مرحباً بالأخ الصالح».

التنبيه الثالث والأربعون: قال العلماء: «لم يكن بكاء موسى حَسَداً، معاذَ الله، فإن الحَسَد في ذلك العَالَم منزوع عن آحاد المؤمنين، فكيف بمن اصطفاهم الله تعالى، بل كان أَسفاً على ما فاته من الأجر الذي يترتَّب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أُمته من كثرة المخالفة المُقْتَضِيَة لتنقيص أُجورهم والمُسْتَلْزِمة لتنقيص أَجْرِه، لأن لكل نبيٍّ أَجْرَ مَنْ تَبِعه، ولهذا كان من اتَّبعه في العدد دون من اتَّبَع نَبِيّاً ﷺ مع طول مدتهم بالنسبة لمدة هذه الأُمة. وقال ابن أبي جَمْرَة: «قد جعل الله تعالى في قلوب أنبيائه عليهم الصلاة والسلام الرحمة والرأفة لأمتهم، وقد بكى النبي ﷺ، فسئل عن بكائه فقال: «هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[١]. والأنبياء عليهم الصلاة والسلام قد أخذوا من رحمة الله تعالى أوفر نصيب، فكانت الرحمة في قلوبهم لعباد الله أكثر من غيرهم. فلأجل ما كان لموسى عليه الصلاة والسلام من الرحمة واللطف بكى إذ ذاك رحمةً منه لأُمته لأن هذا وقت إفضالٍ وجودٍ وكرم. فَرَجا لعله يكون وقت القبول والإفضال فيرحم الله تعالى أُمتَه ببركة هذه الساعة. فإن قيل: كيف يكون هذا وأُمته لا تخلو من قسمين: قسم مات على الإيمان، وقسم مات على الكفر فالذي مات على الإيمان لا بُدَّ له من دخول الجنة والذي مات على الكفر لا يدخل الجنة أبداً، فبكاؤه لأجل ما ذكرتم لا يسوغ إذ أن الحكم فيه قد مَرَّ ونَفَذ. قيل في الجواب: وكذلك قَدَّر الله عزّ وجل قَدَرَه على قسمين، كما شاءت حكمته، فقدَّرَ قَدَراً وقدَّرَ أن يَنْفُذ على كل الأحوال وقَدَّر قَدَراً وقَدَّر ألا يَنْفُذ، ويكون وقوعه بسبب دعاءٍ أو صَدَقَة أو غير ذلك».

(١) أخرجه البخاري ٢/١٠٠ ومسلم في كتاب الجنائز (١١).

ومثاله دعاءُ النبي ﷺ بالدعوات الثلاث لأُمته وهي: أَلاَّ يظهر عليهم عدوّ من غيرهم، وأَلاَّ يُهْلِكَهُم بالسنين، فأُعْطِيهما ودعا بأَلاَّ يجعل بأْسهم بينهم، فاستُجيب في الاثنتين ولم يُسْتَجَب له في الثالثة، وقيل له: هذا أَمْرٌ قَدَّرْته أَي أَنفذتُه[١]، فكانت الاثنتان من القَدَر الذي قَدَّره الله تعالى وقَدَّر أَلاَّ يُنْفِذَه بسبب الدعاء وكانت دعوته الثالثة من القَدَر الذي قَدَّره الله تعالى وقَدَّر إِنفاذه على كل الأَحوال لا يرُدُّه رادّ. وسيأْتي لهذا مزيد إِيضاح.

»فلأَجْل ما رُكِّب في موسى عليه الصلاة والسلام من اللطف والرحمة بالأُمة طَمِع لعل أَن يكون ما اتفق لأُمته من القَدَر الذي قَدَّره الله تعالى وقَدَّر ارتفاعَه بسبب الدعاء والتَّضَرُّع. وهذا وقت يُرْجَى فيه التعطف والإِحسان من الله تعالى لأَنه وقت أُسْرِيَ فيه بالحبيب ليخلَع عليه خِلَعَ القُرْب والفضل العميم، فطَمِع الكليم لعل أَن يُلْحِق لأُمته نصيباً».

وبوجه آخر وهو البشارة للنبي ﷺ وإِدخال السرور عليه يشهد لذلك بكاؤه حين ولَّى النبي ﷺ وقَبْلَ أَن يبعد عنه لكي يسمعه، لأَنه لو كان البكاء خاصاً بموسى لم يكن ليبكي حتى يبعد عنه النبي ﷺ فلا يسمعه لأَن البكاء والنبي ﷺ يسمع، فيه شيء من التهوين عليه. فلما أَن كان المراد بذلك ما يصدر عن البشارة له ﷺ بسبب البكاء بكى والنبي ﷺ يسمعه، والبشارة التي يَتَضَمَّنها البكاء هي قول موسى عليه الصلاة والسلام لِلَّذِي هو أَكثر الأَنبياء اتباعاً: «إِن الذي يدخل الجنة من أُمة محمد أَكثر ممن يدخلها من أُمّتي».

«وقد وقع من موسى عليه السلام من العناية بهذه الأُمة في أَمر الصلاة ما لم يقع لغيره ووقعت الإِشارة لذلك في حديث أَبي هريرة رضي الله عنه، موفوعاً: «كان موسى أَشدَّهم عليَّ حين مَرَرْتُ به وخَيْرَهم حين رَجَعْتُ إِليه». وفي حديث أَبي سعيد: فأَقبلت راجعاً فَمَرَرْتُ بموسى ونِعْمَ الصاحب كان لكم».

التنبيه الرابع والأَربعون: قول موسى عليه الصلاة والسلام: «لأَن غلاماً..» ليس على سبيل التَّنقُّص بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كَرَمه، إِذ أَعطى نبينا ﷺ في ذلك السّنّ ما لم يُعْطِه أَحداً قَبْلَه مِمَّن هو أَسَنّ منه.

وقال الخَطَّابي: العَرَب تسمي الرجل المُسْتَجْمِع السِّنّ: غُلاماً ما دامت فيه بَقيَّة من القوة [في الكهولة] وقال ابن أَبي جَمْرَة: العَرَب إِنما يُطْلِقون على المرء غلاماً إِذا كان سَيِّداً فيهم. فلأَجل ما في هذا اللفظ من الاختصاص على غيره من أَلفاظ الأَفضلية ذكره موسى دون غيره تعظيماً للنبي ﷺ. قال الحافظ: ويظهر أَن موسى عليه السلام أَشار إِلى ما أَنعم الله

---

(١) أخرجه مسلم ٢٢١٦/٤ (٢٠- ٢٨٩٠).

به على نبينا عليه السلام من استمرار القوة في الكهولة إلى أن دخل في سِنّ الشيخوخة ولم يدخل على بدنه هَرَم ولا عَرَا قُوَّته نَقْصٌ، حتى أن الناس لما رَأَوْه مُرْدِفاً أبا بكر عند قدومه المدينة أطلقوا عليه اسم الشاب وعلى أبي بكر اسم الشيخ مع كونه عليه السلام في العُمُر أَسَنّ من أبي بكر.

التنبيه الخامس والأربعون: قول موسى: «رب لم أَظُنّ أَن تَرْفَعَ عَلَيَّ أَحَداً ـ بفتح المُثَنَّاة الفوقية و«أَحداً» بالنَّصْب، ورواته في الصحيح بضم المُثَنَّاة التحتية و«أَحَدٌ» بالرفع. قال ابن بَطَّال: «فهم موسى عليه الصلاة والسلام من اختصاصه بكلام الله تعالى في الدنيا دون غيره من البشر لقوله تعالى: ﴿إِنّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] أن المراد بالناس هنا البَشَر كلهم، وأنه استحق بذلك ألا يُرْفَع عليه أَحَدٌ، فلما فَضَّل الله تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام من المقام المحمود وغيره ارتفع على موسى وغيره بذلك.

التنبيه السادس والأربعون: قال ابن أبي جَمْرة: الظاهر أن القائل لموسى: «ما أبكاك»؟ هو الباري تبارك وتعالى، يدل على ذلك قوله في الجواب: «رَبِّ [هذا غلامٌ بعثتَه من بعدي، يَدْخُل من أمته الجنة أكثر مما يَدْخُل من أُمتي»].

التنبيه السابع والأربعون: أكثر الروايات على أن موسى عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة بتفضيل الله تعالى، وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿إِنّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ وهذا يدل على أن شريكاً ضَبَطَ كَوْنَ موسى في السابعة، وحديث أبي ذَرّ يوافقه فإن فيه [فيما رواه ابن شهاب الزهري عن أنس بن مالك قال: «فذكر أنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم] ولم يثبت منازلهم، غير أنه ذكر أنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة». فإن قلنا بالتعدد فلا إشكال ومع عَدَمه فقد يُجْمَع بأن موسى كان حالة العروج في السماء السادسة وإبراهيم في السماء السابعة على ظاهر حديث مالك بن صعْصَعَة وعند الهبوط كان موسى في السابعة، لأنه لم يُذْكَر في القصة أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كَلَّمه في شيء مما يتعلَّق بما فُرِض على أُمته من الصلاة كما كَلَّمه موسى عليه السلام والسماء السابعة هي أول شيء انتهى إليه حالة الهبوط، فناسب أن يكون موسى بها لأنه هو الذي خاطبه في ذلك كما ثبت في جميع الروايات ويُحْتَمل أن يكون لقي موسى في السادسة فأُصْعِد معه إلى السماء السابعة تفضيلاً له على غيره من أجل كلام الله تعالى وظهرت فائدة ذلك في كلامه مع نبينا فيما يتعلق بأمر أُمته في الصلاة.

التنبيه الثامن والأربعون: وقع في رواية شريك عن أنس رضي الله عنه أن كل سماء فيها أنبياء قد سَمَّاهم «فوَعَيْتُ منهم إدريس في السماء الثانية وهارون في السماء الرابعة وآخر

في الخامسة لم أَحفظ اسمَه، وإبراهيم في السادسة وموسى في السابعة». وفي رواية أَنس عن أَبي ذَرّ رضي الله عنهما قال: «فذكر أَنه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وابراهيم»، ولم يثبت منازلهم، غير أَنه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة». انتهى. وهذا موافق لرواية شريك في إبراهيم، وهما مخالفان لرواية قَتَادة عن أَنس عن مالك بن صَعْصَعَة، والأَكثر وافقوه، وسياقه يَدُلّ على رُجْحان روايته، فإنه ضَبَط اسم كل نبي والسماء التي هو فيها، ووافقه ثابت البُنَاني عن أَنس، كما هو عند مسلم فقال في روايته: «ثم صَعِد بي حتى أَتى السماء الثانية وفيها فإذا بيحيى وعيسى وهما ابنا خالة»، وذكر في الثالثة يوسف وفي الرابعة إدريس وفي الخامسة هارون وفي السادسة موسى وفي السابعة إبراهيم، وفي سياق الزُّهري في روايته ن أَنَس عن أَبي ذَرّ أَنه لم يُثْبِت أَسماءهم، وسياق شريك فيه أَنه لم يَضْبِط منازلهم.

ولا شك أَن رواية مَنْ ضَبَط أَوْلى، ولاسيما مع اتفاق قتادة وثابت وقد وافقهما يزيد بن أَبي مالك عن أَنس إلا أَنه خالف في إدريس وهارون، فقال: هارون في الرابعة وإدريس في الخامسة، ووافقهم أَبو سعيد الخُدْري رضي الله عنه، في رواية إلا أَنه قال: «رأَى يوسف في الثانية وعيسى ويحيى في الثالثة». قلت: والأَول أَثبت، وأَما إبراهيم فالأَرجح من الروايات أَنه في السماء السابعة لقوله فيها: إنه رآه مُسْنِداً ظَهْرَه إلى البيت المعمور، وهو في السابعة بلا خلاف.

وأَما «ما جاء عن عليّ رضي الله عنه أَن البيت المعمور في السماء السادسة عند شجرة طوبى فإن ثبت حُمِل على البيت الذي في السادسة بجانب شجرة طوبى لأَنه جاء عنه أَن في كل سماء بيتاً يُحَاذي الكعبة وكل منها معمور بالملائكة، وكذا القول فيما جاء عن الربيع بن أَنَس وغيره أَن البيت المعمور في السماء.

التنبيه التاسع والأَربعون: اختلفت طُرُق المتكلمين على حديث الإسراء في ذِكْر من ذُكِر من الأَنبياء وترتيبهم في السموات، فمن العلماء من لم يَرَ الكلام على سرّ ذلك أَصلاً، ومنهم من تكلم فيه، ثم اختلف هؤلاء، فمنهم من قال: اختص مَنْ ذُكِر من الأَنبياء بلقاء رسول الله ﷺ على عُرْف الناس إذا تلَقَّوْا الغائب مُبْتَدِرين للقائه، فلا بُدَّ غالباً أَن يَسْبِق بعضهم بعضاً، ويصادف بعضُهم اللقاء ولا يصادفه بَعْضُهم وإلى هذا جَنَح ابن بطّال وهذا زَيَّفه السهيلي فأَصاب. وذهب غير ابن بَطّال إلى أَن ذلك تنبيه على الحالات الخاصة بهؤلاء الأَنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أَجمعين وتمثيل لما سيقع للنبي ﷺ مما اتفق لهم مما قَصَّه الله تعالى عنهم في كتابه. والنبي ﷺ كان يحب الفأل الحَسَن ويستدل على حُسْن

العاقبة وبالضدّ من ذلك. والفأل في اليقظة نظير الرؤيا في المنام. وأهل التعبير يقولون من رأى نبياً من الأنبياء بعينه في المنام فإن رؤياه تُؤْذِن بما يشبه من حال ذلك النبي من شِدَّة أو رخاء أو غير ذلك من الأمور التي أُخبر بها عن الأنبياء في القرآن والحديث.

قال ابن أبي جَمْرَة: «الحكمة في كون آدم في السماء الدنيا لأنه أول الأنبياء وأول الآباء فهو أصل فكان الأوّل في الأولى، ولأجل تأنيس النبوّة بالأُبوة» وقال السهيلي رحمه الله: «فآدم وقع التنبيه بما وقع له من الخروج من الجنة إلى الأرض بما سيقع للنبي ﷺ من الهجرة إلى المدينة، والجامع بينهما ما حصل لكل منهما من المشقّة وكراهة فراق ما لقيه في الوطن، ثم كان لكل منهما أن يرجع إلى وطنه الذي خرج منه».

وقال ابن دِحْية: «إن في ذلك تنبيهاً على أنه يقوم مقامه في مبدأ الهجرة لأن مقام آدم التهيئة والنشأة وعمارة الدنيا بأولاده، وكذا كان مقام المصطفى أول سنة من الهجرة مقام تنشئة الإسلام وتربية أهله واتخاذ الأنصار لعمارة الأرض كلها بهذا الدين الذي أظهره الله على الدين كله، وزوى الأرض لنبيّه حتى أراه مشارقَها ومغاربَها، فقال ﷺ: «وَلَيَبْلُغَنَّ مُلْكُ أُمَّتِي ما زُوِيَ لي منها». واتفق ذلك في زمن هشام بن عبد الملك حتى جيء إليه خراج الأرض شرقاً وغرباً، وكان إذا نشأت سحابة يقول: «أَمْطِري حيث شئت فسيصل إليَّ خراجُك»».

ثم رأى في السماء الثانية عيسى ويحيى وهما المُمْتَحَنان باليهود. أما عيسى فكذّبته اليهود وآذَتْهُ وَهَمُّوا بقتله فرفعه الله تعالى، وأما يحيى فقتلوه، ورسول الله ﷺ بعد انتقاله إلى المدينة صار إلى حالة ثانية من الامتحان. وكانت مِحْنَتُه فيها باليهود [آذوه] وظاهروا عليه وهَمُّوا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه فَنَجَّاه الله تعالى كما نَجّى عيسى منهم ثم سَمُّوه في الشاة، فلم تزل تلك الأُكْلَة تُعَادُّه حتى قطعت أَبْهَره [كما قال عند الموت].

وقال ابن أبي جَمْرَة: لأنهما أقرب الأنبياء عهداً بسيدنا رسول الله ﷺ.

وقال ابن دِحْية: كانت حالة عيسى ومُقَامه معالجة بني إسرائيل والصبر على معاداة اليهود وحِيَلهم ومَكْرهم، وطلب عيسى الانتصار عليهم بقوله: ﴿مَنْ أَنصاري إلى الله﴾ أي مع الله؟ ﴿قَالَ الحَوَارِيُّون نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ﴾ [يوسف: ٩٢] فهذه كانت حالة نبينا ﷺ في السنة الثانية من الهجرة، ففيها طلب الأنصار للخروج إلى بدر العظمى فأجابوا ونصروا، فلقاؤه لعيسى في السماء الثانية تنبيه على أنه سيلقى مِثْلَ حاله ومُقَامه في السنة الثانية من الهجرة.

وأما لقاؤه ليوسف عليه السلام في السماء الثالثة فإنه يُؤْذِن بحالة ثالثة تشبه حال يوسف بما جرى له مع إخوته الذين أخرجوه من بين أظهرهم ثم ظَفِر بهم فصفح عنهم وقال: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢] وكذلك نبيُّنا عليه

الصلاة والسلام أَخرجه قومه ثم ظفر بهم في غزوة الفتح فعفا عنهم وقال: «أَقول كما قال أَخي يوسف: (لا تثريب عليكم)».

قال ابن أَبي جمرة: لأَن أمة محمد ﷺ يدخلون الجنة على صورته، زاد ابن أَقرص وإِشارة إِلى جعله على خزائن الأَرض. وقال ابن دحية: مناسبة لقائه ليوسف في السماء الثالثة أَن السنة الثالثة من سني الهجرة اتفقت فيها غزوة أُحد وكانت على المسلمين لم يُصَابوا بنازِلة قبلها ولا بعدها مِثْلها، فإِنها كانت وقعة أَسَفٍ وحُزْن.

وأَهل التعبير يقولون: مَنْ رأَى أَحَداً اسمه يوسف آذَنَ ذلك من حيث الاشتقاق ومن حيث قصة يوسف عليه السلام بأَسَف يَنَالُه. قال ابن دِحْية: فإِن كان يوسف النبي فالعاقبة حميدة والآخرة خَيْرٌ من الأُولى.

ومما اتفق في غزوة أُحُد من المناسبة شيوع قتل المصطفى فناسب ما حصل للمسلمين من الأَسف على فقد نبيهم ما حصل ليعقوب من الأَسف على يوسف لاعتقاده أَنه فُقِد إِلى أَن وَجَد رِيحَه بعد تطاول الأَمَد. ومن المناسبة أَيضاً بين القصتين أَن يوسف كِيدَ وأُلْقِيَ في غيابة الجُبّ حتى أَنقذه الله تعالى على يد من شاء. قال ابن إِسحاق: وكُبّت الحجارة على جبهة رسول الله ﷺ من قريش حتى سقط لجنبه في حُفْرَة كان أَبو عامر الفاسق قد حَفَرها مكيدةً للمسلمين، فأَخذ عليٌّ كَرَّم الله وَجْهَه بيد رسول الله ﷺ واحتضنه طلحة حتى قام.

قال السهيلي: «ثم لقاؤه لإِدريس عليه السلام في السماء الرابعة وهو المكان الذي سَمَّاه الله ﴿مَكَاناً عَلِيّاً﴾ [مريم: ٥٧] وإِدريس أَول من آتاه الله الخط بالقلم فكان ذلك مُؤْذِناً بحال رابعة وهي علوّ شأنه عليه السلام حتى خافه الملوك وكتب إِليهم يدعوهم إِلى طاعته حتى قال أَبو سفيان وهو عند مَلِك الروم حين جاءه كتاب النبي ﷺ ورأَى ما رأَى من خوف هِرَقْل: لقد أَمَر أَمْرُ ابن أَبي كبشة حتى أَصبح يخافه مَلِك بني الأَصفر، [وكتب عنه بالقلم إِلى جميع ملوك الأَرض فمنهم من اتبعه على دينه كالنجاشي وملك عمان، ومنهم من هادنه وأَهدى إِليه وأَتحفه كَهِرقْل والمقوقس، ومنهم من تَعَصَّى عليه فأَظهره الله عليه، فهذا مَقَامٌ عَلِيٌ وخط بالقلم كنحو ما أُوتى إِدريس عليه السلام].

«ولقاؤه في السماء الخامسة لهارون المُحَبَّب في قومه يُؤْذِن بحُبّ قريش وجميع العرب له بعد بُغْضِهم فيه». وقال ابن أَبي جَمْرَة: إِنما كان هارون في الخامسة لقربه من أَخيه موسى، وكان موسى أَرفع منه بفضل كلام الله تعالى. وقال ابن دحية ما نال هارون من بني إِسرائيل من الأَذى ثم الانتصار عليهم والإِيقاع بهم وقَصْر التوبه فيهم على القتل دون غيره من العقوبات المُنْحَطَّة عنه، وذلك أَن هارون عندما تركه موسى في بني إِسرائيل وذهب لموعد

المناجاة تَفَرَّقوا على هارون وتَحَزَّبوا عليه وداروا حول قتله ونقضوا العَهْد وأَخلفوا المَوْعِد واستضعفوا جانِبَه كما حكى الله تعالى ذلك عنهم وكانت الجنَاية العظمى التي صدرت منهم عبادة العِجْل فلم يقبل الله تعالى منهم التوبة إلا بالقتل فقُتِل في ساعة واحدة سبعون أَلفاً كان نظير ذلك في حقه ﷺ ما لقيه في السنة الخامسة من الهجرة من يهود قُرَيْظة والنضير وقَيْنقَاع، فإنهم نقضوا العهد وحَزَّبوا الأَحزاب وجمعوها وحشدوا وحشروا وأَظهروا عداوة النبي ﷺ وأَرادوا قتله. وذهب إليهم قبل الوقعة بزمن يسير يستعينهم في دية قتيلَيْن فأَظهروا إكرامه وأَجلسوه تحت جدار ثم تواعدوا أَن يُلْقوا عليه رحى، فنزل جبريل فأَخبره بمكرهم الذي هَمُّوا به. فمن حينئذ عزم على حربهم وقتلهم، وفعل الله تعالى ذلك، وقتل قُرَيْظة بتحكيمهم سعد بن مُعَاذ، فَقُتِلُوا شَرَّ قِتْلة وحاق المَكْرُ السَّيء بأَهله. ونظير استضعاف اليهود لهارون استضعافهم المسلمين في غزوة الخندق كما سيأتي بَسْطُ ذلك.

ولقاؤه في السماء السادسة لموسى يُؤْذن بحالة تشبه حالة موسى حين أَمر بغزو الشام، فظهر على الجبابرة الذين كانوا فيها وأَدخل بني إسرائيل البلد الذي خرجوا منه بعد إهلاك عدوهم، وكذلك غزا رسول الله ﷺ تبوك من أَرض الشام وظهر على صاحب دُومة حتى صالحه على الجزية بعد أَن أُتِيَ به أَسيراً، وافتتح مكة ودخل أَصحابه البلد الذي خرجوا منه.

وقال ابن دِحْية: «يُؤْذِن لقاؤه في السادسة بمعالجة قومه فإن موسى ابتُلِي بمعالجة بني إسرائيل والصبر على أَذاهم، وما عالجه المصطفى في السنة السادسة لم يُعَالِج قبله ولا وبعده مِثْلَه، ففي هذه السنة افتتح خيبر وفَدَك وجميع حصون اليهود وكتب الله عليهم الجلاء وضربهم بِسَوْط البلاء وعالج النبي ﷺ في هذه السنة كما عالج موسى من قومه، أَراد أَن يقيم الشريعة في الأَرض المقدسة وحَمَل قَوْمه على ذلك فتقاعدوا عنه وقالوا: إن فيها قوماً جَبَّارين وإنا لن ندخلها أَبداً حتى يخرجوا منها. وفي الآخر سَجَّلوا بالقنوط فقالوا: إنا لن ندخلها أَبداً ما داموا فيها، فغَضِب الله عليهم وحَالَ بينهم وبينها، وأَوقعهم في التيه. وكذلك أَراد النبي ﷺ في السنة السادسة أَن يدخل بمن معه مكة يُقيم بها شريعة الله وسُنَّة إبراهيم، فصَدُّوه فلم يدخلها في هذا العام، فكان لقاؤه لموسى تنبيهاً على التَّأَسي به وجميل الأَثر في السنة القابلة.

ثم لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيم عليه السلام لحكمتين: إحداهما أَنه رآه عند البيت المعمور مُسْنِداً ظَهْرَه إليه. والبيت المعمور حيال الكعبة وإليه تحج الملائكة، كما أَن إبراهيم هو الذي بنى الكعبة وأَذَّن في الناس بالحَجّ إليها والحكمة الثانية أَن آخر أَحوال النبي ﷺ حجه إلى البيت الحرام وحج معه في ذلك العام نحو من سبعين أَلفاً [من المسلمين]. ورؤية إبراهيم عند أَهل التأويل تُؤْذِن بالحج لأَنه الداعي إليه والرافع لقواعد [الكعبة المحجوجة].

قال ابن أَبي جمْرَة: «وإنما كان إبراهيم في السماء السابعة لأَنه الأَب الأَخير، فناسب أَن يتجدد للنبي ﷺ بلقائه أُنسٌ لتوجهه بعده إلى عالَم آخر، وأَيضاً فمنزلة الخليل تقتضي أَرفع المنازل، ومنزلة الحبيب أَرفع من منزلته فلذلك ارتفع النبي ﷺ عن منزلة إبراهيم إلى قاب قوسين أَو أَدنى»[1].

وقال ابن دِحْيَة: «مناسبة لِقائه لإبراهيم عليه السلام في السماء السابعة أَن النبي ﷺ اعتمر عُمْرَة القضاء في السنة السابعة من الهجرة، ودخل مكة وأَصحابه مُلبِّين مُعْتَمِرين مُحْيِياً لسُنَّة إبراهيم ومُقيماً لرسمه الذي كانت الجاهلية أَماتت ذِكْرَه وبَدَّلَت أَمْرَه. وفي بعض الطرق أَنه رأَى إبراهيم مُسْنداً ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، وذلك ـ والله أَعلم ـ إشارة إلى أَنه يطوف بالكعبة في السنة السابعة وهي أَول دخلة دخل فيها مكة بعد الهجرة. والكعبة في الأَرض قبالة البيت المعمور. وفي قوله ﷺ في وصف البيت المعمور: «فإذا هو يدخله كل يوم سبعون/ أَلفاً لا يرجعون إليه إلى آخر الدهر إشارة إلى أَنه إذا دخل البيت الحرام لا يرجع إليه لأَنه لم يدخله بعد الهجرة إلا عام الفتح ولم يعاوده في حجة الوداع.

التنبيه الخمسون: فإن قيل كيف أَمَّ الأَنبياء في بيت المقدس وسَلَّم عليهم وعرفهم ثم سأَل عنهم ثم يراهم تلك الليلة في السموات ويسأَل عنهم جبريل؟ فإنه لو رآهم وعرفهم لما احتاج إلى سؤال جبريل عنهم. والجواب أَنه لما اجتمع بهم ببيت المقدس وأَمَّهم على الهيئة البشرية تحقق وجودهم في الأَرض، ثم لما وصل إلى الملكوت العلوي لم يجدهم على تلك الحالة التي شاهدهم عليها، وإنما هم على صفات روحانية يُشَكِّل الله تعالى لهم أَشكالاً لائقة بالملكوت العلوي تأْنيساً لهم بأَصلهم البشري وتكريماً لهم وتعظيماً للقُدْرة الإلهية حيث شاهدهم تلك الساعة في الأَرض ثم رآهم في منازلهم في السماء، فلذلك سأَل عنهم استثباتاً لا تعجباً، فإنه عالِمٌ أَن الله تعالى الذي أَصعده إلى هذا المكان في لحظة قادرٌ على نقلهم إلى السموات في أَسرع من طَرْفَة عين سبحانه وتعالى.

التنبيه الحادي والخمسون: استُشْكِل رؤية الأَنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في السموات مع أَن أَجسادهم مستقرة في قبورهم في الأَرض. وأُجيب بأَن أَرواحهم تشكلت بصور أَجسادهم، أَو أُحْضِرَتْ أَجسادهم لملاقاة النبي ﷺ تلك الليلة تشريفاً وتكريماً ويؤيده حديث عبد الرحمن بن هاشم عند البيهقي وغيره: «وبُعِث له آدم فمن دونَه من الأَنبياء».

وقال ابن أَبي جمرة: «رؤيته لهؤلاء الأَنبياء تحْتَمِل وجوهاً: الأَول: أَن يكون عليه السلام عاين كل واحد منهم في قبره في الأَرض على الصورة التي أُخبر بها عن الموضع الذي عاينه فيه فيكون الله عز وجل قد أَعطاه من القوة في البصر والبصيرة ما أَدرك به ذلك. ويشهد لهذا الوجه قوله ﷺ: «رأَيْتُ الجنة والنار في عُرْض الحائط». وهو مُحْتَمَل لوجهين أَحدهما: أَن

يكون ﷺ رآهما من ذلك الموضع كما يقال رأيتُ الهلال من منزلي من الطاق والمراد من موضع الطاق، الوجه الثاني: أن يكون مُثّل له صورتهما في عُرْض الحائط، والقدرة صالحة لكليهما. الثاني: أن يكون ﷺ عايَن أرواحهم هناك في صورهم. الثالث: أن يكون الله عز وجل لما أراد الإسراء بنبينا رفعهم من قبورهم لتلك المواضع إكراماً لنبيه عليه السلام وتعظيماً له حتى يحصل له من قِبَلهم ما أشَرْنا إليه من الأنس والبشارة وغير ذلك مما لم نُشِرْ إليه ولا نعلمه نحن، وإظهاراً له عليه الصلاة والسلام القدرة التي لا يغلبها شيء ولا تعجز عن شيء وكل هذه الأوجه مُحْتملة ولا ترجيح لأحَدِها على الآخر لأن القدرة صالحة لكلها.

وقال ابن القيِّم في كتاب الروح «الأرواح قسمان: أرواح مُعَذَّبة وأرواح مُنَعَّمة، فالمُعَذَّبة في شُغْل بما هي فيه من العذاب عَن التزاور والتلاقي. والأرواح المُنَعَّمة المرسلة غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا، فتكون كل روح معها رفيقها الذي هو على مثل عملها. وروح نبينا ﷺ في الرفيق الأعلى. قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩] وهذه المَعيَّة ثابتة في الدنيا وفي دار البرزخ وفي دار الجزاء والمرء مع من أحَبّ.

ثم ذكر حديث أبي هريرة: «لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ لَقِيَ إبراهيم وموسى وعيسى فتذاكروا أمْرَ الساعة». الحديث. قال: فهذا نَصّ في تذاكر الأرواح العلم، وقد أخبر الله تعالى عن الشهداء أنهم أحياء عند ربِّهم يرزقون وأنهم يستبشرون بنعمة من الله وفضل هذا يدل على تلاقيهم من ثلاثة أوجه: أحدها أنهم أحياء عند الله وإذا كانوا أحياء عند الله فهم يتلاقون. الثاني: أنهم إنما يستبشرون بإخوانهم لقدومهم عليهم ولقائهم لهم. الثالث: أن لفظ يستبشرون يُفيد في اللغة أنهم يُبَشِّر بعضهم بعضاً مثل يتباشرون وقد تواترت المرائي بذلك فذَكَر عدة منامات. ثم قال: وقد جاءت سُنَّة صريحة بتلاقي الأرواح وتعارفها. قال ابن أبي الدنيا: حدثني محمد بن عبد الله بن بَزِيغ أنبأنا الفضيل بن سليمان النُميري حدثنا يحيى بن عبد الرحمن بن أبي أُنَيسة عن جَدِّه قال: لما مات بِشْر بن البَرَاء بن معرور - بمهملات - وجدت أُم بشر عليه وجداً شديداً، فقالت: يا رسول الله إنه لا يزال الهالك يهلك من بني سَلِمة، فهل يتعارف الموتى فأُرْسِل إلى بشر بالسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «نعم والذي نفسي بيده يا أُم بِشْر، إنهم ليتعارفون كما يتعارف الطير في رؤوس الشجر».

وذَكَر الحديث وآثاراً تؤيد ذلك، ثم قال: «والروح ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء، وتتحرك وتسكن، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها في كتابنا: معرفة الروح والنفس، وبيَّنَّا بُطْلان ما خالف هذا القول من وجوه كثيرة، وأن مَنْ قال

غَيْرَه لم يعرف نفسه وقد وصفها الله تعالى بالدخول والخروج، والقَبْض والتَّوفِّي والرجوع، وصعودها السماء وفتح أبوابها وغَلْقِها عنها، وقد ذُكِرت آيات وأحاديث كثيرة تشهد بما قاله».

ثم قال: «وأما إخبارُه ﷺ عن رؤية الأنبياء ليلة الإسراء به، فقد زعم بعض أهل الحديث أن الذي رآه أشباحهم وأرواحهم. قال: فإنهم أحياء عند ربهم يُرْزَقون. وقد رأى المصطفى إبراهيم مُسْنِداً ظَهْرَه إلى البيت المعمور ورأى موسى قائماً في قبره يصلي، وقد نعت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لما رآهم بنعت الأشباح».

ونازعهم آخرون وقالوا: هذه الرواية إنما هي لأرواحهم دون أجسادهم، والأجساد في الأرض قطعاً وإنما تُبْعَث يوم تبعث الأجساد، ولا تُبْعَث قبل ذلك، إذ لو بُعِثت قبل ذلك لكانت قد انشَقَّت عنهم الأرض قبل يوم القيامة، وكانت تذوق الموت عند نفخة الصور، وهذه موتة ثالثة وهذا باطل قَطْعاً، ولو كانت قد بُعِثت الأجساد من القبور لم يُعِدْهُمْ الله تعالى إليها، بل كانت في الجنة وقد صَحَّ عن النبي ﷺ قوله إن الله تعالى حَرَّم الجنة على الأنبياء حتى يدخلها هو، فهو أول من يَسْتَفْتِح باب الجنة، وأول من تَنْشَقُّ عنه الأرض على الإطلاق، ولم تنشق عن أحَد قبله، ومعلوم بالضرورة أن جسده ﷺ في الأرض طري.

وقد سأله أصحابه: كيف تُعْرَض عليك صلاتنا وقد بَلِيت؟ فقال: «إن الله حرَّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»(١) ولو لم يكن جسده في ضريحه طرياً لما أجاب بهذا الجواب. وقد صَحَّ عنه ﷺ أن الله تعالى وَكَّل بقبره ملائكة يُبَلِّغونه عن أُمته السلام، وصَحَّ عنه ﷺ لما خرج بين أبي بكر وعمر قال: «هكذا نُبْعَث».

هذا مع القطع بأن روحه الكريمة في الرفيق الأعلى في أعلى عِلِّيِّين مع أرواح الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم. وقد صَحَّ أنه رأى موسى عليه السلام قائماً يصلي في قبره ليلة الإسراء ورآه في السماء السادسة أو السابعة، فالروح كانت هناك ولها اتصال بالبدن في القبر وإشراق عليه وتعَلُّق به بحيث تصلي في قبره وتَرُدّ سلام من سَلَّم عليه وهو في الرفيق الأعلى.

ولا تنافي بين الأمرين فإن شأن الأرواح غَيْرُ شأن الأبدان، فأنت تجد الروحَيْن المتلائمتَيْن المتناسبتَيْن في غاية التجاور والقُرْب وإن كان بين بَدَنَيْهما غاية البُعْد، وتجد الروحَيْن المُتَنافرتَيْن المتباغضتَيْن في غاية البُعْد وإن كان جسداهما متجاورَيْن متلاصقَيْن، وليس نزول الروح وصعودها، وقُرْبُها وبُعْدُها من جنس ما للبَدَن فهي تصعد إلى فوق سبع سموات ثم تهبط إلى الأرض ما بين قَبْضها ووضع الميت في قبره، وهو زَمَنٌ يسير لا يصعد

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الجمعة باب (١) وابن ماجه (١٠٨٥) وأحمد في المسند ٨/٤ والبيهقي في السنن ٢٤٩/٣ والحاكم في المستدرك ٥٦٠/٤ والطبراني في الكبير وابن حبان (٥٥).

البدن وينزل في مثله، وكذلك صعودها وعودها إلى البدن في النوم واليقظة. وقد مَثَّلها بعضهم بالشمس في السماء وشعاعها في الأرض.

قال شيخنا ـ يعني أبا العباس الحَرَّاني: وليس هذا مثالاً مطابقاً فإن نفس الشمس لاتزول من السماء والشعاع الذي على الأرض لا هو الشمس ولا صفتها بل عَرَض حصل بسبب الشمس والجِرْم المقابل لها، والروح نفسها تصعد وتنزل وبَسْطُ الكلام على ذلك ولهذا مزيد بيان في باب حياة النبي ﷺ في قبره.

التنبيه الثاني والخمسون: في الكلام على البيت المعمور: قال أبو عبيدة: معنى المعمور الكثير الغاشية ويسمى الضُّرَاح[1] ـ بضم الضاد المعجمة ـ ويقال المهملة. قال الزمخشري في ربيع الأبرار وهو غلط صُرَاح، وبالضُّرَاح تُسَمِّيه الملائكة، وسُمي به لأنه ضَرَح عن الأرض أي بَعُد قال مجاهد: «البيت المعمور وهو الضريح» يعني بالمعجمة وهو في اللغة: البعيد، وأكثر الروايات على أنه في السماء السابعة.

وروى ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك لا يعودون إليه حتى تقوم الساعة»[2]. ورواه الطبراني وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً أيضاً. وروى إسحاق بن راهويه عن علي رضي الله عنه أنه سئل عن البيت المعمور، قال: «بيت الله في السماء السابعة بحيال البيت، وحُرْمَتُه كحرمة هذا في الأرض، يدخله كل يوم سبعون ألف ملَك لا يعودن إليه».

وفي حديث أبي هريرة عند ابن مَرْدَوِيه والعُقَيْلي وابن أبي حاتم عن النبي ﷺ أنه قال: «في السماء السابعة بيت يقال له البيت المعمور وفي السماء الرابعة نهر يقال له الحيوان، يدخله جبريل كل يوم فينغمس فيه انغماسة ثم يخرج فينتفض انتفاضة فيخرج عنه سبعون ألف قطرة، يخلق الله من كل قطرة مَلَكاً يُؤْمَرون أن يأتوا البيت المعمور فَيُصَلُّون فيه فيفعلون ثم يخرجون فلا يعودون إليه أبداً، ويُولَّى عليه أحدهم ثم يُؤْمَر أن يقف بهم في السماء موقفاً يُسَبِّحون الله في إلى أن تقوم الساعة[3]». وإسناده ضعيف. والصحيح أنه ليس بموضوع كما

---

(١) الضُّرَاحُ بيت في السماء حيال الكعبة ويروى: الضريح وهو البيت المعمور، من المُضَارَحة، وهي المقابلة والمُضَارَعة. انظر النهاية لابن الأثير ٣/٨١.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ١١/٤١٧ وأحمد في المسند ٣/١٥٣ والحاكم في المستدرك ٢/٤٦٨ وذكره السيوطي في الدر ٦/١١٧ والمتقي الهندي في الكنز (٣٤٧٩٤).

(٣) أخرجه ابن كثير في التفسير ٧/٤٠٤ وقال: هذا حديث غريب جداً، تفرد به روح بن جناح هذا، وقد أنكر هذا الحديث عليه جماعة من الحفاظ منهم: الجوزجاني والعقيلي، والحاكم أبو عبد الله النيسابوري وغيرهم: وقال الحاكم: لا أصل له من حديث أبي هريرة ولا سعيد ولا الزهري.

بَيَّنْتُه في: «الفوائد المجموعة في بيان الأحاديث الموضوعة».

وروى أبو الشيخ من طريق اللَّيْث قال: حدثني خالد بن سعيد قال: «بلغني أن إسرافيل مُؤَذِّن أهل السماء يَسْمع تأذينه مَنْ في السموات السبع ومن في الأرض، إلا الجِنّ والإنس، ثم يتقدم عظيم الملائكة فيصلي بهم»، قال: «وبلغنا أن ميكائيل يؤم الملائكة بالبيت المعمور» واسْتُدلّ بهذه الأحاديث على أن الملائكة أكثر المخلوقات، لأنه لا يعرف من جميع العوالم مَنْ يتجدَّد من جنسه في كل يوم سبعون ألفاً غير ما ثبت في هذه الأحاديث.

التنبيه الثالث والخمسون: قوله: «فرُفع إلى البيت المعمور»، معناه أنه أُرِيَ له. وقد يحتمل أن يكون المراد الرفع والرؤية معاً، لأنه قد يكون بينه وبين البيت عوالم حتى لا يقدر على إدراكه، فرُفع إليه وأُمِدَّ في بَصَره وبصيرته حتى رآه، ويحتمل أن تكون تلك العوالم التي كانت بينه وبين البيت المعمور أُزيلت حتى أدركه بَصَرُه. وقد يحتمل أن يكون العالم بقي على حاله والبيت على حاله، وأُمِدَّ في بصره وبصيرته حتى أدركه وعاينه، والقدرة صالحة للكُلّ، يشهد لذلك قوله ﷺ: «رُفع إليّ بيت المقدس على ما سيأتي فيه»، والتأويل فيه كالتأويل في البيت المعمور.

وأكثر الروايات: «رُفعتُ إلى سِدْرة المنتهى»، بضم الراء وسكون العين وضم التاء من «رفعت»، وبَعْدَه حرف الجرّ. ولبعضهم «ورُفِعَتْ» بفتح العين وسكون التاء، أي «السدرة لي» باللام أي من أجْلي، ويُجْمَع بين الروايتين بأن المراد أنه رُفِع إليها أي ارْتُقِيَ بها فظهرت له والرَّفْعُ إلى الشيء يُطْلَق على التقريب منه.

التنبيه الرابع والخمسون: وَجْه مُناسبة المعراج الثامن إلى سِدْرة المُنْتَهى لما اشتملت عليه السنة الثامنة من الهجرة. إن السنة الثامنة اشتملت على فتح مكة، ومكة أُمّ القُرَى وإليها المنتهى ومنها المبتدأ، على ما ورد أن الأرض كلها دُحِيت[1] من مكة، فلذلك سُمِّيت أم القُرى، أو هي أمّ القُرَى لأن أهل القُرَى يرجعون إليها في الدين والدنيا حَجّاً واعتماراً وجِوَاراً وكَسْباً واتّجاراً قال الله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٩٧] أي تقوم بأبدانهم وأديانهم. وقال تعالى﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[الحج ٢٨] قيل هي الأجر والتجارات في الموسم. فبين سِدْرة المُنْتَهى وأُم القُرى من المناسبة ما لا يَخْفَى، إذ سدرة المنتهى ينتهي إليها عِلْم الخلائق، ومكة ينتهي إليها أهْلُ الآفاق شرقاً وغرباً وفيها يكون الاجتماع. فكان بلوغه إلى سدرة المنتهى تنبيهاً على بلوغه إلى فتح مكة أم القُرى في العام

(١) الدَّحو: البسْطُ، والمدْحُوَّات: الأرَضُون. يقال: دَحا يدْحو ويدْحَى: أي بَسط ووَسَّع. انظر النهاية لابن الأثير ٢/١٠٦.

الثامن، وقد غشى السدرة الجراد والفَرَاش والغربان الذي هو جُنْدٌ من جُنْد الله كما غشى مكة في الفتح جندُ الله وحِزْبُه وغشيها أيضاً أَجناسٌ من الخَلْق وأَلْوانٌ من الأَسود والأَحمر. وجاء اللفظان معاً في الحديث، كما غشى سدرة المنتهى أَلوان لا يعلمها إلا الله تعالى: فلما غشيت الأَلوانُ السِّدْرَةَ حَسُنَت إلى أن لا يُحسنَ أَحَدٌ أَن يَنْعَتَها لِفَرْط الحُسْن. كما أَن أَلوان الخَلْق لما غَشِيت مكة يوم الفتح حَسُنَت حينئذٍ بالإيمان وبأَهل القرآن حتى لا يُحسِن أَحَدٌ أَن يَصِف حالها حينئذ من عِظَم الشأْن.

ثم كان ظهور الأَنهار الأَربعة حينئذ دليلاً على أَن تلك الأُمة ستبلغها ويُحَقِّقُه أَيضاً قولُه ﷺ: «زُوِيَتْ لي الأَرض مشارِقُها ومغارِبُها وسيبلغ مُلْك أُمتي ما زُوِيَ لي منها[(1)]».

التنبيه الخامس والخمسون: وقع في حديث ابن مسعود رضي الله عنه عند مسلم أَن السدرة في السماء السادسة وظاهر حديث أَنس رضي الله عنه أَنها في السابعة، قال القرطبي: «وهذا تعارض لا شك فيه». وحديث أنس قول الأكثرين وهو الذي يقتضيه وَصْفُها بكَوْنِها التي ينتهي إليها عِلْمُ كل نَبيّ مُرْسَل وكل مَلَك مُقَرَّب، «ويترجح حديث أَنس بأَنه مرفوع وحديث ابن مسعود بأَنه موقوف». قال الحافظ: «كذا قال ولم يَعْرُج على الجمع بل جزم بالتعارض ولا يعارض قَوْله إنها في السادسة ما دَلَّت عليه بقية الأَخبار أَنه وصل إليها بعد أَن دخل في السماء السابعة لأَنه يُحْمَل على أَن أَصلها في السماء السادسة وأَغصانها وفروعها في السابعة وليس في السادسة منها إلا أَصل ساقها، والله أَعلم.

التنبيه السادس والخمسون: قال ابن أَبي جَمْرَة: «والأَظهر أَن شجرة المنتهى مفروشة بأَرض بدليل قوله: «ونهران باطنان» ولا يُطْلَق هذا اللفظ وما أَشبهه إلا على ما يُفْهَم، والباطن لا بد أَن يكون سريانه تحت شيء، وحينئذ يُطْلَق عليه اسم الباطن.

التنبيه السابع والخمسون: قال القاضي رحمه الله: دَلَّ الحديث على أَن أَصل سِدْرة المنتهى في الأَرض لكوْنه قال: «إن النيل والفرات يخرجان من أَصلها»، وهما بالمشاهدة يخرجان من الأَرض، فيلزم فيه أَن يكون أَصل السدرة في الأَرض. وتعقَّبه النووي بأَن المراد بكونهما يخرجان من أَصلها غير خروجهما بالنَّبْع من الأَرض، والحاصل أَن أَصلهما من الجنة وهما يخرجان أَولاً من أَصل السِّدْرة إلى أَن يستَقِرا في الأَرض ثم ينبعان.

التنبيه الثامن والخمسون: قال ابن أَبي جمرة رحمه الله: قَوله ﷺ: «في أَصلها أَربعة أَنهار: نهران باطنان ونهران ظاهران»، هذا اللفظ يُحْتَمَل أَن يكون على الحقيقة، ويُحْتَمَل أَن

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٩٥٢) وذكره العراقي في تخريجه على الإحياء ٣٨٧/٢.

يكون من باب تسمية الشيء بما قاربه، فإن كان على الحقيقة فتكون هذه الأَنهار تنبع من أَصل الشجرة نفسها فتكون الشجرة طعمها نَبق وأَصلها ينبع منه الماء، والقدرة لا تعجز عن هذا. وإن كان من باب تسمية الشيء بما قاربه فتكون الأَنهار تنبع قريباً من أَصل الشجرة».

التنبيه التاسع والخمسون: في قوله: «أَما الباطنان فنهران في الجنة»، دليل على أَن الباطن أَجَلّ من الظاهر، لأَنه لما كان الباطنان أَصلاً جُعِلا في دار البقاء، ولما كان الظاهران أَقَلّ أُخْرِجا إلى دار الفناء، ومن ثَمَّ كان الاعتماد على ما في الباطن، كما قال ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم».

التنبيه الستون: في حديث أَبي سعيد: «فإذا فيها ـ أَي السماء السابعة ـ عَيْنٌ تجري يقال لها السلسبيل فينشق منها نهران أَحدهما نهر الكوثر والآخر يقال له نهر الرحمة. «ويمكن أَن يُفَسَّر بهما النهران الباطنان المذكوران في الحديث، وكذا رُوِيَ عن مقاتل، قال: «الباطنان السلسبيل والكوثر».

التنبيه الحادي والستون: قال النووي في هذا الحديث: إن أَصل النيل والفُرَات من الجنة وأَنهما يخرجان من أَصل سدرة المنتهى ثم يسيران حيث شاء الله تعالى ثم ينزلان إلى الأَرض ثم يسيران فيها ثم يخرجان منها. وهذا لا يمنعه العقل وقد شهد به ظاهر الخَبَر فليُعْتَمَد».

التنبيه الثاني والستون: استُدِلّ بهذا الحديث على فضيلة ماء النيل والفرات لِكَوْن منبعهما من الجنة. وروى مسلم عن أَبي هريرة أَن النبي ﷺ قال: «سيحان وجيحان والنيل والفرات من أنهار الجنة»[1]. قال العلماء: والمراد به أن في الأَرض أربعة أنهار أُصلها من الجنة وحينئذ لم يثبت لسيحان وجيحان أَنهما ينبعان من أَصل سِدْرة المُنْتَهَى، فيمتاز النيل والفرات عليهما بذلك، وأَما الباطنان المذكوران في الحديث فهما غير سيحان وجيحان. قال القرطبي: «لعل تَرْك ذِكْرهما في حَدِيث الإسراء لكونهما ليسا أَصلاً برأْسهما وإنما يحتمل أَن يتفرّعا من النيل والفرات».

التنبيه الثالث والستون: قيل: إنما أُطْلِق على هذه الأَنهار أَنها من الجنة تشبيهاً لها بأَنْهَار الجنة لما فيها من شدة العذوبة والحُسْن والبركة. قال القرطبي: والأَوْلى أَنها من أَنهار الجنة. وقال غيره: صورة انصبابها كانصباب المطر متفرقاً ثم يجتمع في مواقعها في الأَرض إلى أَن ينساق كل منها إلى مستقره ومجراه. ويحتمل أَن يكون انصبابها في نواحي الأَرض

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة (٢٦) وأحمد في المسند ٢٨٩/٢ والبغوي في التفسير ١٧٧/٦.

النائية المتصلة بمبادئ هذه الأنهار فإنه لم يقف أحَدٌ على مَبَادِيها حتى الآن.

وروى أبو الشيخ في العَظَمة وأبو المُخْلِص - بوزن اسم الفاعل - بَسَند من طريق أبي صالح عبد الله بن صالح قال: حدثني الليث بن سعد قال: بلغني أنه كان رجل من بني العيص يقال له حائد بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، خرج هارباً من مَلِك من ملوكهم حتى دخل أرض مصر، فأقام بها، فلما رأى أعاجيب نيلها، جعل للّهِ عليه ألاّ يفارق ساحلها حتى يبلغ منتهاه ومن حيث يخرج أو يموت.

فسار عليه، قبل ثلاثين سنة في الناس، وثلاثين سنة في غير الناس، وقبل خمس عَشْرَة كذا وخمس عشرة كذا حتى انتهى إلى بحر أخضر، فنظر إلى النيل ينشق مُقْبلاً، وإذا رجل قائم يصلي تحت شجرة تفاح، فلما رآه استأنس به وسَلَّم عليه، فقال له: من أنت؟ قال: أنا حائد بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام فمن أنت؟ قال: أنا عِمْران بن فلان بن العيص، فما الذي جاء بك يا حائد؟.

قال: جئت من أجل هذا النيل وهل بلغك في الكتب أن أحداً من بني آدم يبلغه ولا أظنه غيرك قال كيف الطريق إليه؟ قال: سِرْ كما أنت على هذا البحر فإنك ستأتي دابّة ترى آخرها ولا ترى أولها فلا يهولنَّك آخِرُهَا، وهي معادية للشمس إذا طلعت أهْوَت إليها لتلتقمها وإذا غَرَبَتْ أهْوَت إليها كذلك، فاركَبْها تذهب بك إلى جانب البحر، فَسِرْ عليها فإنها ستبلغ أرضاً من حديد، فإن جُزْتَها وقعت في أرض من ذهب فيها ينتهي إليها عِلْمُ النيل. فسار حتى انتهى إلى أرض من الذهب فسار فيها حتى انتهى إلى سور من ذهب، وشرفة من ذهب وقبة من ذهب لها أربعة أبواب، فنظر إلى ما ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة ثم ينصرف في الأبواب الأربعة، فأما الثلاثة فتفيض في الأرض وأما واحد فيسير على وجه الأرض وهو النيل.

فشرب منه واستراح وهوى إلى السور ليصعد فأتاه مَلَك فقال له: «يا حائد قف فإنه قد انتهى إليك علم هذا النيل، وهذه الجنة، وإنما ينزل من الجنة.

التنبيه الرابع والستون: قال ابن أبي جمرة في قول جبريل عليه السلام: «أما الباطنان ففي الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات»، دليلٌ على أن النيل والفرات ليسا من الجنة لأن النبي ﷺ أخبر أن جبريل أخبره أن هذه الأنهار منبعها من سدرة المنتهى، فيسير الباطنان إلى الجنة، والنيل والفرات ينزلان إلى الدنيا، وسدرة المنتهى ليست في الجنة حتى يقال إنهما يخرجان منها بعد نبعهما من الجنة. وهذا مُعَارِضٌ لما رواه مسلم عن أبي هريرة من أن رسول الله ﷺ قال: «سيحان وجيحان والنيل والفرات كُلٌّ من أنهار الجنة». والجمع بينهما

ـ والله تعالى أعلم ـ أَن النيل والفرات منبعهما من سدرة المنتهى، وإِذا نزلا يسلكان أَولاً طريقاً إِلى الجنة فيدخلانها ثم بعد ذلك ينزلان إِلى الأَرض.

التنبيه الخامس والستون: قال ابن أَبي جمرة: وردت الأَخبار أَن من شرب من ماء الجنة لا يموت ولا يَفْنَى وأَنه ليس له فضلة تخرج على ما يُعْهَد في دار الدنيا خروجه وإِنما خُرُوجُه رَشْحٌ مِسْكٍ على البدن، فجعل فيه هذه الخاصِّيَّة العظيمة، ثم لما شاءت الحكمة نزوله إِلى هذه الدار نُزِعت منه تلك الخصوصية، وبقي جوهره بحاله، وكل الخواص مثله في هذا المعنى، إِن شاء الله عزّ وجل أَبقى له الخاصية وإِن شاء سلبها مع بقاء جوهره وليس لِذَوَات الخواص تأْثير بل الخاصية خَلْقُه والجوهر خَلْقُه وإِنما القدرة هي المؤثرة في كلها.

التنبيه السادس والستون: قول ابن كثير: «المراد ـ والله أَعلم ـ أَن هذه الأَنهار تشبه أَنهار الجنة في صفائها وعذوبتها وجريانها من جنس تلك في هذه الصفات كما قال في حديث أَبي هريرة رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «العجوة من الجنة»[(١)] أَي تشبه ثَمَر الجَنَّة لا أَنها مجتناة من الجنَّة فإِن الحِسّ يشهد بخلافه. فيتعيَّن أَن يكون المراد غَيْرَه، وكذلك أَصل منابع هذه الأَنهار مشاهدة من الأَرض»، انتهى. وهو مُتَعَقَّب بأَنه لا يلزم من كونها كذلك أَلاَّ تكون من الجنة، لِما قَدَّمنا من كيفية النزول. وقد جزم النووي وغيره أَنها من الجنة، ولا يُشْكِل ذلك لأَن في ماء الجنة خواصّ ليست في هذه الأَنهار لما سبق في كلام ابن أَبي جمرة.

التنبيه السابع والستون: وقع في رواية شريك أَن رسول الله ﷺ رأَى في السماء الدنيا نهرَيْن يَطَّرِدان فقال له جبريل: «هما النيل والفُرَات عُنْصُرُهما». وفي رواية غيره: «رآهما في السماء السابعة». قال ابن دِحْية: والجَمْع بينهما أَنه رأَى هذين النهرين عند سِدْرَة المنتهى مع نَهْرَيْ الجنة، ورآهما في السماء الدنيا دون نَهْرَيّ الجنة وأَراد بالعُنْصُر عنصر انتشارهما.

التنبيه الثامن والستون: روى أَبو نعيم والضياء عن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لعلكم تظنون أَن أَنهار الجنة أُخدوداً في الأَرض، لا والله إِنها لسائحة على وجه الأَرض»[(٢)] الأُخدود شق في الأَرض مستطيل.

التنبيه التاسع والستون: روى الحارث بن أَبي أُسَامة في مُسْنَدِه والبيهقي في الشُّعَب

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٠٦٦) وابن ماجه (٣٥٤٣) وأحمد في المسند ٣٠١/٢ والدارمي ٣٣٨/٢ وعبد الرزاق في المصنف (٢٠١٧٠) والخطيب في التاريخ ٤٤٥/١٤.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٣٨/١ وعزاه لابن مردويه وأبي نعيم والضياء المقدسي كلاهما في صفة الجنة.

عن كعب الأَحبار قال: «إِن نهر العسل نهر النيل ونهر اللبن نهر دجلة ونهر الخمر نهر الفُرات ونهر الماء نهر سيحان».

التنبيه السبعون: قوله في السِّدْرة: «يغشاها جرادٌ من ذهب». قال البيضاوي: «ذِكْرُ الجراد والفَراش وقع على سبيل التمثيل لأَن من شأْن الشجر أَن يسقط عليه الجراد وَشِبْهُهُ، وجَعْلُها من ذهب لصفاء لونها وإِضاءتها في نفسها». وقال الحافظ: «ويجوز جَعْلُها من الذهب حقيقةً، ويَخْلُق الله فيها الطيران، والقدرة صالحة لذلك». انتهى.

التنبيه الحادي والسبعون: قولُه «فغَفَر لي ما تقَّدم من ذنبي وما تأَخَّر»، قال شيخ الإِسلام تقي الدين السبكي رحمه الله: «المراد تشريف النبي ﷺ بهذا الأَمر، أَي لو كان له ذنوب لغُفِرت ولم يكن له ذنب البتة». وحكى الشيخ رحمه الله في كتابه المُحَرَّر، في الكلام على هذه الآية اثني عشر قولاً، ونقل عن السبكي فساد خمسة منها وبَيَّن الشيخ فساد الباقي، ثم قال: «أَما الأَقوال المقبولة ففي الشفا للقاضي قيل إِن النبي ﷺ لَمَّا أُمِرَ أَن يقول: ﴿وَمَا أَدْرِى مَا يَفْعَلُ بِي وَلاَ بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] سُرّ بذلك الكُفَّار فأَنزل الله تعالى: ﴿لِيَغْفِرِ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] وأَخبر بمآل المؤمنين في الآية الأُخرى بعدها، فَمَقْصِد الآية أَنك مغفورٌ لك غَيْرُ مُؤَاخذ بِذَنْبٍ وهذا الأَثر رواه ابن المنذر في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما، بدون قوله وأَخبر بمآل المؤمنين إِلى آخره، وروى الإِمام أَحمد والترمذي والحاكم نحوه.

قال القاضي: قال بعضهم: المغفرة هنا تنزيه من العيوب، وقال بعض المحققين: المَغْفِرة هنا كِنَاية عن العِصْمَة أَي فعُصِمْتُ فيما تَقَدَّم من عُمْري وفيما تَأَخَّر منه، وهذا القول في غاية الحُسْن. وقد عَدَّ البلغاء من أَساليب البلاغة في القرآن أَنه يُكَنَّى عن التخفيفات بلفظ المَغْفِرة والعفو والتوبة، كقوله عند نَسْخ قيام الليل: ﴿عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ٢٠] وعند نَسْخ تقديم الصدقة بين يَدَيْ النَّجْوَى ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللّٰهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣] وعند نَسْخ تحريم الجماع ليلة الصيام: ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ﴾ [البقرة: ١٨٧].

ثم نُقِل عن السبكي أَنه قال: «قد تأَمَّلْتُ هذه الآية بذهني مع ما قبلها وما بعدها فوجدتها لا تحتمل إِلا وجهاً واحداً وهو تشريف النبي ﷺ، من غير أَن يكون هناك ذنب، ولكنه أُريد أَن تُسْتَوْعب في الآية جميع أَنواع النعم من الله تعالى على عباده. وجميع النعم الأخروية شيئان: سلبية وهي غُفْران الذنوب، وثبوتية وهي لا تتناهى وقد أَشار اليها بقوله: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [البقرة: ١٨٧] وجميع النعم الدنيوية شيئان: دينية أَشار إِليها بقوله:

﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ [الفتح: ٢] ودنيوية وإن كان المقصود بها الدين وهي قوله تعالى: ﴿وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً﴾ [الفتح: ٣] وقدَّم الأُخروية على الدنيوية تقديماً للأَهَمّ، فانتظم بذلك تعظيم قدر النبي ﷺ بإتمام أنواع نِعَم الله تعالى المتفرقة في غيره».

وبعد أن وقفتُ على هذا المعنى رأيت ابن عطية قد وقع عليه فقال: «وإنما المعنى تشريف النبي ﷺ بهذا الحكم، ولم تكن ذنوباً البتة»، وقد وُفِّق فيما قاله.

التنبيه الثاني والسبعون: قوله: «ثم أَخذ على الكوثر حتى دخل الجنة». قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام في تفسيره: «هذا الحديث دليل على أَن السدرة ليست في الجنة». وجَزَم به ابن أَبي جمْرَة. وقال ابن دحية: «ثُمَّ هنا ليست للترتيب كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [البلد: ١٧] إنما هي مثل الواو للجمع والاشتراك فهي بذلك خارجة عن أَصلها، قال صاحب فتح الصفا: «وهي خِلاف الظاهر».

التنبيه الثالث والسبعون: قال بعض العلماء في توجيه كون درهم القَرْض بثمانية عشر: إن درهم القرض بدرهمَين من دراهم الصدقة كما ورد، ودرهم الصدقة بعشرة، ودرهم القرض يرجع للمُقْرِض بَدَلُه، وهو بدرهمين من جملة مبلغ أَصله عشرون يتأَخر للمُقْرض منه ثمانية عشر.

وسمعت شيخنا الإمام العلامة نور الدين المَحلِّي يذكر ذلك [في] الأُصول. ثم رأَيت في «نوادر الأُصول» للحكيم الترمذي ما نَصُّه: «معنى الحديث أَن المُتصَدِّق حُسِب له الدرهم الواحد بعشرة، فدرهم صدقته وتسعة زائدة فصارت له عشرة، والقَرْض ضوعف له فيه بدرهم والتسعة مضاعفة فهذه ثمانية عشر، ودرهم القَرْض لم يُحْسَب لأَنه يرجع إليه، فيبقى التضعيف وهو ثمانية عشر، وفي الصدقة لم يرجع إليه فصارت له عشرة.

التنبيه الرابع والسبعون: قال ابن دحية: «في عَرْض الجنة عليه كرامة عظيمة لأَنه كان يعرض الجنة على أُمته ليشتروها كما قال عن ربه تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

فأَراد الله تعالى أَن يُعَايِن نَبِيُّه ﷺ ما يَعْرِضه على أُمته ليكون وصفه لها عن مشاهدة ولأَنه كان يدعو الناس إلى الجنة وهي الدار التي هَيَّأَها الله تعالى لضيافة عباده المؤمنين وبعثته ﷺ داعياً إليها فأَراد الله تعالى أَن يُرِيَه الدار وكثرة ما أَعَدَّ فيها من النعيم والكرامة لئلا يَضِنَّ بالدعوة وليعلم أَنها تَسَع الخلائق كلهم ولا تمتلئ حتى ينشئ الله لها خَلْقاً، كما ثبت في الحديث. ويُحْتَمل أَنه إنما أَراه إياها ليعلم خِسَّة الدنيا في جنب ما رآه فيكون في الدنيا

أَزهد وعلى الشدائد أَصبر. فقد قيل: حبذا محنة تؤدي بصاحبها إِلى الرخاء وبؤس نعمة تؤدي بصاحبها إِلى البلاء. ويحتمل أَن الله تعالى أَراد أَلاَّ يكون لأَحد كرامة إِلا ولمحمد مثلها، ولما كان لإِدريس كرامة دخول الجنة قبل يوم القيامة أَراد الله سبحانه وتعالى أَن يكون [ذلك] أَيضاً لصَفِيِّه ونَجِيِّه محمد ﷺ».

التنبيه الخامس والسبعون: قال ابن دِحْية: «إِنما عُرضت عليه النار ليكون آمناً يوم القيامة، فإِذا قال سائر الأَنبياء: نفسي نفسي فَنَبِيُّنا يقول: «أُمَّتِي أُمَّتِي، وذلك حين تُسْجَر جهنم، ولذلك أَمَّن الله محمداً ﷺ، فقال عزّ من قائل: ﴿يَوْمَ لا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ﴾ [التحريم: ٨] والحكمة في ذلك أَن يفزع إِلى شفاعة أُمته، ولو لم يُؤَمِّنه لكان مشغولاً بنفسه كغيره من الأَنبياء، لأَنهم لم يَرَوْا قبل يوم القيامة شيئاً منها، فإِذا رَأَوْها جزعوا وكَفَّت أَلسنتهم عن الخطبة والشفاعة من هَوْلِها وشغلتهم أَنفسهم عن أُممهم، وهو ﷺ قد رآها قبل ذلك فلا يفزع منها مثل ما فزعوا فيقدر على الخطبة وهو المقام المحمود، لأَن الكفار لما كانوا يُكَذِّبونه ويستهزئون به ويُؤْذونه أَشد الأَذى أَراه الله سبحانه وتعالى النار التي أَعَدَّها للمُسْتَخِفِّين به تطييباً لقلبه وتسكيناً لفؤاده وللإِشارة إِلى أَن مَنْ طَيَّب قَلْبَه بإِهانة أَعدائه والانتقام منهم فأَوْلى أَن يُطَيِّبَه في أَوليائه بالشفاعة والإِكرام، وليعلم مِنَّة الله عليه حين أَنقذهم منها ببركته وشفاعته.

التنبيه السادس والسبعون: لم يَرَ مالكاً في صورته التي يراه عليها المُعَذَّبون في الآخرة، ولو رآه على تلك الصورة لما استطاع أَن ينظر إِليه.

التنبيه السابع والسبعون: قال الطيبي: «إِنما بدأَ مالكُ رسولَ الله ﷺ، بالسلام ليزيل ما استشعر من الخوف منه بخلاف سلامه على الأَنبياء ابتداءً».

التنبيه الثامن والسبعون: ذكر ﷺ أَنه لم يَلْقَه مَلَك من الملائكة إِلا ضاحكاً مستبشراً إِلا مالكاً خازن النار، وذلك أَنه لم يضحك لأَحد قبله، ولا هو ضاحك لأَحد بعده. قال الله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ﴾ [التحريم: ٦] وهم مُوَكَّلون بغضب الله تعالى، فالغضب لا يزايلهم أَبداً.

وفي هذا الحديث معارضة لما رواه الإِمام أَحمد وأَبو الشيخ عن أَنَسٍ رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «مالي لم أَرَ ميكائيل ضاحكاً قط؟» قال: «ما ضحك منذ خُلِقت النار»(١). وهذا الحديث يعارضه ما رواه الدارقطني وغيره أَن رسول الله تَبَسَّم في الصلاة، فسئل عن ذلك فقال: «رأَيت ميكائيل راجعاً في طلب القوم وعلى جناحيه الغُبَار، فضَحِك إِلَيّ، فتَبَسَّمْتُ إِليه» قال السهيلي: «وإِذا صَحَّ الحديثان فوَجْهُ الجَمْع بينهما أَن يكون لم

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٢٤/٣ وابن كثير في البداية والنهاية ٤٦/١.

يضحك منذ خُلِقت النار إلا هذه المَرّة التي ضَحِك فيها لرسول الله ﷺ، فيكون الحديث عاماً يُراد به الخصوص أو يكون الحديث الأول حَدَّث به رسول الله ﷺ قبل هذا الحديث الآخر، ثم حَدَّث بَعْد بما حَدَّث به من ضَحِكه إليه».

التنبيه التاسع والسبعون: المناسبة بين المِعْراج التاسع ـ وهو المستوى الذي سُمِع فيه صريف الأقلام ـ والعام التاسع من سني الهجرة. قال ابن دحية: «كان في العام التاسع غزوة تبوك وفيها خرج رسول الله ﷺ من المدينة إلى الشام في العدد الذي لم يَتِمّ قَبْلَه مِثْلُه، كان العدد ثلاثين ألفاً، وكانت الشُّقَّة بعيدة، ولهذا لم يُوَرِّ فيها، بل أَعْلَمَ النَّاسَ بوَجْهِهِم ليكون تَأَهُّبُهم بحسب ذلك، ومع هذا الاجتهاد في الاستعداد لم يَلْقَ ﷺ حَرْباً ولا افتتح بلداً، لأن أَجَل فتح الشام لم يكن حَلَّ بعد، فانْتَسَخ العزْمُ بالقَدَر وبجفاف القلم ورجع ﷺ إلى المدينة وعلى المسلمين الوقار والسكينة من غير اضطراب عند انصراف العزيمة.

التنبيه الثمانون: صريف الأقلام، بالصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء. قال القاضي والنووي رحمهما الله تعالى: هو صوت حركتها وجريانها على ما تكتبه الملائكة من أقضية الله تعالى ووَحْيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ أو ما شاء الله من ذلك أن يُكْتَب ويُرْفَع لما أراده من أمره وتدبيره. وفيه حجة لأهل السُّنَّة في الإيمان بصحَّة كتابة الوَحْي والمقادير في كتب الله تعالى من اللوح المحفوظ بالأقلام التي هو يعلم كيفيتها على ما جاءت به الآيات في كتابه والأحاديث الصحيحة، وأن ما جاء من ذلك على ظاهره، لكن كيفية ذلك وصورته وجنسه لا يعلمه إلا الله تعالى، ومَنْ أَطْلَعَه على شيءٍ منه من ملائكته ورُسُلِه. وما يَتَأَوَّلُ هذا ويُحِيلُه إلا ضعيف النظر والإيمان، إذ جاءت به الشريعة، ودليلُ العقول لا يُحِيله، والله تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، حِكْمةً من الله وإظهاراً لما يشاء من غَيْبِه لمن يشاء من ملائكته وسائر خَلْقه وإلا فهو غَنِيٌّ عن الكتب والاستذكار.

التنبيه الحادي والثمانون: قال ابن دِحْيَة: «قد عُلِم أن الأقلام إنما تكتب الأقدار، والقَدَر المكتوب قديم، وإنما الكتابة حادثة. وظاهر الأخبار أن اللوح المحفوظ فُرِغ من كتابته وجَفَّ القلم بما فيه قبل خَلْق السموات والأرض، وإنما هذه الكتابة المحدودة في صُحُف الملائكة كالفروع المُنْتَسَخَة من الأصل، وفيها المحو والإثبات على ما ورد في الأثر. وأَصْلُ اللوح المحفوظ الذي انْتُسِخ منه اللوح هو علم الغَيْب القديم في أَزَل القِدَم وهو الذي لا مَحْوَ فيه ولا إثبات حيث لا لَوْح ولا قَلَم.

والحكمة البالغة ـ والله أعلم ـ في سماعه لصريف الأقلام حصول الطمأنينة بجفاف القلم بما في القَدَر حتى يمكن التفويض للقَدَر لا للسَّبَب، وحتى يُتَعَاطَى السَّبَبُ تَعَبُّداً لا

تَعَوُّذاً، وبذلك يَتِمُّ التَّوَكُّل ويَسْكُن الاضطراب عند اختلاف الأَسباب. وقال القرطبي: «وأَصل الأَقلام الموصوفة هنا، هي المُعَبَّر عنها بالقَلَم المُقْسَم به في قوله تعال: ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم: ١] ويكون القلم هذا للجنس».

التنبيه الثاني والثمانون: المناسبة بين المِعْراج العاشر وهو الرفرف حين لقى الله تعالى وحَضَر بحضرة القُدْس وقام مقام الأُنْس ورُفِع الحجاب وسَمِع الخِطاب، وكان قاب قوسَيْن أَو أدنى لا بالصورة بل بالمعنى، أَن العام العاشر اجتمع فيه اللقاءان: أَحدهما: لقاء البيت وحَجّ الكعبة ووقوف عرفة وإِكمال الدين وإِتمام النعمة على المسلمين، واللقاء الثاني: بقارب البيت وكانت فيه الوفاة واللقاء والانتقال من دار الفَنَاء إِلى دار البقاء والعروج بالروح الكريمة إِلى المَقْعَد الصِّدْق وإِلى الموعد الحق وإِلى الوسيلة وهي المنزلة الرفيعة التي لا تنبغي إِلا لعبد واحد اختاره الله تعالى وهو محمد ﷺ كما ورد في صحيح الخبر أَنه سُئِل عن الوسيلة فقال: «درجةٌ في الجنة لا تنبغي إِلا لعبدٍ من عباد الله فأَرجو أَن أَكون إِياه»(١) ورجاؤه مُحَقَّق ﷺ، وخاطره مُوَفَّق.

التنبيه الثالث والثمانون: قال ابن دحية: خُصَّ رسول الله ﷺ بالرؤْية والمكالمة لأَنه صاحب الشفاعة يوم القيامة، فتوسَّط قبلها لئلا يقع له حِشْمة البديهة كما يقع لغيره من الأَنبياء فأَراد الله سبحانه وتعالى أَن يزيل عنه الانقباض قبل ذلك ليتمكن من المقام المحمود وأَهَّله قبل المشهد الأَعلى للمشاهدة والكلام.

التنبيه الرابع والثمانون: قوله تعالى: ﴿**وأَعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عَرْشي**﴾، إِلى آخر الحديث. قال التُّورِبَشْتِي: ليس يعني بقوله: «أَعْطَى» أَنها أُنْزِلت عليه بل المعنى أَنه اسْتُجيب له فيما لُقِّن من الآيتين: ﴿**غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**﴾ [البقرة: ٢٨٥] إِلى قوله تعالى: ﴿**أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ولمن يقوم بحقهما من السائلين».

وقال الطيبي: «وفي كلامه إِشعار بأَن الإِعطاء بعد الإِنزال لأَن المراد منه الاستجابة وهي مسبوقة بالطلب والسورة والمعراج كان بمكة، ويمكن أَن يقال هذا من قبيل ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: ٣، ٤] وإِنما أُوثِر الإِعطاء لما عُبِّر عنه بكَنْزٍ تحت العرش».

وروى الإِمام أَحمد عن أَبي ذَرّ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعْطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العَرْش لم يُعْطَهُنّ نبيٌّ قبلي».

---

(١) أخرجه مسلم ٢٨٨/١ (١١- ٣٨٤).

التنبيه الخامس والثمانون: الحكمة في تخصيص فَرْض الصلاة بليلة الإسراء أنه ﷺ لما عُرِج به رأى تلك الليلة تَعَبُّد الملائكة، وأن منهم القائم فلا يقعد، والراكع فلا يسجد، والساجد فلا يقعد، فجمع الله تعالى له ولأُمته تلك العبادات كلها في ركعة واحدة يُصَلِّيها العبد بشرائطها من الطمأنينة والإخلاص.

التنبيه السادس والثمانون: وفي اختصاص فَرْضها بليلة الإسراء إشارة إلى عظم شأنها ولذلك اختصّ فرضُها بِكَوْنِه بغير واسطة بل بمراجعات عِدَّة. قال السهيلي: «وأما فَرْضُ الصلاة عليه هنالك، ففيه التنبيه على فضلها حيث لم تُفْرَض إلا في الحضرة القدسية المُطَّهرة، ولذلك كانت الطَّهَارة من شأنها ومن شرائط أَدائها والتنبيه على أنها من مناجاة الرَّبِّ، وأن الرَّبَّ تبارك وتعالى مُقْبِلٌ بوجهه على المُصَلِّي يناجيه يقول: حَمَدَنِي عَبْدي أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدي إلى آخر السورة، وهذا مُشَاكِلٌ لِفَرْضِها عليه في السماء السابعة حيث سمع كلام الرب وناجاه، ولم يَعْرُج به حتى طَهَّر ظاهره وباطنه بماءِ زمزم كما يَتَطَّهر المُصَلِّي للصلاة وأُخْرِج عن الدنيا بجسمه كما يَخْرُج المُصَلِّي عن الدنيا بقلبه ويُحَرِّم عليه كل شي إلا مناجاة ربه، وتوجهه إلى قِبْلته في ذلك الحين وهي بيت المقدس، ورُفِع إلى السماء كما يَرْفَعُ المُصَلِّي يديه إلى جهة السماء إشارة إلى القِبْلة العليا وهي البيْت المعمور وإلى جهة عَرْش مَنْ يناجيه ويُصَلِّي له سبحانه وتعالى».

التنبيه السابع والثمانون: قوله: «قد وضعت عنك خمساً»، كذا في رواية ثابت عن أَنس. وفي رواية مالك بن صعصعة: «عَشْراً»، وفي رواية شريك: «وضع شطرها». قال النووي: «المراد بحَطِّ الشَّطْر أنه حُطَّ في مَرَّات بمراجعات فلا يخالف رواية ثابت». قال الحافظ: «وكذا العَشْر فكأنه وضع العَشْر في دفعتين والشطر في خمس دفعات، والمراد بالشطر هنا البعض». قال: «وقد حققت رواية ثابت أن التخفيف كان خمساً، وهي زيادة معتمدة يتعَيَّنْ حَمْلُ باقي الروايات عليها». قلتُ: ويؤيد رواية ثابت ما رواه ابن خُزَيْمَة في صحيحه والبيهقي وابن مَرْدَويه من حديث مالك بن صعصعة: «فَحَطَّ عني خمساً»، وفيه: «فما زِلْتُ بين موسى وبين ربي يَحُطُّ عني خمساً خمساً». قال ابن دحية: «ذِكْرُ الشطر أَعَمّ من كونه وقع دفعةً واحدة».

التنبيه الثامن والثمانون: قال أبو طالب الجُمَحِي في كتاب «التحيات»: «لكل قوم تحية، فتحيّة العرب السلام وتحية الأكاسرة السجود قُدَّام المَلك وتقبيل الأرض وتحية الفُرْس طَرْح اليد على الأرض قُدَّام الملك، وتحية الحبشة عَقْد اليدَيْن على الصدر بين يَدَيْ المَلِك بسكون، وتحية الروم كشف غطاء الرأس من بعد تنكيس رأسه. وتحية النوبة إيماء الرجل بالدعاء

بالأَصابع وتحية البِجَا وضع يد الداخل على كتف الملك، فإن بلغ الخدمة رفعها ووضعها مراراً. وهذه التحيات غالبها مجموعة في الصلاة التي هي خدمة ملك الملوك سبحانه وتعالى، ولهذا ناسب أَن يقال في آخرها: «التحيات للّه» إشارة إلى أنه تعالى يستحق جميع التحيات».

التنبيه التاسع والثمانون: وقع في رواية أَنَس عن أَبي ذَرّ رضي الله عنهما: «فَرَض الله على أُمتي خمسين صلاة» وفي رواية ثابت عن أَنَس: «فَرَض الله عَلَيَّ خمسين صلاة كل يوم وليلة». ونحوه في رواية مالك بن صعصعة، فيُحْتَمَلُ أَن يقال في كل من رواية أَبي ذَرّ والرواية الأُخرى اختصار. ويؤيد قَوْلَه في الرواية الأُخرى: «إني فَرَضْتُ عليك وعلى أُمتك خمسين صلاة» إلى آخره. ويقال ذِكْرُ الفَرْض عليه يستلزم ذِكْرَ الفَرْض على الأُمة وبالعكس، إلا ما استُثْنِيَ من خصائصه.

التنبيه التسعون: قال ابن أَبي جمرة: «الحكمة في كون إبراهيم عليه السلام لم يكلم المصطفى في طلب التخفيف أَن مَقَام الخُلَّة إنما هو الرِّضَى والتسليم، والكلام في هذا الشأن ينافي ذلك المقام. وموسى هو الكليم، والكليم أُعْطِيَ الإدلال والانبساط». وقال القرطبي: «الحكمة في تخصيص مُوسَى عليه الصلاة والسلام بمراجعة النبي ﷺ في أَمر الصلاة، لعلها لكون أُمة موسى كُلِّفت من الصلوات ما لم يُكَلَّف به غيرها من الأُمم فثَقُلَت عليهم فأَشفق موسى على أُمة محمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ من مثل ذلك ويشير إلى ذلك قول موسى: «إني قد جَرَّبْتُ الناس قبلك».

وقال غيره: لعلها من جهة أَنه ليس في الأَنبياء مَنْ له أَتباع أَكثر من موسى، ولا مَنْ له كتاب أَكبر ولا أَجْمَع للأَحكام من كتابه، فكان من هذه الجهة مضاهياً للنبي ﷺ، فناسب أَن يَتَمنَّى أَن يكون له مثل ما أُنْعِم به عليه من غير أَن يريد زوالَه عنه، وناسب أَن يُطْلِعَه على ما وقع له وينصحه فيما يتعلق به. ويُحْتَمَل أَن موسى عليه السلام لما غَلَب عليه في الابتداء الأَسَف على نَقْص حَظّ أُمته بالنسبة لأُمة محمد ﷺ حتى تمنى ما تمنى أَن يكون منهم، استدرك ذلك ببذل النصيحة لهم والشفقة عليهم ليزيل ما عساه أَن يُتَوَهَّم عليه مما وقع منه في الابتداء، والعلم عند الله تعالى.

قال القرطبي: «وأَما قول من قال إنه أَول من لقيه بعد الهبوط فليس بصحيح، لأَن حديث مالك بن صعصعة أَنه رآه في السادسة وإبراهيم في السابعة، وهو أَقوى إسناداً من حديث شريك الذي فيه أَنه رأَى موسى في السابعة». قال الحافظ: «إذا جمعنا بينهما بأَنه لقيه في الصعود في السادسة، وصعد موسى معه إلى السابعة فلقيه فيها بعد الهبوط ارتفع الإشكال وبَطَل الرَّدّ».

قال السُّهَيْلي: «وأَما اعتناءُ موسى عليه السلام بهذه الأُمة وإلحاحهُ على نبيها أَن يشفع

لها ويسأَل التخفيف عنها فلقوله ـ والله أَعلم ـ حين قضي إِليه الأَمر بجانب القربى ورأَى صفات أُمة محمد عليه السلام في الأَلواح وجعل يقول: إِني أَجد في الأَلواح أُمَّةً صفتهم كذا: اللهم اجعلهم أُمتي. فيقال له: تلك أُمة محمد. قال: اللهم اجعلني من أُمة محمد، وهو حديث مشهور في التفاسير. فكان إِشفاقه عليهم واعتناؤه بأَمرهم يَعْتَنِي بالقوم مَنْ هو منهم لقوله: اللهم اجعلني منهم».

التنبيه الحادي والتسعون: في قول موسى: «قد عالجتُ الناسَ قبلك» إِلى آخره دليل على أَن علم التجربة زائدة على العلوم، ولا يُقْدَر على تحصيله بكثرة العلوم ولا يُكْتَسَب إِلا بها، أَعني التجربة، لأَن النبي ﷺ أَعلم الناس وأَفضلهم سِيَّما وهو حديث عهد بالكلام مع ربه تبارك وتعالى وورد إِلى موضع لم يطأْه مَلَك مُقَرَّب ولا نبيٌّ مُرْسَل، ثم مع هذا الفضل العظيم قال له موسى عليه السلام: «أَنا أَعلم بالناس منك»، وذكر له العِلَّة التي لأَجلها كان أَعلم منه بقوله: «عالجت بني إِسرائيل أَشَدَّ المعالجة». فأَخبره أَنه أَعلم منه في هذا العِلْم الخاص الذي لا يُوجَد ولا يُدْرَك إِلا بالمباشرة وهي التجربة.

التنبيه الثاني والتسعون: وفيه دليل على جواز الحكم بما أَجرى الله تعالى بحكمته من ارتباط العوائد لأَن موسى عليه السلام حَكَمَ على هذه الأُمة بأَنها لا تُطِيق، وذلك سبب ما أَخبر به وهو علاج بني إِسرائيل، ومَنْ تقدَّم أَقوى وأَجلد مِمَّن يأْتي بعد، كما أَخبر تعالى بقوله: ﴿**كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**﴾ [الروم: ٩] فرأَى موسى أَن ما لم يحمله القَوِيّ فمن باب أَولى أَلا يحمله الضعيف فهو بعد مُحْكَم بأَثر الحكمة في ارتباط العادة، مع أَن القُدْرَة صالحة لأَن يحمل الضعيف ما لا يحمل القَوِيّ. وقد وَرَدَ أَن الصلاة التي كُلِّف بها بنو إِسرائيل ركعتان بالغداة وركعتان بالعَشِيّ ومع هذا لم يقوموا بذلك.

التنبيه الثالث والتسعون: وفي سؤال موسى طلب التخفيف عن هذه الأُمة دليلٌ على أَن بكاءه أَوَّلاً حين صعود النبي ﷺ لم يكن إِلا للوجه الذي أَبْدَيْنَاه لا لغيره، لأَنه لو كان لغير ذلك لبكى حين رجوع النبي ﷺ أَو سَكَت، ولكنه قام في الخدمة والنصيحة للنبي ﷺ، فلما أَن كان بكاؤه أَوَّلاً للوجه الذي ذكرناه ولم يصادف ما أَشرنا إِليه وإِنما كانت هذه النَّفْحَة من النَّفَحَات الخاصَّة بالنبي ﷺ، تَعَرَّض أَيضاً لهذه الأُمة بطلب التخفيف، فصادف اعتراض هذه النفحة في موضعها لأَنها خاصة بهذه الأُمة. وتكلم هو ﷺ في حَقِّها فأُسْعِف فيما أَراد وحَقَّق الله عز وجل دعاءه إِذ ذاك ورَدَّ الخمسين إِلى خَمْس، وزاد بالإِفضال فجعل الحَسَنَة عَشْراً في الثواب عليها، فأَزال الله تعالى عن الأُمة فَرْضَ تلك الصلوات وأَبقى لهم ثوابها تفضلاً منه وإِحساناً.

التنبيه الرابع والتسعون: قال ابن أَبي جَمْرَة: «في الحديث دليل للصوفية حيث

يقولون: «حسنات الأَبرار سيئات المُقرَّبين»، لأَن إبراهيم عليه السلام لم يتكلم في هذا الشأن بسبب أَن مَقامه أَعلى من الكلام، فلو تكلم لكان ذلك في حقه سيئة بالنسبة إلى مقامه الخاص، وموسى عليه السلام كان كلامه مما يتقرب به إلى مقامه الخاص، كل منهم له مقام خاص لا يتعدَّاه».

التنبيه الخامس والتسعون: قال ابن دِحْيَة: «في هذه المراجعة التي وقعت بين موسى والنبي عليهما السلام فوائد منها: تكرار الشفاعة في القصة الواحدة إلى أَن يتم مقصود الشافع، ومنها أَن الأَمر إذا انتهى إلى حَدّ الإلحاح كان الأَوْلَى الترك، ومنها تعظيم الأَمر الذي لا يُقْدَر عليه، ومنها الرجوع إلى المُشِير الناصح، ومنها أَن الشافع لا يَتَوَقَّف على طلب المشفوع له في ذلك، ومنها أَن الشافع يُقيم عُذْرَ المشفوع له عند المشفوع عنده في ذلك، ومنها أَنه لا يمتنع من الشفاعة وإن كان داخلاً فيها».

التنبيه السادس والتسعون: إنما امتنع النبي ﷺ من طلب التخفيف في المرة العاشرة لما أَمره موسى بذلك لأَمْرَيْن:

أَحدهما: أَن الأَمر إذا انتهى إلى حَدّ الإلحاح كان الأَوْلَى التَّرْك.

ثانيهما: أَن يكون النبي ﷺ تَفَرَّس أَن هذا العدد لا يُحَطُّ عنه فاستحى أَن يسأَل في مَظِنَّة الرَّدّ، ووَجْهُ التَّفَرُّس أَن الله تعالى أَدْرج التخفيف خَمْساً خَمْساً من خَمْس إلى خَمْس. فالقياس أَنه إن خَفَّفَ بحَذْف الخمسة الأَخيرة ارتفعت الصلاة بجملتها، وقد عَلِم أَنه لا بُدَّ من وظيفة، فلهذا ترك السؤال، وكشف الغَيْب أَن العِلْم القديم تَعَلَّق ببقاء هذه الخَمْس، ولهذا بَقِيتْ، فصَدَّقت الفراسة، وأَصابت الفكرة، ولهذا جاء في بعض الطُّرُق أَن النبي ﷺ لما امتنع من المراجعة في العاشرة نادى مُنَادٍ: «أَمضيت فريضتي وخَفَّفْتُ عن عبادي».

التنبيه السابع والتسعون: قال ابن دِحْية: «دَلَّت مراجعتُه ﷺ في طلب التخفيف تلك المَرَّات كلها، لأَنه عَلِم أَن الأَمر في كل مَرَّة لم يكن على سبيل الإلزام بخلاف المَرَّة الأَخيرة، ففيها ما يُشْعِر بذلك لقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق: ٢٩].

التنبيه الثامن والتسعون: قال ابن أَبي جَمْرَة: «في امتناع النبي ﷺ في المَرَّة العاشرة من طلب التخفيف دليل على أَن الله سبحانه وتعالى إذا أَراد إسعادَ عَبْد جعل اختيارَه في مَرْضَاة رَبِّه، لأَن النبي ﷺ جعل اختياره وإيثاره لِمَا أَراد الحَقُّ تبارك وتعالى إِنْفَاذَه وإمضاءه، وهو فَرْضُ الصلوات الخَمْس، وذلك تكريم له ﷺ وترفيع، لأَنه لو رجع لِطَلَب التخفيف فلم يُخَفَّف كما خُفِّف أَولاً لكان اختيارُه مُخالِفاً للمقدور. فلما أَن اختار وأَسْعِفَ في اختياره كان دليلاً على ما استدللنا عليه وهو عُلُوّ منزلته ﷺ، فإنه ما دام يطلب التخفيف أُسْعِف في مُناه، ففي كل حالٍ من طلب ومن عدم طلب كان اختيارُه موافقاً للمقدور».

وفيه دليل للصوفية حيث يقولون: «إن الحال حامل «لا محمول»، لأَن النبي ﷺ لما أَن ورد عليه حالُ الإِشفاق على أُمته بادر إِلى طلب التخفيف عنهم ولم ينظر لغير ذلك، ثم لما وَرَد عليه حالُ الحياء من الله تعالى لم يلتفت لأُمته إِذ ذاك ولا طلب شيئاً».

التنبيه التاسع والتسعون: في هذا الحديث دليل على أَن قَدَر الله تعالى على قِسْمَيْن، كما قدمنا. فالقَدَر الذي قَدَّره وقَدَّر أَلاَّ ينفذ بسبب واسطةٍ أو دُعَاء هو فَرْضُه هنا للخمسين صلاة لأَنه تعالى لما أَن أَمر بالخمسين أَوّلاً وسبقت إِرادته أَلاَّ ينفذ ذلك جعل بحكمته موسى هناك سبباً لرفع ذلك. والقَدَر الذي قَدَّر إِنفاذه ولا يَرُدُّه رادّ هو فَرْضُه للخمس صلوات لأَنه تعالى لما أَن أَمَرَ بها وسبقت إِرادته بإِمضائها لم ينفع كلام موسى عليه السلام إِذ ذاك لأَنه من القَدَر المحتوم.

التنبيه الموفي مائة: قال ابن دِحْية: «فإِن قُلْتَ: ما معنى قوله تعالى: ﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ**﴾ [ق: ٢٩]؟ فإِن كان المُرَاد لا يُبَدَّل الخَبَر فكيف يطلق الحديث، لأَن السياق في الأَحكام فلهذا نَسخ الخمسين إِلى خَمْس وتبديل النَّسْخ لا يبقى، فإِن كان المُرَاد لا يُبَدَّل الحُكْم فقد تَقَرَّر أَن النَّسْخ في الإِحكام جائز وقد وقع في هذا الحديث إِلى خَمْس. فالجواب أَنه تعالى إِذا أَخبر عن الحُكْم أنه مُؤَبَّد استحال التبديل والنَّسْخ حينئذ لأَجل العِلْم، وقد أَخبر الله تعالى أَنه الفريضة أي أَبَّدَها فلا يُبَدَّل الخبر ولا يُتَوَقَّع النَّسْخ بعد ذلك والله تعالى أَعلم».

ويكون المراد أَنه تعالى وعَدَ هذه الأُمة على أَلسنة الملائكة أو في صحفها أَن لهم أَجْرَ خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فلما نَسَخها إِلى خَمْس حصل للعدد نقص، وإِن الأَجْر المراد لم يَنْقُص لأَن الحَسَنة بعشر أَمثالها، ولهذا قال تعالى: ﴿**هُنَّ خَمْس وهُنَّ خمسون**﴾ أَي هُنَّ خَمْسٌ عدداً وخمسون اعتداداً، ذلك الفضل من الله، ويكون ذلك كقوله في الصيام: «من صام رمضان وأَتْبَعَهُ سِتّاً من شوّال فكأَنما صام الدهر»[1]، بتأْويل أَن الحسنة بعَشْر أَمثالها، فستة وثلاثون في عشرة بثلثمائة وستين عدد أَيام السَّنَة.

واعتُبِرت الصلاة بما تحتاج إِليه كل صلاة من وضوء ونحوه، فوُجِد لهاما يأْتي على ساعتين وبعض الساعة غالباً، فعُلِم بذلك أَن الخمسين لو استقرّت على أُمة لاستوعبت اليوم والليلة لما تحتاج إِليه كل صلاة من طهارة وغيرها، وكانت الطهارة واجبة التجديد في أَول الأَمر، ثم نُسِخ الوجوب إِلى النَّدْب، فكأَن المُصَلّي من هذه الأَمة لهذه الخمس استوعب الدَّهْرَ صلاةً وكأَنه أَيضاً استوعب الدهرَ صياماً.

---

(١) أخرجه مسلم ٨٢٢/٢ (٢٠٤- ١١٦٤).

والظاهر أَن نقص الخمسين إِلى خَمْس ليس من تبديل القول لأنه تبديل تكليف، وأَما بعد الإِخبار بالخمس والخمسين فتبديل أَخبار.

التنبيه الحادي والمائة: قال أَبو الخَطَّاب وتَبِعه ابن المنير: «جواز النَّسْخ قبل التمكن من الفعل قبل دخول الوقت مذهب أَهل السنة خلافاً للمعتزلة، وجرى كل فريق على قاعدته وعقيدته. فعند أَهل السُّنَّة التكليف على خلاف الاستطاعة جائز، بل واقع إِذ الأَفعال كلها مخلوقة لله تعالى، والعبد مطالب بما لا يَقْدِر على إِيجاده ولا يتمكن من التأْثير في إِحرازه، عملاً بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] بتقدير أَن «ما»هنا مصدرية، والمعتزلة تجعل «ما» هنا موصولة وجَرَوْا على عقيدتهم في اعتقادهم أَن العَبْد يخلق فِعْلَ نفسه ويُوجِد طاعةَ رَبِّه باستطاعته واختياره، ولا يسقط التكليف عندهم على خلاف الاستطاعة فلا يُتَصَوَّر النَّسْخ قبل التمكن من الفعل كما تُتَصَوَّر قاعدته. واستدل أَهل السُّنَّة على جواز النَّسْخ قبل التمكن بأَنه وقع. وأَي دليل على الجواز أَتَمّ من الوقوع؟.

ومَثَّلوا ذلك بقصة الذَّبيح فإِن الله تعالى أَمر إِبراهيم بذبح ولده، ثم خَفَّف ذلك ونَسَخه إِلى الفِداء قبل أَن يمضي زمن يسع الذَّبْح ولا يمكن فيه الفِعْل. ومن هنا ضاقت على المعتزلة المضايق حتى غالطوا في الحقائق، واختلفوا في الأَجوبة، فمنهم من قال لم يأْمره بالذبح لأَن ذلك كان في المنام لا في اليقظة، ولا عَقْلَ أَضَلّ من عقل مَنْ زعم أَنه استظهر على نبيٍّ في واقعة هو صاحبُها وقضى فيها ومنه ظهرت، وعنه أُثِرت، فإِن الذبيح قال فيما حكاه الله تعالى وصَوَّبه ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ونحن نقول إِن راوي الحديث أَعْرَف بتأْويله وتفسيره، وأَقْعَد بتبيينه وتنزيله.

وحتى لو تعارض تأْويلان قَدَّمنا تأْويل صاحب الواقعة لأَنه أَفْهَم لها. فكيف لا يُقَدَّم تأْويل الذَّبيح النبي الذَّكِيّ المُسَدَّد المُصَوَّب من رَبِّ العالمين على تأْويل المُبْتَدِع الضَّالّ الحائر المِشكين؟ ومنهم مَنْ قال: أَمَرَ ولكن بالمُقَدِّمات: الشَّدّ والتَّلّ والصَّرْع وتناوُلِ «المُدْيَة». وهذا من الطراز الإِول لتهافت القول، فإِن إِبراهيم قال: ﴿إِنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢] ولم يَقُل أَصرعك، وأَيضاً ليست المقدمات «بلا»، ولا سيما في حق إِبراهيم عليه السلام الذي علم أَن الحال لا ينتهي بغير الاضطجاع خاصةً بما لا يَتَعَنّى حينئذ للفِداء، فهذا أَحْيَد عن الشَّنَن وجنوح إِلى العِناد والغَبْن.

ومنهم من قال: «أُمِر بالذَّبْح وفَعَل، ولكن انقلبت السِّكِّين أَو لم تقطع، أَو انقلبت العُنُق حديداً، وهذا من النَّمَط المردود، وحاصله النَّقْل بالتقدير وهو الكذب بعينه، ومنهم من قال: «ذُبِح والْتَحم»، وهذه مُغَايَرَةُ النقول ومكابرة العقول. وذلك أَن الأَمر لو كان على هذه المثابة

لم يقع الاقتصار في الآية على حكاية ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ [الصافات: ١٠٣] ولكان ذِكْرُ الذَّبْح أَوقع في الابتلاءِ ولسقطت فائدة الفِداء. فبطُل ما قالوه، وتَعَيَّن القول بجواز النَّسْخ قبل التمكن بدليل وقوعه في قصة الذَّبيح، فلا يمكنهم ترديد مثلها في قصة الإِسراء إِذ لا خَفَاءَ بأَنه ﷺ أُمِرَ في حق الأُمة بخمسين صلاة ثم نُسِخ ما نُسِخ قبل أَن يدخل وقت الصلاة فضلاً عن أَن يمضي زمان يَسَعُها.

قال شيخنا السهيلي: وأَما فَرْض الصلوات خمسين ثم حُطَّ منها عَشْراً بعد عَشْر إِلى خَمْس صلوات وقد رُوِي أَيضاً أَنها حُطَّت خمساً بعد خَمْس. وقد يمكن الجمع بين الروايتين لدخول الخَمْس في العَشْر، فقد تُكُلِّم في هذا النقص من الفريضة أَهو نَسْخ أَم لا؟ على قولين. فقال قوم: هو من باب نَسْخ العبادة قبل العمل بها، وأَنكر أَبو جعفر النحاس هذا القول من وجهين:

أَحدهما: البناء على أَصله ومذهبه في أَن العبادة لا يجوز نسخها قبل العمل لها لأَن ذلك عنده من البداء، والبداء محال على الله سبحانه.

الثاني: أَن العبادة إِن جاز نَسْخُها قبل العمل بها عند من يرى ذلكَ فليس يجوز عند أَحد نسخها قبل هبوطها إِلى الأَرض وهبوطها إِلى المخاطبين ... إِنما هي شفاعة شُفِّعَها رسول الله ﷺ لأُمته ومراجعةٌ راجعها ربه ليخفف عن أُمته ولا يُسَمَّى مثل هذا نَسْخاً».

أَما مذهب أَبي جعفر النحاس في أَن العبادة لا تُنْسَخ قبل العمل بها وأَن ذلك بَدَاء فليس بصحيح لأَن حقيقة البَدَاء أَن يبدو للآمِر رأْيٌ يتبيَّن له الصواب فيه بعد أَن لم يكن تَبيَّنه، وهذا مُحَال في حق من يعلم الأَشياءَ بعِلْم قديم. وليس النَّسْخ من هذا في شيءٍ، إِنما النَّسْخ تبديل حُكْم بحكم، والكل سابق في علمه ومقتضى حكمته، كنَسْخِه المَرَضَ بالصِحَّة والصِّحَّة بالمرض ونحو ذلك، وأَيضاً بأَن العَبْد المأْمور يجب عليه عند تَوَجُّه الأَمر إِليه ثلاث عبادات: الفِعْل الذي أُمِر به، والعَزْم على الامتثال عند سماع الأَمر، واعتقاد الوجوب إِن كان واجباً، فإِن نُسِخَ الحُكْم قبل الفِعْل فقد حصلت فائدتان: العزم، واعتقاد الوجوب، وعَلِم اللّٰهُ تعالى ذلك منه عِلْمَ مشاهدة. فَصَحَّ امتحانُه له واختبارُه إِياه، وأَوقع الجزاء على حَسَب ما عُلِم من نيته والذي لا يجوز إِنما هو نَسْخ الأَمر قبل نزوله وقبل عِلْم المُخَاطَب به. والذي ذكر النحاس من نَسْخ العبادة بعد العمل بها ليس هو حقيقة النَّسْخ لأَن العبادة المأْمور بها قد مضت وإِنما جاء الخطاب بالنهي عن مِثْلها لا عنها. وقولنا في الخمس والأَربعين صلاة الموضوعة عن محمد ﷺ وأُمته. **أَحد وَجْهَيْن** إِما أَن يكون نَسْخ ما وجب على النبي ﷺ من أَدائها، وَرَفع عنه استمرار العَزْم واعتقاد الوجوب. وهذا قد قدَّمنا أَنه نُسِخ على الحقيقة، ونُسِخ عنه ما وَجَب

عليه من التبليغ، فقد كان في كل مرة عازماً على تبليغ ما أُمِرَ به [وقول أبي جعفر إنما كان شافعاً ومُرَاجِعاً يَنْفِي النَّسْخ فإن النَّسْخ قد يكون عن سبب معلوم فشفاعته عليه السلام لأُمته كانت سبباً للنَّسْخ لا مُبْطِلةً لحقيقته، ولكن المنسوخ ما ذكرنا من حكم التبليغ الواجب عليه قبل النَّسْخ وحُكْم الصلوات الخمس في خاصته وأما أُمته فلم يُنْسَخ عنهم حُكْم [إذ] لا يُتَصَوَّر نَسْخ الحُكْم قبل وصوله إلى المأمور به. وهذا كله أحد الوجهين في الحديث.

والوجه الثاني: أن يكون هذا خبراً لا تعبداً وإذا كان خبراً لم يدخله النَّسْخ، ومعنى الخبر أنه عليه السلام، أَخْبَرَهُ رَبُّه أن على أُمته خمسين صلاة ومعناه: أنها خمسون في اللوح المحفوظ، وكذلك قال في آخر الحديث: هي خمس، وهي خمسون والحسنة بعشر أمثالها، فتأوله رسول الله ﷺ على أنها خمسون بالفَضْل، فلم يزل يراجع ربه حتى بَيَّن له أنها خمسون في الثواب لا بالعمل.

التنبيه الثاني والمائة: قد عُلِم مما سبق جواز نَسْخ الفِعْل قبل التمكن من فعله، وأن ذلك صحيح في حقه ﷺ، وغير صحيح بالنسبة لأُمته لاستحالة النَّسْخ قبل البلاغ إذ شرط التكليف تمكين المُكَلَّف من العِلْم به، أي إذا لم يكن العلم به شرطاً فإن نَسْخ التكليف قبل البلاغ يناقض ذلك.

وقال ابن دِحْية: «يصح النَّسْخ في حق الأُمة أيضاً بأن الإسلام يوجب على كل مسلم الدخول في فروعه وفي شرائع الدين بتفصيلها، وكل من آمَن بالنبي ﷺ في حياته دخل في الإسلام. على أن هنالك تكاليف منها ما نُزِّل وبُيِّن بكل وجه، ومنها ما نُزِّل مُجْمَلاً من وجه ومُبَيَّناً من وجه، ومنها ما لم يُنَزَّل بعد وسَيُنَزَّل، والإيمان والالتزام شامل للجميع. فكما يجوز نَسْخ التكليف بعد أن يُبَلَّغ بخصوصية يجوز أيضاً قبله. وأكثر القواعد أن ما وَجَبَ مُجْمَلاً ثم بُيِّن في وقت الحاجة كالصلاة والزكاة، لم يَقْتَرِن بأول وجوبها ذِكْرُ أعدادها ولا إعدادها ولا أوقاتها ولا هيئاتها ولا شرائطها، بل للتكليف بها مستقر مع هذه الإجمالات، لأن المكلف بالالتزام الأول قد دخل على التزامها على ما هي عليه في نفس الأمر. وقد قال النبي ﷺ لمن سأله عن الإسلام هو «أن تشهد ألاَّ إله إلا الله وأني رسول الله وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم شهر رمضان وتحج البيت[1]». فنجز التكليف عليه بهذه القواعد مُجَمَلَةً غير مُبَيَّنَة».

التنبيه الثالث والمائة: قال ابن دِحْيَة: «إذا سَمِعْتَ العلماء يتكلمون على النَّسْخ قبل

---

(١) أخرجه البخاري ١/١١٤ (٥٠) ومسلم ١/٤٠ (٧-١٠).

الفِعْل فاعلم أنهم أرادوا قبل مُضِيّ زَمَن يَسَعُ الفِعْل الأول. هذا هو المُخْتَلَف فيه، وإلا فكل نَسْخ مُتَّفَق عليه لا يُتَصَوَّر إلا قبل الفعل لأن ما فُعِل مضى وانقطع التكليف به والنَّسْخ فيه. قال: وإذا سَمِعْتَهم يقولون نَسْخ التكليف قبل البلاغ متعذر لأن شرط التكليف البلاغ فاعلم أنهم يريدون تنجيز التكليف. هذا هو المشروط بالبلاغ. وأما أصل التكليف عندنا فلا يتوقف على ذلك فإن مذهبنا أن الأمر قديم مُحَقَّق قبل وجود المأمور فضلاً عن بلاغه والله تعالى المُوَفِّق.

التنبيه الرابع والمائة: قال بعض أهل الإشارات: «لما تمكنت المحبة من قلب موسى عليه السلام أضاءت له أنوار نور الطور ليقتبس، فاحتبس فلما نودي في النَّادي اشتاق إلى المُنَادِي فكان يطوف في بني إسرائيل فيقول: من يحملني حتى أُبَلِّغ رسالة ربي، ومراده أن تطول المناجاة مع الحبيب، فلما مَرَّ عليه النبي ﷺ ليلة المعراج رَدَّدَهُ في أمر الصلاة ليَسْعَد برؤية حبيب الحبيب. وقال آخر: لما سأل موسى عليه السلام الرؤية ولم تحصل له البُغْيَة، بَقِيَ الشوقُ يُقْلِقُه والأَمَل يُعَلِّلُه، فلما تحقق أن سيدنا محمداً ﷺ مُنِح الرؤية وفُتِح له باب المَزِيَّة أَكْثَر السؤال ليَسْعَد برؤية من قد رأى، كما قيل:

وَأَسْتَنْشِقُ الأَرْوَاحَ مِنْ نَحْوِ أَرْضِكُمْ   لَعَلِّي أَرَاكُمْ أَوْ أَرَى مَنْ يَرَاكُمْ
وَأَنْشُدُ مَن لاَقَيْتُ عَنْكُمْ عَسَاكُمْ   تَجُودُونَ لي بِالْعَطْفِ مِنْكُم عَسَاكُمْ
فَأَنْتُمْ حَيَاتِي إِنْ حَيِيتُ وَإِنْ أَمُتْ   فَيَا حَبَّذَا إِنْ مِتُّ عَبْدَ هَوَاكُمْ

وقال آخر:

وَإِنَّمَا السِّرُّ فِي مُوسَى يُرَدِّدُهُ،   لِيَجتَلِي حُسْنَ لَيْلَى حِينَ يَشْهَدُهُ
يَبْدُو سَنَاهَا عَلَى وَجْهِ الرَّسُولِ فَيَا   لِلّهِ دَرُّ رَسُولٍ حِينَ أُشْهِدُهُ

وقال آخر: لما جلس الحبيب في مَقَام القُرْب، دارت عليه كؤوس الحب، ثم عَادَ وهِلاَلُ ﴿**مَا كَذَبَ الفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾ [النجم: ١١] بَيْنَ عَيْنَيْه، وبِشْرُ ﴿**فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى**﴾ [النجم: ١٠] مِلْءُ قلبه وأُذُنَيْه. فلما اجتاز بموسى عليه السلام قال لسانُ حاله لنبينا ﷺ:

يَا وَارِداً مِنْ أُهَيْلِ الحَيِّ يُخْبِرُنِي   عَنْ جِيرَتِي شَنِّفِ الأَسْمَاعَ بِالْخَبَرِ
نَاشَدْتُكَ اللّهَ يَا رَاوِي حَدِيثِهِمُ   حَدِّثْ فَقَدْ نَابَ سَمْعِي اليَوْمَ عَنْ بَصَرِي

فأجاب لسان حال نبينا ﷺ:

ولَقَدْ خَلَوْتُ مَعَ الحَبِيبِ وَبَيْنَنَا   سِرٌّ أَرَقُّ مِنَ النَّسِيمِ إِذا سَرَى
وَأَبَاحَ طَرْفِي نَظْرَةً أَمَّلْتُهَا   فَغَدَوْتُ مَعْرُوفاً وَكُنْتُ مُنَكَّرَا

التنبيه الخامس والمائة: قوله فلما جاوزت نادى منادٍ: «أَمْضَيْتُ فريضتي وخَفَّفْتُ عن عبادي»، من أقوى ما يُسْتَدَلُّ به على أن الله تبارك وتعالى كَلَّم نبيه ﷺ ليلة الإسراء بغير واسطة.

التنبيه السادس والمائة: ظاهر سياق حديث شريك أن موسى هو الذي قال للنبي ﷺ: «فاهبط باسم الله»، لأنه ذكر عقب قوله ﷺ: «قد والله استحييْتُ من ربي مما أختلف إليه»، قال: «فاهبط»، وليس كذلك بل الذي قال له «اهبط باسم الله» جبريل، وبذلك جَزَمَ الدَّاوُدي .

التنبيه السابع والمائة: قال السهيلي: «فإن قيل: «كيف استباح النبي ﷺ شُرْبَ الماء الذي في القَدَح وهو مِلْكٌ لغيره، وأملاك الكفار لم تكن أبيحت يومئذٍ ولا دماؤهم؟» فالجواب أن العرب في الجاهلية كان في عُرْف العادة عندهم إباحة اللَّبَن لابن السبيل فضلاً عن الماء وكانوا يعهدون بذلك إلى رُعَاتهم ويشترطونه عليهم عند عَقْد إجارتهم ألاَّ يمنعوا [الرِّسْل وهو] اللَّبَن من أحَد مَرَّ بهم، فكيف بالماء؟ وللحُكْم بالعُرْف في الشريعة أُصولٌ تشهد له وقد ترجم البخاري عليه في كتاب البيوع وخَرَّج حديث هِنْد بنت عُتْبَة وفيه: «خذي ما يكفيك وولدِك بالمعروف».

قُلْتُ: وذكر أئمتنا رحمهم الله تعالى في الخصائص أنه ﷺ أُبيح له الطعام والشراب من مالكهما المحتاج إليهما إذا احتاج ﷺ إليهما فإنه يجب على صاحبهما البذل له ﷺ. قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

التنبيه الثامن والمائة: يأتي الكلام على حَبْس الشمس في المعجزات.

التنبيه التاسع والمائة: قوله ﷺ: «فجيء بالمسجد وأنا أنظر إليه» إلى آخره كذا في رواية ابن عباس رضي الله عنهما عند الإمام أحمد والنَّسائي بسند صحيح، وفي رواية عبد الله بن الفَضْل عن أبي سلمة عند مسلم قال: «فسألوني عن أشياء لم أُثبتها فكَرِبْتُ كرباً لم أكرب مثله قط، فرفعه الله تعالى لي أنظر إليه ما يسألوني عن شيء إلا أنبأتُهم به». وفي رواية جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «فَجَلَّى الله لي بيت المقدس فَطَفِقْتُ أُخبِرهُم عن آياته وأنا أنظر إليه». ومعنى «جَلَّى الله بيت المقدس» كشف الحُجُب بيني وبينه حتى رأيتُه، ويُحْتَمَل أن يريد أنه حُمِلَ إلى أن وُضِع بحيث يراه، ثم أُعِيد، ويؤيده رواية ابن عباس السابقة، وهذا أبلغ في المعجزات ولا استحالة في ذلك. وقد أُحْضِر عَرْشُ بلقيس في أقل من طَرْفَة عين. ووقع في حديث أم هانئ عند ابن سعد: «فخُيِّل إليّ بيت المقدس فَطَفِقْتُ أُخبرهم عن

آياته». فإن ثَبتَ احتُمِل أن يكون المراد أنه مُثِّلَ قريباً كما قيل في حديث: «أُرِيتُ الجنة والنار» ويؤيد قوله: «حتى جيء بمثاله».

التنبيه العاشر والمائة: مجموع ما خالفت فيه رواية شريك غيره: من المشهور اثنا عشر شيئاً: الأول: كون المعراج قبل البعثة وقدّمنا جوابه. **الثاني:** كونُه مناماً وتقدم الكلام على ذلك. **الثالث:** أمكنة الأنبياء في السموات وقد اتضح أنه لم يضبط منازلهم لكن وافقه الزهري في بعض ما ذكر. **الرابع:** مخالفته في محل سِدْرة المنتهى وأنها فوق السماء السابعة، مما لا يعلمه إلا الله تعالى، والمشهور أنها في السابعة أو السادسة كما تقدم. **الخامس:** مخالفته في النَّهرَيْن وهما النيل والفُرَات وأن عنصرهما في السماء الدنيا، والمشهور في غير روايته أنهما في السماء السابعة وأنهما تحت سدرة المنتهى وتقدم جوابه **السادس:** شَقُّ الصَّدْر عند الإسراء وقد وافقته روايةُ غَيْرِه كما تَقَدَّم بَسْطُ ذلك في أبواب صفاته. **السابع:** ذكر نهر الكوثر في السماء الدنيا، والمشهور في الحديث أنه في الجنة، وتقدم الكلام على ذلك. **الثامن:** نسبة الدُّنُوّ والتَّدَلّي إلى الله تعالى، والمشهور أنه جبريل. قال الخطّابي: «ليس في هذا الكتاب - يعني صحيح البخاري - أشنع ظاهراً ولا أَمْنَع مذاقاً من هذا - يعني قوله: «ودنا الجَبَّار ربُّ العِزَّة فتدَلّى حتى كان منه قاب قوسَيْن أو أدنى» - فإنه يقتضي تحديد المسافة بين أحد المذكورَيْن وبين الآخر وتمييز مكان كل واحد منهما، هذا مع ما في التَّدَلّي من التشبيه، والتمثيل له بالشيء الذي تَعَلَّق من فوق إلى أسفل. قال: فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعاً عن غيره، ولم يعتبره بأول القصة ولا بآخرها اشتبه عليه وجهه ومعناه، وكان قُصَاراه إما رَدّ الحديث من أصله وإما الوقوع في التشبيه، وهما خَطّآن مرغوب عنهما.

«وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال فإنه مُصَرَّحٌ فيهما بأنه كان رؤيا لقوله في أوله: «وهو نائم» وفي آخره: «استيقظ». وفي بعض الرؤيا مَثَلٌ يُضْرَب ليُتَنَاوَل على الوجه الذي يجب أن يُصْرَف إليه معنى التعبير في مثله، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك بل يأتي كالمشاهدة».

قال الحافظ: «وهو كما قال ولا التفات إلى من تعقب كلامه بقوله: إن في الحديث الصحيح أن رؤيا الأنبياء وَحْيٌ فلا يحتاج إلى تعبير، لأنه كلام من لم يُمْعِن النظر في هذا المحل، فإن بعض مرائي الأنبياء يقبل التعبير، فمن ذلك قول بعض الصحابة له ﷺ في رؤيا القميص: «فما أوَّلْتَه يا رسول الله؟» قال: «الدِّين». وفي رؤيا اللَّبَن قال: «العِلْم». لكن جَزَم الخطّابي بأن ذلك كان مناماً، وهذا مُتَعَقَّب بما قَدَّمناه من ترجيح كونه في اليقظة بالأدلة التي أشرنا إليها.

ثم قال الخطابي مشيراً إلى رفع الحديث من أصله «إن القصة بطولها إنما هي حكاية يحكيها أنس من تلقاءِ نفسه لم يَعْزُها إلى النبي ﷺ ولا نقلها عنه ولا أضافها إلى قوله، فحاصل الأمر في النقل أنها من جهة الراوي أنس، وأما شريك فإنه كثير التفرّد بمناكير الألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة». قال الحافظ: «وما نفاه من أن أنساً لم يُسْنِد هذه القصة إلى النبي ﷺ لا تأثير له، فأدنى أمره فيها أن تكون مُرسَل صحابي، فإما أن يكون تَلَقَّاها عن النبي ﷺ أو عن صحابي تَلَقَّاها عنه. ومثل ما اشتملت عليه لا يُقال بالرأي فيكون لها حُكْم الرفع. ولو كان لما ذكره تأثير لم يُحْمَل حديث أحد روى مثل ذلك على الرفع أصلاً وهو خلاف عمل المُحَدِّثين قاطبةً فالتعليل بذلك مردود.

ثم قال الخَطَّابي: «إن الذي وقع في هذه الرواية من نسبة التَّدَلِّي للجبار عزّ وجل مخالفة لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير ومن تقدم منهم ومن تأخَّر. والذي قيل فيه ثلاثة أقوال: أحدها: دنا جبريل من محمد فتَدَلَّى أي تقَرَّب منه، وقيل هو على التقديم والتأخير أي تَدَلَّى فدنا لأن التَّدَلِّي سبب الدُّنُوّ. الثاني: تَدَلَّى جبريل بعد الانصباب والاندفاع حتى رآه مُتَدَلِّياً كما رآه مرتفعاً، وذلك من آيات الله حيث أقدره على أن يتدلَّى في الهواء من غير اعتمادٍ على شيء وتَمَسُّكٍ بشيء. الثالث: دنا جبريل فتدلَّى محمد ساجداً لربه شكراً على ما أعطاه من الزُّلْفَى. وقد رُوِي هذا الحديث عن أَنَس رضي الله عنه من غير طريق شريك فلم يذكر هذه لألفاظ الشنيعة، وذلك مما يُقَوِّي الظَّنّ أنها صادرة من شريك».

قال الحافظ: «قد أخرج البيهقي من طريق الأُموي في مغازيه عن محمد بن عمر بن أبي سلمة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قال: «دنا منه ربه»، وهذا سَنَدٌ حَسَن وهو شاهد قوي لرواية شريك. ثم قال الخَطَّابي: «وفي هذا الحديث لفظة أُخرى تَفَرَّد بها شريك أيضاً لم يذكرها غيره، وهي قوله: «فَعَلاَ بِهِ»يعني جبريل إلى الجَبَّار تعالى، فقال وهو مكانه: «رَبِّ خَفِّفْ عنَّا». قال الخَطَّابي: «والمكان لا ينسب إلى الله تعالى، إنما هو مكان النبي ﷺ في مُقَامه الأول الذي قام فيه قبل هبوطه». قال الحافظ: «وهذا الأخير مُتَعَيِّنٌ وليس في السياق تصريح بإضافة المكان إلى الله تعالى، وأما ما جَزَم به من مخالفته للسلف والخلف فقد ذكرنا من وافقه» .وقد نقل القرطبي عن ابن عباس أنه قال: «دَنَا الله»، قال القرطبي: «والمعنى دَنَا أَمْرُه وحُكْمُه، وأصل التَّدَلِّي النزول إلى الشيء حتى يَقْرُبَ منه». قال: «وقيل التدلي تَدَلِّي الرفرف لمحمد حتى جلس عليه، ثم دنا محمد من ربه». وقد أزال العلماء إشكاله فقال القاضي: «إضافة الدنوّ والقُرْب هنا من الله تعالى أو إلى الله تعالى ليس بِدُنُوّ مكان وقُرْب مَدَى ينتهي إليه وإنما دُنُوّ

النبي ﷺ من ربه وقُرْبُه منه إبانة لعظيم منزلته وتشريف رتبته اعتناء بشأنه وإظهاراً لما لم يؤته أَحداً غيره وإشراق أَنوار معرفته ومشاهدة أَسرار غَيْبِه وقدرته، كما قال جعفر بن محمد: الدُّنُوّ من الله تعالى لا حَدَّ له يَنْتَهي إليه مَطْمَحُ فَهْم أَو مَطْرَحُ وَهْم، ومن العباد بالحدود الغائِيَّة المنتهية إلى غاية».

وقال أَيضاً: «انقطعت الكيفية عن الدُّنُوّ، أَلاَ ترى كيف حُجِب جبريل عن دنوه ودنا محمد إلى ما أَودع قلبه من المعرفة والإيمان فتدلى بسكون قلبه إلى ما أَدناه إليه وأَزال من قلبه الشك والارتياب أَي الذي عَرَا خاطِرَه: هل يغشى حضرة هذا القُرْب وينال مواهبه من إنافةٍ وإكرام وشَرَفٍ وإنعام فأَنجح الله أُمنيته لا الشك في ذلك، إذ كان أَثْبَتَ الناس مَعْرِفَةً وإيماناً وأَسْكَنَهم جَنَاناً وأَمْلَكَهم طمأْنينةً وسكوناً، وإنما الدُّنُو والقُرْب من الله تعالى أَو إليه كنايةٌ عن جزيل فوائده إليه وجميل عوائده عليه وتَأْنِيسٌ لاستيحاشه بانقطاع الأَصوات عنه، وَبَسْطٌ بالمكالمة وإكرامٌ بِشَرَائِفَ مُنِيفة، يُتَأَوَّلُ في دُنُوِّه تعالى منه ما يُتَأَوَّلُ به في قوله ﷺ: «يَنْزِلُ رَبُّنا تبارك وتعالى كُلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدنيا حين يبقى ثُلُثُ الليل الآخر»(١)، على أَحَد الوجوه من أَن نزوله تعالى إنما هو نزول إفضال وإجمال وقبول توبة وإحسان بمعرفة وإشفاق».

وقال الواسطي: «مَنْ تَوَهَّم أنه بنفسه دَنَا فقد جَعَلَ ثَمَّ مسافةً ولا مسافة لاستحالتها بل كلما دنا بنفسه من الحَقّ تَدَلَّى بُعْداً، يعني كلما قَرُبَ منه نزل بساحة البُعْد كناية عن نَفْيِهما جميعاً أَو عن إدراك حقيقته إذ لا يدركها أَحد، ولا دُنُوّ للحقّ ولا بُعْد، لاستحالتهما. وأَما قوله تعالى: «فإني قريب» فتمثيلٌ لكمال عِلْمه وإجابةٌ لتعاليه عن القُرْب مكاناً. ويُتَأَوَّل في الدُّنُوّ ما يُتَأَوَّلُ في قوله ﷺ في حديث رواه البخاري حكايةً عن رَبِّه تبارك وتعالى: «مَنْ تَقَرَّب مني شِبْراً تَقَرَّبْتُ منه ذراعاً»، وهو تمثيل يُقَرِّب المعنى للأَفهام، أَي من تَقَرَّب إلى طاعتي جازيتُه بأَضعاف ما تَقَرَّب به إِلَيّ. «ومَنْ أَتانِي يَمْشِي أَتيته هَرْوَلة»، أَي سَبَقْتُه بجزائه، فهو أَقرب بالإجابة والقبول، وإتيان بإحسان، وتعجيل المأْمول، ثواباً مُضاعَفاً على حَسَب ما تَقَرَّب به، وقد سبق به طريق المشاكلة فسَمَّاه تَقَرُّباً».

التاسع: تصريحه بأَن امتناعه ﷺ من الرجوع إلى سؤال رَبِّه تبارك وتعالى في طلب التخفيف كان عند الخامسة، ومقتضى رواية ثابت أَنه كان بعد السابعة. **العاشر:** قوله: «فَعَلا به الجَبَّار»، وهو مكانه تقدم ما فيه. **الحادي عشر:** رجوعه بعد الخَمْس، والمشهور في الأَحاديث أَن موسى أَمره بالرجوع بعد أَن انتهى التخفيف إلى خمس فلم يرجع. **الثاني عشر:** زيادة ذِكْر «التَّوْر» بالتاء المُثَنَّاة في الطَّشت، فإنه قال: «أُتِي بطَسْت من ذَهَب فيه تور من

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩/٣ (١١٤٥) ومسلم ٥٢١/١ (١٦٨- ٧٥٨).

ذَهَب»، فيُحتَمَل أنه طَسْت صغير داخل طَسْت كبير لئلا يَتَبَدَّد منه شيء فيكون في الكبير. وفي حديث أَبي ذَرّ رضي الله عنه ورواية شريك أنهم غسلوه بماء زمزم فيُحْتَمَل أَن يكون أَحدهما فيه ماء زمزم والآخر هو المحشو بالإِيمان، ويُحْتَمَل أَن يكون التَّوْر ظرف الماء والإِيمان والطَّسْت لما يُصَبّ فيه عند الغُسْل صيانةً له عن التبدُّد في الأَرض وجرياً له على العادة في الطَّسْت ومايوضع فيه الماء.

التنبيهُ الحادي عشر والمائة: في بيان غريب ما تقدم:

«بينما»: الأَصل «بَيْنَ» فأُشْبِعت الفتحة فصارت أَلِفاً وزيدت الميم فيقال: «بينا» و«بينما». قال في النهاية: وهما ظَرْفا زمان بمعنى المُفَاجَأَة، وقال في المطالع: «بينا أَنا» و«بينما أَنا» من البَيْن الذي هو الوَصْل أَي أَنا متصل بفعل كذا.

«الحِجْر»، بكسر الحاء وسكون الجيم وهو هنا حطيم مكة وهو المُدار عليه بالبناء من جهة الميزاب وسُمِّي حِجْراً لأَنه حُجر عنه بحيطانه وحَطِيماً لأَنه حُطِمَ جِدَارُه عن مساواة الكعبة وعليه ظاهر قوله: «بينا أَنا في الحطيم»، وربما قال: «في الحِجْر»، والشك من قتادة. وقال الطيبي: «لعله ﷺ حكى لهم قصة المعراج فعَبَّر بالحطيم تارةً وبالحِجْر أُخرى». وقيل: الحطيم غير الحِجْر، وهو ما بين المَقَام إِلى الباب، وقيل: ما بين الركن والمقام وزمزم والحجر، والراوي شَكَّ أَنه سمع في الحطيم، أَو في الحِجْر.

«أَوسطهم» خَيْرُهم. «الثُّغْرَة»[1] بضم المثلثة وسكون المعجمة الموضع المنخفِض بين التَّرقوتين، إِلى أَسفل بطنه أَي شِعْرَتِه بكسر الشين المعجمة أَي شَعْر العانة. وفي رواية: «فشَقَّ جبريل ما بين نحره إِلى لَبَّتِهِ وهي بفتح اللام وتشديد الموحدة موضع القلادة من الصدر، وفي رواية «إِلى ثُنَّتِهِ» بضم المثلثة وتشديد النون أَي ما بين سُرَّته إِلى عانته. وفي رواية: «من قَصَّتِه بفتح القاف وتشديد الصاد المهملة أَي رأْس صدره، وفي رواية: «فُرِج صدري» ومعنى الروايات واحد.

«الطَّسْت»[2] بفتح الطاء وسكون السين المهملة، وإِعْجَامُها ليس بلَحْن، بل لغة صرّح بها صاحب القاموس فيه وفي كتاب: تخيير الموشِّين فيما يقال بالسين والشين»، وبمثناة وقد تُحْذَف وهو الأَكثر وإِتيانها لغة طيء، وأَخطأَ من أَنكرها، وتُدْغَم السين في التاء بعد قلبها فيقال طَسّ وهي مؤنثة وجَمْعُها طساس وطسوس وطسوت.

---

(١) انظر الوسيط ١/٩٧.

(٢) الطِّساس: جمعُ طس، وهو الطَّستُ، والتاء فيه بدل من السين، فَجُمِعَ على أَصْلِه، ويُجمع على طُسُوس أيضاً. انْظُرِ النِّهايَة لابْنِ الأَثير ٣/١٢٤، والمعجم الوسيط ٣/٣٦٥١.

«اختلف إليه»: تَرَدَّد.

«ممتلئ» بالتذكير على معنى الإناء، وفي رواية: «مملوءة»، بالتأنيث أي الطَّشت، وفي رواية «مَحْشُوّاً» بالنصب وأُعْرِب بأنه حال من الضمير في الجار والمجرور، وفي رواية «مَحْشُوٌّ»، وفي رواية شريك: بطَسْت من ذهب بمثناة فوقية ويأتي لهذا مزيد بيان.

«إيماناً» منصوب عل التمييز «وحِكْمةً» معطوف عليه.

قال ابن أَبي جَمْرَة: وفي هذا الحديث أن الحكمة ليس بعد الإيمان أَجَلّ منها، ولذلك قُرِنَتْ به، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ [البقرة: ٢٦٩] وقد اختُلِف في تفسير الحكمة فقيل إنها العِلْم المُشْتَمِل على معرفة الله تعالى مع نفاذ البصيرة وتهذيب النفس وتحقيق الحق للعمل به والكفّ عن ضِدِّه، والحكيم من حاز ذلك، قال النووي: «هذا ما صَفَا لنا من أَقوال كثيرة»، انتهى. وقد تُطْلَق الحكمة على القرآن وهومُشْتَمِلٌ على ذلك كله، وعلى النبوة كذلك، وقد تُطْلَق على العلم فقط ونحو ذلك.

قال الحافظ: «وأَصَحّ ما قيل فيها إنها وضع الشيء في محله، أو الفهم في كتاب الله، وعلى التفسير الثاني قد توجد الحكمة دون الإيمان وقد لا توجد، وعلى الأول قد يتلازمان لأن الإيمان يدل على الحكمة..

«دَابَّةٌ أَبيض» إنما قال أَبيض ولم يقل بيضاء لأنه أَعاده على المعنى أَي مركوب أَو بُرَاق.

«مُسْرَجاً مُلْجَماً» حالان من البُرَاق.

«الحافر»[1] أَحد حوافر الدَّابَّة سُمِّي بذلك لِحَفْره الأَرض لشدة وَطْئِه عليها.

«الطَّرْف» بسكون الراء وبالفاء النظر.

«مُضْطَرِب الأُذُنَيْن» أَي طويلهما والطاء بَدَلٌ من التاء.

«يَحْفِزُ[2] بهما رِجْلَيْه» بمثناة تحتية مفتوحة فحاء مهملة ساكنة ففاء مكسورة قال في النهاية: الحَفْز الحَثّ والإعجال.

«عُرْف[3] الفَرَس» بضَمّ العين المهملة وبالفاءِ الشَّعْر النَّابِت في مُحَدَّب رَقَبَتِه.

«الأَظْلاَف» جمع ظِلْف بكسر الظاء المعجمة المُشَالَة وهو من الشَّاءِ والبقر كالظُّفْر للإنسان.

---

(١) انظر لسان العرب ٩٢٥/٢.
(٢) انظر اللسان ٩٢٦/٢.
(٣) انظر المعجم الوسيط ٥٩٥/٢.

«صَرَّت بأُذنيها» أَي جمعت بينهما وأَصل الصَّرِّ الجمع والشَّد قاله في النهاية وفي الصحاح: الصَّرَّة الشِّدَّة من كَرْبٍ وعيره.

«ارْفَضَّ» جرى وسال.

«عَرَقاً» منصوب على التمييز من الفاعل ولذا وَرَد مُخَفَّفاً والمعنى فَتَبَرَّأَ من الاستصعاب وعَرِقَ من خجل العتاب فوثب.

«الزِّمام» بالكسر المِقْوَد.

«طَيْبَة»[١] من أَسماء المدينة الشريفة.

«يَهْوِي به» يُسْرِع السَّيْر.

«مَدْيَن» بفتح الميم وسكون الدّال المهملة وفتح المُثنّاة التحتية بلد بالشام تلقاء غَزَّة.

«طور سيناء»: الطور جبل ببيت المقدس وسيناء بكسر السين اسم للبقعة.

«بيت لَحْم» بلام مفتوحة فحاء [مهملة] ساكنة قرية من قُرَى الشام تلقاء بيت المقدس.

«العِفْريت» من الجِنّ العارم الخبيث ويستعمل في الإِنسان استعارة الشيطان له.

«الشُّعْلَة» من النار بالضَّمّ وهي شبه الجِذْوَة، والجِذْوَة مُثَلَّثة الجيم الجَمْرة.

«خَرَّ لفيه» أَي على فمه.

«الكلمات التّامّات» أَي الكاملة فلا يدخلها نقص ولا عيب، وقيل النافعة الشافية.

لا يُجَاوِزُهُنّ» أَي لا يَتَعَدَّاهُنّ.

«البَرّ» بفتح الباء التَّقِيّ.

«الفاجِر» المائل عن الحق.

«ذَرَأَ» خلق.

«طوارِق الليل»[٢] حوادثه التي تأْتي ليلاً.

«الماشطة» اسم فاعل من مَشَط الشَّعْرَ يَمْشُطُه ويَمْشِطه بضمّ المعجمة وكسرها مَشْطاً سَرَّحه، والتثقيل مبالغة.

«المُشْط» بضمّ الميم وإِسكان الشين ومع ضَمِّها أَيضاً، وبكسر الميم مع إِسكان الشين، ويقال مِمْشَط بميمين الأُولى مكسورة.

---

(١) اللسان ٢٧٣٤/٤.

(٢) المعجم الوسيط ٥٥٦/٢.

و«تَعِسَ» بفتح العين وتكسر، تَعْساً بسكون العين وفتحها لم يَسْتَقِلْ من عثرته وأتعسه الله فَتَعِس ويقال تُعِس أُكِبَّ على وجهه.

«راودوا[١] المرأة» أي راجعوها.

«فأمر ببقرةٍ من نحاس» بباءين مُوَحَّدَتَيْن فقاف، قال الحافظ أبو موسى المديني: الذي يقع لي في معناه أنه لا يريد شيئاً مَصُوغاً على صورة البقرة، ولكنه ربما كانت قِدْراً كبيرة واسعة فسمَّاها بَقَرة مأخوذاً من التَّبَقُّر التَّوَسُّع أو كان شيئاً يَسَع بَقَرَةً تامَّةً بِتوابلها فَسُمِّيت بذلك.

ولا تَقَاعَسِي»[٢] أي لا تتأخَّري وتَتَوَقَّفِي عن إلقائك في النار، يقال تقاعس عن الأمر إذا تأخَّر ولم يتقدَّم فيه.

«تُرْضَخ[٣] رؤُوسهم» تُشْدَخ كذا في الغريب. وقال في المصباح: تُكْسَر.

«لا يَقِرّ» لا يَسْكُن.

«يَسْرَحُون» يقال سَرَحتْ الإبل به سرحاً وسروحاً أيضاً رَعَتْ.

«الضَّريع»[٤]: الشوك اليابس أو نباتٌ أحمر مُنْتِن الريح يرمي به البحر.

«الزَّقُّوم» ثَمَر شَجَر كريه الطَّعْم قيل لا يُعْرَف في شجر الدنيا وإنما هي في النار يَكْرَه أَهْلُ النَّارِ أَكْلَها، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ**﴾ [الصافات: ٦٤، ٦٥] «رَضْف جهنم» بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة بعدها فاء، هي الحجارة المُحْمَاة واحدها رَضْفَة[٥].

«النَّيء» بالهمز وزان حِمْل كل شيء شأنه أن يُعَالج بِشَيٍّ أو طبخ لم ينضج يقال لَحْمٌ نِيء والإدغام والإبدال عاميّ.

«الجُحْر» بضم الجيم وسكون الحاء المهملة وهو النَّقْب المستدير.

«الثَّوْر» بالمثلثة معروف..

«الغُرَف» بالضَّمّ جمع غُرْفَة وهي العُلِّيَّة.

---

(١) رَاوَدَهُ على الأمر: طلب منه فِعْلَهُ. انظر المعجم الوسيط ٣٨٢/١.

(٢) اللسان ٣٦٩٢/٥.

(٣) الرَّضْخ: الشَّدْخ. والرَّضْح أيضاً: الدَّق والكسر. انظر النهاية لابن الأثير ٢٢٩/٢.

(٤) المفردات في غريب القرآن ٢٩٥.

(٥) رَضَفَهُ: كواهُ بالرَّضْفَة، الرَّضْفَةُ: الحجر المُحْمَى بالنارِ أو الشَّمس. انظر المعجم الوسيط ٣٥١/١.

«الإِستَبْرَق» ثخين الديباج.

«السُّنْدُس» رقيق الديباج.

«العبقري» قيل هو الديباج وقيل البُسُط المُوَشِّية وقيل الطنافس الثِّخان والأَصل في العبقري فيما قيل إِن عَبْقَر قرية يسكنها الجِنّ فيما يَزْعُمون فكلما يَرَوْن شيئاً فائقاً غريباً مما يَصْعُب عملُه ويَدِقّ أَو شيئاً عظيماً في نفسه نسبوه إِليها.

«اللؤلؤ[١]» بهمزتين وَبِحَذْفِهما وبإِثبات الأُولى دون الثانية.

«المَرْجان»: قال الأَزهري وغيره هو صغار اللؤلؤ وقال الطرطوشي هو عروق حُمْر تطلع من البحر كأَصابع الكَفّ، قال: وهكذا شاهدناه بمغارب الأَرض كثيراً.

«الأَكواب»: جمع كوب: إِناء لا عُرْوَة له ولا خُرْطُوم.

«الصِّحاف». جمع صَحْفَة إِناء كالقصعة.

«السَّعير» النار، وسَعَرْتُها وأَسعرتها أَوقدتها.

«الدَّجّال»: أَصل الدَّجْل الخَلْط يقال رَجُلٌ دَجِل[٢] إِذا لَبَّس ومَوَّه والدَّجّال فَعَّال من أَبنية المبالغة أَي يُكْثِر من الكذب والتلبيس وهو الذي يظهر في آخر الزمان.

«فَيْلَمانِيّاً[٣]»: قال في النهاية الفَيْلَم العظيم الجُثَّة والفَيْلَم الأَمر العظيم والياء زائدة والفَيْلَماني منسوب إِليه بزيادة الأَلف والنون للمبالغة.

«أَقمر» أَي شديد البياض.

«هِجان»: شَديد البياض.

«دُرِّي»: مُضيء.

«عبد العُزَّى بن قَطَن»: بفتح القاف والمهملة وهو ابن عمرو بن جُنْدَب/ بن سعيد بن عابد بن مالك بن المُصْطَلَق. هلك في الجاهلية، ووقع عند ابن مَرْدَويه: قَطَن بن عبد العُزَّى وهو وَهْم من بعض رواته.

«العَمُود» بفتح العين المهملة وضمّ الميم معروف وجمعه عُمُد بضمتين وأَعْمِدة بكسر الميم وفتح الدال.

---

(١) اللؤلؤ: الدُّرّ، وهو يتكون في الأَصْدافِ منْ رَواسب أو جوامد صُلْبة لماعة مستديرة في بعض الحيوانات المائية الدنيا من الرخويات. واحدته: لؤلؤة. انظر المعجم الوسيط ٨١٧/٢.

(٢) لسان العرب ١٣٣٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٣٤٦٧/٥.

«حاسرة» اسم فاعل من حَسَر.

«يا أَوَّل حاشر» تقدم الكلام عليهما في الأَسماء النبوية.

«الكثيب[١]»: التَّلّ من الرمل.

«طُوَال»: يقال رجلٌ طويل فإن زاد قيل طُوَال بالضّمّ مُخَفَّفاً، فإن زاد قيل طُوَّال مُشَدَّداً.

«شَعْرٌ سَبَط»[٢] بفتحتَيْن وككَتِف ويُسَكَّن، ثم قد يُكْسَر، مُسْتَرْسِل، وجِسْمٌ سَبِط ككَتِف ويُسَكَّن حَسَنُ القَدِّ والاستواء.

«آدَم»: بالمَدّ أَسمر.

«أَزْد» بفتح الهمزة وسكون الزاي وبالدال المهملة.

«شَنُوءة» بفتح الشين المعجمة وضَمّ النون وسكون الواو وبعدها همزة ثم تاء تأنيث حَيٌّ من اليَمَن يُنْتَسبون إلى شَنُوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأَزد، يُنْتَسبون إلى شَنُوءة وهو عبد الله بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأَزد، ولقب شَنُوءة لشنآن كان بينه وبين أَهله والنسبة إليه شنوئيّ بالهمز بعد الواو وشَنَأَيّ[٣] بالهمز بغير واو. وقال ابن قتيبة: «أَزد شنوءة»: من قولك: رَجُلٌ فيه شنوءة أَي تَقَزُّز. والتقزز بقاف وزايين التباعد من الأَدناس. قال الداودي: «رجال الأَزد معروفون بالطول». وفي رواية: كانوا من رجال الزُّط[٤] وهم معروفون بالطول والأُدْمة. «يُعَاتب رَبَّه» وفي رواية سَمِعْتُ صوتاً وَتَذْمِيراً فقلتُ من هذا؟ قال: هذا موسى. قلت: أَعَلَى رَبِّه؟ قال: نعم قد عَرَف حِدَّتَه. قال الخليل رحمه الله تعالى: حقيقة العتاب مخاطبة الإِدلال ومذاكرة المَوْجِدة، والتذمر بذال معجمة مثله.

«الحِدَّة» بكسر الحاء المهملة.

«السُّرُح» بسين فراء فحاء مهملات وزن كُتُب جمع سَرْحة وهي الشجرة العظيمة.

«جُلُّها» بضم الجيم معظمها.

«مِثْل الزرابيّ» بزاي فراء كما رأَيتُه بخط جماعة منهم الذهبي في تاريخ الإِسلام والهيثمي في مجمع الزوائد والشيخ في تفسيره جَمْع زِرْبِيَّة بتثليث الزاي وهي الطِنْفسة بكسر الطاء والفاء وبضمهما وبكسر الطاء وفتح الفاء وهي البساط الذي له خَمْل رقيق، ورأَيت بخط

(١) انظر المعجم الوسيط ٧٧٧/٢.
(٢) انظر اللسان ١٩٢٢/٣.
(٣) اللسان ٢٣٣٥/٤.
(٤) انظر لسان العرب ١٨٣٠/٣.

بعض المحدثين الروابي براء فواو وأظنه تصحيفاً وإن كان قريب المعنى.

«الحُمَة» بحاء مضمومة الفَحْمَة.

«السُّخْنَة» بضم السين المهملة وسكون الخاء المعجمة أي الحَارَّة.

«بالحَلْقَة» بإسكان اللام ويجوز فَتْحُها وبالفتح جمعها حَلَق وحَلَقات وبالإسكان حَلق وحِلق بفتح الحاء وكسرها.

«يربط به الأنبياء»: قال النووي: كذا في الأُصول «به» بضمير المُذَكَّر أعاده على معنى الحَلْقة وهو الشيء. قال صاحب التحرير: المراد حَلْقة باب مسجد بيت المقدس.

«الخليل والأُمَّة والقانت» سَبَق بيانُها في أسمائه الشريفة «المحاريب[1]»، قال في أنوار التنزيل هي قصور حصينة ومساكن شريفة سُمِّيت بذلك لأنه يُذَبُّ عنها ويُحَارَب عليها.

«التماثيل» الصور ولم تكن مُحَرَّمة في زمنه.

«الجِفَان» جمع جَفْنَة بفتح الجيم وسكون الفاء وهي القصعة الكبيرة، قال ابن الجوزي في زاد المسير: قال المُفَسِّرون كانوا يصنعون القِصاع الكبيرة كحياض الإبل يجتمع على الواحدة منها ألف رجل.

«الجوابي» جمع جابية وهي الحوض الكبير يُجْبَى فيه الماء أي يجتمع.

«الأَكْمَه» الذي يولد أعمى.

«كافَّةً للناس»: تَقَدَّم في الأسماء الشريفة.

«قدور راسيات»: أي ثوابت قال في زاد المسير: وكانت القدور كالجبال لا تتحرك من أماكنها يأكل من القِدْر ألف رجل.

«الفُرْقان» من أسماء القرآن وسُمِّيَ به لأنه فُرِّق به بين الحق والباطل.

«التِّبيان»: بكسر أوله البيان الشَّافي.

«وَسَطاً»: خياراً عَدْلاً: «الأَوَّلون» في دخول الجَنَّة «والآخرون» في الوجود.

«الوِزْر»: يأتي الكلام عليه في أبواب عصمته.

«ورفع لي ذِكْري»: يأتي ذِكْرُه في الخصائص.

«جعلني فاتحاً»: أي لأبواب الإيمان والهداية إلى صراط مستقيم ولبيان أسباب التوفيق وما استعلق من العلم أو هو من الفتح بمعنى الحُكْم فجعله حاكماً في خَلْقه فانفتح ما انغلق

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ١١٢.

بين الخصمين بأحيائه الحق وإيضاحه وإماتته الباطل وإدحاضه.

«خاتَماً للنبيين»: أي آخرهم بَعْثاً.

«وَجْبَتُها» سقوطها.

«النَّجْد» ما ارتفع من الأرض.

«يَنْسِلون» يُسْرِعون.

«تُجْزم الأرض»[(١)]. من ريحهم بالجيم تُنْتِن من جِيَفِهِم.

«الحامل المُتِمّ» أي التي دنا وِلادُها.

«الفِطرة»: بالكسر الهُدَى والاستقامة.

«المِعْراج» لُغَةً السُّلَّم وجمعه معارج ومعاريج. قال الأخفش إن شئتَ جعلت الواحد مَعْرَج ومِعْرَج بفتح الميم وكسرها، فعلى هذا يكون الجمع لِمَعْرَج بفتح الميم مَعَاريج بياء ومِعْرَج بكسرها مَعَارِج بغير ياء، والمعارج المصاعد، ويُقال عَرَج في السُّلم بفتح الراء يَعْرُج بَضمِّها عروجاً إذا ارتقى وعَرَج أيضاً بفتح الراء إذا غمز من شيء أصابه في رِجْله فخَمع[(٢)] ومَشَى مِشْيَةَ الأعراج إذا لم يكن خِلْقَةً أصلية، فإذا كان خِلْقةً يقال عَرِج بكسر الراء يَعْرَج بفتحها.

«طَمَح»[(٣)] بَصَرُهُ إلى الشيء ارتفع وكل طامِح مرتفِع.

«المِرْقاة[(٤)]» موضع الرُّقِيّ ويجوز فيها فتح الميم على أنه موضع الارتفاع ويجوز الكسر تشبيهاً باسم الآلة كالمِطْهَرَة وأنكر أبو عبيد الكسر.

«مُنَضَّد باللؤلؤ»: أي جُعِل بعضُه على بعض.

«مَرْحَباً» بالتنوين: كلمة تقال عند المَسَرَّة بالقادم ومعناها صادفتَ رُحْباً أي سَعَة ويُكْنَى بذلك عن الانشراح فوضع المَرْحَب موضع التَّرحيب.

«وأَهْلاً» أي أَتَيتَ أَهلاً فاستأنِس ولا تَسْتَوْحِش.

«حَيَّاه الله» أي أَبقاه، من الحياة وقيل سَلَّم عليه من التحية والسلام وقول الملائكة: «من أخٍ»، المراد بهذه الأخوة أُخُوَّة الإيمان المشار إليها بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

---

(١) انظر اللسان ٦١٩/١.

(٢) الخمع: العرج ورجل في رجل خمع أي عرج. انظر ترتيب القاموس ١١٠/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٢٧٠٤/٣.

(٤) اللسان ١٧١١/٣.

«الخليفة»: تقدم في أَسمائه الشريفة..

«نعم المجيء جاء»: المخصوص بالمدح محذوف وفيه تقديم وتأخير، والأَصل: فَلَنِعْمَ المجيء مجيئه.

«خَلُصَا» وَصَلا.

«عِلِّيِّين»: اسم لأَعلى الجَنَّة.

«سِجِّين[١]»: موضع فيه كتاب الفُجَّار.

«الأَسْوِدَة»[٢] جمع سَوَاد ويجمع على أَسَاوِد. قال النووي: قال أَهل اللغة: السواد الشخص وقيل السواد الجماعة. وقال في التقريب: السواد نقيض البياض وكل شخص من متاع أَو حيوان والجمع أَسْوِدَة ثم أَساوِد.

«نَسَم[٣] نبيه» بِنُون فسين مهملة مفتوحتين جمع نَسَمة بالتحريك وهي الروح.

«قِبَلَ يمينه» بكسر القاف وفتح المُوَحَّدة أَي جهة يمينه.

«هنيهة[٤]» تصغير هَنَة يعني شيئاً يسيراً والهاء بدل من الياء والأَصل هُنَيَّة.

«الأَخْونَة[٥]» جمع خُوان بكسر المعجمة وضَمِّها الذي يؤكل عليه. وقال الخليل: هو المائدة.

«أَرْوَحَ» تَغَيَّرت رائحته.

«المائدة» الخوان إِذا كان عليه طعام.

«جِيف[٦]» بكسر الجيم وفتح الياء جمع جِيفة وهي المَيْتَة من الدوابّ والماشية سُمِّيت بذلك لِتَغَيُّر ما في جَوْفها.

«السابلة»: أَبناء السبيل المختلفة.

«يَضِجُّون» بالجيم يصيحون من الفَزَع.

«المَسّ» الجنون.

---

(١) المفردات ٢٢٥.
(٢) انظر المعجم الوسيط ٤٦١/١.
(٣) انظر المعجم الوسيط ٩١٩/٢.
(٤) انظر المعجم الوسيط ٩٩٨/٢.
(٥) المصباح المنير ١٨٥.
(٦) المعجم الوسيط ١٥٠/١.

«المشافِر» بالمعجمة جمع مِشْفَر بكسر الميم وسكون المعجمة وفتح الفاء وهي من البعير كَالْجَحْفَلَة من الفَرَس وهي من ذي الحافر كالشَّفَة للإنسان.

«ثُدِيّهن» بضم المُثَلَّثة وكسر المهملة جمع ثَدْي يُذَكَّر ويُؤَنَّث فيقال هو الثدي وهي الثدي ويُجْمَع أيضاً على أَثْدٍ وزن أَكْل وربما جُمع على ثِدَاء مثل سَهْم وسِهام.

«الهَمَّازون» الذين يغتابون الناس من غير مواجهة.

«اللَّمَّازون[1]» العَيَّابون.

«بابني الخالة»: قال ابن السِّكِّيت: «يقال أَبناء خالة ولا يقال أَبناء عَمَّة، ويقال أَبناء عَمّ ولا يقال أَبناء خال». قال الحافظ: «وسبب ذلك أَن ابنيِ الخالة أُمّ كل منهما خالة الآخر، بخلاف ابني العمّة.

«عيسى»: اسم أَعجمي غير منصرف، للعلمية والعجمة، وقيل مشتقّ من العيس وهو البياض، والأَعْيَس الجميل الأَبيض وجَمْعُه عِيسى فقيل له عيسى لبياض لونه. وقيل من العَوَس وهو السياسة وأَصله عُوسَا فقُلِبَتْ الواو ياءً لكسر ما قبلها، وقيل له عيسى لأَنه ساسَ نَفْسَه بالطاعة، وقلبَه بالمحبة. وأُمَّتَه بالدعوة إلى رَبّ العِزَّة.

«مريم»: اسم أَعجمي فيه ثلاث عِلَل: العلمية والتأْنيث المعنوي والعُجْمَة، وقيل معناه بالعبراني: خادمة الله، وقيل أَمة الله، وقيل المُحَرَّرة.

«يحيى»: مشتقّ من الحياة وأُطْلِق عليه هذا الاسم لأَنه وُلِد في حال شيخوخة والديه، وغالباً لا يطول عُمْر من كان كذلك، فوهبه الله تعالى هذا الاسم طمأْنةً لقلبيهما أَن يَحْيَا كثيراً، وأَنه وَلَدّيحيا بالمحبة، حيّ الجسم بالطاعة حيّ اللسان بالذكر حيّ السِّرّ بالمعرفة معصوماً من الزَّلة.

«زكريا»: اسم أَعجمي يُقْصَر ويُمَدّ وقُرِئ بهما في السبعة، ويقال له زكريا بتخفيف الياء وتشديدها. وزكريا كان عالماً بالتوراة والإِنجيل وكان إمام علماء بيت المقدس ومُقَدَّمَهم وكان من تلاميذه أَربعة آلاف عالم قارئ للتوراة: «النَّفَر» مُحَرَّكاً جماعة الرجال من ثلاثة إلى عشرة أَو إلى سبعة. «وإذا هو بعيسى جَعْد[2]»: قال النووي: قال العلماء: «المراد بالجَعْد هنا جعودة الجسم وهو اجتماعه واكتنازه وليس المراد جعودة الشَّعْر».

«مربوع» هو الرجل الذي بين الرجُلَيْن في القامة ليس بالطويل البائن ولا بالقصير الحقير.

---

(١) المفردات في غريب القرآن ٤٥٤.

(٢) اللسان ٦٣٢/١.

«سَبِطَ الرأس» بفتح الباء وكسرها ويجوز إسكان الباء مع فتح السين ومع كسرها على التخفيف أي مُسْتَرْسِل الشَّعْر وليس فيه تكسير.

«الديماس[1]» بكسر الدال المهملة وتُفْتح وبإسكان المثناة التحتية، فَسّره الراوي وهو عبد الرَّزَّاق بالحَمَّام، والمعروف عند أهل اللغة أن الديماس هنا هو السَّرَب، والمراد من ذلك وصْفُه بصفاء اللون ونضارة الجسم وكثرة ماء الوجه حتى كأنه كان في موضع كِنّ فخرج منه وهو عَرْقَان. قال السهيلي: وفي هذه الصفة من صفات عيسى عليه السلام إشارة إلى الرِّيّ والخِصْب في أيامه إذا أُهْبِط إلى الأرض.

«عروة بن مسعود» أحد السادة الصحابة رضي الله عنهم.

«يوسف»: اسم أعجمي وتُثَلَّث سينُه وهو غير منصرف للعلمية والعُجْمَة.

«إذ هو قد أُعْطى» بدل من الأول بدل اشتمال «الشَّطْر»: قال بعض شُرَّاح المصابيح: المراد به هنا النصف، وقيل: البعض لأن الشَّطْر كما يراد به نصف الشيء قد يراد به بعضه مطلقاً. قال الطيبي: وقد يُراد به الجهة أيضاً نحو قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] أي جهته «من الحُسْن» أي مَسْحَةٌ منه كما يقال على وجهه مَسْحَة مُلْكٍ ومَسْحَةُ جمال أي أثَرٌ ظاهر ولا يقال ذلك إلا في المدح.

«هارون»: اسم أعجمي للعَلَمِيَّة والعجمة وقيل مُعَرَّب.

«أَرُون» والأَرَن النشاط سُمِّي به لنشاطه في طاعة الله تعالى، ثم قيل هارون كما قالوا في إيّاك هَيَّاك.

«الرَّهْط» بسكون الهاء وفتحها ما دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأة أو منها إلى الأربعين.

«القوم»: جماعة الرجل عند الأكثرين.

«الأُفُق» بضمتين وجمعها آفاق بالمَدّ أي النواحي.

«موسى» اسم مُعَرَّب أصله «مو» وهو بالعبرانية الماء، «والسَا» وهو الشجر، سُمِّي به لأنه وُجِد في الماء والشجر الذي كان حول قصر فرعون.

«آدم أسمر طُوَال»: تَقَدَّم.

«جَاوَزَهُ»: عَدّاه وفارقه.

---

(١) لسان العرب ١٤٢١/٢.

«يَزْعُم»: يقول:

«إسرائيل» يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعناه عبد الله وقيل صفوة الله وقيل سِرُّ الله لأنه أسرى به لما هاجر، وفيه لغات أشهرها بياءيْن بعد الهمزة ثم لام، وقُرِئ إسراييل بلا هَمْز.

«الشَّمَط(١)»: بياض شعر الرأس يخالطه سوادُه والرجل أَشْمَط وقَوْمٌ شُمْطَان مثل أسود وسُوَدان وقد شَمِط بالكسر شَمَطاً والمرأة شَمْطاء.

«مُسْنِدٌ ظَهْرَه»، مرفوع على أنه خبَر مبتدأ محذوف أي هو مُسْنِد ظَهْرَه، وفي رواية: مُسْنِداً ظهره بالنَّصْب على الحال. فائدة: نقل في النور أن السلطان الملك برقوق سأل عن البيت المعمور من أي شيء هو؟ قال بعض الحاضرين بأنه من عقيق، ونقله عن بعض التفاسير.

«الغِراس» بكسر الغين المعجمة وبالسين المهملة يقال غَرَسْتُ الشجرة غَرْساً من باب ضَرَب، والشجر مغروس ويطلق عليه أيضاً غَرْس وغِراس بالكسر فاعل بمعنى مفعول مثل كِتاب وبِسَاط.

«القراطيس» جمع قِرْطاس ما يُكْتَب فيه، وكسر القاف فيه أشهر من ضَمّها، والقَرْطَس وِزان جعفر فيه لغة.

«وَلَمْ يَلْبِسوا إيمانهم بظُلْم» أي لم يَخْلِطوه بشِرْك.

«ثيابٌ رُمْد»(٢) أي لون الرماد.

«آخِرُ ما عليهم» بضم الراء وفتحها، فالرفع على تقدير: ذلك آخِرُ ما عليهم، والنَّصْب على الظرف، قال القاضي: والرفع أجود.

«الحِلْس» ـ بحاء مهملة مكسورة وبفتح فلام ساكنة فسين مهملة. كساء يلي ظَهْر البعير القَتَب، والمراد أنه لِتَصَاغُرِه واختفائه عن هَيْبَة الله تعالى أَشْبَهَ الحِلْس المختفي تحت القَتَب، ولهذا في بعض الروايات قال «لا طيء» وهو بهمزة في آخره. ويُقال لَطِيء بالأرض لطوءاً لَصِق بها، وهو شدة معرفته بها، ولهذا قال ﷺ: «فَعَرَفْتُ فَضْل عِلْمه بالله عَلَيّ». قال بعضهم: وإنما قال ذلك ﷺ تواضعاً إذ لا خِلاف أنه أفضلُ خَلْقِ الله، وإنما الخلاف في غيره من الملائكة. قلتُ: أو قال ذلك قبل أن يصل إلى ما وصل إليه.

«أَسِنَ الماءُ(٣)» بفتح السين وكسرها يَأْسِنُ مُثَلَّثَة [أَسْناً وأَسَناً] وأُسُوناً تَغَيَّر فلم يُشْرَب فهو آسِن.

---

(١) لسان العرب ٣/٢٣٢٧.
(٢) لسان العرب ٣/١٧٢٧.
(٣) المفردات في غريب القرآن ١٨.

«النَّبِق»: بفتح النون وكسر الباء وتُسكَّن ثمرة السِّدْرة.

«قِلاَل هَجَر»: قال الخَطَّابي بكسر القاف جمع قُلَّة بالضَّمّ وهي الجِرار الواحدة تسع قِرْبَتَيْن أَو أَكثر وهَجَر بفتح الهاء والجيم من قُرَى المدينة ولا تنصرف للتأنيث والعلمية، ويجوز الصَرْف، يريد أَن ثمر السِّدْرَة في الكِبَر مثل القِلال، وكانت معروفة عند المُخَاطَبين، ولذلك وقع التمثيل بها. تنبيه: سُئِل: هل ثَمَر سِدْرَة المنتهى كالثمار المأكولة في أنه يزول ويَعْقُبه غيْره؟ وهل الزائل يؤكل أَو يسقط؟.

«وإذا وَرَقُها مثل آذان الفِيلة»: بكسر الفاء وفتح المثناة التحتية بعدها لام، وحكى الزركشي والبِرْماوي[1] فتح الفاء وقال الدماميني: إِنه سهو، والفيلة جمع فيل، وفي رواية: مثل آذان الفيول وهي جمع فيل أَيضاً، ولا منافاة بين ذلك وبين قوله: «تكاد الورقة تُغَطِّي هذه الأُمة»، لأَن المراد التشبيه في الشكل خاصَّةً لا في الكِبَر ولا في الأَحْسَن.

«أَنْهَار»: جمع نَهْرَ بسكون الهاء وفتحها.

«غَشِيَها أَلوان»: علاها ولاَبَسَها، «فلما غشيها من الله ما غشيها» هو كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم: ١٦] في إِرادة الإِبْهام للتفخيم والتهويل، وإِن كان معلوماً كما في قوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨] في حق فِرْعَوْن. وقوله: فَرَاش بيان له.

«الزَّبَرْجَد[2]» بزاي مفتوحة وبالدَّال المهملة جوهر معروف ويقال هو الزمرد[3].

«يَلُوذ بها»: يطوف بها.

«الفَرَاش» بالفتح جمع فَرَاشة: الطير الذي يُلْقِي نفسه في ضوء السِّراج.

---

(١) محمد بن عبد الدائم بن موسى، الشيخ الإمام، العالم المفنن، شمس الدين أبو عبد الله العسقلاني الأصل البرماوي، المصري. مولده في ذي القعدة سنة ثلاث وستين وسبعمائة، وأخذ عن الشيخ سراج الدين البلقيني، والشيخ سراج الدين بن الملقن، والشيخ زين الدين العراقي، والشيخ عز الدين بن جماعة، ومجد الدين البرماوي، والقاضي بدر الدين ابن أبي البقاء. وكان في صغره في خدمته، وسمع الكثير وفضل وتميز في الفقه والنحو، والحديث والأصول وكانت معرفته بهذه العلوم الثلاثة أكثر من معرفته بالفقه. وكتب شرحاً على البخاري لم يبينه، وجمع شرحاً على العمدة سماه جمع العدة لفهم العمدة، وأفرد أسماء رجال العمدة. وله الألفية في الأصول وشرحها، أخذ أكثره من البحر للزركشي، وله منظومة أخرى في الفرائض وغير ذلك، ومات في جمادى الآخرة سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة.
الطبقات لابن قاضي شهبة ١٠١/٤، ١٠٢، ١٠٣، وإنباء الغمر ١٦١/٨، والأعلام ٦٠/٧، وشذرات الذهب ٢٠١/٧.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٣٨٨/١.

(٣) الزُّمُرُّدُ: حجر أخضر اللون، شديد الخضرة. شفاف، وأشدُّه خضرة أجوده وأصفاه جوهراً، واحدته زمُرّدة. انظر المعجم الوسيط ٤٠١/١.

«خُلِّي على سبيلك»: بالبناء للمفعول، وهو صفة لقوله: أَي أَحد من أُمتك تُرِك على طريقك.

«الفُرَات»: بضَمّ الفاء وبالتاء المبسوطة وَصْلاً ووَقْفاً. ومن قال بالهاء فقد أَخطأ.

«العُنْصُر»: بضَمّ العين والصاد المهملتين بينهما نون ساكنة، وهو الأَصل.

«السلسبيل» اسم عَيْنٍ في الجنة.

«الكوثر»: يأْتي الكلام عليه في الخصائص وفي أَبواب حَشْره ﷺ.

«يَطَّرِد»: يَجْري.

«عَجاجاً[(١)]»: كثير الماء كأَنه يَعِجُّ من كثرته وصَوْتِ تَقَعْقُعِه.

«الخيام» جمع خَيْم كَفَرْخ وفِراخ وسَهْم وسِهام وهو مثل الخَيْمَة، وهو بيت تبنيه العَرَب من عيدان الشجر. قال ابن الأَعرابي: لا تكون الخَيْمة عند العرب من ثياب بل من أَربعة أَعواد ثم يُسْقَف بالثُّمَام بضم الثاء [المثلثة] وهو نَبْتٌ ضعيف له خُوص أَو شبيه بالخوص، والجمع خيْمَات وَخِيَم وزان بَيْضَات وقِطَع.

«الرَّضْرَاض[(٢)]»: بفتح الراء وسكون الضاد المعجمة، وبأُخرى مثلها: الحَصَى الصغار.

«الزُّمُرُّذ» بزاي فميم فَرَاء مُشَدَّدَة مضمومات فذال معجمة، هو الزبرجد.

«خَبَأَ لك»: بفتح الخاء المعجمة والمُوَحَّدة مهموزاً أَي ادَّخره لك رَبُّك.

«ابن حارثة»: يأْتي الكلام عليه في الموالي.

«جَنَابِذ اللؤلؤ[(٣)]»: بجيم فنون مفتوحتين فأَلف فباء مُوَحَّدة فذال معجمة وهي القِباب واللؤلؤ تقدم.

«القيعان»: جمع قاع وهو المكان المستوي من الأَرض، ويُجْمَع أَيضاً على أَقْوُع وأقواع.

«الوَجْس[(٤)]» بفتح الواو وسكون الجيم بعدها سين مهملة: الصوت الخَفِيّ.

«الدِّلاء» بكسر الدال جمع دَلْو.

«للإِبل المُقَتَّبة» أَي التي بأَقتابها[(٥)].

---

(١) انظر اللسان ٢٨١٣/٤.

(٢) اللسان ١٦٥٩/٣.

(٣) انظر لسان العرب ٦٩٥/١.

(٤) انظر المعجم الوسيط ١٠١٤/٢.

(٥) القَتَبُ: الرَّحْلُ الصغير على قدر سنام البعير. والجمع أَقْتاب. انظر المعجم الوسيط ٧٢٠/٢.

«مِسْكٌ أَذفر»: يقال ذَفِر الشيء بالكسر ذَفَراً بالتحريك اشتدت رائحته طيبةً كانت أَو كريهة.

«عاقِر النَّاقة»: اسمه قُدَار بضم القاف والتخفيف، ابن سالف بالسين المهملة والفاء.

«غشيها أَنوار الخلائق»: إضافة تشريف كما يقال بيت الله.

«الغِربان» جمع غُرَاب.

«ظَهَر» ارتفع.

«سُبُّوح[1] قُدُّوس[2]» بضمّ أَولهما أَي نُزِّه عن سوء وعيب.

«لِمُسْتَوًى»: بفتح الواو وبالتنوين: مَوْضِع مُشْرِف [يُسْتَوَى عليه] أَي يصعد وقيل المكان المستوى، [وفي بعض الأُصول]: «بمستوى» بمُوَحَّدة بدل اللام وعليهما فالباء ظَرْفِيَّة. وعلى رواية اللام: قال التوربشتي: اللام للعِلَّة أَو ارتفعت لاستعلاء مستوى أَو لرؤيته أو لمطالعته ويُحْتَمَل أَن يكون مُتَعَلِّقاً بالْمَصْدَر أَي ظَهَرْت ظهور المستوى، ويُحْتَمَل أَن تكون بمعنى «إِلى».

قال تعالى: ﴿أَوحى لها﴾، أَي إِليها، والمعنى: إِني أُقِمْتُ مقاماً بَلَغْتُ فيه من رفعة المَحَلّ إِلى حيث اطَّلَعْتُ على الكوائن فظهر لي ما يُرَاد من أَمْرِ الله وتدبيره في خَلْقه، وهذا هو المُنْتَهَى الذي لا تَقَدُّمَ فيه لأَحدٍ عليه.

وقال الطيبي: «لام» الغَرَض و«إِلى» الغائِيَّة يلتقيان في المعنى، قال في الكَشَّاف في قوله تعالى: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾[لقمان: ٢٩]: «فإِن قُلْتَ: يجري لأَجَل مُسَمًّى، ويَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى، أَهُوَ من تعاقب الحَرْفَيْنِ؟ قُلْتُ: كَلاً ولا يَسْلُك هذه الطريقة إِلا بليد الطبع ضَيِّق العَطَن[3]، ولكن المعنَيَين أَعني الانتهاء والاختصاص كُلٌّ واحدٍ منهما ملائم لصِحَّة الغَرَض، لأَن قَوْلَكَ: يَجْرِي إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى معناه يَبْلُغُه ويَنْتَهِي إِليه، وقَوْلُكَ: يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى، تُرِيد: يَجْرِي لإِدراك أَجَل مُسَمًّى.

فالحاصل أَن «اللام» و«إِلى»، وإِن كان معناهما أَعْنِي الإِدراك والانتهاء مُلائماً لصحة الغَرَض فليستا متعاقبتيْن، فمعنى: ظَهَرْتُ إِلى مستوى بَلَغْتهُ وانْتَهَيْتُ إِليه، ومعنى «لمستوى» هو أَدركتُ مُسْتَوى.

---

(١) لسان العرب ١٩١٤/٣.

(٢) اللسان ٣٥٥٠/٥.

(٣) يقال: فلان واسِعُ العَطَن: واسع الصبر والحيلة عند الشدائد، سخي كثير المال. وضده: ضيِّق العَطَن. انظر المعجم الوسيط ٦١٥/٢.

«صريف الأَقلام» بفتح الصاد المهملة وكسر الراء وبالفاء وهو صوت حركتها وجريانها على المكتوب فيه من أَقضية الله تعالى ووَحْيه وما ينسخونه من اللوح المحفوظ وما شاء الله تعالى الذي يعلم بكيفيتها.

«العَرْش»: السرير الذي للملك كما قال الله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ [النمل: ٢٣]، وثَبَت في الشَّرْع أَنه له قوائم تحمله الملائكة، وهو فوق الجنة والجنة فوق السموات، وفي الجنة مائة درجة ما بين كل دَرَجَتَيْن كما بين السماء والأَرض، وهو كالقُبَّة على العالم وهو سَقْف المخلوقات، وقد بَسَطْتُ الكلامَ عليه في «الجواهر النفائس في تَحْبير كتاب العرائس».

«لسانُه رَطْب من ذِكْر الله»: أَي لم يجف.

«قلبه مُعَلَّق بالمساجد» كأَنه رُبط بها أَو حُبًّا من العلاقة وهي المحبة.

«لم يَسْتَسِبّ لوالديه» أَي لم يُعَرِّضْهما للسَّبّ وهو الشَّتْم ولا جَرَّهما إِليه بأَن يَسُبَّ أَبا غيره فَيَسُبّ [هذا] أَباه مجازاةً له. وقد جاء مُفَسَّراً في الحديث الآخر: «أَن من أَكبر الكبائر أَن يَسُبَّ الرجل والديه». قيل: وكيف يَسُبّ والِدَيْه؟ قال: «يَسُبُّ أَبا الرجل فَيَسُبّ أَباه وأُمَّه».

«لَبَّيْك»: هو من التلبية وهي إِجابةُ المُنَادِي أَي إِجابتي لك يا رَبّ وهو مأْخوذ من لَبَّ بالمكان وأَلَبَّ إِذا أَقام به، وأَلَبَّ على كذا إِذا لم يُفَارِقه، ولم يُسْتَعْمَل إِلا على لفظ التثنية في معنى التكرير أَي إِجابةً بعد إِجابة، وهو منصوب على المصدر بعامل لا يظهر كأَنك قلت: أُلِبُّ إِلْبَاباً بعد إِلْبَاب.

«يحفظون الكتاب المجيد»: يتلونه حفظاً.

«أَناجيلهم»: الأَناجيل جمع إِنجيل وهو اسم كتاب الله تعالى المُنَزَّل على عيسى عليه الصلاة والسلام.

«سَبْعاً من المثاني»: هي كل سورة دون الطوال ودون المائتين.

«الرَّغْب» الفَزَع وسيأْتي الكلام على ذلك في الخصائص.

«فَواتح الكلم» وفي رواية مفاتيحه ومفاتحه وهما جمع مِفْتَاح ومِفْتَح وهما في الأَصل كل ما يُتوصل به إِلى استخراج المُغْلَقَات التي يتعذر الوصول إِليها، فأَخبَر أَنه أُوتِي مفاتيح الكلم، وهو ما يَسَّر الله له من البلاغة والفصاحة والوصول إِلى غوامض المعاني وبدائع الحِكَم ومحاسِن العبارات التي أُغْلِقت على غيره وتَعَذَّرَت.

«خواتمه» به فَصْل الخطاب.

«جوامعه»: أَي من الكلمات القليلة الأَلفاظ، الكثيرة المعاني.

«المِخْيَط»: بكسر الميم وسكون المُعْجَمَة وفتح التحتية وبالطاء المهملة ما خيط به الثوب.

«المَلَك القائد»: بقاف فألِف فهمزة فدال مهملة: المُقَدَّم.

«الغُرّ[١]»: بالغين المعجمة: جمع أَغَرّ، وهو هنا الأَبيض الوجه من نور الوضوء.

«المُحَجَّلين[٢]»: البيض الوجوه والرِّجْلَيْن من نور الوضوء.

«المُقْحِمات»: بضم الميم وإسكان القاف وكسر الحاء المهملة: الذنوب العِظام الكبار التي تهلك أَصحابها وتقودهم إلى النار، والتَّقَحُّم الوقوع في المهالك. قال النووي: والمراد بغُفْرانها أَلاَّ يُخَلَّد في النار بخلاف المشركين، وليس المراد، أَلاَّ يُعَذَّب أَيضاً فقد عُلِم من نصوص الشَرْع وإِجْمَاع أَهل السُّنَّة إثبات عذاب العُصَاة من المُوَحِّدين».

«فَسَلْهُ»: أَصله فاسْأَلْه لأنه أَمْرٌ من السؤال، فنُقِلت حركة الهمزة إلى السين فحُذِفت واسْتُغْنِيَ عن همزة الوصل فحذفت.

«خَبَرْتُ[٣] الناسَ وبَلَوْتُ بني إِسرائيل»: بمعنى جَرَّبْتُهم ومارستُهم وعالجتهم من المعالجة مثل المزاولة، ولقيت الشِّدَّة فيما رأَيتُ منهم من نبذ الطاعة.

«أَن نعم»: بفتح الهمزة في «أَن» والتخفيف وهي المُفَسِّرة، فهي من معناه مثل «أَيْ»، وهي بالتخفيف. «فلم يزل يرجع بين موسى وبين رَبِّه»: أَي بينه وبين مناجاة ربه.

«ومن هَمَّ بحَسَنةٍ»: أَي أَراد فِعْلَها مُصَمِّماً بقلبه.

«كُتِبَتْ له حَسَنة»: أَي كُتِبت له الحسنة التي هَمَّ بها ولم يعملها كتابةً واحدة لأَن الهَمَّ بسببها أَو بسبب الخير خَيْر، فوضع حَسَنة موضع المصدر، وكذا إِن عملها كُتِبت له عَشْراً ومَن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تُكْتَبْ شيئاً فأَن عملها كُتِبت سيئة واحدة.

«لَبَّيْك»: تقدم.

«وسَعْدَيْك»: أَي إِسعاداً لك بعد إِسعاد أَو مساعدة بعد مساعدة، والأَصل في الإِسعاد والمساعدة مُتَابَعةُ العَبْد أَمْرَ رَبِّهِ ورضاه.

«ومن هَمَّ بسيئة ولم يعملها لم تُكْتَب شيئاً»: أَي إذا لم يُصَمِّمْ على الفِعْل كما هو مذكور في محله.

---

(١) انظر لسان العرب ٣٢٣٤/٥ والمعجم الوسيط ٦٤٨/٢.
(٢) لسان العرب ٧٨٨/٢، ٧٨٩.
(٣) المعجم الوسيط ٢١٤/١.

«ولكن أَرضى وأُسَلِّم»: قال الطيبي: فإن قلت: وقوع هذا بين كلامَيْن متغايِريْن مَعْنىً فما وجهه هاهنا؟ قلت: تقدير الكلام: حتى اسْتَحْيَيْتُ فلا أَرجع، فإني إذا رجعت كنت غَيْرَ راضٍ ولا مُسَلم، ولكني أرضى.

«بِرَهَج»: بفتح الهاء وهو الغُبَار وفي قوله: «ثم ركب مُنْصَرِفاً»، دليل على أَنه حالة العُرُوج لم يكن راكباً.

«العِير»: بكسر العين المهملة ـ الإبل بأحمالها..

«الغِرارَتان[١]»: تثنية غِرارة وهي الجُوَالِق بجيم مضمومة فواو فألِف فلام فقاف: الـخُرج.

«فُظِع[٢]» بفاء فظاء معجمة مشالة أَي اشْتَدَّ عليه وهَابَهُ.

«بين ظَهْرَانَيْنا»: بفتح النون أَي: بيننا.

المُطْعِم بن عَدِيّ»: بضم الميم وسكون الطاء وكَسْر العين مُخَفَّفاً، هلك كافراً.

«مُصْعِداً شهراً»: بميم مضمومة فصاد ساكنة فعَيْن مكسورة فدال مهملات.

«مُنْحدراً شهراً»: بميم مضمومة فنون ساكنة فحاء فدال مكسورة مهملتين فراء «جَبَهْتَه»: بفتح الجيم والمُوَحّدة والهاء والفوقية أَي استقبلته بالمكروه، وأَصله من إِصابة الجَبْهَة يُقال جبهته إِذا أَصَبْتَ جبهته.

«كَرَب كَرْباً»: وفي رواية: فكُربتُ كُرْبَةً ـ بضم الكاف وسكون الراء ـ ما كُرِبْتُ مِثْلَه قط والضمير في مثله يعود على معنى الكُرْبَة وهو الكَرْب أَو الغَمّ أَو الهَمّ أَو الشيء.

«الرَّوْحَاء[٣]»: براء مفتوحة فواو ساكنة فحاء مهملة فأَلِف ممدودة: بَلَدٌ من عمل الفُرْع[٤] على نحو أَربعين ميلاً من المدينة ويقال على ستة وثلاثين ميلاً، ويقال على ثلاثين ميلاً.

التنعيم[٥]»: من الحِلّ بينه وبين سَرِف على فرسخين من مكة نحو المدينة.

---

(١) لسان العرب ٣٢٣٦/٥.

(٢) المعجم الوسيط ٦٩٥/٢.

(٣) الرّوْحاء من الفُرْع، على نحو أربعين ميلاً من المدينة. وفي كتاب مسلم بن الحجاج: على ستة وثلاثين ميلاً. وفي كتاب ابن أبي شَيْبة: على ثلاثين ميلاً وهو الموضع الذي نزل به تُبّع حين رجع من قتال أهل المدينة يريد مكة، فأقام بها وأراح فسمّاها الروحاء.

(٤) الفُرْع بالضم، ثم السكون، وآخره عين مهملة. وقيل: بضمتين: قرية من نواحي الربَذة، عن يسار السُّقيا، بينها وبين المدينة ثمانية برد، على طريق مكة. وقيل: أربع ليال: قرية.

(٥) التنعيم: موضع بمكة خارج الحرم، هو أدنى الحلّ إليها، على طريق المدينة، منه يحرم المكيّون بالعُمْرة، به مساجد مبنيّة بين سَرِف ومكة. قال: على فرسخين من مكة. وقيل: أربعة. قلت: لا خلاف بين الناس أنه على ثلاثة أميال من مكة.

«يَقْدُمُها»: بضم الدال في المضارع وبفتحها في الماضي، يقال: قَدَم يَقْدُم قُدْماً، بضَمّ القاف في المصدر، أي تَقَدَّم. قال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَه يَوْمَ القِيامة﴾ [هود: ٦].

«جَمَلٌ أَورق[١]»: أي في لونه بياض إلى سواد، قاله الأَصْمَعي. وقال أَبو زيد: يَضْرِب لونُه إلى الخُضْرَة.

«أهريقت[٢]»: انْكَبَّتْ.

«في غُدْوة»: بضمّ الغين المعجمة: ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس.

«الرَّوْحة[٣]»: اسم للوقت من الزوال إلى الليل.

هذا ما يَسَّر الله تَعالَى من الكلام على بعض فوائد القصة وشرح مشكلها، وقد جَمَعْتُ جزءاً في بيان تخريج أَحاديثها سَمَّيْتُه: «الإِفراج في تخريج أَحاديث قصة المِعْراج»، فمن تَوَقَّف في ورود لفظ فليراجع ذلك الجزء يظفر بمعرفة مَنْ رواه من الأَئمة، والله سبحانه وتعالى المُوَفِّق للصواب.

---

(١) اللسان ٤٨١٦/٦، ٤٨١٧.

(٢) انظر لسان العرب ٤٦٥٤/٦.

(٣) انظر المعجم الوسيط ٣٨٠/١، ٣٨١.

الباب العاشر

في صلاة جبريل بالنبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء وكيف فرضت الصلاة

روى الإمامان الشافعي وأحمد، وأبو داود والترمذي وحسَّنه، والطحاوي[١] والبيهقي عن ابن عباس، والإمام أحمد والنسائي والدارقطني والحاكم وصحَّحه وأقرَّه الذهبي عن جابر بن عبد الله، والدارقطني والحاكم والإسماعيلي في معجمه، وابن السَّكَن في صحيحه عن أنس، والدارقطني بإسناد جيِّد عن ابن عُمَر، والنسائي والحاكم وصَحَّحه وأقرَّه الذهبي عن أبي هريرة وإسحاق بن راهويه عن أبي مسعود الأنصاري، وعبد الرَّزَّاق وإسحاق عن أبي سعيد الخُدْرِيّ، وإسحق عن أبي بكر بن محمد بن عَمْرو بن حَزْم، عن أبيه عن جَدِّه عَمْرو بن حَزْم رضي الله تعالى عنهم. قال الحافظ في المطالب: إسناده حَسَن، إلا أن محمد بن عَمْرو بن حَزْم لم يسمع من النبي ﷺ لِصغَر سِنِّه، فإن كان الضمير في جَدِّه يعود على أبي بكر تَوَقَّف على سماع أبي بكر من عُمَر أن رسول الله ﷺ قال: «أمَّنِي جبريل عند البيت» - ولفظ الشافعي والطحاوي والبيهقي: «عند باب البيت» - «مَرَّتَيْنِ فصَلَّى بي الظُّهْر حين زالت الشمس، وكانت قَدْرَ الشِّراك، وصَلَّى بي العصر حين صار ظِلُّ كل شي مِثْلَه، وصَلَّى بي المَغْرِب حين أُفْطِر الصائم، وصَلَّى بي العِشاء حين غاب الشَّفَق، وصَلَّى بي الفَجْر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان الغد صَلَّى بي الظُّهْر حين كان ظِلُّه مِثْلَه» - وفي لفظ: «كوقت العصر بالأمس» - «وصَلَّى بي العصر حين كان ظِلُّه مِثْلَيْه، وصَلَّى بي المَغْرب حين أُفْطِر الصائم، وصَلَّى بي العِشاء إلى ثُلُث الليل الأول، وصَلَّى بي الفَجْر فأَسْفَر»، ثم التفت فقال: «يا محمد هذا وقت الإنبياء من قبلك، والوقت ما بَيْنَ هذَيْن[٢]».

هذا ما وقفتُ عليه في صلاة جبريل بالنبي ﷺ بالصلوات الخمس، وأما عدد ركعاتها حين فُرضت فمن الناس من ذهب إلى أنها فُرضت أول ما فُرضت ركعَتَيْن ركعَتَيْن، ثم زيد في صلاة الحضر فأُكملت أربعاً إلا المَغْرب وأُقِلَّت صلاة السَّفَر ركعتين. وروَى ذلك عن عائشة رضي الله عنها الشعبي وميمون بن مهران ومحمد بن إسحاق. ومنهم من ذهب إلى أنها

(١) منهم أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي: وإليه انتهت رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. أخذ العلم عن أبي جعفر بن أبي عمران وعن أبي خازم وغيرهما. وكان شافعياً يقرأ على أبي إبراهيم المزني فقال له يوماً: والله لا جاء منك شيء، فغضب أبو جعفر من ذلك وانتقل إلى أبي جعفر بن أبي عمران، فلما صنف مختصره قال: رحم الله أبا إبراهيم لو كان حياً لكفَّر عن يمينه وصنف «اختلاف العلماء» و «الشروط» و «أحكام القرآن» و «معاني الآثار». ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين ومات سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة. طبقات الفقهاء للشيرازي ١٤٢.

(٢) أخرجه الشافعي في الأم ١/٧١ وأحمد في المسند ١/٣٣٣ وأبو داود ١/٢٧٤ (٣٩٣) والترمذي ١/٢٧٨ (١٤٩) وابن خزيمة في صحيحه ١/١٦٨ (٣٢٥) والدارقطني ١/٢٥٨ (٦ ـ ٩).

فُرِضت أَول ما فُرِضت أَربعاً إِلا المغرب ففُرِضت ثلاثاً والصبح ركعتين، وبه قال الحَسَن ونافع بن جبير بن مُطْعِم وابن جرير.

ومنهم من ذهب إِلى أَنها فُرِضت في الحضر أَربعاً وفي السَّفَر ركعتَيْن، يُرْوَى ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذِكْرُ أَدِلَّة هذه الأَقوال والكلام عليها مذكور في المُطَوَّلات. وروى الشيخان وابن إِسحاق عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «افترضت الصلاة على رسول الله ﷺ أَول ما افترِضَتْ ركعتين ركعتين كل صلاة ثم إِن الله أَتَمَّها في الحضر أَربعاً وأَقرّها في السفر على فرضها الأَول ركعتَيْن».

تنبيهات

الأَول: ذكر بعضهم أَن المعروف في رواية المواقيت عند البَيْت ـ ورُوي عند باب البيت ـ وقد علمت أَنها رواية الشافعي والطحاوي والبيهقي.

الثاني: المشهور في الأَحاديث السابقة الابتداء بالظُّهر. روى ابن أَبي خَيْثَمة في تاريخه عن أَحمد بن محمد، حدثنا إِبراهيم بن سعد عن أَبي إِسحاق عن عُتْبَة بن مسلم عن نافع بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما فُرِضت الصلاة على رسول الله ﷺ أَتاه جبريل فصَلَّى به الصبح حين طلع الفجر»، وذكر الحديث. وكذا وقع في رواية الدارقطني وابن حِبَّان في الضعفاء من طريق محبوب بن جهم، وهو ضعيف، وفي رواية أَبي هريرة عند النسائي: قال رسول الله ﷺ: «هذا جبريل جاءكم يُعَلِّمكم دينكم»، فصَلَّى الصبح حين طلع الفجر.

الثالث: قال أَبو عُمَر: لم أَجد قَوْلَه «هذا وقتك ووقت الأَنبياء قبلك»، إِلا في هذا الحديث، يعني رواية ابن عباس، قلت: قال القاضي أَبو بكر بن العربي رحمه الله: ظاهِرُهُ يُوهِم أَن هذه الصلوات في هذه الأَوقات مشروعة لمن قبله من الأَنبياء، وليس كذلك، إِنما معناه: هذا وقتك المشروع لك، يعني الوقت المُوَسَّع المحدود بطرفين: الأَول والآخر، ووقت الأَنبياء قبلك، يعني مثله وقت الأَنبياء قبلك أَي صلاتهم كانت واسعة الوقت وذات طَرَفَيْن مثل هذا. وإِلا فلم تكن هذه الصلوات على هذا الميقات إِلا لهذه الأُمة خاصَّةً وإِن كان غيرهم قد يشاركهم في بعضها.

وقد روى أَبو داود في حديث العِشاء: «أَعْتِموا بهذه الصلاة فإِنكم قد فُضِّلْتُم بها على سائر الأُمم ولم تُصَلِّها أُمَّةٌ قبلكم وكذا قال أَبو الفتح: «يريد بها التوسعة عليهم في أَن للوقت أَولاً وآخراً إِلا أَن الأَوقات هي أَوقاتهم بعينها».

الرابع: استشكل بعضُهم لفظ «عند البيت» بأنه ﷺ كان يستقبل بيت المقدس قبل الهجرة. قلت: ولا إشكال في ذلك لاحتمال أنه ﷺ جعل البيت بينه وبين بيت المقدس، وكذلك رواية: «عند الباب» لا إشكال فيها، إذ لا يلزم في كون الصلاة عند الباب أن تكون الصلاة إليه.

الخامس: قال ابن المنير: «لما أمر الله سبحانه وتعالى جبريل أن يُعَلِّم النبي ﷺ الصلاة، كانت هذه فرضاً عليه لأنه أُمِر بذلك، فكانت صلاة النبي ﷺ صلاة مُفْتَرِض خلف مُفْتَرِض».

السادس: قال الحربي: «أول ما فرضت الصلاة عليه: ركعَتَيْن أول النهار وركعتَيْن آخره بسَنَده عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فَرَض رسول الله ﷺ الصلاةَ ركعتين ركعتين ثم زاد فيها في الحضر». قال أبو عُمَر: «ليس في حديث عائشة دليل على صحة ما ذهب إليه الحربي، ولا يوجد هذا في أثرٍ صحيح، بل فيه دليل على أن الصلاة التي فُرِضت ركعتين ركعتين هي الصلوات الخمس لأن الإشارة بالألف واللام في «الصلاة» إشارة إلى المعهود». قال الحافظ: «الذي يظهر وبه تُجْمَع الأدِلَّة أن الصلاة فُرضت ليلة الإسراء ركعتين ركعتين إلا المغرب، ثم زيدت عَقِب الهجرة إلا الصبح كما روى ابن خُزَيْمَة وابن حِبَّان والبيهقي من طريق الشعبي عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: «فُرِضت صلاة السفر والحَضَر ركعتين ركعتين، فلما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة واطمأن، زِيد في صلاة الحضر ركعتان وتُرِكت صلاة الفجر لطول القراءة وصلاة المغرب لأنها وِتْر». انتهى.

ثم بعد أن استقر فَرْض الرباعية خُفِّف منها في السفر عند نزول الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [النساء: ١٠١] قال ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير في شرح مُسْنَد الشافعي: إن قَصْر الصلاة كان في ربيع الأول من السنة الثانية، وهو مأخوذ مما ذكره غيره أن نزول آية الخوف كان فيها. وقيل قَصْر الصلاة كان في ربيع الأول من السنة الأُولى ذكره الدولابي وأورده السُّهَيْلي بلفظ بعد الهجرة بعام أو بنحوه، وقيل بعد الهجرة بأربعين يوماً. فعلى هذا فالمراد بقول عائشة: فأقرت صلاة السفر باعتبار ما آل إليه الأمر من التخفيف لأنها استمرت منذ فرضت فلا يلزم من ذلك أن القصر عزيمة.

السابع: قال السهيلي: هل هذه الزيادة في الصلاة نسخ أم لا؟ فيقال: أما زيادة ركعتَيْن أو ركعة إلى ما قبلها من الركوع حتى تكون صلاة واحدة فَنَسْخ، لأن النسخ رَفع الحُكْم، وقد

ارتفع حكم الإِجزاء[(١)] من الركعتين وصار من سَلَّم فيها عامداً مُفْسِداً لها، وإن أَراد أَن يُتِمّ صلاتَه بعد ما سَلَّم عامداً لم يُجْزِه إلا أَن يستأْنف الصلاة من أَوَّلها، فقد ارتفع حكم الإِجزاء بالنَّسْخ، وأَما الزيادة في عدد الصلوات حتى المُكْث خمساً بعد ما كانت اثنتَيْن فَسُمِّيت نَسْخاً عند أَبي حنيفة، قال الزيادة عنده نَسْخ، وجمهور المتكلمين على أنه ليس بِنَسْخ، ولاحتجاج الفريقين موضع غير هذا.

الثامن: في بيان غريب ما سَبَق:

«زوال الشمس»: عبارة عن ميلها من جانب الشّمال إلى جانب اليمين إذا استَقْبَلْت القِبْلة.

«الشِّراك»[(٢)]: أَحد سيور النَّعْل التي على وجهها وقدره هنا ليس على معنى التحديد.

(١) يقال: أجزأني الشيء: أي كَفَاني، ويُروَى بالياء. انظر النهاية لابن الأثير ١/٢٦٦.

(٢) انظر لسان العرب ٤/٢٢٥٠.

جماع أبواب بدء إسلامِ الأنصار

الباب الأول
في نَسَبهم

قال السهيلي رحمه الله تعالى: «الأنصار جَمْع ناصر على غير قياس في جَمْع فاعل، ولكن على تقدير حذف الأَلِف من ناصِر لأَنها زائدة، فالاسم على تقدير حَذْفِها ثلاثي، والثلاثي يُجْمَع على أَفعال، وقد قالوا في نَحْوه صاحب وأَصحاب وشاهد وأَشْهَاد». وفي الصحاح النصير الناصر، والجَمْع أَنصار مثل شريف وأَشراف، وجَمْع الناصر نَصْر مثل صاحِب وصَحْب». انتهى.

ولم يكن «الأَنصار» اسماً لهم في الجاهلية بل سَمَّاهم الله تعالى به في كتابه كما سيأتي في الباب بعده.

والأَنصار حِزبان: الأَول: بنو الأَوس، قال السهيلي: وهو لُغَةً العَطِية أَو العِوَض. زاد في الزَّهْر: وأَوس زَجْرٌ للغَنَم والبقر، ودخول الأَلف واللام فيه على حَدّ دخولها في التَّيْم جَمْع تَيْمِيّ، وهو من باب رومِيّ وروم، ومثل هذا إِذا كان عَلَماً لا تدخله الأَلف واللام.

والثاني: بنو الخزرج، قال السهيلي: وهو في اللغة الريح الباردة، وقال بعضهم: هي الجَنُوب خاصة، وقال بعضهم في الزهر: الريح الشديدة. والأَوْس والخَزْرَج ابنا حارثة ـ بحاء مهملة وثاء مثلثة ـ ابن ثعلبة العَنْقَاء ـ بعينٍ مهملة مفتوحة فنون ساكنة فقاف فهمزة ممدودة، لُقِّبَ به لطول عُنُقه ـ ابن عمرو مُزَيقِيَاء ـ بميم مضمومة فزاي مفتوحة فمُثَنَّاة تحتية ساكنة، فقاف مكسورة فمُثَنَّاة تحتية فهمزة ممدودة، لُقِّب عمرو بذلك لأَنه كان من ملوك اليمن، وكان يلبس كل يوم حُلَّتَيْن فيُمَزِّقهما بالعَشِيّ ويكره أَن يعود فيهما، ويأْنف أَن يلبسهما أَحَدٌ غيره، قاله في النور والروض يُمَزِّق كل يوم حُلَّة بالإِفراد ـ ابن عامر ماء السماء ـ لأَن قومه كانوا إِذا قَحَطوا بَثَّ فيهم مالَه، فكان يقوم لهم مقام ماء السماء ـ ابن حارثة ـ بحاء مهملة ومُثَلَّثة، ويُلَقَّب بالغِطْرِيف ـ بغين معجمة مكسورة فطاء مهملة ساكنة فراء مكسورة وفي آخره فاء، وهو في اللغة السَّيِّد وفَرْخ البازي ـ ابن امرئ القَيْس ـ ويُلَقَّب: البِطْريق بباء موحدة فطاء مهملة ساكنة وفي آخره قاف ـ وهو القائد من قُوَّاد الروم وهو مُعَرَّب، والجمع بطارقة، وهو في اللغة السَّمين من الطَّيْر وغيره، وأَيضاً المُخْتَال في مشيه ـ ابن ثَعْلَبة ـ ويُلَقَّب بالبُهْلُول بباء مُوَحَّدة مضمومة

وهاء ساكنة وهو في اللغة السَّيِّد ـ ابن مازِن ـ ويُلَقَّب: زاد السَّفَر ـ ابن الأَزد ـ اسم الأَزد «دِرَا» بدال مكسورة فراء مهملتين فألف ممدودة ـ ابن الغَوْث ـ بغين معجمة مفتوحة فواو ساكنة فمثلثة ـ ابن مالك بن زيد بن كهلان ـ بكاف مفتوحة فهاء ساكنة وآخره نون ـ ابن سَبَا ـ يَمَدّ ويُقْصَر، ويُصْرَف ولا يُصْرَف واسمه عامر وقيل عَبْد شَمْس ـ ابن يَشْجُب ـ بمُثَنَّاة تحتية مفتوحة فشين معجمة ساكنة فجيم مضمومة فمُوَحَّدة، وِزان يَنْصُر، ولا ينصرف للعلمية ـ ابن يَعْرُب ـ بعين مهملة وِزان يَشْجُب ـ ابن قَحْطان ـ بقاف مفتوحة فحاء ساكنة مُهْمَلَتَيْن فنون، والنسبة إليهما قحطاني على القياس، ولقبه يَقْطُن ـ بمثنَّاة تحتية فقاف فطاء مهملة وِزان يَعْرُب وسُمِّي بقحطان لأَنه كان أَول من قَحَطَ أَموال الناس من ملوك العرب واسمه مهزم، ويقال إِن قحطان كان أَول من تكلم بالعربية وهو والد العرب المتعربة وأَما إِسماعيل فهو والد العرب المستعربة، وقيل قحطان أَول من قيل له: أَبَيْتَ اللَّعْن، وعِم صباحاً، وذهب الزبير بن بَكَّار إِلى أَن قحطان من ذرية إِسماعيل عليه السلام وأَنه قحطان بن الهَمَيْسَع وتقدم ضَبْطُه في النَّسب النبوي: ابن إِسماعيل وهو ظاهر قول أَبي هريرة رضي الله عنه المتقدم في قصة هاجر حيث قال وهو يخاطب الأَنصار: «تلك أُمُّكم يا بني ماء السماء». قال الحافظ: «وهذا هو الراجح في نقدي». وبَسَط الكلام على ذلك.

الباب الثاني

في فضلهم وحُبهم والوصية بهم والتجاوز عن مُسيئهم والنَّهي عن بُغضِهم

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٧٤] وقال الله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ، وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] وقال تَقَدَّسَ اسْمُه: ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

وعن غَيْلان بن جرير قال: «قلت لأنَس: أرَأَيْتَ اسم الأنصار كنتم تُسَمَّوْنَ به أم سَمَّاكم الله؟ قال: بل سَمَّانا الله عَزَّوجَلَّ»، رواه البخاري والنسائي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، يرفعه: «إن الله أمَدَّني بأشد الناس ألْسُناً وأذْرُعاً، بابْنَي قَيْلَة: الأوس والخزرج»، رواه الطبراني في الكبير. وعن أبي واقد الليثي قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ فأتاه آتٍ فالْتَقَم أُذُنَه فتغَيَّر وَجْهُه وسار الدَّمُ في أساريره، ثم قال: «هذا رسول عامر بن الطُّفَيْل يَتَهَدَّدُني فكفانيه الله بالبيتين من وَلَد إسماعيل با بْنَي قَيْلَة»، يعني الأنصار، رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

وعن أنَس رضي الله عنه قال: رأى رسول الله ﷺ النِّساء والصبيان مُقْبِلين قال: حَسِبْتُ أنَّه قال: من عُرْس فقام النبي ﷺ مُمْثِلاً، فقال: «اللهم أنتم من أحَبِّ الناس إليّ»، قالها ثلاث مرات. رواه البخاري(١). وعنه أيضاً قال: جاءت امرأة من الأنصار إلى رسول الله ﷺ ومعها صَبِيّ لها فَكَلَّمها رسول الله ﷺ فقال: «والذي نفسي بيده إنكم أحَبُّ الناس إليّ»، مَرَّتَيْن، رواه الشيخان والنسائي(٢). وعن البراء بن عازب رضي الله عنه يرفعه قال: قال النبي ﷺ: «الأنصار لا يُحبهُّم إلا مؤمِن ولا يَبْغَضُهُم إلا مُنافِق فمن أحَبَّهم أحَبَّه الله ومن أبغضهم أبغضه الله»(٣)، رواه الستة خلا أبو داود. وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «آيةُ الإيمان حُبُّ الأنصار وآيةُ النِّفاق بُغْضُ الأنصار»(٤). رواه الشيخان والنسائي. وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مَرَّ ببعض سكك المدينة فإذا بجوارٍ يَضْرِبْن بِدُفِّيْن وَيَتَغَنَّين ويَقُلْن: نحن جوار من بني النَّجّار يا حَبَّذا محمد من جار، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم تعلم أني لأُحِبُّكُنّ»، حديث صحيح رواه ابن ماجه، وعن سعد بن عُبَادة يرفعه: «إن هذا الحَيّ من الأنصار مِحْنَة: حُبُّهم

---

(١) أخرجه البخاري ١١١/٥ (٣٧٨٥).

(٢) أخرجه البخاري ٤٠/٥ (دار الفكر) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة (١٧٥).

(٣) أخرجه البخاري ١١٣/٧ (٣٧٨٣) ومسلم ٨٥/١ (١٢٩- ٧٥).

(٤) أخرجه البخاري ١١٣/٧ ومسلم ٨٥/١ (١٢٨- ٧٤).

إيمان وبُغْضُهم نفاق»[١]، رواه الإمام أحمد. وعن أبي سعيد الـخُدْرِيّ يرفعه: «حُبُّ الأنصار إيمان وبُغْضُهم نِفاق»[٢]، رواه الإمام أحمد. وعنه، «لا يَبْغض الأنصار رجل يؤمن بالله واليوم الآخر»[٣]، رواه الإمام أحمد.

وعنه أيضاً يرفعه: «مَنْ أَحَبَّني أَحَبَّ الأنصار، ومن أبغضني فقد أبغض الأنصار، لا يُحِبُّهم منافق ولا يبغضهم مؤمن، من أحبهم أحبه الله ومن أبغضهم أبغضه الله، الناس دِثار والأنصار شِعار، ولو سلك الناس شِعْباً وسلك الأنصار شِعباً لسلكت شِعْبَ الأنصار» رواه الإمام أحمد[٤].

وعن جدة رباح بن عبد الرحمن بن حُوَيطِب يرفعه: «لا صلاة لـمن لا وضوء له ولا وضوء لـمن لم يذكر اسم الله عليه، ولا يؤمن بالله من لا يؤمن بي ولا يؤمن بي من لا يحب الأَنصار»، رواه الترمذي وابن ماجه دون ذكر الأَنصار فيه، وقال الترمذي عن البخاري إنه قال: هذا أَحسن حديث في هذا الباب. وعن علي بن سَبْرَة عن أَبيه عن جَدِّه يرفعه: «أَيها الناس لا صلاة إلا بوضوء ولا وضوء لـمن لـم يذكر اسم الله عليه، ولـم يؤمن بالله من لـم يؤمن بي ولـم يؤمن بي من لـم يعرف حَقّ الأَنصار»، رواه البغوي في معجمه والطبراني في الأَوسط.

وعن الحارث بن زياد يرفعه: «من أَحَبَّ الأَنصار أَحَبَّه الله ومن أَبغض الأَنصار أَبغضه الله» رواه الإمام أَحمد[٥]. وعنه أَيضاً يرفعه: «والذي نفسي بيده لا يحب رجل الأَنصار حتى يلقى الله إلاَّ لقي الله وهو يحبه، ولا يبغض رجل الأَنصار حتى يلقى الله إلا لقي الله وهو يبغضه»، رواه الإمام أَحمد والطبراني وسنده صحيح[٦]. وعن أَنس رضي الله عنه قال: افتخر الـحَيَّان من الأَنصار: الأَوس والـخزرج، فقالت الأَوس: «مِنَّا غسيل الـملائكة حنظلة بن أَبي عامر الراهب، ومِنَّا من اهْتَزَّ له عَرْش الرحمن، سَعْد بن مُعَاذ، ومنا من حَمَتْه الدَّبْر، عاصم بن ثابت[٧] بن أَبي

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/٢٨٥ والطبراني في الكبير ٦/٢٤ وذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٢٨ والمتقي الهندي في الكنز (٣٣٧٤٣).

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٣/٧٠ وابن عدي في الكامل ٢/٧٣٠.

(٣) أخرجه مسلم ١/٨٦ (٧٧- ١٣٠) والترمذي (٦- ٣٩) وأحمد في المسند ١/٣٠٩ - ٢/٤١٩ والطبراني في الكبير ١٢/١٧.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٣٢ وعزاه للبزار بإسنادين وفيهما كلاهما عطية وحديثه يكتب على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٥) أخرجه ابن ماجه (١٦٣) وأحمد في المسند ٢/٥٠١ والطبراني في الكبير ٣/٢٩٩ وابن أبي شيبة في المصنف ١٢/١٥٨.

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ١٠/٤١ وعزاه لأحمد والطبراني بأسانيد ورجال بعضها رجال الصحيح غير محمد بن عمرو وهو حسن الحديث.

(٧) عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح قيس بن عصمة بن النعمان بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن بدر بن مالك بن عمرو بن عوف الأنصاري جد عاصم بن عمرو بن الخطاب لأمه من السابقين الأولين من الأنصار.. الإصابة ٤/٣.

الأَقْلَح، ومنا من أُجيزت شهادته بشهادة رَجُلَيْن، خزيمة بن ثابت. فقال الخزرجيون: منا أَربعة نفر جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ لم يجمعه غيرهم: زيد بن ثابت، وأَبو زيد، وأُبَيّ بن كعب، ومعاذ بن جَبَل»، حديث رواه أَبو يَعْلَى والبزّار، والطبراني في الكبير، وفي الصحيح منه الذين جمعوا القرآن.

وعن معاوية بن أَبي سفيان وأَبي هريرة يرفعانه: «من أَحب الأَنصار أَحبه الله ومن أَبغض الأَنصار أَبغضه الله[1]»، رواه أَبو يعلى، وهو حديث حسن صحيح رواه البَزّار عن أَبي هريرة والطبراني عن معاوية، وله طريق آخر عند الطبراني عن معاوية يرفعه: «من أَحب الأَنصار فَبِحُبِّي أَحبهم ومن أَبغض الأَنصار فَبِبُغْضِي أَبغضهم[2]»، حديث صحيح. وعن أَنس رضي الله عنه قال: قالت الأَنصار يوم فتح مكة وأَعطى قريشاً: «والله إن هذا لهو العجب إن سيوفنا تَقْطُر من دماء قريش وغنائمنا تُرَدّ عليهم». فبلغ ذلك النبي ﷺ فدعا الأَنصار، قال: فقال: «ما الذي بلغني عنكم؟» وكانوا لا يَكْذِبون، فقالوا: «هو الذي بلغك». قال: «أَوَ لا تَرْضَوْنَ أَن يَرْجع الناس بالغنائم إِلى بيوتهم وترجعون برسول الله ﷺ إِلى بيوتكم، لو سلكت الأَنصار وادياً أَو شِعْباً لسلكت وادي الأَنصار أَو شِعْبَهم[3]». رواه الشيخان والنسائي، وهو عند البخاري أَيضاً من حديث أَبي هريرة، وفي آخره: «ولَوْلا الهجرة لكنتُ امرأً من الأَنصار». وعند النسائي بعد الشِّعْب: «اللهم ارحم الأَنصار وَأَبناء الأَنصار وأَبناء أَبناء الأَنصار[4]»، فبكى الأَنصار حتى اخْضَلَّت لِحاهم، وقالوا: «رَضينَا برسول الله ﷺ قِسْماً وحَظاً»، حديث صحيح رواه الإِمام أَحمد. وعن أَبي هريرة يرفعه: «لولا الهجرة لكنت امرأً أَنصارياً[5]»، رواه الترمذي وحَسَّنه. وعن أَبي قتادة يرفعه: «أَلاَ إِن الناس دِثار والأَنصار شعار، ولو سلك الناس وسلك الأَنصار شِعْباً لا تَّبعت شِعْبِ الأَنصار، ولولا الهجرة لكنت امرأً من الأَنصار، فمن ولى من أَمر الأَنصار شيئاً فَلْيُحْسِن إِلى مُحْسِنهم وليتجاوز عن مُسِيئهم، من أَفزعهم فقد أَفزع هذا الذي بين هذين[6]»، وأَشار إِلى نفسه، حديث صحيح رواه الإِمام أَحمد والطبراني، وزاد في آخره: يعني قلبه. وعن

(١) أخرجه أبو يعلى في المسند ٣٥٦/١٣ (١٤، ٧٣٦٧) وذكره الهيثمي في المجمع ٤٢/١٠ وعزاه لأبي يعلى وقال: إسناده جيد. ورواه البزار وفيه محمد بن عمرو وهو حسن الحديث وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٣٤١/١٩ وذكره الهيثمي ٤٢/١٠ وعزاه للطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن حاتم وهو ثقة.

(٣) أخرجه البخاري ٣٨/٥ (دار الفكر) ومسلم في كتاب الزكاة (١٣٤).

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٧٧/٣ والبيهقي في الدلائل ١٧٨/٥ وابن سعد في الطبقات ١١١/١/٢.

(٥) أخرجه البخاري ٢٣٨/١٣ (٧٢٤٤) ومسلم في كتاب الزكاة (١٣٩).

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٥/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط عن شيخه مقدام بن داود وهو ضعيف. وقال ابن دقيق العيد: إنه وثق، وبقية رجاله ثقات.

السائب بن يزيد أَن رسول الله ﷺ قَسَم الفيء الذي أَفاء الله تعالى بحُنَيْن من غنائم هوازن، فأحسن، فذكر الحديث وفيه: ثم قال: «يا معشر الأَنصار أَلَم يَمُنّ الله عليكم بالإِيمان وخَصَّكم بالكرامة وسَمَّاكم بأحسن الأَسماء: أَنصار الله وأَنصار رسوله؟ ولولا الهجرة لكنت امرأً أَنصارياً ولو سلك الناس وادياً وسلكتم وادياً لسلكت واديكم، أَوَ لا تَرْضَوْن أَن يذهب الناس بالشَّاءِ والنَّعَم وتذهبون برسول الله ﷺ»؟ قالوا: قد رضينا. قال: «أَجيبوني فيما قلت». قالت الأَنصار: يا رسول الله وجدتنا في ظلمة فأَخرجنا الله بك، ووجدتنا على شفا حفرة من النار فأَيَّدنا الله بك، ووجدتنا ضُلاَّلاً فهدانا الله بك، فرضينا بالله رَبّاً وبالإِسلام ديناً وبمحمد نبياً فاصنع يا رسول الله ما شئت فأَوسع الحل. فقال النبي ﷺ: «لو أَجبتموني بغير هذا القول لقلت صدقتم، لو قلتم: أَلم تأْتنا طريداً فآويناك، ومُكَذَّباً فصدَّقناك، ومخذولاً فنصرناك، وقَبِلنا مارَدَّ الناس عليك؟ لو قلتم هذا لصدقتم». فقالت الأَنصار: «بل الله ذو الفضل علينا وعلى غيرنا». ثم بكوا فكَثُر بكاؤهم وبكى رسول الله ﷺ معهم. رواه الطبراني في الكبير(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ وعليه مِلْحَفَة مُتَعَطِّفاً بما على مَنْكِبَيْه وعليه عِصَابَةٌ دَسْمَاء حتى جلس على المِنْبَر فحَمِد الله وأَثنى عليه ثم قال: «أَما بعد أَيها الناس فإِن الناس يَكْثُرون وتَقِلّ الأَنصار حتى يكونوا كالملْح في الطعام. فمن وَلِيَ منك أَمراً يَضُرّ فيه أَحداً أَو ينفعه فليقبل من مُحْسِنهم ويتجاوز عن مُسِيئهم». رواه البخاري(٢).

وعن أَنس رضي الله عنه يرفعه: «الأَنصار كَرِشي وَعيْبَتي والناس سيكثرون ويَقِلُّون فاقبلوا من مُحْسِنهم وتجاوزوا عن مُسِيئهم»، رواه البخاري(٣).

وعن أَنس أَيضاً، قال: مَرَّ أَبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأَنصار وهم يبكون فقال: ما يبكيكم؟ قالوا؛ ذكرنا مجلس النبي ﷺ منا، فدخل على النبي ﷺ فأَخبره بذلك. قال: فخرج النبي ﷺ وقد عَصَب على رأْسه حاشية بُرْد، قال فصَعِدَ المنبر ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحَمِد الله وأَثنى عليه ثم قال: «أُوصيكم بالأَنصار فإِنهم كَرِشي وعيبتي وقد قَضَوْا الذي عليهم وبقي الذي لهم فاقبلوا من مُحْسِنهم وتجاوزوا عن مسيئهم(٤)»، رواه الشيخان والنسائي والترمذي.

وعن أُسَيْد بن حُضَيْر يرفعه: «الأَنصار كرشي وعَيْبتي وإِن الناس يكثرون وهم يقلون،

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٨٠/٧ وذكره السيوطي في الدر ٢٧٠/٣ وعزاه للطبراني.
(٢) أخرجه البخاري ٦٢٨/٦ (٣٦٢٨).
(٣) أخرجه البخاري ١٥١/٧ (٣٨٠١).
(٤) أخرجه البخاري ١٢٠/٧ (٣٧٩٩).

فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم[١]»، حديث صحيح رواه الطبراني في الكبير. وعن عبد الله بن عمرو بن العاصي رضي الله عنهما، يرفعه: «اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مُسيئهم»، يعني الأنصار، رواه البَزَّار والطبراني وهو حديث حسن. وعن أبي سعيد يرفعه: «ألاَ إن عَيْبَتي التي أوَى إليها أهل بيتي وأن كَرِشي الأنصار فاعفوا عن مسيئهم واقبلوا من محسنهم[٢]»، حديث صحيح حسن رواه الترمذي. وعن كعب بن مالك عن رجل من الصحابة قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فحَمِد الله وأثنى عليه واستغفر للشهداء الذين قتلوا بأُحُد ثم قال: «إنكم يا معشر المهاجرين تَزيدون وإن الأنصار لا يزيدون، وإن الأنصار عَيْبَتي التي آوِي إليها، أكْرِموا كَرِيمَهم وتجاوزوا عن مسيئهم، وإنهم قد قَضَوْا الذي عليهم وبَقِي الذي لهم»، رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن زيد بن عاصم في ذِكْر قسم غنائم هوازن في المُؤَلَّفة قلوبهم، وفي آخره: «إنكم سَتَلْقَوْن بعدي أَثَرة فاصْبِروا حتى تَلْقَوْني على الحَوْض[٣]»، رواه الشيخان. وعن أبي طلحة يرفعه: «أَقْرِئ قَوْمَك السلام فإنهم ما علمت أَعِفَّة صُبُر»، حديث حسن صحيح، رواه الترمذي والبَزَّار.

وعن عائشة رضي الله عنها ترفعه: «ما يَضرّ امرأةً نزلت بين بيتين من الأنصار أو نزلت بين أبويها»، رواه الإمام أحمد، والبَزَّار. وعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: «أسلمت الملائكة طَوْعاً، وأسلمت الأنصار طَوْعاً وأسلمت عبد القَيْس طوعاً» حديث حسن رواه الطبراني في الأوسط[٤].

وعن أنس رضي الله عنه يرفعه: «ألا إن لكل نبي تَرِكة وضَيْعَة، وإن تركتي وضيعتي الأنصار فاحفظوني فيهم»[٥]، رواه الطبراني في الأوسط. وعنه يرفعه: «الأنصار أَحِبَّائي، وفي الدين إخواني وعلى الأعداء أعواني[٦]»، غريب رواه الديلمي في مسند الفردوس.

تنبيه في غريب ما سَبَق

«أَلْسُناً» جمع لسان.

«قَيْلَة» بفتح القاف وسكون المثناة التحتية، أُمّ الأَوْس والخزرج.

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٤٠/١٠ وعزاه للطبراني وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٠٤) وابن أبي شيبة في المصنف ١٥٩/١٢ وذكره السيوطي في الدر ٢٧٠/٣.

(٣) أخرجه البخاري ١٤٦/٧ (٣٧٩٢).

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣١/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط عن شيخه علي بن سعيد بن بشير وفيه لين، وبقية رجاله ثقات.

(٥) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٥/١٠ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: إسناده جيد.

(٦) أخرجه ابن الجوزي في العلل ٢٨٤/١ وابن حجر في اللسان ٨٥٨/٢ والذهبي في اللسان (١٨١٠) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٣٧٤٦).

«الْتَقَم أُذُنَه» أَي سَارَّه بشيء.

«الأَسارير»: خطوط الجبهة واحدها سِرّ أَو سِرَر والجمع أَسرار، وأَسارير جمع الجمع، وفي تكملة الصغاني عن بعض أَهل اللغة هي الخَدَّان والوجنتان ومحاسن الوجه.

«إِزائي» بالزاي أَي حذائي أَي بالقرب مني.

«السِّكَك[1]» جمع سِكَّة بالكسر الزقاق.

«الدِّثَار[2]» بالكسر والمثلثة ما يتدَثَّر به الإِنسان، وهو ما يلقيه عليه من كِساء وغيره فوق الشِّعار.

«الشِّعَار»: ما وَلِيَ الجَسَد، سُمِّي بذلك لأَنه يلي الشَّعْر، المعنى أَنهم الخاصة والبطانة.

«الشِّعْب»: بالكسر الطريق في الجَبَل.

«الدَّبْر»: بفتح الدال المهملة وسكون المُوَحَّدة يقال لجماعة النحل والزنابير أَيضاً قيل وهو المراد هنا.

«الأَقلح»: بالقاف والمهملة.

«قِسْماً»: بكسر القاف أَي نصيباً.

«طريداً»: أَي مُخْرَجاً من بلده.

«المِلْحَفة»: بكسر الميم المُلاَءة التي يُلْتَحَف بها.

«مُتَعَطِّفاً بها»: أَي ثانياً طَرَفَيْ الملحفة على كتفيه.

«دَسْمَاء»: أَي سوداء.

«الكَرِش»: كَكَتِف ويُخَفَّف، والمراد هنا ما يحفظ فيه نَفيس المتاع.

«العَيْبة[3]» من الرجل موضع سِرِّه وأَمانته.

«أَثَرَة»: بفتح الهمزة والمثلثة الاسم من آثر يؤثر إِيثاراً إِذا أَعطى أَراد أَن يستأْثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء.

«أَعِفَّة» جمع عفيف وهو من يَكُفّ عما لا يحل ولا يَجْمُل.

«صُبُر[4]»: بضم أَوله وثانيه جمع صَبِير وهو هنا مُقَدَّم القوم.

«التركة»: الشيء المتروك أَي الذي تركه الميت لوارثه.

«الضَّيْعَة»: بالفتح العَقار.

(١) انظر لسان العرب ٢٠٥١/٣.
(٢) انظر لسان العرب ١٣٢٧/٢.
(٣) انظر اللسان ٣١٨٤/٤.
(٤) انظر لسان العرب ٢٣٩٣/٤.

الباب الثالث

في بَدء إسلامهم رضي الله عنهم

قال ابن إسحق: وكان رسول الله ﷺ على ذلك من أَمره كلما اجتمع له ناس بالموسم أَتاهم يدعو القبائل إلى الله تعالى وإلى الإسلام ويَعْرِض عليهم نفسه وما جاءهم به من الله تعالى من الهُدَى والرحمة، ولا يسمع بقادم يَقْدَم مكة من العرب له اسْم وشَرَف إلا تَصَدَّى له ودعاه إلى الله تعالى وعَرَض عليه ما عنده. وروى ابن إسحق بسَنَد جَيِّد عن محمود بن لبيد قال: لما قدم أَبو الحَيْسَر أَنس بن رافع [مكة] - فيما ذكره ابن إسحق، وبشْر فيما ذكره الزبير بن بَكَّار - في فِتْيَة من قومه بني عبد الأشهل يلتمسون الحِلْف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ فأتاهم فجلس إليهم فقال لهم: هل لكم في خيْرٍ مما جِئْتُم له؟». فقالوا له: وما ذاك؟ قال: «أَنا رسول الله بعثني إلى العباد، أَدعوهم إلى أَن يعبدوا الله ولا يُشْرِكوا به شيئاً وأَنزل عليّ الكتاب»، ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، فقال إِيَاس بن مُعَاذ، وكان غلاماً حَدَثاً: «أَيْ قوم هذا والله خَيْرٌ مما جئتم له». فأَخذ أَبو الحَيْسَر أنس بن رافع حَفْنَةً من تراب البطحاء فضرب بها وجه إياس بن مُعَاذ، وقال: دعْنا منك فَلَعَمْرِي لقد جئنا لغير هذا. فصمت إياس وقام رسول الله ﷺ عنهم وانصرفوا إلى المدينة. وكانت وقعة بُعَاث بين الأوس والخزرج ثم لم يلبث إياس بن مُعَاذ أَن هلك.

قال محمود بن لبيد: فأَخبرني من حَضَرَهُ من قومي عند موته أَنهم لم يزالوا يسمعونه يُهَلل الله تعالى ويُكَبِّره ويُسَبِّحه حتى مات، فما كانوا يَشُكُّون أَن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سَمِع من رسول الله ﷺ ما سمع.

وروى أَبو زُرْعَة الرازي في دلائل النبوة له بسَنِد حَسَن، والحاكم وصَحَّحه عن معاذ بن رفاعة بن رافع[1] عن أَبيه عن جَدِّه أَنه خرج هو وابن خالته معاذ بن عفراء[2] حتى قدما مكة[3]،

---

(١) معاذ بن رفاعة الأنصاري الزرقي.. ذكره الواقدي وقال: شهد غزوة بني قريظة مع النبي ﷺ على فرس، قلت: وفي التابعين معاذ بن رفاعة آخر يروي عن أبيه وجابر وخولة روى عنه عبد الله بن محمد بن عقيل. الإصابة ١٠٨/٦.

(٢) معاذ بن الحرث بن رفاعة بن الحرث بن سواد بن مالك بن غنم بن مالك النجاري الأنصاري الخزرجي المعروف بابن عفرا وقيل: بحذف الحرث الثاني في نسبه وعفراء أمه عرف بها.. شهد العقبة الأولى مع الستة الذين هم أول من لقي النبي ﷺ من الأوس والخزرج وشهد بدراً وشرك في قتل أبي جهل وعاش بعد ذلك وقيل: بل جرح ببدر فمات من جراحته. الإصابة ١٠٧/٦، ١٠٨.

(٣) مكة بيت الله الحرام: بلدةٌ فيها الكعبة القبلة التي يتوجّه المسلمون إليها في صلاتهم من سائر الآفاق؛ سُمِّيت مكّة؛ لأنها تمكُّ أعناق الجبابرة، أي تُذْهب نخوتهم وتذلّهم. وقيل: لتمكّك الناس بها، وهو ازدحامهم. وتسمّى بكّة أيضاً - بالباء - لتبكّك الناس بها، وهو ازدحامهم. وقيل: مكة اسم المدينة، وبكّة اسم للبيت. مراصد الاطلاع ١٣٠٣/٣.

فلما هبطا من الثَّنِيَّة(١)، رأَى رجلاً تحت شجرة. قال: وهذا قبل خروج الستة من الأَنصار، فلما رأَيناه قلنا نأْتي هذا الرجل لنستودعه راحلتنا حتى نطوف بالبيت، فجئنا فسَلَّمنا عليه تسليم أَهل الجاهلية، فرَدَّ علينا تسليم أَهل الإِسلام، وقد سَمِعْتُ بالنبي، فأَنكرنا فقلنا: من أَنت؟ قال: «انزلوا» فنزلنا فقلنا: أَين هذا الرجل الذي يَدَّعي ما يَدَّعي ويقول ما يقول؟ قال: «أَنا هو». قلنا: أَعْرِض علينا الإِسلام، فعَرَض، وقال: من خلق السموات والأَرض والجبال؟» قلنا: خلقَهنّ الله عز وجل. قال: «فَمَنْ خلقكم؟» قلنا: الله عز وجل. قال: «فمن عَمِل هذه الأَصنام التي تعبدون؟» قلنا: نحن. قال: «الخالق أَحق بالعبادة أَو المخلوق؟» قلنا: الخالق. قال: «فأَنتم أَحق أَن تعبدوا ربكم وأَنتم عَمِلْتُمُوهُنّ والله أَحق أَن تعبدوه من شيء عَمِلْتُمُوه وأَنا أَدعوكم إِلى عبادة الله عز وجل وشهادة أَلاَّ إِله إِلا الله وأَني رسول الله، وصِلَة الرَّحِم وتَرْك العِدوان وإِن غَضِب الناس». فقالا: لو كان هذا الذي تدعو إِليه باطلاً لَمَا كان من معالي الأُمور ومحاسن الأَخلاق، فأَمْسِك راحلتنا حتى نأْتي البيت. فجلس عنده مُعَاذ بن عفراء.

قال رافع: فجِئْتُ البيت فطُفْتُ وأَخرجتُ سبعة أَقداح وجعلتُ له بينها قِدْحاً، فاستقبلتُ البيت وقلت: اللهم إِن كان ما يدعو إِليه محمد حقاً فأَخْرِجْ قِدْحَه سبع مرات، فضربت بها سبع مرات، فَصِحْتُ: «أَشهد أَلا إِله إِلا اللّه وأَن محمداً رسول الله». فاجتمع الناس عَلَيّ وقالوا: مجنون رَجُلٌ صَبَأَ، فقلت: بل رجل مؤمن، ثم جئت إِلى رسول الله ﷺ بأَعلى مكة، فلما رآني مُعَاذ بن عَفْرَاء قال: لقد جئتَ بوجهٍ ما ذهبتَ به يا رافع، لقد جئت وآمنت. وعَلَّمنا رسولُ الله ﷺ سورة يوسف، وسورة العَلَق: ﴿**اقرأْ باسم ربك الذي خَلَق. خَلَق الإِنسانَ من عَلَق**﴾. ثم خرجنا راجعين إِلى المدينة.

بيان غريب ما سبق

«(٢)الحِلْف» ـ بكسر الحاء وسكون اللام: المُعَاقَدَة والمُعَاهدة على التعاضد والاتفاق.

«أَبو الحَيْسَر»: بفتح الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية بعدها سين مهملة ثم راء، ذكره ابن مَنْدَه في الصَّحَابة، وذكره الحافظ في الإِصابة في الأَسماء وفي الكُنَى في القسم الرابع فيمن ذُكِر في الصحابة غَلَطاً.

«إِياس بن مُعَاذ»: ذكره ابن السَّكَن وابن حِبَّان في الصحابة، وذكره البخاري في تاريخه الأَوسط فيمن مات على عهد النبي ﷺ من المهاجرين الأَولين والأَنصار.

(١) ثنية أمّ قردان الثنية في الأصل كلُّ عقبةٍ في جبل مسلوكة. وقِرْدان بالكسر جمع قراد، وهي بمكة عند بئر الأسود بن سفيان المخزومي.

(٢) المعجم الوسيط ١/١٩٢.

«الثَّنِيّة[1]»: كل عَقَبة مسلوكة.

«الأَقداح»: جمع قِدْح ـ بكسر القاف ـ وهو عود السهم إذا قُوِّم وإلى أن يُرَاش فإذا رُكِّب فيه النَّصْل وريش فهو سهم، والمراد هنا السهم الذي يستقسمون به.

(١) انظر لسان العرب ٥١٦/١.

الباب الرابع

في ذكر يوم بُعاث

قالت عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعَاث يوماً قَدَّمه الله لرسوله ﷺ، فقَدِم رسول الله ﷺ وقد افْتَرَق مَلَؤُهم وقُتِلت سَرَواتُهم وجُرِّحوا، فقَدَّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام». رواه البخاري(١).

بيان غريبه

«بُعَاث»: بضم المُوَحَّدة، وحَكَى القَزَّاز في الجامع فَتْحَها وبتخفيف العَيْن المهملة وآخره المثلثة - قال الجمهور - وقال ابن دُرَيْد: وذُكر عن الخليل إعجامُها ولم يُسْمَع من غيره وإنما هو بالعين المهملة. وذكر الأزهري أن الذي صَحَّفَهُ اللَّيث عن الخليل. وذكر القاضي أن الأَصيلي(٢) أَحد رواة الصحيح رواه بالوَجْهَين أي بالغين المعجمة والعين المهملة، وأن وجهاً واحداً هو الذي وقع في رواية أبي ذَرّ بالغين المعجمة. ويُقَال إن أَبا عُبَيْدَة ذكره بالمعجمة أَيضاً. وبُعَاث: مكان ويقال حِصْن، وقيل مزرعة عند بني قُرَيْظة على ميلين من المدينة كانت به وَقْعَة بين الأَوس والخزرج قُتِل فيه كثير منهم، وكان رئيس الأَوْس فيه.

حُضَيْر- بضم الحاء المهملة وفتح الضاد المعجمة وسكون التحتية بعدها راء - والد أسيد بن حُضَيْر، وكان يقال له: حُضَيْر الكتائب، وبه قُتِل، وكان رئيس الخزرج يومئذ عمرو بن النعمان البياضي فقُتِل بها أَيضاً. وكان النصر فيها أَولاً للخزرج ثم هُزِم حُضَيْر فرجعوا وانتصرت الأَوس وجُرح حُضَيْر يومئذ فمات منهزماً، وذلك قبل الهجرة بخمس سنين، وقيل بأَربعين سنة وقيل بأَكثر. قال الحافظ: «الأول أَصَحّ». وذكر أَبو الفرج الأَموي أَن سبب ذلك كان من قاعدتهم أَن الأَصيل لا يُقْتَل بالحليف، فقتل رجل من الأَوس حليفاً للخزرج، فأَرادوا أَن يُقِيدوه، فامتنعوا، فوقعت بينهما الحرب لأَجل ذلك، فقُتِل فيها من أَكابرهم من كان لا يُؤْمَن أَن يَتَكَبَّر، ويأْنف أَن يدخل في الإسلام حتى لا يكون تحت حكم غيره، وقد كان بَقِي منهم من هذا النَّحو عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول كما سيأْتي بيان ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري ١٣١/٥ (٣٨٤٦).

(٢) عبد الله بن ابراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر، أبو محمد، الأموي المعروف بالأصيلي: عالم بالحديث والفقه. من أهل أصيلة (في المغرب) أصله من كورة «شدونة» ولد فيها ورحل به أبوه إلى «آصيلا» من بلاد العدوة فنشأ فيها. ويقال: ولد في آصيلا. رحل في طلب العلم، فطاف في الأندلس والمشرق. ودخل بغداد سنة ٣٥١هـ، وعاد إلى الأندلس في آخر أيام المستنصر، فمات بقرطبة. له كتاب «الدلائل على أمهات المسائل» في اختلاف مالك والشافعي وأبي حنيفة. الأعلام ٦٣/٤.

«سَرَوَاتُهم[١]»: بفتح المهملة والراء المخففة والواو، أي خيارهم، والسَّرَوَاتَ جمع السَّرَاة ـ بفتح المهملة وتخفيف الراء ـ والسَّراة جمع السَّرِيّ، وهو الشريف.

«جُرِحوا» للأكثر بضم الجيم والراء المكسورة مُثْقَلاً ومُخَفَّفاً فحاء مهملة، وعند الأَصيلي بجيمين جَرِجُوا أي اضطرب قولهم، من قول العَرَب جَرِجَ الخاتَم إذا جال في الإصبع، وعند ابن أَبي صُفْرَة بحاء مهملة مفتوحة من الحَرَج: أي ضيق الصدر، وعند المستملي وعبدوس والقابسي: «وخرجوا» بفتح الخاء المعجمة والراء من الخروج، وصَوَّب ابن الأَثير الأَول وقال صاحب التقريب إنه المشهور، وصوب غيره الثالث.

(١) لسان العرب ٣/٢٠٠٢.

الباب الخامس

في بيعة العقبة الأولى

وكانت في رجب. وقال الزهري وابن عُقْبة وابن إسحق: «فلما أَراد الله سبحانه وتعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله وإنجاز موعده له، خرج رسول الله ﷺ في المَوْسِم الذي لَقِي فيه النفر من الأنصار، فَعَرَض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم. فبينما هو عند العقبة لَقِي رَهْطاً من الخزرج أَراد الله بهم خيراً. فقال لهم: «من أَنتم»؟ قالوا: نَفَر من الخزرج. قال: «أَمِن موالي يهود؟» قالوا: نعم. قال: «أَفَلَا تجلسون أُكَلِّمُكم؟» قالوا: بلى، من أَنت؟ فانتسب لهم وأَخبرهم خَبَرَه. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعَرَض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن. وكان مما صنع الله لهم به من الاسلام أَن يهود، كانوا معهم في بلادهم وكانوا أَهل كتاب وعلم، وكانوا [هم] أَهْلَ شِرْك وأَصحاب أوثان، وكانوا قد عَزُّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إن نبياً مبعوث الآن قد أَظَلَّ زمانُه، نتَّبِعه فنقتلكم قَتْلَ عادٍ وإِرَم.

فلما كلم رسول الله ﷺ أُولئك النفر ودعاهم إلى الله أَيقنوا به واطمأَنت قلوبهم إلى ما سمعوا منه وعرفوا ما كانوا يسمعون من أَهل الكتاب من صفته، فقال بعضهم لبعض: يا قوم تَعَلَّمُوا والله إنه للنَّبِيّ الذي تُوعِدكم به يهود فلا تَسْبِقَنَّكُم إليه [فأَجابوه إلى ما دعاهم إليه] بأَن صَدَّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام. ثم قالوا: قد علمت الذي بيننا من الاختلاف وسفك الدماء، ونحن حِرَاصٌ على ما أَرسلك الله به، مجتهدون لك بالنصيحة، وإنا لنشير عليك برأْينا، فامكث على رِسْلك باسم الله حتى نرجع إلى قومنا، فنذكر لهم شأْنك، وندعوهم إلى الله ورسوله، فلعل الله يصلح ذات بينهم ويجمع لهم أَمرهم، فإنا اليوم متباغضون متباعدون، ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل. فرضي بذلك رسول الله ﷺ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصَدَّقوا.

وهم فيما ذكر ابن إسحق في رواية ستة نفر من الخزرج:

١ - من بني النَّجّار: أَبو أُمَامَة أسعد بن زُرَارة - بضم الزاي - ابن عُدَس بن عُبَيْد بن ثعلبة ابن غَنْم بن مالك بن النجار.

٢ - عوف بن الحارث ابن رِفاعة - بكسر الراء وبالفاء - ابن الحارث بن سَوَاد بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النَّجّار وهو ابن عَفْراء.

٣ - ومن بني زُرَيْق - بتقديم الزاي على الراء - ابن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن

مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج: رافع بن مالك بن العَجْلان. قال ابن الكلبي: وهو أَول من أَسلم من الأَنصار.

٤ ـ ومن بني سَلِمَة ـ بلام مكسورة ـ [ابن سعد بن علي بن أَسد]: قُطْبَة ـ بضم القاف وسكون الطاء المهملة وبالموحدة ـ ابن عامر بن حَدِيدة بن عمرو بن سَوَاد بن غَنْم بن كعب ابن سَلِمَة بن سعد بن علي بن أسد بن سارِدة بن تزيد بن جُشَم بن الخزرج بن حارثة.

٥ ـ ومن بني حَرَام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة: عُقْبَة ـ بضم العين المهملة وسكون القاف ـ ابن عامر بن نَابِي ـ بنون فأَلف فباء مُوَحَّدة فمثناة تحتية ـ ابن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم بن سَلِمَة.

٦ ـ ومن بني عبيد بن عَدِيّ بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة: جابر بن عبد الله بن رئاب بن النعمان بن سنان بن عبيد...

وفي رواية جرير بن أَبي حازم عن ابن إِسحاق بدل عُقْبَة بن عامر، مُعَاذ بن عفراء، وعند موسى بن عقبة عن الزهري عن عُروة أَنهم ثمانية. وهم: مُعَاذ بن عفراء، وذَكْوَان ـ بفتح الذال المعجمة وسكون الكاف ـ ابن عَبْد قيس بن خَلَدة بن مُخْلِد بن عامر بن زُرَيْق، وعُبَادة ـ بضم العين المهملة فباء مُوَحَّدة ـ ابن الصامت بن قيس بن الأَصرم بن فِهْر بن ثعلبة بن غَنْم بن عوف بن الخزرج بن حارثة، وأَبو عبد الرحمن يزيد بن ثعلبة بن خَزْمَة بن أَصْرَم بن عَمْرو بن عَمَّارة من بني غُصَيْنَة ثم من بَلِيّ حليف لهم. وأَبو الهيثم بن التَّيِّهان[1] بن جُشْم بن الحارث، وعُوَيْم ـ بضم العين المهملة وفتح الواو وسكون المُثَنَّاة التحتية ـ ابن ساعدة من بني عمرو بن عوف بن مالك بن الأَوس بن حارثة.

بيان ما سبق

«العقبة الأُولى»: قال المحب الطبري: «الظاهر أَنها العَقَبة التي تُضاف إِليها الجمرة إِذ ليس أَظهر منها وعن يسار الطريق لقاصد مِنى من مكة شِعْبٌ قريبٌ منها، فيه مسجد مشهور عند أَهل مكة أَنه مسجد البيعة، وهو على نَشَزٍ من الأَرض، ويجوز أَن يكون المراد من العقبة ذلك النَّشَز، وعلى الأَول يكون قد نُسِب إِليها لِقُرْبِهِ منها» قال في النور: «وجزم غيره بأَن البيعة التي وقعت عندها البيعة هي العقبة التي تضاف إِليها الجمرة».

(١) أبو الهيثم بن التيهان بن مالك بن عتيك بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعور الأنصاري الأوسي. انظر الإصابة ٢٠٩/٧.

«موالي يهود»: أَي حلفاؤهم، وهم سُمُّوا حلفاء لأَنهم تحالفوا على التناصر والتعاضد.

«الرَّهْط»: بسكون الهاء وتُفْتَح دون العشرة من الرجال ليس فيهم امرأَة أَو منها إِلى أَربعين.

«يهود»: لا ينصرف للعلمية والتأنيث.

«أَظَلَّ زمانه»: بفتح الظاء المعجمة وتشديد اللام أَي قَرُب ودَنَا.

«قَتْلَ عَادٍ وإِرم»: أَي نستأْصلكم.

«تَعَلَّمُوا»: بفتح اللام الـمُشَدَّدَة ومعناه اعلموا.

الباب السادس

في بيعة العقبة الثانية

قال ابن إسحاق: فلما كان العام المُقْبل وَافَى المَوْسِم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن يُفرَض عليهم الحرب، وهم: أَسْعَد بن زُرارة، وذَكْوَان بن عبد قيس الزرقي، وعُبَادة بن الصامت، والعباس بن عُبَادة بن نَضْلَة - بالنون والضاد المعجمة - وقُطْبَة بن عامر بن حَدِيدة، وعُقْبَة بن عامر بن نابي، وعوف بن الحارث - بالفاء - ابن رفاعة، وعُوَيْم بن ساعدة، ومالك بن التيهان - بمثناة تحتية مُخَفَّفة عند أهل الحجاز وعند غيرهم بتشديدها - ومُعوِّذ - بميم مضمومة فعين مهملة مفتوحة فواو مكسورة مُشَدَّدة فذال معجمة - ابن الحارث، أخو عوف السابق، ويزيد بن ثعلبة أبو عبد الرحمن البلوي حليف لهم. فبايع هؤلاء على بيعة النساء رسول الله ﷺ.

وروى الشيخان والبيهقي، واللفظ له عن عُبَادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ بيعة النساء وذلك قبل أن تُفْتَرَض علينا الحرب، على ألاَّ نُشْرِك بالله شيئاً ولا نسرق ولا نزني ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببُهْتَان نفتريه من بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف. قال: «فمن وَفَى ذلك منكم فأجْرُه على الله». وفي لفظ: «فله الجَنَّة»، «ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كَفَّارة وطهور، ومن أصاب من ذلك شيئاً فَسَتَرَهُ اللهُ فأمْرُه إلى الله إن شاء عَذَّب وإن شاء غفر». فبايعناه على ذلك.

قال ابن إسحاق: «فلما انصرف القوم بعث رسول الله ﷺ معهم مُصعَب بن عُمَيْر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار بن قُصَيّ». وذكر ابن إسحاق في رواية أن رسول الله ﷺ بعث مُصْعَباً حين كتبوا إليه يبْعَثُه إليهم، وهو الذي ذكره [موسى] بن عُقْبَة إلا أنه جعل المَرَّة الثانية هي الأولى. قال البيهقي: «وسياق ابن إسحق أتَمّ». قال ابن إسحاق: «وأَمَرَه رسول الله ﷺ أن يُقْرِئَهم القرآن ويُعَلِّمَهُم الإسلام ويُفَقِّهَهم في الدين، فكان يسمى في المدينة المُقْرِئ والقارئ، وكان مَنْزَلُه على أسعد بن زُرَارَة [بن عُدَس أَبي أُمَامة]، وذلك أن الأوس كَرِه بَعْضُهم أن يَؤُمَّه بعض. وقوله «على بيعة النساء» يعني على وفق ما نزلت عليه بيعة النساء بعد ذلك عام الحديبية، وكان هذا مما نزل على وفق ما بايع عليه أصحابُه ليلة العقبة، وليس هذا بعجيب فإن القرآن نزل بموافقات عمر بن الخطاب. «تنبيه»: ذكروا هنا أن أسعد بن زُرَارة أول من جَمَّع بالصحابة قبل أن يهاجر النبي ﷺ وسيأتي الكلام على ذلك في الخصائص إن شاء الله تعالى.

الباب السابع

في إسلام سعد بن مُعَاذ وأُسَيْد بن حضَيْر رضي الله تعالى عنهما

روى ابن أَبي الدنيا والخرائطي والبيهقي عن عبد المجيد بن أَبي عيسى عن أبيه عن جَدّه، وابن عساكر عن البخاري في تاريخه الأَوسط عن شيخه أَبي محمد الكوفي قالا: سَمِعَتْ قُرَيْش قائلاً يقول في الليل على أَبي قُبَيْس:

فإِن يُسْلِمِ السَّعْدَانُ يُصْبِحْ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لاَ يَخْشى خِلاَفَ المُخَالِفِ

فلما أَصبحوا قال أَبو سفيان ـ وفي لفظ قريش ـ مَنْ السَّعْدَان؟» «أَسَعْدُ بن بكر أَم سعد بن هُذَيْم؟» فلما كانت الليلة الثانية سمعوا قائلاً يقول:

فَيَا سَعْدَ سَعْدَ الأَوْسِ كُنْ أَنْتَ نَاصِراً وَيَا سَعْدَ سَعْدَ الخَزْرَجِيِّينَ الغَطَارِفِ

أَجِيبَا إِلَى دَاعِي الْهُدَى وَتَمَنَّيَا عَلَى اللّهِ فِي الفِرْدَوْسِ زُلْفَةَ عَارِفِ

فَإِنَّ ثَوَابَ اللّهِ لِلطَّالِبِ الهُدَى جِنَانٌ مِنَ الفِرْدَوْسِ ذَاتُ زَخَارِفِ

فقالت قريش: هذا سعد بن معاذ وسعد بن عُبادة:

قال ابن إِسحاق: وحَدَّثني عبيد الله بن المغيرة بن مُعَيْقِيب، وعبد الله بن أَبي بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم أَن أَسعد بن زُرَارة خرج بمُصْعَب بن عُمَيْر، يريد به دار بني عبد الأَسهل ودار بني ظَفَر، وكان سعد بن مُعَاذ بن النعمان بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأَشهل ابن خالة أَسعد بن زُرارة، فدخل به حائطاً من حوائط بني ظَفَر فجلسا فيه، واجتمع إِليهما رجال مِمَّن أَسْلَمَ، وسعد بن مُعَاذ، وأُسَيْد بن حُضَيْر يومئذٍ سَيِّدا قومهما من بني عبد الأَشهل، وكلاهما مُشْرِك على دين قَوْمِه، فلما سَمِعا به قال سعد بن معاذ لأُسَيْد بن حُضَيْر: لا أَبا لك، انْطَلِقْ إِلى هذَيْن الرجلَيْن اللذين قد أَتيا دارَنا لِيُسَفِّهَا ضُعَفَاءَنَا، فازْجُرهما وانْهَهُما عن أَن يأْتيا دارَنا، فإِنه لولا أَن أَسعد بن زُرَارة مِنِّي حيث قد عَلِمْتَ كَفَيْتُكَ ذلك، فهو ابن خالتي ولا أَجد عليه مقدماً. قال: فأَخذ أُسَيْد بن حُضَير حَرْبَتَه، ثم أَقبل إِليهما. فلما رآه أَسعد بن زُرَارة قال لمُصْعَب بن عُمَيْر: هذا سَيِّدُ قومه فاصدُق الله فيه. قال مصعب: إِن يجلِسْ أُكَلِّمْه. قال: فوقف عليهما مُتَشَتِّماً، قال: ما جاء بكما إِلينا تُسَفِّهان ضُعَفَاءنَا؟ اعْتَزِلانا إِن كانت لكما بأَنفسكما حاجة فقال له مُصْعب: أَوَ تجلس فتسمع، فإِن رَضِيتَ أَمراً قَبِلْتَه وإِن كَرِهْتَه كُفَّ عنك ما تكره؟ فقال: أَنْصَفْتَ. ثم رَكَز حَرْبَتَه وجلس إِليهما، فَكَلَّمَه مصعب بالإِسلام وقرأَ عليه القرآن. فقالا فيما يُذْكَر عنهما: والله لَعَرَفْنَا في وجهه الإِسلام قبل أَن يتكلم به في إِشراقه وتَسَهُّلِه، ثم قال: ما أَحسن هذا الكلام وأَجْمَلَه! كيف تصنعون إِذا أَردتم أَن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تَغْتَسِل فَتَطَّهَّر وتُطَهِّر ثوبَيْك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تُصَلِّي. فقام فاغتسل

وطَهَّر ثوبَيْه وتَشَهَّد بشهادة الحق، ثم قام فصلى ركعتَيْن، ثم قال لهما: إن ورائي رجلاً إن اتَّبَعَكُما لم يتخلَّف عنه أحدٌ من قومه، وسأُرسله إليكما الآن: سَعْد بن مُعَاذ، ثم أخذ حَرْبَتَه وانصرف إلى سعد وقومه، وهم جلوسٌ في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مُقْبلاً قال: أَحْلِف بالله لقد جاءكم أُسَيْد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلتَ؟ قال: كَلَّمْتُ الرجُلَيْن فوالله ما رأيتُ بهما بأساً وقد نَهَيْتُهُمَا فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثْتُ أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زُرَارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك ليُخْفِروك. قال: فقام سعد مُغْضَباً مُبَادِراً تَخَوُّفاً للذي ذُكِرَ له من أمر بني حارثة. فأخذ الحَرْبَةَ من يده، ثم قال: والله ما أراك أَغْنَيْتَ شيئاً. ثم خرج إليهما، فلما رآهما مُطْمَئِنَّيْن عرف سعد أن أُسَيْداً إنما أراد أن يسمع منهما. فوقف عليهما مُتَشَتِّماً، ثم قال لأسعد بن زُرَارة: يا أبا أُمَامَة أما والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا مِنِّي، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ وقد قال أسعد بن زُرَارة لمُصْعَب بن عُمَير: أَيْ مُصْعَب: جاءك والله سَيِّدٌ مَنْ وراءه من قومه إن يَتْبَعْكَ لا يَتَخَلَّفْ عنك منهم اثنان. قال: فقال له مُصْعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رَضِيتَ أمْراً ورَغِبْتَ فيه قَبِلْتَه، وإن كَرِهْتَه عزلنا عنك ما تكره. قال سعد: أَنْصَفْتَ. ثم رَكَزَ الحَرْبَةَ وجلس، فعَرَض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن.

قالا: فَعَرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم لإشراقه وتَسَهُّله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فَتَطَّهَّر وتُطَهِّر ثوبَيْك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تُصَلِّي ركعتين. ثم أخذ حَرْبَتَه فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أُسَيْد بن حُضَيْر، فلما رآه قَوْمُه مُقْبِلاً قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سَيِّدُنا وأَفْضَلُنا رأياً وأَيْمَنُنَا نقيبةً. قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم عَلَيَّ حَرَام حتى تؤمنوا بالله ورسوله. قال: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، حاشا الأُصَيْرِم وهو عَمْرو بن ثابت بن وَقْش فإنه تأخر إسلامه إلى يوم أُحُد فأسلم واستُشْهِد ولم يسجد لله سجدة، وأَخْبَرَ رسول الله ﷺ أنه من أهل الجنة. قال ابن إسحاق: ورجع سعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زُرَارة، فأقاما عنده يدعوان الناس إلى الإسلام حتى لم تبْقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون ومسلمات إلا ما كان من دار بني أُمية بن زيد وخَطْمَةَ ووائل وواقف، وتلك أوس الله وهم من الأَوْس بن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو

قيس بن الأَسلت واسمه صَيْفِيٍّ. وكان شاعراً لهم قائداً يسمعون منه ويطيعونه فوقف بهم عن الإِسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ومضى بدر وأُحد والخندق.

قال سعيد بن يحيى بن سعيد الأموي[1]: كان أَبو قيس هذا قد تَرَهَّب في الجاهلية ولَبِسَ المسوح وفارق الأَوثان واغتسل من الجنابة، وتَطَهَّر من الحائض من النساء، وهَمَّ بالنصرانية ثم أَمسك عنها ودخل بيتاً له فاتخذه مسجداً لا يدخل عليه فيه حائض ولا جُنُب، وقال: أَعْبُد إِله إِبراهيم حين فارق الأَوثان وكَرِهها حتى قدم رسول الله ﷺ فأَسلم وحَسُنَ إِسلامه وهو شيخ كبير، وكان قَوَّالاً بالحق مُعَظِّماً لله في الجاهلية وله في ذلك أَشعار حِسَان.

بيان غريب ما سبق

«الحائط»: البستان.

«لا أَبالك»: هذا أَكثر ما يُسْتَعْمَل في المدح أَي؛ لا كافي لك غير نفسك، وقد يُذْكَر في مَعْرِض الذَّمّ كما يقال: لا أُمَّ لك، وقد يُذْكَر في مَعْرِض التَّعَجُّب ودفعاً للعين كقولهم: لِلّهِ دَرُّك، وقد تكون بمعنى «جِدّ في أَمرِك وشَمِّرْ»، لأَن من له أَب اتَّكَلَ عليه في بعض شأْنه، وقد تُحْذَف اللام فيقال: «لا أَباك».

«دَارَيْنَا»: هو تثنية دار، والدار هي القبيلة والعشيرة الْمُجْتَمِعَة في المَحَلَّة فَتُسَمَّى المَحَلَّة داراً.

«النَّادِي»: مُتَحَدَّث القوم.

«لِيُخْفِروك»[2]: بضم أَوله وكسر الفاء رُبَاعياً أَي لينقضوا عَهدَك، يقال: أَخْفَرْتُ الرجل إِذا نقضت عَهْدَه وذِمَامَه. «الغَطَارِف»[3]: جمع غِطْرِيف بكسر الغين المعجمة: السَّيِّد.

«مُتَشَتِّماً»: من الشَّتْم وهو السَّبّ.

---

(١) سعيد بن يحيى بن سعيد بن أبان بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص، أبو عثمان الأموي. سمع أباه، وعمه عبد الله بن سعيد، وعبد الله بن المبارك، وعيسى بن يونس، وأبا القاسم بن أبي الزناد، وأبا بكر بن عياش، وعبد الرحيم بن سليمان، ومروان بن معاوية، وشجاع بن الوليد مات في سنة تسع وأربعين ومائتين. انظر تاريخ بغداد ٩/٩٠.

(٢) انظر لسان العرب ١٢٠٩/٢.

(٣) انظر لسان العرب ٣٢٧٠/٥.

الباب الثامن

في بيعة العقبة الثالثة

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «إن رسول الله ﷺ لَبِثَ عَشْر سنين يتبع الناس في منازلهم مَجَنَّة وعُكَاظ وفي المواسم بمِنى يقول: «من يُؤْويني؟ ومن ينصرني؟ حتى أُبَلِّغ رسالات ربي وله الجنة»، فلا يجد أبداً أحداً يُؤْويه ولا ينصره، حتى أَنَّ الرجل ليرحل من مُضَر أو اليمن، فيأتيه قومه وذوو رَحِمِه فيقولون: احْذَرْ فتى قريش لا يفْتِنْكَ يمضي بين رِحَالهم، وهم يشيرون إليه بأصابعهم، حتى بعثنا الله إليه من يَثْرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويُقْرِئه القرآن فينقلب إلى أهله فيُسْلِمون بإسلامه حتى لم تَبْقَ دارٌ من دور يثرب إلا وفيها رَهْطٌ من المسلمين يُظْهِرون الإسلام. ثم بَعَثنا الله تعالى فأْتمرنا واجتمعنا فقلنا: متى نَذَر رسول الله ﷺ يطوف في جبال مكة ويخاف؟ فرحَلَ إليه منا سبعون رجلاً حتى قَدِموا عليه في المَوْسِم، فواعدناه شِعْب العقبة، فاجتمعنا فيه من رَجُلٍ ورَجُلَيْن حتى تَوَافَيْنَا عنده، فقلنا: يا رسول الله عَلاَمَ نبايعُك؟ قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، وعلى النفقة في العُسْر واليُسْر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقولوا في الله، لا تأخذكم لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قَدِمْتُ عليكم يثرب، تَمْنَعُوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجَنَّة».

«فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زُرَارة، وهو أصغر السبعين رجلاً إلا أنا فقال: رُوَيداً يا أهل يثرب. فإنا لم نَضْرِب إليه أكباد المَطِيّ إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجه اليوم مُفَارَقَةُ العرب كافَّةً وقَتْلُ خياركم وأن تَعُضَّكم السيوف، فإما أنتم قَوْمٌ تَصْبِرون على عَضّ السيوف إذا مَسَّتْكُم وعلى قتل خياركم وعلى مفارقة العرب كَافَّةً، فخذوه، وأَجْرُكم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة، فذَرُوه فهو أعذر لكم عند الله.

فقلنا: ابْسُطْ يَدَكَ يا أسعد بن زُرَارة، فوالله لا نَذَرُ هذه البيعة ولا نستقيلها. فقمنا إليه نبايعه رجلاً رجلاً، يأخذ علينا شَرْطَه ويعطينا على ذلك الجنة»، رواه الإمام أحمد والبيهقي.

وروى ابن إسحاق عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «خرجنا في حُجَّاج قومنا من المشركين وقد صَلَّينا وفَقِهْنَا، ومعنا البَرَاء بن معرور سَيِّدُنا وكبيرنا - زاد الحاكم - وكنا خمسمائة، حتى إذا كنا بظاهر البيداء قال: يا هؤلاء إني قد رأيتُ رَأْياً، ووالله ما أدري أتوافقونني عليه أم لا. فقلنا: وما ذاك؟ قال: قد رأيتُ ألاَّ أَدَعَ هذه البَنِيَّة مِنّي بظَهْر - يعني الكعبة - وأن أُصلِّي إليها. قال: فقلنا: والله ما بلغنا أن نبينا ﷺ يصلي إلا إلى الشام، وما نريد أن نخالفه، فقال: إني لمُصَلٍّ إليها. فقلنا له: لكنَّا لا نفعل. قال فَكُنَّا إذا حضرت الصلاة صَلَّينا

إلى الشام وصَلّى هو إلى الكعبة حتى قدمنا مكة وقد كُنَّا عِبْنا عليه ما صنع وأبَى إلا الإقامة على ذلك فلما قدمنا مكة قال لي: يا ابْنَ أخي، انطلق بنا إلى رسول الله - ﷺ - حتى أسأله عما صنعت. في سفري هذا، فإنه والله لقد وقع في نفسي منه شيء لِمَا رأيتُ من خلافكم إياي فيه. قال: فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ، وكنا لا نعرفه لم نَرَه قبل ذلك فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه؟ فقلنا: لا. قال: فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عَمَّه؟ قلنا: نعم. وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يَقْدَم علينا تاجراً. قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس. قال: فدخلنا المسجد فإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالِسٌ معه. فسلَّمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعَبَّاس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أَبا الفضل؟» قال: نعم، هذا البَرَاء بن معرور سَيِّد قومه، وهذا كعب بن مالك. قال: فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ: «الشاعر؟» قال: نعم. فقال البَرَاء بن معرور: يا نَبِيَّ الله، إني خرجت في سفري هذا وقد هداني الله تعالى للإسلام فرأيتُ أَلاَّ أَجعل هذه البَنِيَّة مِنِّي بظَهْر فَصَلَّيْت إليها، وقد خالفني أَصحابي في ذلك، حتى وقع في نفسي من ذلك شيء، فماذا ترى يا رسول الله؟ قال: «قد كُنْتَ على قِبْلَة لو صَبَرْتَ عليها». قال: فرجع البراء إلى قِبْلَة رسول الله ﷺ، وصَلَّى معنا إلى الشام. قال: وأَهله يزعمون أَنه صلَّى إلى الكعبة حتى مات، وليس ذلك كما قالوا، نحن أَعلم به منهم.

قال ابن هشام: وقال عَوْن بن أَيوب الأَنصاري:

وِمِنَّا الـمُـصَـلِّـي أَوَّلَ النَّـاسِ مُقْبِلاً عَلَى كَعْبَةِ الرَّحْمَنِ بَيْنَ الْمَشَاعِرِ(١)

يعني البَرَاء بن معرور(٢). قال كعب: ثم خرجنا إلى الحَجّ وواعدنا رسول الله ﷺ العقبة من أَوسط أَيام التشريق - زاد ابنُ سعد - «ليلة النَّفْر الأَول [إذا هدأَت الرِّجْل] أَن يوافوه في الشِّعْب الأَيمن إذا انحدروا من مِنِيً بأَسفل العقبة حيث المسجد الحرام اليوم، وأَمَرَهم أَلا يُنَبِّهُوا نائماً ولا ينتظروا غائباً». [قال]: فلما فرغنا من الحَجّ وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله - ﷺ - لها ومعنا عبد الله بن عَمْرو بن حَرَام أَبو جابر، سَيِّدٌ من ساداتنا وشريف من أَشرافنا أَخذناه معنا، وكنا نَكْتُم من معنا من قومنا من المشركين أَمْرَنا فكَلَّمْنَاه وقلنا له: يا أَبا جابر إنك سَيِّدٌ من سادتنا وشريفٌ من أَشرافنا، وإنا نرغب بك عَمَّا أَنت فيه أَن تكون حَطَباً للنار غداً، ثم

(١) البيت في الروض الأُنف ٢/١٨٩.

(٢) البراء بن معرور بن صخر بن سابق بن سنان بن عبيد بن عدي بن غنم بن كعب بن سلمة بن سعد بن عليّ بن أسد بن ساردة بن يزيد بن جشم بن الخزرج الأنصاري الخزرجي السلمي.. أبو بشر قال موسى بن عقبة عن الزهري: كان من النفر الذين بايعوا البيعة الأولى بالعقبة وهو أول من بايع في قول ابن إسحاق وأول من استقبل القبلة وأول من أوصى بثلث ماله وهو أحد النقباء. الإصابة ١/١٤٩.

دعوناه إلى الإسلام وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيَّانا العقبة. قال: فأسلم وشهد معنا العقبة [وكان نقيباً].

[قال]: فنِمْنَا تلك الليلة مع قومنا في رِحالنا حتى إذا مَضَى ثُلُثُ الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رَسُول الله ﷺ نَتَسَلَّل تَسَلُّلَ القَطَا مُسْتَخْفِين حتى اجتمعنا في الشِّعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتان من نِسائنا: نِسيبة[١] بنت كعب، أُمّ عُمارة، إحدى نساء بني مازن بن النَّجّار، وأَسماء بنت عَمْرو[٢] بن عَدِيّ [بن نابي، إحدى نساء بني سَلِمة وهي أُم منيع]. فاجتمعنا في الشِّعْب ننتظر رسول الله ﷺ - وذكر ابن سعد وأبو مَعْشَر أَنَّ رسول الله ﷺ سبقهم وانتظرهم - حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أَحَبَّ أَن يحضر أَمر ابن أَخيه ويَتَوَثَّق له.

فلما جلس كان أَول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال: «يا مَعْشَر الخزرج» - قال: وكانت العرب إنما يسمون هذا الحيّ من الأَنصار الخزرج خزرجها وأوسها - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأْينا فيه، فهو في عِزٍّ من قومه ومَنَعَة في بلده، وإنه قد أَبَى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم تَرَوْنَ أنكم وافُونَ له بما دعوتموه إليه ومانِعوه مِمَّن خالفه، فأَنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أَنكم مُسْلِمُوه وخاذِلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عِزٍّ ومَنَعَةٍ من قومه وبَلَده. وروى الإمام أَحمد عن الشَّعْبِيّ عن أَبي مسعود البدري[٣] رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ ومعه عَمُّه العباس إلى السبعين من الأَنصار عند العَقَبة تحت الشجرة فقال: «ليتكلم متكلمكم ولا يُطِل الخُطبة فإن عليكم من المشركين عَيْناً، وإن يَعْلَمُوا بكم يفضحوكم». فقلنا «قد سمعنا ما قلت فَتَكَلَّمْ يا رسول الله وخُذْ لنفسك ولربك ما أَحببت».

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فَتَلا القرآن ودعا إلى الله ورَغَّب في الإسلام، ثم قال: «أُبَايِعُكُم على أَن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم». قال: فأَخذ البَراء بن معرور

---

(١) نسيبة بفتح النون أيضاً بنت كعب بن عمرو بن عوف بن عمرو بن مبذول بن عمرو بن غنم بن مازن بن النجار الأنصارية أم عمارة مشهورة بكنيتها واسمها معاً. الإصابة ١٩٨/٨.

(٢) أسماء بنت عمرو بن عدي بن ياسر بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الأنصارية السلمية أم معاذ بن جبل وكنيتها أم منيع.. ذكر ابن إسحاق بسند صحيح عن كعب بن مالك أنها كانت مع من شهد العقبة مع السبعين هي نسيبة بنت كعب وقال في التجريد وقيل: هي أسماء بنت عدي بن عمرو. الإصابة ٨/٨.

(٣) عقبة بن عمرو بن ثعلبة بن أسيرة: - بفتح الهمزة وكسر المهملة - ابن عطية بن جدارة بجيم - ابن عوف بن الخزرج الأنصاري البدري أبو مسعود. عدّه فيمن شهد بدراً البخاري تبعاً لابن شهاب والحكم بن عُتيبة وابن إسحاق. وقال سعيد بن إبراهيم: لم يشهدها. له مائة وحديثان، اتفقا على تسعة، وانفرد (خ) بحديث، و (م) بسبعة. وعنه ابن بشير وأبو وائل وقيس بن أبي حازم. قال الهيثم: مات سنة أربعين. وقيل: بعد سنة ثلاثين بسنة أو سنتين.

بيده، ثم قال: «نعم فوالله الذي بعثك بالحق لَنَمْنَعَنَّكَ مما نمنع منه أُزُرَنا، فَبَايِعْنَا يا رسول الله فنحن والله أَبناء الحرب وأَهْلُ الحَلْقَة وَرِثْنَاها كابراً عن كابر». قال: فاعترض القَوْلَ، والبَرَاءُ يكلم رسول الله ﷺ، أَبو الهَيْثَم بن التَّيِّهان، فقال: «يا رسول الله، إن بيننا وبين الرجال حِبالاً وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسَيْتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أَظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتَدَعَنا؟» قال: فتَبَسَّم رسول الله ﷺ ثم قال: «بل الدَّمُ الدَّمُ والهدم الهدم» أي ذمتي ذمتكم وحُرْمَتي حُرْمَتُكُم - «أنا منكم وأنتم مِنِّي أُحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم». قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: «أَخرِجُوا إِلَيَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم». فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج وثلاثةً من الأَوس:

فمن الخزرج: أَبو أُمامة أَسعد بن زُرَارة نقيب بني النَّجَّار. ورافع بن مالك بن العَجْلان نقيب بني زُرَيْق، وسعد بن الرَّبيع، بفتح الراء، وعبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج وسعد بن عُبَادة والمنذر بن عمرو نقيب بني ساعدة والبراء بن معرور - بالعين المهملة وعبد الله بن عمرو بن حرام وعبادة بن الصامت. ومن الأَوس: أُسَيْد بن حُضَيْر - بالحاء المهملة والضاد المعجمة - نقيب بني عبد الأَشهل ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خَيْثَمَة نقيبا بني عمرو بن عوف.

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أَبي بكر أَن رسول الله ﷺ قال للنُّقَباء: «أَنتم على قومكم بما فيهم كُفَلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأَنا كفيلٌ على قومي» - يعني المسلمين. قالوا: نعم. قال ابن هشام: وأَهل العلم يَعُدُّون فيهم أَبا الهيثم بن التيهان ولا يعدون رفاعة.

وروى البيهقي عن الإمام مالك رضي الله عنه قال: حدثني شيخ من الأَنصار أَن جبريل عليه السلام كان يشير إلى رسول الله ﷺ إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة. قال مالك: وكنتُ أَعجب كيف جاء هذا؟ رجلان من قبيلة ورجل من أُخرى، حتى حُدِّثْتُ بهذا الحديث: أَن جبريل هو الذي وَلاَّهم وأَنه أَشار إلى النبي ﷺ. وروى أَبو نعيم عن ابن عُمَر قال: «لما أَخذ رسول الله ﷺ النقباء قال: لا يَجِدُ امرؤ في نفسه شيئاً إنما أُخِذ من أَشار إليه جبريل» وروى أَنه ﷺ نقب على النقباء أَسعد بن زرارة فلما توفي أَسعد والمسجد يبنى اجتمع بنو النجار إلى رسول الله ﷺ وسأَلوه أَن يجعل منهم شخصاً نقيباً عليهم، فقال لهم: «أَنْتُم أَخْوَالِي وَأَنَا نَقِيبُكُم»(١) وكَرِه رسول الله ﷺ أَن يَخُصَّ بها بَعْضَهُم دون بعض قال السهيلي: «وإنما

---

(١) ذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٣/٢٢٩.

جعلهم النبي ﷺ اثني عشر نقيباً اقتداءً بقول الله تعالى في قوم موسى ﴿وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثْنَي عَشَرَ نَقِيباً﴾ [المائدة: ١٢].

وقال كعب بن مالك يذكرهم فيما رواه ابن هشام عن أبي زيد [الأنصاري]:

فَأَبْلِغْ أُبَيّاً أَنَّهُ فَالَ[1] رَأْيُهُ ... وَحَانَ غَدَاةَ الشِّعْبِ وَالْحَيْنُ وَاقِعُ
أَبَى اللّهُ مَا مَنَّتْكَ نَفْسُكَ إِنَّهُ ... بِمِرْصَادِ أَمْرِ النَّاسِ رَاءٍ وَسَامِعُ
وَأَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ أَنْ قَدْ بَدَا لَنَا ... بِأَحْمَدَ نُورٌ مِنْ هُدَى اللّهِ سَاطِعُ
فَلاَ تُرْغِبَنْ في حَشْدِ أَمْرٍ تُرِيدُهُ ... وَأَلِّبْ وَجَمِّعْ كُلَّ مَا أَنْتَ جَامِعُ
وَدونَكَ فَاعْلَمْ أَنَّ نَقْضَ عُهُودِنَا ... أَبَاهُ عَلَيْكَ الرَّهْطُ حِينَ تَبَايَعُوا
أَبَاهُ الْبَرَاءُ وَابنُ عَمْرو كِلاَهُما ... وَأَسْعَدُ يَأْبَاهُ عَلَيْكَ وَرَافِعُ
وسَعْدٌ أَبَاه السَّاعِديُّ وَمُنْذِرٌ ... لأَنفِكَ إِنْ حَاوَلْتَ ذَلِكَ جَادِعُ[2]
وَمَا ابنُ رَبيعٍ إِنْ تَناوَلْتَ عَهْدَهُ ... بِمُسْلِمِهِ لاَ يَطْمَعَنْ ثَمَّ طَامِعُ
وَأَيْضاً فَلاَ يُعْطِيكَهُ ابْنُ رَوَاحَةٍ ... وَإِخْفَارُهُ مِنْ دُونِهِ السُّمُّ نَاقِعُ
وَفَاءً بِهِ وَالقَوْقَلِيُّ ابْنُ صَامِتٍ ... بِمَنْدوحَةٍ عَمَّا تُحَاولُ يَافِعُ
أَبُو هَيْثَمٍ أَيْضاً وفِيٌّ بِمِثْلِهَا ... وَفَاءً بِمَا أَعْطَى مِنَ العَهْدِ خَانِعُ
وَمَا ابْنُ حُضَيْرٍ إِنْ أَرَدْتَ بِمَطْمَعٍ ... فَهَلْ أَنْتَ عَنْ أُحْمُوقَةِ الغَيِّ نَازِعُ
وَسَعْدٌ أَخو عَمْرو بْنِ عَوْفٍ فَإِنَّهُ ... ضَرُوحٌ لِمَا حَاوَلْتَ مِلأَمْرِ مَانِعُ
أُولاَكَ نُجُومٌ لا يُغِبُّكَ مِنْهُمُ ... عَلَيْكَ بِنَحْسٍ في دُجَى اللَّيْلِ طَالِعُ

فذكر كعب فيهم أبا الهَيْثَم بن التَّيِّهان ولم يذكر رفاعة. قال ابن إسحاق: وحدثني عاصم بن عُمَر بن قتادة أن القوم لما اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ قال العباس بن عُبادة بن نَضْلَة الأنصاري أخو بني سالم بن عَوْف: «يا مَعْشَر الخزرج، هل تَدْرُونَ عَلاَمَ تبايعون هذا الرجل؟» قالوا: نعم. قال: «إنكم تبايعونه على حَرْب الأحمر والأسود من الناس فإن كنتم تريدون أنكم إذا نَهَكَتْ أَمْوَالَكُم مُصِيبةٌ وأَشْرَافَكُم قَتْلٌ أَسلمتموه فمن الآن فهو والله إن فعلتم خِزْيُ الدنيا والآخرة وإن كنتم تريدون أنكم وافُونَ له بما عاهدتموه على نَهْكَةِ الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خَيْرُ الدنيا والآخرة». قالوا: «فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لَنَا بذلك يا رسول الله»؟ قال: «الجنة». قالوا: ابْسُطْ يَدَكَ. فبَسَط يَدَه، فبايعوه. فأما عاصم بن عُمَر بن قتادة فقال: «والله ما قال ذلك العباس إلا لِيَشُدَّ العَقْد لرسول الله ﷺ

(١) فال رأيه: فيلاً، وفيولاً: أخطأ وضعف. انظر المعجم الوسيط ٢/٧١٥.
(٢) انظر الروض الأنف ٢/١٩٠، ١٩١.

في أَعناقهم». وأَما عبد الله بن أَبي بكر فقال: «ما قال ذلك العباس إِلا ليؤخِّر القوم تلك الليلة رجاء أَن يَحْضُرَها عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول فيكون أَقوى لأَمر القَوْم»، فالله أَعلم أَي ذلك كان، قال ابن إِسحاق: «وبنو النَّجّار يَزْعُمون أَن أَبا أُمَامة أَسْعَد بن زُرَارة كان أَول من ضَرَب على يد رسول الله ﷺ وبنو عبد الأَشهل يقولون: «بل أَبو الهيثم بن التيهان».

وفي حديث كعب بن مالك قال: «كان أَول من ضرب على يد رسول الله ﷺ، البَرَاء بن معرور، ثم بايَعَ بَعْدُ القَوْمُ، فلما بايعنا رسول الله ﷺ صَرَخَ الشيطان من رأْس العقبة بأَنْفَذ صَوْتٍ سَمِعْتُه قَطّ: يا أَهل الجَبَاجِب: هل لكم في مُذَمَّم والصُّبَّاء معه قد اجتمعوا على حَرْبِكم؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: «هذا أَزَبُّ العقبة، هذا ابن أَزيب، اسْتَمِعْ أَي عَدُوَّ الله، أَما والله لأَفْرُغَنَّ لك». ثم قال رسول الله ﷺ: ارْفَضُّوا إِلى رحالكم». فقال له العباس بن عُبَادة ابن نَضْلَة: «والله الذي بَعَثَك بالحق إِن شِئْتَ لَنَمِيلَنَّ على أَهل مِنَى غداً بأَسيافنا» فقال رسول الله ﷺ: «لم نُؤْمَرَ بذلك ولكن ارْجِعُوا إِلى رحالكم». فَرَجَعْنَا إِلى مضاجعنا فنِمْنَا عليها [حتى أَصبحنا]. وذكر سليمان بن طَرْخَان التَّيْمِيّ في كتاب السِّير له أَن إِبليس لَعَنَه الله، لَمَّا أَسْلَمَ من أَسلم من الأَنصار صاح ببنيه بين الحُجَّاج: «إِن كان لكم بمحمد حاجة فَأْتُوه بمكان كذا وكذا فقد حَالَفَه الذين يسكنون يَثْرِب». قال: «ونزل جبريل فلم يُبْصِرْه من القوم أَحَدٌ، واجتمع المَلأُ من قريش عند صَرْخة إِبليس، فعَظُم الأَمْر بين المشركين والأَنصار حتى كاد أَن يكون بينهم قتال: ثم إِن أَبا جَهْل كَرِه القتال في تلك الأَيام فقال: يا معشر الأَوس والخزرج أَنتم إِخواننا وقد أَتيتم أَمراً عظيماً، تريدون أَن تغلبونا على صاحبنا، فقال له حارثة بن النعمان: نعم وأَنْفُك راغم، والله لو نعلم أَنه من أَمر رسول الله ﷺ أَن نُخْرِجك أَيضاً لأَخرجناك. فقال أَبو جهل: نَعْرِض عليكم أَن نلحق بكم من أَصحاب محمد من شاء بعد ثلاثة أَشهر، ونعطيكم ميثاقاً تَرْضَوْنَ به أَنتم ومحمد لا نحبسه بعد ذلك. فقالت الأَنصار: «نعم إِذا رَضِيَ رسول الله ﷺ»، فذكر الحديث.

وقال كعب في حديثه: فقالوا: «يا مَعْشَر الخزرج، إِنه قد بلغنا أَنكم قد جئتم إِلى صاحبنا هذا لتُخْرِجوه من بين أَظْهُرنا وتُبَايِعوه على حربنا، وإِنه والله ما من حَيٍّ من العَرَب أَبغض إِلينا أَن تَنْشَب الحربُ بيننا وبينهم منكم». قال: فانبعث مَنْ هناك مِنْ مُشْرِكي قومنا يَحْلِفون بالله ما كان من هذا شيء وما علمناه. وقد صَدَقُوا لم يَعْلَمُوه. قال: وبعضنا ينظر إِلى بعض. قال: ثم قام القوم وفيهم الحرث بن هشام بن المغيرة المخزومي ـ وأَسلم بعد ذلك ـ وعليه نعلان جديدان. قال: فقلت له كلمة كأَني أُريد أَن أُشرِك القوم بها فيما قالوا: يا ابا جابر أَمَا تستطيع أَن تتخذ وأَنت سَيِّد من ساداتنا مِثْلَ نَعْلَيْ هذا الفتى من قريش؟ قال: فَسَمِعها

الحرث فخلعهما من رِجْلَيه، ثم رمى بهما إليّ، فقال: والله لَتَنْتعِلنَّهُما. قال: يقول أَبو جابر: [مَهْ] أَحْفَظْتَ والله الفتى فَارْدُدْ عليه نَعْلَيه. قال: قلت: لا والله لا أَردهما، فَأْلٌ والله صالح، لئن صَدَق الفأْل لأَسْلبَنَّهُ». قال ابن إسحاق: «وحدثني عبد الله بن أَبي بكر: أَنهم أَتَوْا عبدَالله بن أُبَيّ بن سَلُول فقالوا له مثل ما ذكر كعب من القول، فقال لهم: والله إن هذا لأَمْرٌ جسيم ما كان قومي لِيَتَفَوَّتُوا عَلَيَّ بمثل هذا وما عَلِمْتُه. قال: فانصرفوا عنه. قال: ونَفَر الناس من مِنَى، فَتَنَطَّسَ القَوْمُ الخَبَر، فوجدوه قد كان. وخرجوا في طلب القوم، فأَدركوا سعد بن عُبادة بأَذَاخِر، والمنذر بن عمرو، وكلاهما كان نقيباً. فأَما المُنْذِر فَأَعْجَزَ القومَ، وأَما سعد فأَخذوه فربطوا يَدَيْه إلى عُنُقه بِنِسْع رَحْله، ثم أَقبلوا به حتى أَدخلوه مكة يَضْربونه ويَجْذِبُونَه بِجُمَّتِه وكان ذا جُمَّةٍ وشَعر كثير. قال سعد: فوالله إني لفي أَيديهم إِذْ طَلَع عَلَيَّ نَفَرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيءٌ أَبيض شَعْشَاع حُلْوٌ من الرجال.

قال: قلتُ في نفسي: إن يَكُ عند أَحَدٍ من القوم خَيْر فعند هذا. قال: فلما دنا مِنِّي رفع يَدَه فَلَطَمني لطمة شديدة ـ قال ابن هشام: هو سُهَيْل بن عمرو، قلت: وأَسلم بعد ذلك ـ قال: فقلت في نفسي: لا والله ما عندهم بعد هذا خَيْر. قال: فوالله إني لفي أَيديهم يسحبونني إذا أَوَى إلى رجل ممن كان معهم ـ قال ابن هشام: هو أَبو البَخْتَرِيّ بن هشام، قلت: ومات كافراً ـ فقال: وَيْحَكَ: أَما بينك وبين أَحد من قريش جوار ولا عَهْد؟ قال: قلت: بلى والله ولقد كنت أُجِير لجبير بن مُطْعِم بن عَدِيّ تِجَارَة، وأَمنعهم ممن أَراد ظُلْمَهم ببلادي، وللحرث بن حَرْب بن أُمية. قال: وَيْحَكَ، فاهْتِفْ باسم الرجلين، واذكر ما بينك وبينهما. قال: ففعلت وخرج ذلك الرجل إليهما فوجدهما في المسجد عند الكعبة فقال لهما: إن رجلاً من الخزرج الآن يُضْرَب بالأَبْطَح لَيَهْتِفُ بكما ويذكر أَن بينه وبينكما جواراً. قالا: ومن هو؟ قال: سعد بن عُبَادة. قالا: صَدَق والله إن كان لَيُجير لنا تِجَارَنا ويمنعهم أَن يُظْلَموا ببلده. قال: فجاء فَخَلَّصا سعداً من أَيديهم، فانطلق.

قال ابن إسحاق: وكان أَول شِعْر قيل في الهجرة بيتَيْن قالهما ضرار بن الخَطَّاب بن مِرْداس أَخو بني محارب بن فِهْر ـ قلت: وأَسلم بعد ذلك.

تَدَارَكْتَ سَعْداً عَنْوَةً فَأَخَذْتُهُ ... وَكَانَ شِفَاءً لَوْ تَدَارَكْتُ مُنْذِرا
وَلَوْ نِلْتُهُ طُلَّت هُنَاكَ جِراحُهُ ... وَكَانَ حَرِيّاً أَنْ يُهَانَ وَيُهْدَرَا[1]

قال ابن هشام: ويُرْوَى: «وكان حقيقاً أَن يُهَانَ ويُهْدَرَا»، قال ابن إسحاق: فأَجابه حَسَّان بن ثابت فيهما فقال:

---

(١) انظر ديوان حسان ١١٦.

فلشت إِلَى عَمْرٍو وَلاَ الـمَرْءِ مُنْذِرٍ إِذَا مَا مَطَايَا القَوْمِ أَصْبَحْنَ ضُمَّرا
أَتَـفْـخَـرُ بِـالْـكَـتَّـانِ لَـمَّـا لَـبِسْـتَـه وَقَدْ يَلْبَسُ الأَنْبَاطُ رَيْطاً مُقَصَّرا
فَـلَـوْلاَ أَبُو وَهْبٍ لَـمَرَّتْ قَصَائِدٌ عَلَى شَرَفِ البَرْقَاءِ يَهْوِينَ حُسَّرَا
فَـلاَتَـكُ كَـالْـوَسْـنَـانِ يَـحْـلُـمُ أَنَّـهُ بِقَرْيَةِ كِسْرَى أَوْ بِقَرْيَةِ قَيْصَرَا
وَلاَتَكُ كَالثُّكْلَى وَكَانَتْ بِمَعْزِلٍ عَنِ الثُّكْلِ لَوْ كَانَ الفُؤَادُ تَفَكَّرا
وَلاَتَكُ كَالشَّاةِ التي كَانَ حَتْفُهَا بِحَفْرِ ذِرَاعَيْهَا فَلَمْ تَرْضَ مَحْفَرَا
وَلاَتَـكُ كَـالْـغَـاوِي فَأَقْبَلَ نَـحْرَهُ وَلَمْ يَخْشَهُ سَهْماً مِنَ النَّبْلِ مُضْمَرا
فَإِنَّا وَمَنْ يُهْدِي القَصَائِدَ نَحْوَنَا كَمُسْتَبْضِعٍ تَمْراً إِلَى أَهْلِ خَيْبَرا[١]

تنبيهات

الأول: لم يأمر النبي ﷺ البراء بن معرور بإعادة الصلاة التي صَلاَّها إلى الكعبة حيث كان الفَرْض عليهم إلى بيت المقدس لأن البراء أسلم لما شاهد النبي ﷺ، فلم يأمره بإعادة تلك الصلاة من أجل ذلك كذا قيل، والذي يقتضيه سياق القصة أن البراء كان مسلماً قبل هجرته إلى النبي ﷺ، ويُحْتَمَل أن تكون صلاة البراء إلى الكعبة اتِّباعاً لما علم به من علماء اليهود أن هذا النبي المبعوث في عصرهم هو على دين إبراهيم ودينهم وقِبْلته الكعبة مُسْتَصْحِباً لأصل الحُكْم في ذلك، ورَجَّحه على ما وجد فيه من التردد وضده في ثبوته والاختلاف في صحته، وهو وجه من وجوه الترجيح. وقال السهيلي: إنما لم يأمره ﷺ بإعادة ما قد صَلَّى لأنه كان مُتَأَوِّلاً.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«مَجَنَّة»: بميم فجيم مفتوحتين، وكسر بعضهم الميم، سُوَيْق بأسفل مكة على بريد منها.

«عُكَاظ» بالضم: سوق بقرب مكة وراء قَرْن المنازل.

«مُضَر» بضم الميم وفتح الضاد المعجمة.

«يُؤْوِيني»: يَضُمُّني إليه ويَحُوطُني.

«فَقِهْنَا» بكسر القاف: فهمنا.

«وَاعَدْنَا» رسولَ الله ﷺ، يجوز بسكون الدال، فيكون رسول الله ﷺ منصوباً على أنه مفعول، ويجوز فتح الدال، فرسول مرفوع فاعل.

«ائتمرنا»: شاور بعضنا بعضاً في ذلك وعَزَم عليه.

(١) القصيدة في ديوان حسان ١١٧.

«نَذَرْ»: نَتْرُك.

«الشِّعْب» بكسر الشين المعجمة: انفراج بين جَبَلَيْن.

«القَطَا»:[١] بالقَصْر وفتح القاف: نوع من الحمام [واحدتها قَطَاة].

«توافينا»: من توافى القَوْمُ: تتامُّوا.

«النشاط»: طِيبُ النفس.

«الكسل» كالتعب: الفتور، فيتَخَلَّف العبد عن أَسباب الخير والفلاح، وإن كان لعدم قدرته فهو العجز، وإن كان لعدم إرادته فهو الكسل.

«نضرب أكباد الإبل»: أَي نركب ونسير.

«اللَّوْم»: عَذْل الإنسان بنسبته إلى ما فيه لَوْم.

«المُطِيّ» جمع مَطِيَّة فَعيلَة بمعنى مفعولة: البعير سمي بذلك لأَنه يُرْكَب مَطَاه أَي ظَهْرُه.

«مَسَّتْكُم»: أَي أَصابتكم.

«تعضكم السيوف»: أَي تجرحكم.

«فَذروه»: فاتركوه.

«أَمِطْ»[٢] نَحِّ وأَبْعِد.

«البَيْداء»: المفازة.

«أَدَع»: أَتْرك.

«البَنِيَّة»: بفتح المُوَحَّدة وكسر النون وتشديد المثناة التحتية المفتوحة ثم تاء تأْنيث، وهي الكعبة.

«الرِّحَال» بالحاء المهملة: جمع رَحْل وهو في الأَصل مأْوى الشخص في الحَضَر ثم أُطْلِق على أَمتعة المسافر لأَنها هناك مأْواه.

«مَنَعَة»[٣] بفتح النون باختلاف المعنى وتقدم بيان ذلك.

«الانحياز إليكم»: الاختلاط بكم.

«أُزُرَنا» [جمع إزار] قال أَبو ذر: يعني نساءنا والمرأَة قد يكنى عنها بالإزار.

---

(١) انظر المصباح المنير ٥١٠.

(٢) انظر اللسان ٦/٤٣٠٨، ٤٣٠٩.

(٣) انظر اللسان ٦/٤٢٧٦.

«الحَلْقة» بسكون [اللام]: السلاح.

«كابراً عن كابر»: أَي كبيراً عن كبير في العزّ والشرف.

«حِبالاً»: بكسر الحاء المهملة وبالموحدة جمع حَبْل وهو العهد والميثاق.

«عَسَيْتُ»: بكسر السين وفتحها لغتان.

«الدم الدم الهدم الهدم»: قال في النهاية: يُرْوَى الهَدْم بسكون الدال وفتحها فالهَدَم بالتحريك القَبْر يَعْنِي: أَني أُقْبَر حيث تُقْبَرُون، وقيل: هو المَنْزِل أَي مَنْزِلُكُمْ مَنْزِلي، كحديثه الآخر: المَحْيَا مَحْيَاكُم والمَمَات مَمَاتُكم أَي لا أُفارقكم، والهَدْم بالسكون وبالفتح أَيضاً هو إِهدارُ دَمِ القتيل، يقال: دِمَاؤهم بينهم هَدْمٌ أَي مُهْدَرَة والمعنى أَنَّ مَنْ طَلَب دَمَكم فقد طَلَب دمي وأَن مَنْ أَهْدَرَ دَمَكُمْ فقد أَهدر دَمِي، لاستحكام الأُلْفَة بيننا، وهو قول معروف للعرب يقولونه عند المعاهدة والنُّصْرَة وفي تهذيب الأَزْهَرِي أَن ابن الأَعرابي رواه بالفتح: دَمِي دَمُكْ وهَدَمِي هَدَمُك.

«النقيب»:[1] قال في التقريب: يُقَال: نَقَب الرجل ونَقَّب بالتخفيف والتشديد استخراج الأَسرار والنقيب الأَمين والكفيل والعريف أَو هو فَوْقَ العريف، وشاهِدُ القَوْم نَقَبَ عليهم كقَتَل نِقابةً بالكَسْر فعل ذلك. ونَقُبَ بالضَّمّ نَقَابةً بالفتح إِذا لم يكن فصار نقيباً، ونُقَبَاءُ الأَنصار الذين تقدموا لأَخذ البيعة لنصرة النبي ﷺ سموا بذلك لضمانِهم إِسلام قَوْمِهم.

شرح ابيات كعب بن مالك [الأنصاري]

«فَالَ رَأْيُه» بفاء ولام: أَي بَطُل.

«فلا تُرْعِينْ»، بضَم المُثَنَّاة الفوقية وسكون الراء وكسر العين المهملة وفتح المثناة التحتية ونون التوكيد: أَي لا تُبْقِيَنْ. يقال: ما أَرعى عليه أَي ما أَبقى عليه.

«أَلْبٌ» وجَمْعٌ بمعنى «جادِع»[2] بالجيم أَي قاطع.

«إِخْفَارُه» بالخاء المعجمة: نَقْضُ عهده.

«ناقع» بالقاف: ثابت.

القَوْقَلِيّ» بقاف مفتوحة فواو ساكنة فقاف مفتوحة ولام. [نسبة لأَبي بطن] من الخزرج: قَوْقَل، وهو غَنْم بن عَوْف بن عَمْرو بن عَوْف بن الخزرج، كذا لابن الكلبي، وقال ابن

---

(١) انظر المصباح المنير ٦٢٠.

(٢) انظر المعجم الوسيط ١/١١٠.

إسحاق: قيل لهم القوافل لأنهم كانوا إذا أجاروا أحداً أعطوْهُ سهماً وقالوا له: قَوْقِلْ به حيث شئت، أي سِرْ به حيث أَرَدْتَ.

«بِمَنْدُوحَة»[1] أي بِمُتَّسَع.

«يافِع» بالمثناة التحتية والفاء المكسورة: أي موضع مرتفع فاليَفَاع ما ارتفع من الأرض ومن رواه باقِع بالباء المُوَحَّدة والقاف فمعناه بعيد وهو مأخوذ من بَقَعَ الأرْضَ.

«خانِع»[2] بالخاء المعجمة والنون: أي مُقِرّ مُتَذَلِّل.

«الأُحْمُوقَة» أُفْعُولة من الحُمْق وحقيقته وضع الشيء في غير مَوْضِعه مع العلم بقُبْحِه.

«نازع» بالزاي والعين المهملة: أي ذاهب.

«ضَرُوح»[3] بفتح الضاد المعجمة وضم الراء وبالحاء المهملة أي مانِعٌ ودافِعٌ عن نفسه من قولهم: ضَرَحت الدَّابَّة برِجْلها ضربت بها.

«أُولاك» بترك الهمزة أي أُولئك.

«يُغِبُّكَ» بضم المثناة التحتية وكسر الغين المعجمة وتشديد الباء الموحدة من أَغَبَّ القَوْمَ إذا جاءهم يوماً وتركهم يوماً.

«دُجَى الليل» بضم الدال المهملة: أي ظلمة الليل.

شرح ما جاء في بيعة العقبة

«كُفَلاَء» جمع كفيل: وهو الضَّمِين.

«عَلاَمَ»: ما استفهامية اتصلت بعلى.

«الأَحمر»: العَجَم «والأَسْوَد»: العَرَب.

«نُهِكَتْ» بضم النون وكسر الهاء وفتح الكاف فتاء تأنيث: نَقَصَتْ.

«أَنْفَذ صوت» بالذال المعجمة: أبعد.

«الجَبَاجِب» بجيمين الأُولى مفتوحة والثانية مكسورة وبعد كل جيم مُوَحَّدَة، قال في القاموس: جبال بمكة أَو أَسواقها أَو منحر مِنى كان يُلْقَى به الكروش.

«المُذَمَّم» بذال معجمة: المذموم جداً، وأَرادت قريش عكس اسم النبي ﷺ فكانوا

(١) انظر لسان العرب ٦/٤٣٨١.
(٢) اللسان ٣/١٢٧٩.
(٣) انظر اللسان ٤/٢٥٧٢.

يقولون عِوَضَ محمد: مُذَمَّم بوزنه وعكس معناه، وكَذَبُوا بل محمد من كثرة خصاله المحمودة وكذلك كان النبي ﷺ وهو اسم صادق على مُسَمَّاه.

«الصُّبَّاء»[١] بضم الصاد المهملة والباء المُشَدَّدَة جمع صابئ: وهو الخارج من دين إلى دين.

«إِزْب» بهمزة مكسورة فزاي ساكنة فباء مُوَحَّدة. وفيما ذكر ابن هشام بفتح الهمزة وسكون الزاي وفتح الياء [أَزْيَب].

«ارْفَضُّوا]»[٢]: تَفَرَّقوا.

«أَحْفَظْتَ» الفتى بالحاء المهملة والفاء والظاء المعجمة: أي أَغْضَبْتَهُ والحفيظة الغَضَب.

«أَمْرٌ جسيم»: عظيم.

«ليتَفَوَّتُوا عَلَيّ»، من الفَوْت، يُقال: تَفَوَّت فلان على فلان في كذا وافتات عليه إذا انفرد برأيه دونه في التصرف ولما ضُمِّنَ معنى التغلب عُدِّيَ بعلى.

«تَنَطُّس» بمثناة فوقية فنون فطاء فسين مهملتَيْن، قال ابن هشام: المُبَالغة في التفتيش.

«أَذاخِر» بذال وخاء مكسورة معجمتَيْن: اسم موضع.

«بِنِسْع رَحْلِه»[٣]: بنون مكسورة فسين فعين مهملتَيْن: السير المضفور من الأَديم على هيئة أَعِنَّة البغال..

«الجُمَّة»: بالضَّمّ: الشَّعْر إلى شَحْمة الأُذُن.

«وضيء»: جميل.

«لَكَمَهُ»: ضربه بجَمْع كفِّه.

«أَوَى»: أَي أَشْفَقَ ورَحِم.

«شَعْشَاع»[٤]: طويل.

«جُوَار»: بضَمّ الجيم وكسرها: العهد والأَمان.

«تِجار»: بكسر التاء يُخَفَّف ويُشَدَّد: جمع تاجر.

«فاهْتِفْ»: صِحْ وادْعُ.

---

(١) انظر اللسان ٤/٢٣٨٥،

(٢) يرفَضّ: تفرق وتبدد وزال وسال وترش وارفض بمعنى ترفض. الوسيط ١/٣٦٠.

(٣) النسع: سير يضفر على هيئة أَعِنَّة النعال تشد به الرِّحال: والجمع أنساع ونسوع ونسع والقطعة فيه نسعة قال عبد يغوث:

أقول وقد شدوا لساني بنسعة

اللسان ٦/٤٤١٠.

(٤) انظر لسان العرب ٣/٢٢٧٩.

شرح أبيات ضرار بن الخطاب وحسّان بن ثابت

«عَنْوَةً»[(١)]: بفتح العين: أي قهراً.

«طُلَّتْ» بضَمّ الطاء المهملة وتشديد اللام المفتوحة ثم تاء التأْنيث: أَي أُهْدِرَت.

«حَرِيًّا»: بفتح الحاء المهملة وكسر الراء وتشديد المثناة التحتية: أَي حقيقاً وجديراً.

«ضُمَّرَا»: بضَم الضاد المعجمة: جمع ضامر.

«شَرَف»: المكان العالي يُشْرف على ما حوله.

«تَدَارَكْتَ وأَخَذْتَ»: كلاهما بتاء الخطاب.

«البَرْقَاء»[(٢)]: كل موضع فيه حجارة مختلفة الأَلوان.

«الكَتَّان»: بفتح الكاف.

«الأَنباط»: قوم من العجم.

«الرَّيْط»[(٣)]: الملاحف البيض واحدتها رَيْطَة.

«مُقَصَّرا»: بميم مضمومة فقاف مفتوحة فصاد مهملة مُشَدَّدة: أَي قُصِّرَتْ بالمِقْصَرة كمِكْنَسةَ خشبة القَصَّار.

«حُسَّرَا»: مُغيبة.

«الوَسْنَان»[(٤)]: النائم.

الثَّكْلَى: المرأَة الفاقدة ولدها.

«حَتْفها»: هلاكها.

«مَحْفَر» بفتح الفاء: مصدر «ومَحْفِر» بكسر الفاء: مكان.

الثالث: في معرفة أَسماء الذين بايعوا لَيْلَة العقبة الثالثة:

وكانوا ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأَتين. قال في العيون: هذا هو العدد المعروف، وإِن زاد في التفصيل فليس ذلك بزيادة في الجملة وإِنما هو لِمَحَلّ الخلاف فيمن شهد. فبعض الرُّوَاة يثبته وبعضهم يثبت غَيْرَه بدله. قلت: ورَتَّب ابن إِسحاق أَسماءهم على القبائل والبطون ورَتَّبهم على حروف المعجم ليسهل الكشف عنهم. واعلم أَن كل اسم يأْتي فيهم بلفظ: «عبد

(١) انظر المصباح المنير ٤٣٤.

(٢) البرقاء: أَرض غَليظة فيها حجارة ورمل وطين مختلطة وجمعها (براقي) الوسيط ١/٥١.

(٣) الرَّيطة: الملاءة إذا كانت قطعة واحدة ولم تكن لفقين وقيل: الريطة كل ملاءة غير ذات لفقين كلها نسيج واحد وقيل: هو كل ثوب لين رقيق، والجمع ريط ورياط. اللسان ٣/١٧٩٢.

(٤) الوسن الناس قال ابن القطاع: والاستيقاظ. ورجل وسنان وامرأة وسنى. المصباح المنير ص ٦٦٠.

الأَشهل» فإنه بشين معجمة، أَو بلفظ «بُهْثَه» فإنه بضم الباء المُوَحَّدة وسكون الهاء وبالثاء المثلثة، أَو بلفظ «يزيد» فإنه بالمثناة التحتية إلا «تزيد بن جُشَم» فإنه بالمثناة الفوقية والزاي بعدها تحتية. أو بلفظ «جُشَم» فإنه بجيم مضمومة فشين معجمة مفتوحة، وهو غير منصرف للعلمية والعَدْل من جاشم، أَو بلفظ «حارثة» فإنه بالحاء المهملة والمثلثة، أَو بلفظ «حَرَام» فإنه بالحاء والراء المهملتين، أَو بلفظ «خَنْسَاء» فإنه بخاء معجمة فنون فسين فألف تأْنيث. أَو بلفظ «زُرَيْق» فإنه بزاي مضمومة فراء مفتوحة فَمُثَنَّاة تحتية ساكنة فقاف. أَو بلفظ «زعوراء» فإنه بزاي مفتوحة فعين مهملة مضمومة فواو ساكنة فراء فهمزة ممدودة، أَو بلفظ «سارِدة» بكسر الراء فإنه بمُهْمَلاَت، أو بلفظ «سَرْح» بسكون الراء فإنه بمهملات، أَو بلفظ «سَلِمَة» بكسر اللام، أَو بلفظ «السَّلَم» فإنه بفتحتين. أَو بلفظ «سِنان» فإنه بسين مكسورة ونونين بينهما أَلف أَو بلفظ «سَواد» فإنه بفتح السين المهملة وتخفيف الواو وآخره دال مهملة. أَو بلفظ «غَنْم» فإنه بغين معجمة فنون ساكنة أَو بلفظ «لوْذَان» فإنه بفتح اللام والذال المعجمة. أَو بلفظ «مَبْذُول» فإنه بالموحدة والمعجمة بلفظ اسم المفعول. أَو بلفظ «نابِي» فإنه بالنون والباء الموحدة. أَو بلفظ «النَّجَّار» أَو «النَّجَّاري» فإنه بالنون والجيم.

باب الهمزة: أُبَيّ ـ بضم الهمزة وفتح الموحدة وتشديد التحتية ـ ابن كعب بن قيس بن عُبَيْد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النَّجَّار، وهو تيم الله بن ثعلبة بن عَمْرو بن الخزرج بن عمرو بن حَبِيب ـ بفتح المهملة وكسر الموحدة ـ ابن حارثة بن غضب بفتح الغين وسكون الضاد المعجمتين. أَسعد بن زُرَارة ـ بضم الزاي ـ ابن عُدَس بن عُبَيْد بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النَّجَّار الخزرجي النَّجَّاري أَبو أُمَامَة. أُسَيْد ـ بضم أَوله وسكون التحتية ـ ابن حُضَيْر ـ بحاء مهملة مضمومة فضاد معجمة مفتوحة فراء ـ ابن سِمَاك ـ بكسر السين المهملة وآخره كاف ـ ابن عَتيك ـ ككريم ـ ابن رافع بن امرئ القيس بن زيد بن عبد الأَشهل بن جُشم بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأَوْس الأَشهلي يُكْنَى أَبا يحيى وقيل كنيته أَبو عتيك. أَوْس بن ثابت ـ بالمثلثة ـ ابن المنذر بن حَرَام بن عمرو بن زَيْد مَنَاة ـ بفتح الميم ـ ابن عَدِيّ بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج أَخو حَسَّان بن ثابت رضي الله عنه. أَوس بن زيد بن أَصرم، ذكره ابن عُقْبَة فيهم.

الباء المُوَحَّدَة: البَرَاء ـ بفتح الموحدة فالراء ممدوداً مخَفَّفاً ـ ابن مَعْرُور ـ بميم مفتوحة فعين مهملة ساكنة فراء مضمومة فواو فراء أُخرى ـ ابن صَخْر ـ بصاد مهملة مفتوحة فخاء معجمة ـ ابن خنساء بن سِنان بن عُبَيد بن عَدِيّ بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة بن سعد بن علي بن أَسَد بن ساردة بن تزيد بن جُشم بن الخزرج، وهو أَول من بايع ليلتئذٍ في قول ابن

إسحاق، وأول من أوصى بثلث ماله. بِشْر بن البَرَاء بن معرور. بَشير ـ بفتح أوله وكسر المعجمة بعدها مثناة ـ ابن سعد بن ثعلبة بن جُلاَس ـ بضم الجيم مخففاً وضبطه الدارقطني بفتح الخاء المعجمة وتشديد اللام ـ ابن زيد بن مالك بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج. بُهَيْز ـ بضم أوله وفتح الهاء وسكون التحتية، قال في النور: وآخره زاي، وضبطه الحافظ في الإصابة بالراء: وقيل: أوله نون بدل المُوَحَّدة ـ ابن الهيثم بن عامر، وقيل ابن نابي بن مَجْدَعة ـ بفتح الميم وسكون الجيم، وبالعين المهملة ـ ابن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس الأوسي الحارثي.

الثاء المثلثة: ثابت بن الجذع ـ واسم الجِذْع ثعلبة، والجِذع بكسر الجيم وبالذال المعجمة كذا قال في النور، وفي نسخة صحيحة من العيون بضم الجيم وفتح الذال وفي نسخة صحيحة من سيرة ابن هشام بفتحها ـ ابن زيد بن الحارث بن حرام بن كعب بن سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن سَارِدة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي السُّلَمِي. ثعلبة بن عُبَيْد بن عَدِيّ: قال الذهبي في التجريد: «ذكره ابن الجوزي في التلقيح». قال الحافظ: «أخشى أن يكون وقع في اسم أبيه تصحيف وهو ثعلبة بن عَنَمَة ـ بعين مهملة ونون فميم مفتوحات ـ ابن عدي بن نابي بن عمرو بن سَوَاد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة السُّلَمِي الخزرجي».

الجيم: جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب ابن سَلِمة بن سعد بن علي بن أسد بن سارِدَة بن تَزِيد بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي السلمي. جَبَّار ـ بجيم مفتوحة فباء مُوَحَّدة مشَدَّدة فراء ـ ابن صَخْر بن أُمية بن خنساء ـ ويقال خُنَيْس ـ ابن سِنان بن عُبَيْد بن عَدِيّ بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة الحزرجي ثم السلمي أبو عبد الله.

الحاء المهملة: الحارث بن قيس بن خَلَدَة ـ بفتح الخاء المعجمة واللام ويقال خالد ـ ابن مُخَلَّد ـ بضم الميم فخاء معجمة فلام مُشَدَّدة مفتوحتين ـ ابن عامر بن زُرَيق [بن عامر بن زُرَيْق] بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب ـ بغين مفتوحة فضاد ساكنة معجمتين ـ ابن جُشَم ابن الخزرج الخزرجي ثم الزرقي، أبو خالد.

الخاء المعجمة: خارجة بن زيد بن أبي زُهَيْر بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر ابن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث الخزرجي. خالد بن زيد بن كُلَيْب ـ بضم الكاف ـ ابن ثعلبة بن عبد عوف بن غَنْم بن مالك بن النَّجَّار [واسمه] تيم الله بن ثعلبة بن عَمْرو بن الخزرج [الأكبر] أبو أيوب الخزرجي النَّجَّاري. خالد بن عَمْرو بن عدي بن نابي بن عَمْرو بن سواد بن عدي بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة [الخزرجي] السُّلَمِي. خالد بن قيس بن مالك بن

العجلان بن مالك بن عامر بن بياضة [ابن عامر بن زُريق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج الأكبر الخزرجي البياضي. خَديج بن سلامة ـ وقيل بن سالم بن أَوس بن عَمْرو بن القُرَاقِر ـ بقافين وراءين مُهْمَلَتَيْن ـ ابن الضَّحْيَان البلوي نَسَباً الأنصاري حِلْفاً، حليف لبني حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة من الأنصار. خَلاَّد ـ بفتح أوله وتشديد اللام وآخره دال مهملة ـ ابن سُوَيْد بن ثعلبة بن عَمْرو بن حارثة بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الأكبر الأنصاري الخزرجي الحارثي [من بلحارث بن الخزرج].

الذال المعجمة: ذَكْوَان بن عبد قَيْس بن خَلَدة ـ أخو الحارث السابق ـ ابن مُخَلَّد بن عامر بن زُرَيق أَبو السبع ـ بسين مهملة فباء موحدة، كان خرج إلى رسول الله ﷺ بمكة فهو مهاجري أنصاري.

الراء: رافع بن مالك بن العَجْلان بن عَمْرو بن عامر بن زُرَيق بن عامر بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي الزرقي. رفاعة ـ بكسر الراء وتخفيف الفاء وفتح العين المهملة ـ ابن رافع بن مالك بن العجلان الخزرجي الزرقي. رفاعة بن عبد المنذر بن زَنْبَر ـ بزاي مفتوحة فنون ساكنة فمُوَحَّدة مفتوحة ـ ابن زيد بن أُمية بن مالك بن عوف بن عَمْرو بن عوف بن مالك بن الأوس أبو لُبَابة الأوْسِي. رفاعة بن عَمْرو بن زيد ـ وقيل ابن نوفل وقيل ابن عمرو وقيل ابن قيس ـ ابن ثعلبة بن جُشَم بن مالك بن سالم بن غَنْم بن عوف بن الخزرج الخزرجي أبو الوليد.

الزاي: زياد بن لَبِيد ـ بفتح اللام وكسر الموحدة وسكون التحتية وآخره دال مهملة ـ ابن ثعلبة بن سِنَان بن عامر بن عَدِيّ بن أُمية بن بياضَة ـ بالمعجمة ـ ابن عامر بن زُرَيْق بن عبد حارثة بن مالك بن غَضْب بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي البياضي. زيد بن سهل بن الأسود بن حرام بن عَمْرو بن زيد مناة بن عدي بن عَمْرو بن مالك بن النَّجَّار الخزرجي النَّجَّاري أَبو طَلْحَة [وهو مشهور بكنيته وهو زوج أُم سليم بنت مِلْحَان أُم أَنَس بن مالك.

السين المهملة: سعد بن خيثمة ـ بخاء مفتوحة فمثناة تحتية فمثلثة فميم فهاء تأنيث ـ ابن الحارث بن مالك بن كعب بن النَّحَّاط ـ بنون فحاء وطاء مهملتين بينهما أَلف ـ ابن كعب بن حارثة بن غَنْم بن السَّلْم ـ بسين مهملة مشددة فلام ساكنة ـ ابن امرئ القيس بن مالك بن الأوس الأوسي أبو خيثمة. سعد بن الرَّبيع ـ بفتح الراء ـ ابن عَمْرو بن أَبي زُهَيْر بن مالك بن امرئ القيس بن مالك الأغر بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج. سعد بن زيد بن مالك بن عبد بن كعب بن عبد الأشهل الأوسي الأشهلي. سعد بن عُبَادة ـ بعين مهملة

مضمومة فباء موحدة مُخَفَّفة - ابن دُلَيْم - بدال مهملة مضمومة فلام مفتوحة فمثناة تحتية ساكنة - ابن حارثة بن أَبي حَزِيمة - بحاء مهملة مفتوحة فزاي مكسورة فمثناة تحتية، قال في الإملاء: هذا هو الصواب وكذا قيَّده الدارقطني ويروى بخاء مضمومة وزاي مفتوحة - ابن ثعلبة بن طَرِيف - بالطاء المهملة المفتوحة وبالفاء - ابن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج، يُكْنَى أَبا ثابت [وقيل] أَبا قيس، سيد الخزرج. سَلَمة - بفتح أَوله وثانيه - ابن سلامة بن وَقْش - بفتح الواو وإِسكان القاف وتُفْتَح - ابن زُغْبَة - بزاي مضمومة فغين معجمة ساكنة، فمُوَحَّدة مفتوحة فتاء تأْنيث - ابن زَعُوراء بن عبد الأَشهل بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن مالك بن الأَوس الأَوْسي الأَشهلي. سليم بن عَمْرو - أَو عامر - ابن حَديدة - بفتح الحاء المهملة - ابن عَمْرو بن غَنْم بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة، السُّلَمِي. سِنَان بن صيفي بن صَخْر بن خَنْساء بن سِنان بن عُبَيْد بن عَدِيّ بن غَنْم بن كَعْب بن سَلِمة الخزرجي السلمي. سهل بن عَتِيك - ككريم - ابن النعمان بن عَمْرو بن عَتِيك بن عَمْرو بن مبذول - بالذال المعجمة اسم مفعول - وهو عامر بن مالك بن النَّجَّار الخزرجي.

الشين المعجمة: شمر بن سعد بن ثعلبة، كذا في التلقيح ولم أَرَه في غيره.

الصاد المهملة: صيفي بن سواد بن عَبَّاد بن عَمْرو بن غَنْم بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة السلمي.

الضاد المعجمة: الضَّحَّاك بن زيد بن الطفيل، كذا في التلقيح ولم أَرَه في غيره. الضَّحَّاك بن حارثة بن زيد بن ثعلبة بن عُبَيد بن عدي بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي ثم السُّلَمي.

الطاء المهملة: الطفيل بن مالك بن خنساء بن سِنان بن عُبَيْد بن عدي بن غَنْم بن كعب السلمي.

الظاء المعجمة: ظُهَيْر - بالتصغير - ابن رافع بن عدي بن زيد بن جُشَم بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عَمْرو - وهو النبيت - ابن مالك بن الأَوس الأَوسي.

العين المهملة: عامر بن نابي - بالنون وبالموحدة - ابن زيد بن حرام. عُبَادة - بضم أَوله وتخفيف المُوَحَّدة - ابن الصامِت - بكسر الميم - ابن قيس بن أَصْرَم بن فِهْر بن ثعلبة بن غَنْم بن عوف بن عَمْرو بن عوف بن الخزرج الخزرجي أَبو الوليد. عَبَّاد - بفتح أَوله وتشديد الموحدة - ابن قيس - بالمثناة التحتية - ابن عامر بن خالد بن مُخَلَّد - كمحمد - ابن عامر بن زُرَيق الزرقي. العباس بن عُبَادة بن نضلة - بنون مفتوحة فضاد معجمة ساكنة - ابن مالك بن العجلان الخزرجي. عبد الله بن أُنَيْس - بضم أَوله مُصَغَّراً - ابن أَسعد بن حرام بن حُبَيِّب بن

مالك بن غَنْم بن كعب بن ناشز ـ بالنون والشين المعجمة والزاي ـ ابن يَرْبُوع ـ بمثناة مفتوحة فراء ساكنة فمُوَحَّدَة مضمومة فعين مهملة ـ ابن البُرْك ـ بموحدة مضمومة فراء ساكنة فكاف ـ ابن وَبَرة ـ بفتح الواو فالموحدة والراء، وعند ابن عُمَر: تيم بن نُفَاثة ـ بنون مضمومة ففاء ومثلثة ـ ابن إِياس بن يربوع، دَخَل البُرْك في جهينة حليفًا لهم. عبد الله بن جُبَيْر ـ بضم الجيم وفتح الموحدة ـ ابن النعمان بن أُمية بن امرئ القيس ـ وهو البُرَك ـ بضم الموحدة وفتح الراء وبالكاف ـ ابن ثعلبة بن عَمْرو [بن عوف بن مالك بن الأَوس الأَوْسِي [ثم من بني ثعلبة بن عَمْرو. عبد الله بن الربيع بن قيس بن عمرو بن عَبَّاد بن الأَبْجَر ـ بفتح الهمزة فموحدة ساكنة فجيم مفتوحة فراء، والأَبْجَر هو خُدْرَة ـ بضم الخاء المعجمة وإِسكان الدال المهملة ـ ابن عوف بن الحارث بن الخزرج الخزرجي. عبد الله بن رَوَاحَة ـ بالفتح ومهملة مُخَفَّفاً ـ ابن ثعلبة بن امرئ القيس بن عَمْرو بن امرئ القيس الأَكبر بن مالك الأَغرّ بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج الخزرجي. عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه بن زيد من بني جُشَم بن الحارث بن الخزرج، الخزرجي الحارثي ويُكْنَى أَبا محمد وهو الذي أُرِي الأَذان في النوم. عبد الله بن عمرو بن حرام بن ثعلبة بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سلمة بن سعد بن علي بن أَسد بن ساردة بن يزيد بن جُشَم بن الخزرج الخزرجي السلمي، يكنى أَبا جابر والد جابر بن عبد الله. عَبْس ـ بفتح أَوله وسكون الباء وبالسين المهملة ـ ابن عامر بن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن تميم بن كعب بن سَلِمَة السُلَمِي. عُبَيد ـ بضم أَوله بغير إِضافة ـ ابن التَّيِّهان، أَخو أَبي الهيثم. عُقْبة ـ بضم أَوله ـ ابن عَمْرو بن ثعلبة بن أُسَيْرَة ـ بضم الهمزة وفتح المهملة ـ ابن عُسَيْرة، واختلفوا في تقييد عسيرة فمنهم من يفتح العين ويكسر السين المهملتين ومنهم من يضم العين ويفتح السين ـ ابن عطية بن خُدَارة ـ بالخاء المعجمة المضمومة، وبعضهم يقول بجيم مضمومة ومكسورة ـ ابن عوف بن الحارث بن الخزرج أَبو مسعود البدري. عُقْبَة بن وَهْب بن كَلَدَة ـ بفتح الكاف واللام والدال المهملة ـ ابن الجَعْد ـ بفتح الجيم وسكون العين وبالدال المهملتين ـ ابن هلال بن الحارث بن عَمْرو بن عدي بن جُشَم بن عوف ـ بالفاء ـ ابن بُهْثَة بن عبد الله بن غَطَفَان ـ بفتح الغين المعجمة والطاء المهملة والفاء ـ ابن قيس بن عَيْلان الغَطَفاني، حليف لبني سالم بن غَنْم بن عَوْف بن الخزرج. قال ابن إِسحاق: «كان أَول من أَسلم من الأَنصار ولحق برسول الله ﷺ بمكة فلم يزل معه حتى هاجر فكان يقال له مهاجري أَنصاري». عُمَارة ـ بضم أَوله والتخفيف ـ ابن حَزْم بن زيد بن لَوْذَان بن عَمْرو بن عَبْد بن عوف بن غَنْم بن مالك بن النَّجَّار، الخزرجي النَّجَّاري. عَمْرو بن الجَمُوح ـ بفتح الجيم وضم الميم وبالحاء المهملة ـ ابن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم بن سَلِمة السُلَمي من بني جُشَم بن الخزرج.

عَمْرو بن الحارث بن كِنْدَة بن عَمْرو بن ثعلبة من القواقل شهد العقبة الثانية قاله ابن إسحاق. عَمْرو بن عَنَمة ـ بمهملة فنون فميم مفتوحات ـ ابن عدي بن نابي بن عمرو بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة السلمي. عَمْرو بن غَزِيَّة ـ بغين معجمة مفتوحة فزاي مكسورة فمثناة تحتية مُشَدَّدَة ـ ابن عمرو بن ثعلبة بن خنساء بن مبذول بن عَمْرو بن غَنْم بن مازن ـ بالزاي ـ ابن النَّجَّار الخزرجي ثم المازني، يقال إنه شهد العقبة، وقال ابن هشام: عَمْرو بن غزية بن عَمْرو بن ثعلبة وهو عطية بن خنساء. عُمَيْر ـ وقيل عَمْرو ـ ابن الحارث بن ثعلبة بن الحارث بن حرام بن كعب ابن غَنْم بن كعب بن سَلِمة بن سعد الخزرجي كذا نسبه ابن إسحاق وزاد موسى بن عُقْبة بَيْنَ الحارث وثعلبة: لِبْدَة ـ بكسر اللام وإسكان الموحدة وبالمهملة. عُمَيْر بن عامر بن نابي بن يزيد بن حرام الخزرجي، قال ابن الكلبي: شهد المشاهد كلها، وأَقَرَّه الرشاطي والحافظ، وقال الحافظ الدمياطي: لم أرَ من ذكره في الصحابة غيره. عوف بن الحارث بن رِفاعة ـ بكسر الراء ـ ابن الحارث بن سواد [بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النَّجَّار الخزرجي] النَّجَّاري يُعْرَف بأُمه عَفْراء، ويقال بحذف الحارث الثاني. عُوَيْم ـ بضم أوله وفتح الواو وسكون التحتية بعدها ميم وليس بعدها راء ـ ابن ساعدة بن عَايِش ـ بمثناة تحتية فشين معجمة ـ ابن قيس بن النعمان بن زيد بن أُمية بن مالك بن عوف بن عَمْرو بن عوف بن مالك بن الأَوس الأَوْسِيّ.

الفاء: فَرْوَة ـ بفتح الفاء وسكون الراء ـ ابن عَمْرو بن وَدْفة ـ بفتح الواو وإسكان الدال، قال ابن إسحاق: وهي معجمة وقال ابن هشام: مهملة ورَجَّحَه السهيلي وفَسَّرة بالروضة ـ ابن عُبَيْد بن عامر بن بياضة البياضي.

القاف: قَتَادة بن النعمان بن زيد بن عامر بن سواد بن ظَفَر بن الخزرج [بن عمرو بن مالك بن الأَوس] الأَوسي ثم الظَفَري، ذكروه فيهم إلا ابن إسحاق. قُطْبة ـ بضم أوله وسكون الطاء المهملة ـ ابن عامر بن حَدِيدة بن عمرو بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة الخزرجي السَّلَمي يُكْنَى أبا زيد. قيس بن أبي صعصعة ـ واسم أبي صعصعة عَمْرو ـ ابن زيد بن عوف بن مبذول بن عَمْرو بن غَنْم بن مازن بن النَّجَّار الخزرجي المازني.

الكاف: كَعْب بن عَمْرو بن عَبَّاد ـ بفتح العين المهملة وتشديد الباء المُوَحَّدة ـ ابن عَمْرو بن سواد بن غَنْم [بن كعب بن سَلِمَة بن سعد بن علي بن أسد بن سَارِدة بن تزيد بن جُشَم بن الخزرج] الخزرجي السَّلَمي أبو اليَسَر ـ بفتح المثناة التحتية والمهملة. كعب بن مالك بن أَبي كعب عَمْرو بن القَيْن ـ بفتح القاف وسكون المثناة التحتية ـ ابن كعب بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة بن سعد بن عُلَيّ ـ بضم العين المهملة وفتح اللام ـ ابن أَسد بن ساردة أبو عبد الله الخزرجي السَّلَمي ـ بفتحَتَيْن ويقال أبو بشير، ويقال أبو عبد الرحمن.

الـميم: مالك بن التَّيِّهان ـ بمثناة فوقية مفتوحة فمثناة تحتية مكسورة مُشَدَّدة ويجوز تخفيفها فألف فنون ـ ابن مالك بن عُبَيْد بن عَمْرو بن عبد الأعلم بن عامر بن زعوراء بن جُشَم بن الحارث بن الخزرج بن عَمْرو وهو النَّبِيت ـ بفتح النون وكسر الباء الموحدة فمثناة تحتية ساكنة فمثناة فوقية ـ ابن مالك بن الأوس، أَبو الهَيْثَم الأَوْسِي. مالك بن الدُّخْشُم ـ بدال مهملة مضمومة فخاء ساكنة فشين مضمومة معجمتين فميم ويقال بالنون بدل الميم ويقال كذلك بالتصغير. ـ ابن مالك بن غَنْم بن عوف بن عَمْرو بن عوف، وقيل في نسبه غير هذا. قال أَبو عمر: لا يصح منه النِّفَاق فقد ظهر من حسن إسلامه ما يمنع من اتهامه بذلك. مالك بن رفاعة بن عَمْرو بن زيد، ذكره الأُموي، كذا في العيون ولم أرَه في التلقيح لابن الجوزي ولا في العُجَالة للبرهان النووي ولا في الإصابة للحافظ. مسعود بن يزيد بن سُبَيْع بن خنساء ـ ويقال سنان ـ ابن عُبَيْد بن عَدِيّ بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة السَّلَمِيّ.. مُعَاذ ـ ـ بضم أوله وبالذال المعجمة ـ ابن جَبَل ـ بفتح الجيم والموحدة ـ ابن عَمْرو بن أوس بن عايذ ـ بالمثناة التحتية والذال المعجمة ـ ابن عَدِيّ بن كعب بن عَمْرو بن أُدَيّ ـ بضم الهمزة وفتح الدال المهملة وتشديد المثناة التحتية ـ ابن سعد بن عُلَيّ ـ بضم العين المهملة وفتح اللام ـ ابن أَسَدَ بن ساردة بن تزيد بن جُشَم بن الخزرج، أبو عبد الرحمن الخزرجي الجُشَمِي، الإمام المُقَدَّم في علم الحلال والحرام رضي الله تعالى عنه. مُعَاذ بن الحارث بن رِفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النَّجَّار الخزرجي، يُعْرَف بأُمِّه عفراء. معاذ بن عَمْرو بن الجَمُوح ـ بجيم مفتوحة فميم فواو ـ ابن زيد بن حرام بن كعب بن غَنْم بن كعب بن سَلِمة الخزرجي السَّلَمي. مَعْقِل ـ بميم مفتوحة فعين ساكنة مهملة فقاف مكسورة فلام ـ ابن المُنْذِر بن سَرْح ـ بسين فراء فحاء مهملات ـ ابن خُنَاس بن سِنَان بن عبيد بن عدي بن غَنْم السلمي، معن بن عَدِيّ بن الجَدّ ـ بفتح الجيم وتشديد الدال المهملة ـ ابن العَجْلان بن ضُبَيْعَة ـ بضم الضاد وفتح الموحدة وسكون التحتية وبالعين ـ ابن حارثة بن ضُبَيْعَة بن حَرَام بن جُعْل ـ بضم الجيم وسكون العين المهملة ـ ابن عَمْرو بن جشم بن رَدْم بن ذُبْيَان بن هُمَيْم ـ بضم الهاء مُصغَّراً ـ ابن ذُهْل ـ بضم الذال المعجمة ـ ابن هَنِي بن بَلِيّ البلوي، حليف بني عَمْرو بن عوف. مُعَوِّذ ـ بالذال المعجمة بلفظ اسم الفاعل ـ ابن الحارث بن رفاعة، ويُعرَف بأُمِّه عَفْراء. المُنْذِر بن عَمْرو بن خُنَيْس بن حارثة بن لَوْذَان بن عبدود بن زيد بن ثعلبة بن الخزرج بن ساعدة بن كعب بن الخزرج الخزرجي الساعدي.

النون: النعمان بن عَمْرو بن رِفاعة بن الحارث بن سواد بن مالك بن غَنْم بن مالك بن النَّجَّار. نهير بن بهير ـ بالموحدة، وهو نهير بن الهيثم ـ من بني نابي بن مجدعة بن حارثة بن الحارث بن الخزرج بن عَمْرو بن مالك بن الأوس الأَوسي.

الهاء: هانئ - بهمزة آخره - ابن نِيَار - بكسر النون وتخفيف المثناة التحتية وآخره راء - ابن عَمْرو بن عُبَيْد بن كِلاب بن دُهْمَان - بدال مهملة مضمومة فهاء ساكنة - بن غَنْم بن ذُبْيَان - بذال معجمة مكسورة ويجوز ضمها فموحدة ساكنة فمثناة تَحْتِيّة وآخره نون - ابن هُمَيْم - بهاء مضمومة فميم مفتوحة فَمُثَنَّاة تحتية فميم أُخرى - ابن كاهِل - بكسر الهاء - ابن ذُهْل - بضم الذال المعجمة وسكون الهاء - ابن هَنِيّ - بفتح الهاء وكسر النون وتشديد التحتية - ابن بَلِيّ - بالموحدة واللام وزان عَلِيّ - ابن عَمْرو بن الحاف - بالحاء المهملة والفاء ومنهم من يكسر همزته ويقطعها ومنهم من يجعل الألف واللام فيه للتعريف منزلة اسم الفاعل من حَفِيَ يَحْفَى - ابن قُضَاعة - بضم القاف وبالضاد المعجمة حليف لبني حارثة من الأنصار.

المُثَنَّاة التحتية: يزيد بن ثعلبة بن خَزَمَة - بفتح المعجمتين قاله الدارقطني، وقال ابن إسحاق وابن الكلبي بسكون الزاي - ابن أَصْرَم بن عَمْرو بن عَمَّارة - بفتح أوله والتشديد - ابن مالك البلوي أبو عبد الرحمن حليف بني سالم بن عوف بن الخزرج. يزيد بن خِذَام - بخاء مكسورة وذال معجمتين، ويقال حرام بالحاء والراء المهملتين - ابن سُبَيْع - بموحدة مُصغَّراً - ابن خنساء بن سِنان بن عُبَيْد بن عَدِيّ بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة الخزرجي السلمي. يزيد بن عامر بن حديدة - بالحاء المهملة - ابن غَنْم بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سلمة أبو المُنْذِر الخزرجي السلمي. يزيد بن المنذر بن سَرْح - بمهملات - ابن خُنَاس بن سنان بن عُبَيْد بن عدي بن غَنْم بن كعب بن سلمة الخزرجي السلمي.

الكُنَى: أَبو سِنان بن صيفي بن صخر بن خنساء بن سنان بن عُبَيْد بن عدي بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة.

النساء: أَسماء بنت عمرو بن عدي بن نابي بن سواد بن غَنْم بن كعب بن سلمة، أُم منيع السلمية. نسيبة بفتح النون وكسر السين المهملة - بنت كعب بن عَمْرو بن عوف بن عَمْرو بن مبذول بن عمرو بن غَنْم بن مازن، أُم عمارة.

الباب التاسع

في إسلام عمرو بن الجَمُوح بفتح الجيم وبالحاء المهملة رضي الله تعالى عنه

قال ابن إسحاق وغيره: لما قدِم النَّفَر الذين بايعوا رسول الله ﷺ، أظهروا الإسلام بالمدينة، وفي قومهم بَقَايا من شيوخ لهم على دينهم من الشِّرْك، منهم عَمْرو بن الجَمُوح [بن زَيْد بن حَرَام بن كَعْب بن غَنْم بن كعب بن سَلِمَة السَّلَمِي من بني جُشَم بن الخزرج]، وكان ابنُه مُعَاذ بن عَمْرو شَهد العقَبة وبايع رسول الله ﷺ بها. وكان عَمْرو [بن الجَمُوح] سَيِّداً من سادات بني سَلِمة [وشريفاً من أشرافهم]، وكان قد اتخذ في داره صَنَماً من خشب يُعَظِّمه يقال له: مناة [كما كانت الأشراف يصنعون تتخذ إلهاً تُعَظِّمه وتُطَهِّره].

فلما أسلم فِتْيان بني سَلِمة: مُعَاذ بن جَبَل ومُعَاذ بن عمرو في فتيان منهم ممن أسلم وشَهِد العقبة، وكانوا يُدْلجون بالليل على صَنَم عَمْرو ذلك فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفَر بني سَلِمة وفيها عَذِر الناس، مُنَكَّساً على رأسه، فإذا أصبح عَمْرو قال: وَيْحَكُمْ! من عَدَا على آلهتنا هذه الليلة؟ قال: ثم يَغْدُو يلتمسه حتى إذا وجده غَسَله وطَهَّره وطَيَّبه، ثم قال: أما والله لو أعلم مَنْ فَعَل بك هذا لأُخْزِيَنَّه. فإذا أمسى ونام عَدَوْا عليه ففعلوا به مثل ذلك، [فَيَغْدُوا فيجده في مثل ما كان فيه من الأذى فَيَغْسِله ويُطَهِّره ويُطَيِّبه ثم يَعْدُون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك] فلما أكثروا عليه استخرجه من حيث أَلْقَوْه يوماً فغَسَله وطَهَّرَه وطَيَّبَه، ثم جاء بسَيْفه فعَلَّقه عليه ثم قال له: إني والله ما أَعْلَمُ مَنْ يصنع بك ما أرى، فإن كان فيك خَيْر فامْتَنِع فهذا السيف معك. فلما أَمْسَى ونام عَمْرو عَدَوْا عليه فأخذوا السيف من عُنُقه ثم أخذوا كلباً ميتاً فقَرَنُوه به بحبل ثم أَلْقَوْهُ في بِئْر من آبار بني سَلِمَة فيها عَذِرٌ من عَذِر الناس. وغَدَا عَمْرو بن الجَمُوح يلتمسه فلم يجده في مكانه، فخرج يَتْبَعُه حتى وجده في تلك البئر مُنَكَّساً مقروناً بكلب مَيِّت. فلما رآه أَبْصَر شَأْنَه، وكَلَّمه مَنْ أسلم من قومه، فأسلم رحمه الله وحَسُن إسلامه. فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف [وهو يذكر صَنَمَه ذلك وما أبصر من أمره ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العَمَى والضلالة]:

وَاللهِ لَوْ كُنْتَ إِلَهاً لَمْ تَكُنْ ... أَنْتَ وَكَلْبٌ وسْطَ بِئْرٍ فِي قَرَنْ
أُفٍّ لِمَلْقَاكَ إِلَهاً مُسْتَدَنْ ... الآن فَتَّشْنَاك عن سوء الغَبَنْ
الحَمْدُ للهِ العَلِيِّ ذِي المِنَنْ ... الوَاهِبِ الرَّزَّاقِ دَيَّانِ الدِّيَنْ
هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ ... أَكُونَ فِي ظُلْمَةِ قَبْرٍ مُرْتَهَنْ
بِأَحْمَدَ المَهْدِي النَّبِيِّ المُؤْتَمَنْ(١)

---

(١) انظر الروض الأنف ٢/٢٠٥.

تنبيهان

الأَول: في الزهر قول عمْرو: «لو كُنْتَ إلهاً لم تَكُنْ» فيه عيب يسمى: سِنَاد الإِشباع وهو تغيير حركة الدخيل فالضمة مع الكسرة غير معيب والفتحة مع واحد منهما معيب والمذكور في الرَّجَز معيب بغير شك لأَنه جمع بين الفتح والضم في قوله: في قَرَنْ.

الثانـي: في بيان غريب ما سبق:

«مناة»[1] وَزْنُه فعلة من مَنَيْتُ الدَّمَ وغَيْرَه إذا صَبَبْتَه لأَن الدماء كانت تُمْنَى عنده أي تُصَبّ تَقرُّباً إليه.

«العَذِرِ» بفتح العين المهملة وكسر الذال المعجمة: جمع عَذِرَة الخروء.

«القَرَن»[2] بفتحتين: الحَبْل.

«مُسْتَدَنْ» بفتح المثناة الفوقية والدال المهملة معناه: ذَليل مُسْتَعْبَد ذكره في الإِملاء قال في الروض: هو من السَّدَانة وهي خدمة البيت وتعظيمه.

«الغَبَن»[3] بفتح الغين المعجمة والباء الموحدة يُقَال: غَبِنَ رأْيه كما يقال سَفِه نَفْسَه، فَنَصبوا لأَن المعنى خَسِرَ نَفْسَه وَأَوْبَقَها وأَفْسَد رَأْيه ونحو هذا.

«الدِّيَن». بكسر الدال المهملة: جَمْع دِينَة وهي العادة ويُقَال لها دِيَنٌ أَيضاً، ويجوز أَن يكون أَراد بالدِّيَن الأَديان أَي هو دَيَّان أَهل الأَديان، ولكن جَمَعها على الدِّيَنَ لأَنها مِلَل ونِحَل والله أَعلم بالصواب وإِليه المَرْجع والمآب وإِلى الله ترجع الأُمور.

(١) اللسان ٤٢٨٥/٦.
(٢) انظر المصباح المنير ٥٠١.
(٣) انظر المعجم الوسيط ٦٤٤/٢.

جماع أبواب الهجرة إلى المدينةِ الشّريفَةِ

الباب الأول

في إذْن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين في الهجرة إلى المدينة

روى ابن سعد عن أَبي أُمَامة بن سهل بن حُنَيف وعن عُرْوة عن عائشة رضي الله عنهما قال: لما صَدَر السبعون من عند رسول الله ﷺ طابت نَفْسُه وقد جعل الله له مَنَعَةً وقَوْماً أَهْلَ حَرْبٍ [وعُدَّة] ونَجْدَة، وجعل البلاءُ يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج فضَيَّقوا على أَصحابه وتَعَبَّثُوا بهم، ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشَّتْم والأَذى، فشكا ذلك أَصحاب رسول الله ﷺ واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أُرِيتُ دارَ هجرتكم، أُريتُ سَبْخَةً ذات نَخْلٍ بين لابَتَيْن» - وهما الحَرَّتان - «ولو كانت السَّرَاةُ أَرْضَ نَخْلٍ وسِبَاخ لَقُلْتُ هِيَ هِيَ». ثم مكث أَياماً ثم خرج إِلى أَصحابه مسروراً فقال: «قد أُخبِرْتُ بدار هجرتكم وهي يَثْرِب، فمن أَراد الخروج فَلْيَخْرُجْ إِليها». فجعل القوم يَتَجَهَّزُون ويترافقون ويتواسَوْن ويخرجون ويُخْفُون ذلك. فكان أَول من قَدِم المدينة من أَصحاب رسول الله ﷺ أَبو سَلَمة بن عبد الأَسَد - بسين ودال مهملتين (١) -. قال ابن إِسحاق: «هاجر إِلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة. وحُبِست عنه امرأَته أُم سَلَمة هِنْد بنت أَبي أُمية بن المغيرة بمكة نحو سنة ثم أَذِن لها بنو المغيرة الذين حبسوها في اللحاق بزوجها فانطلقت وحدها مهاجِرة حتى إِذا كانت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة [بن أَبي طلحة] أَخا بني عبد الدار وكان يومئذ مشركاً وأَسلم بعد ذلك، فشَيَّعها حتى إِذا أَوْفَى على قرية بني عَمْرو بن عَوْف بقُبَاء قال لها: هذا زوجك في هذه القرية. ثم انصرف راجعاً إِلى مكة، فكانت تقول: ما رأَيت صاحباً قط كان أَكرم من عثمان بن طلحة، كان إِذا بلغ المنزل أَناخ بي ثم استأْخر عَنِّي حتى إِذا نزلت عنه استأْخر ببعيري فَحَطَّ عنه ثم قَيَّده في الشجرة، ثم أَتى إِلى شجرة فاضْطَجَع تحتها، فإِذا دَنَا الرَّوَاح قام إِلى بعيري فقَدَّمَه فَرَحَلَه، ثم استأْخر عَنِّي وقال: ارْكَبِي. فإِذا رَكِبْتُ واسْتَوَيْتُ على بعيري أَتى فأَخذ بخِطَامِه فقادني، [فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أَقْدَمَني المدينة].

---

(١) أخرجه البخاري ١٢٨/٣ وابن سعد في الطبقات ١٥٢/١/١ وابن خزيمة في صحيحه (٢٦٥) والبيهقي في الدلائل ٤٥٩/٢.

وقيل: أول المهاجرين مُصْعَب بن عُمَيْر. روى البخاري في صحيحه، والحاكم في الإكليل عن البَرَاء بن عازب قال: «أوَّلُ من قَدِم علينا المدينة من المهاجرين مصعب بن عُمَيْر». وروى ابن إسحاق وابن سعد: «ثم كان أول من قَدِمَها من المهاجرين بعد أبي سَلَمة: عامر بن ربيعة [حليف بني عدي بن كعب]، معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمَة[1] ـ بالحاء المهملة المفتوحة وسكون الثاء المثلثة ـ قالا: «وهي أول ظعينة قدمت المدينة».

قال ابن إسحاق: «ثم عبد الله بن جَحْش احتمَل بأهله وبأخيه أبي أحمد عَبْد بن جَحْش ـ بإضافة عَبْد إلى ابن جَحْش ـ وكان أبو أحمد رجلاً ضرير البَصَر، وكان يطوف مكة أعلاها وأسْفَلَها بغير قائد، وكان شاعراً، وكانت عنده الفارعة ابنة أبي سُفْيان بن حرب، وهاجر جميع بني جحش بنسائهم فعَدَا أبو سفيان على دارهم فتَمَلَّكَها، قال بعضهم: إنه باعها من عَمْرو بن علقمة أخي بني عامر بن لؤي، فذكَرَ ذلك عبد الله بن جحش لرسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «ألاَ ترضى يا عبد الله أن يُعْطِيَكَ الله بها داراً في الجنة خيراً منها؟» قال: بلى. قال: «فذلك لك». ولما افتتح رسول الله ﷺ مَكَّةَ كَلَّمَه أبو أحمد في دارهم، فأبطأ عليه رسول الله ﷺ. فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد إن رسول الله يكره أن ترجعوا في شيء أُصِيب منكم في الله. فأمسك الكلام عن رسول الله ﷺ. قال ابن إسحاق: وكان بنو غَنْم بن دُوَدان أهْلَ إسلام، قد أَوْعَبُوا إلى المدينة مع رسول الله ﷺ هِجْرَةً رِجَالُهُم ونساؤهم: [عبد الله بن جحش وأخوه أبو أحمد بن جحش، وعكاشة بن مِحْصَن وشجاع وعُقْبَة ابنا وَهْب وأربد بن حُمَيْر].

وروى ابن السمان في «الموافقة» عن علي رضي الله عنه قال: ما عَلِمتُ أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عُمَر بن الخطّاب، فإنه لما هَمَّ بالهجرة تَقَلَّد سَيْفَه وتَنَكَّبَ قَوْسَه وانتضى في يده أسْهُماً واخْتَصَر عَنزَتَه، ومضى قِبَل الكعبة، والمَلأُ من قريش بفِنَائها فطاف بالبيت سَبْعاً [متمكناً]، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحَلَق واحدةً واحدة وقال لهم: شاهَتْ الوجوه، لا يُرْغِم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن يُثْكِلَ أُمَّه أو يُؤْتِمَ وَلَدَه أو يُرْمِلَ زوجته فَلْيَلْقَنِي وراء هذا الوادي. قال علي رضي الله عنه: فلم يتبعه أحَدٌ إلا قوم من المُسْتَضْعَفِين عَلَّمهم ما أرشدهم إليه ثم مضى لوجهه. وروى ابن إسحاق: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن عبد الله بن عمر عن أبيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال:

---

(١) ليلى بنت أبي حثمة بن حذيفة بن غانم بن عامر بن عبد الله بن عبيد بن عويج بن كعب بن لؤي القرشية العدوية أخت سليمان وكانت زوج عامر بن ربيعة العنبري فولدت له عبيد الله... وقال ابن سعد: أسلمت قديماً وبايعت كانت من المهاجرات الأول هاجرت الهجرتين إلى الحبشة ثم إلى المدينة يقال: إنها أول ظعينة دخلت المدينة في الهجرة ويقال أم سلمة. انظر الإصابة ١٨٠/٨.

اتَّعَدْتُ لما أَردنا الهجرة إلى المدينة أنا وعَيَّاش بن أَبي ربيعة وهشام بن العاص [بن وائل] السَّهْمِيّ التَّنَاضُب من أَضَاة بني غِفار فوق سَرِف، وقلنا: أَيُّنا لم يُصْبِح عندها فقد حُبِس فَلْيَمْضِ صاحباه. قال: فأَصبحتُ أَنا وعَيَّاش بن أَبي ربيعة عند التناضُب وفَطِن لهشام قَوْمُه فحبسوه عن الهجرة وفُتِن فافْتَتن. ثم إن أَبا جهل والحارث بن هشام ـ وأَسلم بعد ذلك ـ خرجا حتى قَدِما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فقالا لعَيَّاش بن أَبي ربيعة وكان ابن عَمِّهما وأَخاهما لأُمهما: إن أُمَّك قد نَذَرَتْ أَلاَّ يَمَسَّ رأْسَها مُشْط حتى تراك ولا تَسْتَظِلَّ من شمس حتى تراك، فَرَقَّ لها. فقلتُ له: يا عَيَّاش إنه والله إن يريدُك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فَاحْذَرْهُم، فوالله لو قد آذى أُمَّكَ القَمْلُ لامتشطت، ولو قد اشْتَدَّ عليها حَرُّ مكة لاستظلَّت. فقال: أَبَرُّ قَسَم أُمِّي ولي هنالك مالٌ فآخذه. فقلتُ: والله إنك لتعلم أَني لمن أَكثر قريشاً مالاً فَلَكَ نصف مالي ولا تذهب معهما. فأَبى عَلَيَّ إلا أَن يخرج معهما. فلما أَبى إلا ذلك قلت: أَما إذ قد فعلتَ ما فعلت فَخُذْ ناقتي هذه فإنها ناقةٌ نجيبة ذَلُول فَالْزَم ظَهْرَها، فإن رابك من القوم رَيْب فانْجُ عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أَبو جَهْل: والله يا أَخي لقد استغلظتُ بعيري هذا، أَفَلا تُعْقِبُني على ناقتك هذه؟. قال: بلى.

قال: فأَناخ وأَناخا ليتحول عليها، فلما اسْتَوَوْا بالأَرض عدوا عليه فأَوثقاه رباطاً وفَتَنَاهُ فافتتن ودخلا به مكة نهاراً مُوثَقاً، ثم قالا: يا أَهْلَ مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا. قال عمر: فكنا نقول: ما الله تعالى بقابلٍ مِمَّنْ افتتن صَرْفاً ولا عَدْلاً ولا توبة، قَوْمٌ عرفوا الله ثم رَجَعُوا إلى الكفر لبلاءٍ أَصابهم. قال: وكانوا يقولون ذلك لأَنفسهم. فلما قَدِم النبي ﷺ المدينة أَنزل الله تعالى فيهم وفي قولنا وقولهم لأَنفسهم ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لاَ تُنْصَرُونَ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُم مِن رَبِّكُم مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ**﴾ [الزمر: ٥٣، ٥٤، ٥٥].

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فكتبتُها بيدي في صحيفة وبعثت بها إلى هشام بن العاصي. قال: فقال هشام: فلما أَتتني جعلتُ أَقرؤها بذي طَوَى أُصَعِّد بها فيه وأُصَوِّب ولا أَفهمها حتى قلت: اللهم فَهِّمْنيها قال: فأَلْقَى الله تعالى في قَلْبِي أَنها إنما أُنْزِلت فينا وفيما كنا نقول في أَنفسنا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلستُ عليه فلحقت برسول الله ﷺ. هذا ما ذكره ابن إسحاق في شأْن هشام.

قال ابن هشام: فحدثني من أَثِق به أَن رسول الله ﷺ قال وهو بالمدينة: «مَنْ لي بعَيَّاش بن أَبي ربيعة وهشام بن العاصي؟» فقال الوليد بن الوليد بن المغيرة: أَنا لَكَ يا رسولَ الله بهما.

فخرج إلى مكة فقدِمها مُسْتَخْفِياً، فلقي امرأةً تحمل طعاماً فقال لها: أَيْنَ تريدين يا أَمَةَ الله؟ قالت: أُريد هَذَيْن المحبوسَيْن. تعنيهما، فتبِعها حتى عَرَف مَوْضِعَهُما، وكانا محبوسَيْن في بيت لا سقف له، فلما أَمْسَى تَسَوَّر عليهما ثم أَخذ مَرْوَةً فوضعها تحت قَيْدَيْهِما ثم ضربهما بسيفه فقطعهما، فكان يقال لسيفه: ذو المَرْوَة، لذلك ثم حملهما على بعيره وساق بهما فعَثَر فَدَمِيَتْ إصبعه فقال:

هَـلْ أَنْـتِ إلا إِصْـبَـعٌ دَمِـيـتِ؟ وَفـي سَـبِـيـلِ اللهِ مَـا لَـقِـيـتِ

ثم قَدِم بهما على رسول الله ﷺ، ثم تتابع المهاجرون أَرْسالاً فنزل طَلْحَة بن عُبَيد الله وَصُهَيْب بن سِنان على خُبَيْب ـ بضم الخاء المعجمة وفتح الوحدة ـ ابن إِساف ـ بكسر الهمزة ـ بالسُّنْح ويقال: بل نزل طلحة بن عبيد الله على أَسعد بن زُرَارة.

وروى ابن سعد عن سعيد بن المُسَيَّب أَن صُهَيْباً حين أَراد الهجرة قال له كُفَّار قريش: أَتَيْتَنا صُعْلوكاً حقيراً فكَثُر مالُك عندنا وبَلَغْتَ الذي بلغت ثم تريد أَن تخرج بمالك ونفسك والله لا يكون ذلك. فقال لهم صهيب: أَرَأَيْتُم إن جعلتُ لكم مالي أَتُخْلُونَ سبيلي؟ قالوا: نعم. قال: فإني جعلتُ لكم مالي. قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «رَبِحَ صُهَيْب رَبِحَ صُهَيْب»(١).

قال ابن سعد: لما قَدِم أَصحاب رسول الله ﷺ أَرْسَالاً فنزلوا في الأَنصار في دورهم وآوَوْهُم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أَبي حُذَيْفَة يَؤُمّ المهاجرين بقُبَاء قبل أَن يَقْدَم النبي ﷺ. قال ابن إِسحاق وأَقام رسول الله ﷺ بمكة بعد أَصحابه من المهاجرين ينتظر أَن يُؤْذَنَ له في الهجرة، ولم يَتَخَلَّف معه بمكة أَحَدٌ من المهاجرين إلا من حُبِس أَو فُتِن، إلا علي بن أَبي طالب وأَبو بكر بن أَبي قُحافة رضي الله عنهما. وكان أَبو بكر كثيراً ما يستأْذن رسول الله ﷺ في الهجرة فيقول له: «لا تَعْجَلْ لعل الله يجعل لك صاحباً». فيطمع أَبو بكر أَن يكونه.

قال ابن سعد: وكان نَفَرٌ من الأَنصار بايعوا رسول الله ﷺ في العقبة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قَدِم أَول من هاجر إلى قُبَاء خرجوا إلى رسول الله ﷺ بمكة، حتى قَدِموا مع أَصحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أَنصاريون وهم: ذَكْوَان بن عبد قيس [بن خَلَدة الزُّرَقِيّ]، وعُقْبَة بن وَهْب بن كَلَدَة والعَبَّاس [ابن عُبَادة] بن نَضْلة وزياد بن لبيد [بن ثعلبة الخزرجي البياضي].

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٦٢/١/٣ وذكره ابن حجر في المطالب (٤٠٦٣).

تنبيهات

الأول: ذكر ابن إسحاق وابن سعد أن أول من هاجر من أصحاب النبي ﷺ أبو سَلَمة عبد الله بن عبد الأَسَد. وروى ابن أبي شيبة والبُخَاري عن البَرَاء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: أول من قَدِم علينا المدينة من المهاجرين مُصْعَب بن عُمَير. قال الحافظ: «فيجْمَع بينهما بحمل الأَوَّليّة في أحدها على صفة خاصة. فقد جَزَم ابن عُقْبَة بأن أول من قَدِم من المهاجرين مطلقاً أبو سَلَمَة بن عبد الأَسد، وكان رجع من الحبشة إلى مكة، فأُوذِيَ بمكة، فبلغه ما وقع للاثني عشر من الأَنصار في العقبة الأُولى، فتوجه إلى المدينة في أثناء السنة، فيجْمَع بين ذلك وبين ما وقع في حديث البَرَاء بأن أبا سَلَمَة خرج لا لقصد الإقامة بالمدينة بل فِراراً من المشركين، بخلاف مُصْعَب بن عُمَيْر فكان على نية الإقامة بالمدينة».

الثاني: جزم أبو عُمَر بأن ليلى بنت أبي حَثْمَة بن غانم أول ظعينة دخلت المدينة من المهاجرات، وقال موسى بن عُقْبَة: بل أم سَلَمَة فالله أعلم.

الثالث: ذكر ابن إسحاق في مهاجرات بني [غَنْم بن] دُودَان بن أَسد: بنات جَحْش وذكر فيهنّ أُم حبيبة ـ بالهاء ـ وقال السهيلي: أُم حبيب ـ بغير هاء ـ وقال أَبو عُمَر: هو قول الأَكثر، قال الحافظ: كذا قال. قُلْتُ لأَن قصتها في الاستحاضة رَواها الزُّهْري عن عُرْوَة عن عائشة رضي الله عنها. وقال عَمْرو بن الحارث، ومحمد بن إسحاق وابن أبي ذئب كلهم عن الزهري: أم حبيبة بالهاء وقال مَعْمَر عنه: أُم حبيب بغير هاء، وقال يحيى بن أَبي كثير عن أُم سَلَمَة عن أُم حبيبة بالهاء. وقال ابن عيينة عن الزهري: أُم حبيبة أَو حبيب على الشك. فظهر من هذا أن أكثر الرواة قالوا: أُم حبيبة بالهاء خلافاً لما قاله أَبو عُمَر. قال في العيون: «وأما ابن عساكر فعنده أم حبيبة واسمها حَمْنَة فهما أَي بنات جحش ثنتان على هذا». انتهى. قُلْتُ: كان مستند الحافظ ابن عساكر في ذلك ما رواه أَبو داود والترمذي عن عمران بن طلحة عن عبيد الله عن أُمه حَمْنَة بنت جحش قالت: كُنتُ أُستَحَاض فذكر الحديث. فلما رأَى الحافظ ابن عساكر حديث الاستحاضة تارةً يُرْوَى عن حَمْنَة بنت جحش وتارة يُرْوَى عن أُم حبيبة ظَنَّ أَن اسم أُم حبيبة حَمْنَة، وليس كذلك فإن حَمْنَة غير أُم حبيبة وكل منهما اسْتُحِيض. وقد ذكر ابن إسحاق وابن سعد وغيرهما بنات جحش وسَمُّوهُنّ وذكروا أزواجهن، ولهذا مزيد بيان في كتابي: «عَيْنُ الإصابة في معرفة الصحابة»، أعان الله على إكماله.

الرابع: ذكر ابن إسحاق من نساء بني جحش: جُذَامَة بنت جَنْدل. قال السهيلي: «وأَحسَبُها جُذَامَة بنت وَهْب وأَما جُذَامة بنت جندل فلا تُعْرَف في آل جحش الأَسديين ولا في غيرهم ولعله وَهْم وقع في الكتاب وأَنها بنت وَهْب بن مِحْصَنْ بنت أَخي عُكَّاشَة بن مِحْصَن.

قال في الزهر: وهذا غير لأَن محمد بن جرير ذكر جُذَامَة في المهاجرات، قال: والمُحَدِّثون قالوا فيها: جُذَامة بنت وَهْب، والمختار أَنها بنت جَنْدَل الأَسدية أُخت عُكَّاشة بن مِحْصن المشهور، وتكون أُخته من أُمّه.

وفي كتاب الصحابة لابن حِبَّان: جُذَامَة بنت جَنْدل من بني غَنْم من المهاجرات، وجُذَامة بنت وَهْب من بني هلال. وفي الطبقات لابن سعد: جُذَامَة بنت جندل الأَسدية أَسلمت قديماً وبايعت وهاجرت إلى المدينة. ويزيد ذلك وضوحاً ما ذكره أَبو الحسَن الخزرجي في كتاب تقريب المدارك في الكلام على مُوَطَّأ مالك: أَن جُذَامَة بنت وهب أَسلمت عام الفتح، ودال جُدَامَة رُوِي إِعجامها وإِهمالها وصحِّح.

الخامس: في بيان غريب ما سبق:

«اللَّحاق»[١]: بفتح اللام مصدر لَحِقَه ولَحِقَ به.

«أَرْسَالاً»[٢]: بفتح الهمزة أَي: أَفواجاً وفِرَقاً.

«التنعيم»: على لفظ المصدر محل بين مكة وسَرِف على مرحلتين من مكة.

«مَنَعَة»: بفتحتين أَي في قوم يمنعونه ويحمونه جمع مانع ككاتب وكَتَبَة وتقدم مبسوطاً غير مرة.

«السَّبِخَة»: بكسر الموحدة وتُسَكَّن: الأَرض المالحة.

«بين لابَتَيْن»: تثنية لابة بالموحدة وهي الحَرَّة وتأْتي.

«الحَرَّتَان»: تثنية حَرَّة وهي أَرض ذات أَحجار سود نَخِرة كأَنَّها أُحرِقت بالنار.

«السَّرَاة»: بفتح السين المهملة: أَعظم جبال بلاد العرب

«الظعينة»: بفتح الظاء المعجمة المُشَالة: المرأَة وأَصله الهَوْدج الذي تكون فيه المرأَة.

«عَدَا»: بالعين المهملة: من العُدْوان.

«فأَبْطأَ»: بهمزة مفتوحة في أَوَّله وأُخرى في آخره.

«أُصِيب منكم» بالبناء للمفعول.

«أَوعبوا»: قال ابن السِّكِّيت: أَوْعَبَ بنو فلان جلاءً: لم يبق بدارهم منهم أَحد.

«تنَكَّب قَوْسَه»: أَلقاها على مَنْكِبِه.

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٨١٩/٢.

(٢) انظر اللسان ١٦٤٣/٣.

«انْتَضَى[١] في يده أَسْهُمَاً»: أَي سَلَّها من كِنَانته وتركها مُعَدَّة في يده وكذلك انْتَضَى سَيْفَه ونَضَاه سَلَّه.

«اختصر العَنَزَة»[٢] العَنَزَة بالتحريك: أَطول من العصا وأَقصر من الرُّمْح وفيه زُجٌّ كَزُجِّ الرُّمْح، واختصرها: حملها مضمومة إلى خاصرته.

«المعاطِس»[٣] جمع مَعْطِس بزِنَة مَجْلِس وهو الأَنف.

«وإِرغامها»: إِلصاقها بالرَّغَام وهو التراب كَنَّى بذلك عن الإِهانة والذُّلّ.

«التَّنَاضِبُ»: بمثناة فوقية مفتوحة فنون فأَلف فضاد معجمة مضمومة: هو اسم موضع ويُرْوَى بكسر الضاد جمع تَنْضُب وهو شجر واحدته تنضبة.

«الأَضَاة»: بفتح الهمزة والضاد المعجمة بوزن حَصَاة ومَنَاة الغدير يجتمع من ماء المطر يُمَد ويُقْصَر.

«غِفَار» بكسر الغين المعجمة وبالفاء وبالراء.

«سَرِف» بفتح السين والراء المهملتين وبالفاء: موضع بين مكة والمدينة.

«تَسَوَّر الحائط»: تَسَلَّقه.

«المَرْوَة»[٤]: الحجر الصلب.

«فعَثَر» بفتح المثلثة صَدَم رِجْلَه شيء.

«ذو طوى»[٥] بتثليث الطاء: بمكة قال النووي: يُصْرَف ولا يصْرَف.

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٩٢٩/٢.

(٢) انظر اللسان ٣١٢٨/٤.

(٣) المعطس: بزنة المجلس والمعطش بفتح الطاء. الأنف لأن العطاس منه يخرج، قال الأزهري: المعطس بكسر الطاء لا غير وهذا يدل على أن اللغة الجيدة بعطس بالكسر. اللسان ٢٩٩٥/٤.

(٤) انظر اللسان ٤١٨٨/٦.

(٥) انظر اللسان ٢٧٣٠/٤.

الباب الثاني

في سبب هِجْرَة النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة وكفايةُ الله تعالى رَسُولَه مَكْرَ المشركين حين أرادوا ما أرادوا

روى ابن إِسحاق وعبد الرَّزَّاق والإِمام أَحمد وابن جرير وابن المُنْذِر والطبراني عن ابن عباس، وعبد الرَّزَّاق وعَبْد بن حُمَيْد عن قَتَادة، والبيهقي عن ابن إِسحاق أَن قريشاً لما رأَت أَن رسول الله ﷺ قد كانت له شيعة وأَصحاب من غيرهم بغير بَلَدهم، وَرَأَوْا خروج أَصحابه من المهاجرين إِليهم، عَرَفوا أَنهم قد نزلوا داراً وأَصابوا جِواراً ومَنَعة، فحَذِروا خروجَ رسول الله ﷺ، وعَرَفوا أَنه قد أَجْمَع لحربهم، فاجتمعوا له في دار النَّدْوَة ـ وهي دار قُصَيّ بن كِلاب التي كانت قريش لا تقضي أَمراً إِلا فيها ـ يتشاورون فيها ما يصنعون في أَمر النبي ﷺ حين خافوه. فاجتمعوا لذلك واتَّعَدُوا، وكان ذلك اليوم يُسَمَّى يوم الزَّحْمَة فاعترضهم إِبليس لَعَنَه الله في هيئة شيخ جليل عليه بَتٌّ له، فوقف على باب الدار، فلما رَأَوْه واقفاً على بابها قالوا: مَنْ الشَّيخ؟ قال: شيخٌ مِن أَهل نَجْد سَمِع بالذي اتَّعَدْتُم له فحَضَر معكم ليسمع ما تقولون وعسى أَلا تَعْدَمُوا منه رأياً ولا نُصْحاً. قالوا: أَجَلْ فَادْخُل، فَدَخَل معهم، وقد اجتمع فيها أَشراف قريش: من بني عبد شمس: عُتْبَة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأَبو سفيان بن حرب ـ وأَسلم بعد ذلك ـ [ومن بني نَوْفَل بن عبد مناف]: طُعَيْمَة بن عَدِيّ، وجُبَيْر بن مُطْعِم ـ وأَسلم بعد ذلك ـ [والحرث بن عامر بن نوفل. ومن بني عبد الدار بن قُصَيّ]: النَّضْر بن الحرث بن كَلَدَة [ومن بني أَسَد بن عبد العُزَّى]: أَبو البَخْتَرِي بن هشام، وزَمْعَة بن الأَسود ـ وأَسلم بعد ذلك ـ وحكيم بن حِزام ـ وأَسلم بعد ذلك، [ومن بني مخزوم]: أَبو جَهْل بن هشام، [ومن بني سَهْم]: نُبَيْه ومُنَبِّه ابنا الحَجَّاج، ومن بني جُمَح: أُمَيَّة بن خَلَف، ومن كان معهم، وغَيْرُهم مِمَّنْ لا يُعَدّ من قريش.

فقال بعضهم لبعض: إِن هذا الرجل قد كان من أَمره ما قد رأَيتم، وإِنَّا والله ما نأْمنه على الوثوب علينا بمن قد اتبعه من غيرنا فأَجمعوا فيه رأْياً. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم ـ نقل السهيلي عن ابن سَلاَّم أَنه أَبو البَخْتَرِيّ بن هشام ـ احبسوه في الحديد وأَغْلِقوا عليه باباً، ثم تَرَبَّصوا به ما أَصاب أَشْباهَه من الشعراء الذين كانوا قبله: زُهَيْراً والنابغة ومَنْ مضى منهم من هذا الموت حتى يُصيبَه ما أَصابهم. فقال الشيخ النجدي ـ لعنه الله ـ: لا والله ما هذا لكم برأي، والله لو حبستموه كما تقولون لَيَخْرُجَنَّ أَمْرُه من وراء الباب الذي أَغلقتم دونه إِلى أَصحابه، فلأَوشكوا أَن يَثِبُوا عليكم فينتزعوه من أَيديكم، ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أَمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا في غيره.

فتشاوروا ثم قال قائل منهم ـ ذكر السهيلي أَنه أَبو الأَسود ربيعة بن عَمْرو أَحد[1] بني

---

(١) في أ: أخو.

عامر بن لؤي ـ نُخْرِجُه من بين أَظهرنا فننفيه من بلادنا، فإذا خرج عنا فوالله ما نُبَالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرَغْنَا منه فأَصلحنا أَمْرَنا وأُلْفَتَنا [كما كانت] فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، أَلَمْ تروا حُسْنَ حديثه وحلاوةَ مَنْطِقِه وغَلَبَتَه قلوب الرجال بما يأْتي به؟ والله لو فعلتم ذلك ما أَمِنْتُمْ أَن يَحُلَّ على حَيٍّ من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأَكم بهم في بلادكم، فيأخذ أَمركم من أَيديكم، ثم يفعل بكم ما أَراد، دَبِّروا فيه رأْياً غير هذا. فقال أَبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأْياً ما أُراكم وقعتم عليه بعد.

قالوا: وما هو يا أَبا الحَكَم؟ قال: أَرى أَن تأْخذوا من كل قبيلة فَتىً شابّاً جَلْداً نسيباً وسيطاً، ثم نعطي كل فتىً منهم سَيفاً صارماً، ثم يَعْمِدُوا إليه بأَجمعهم فيضربوه بها ضَرْبَةَ رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تَفَرَّق دَمُه في القبائل جميعاً، فلم يَقْدِر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعَقْل فعقلناه لهم. فقال الشيخ النجدي أَخزاه الله: القول ما قال الرجل، هذا الرأْي لا أَرى غَيْرَه.

وذكر ابن الكلبي أَن إبليس لما حمد رأْي أَبي جهل لعنه الله قال:

الـرَّأْيُ رَأْيَـانِ: رَأْيٌ لَـيْـسَ يَـعْـرِفُـهُ هَادٍ وَرَأْيٌ كَنَصْلِ السَّيْفِ مَعْرُوفُ
يَـكُـونُ أَوَّلُـهُ عِـزٌّ وَمَـكْـرُمَـةٌ يَـوْمـاً وَآخِـرُهُ جِـدٌّ وَتَـشْـرِيـفُ

وتَفَرَّق القومُ على ذلك وهم مُجْمِعون له. فأَتى جبريل رسولَ الله ﷺ فقال: لا تَبِتْ هذه الليلة على فِراشك الذي كنت تبيت عليه، وأخبره بمكر القوم وإِذْن الله تعالى له بالخروج. فلما كانت العَتَمة من الليل اجتمعوا على بابه يَرْصُدُونه متى ينام فيثبون عليه، فلما رأَى رسول الله ﷺ مكانهم قال لعلي بن أَبي طالب: «نَمْ على فِراشي وتَسَجَّ بِبُرْدِي هذا الحَضْرَمِيِّ الأَخضر فَنَمْ فيه فإنه لن يَخْلُصَ إليك شيءٌ تكرهه منهم»، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

فلما اجتمعوا قال أَبو جهل بن هشام: إن محمداً يَزْعَمُ أَنكم إن تابعتموه على أَمره كنتم ملوك العرب والعَجَم ثم بُعِثْتُم من بعد موتكم، فجعلت لكم جِنان كجِنان الأُردن وإن أَنتم لم تفعلوا كان فيكم ذَبْح، ثم بُعِثْتُم من بعد موتكم فجُعِلَتْ لكم نار تُحْرَقون فيها.

فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأَخذ حفنةً من تراب في يده ثم قال: «نعم أَنا أَقول ذلك وأَنت أَحَدُهم». وأَخذ الله عز وجل على أَبصارهم عنه فلا يَرَوْنَه فجعل يذري ذلك التراب على رؤُوسهم وهو يتلو هذه الآيات: ﴿يس وَالْقُرآنِ الحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ المُرْسَلِينَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ﴾[يس: ١ - ٩]. فلم يَبْقَ منهم رجل إلا وقد وضع رسول الله ﷺ على رأْسه تُراباً، ثم انصرف إلى حيث أَراد أَن يذهب.

فأتاهم آتٍ مِمَّنْ لم يكن معهم فقال: «ما تنتظرون ههنا»؟ قالوا: «محمداً». قال: «خَيَّبَكم الله، قد والله خرج عليكم محمد ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً وانطلق لحاجته، أَفَمَا تَرَوْنَ ما بكم»؟ قال: «فوضع كل رجل منهم يَدَهُ على رأسه فإذا عليه تراب»، ثم جعلوا يتطلعون فَيَرَوْنَ عَلِياً على الفِراش مُتَسَجِّياً ببرد رسول الله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً عليه بُرْدُه. فلم يزالوا كذلك حتى أصبحوا. فقام عَلِيٌّ رضي الله عنه من الفراش. فقالوا: «والله لقد صَدَقَنا الذي كان حَدَّثناه». وذهب رسول الله ﷺ إلى غار ثور.

وروى الحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «شَرَى عَلِيٌّ نَفْسَه ولَبِس ثَوْبَ النبي ﷺ ثم نام مكانه». وكان المشركون يرجون رسول الله ﷺ فجعلوا يرمون علِيّاً ويَرَوْنَه النبي ﷺ، وجعل عَلِيٌّ يتوضأُ فإذا هو عَلِيّ، فقالوا: إنك لَلَئِيم، إنك لتَتَضَوَّر[1] وكان صاحبك لا يَتَضَوَّر وقد استنكرناه منك.

وروى الحاكم عن علي بن الحسين رضي الله عنهما قال: إن أول من شَرَى نَفْسَه ابتغاء رِضْوان الله عَلِيٌّ، وقال في ذلك شِعْراً:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطِىءَ الحَصَى ... وَمَنْ طَافَ بالبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبالحِجْرِ
رَسُولَ إِلَـهٍ خَافَ أَنْ يَمْكُـرُوا بِـهِ ... فَنَجَّاهُ ذُو الطَّوْلِ الإِلَهُ مِنَ المَكْرِ
وَبَاتَ رَسُولُ اللهِ فِي الْغَارِ آمِناً ... مُوَقًّىً وَفِي حِفْظِ الإِلَـهِ وَفِي سَتْرِ
وَبِتُّ أُرَاعِيهِمْ وَمَا يَتَّهِمُونَنِي ... وَقَدْ وَطَّنْتُ نَفْسي عَلَى الْقَتْلِ وَالأَسْرِ

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ﴾ بالوَثَاق والحَبْس والإثخان بالجَرْح (أَوْ يَقْتُلُوكَ) بسيوفهم (أَوْ يُخْرِجُوكَ) - من مكة - (ويَمْكُرُونَ) - يحتالون في أمرك - (ويَمْكُرُ الله) - يجازيهم جزاء مَكْرِهم فسَمَّى الجزاء مَكْراً لأنه في مقابلته، والمعنى أنهم احتالوا في إبطال أَمْرِ محمد ﷺ والله تعالى مَنَعَهُ منهم وأَظْهَرَه وقَوَّاه ونَصَره فضاع فِعلُهم وظَهَر فِعلُ الله عز وجل - ﴿والله خَيْرُ المَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] - لأن مَكْرَه حَقٌّ، وإتيان هذا مما يَحْسُن للمزاوجة ولا يجوز إطلاقه ابتداءً لما فيه من إيهام الذَّمِّ، وهذه السورة مدنية، وهذه الواقعة كانت بمكة قبل أن يهاجروا إلى المدينة. وقد ذَكَّر الله تعالى النَبِيَّه محمداً ﷺ نِعْمَتَه عليه.

قال ابن إسحاق: وأنزل الله تعالى في ذلك ﴿فَذَكِّرْ﴾ - أي دُمْ على تذكير المشركين ولا ترجع عنهم لقولهم لك كاهن مجنون ﴿فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ﴾ - جزماً - ﴿ولا مَجْنُونٍ﴾ معطوف عليه - ﴿أَمْ﴾ - بل - ﴿يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ المَنُونِ﴾ - أي حوادث

---

(١) قال ابن الأثير: أي تتلوى وتضيعُ وتتقلَّبُ ظهراً لِبَطن. انظر النهاية ١٠٥/٣.

الدَّهْر فيهلك كغيره من الشعراء - ﴿قُلْ﴾ - لهم - ﴿تَرَبَّصُوا﴾ - هلاكي - ﴿فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾ [الطور: ٢٩، ٣١] - لهلاككم، فعُذِّبوا بالسيف يوم بدر، والتَّرَبُّص الانتظار.

تنبيهات

الأول: روى ابن جرير وابن المُنْذِر عن عُبَيْد بن عُمَيْر، وابن جرير من طريق آخر عن المطلب بن أَبي وداعة قال: لما ائتمروا بالنبي ﷺ ليُثْبِتُوه أَو يقتلوه أَو يُخْرِجوه قال عمه أَبو طالب: هل تدري ما ائتمروا بك؟ قال: يريدون أَن يسجنوني أَو يقتلوني أَو يُخْرِجوني. قال: مَنْ حَدَّثك بهذا؟ قال: رَبِّي. قال: نعم الرب ربك إلى آخره. قال في البداية: ذِكْرُ أَبي طالب فيه غريب بل مُنْكَر لأَن القصة قبل الهجرة وذلك بعد مَوْت أَبي طالب بثلاث سنين.

الثاني: قال السهيلي: إنما قال لهم إبليس إنه من أَهل نَجْد لأَنهم قالوا: لا يَدْخُلَنّ معكم في المشاورة أَحَدٌ من أَهل تِهَامَة لأَن هواهم مع النبي ﷺ، فلذلك تَمَثَّل لهم في صورة شيخ نجدي وقد تقدم في بنيان قريش الكعبة أَنه تمثل في صورة شيخ نجدي حين حَكَّموا رسول الله ﷺ في أَمر الركن مَنْ يرفعه، فصاح الشيخ النجدي: يا مَعْشَر قريش، أَقد رضيتم أَن يَلِيَه هذا الغُلاَم دون أَشرافكم وذوي أَسنانكم، فإن صَحَّ هذا الخبر فلمعنى آخر تمثل نجدياً وذلك أَن نَجْداً يطلع منها قَرْن الشيطان كما قال رسول الله ﷺ حين قيل له: وفي نَجْدِنا يا رسول الله؟ قال: هنالك الزلازل والفِتَن ومنها يطلع قرن الشيطان.

الثالث: المانع لهم من التَّقَحُّم تلك الليلة على عَلِيّ وهم يظنونه رسول الله ﷺ وأَنهم لم يزالوا قياماً حتى أَصبحوا أَن بعض أَهل السِّيَر ذكروا السبب المانع من ذلك مع قِصَر الجدار وأَنهم إنما جاؤوا لِقَتْلِه، فذُكِر في الخَبَر أَنهم هَمُّوا بالولوج عليه فصاحت امرأَةٌ من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها للسُّبَّة في العَرَب أَن يُتَحَدَّث عنّا أَنَّا تَسَوَّرنا الحيطان على بنات العَمّ وَهَتَكْنا سِتْرَ حُرْمَتنا [فهذا هو الذي أَقامهم بالباب حتى أَصبحوا ينتظرون خروجه ثم طمست أَبصارهم عنه حين خرج] وقال بعضهم: «الحكمة في كون الموضوع على رأْسهم تراباً دون غيره الإشارة لهم بأَنهم الأَرذلون الأَصغرون الذين أُرْغِمُوا وأُلْصِقوا بالرغام وهو التراب، وأَنه سيلصقهم بالتراب بعد هذا».

الرابع: روى ابن مَنْدَه وغيره عن مارية خادم النبي ﷺ أَنها طأطأت لرسول الله ﷺ حتى صَعِد حائطاً ليلة فَرَّ من المشركين، وما سبق في القصة من أَنه طلع على المشركين من الباب أَقوى سَنَداً منه، وحديث مارية فيه مجاهيل.

الخامس: في قراءته ﷺ الآيات من سورة يس من الفقه التذكرة بقراءة الخائفين لها اقتداءً به ﷺ، وورد في بعض الآثار: ما قرأَها خائف إلا أَمِن.

السادس: في بيان غريب ما سبق:

«مَنَعَة»: سبق بيانها.

«شيخ جليل»: يقال جَلَّ الرجل وجَلَّتْ المرأَة إِذا أَسَنَّا.

«عليه بَتٌّ»: البَتّ بفتح الموحدة وتشديد المثناة الفوقية: الكساء الغليظ المُرَبَّع وقيل الطيلسان من خَزّ.

«أَجَلْ»: بفتح الهمزة والجيم وإِسكان اللام مُخَفَّفة بمعنى نعَم.

«أَجمِعُوا فيه رأْياً» بفتح الهمزة وكسر الميم: يقال أَجمعت الأَمْرَ وعلى الأَمْرِ إِذا عزمت عليه.

«أَوْشَكوا»(١): بفتح الهمزة والشين المعجمة: أَي أَسرعوا.

«أَظْهَرْنا»: بيَّنَّا.

«أُلْفَتنا» بضم الهمزة.

«أَن يَحُلّ»: بفتح أَوله وضَمّ الحاء المهملة أَي يَنْزِل.

«جَلِداً»: بفتح الجيم وكسر اللام: أَي قوياً.

«وَسِطاً»: بفتح الواو وكسر السين والطاء المهملتين: أَي حسيباً في قومه.

«صارماً»: قاطعاً.

«نَعْمِد» بكسر الميم في المستقبل وفتحها في الماضي.

«العَقْل» كعَقْل الإِنسان: الدِّيَة.

«عَتَمَةُ اللَّيْل»: بفتح العين والمثناة الفوقية وقت صلاة العِشَاء، وقيل ثلث الليل الأَول من الليل بعد غيبوبة الشَّفَق، وعَتَمة الليل ظلامه.

«الحَضْرَمِي»: منسوب إِلى حَضْرَمَوْت.

«تَابَعْتمُوهُ»: بمثناة فوقية وموحدة من المُتَابَعة.

«بُعِثتم» بالبناء للمفعول.

«الجِنان» جمع جَنَّة: البُسْتَان.

«الأُرْدُنّ»: بهمزة مضمومة فراء ساكنة فدال مهملة فنون مُشَدَّدَة: الكورة المعروفة من أَرض الشام بقرب بيت المقدس.

«حَفْنة»(٢): بفتح الحاء المهملة وسكون الفاء هي ملء الكف والشيء المحصول حُفْنَة بالضم ويجوز الفتح، والمَرَّة بالفتح ليس غير.

«صَدَقَنا»: بفتح الدال المُخَفَّفَة: أَي حَدَّثَنا حديث صِدْق.

---

(١) وشك بضم الشين يوشك وشكاً ووشاكةً ووشكاناً أسرع وأوشك هو بمعنى وشك ويستعمل فعل مقاربة ويكون بمعنى: يقرب ويدنو أيضاً. الوسيط ١٠٣٥/٢.

(٢) الحفن بفتح الحاء: أجزلوا الشيء براحة كفك والأصابع مضمومة وفي حديث الشفاعة: إنما نجد حفنة من حفنات الله. اللسان ٩٣٤/٢.

الباب الثالث
في قَدْر إقامة النَّبيّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم بمكة بعد البعثة ورؤياه الأرض التي يهاجر إليها

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: مكَث رسول الله ﷺ بمكة ثلاث عشرة سنة، والرواية عن ابن عباس في ذلك مختلفة، وسيأتي تحريرها في الوفاة النبوية إن شاءَ الله تعالى وعن أَبي موسى الأَشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَأَيتُ في المنام أَنّي أُهاجِر من مكة إلى أَرْضٍ بها نَخْلٌ فذهب وَهْلي إلى أَنها اليمامة أو هَجَر فإذا هي المدينة يَثْرِب»، رواه الشيخان[١] وعن صُهَيْب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: أُرِيتُ دارَ هجرتكم سبخة بين ظَهْرَانَيْ حَرَّتَيْن فإما أَن تكون هَجَراً أو يَثْرِب»، رواه الترمذي والحاكم والطبراني[٢].

وروى الإمام أَحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عبد الله بن عدي بن الحمراء[٣] رضي الله عنه، والإمام أَحمد والنسائي عن أَبي هريرة، قال الحافظ: وذِكْرُه وَهْم وإنما هو عبد الله بن عَدِي، والحاكم وابن جميع عن ابن عباس أَن رسول الله ﷺ وقَفَ على الحَزْوَرَة فقال: «والله إنك لَخَيْرُ أَرْضِ الله، وأَحَبُّ أَرْضٍ إِلَيّ ولولا أَن أَهلك أَخرجوني منك ما خرجت منك»[٤].

تنبيهات

الأَول: قال ابن التين: أُرِي النبي ﷺ أَولاً دار هجرته بصفة تجمع المدينة وغيرَها، ثم أُرِيَ الصفة المختصة بالمدينة فتَعَيَّنَتْ.

الثاني: حديث أَبي هريرة مرفوعاً: «اللهم إنك أَخرجتني من أَحب البقاع إِلَيّ فأَسْكِنّي في أَحَبّ البقاع إليك»[٥]، رواه الحاكم، وقال الذهبي: إنه موضوع، وقال ابن عبد البَرّ: لا

---

(١) أخرجه البخاري ٢٤٧/٤ ومسلم في كتاب الرؤيا (٢٠) وابن ماجه (٣٩٢١).

(٢) أخرجه الحاكم ٤٠٠/٣ والطبراني في الكبير ٣٧/٨ والبيهقي في الدلائل ٥٢٢/٢.

(٣) عَبد اللّه بن عدي بن الحمراء القرشي الزُّهري ويُقال إنَّه عقبي حالف بني زُهرة. قال البُخاري: لهُ صُحبة يكنى أبا عمر وأبا عمرو وكان ينزل قديداً وهو من مسلمة الفتح روى عن النبي ﷺ في مكة روى عنه أبو سلمة ومحمد بن جبير بن مطعم وقال البغوي: سكن المدينة. الإصابة ١٠٥/٤.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥) وابن ماجه (٣١٠٨) والحاكم ٧/٣ وأحمد في المسند ٣٠٥/٤ والدارمي ٢٣٩/٢ وابن عبد البر في التمهيد ٢٨٨/٢.

(٥) ذكره العجلوني في كشف الخفا ٢١٣/١ وعزاه للحاكم في المستدرك وابن سعد في شرف المصطفى عن أبي هريرة مرفوعاً، قال: قال الحاكم: ومسنده مدنيون في بيت أبي سعيد المقبري انتهى، وفي سنده عبد اللّه بن أبي سعيد المقبري ضعيف جداً، قال ابن عبد البر: لا يختلف أهل العلم في نكارته ووضعه، وقال ابن حزم: هو حديث لا يسند، وإنما هو مرسل من جهة محمد بن الحسن بن زبالة وهو هالك.

يختلف أَهل العلم أَنه مُنْكَر موضوع.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«وَهَلي»: بفتح أوله وثانيه: أَي ظَنّي، يقال: وَهَل يَهِل وَهْلاً بالسكون إِذا ظَنَّ شيئاً فتبينَّ الأَمر خلافه.

«اليَمَامة»: مدينة على يومين من الطائف وأَربعة من مكة.

«هَجَر»: بفتح أَوله وثانيه وهي هنا مدينة باليمن، وهي قاعدة البحرين وهي من مساكن عبد القيس، وقد سبقوا غيرهم من القُرى إِلى الإِسلام، يُذَكَّر ويُؤَنَّث، قال الجوهري: مُذَكَّر مصروف.

«أَرْضٌ سَبِخة»: بفتح السين المهملة وكسر الموحدة وتُسَكَّن وتُفْتَح، أَي مالحة.

«ظَهْرَانَيْ حَرَّتَيْن»: أَي بينهما والحَرَّتَان: تثنية حَرَّة وهي أَرض ذات حجارة سود.

«الحَزْوَرَة»: بحاء مفتوحة فزاي ساكنة فواو فراء، سوق كانت بمكة أُدْخِلَتْ في المسجد.

الباب الرابع

في هِجْرة رسول الله صلى الله عليه وسلم بنفسه الكريمة وما وقع في ذلك من الآيات

قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ واجْعَل لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾[الإسراء ٨٠]. روى الإمام أحمد والترمذي والحاكم والضياء وصَحَّحُوه عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فأُمِر بالهجرة من مكة وأُنْزِل عليه ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء ٨٠] الهجرة إلى المدينة ﴿واجْعَلْ لي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾: كتاب الله عز وجل، وفرائضه وحدوده. وروى الحاكم وصَحَّحَه عن قتادة في الآية قال: ﴿أَدْخِلْني مُدْخَل صدق﴾ يعني المدينة ﴿وأَخْرِجْني مُخْرَجَ صدق﴾ يعني مكة. وروى الزبير بن بَكَّار عن زيد بن أَسْلَم في الآية قال: جعل الله تعالى مُدْخَلَ صِدْق المدينة ومُخْرَجَ صِدْق مكة، وسلطاناً نصيراً الأَنصار.

قال ابن سعد: «إن رسول الله ﷺ لما خرج من بيته أَتى بيت أَبي بكر بمكة فكان فيه إلى الليل، ثم خرج هو وأَبو بكر فمضيا إلى غار ثور فدخلاه». وروى موسى بن عُقْبَة وابن إسحاق والإمام أَحمد والبخاري وابن حِبَّان عن عائشة رضي الله عنها، وابن إسحاق والطبراني عن أُختها أَسماء رضي الله عنها أَن أَبا بكر رضي الله عنه استأْذن رسول الله ﷺ في الخروج قِبَل المدينة، فقال له رسول الله ﷺ: «على رِسْلِك فإني أَرجو أَن يُؤْذَن لي». فقال أَبو بكر: وهل ترجو ذلك بأَبي وأمي أَنت؟ قال: «نعم». فحبس أَبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ لِيَصْحَبَهُ وَعَلَفَ راحلتين كانتا عنده وَرَقَ السَّمُر[١]، وهو الخَبَط[٢] أَربعة أَشهر.

[قال ابن شِهاب: أَخبرني عُرْوَة بن الزبير أَن عائشة رضي الله عنها قالت:] «لم يمر علينا يوم إلا يأْتينا فيه رسول الله ﷺ طَرَفَيْ النهار بُكْرَةً وعَشِيَّةً». قالت: «فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيت أَبي بكر في نَحْر الظهيرة[٣] قال قائل لأَبي بكر: هذا رسول الله ﷺ مُتَقَنِّعاً في ساعة لم يكن يأْتينا فيها». فقال أَبو بكر: «فِدَاءٌ له أَبي وأُمي، والله ما جاء به في هذه الساعة إلا أَمْرٌ». قالت: «فجاء رسول الله ﷺ فاستأْذن فأُذِن له فدخل، فَتَأَخَّر له أَبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ». فقال أَبو بكر: «يا رسول الله ما جاء بك إلا أَمْرٌ حدث». فقال رسول الله ﷺ

(١) السَّمُر: هو ضرب من شجر الطلح الواحدة سَمُرة، انتظر النهاية لابن الأثير ٣٩٩/٢.

(٢) الخبط، ضرب الشجر بالعصا ليتناثر ورقها، واسم الورق الساقط خَبَط بالتحريك، فعل بمعنى مفعول، وهو من علف الإبل. انظر النهاية لابن الأثير ٧/٢.

(٣) نحر الظهيرة: هو حين تبلغ الشمس منتهاها من الارتفاع، كأنها وصلت إلى النحر، وهو أعلى الصدر. انظر النهاية لابن الأثير ٢٧/٥.

لأبي بكر: «أَخْرِج مَنْ عندك». فقال أبو بكر: لا عَيْنَ عليك إنما هما ابنَتَاي، وفي لفظ: أَهْلُك. قال: «إن الله قد أَذِن لي في الخروج والهجرة». فقال أبو بكر: «الصحْبَة يا رسول الله». قال: «نعم». قالت عائشة: «فوالله ما أَن أَحداً يبكي من الفَرَح حتى رأَيت أَبا بكر يبكي يومئذٍ».

قال أَبو بكر: «يا رسول الله خُذْ إِحدى راحِلَتَيَّ هاتَيْن». فقال رسول الله ﷺ: «بالثَّمَن، لا أَركب بعيراً ليس هو لي». قال: فهو لك. قال: «لا ولكن بالثمن الذي ابْتَعْتَها به». قال «أَخذتُها بكذا وكذا». قال «أَخذتُها بذلك». قال: هي لك. وعند البخاري في غزوة الرجيع أَنها الجَدْعَاء، وأَفاد الواقدي أَن الثمن ثمانمائة. واستأْجر رسول الله ﷺ وأَبو بكر رجلاً من بني الدِّيل وهو من بني عَبْد بن عَدِيّ هادياً خِرِّيتاً - والخِرِّيت الماهر بالهداية - قد غَمَس حِلْفاً في آل العاص بن وائل السَّهْمِي وهو على دين كُفَّار قريش - وأَسلم بعد ذلك - فأَمِناه فدفعا إِليه راحلتيهما وواعداه غارَ ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث.

قالت عائشة: فَجَهَّزناهما أَحَثَّ الجِهَاز وصنعنا لهما سُفْرَة في جِراب. وأَفاد الواقدي أَنه كان في السُّفْرَة شاة مطبوخة. قالت عائشة: فشَقَّتْ أَسماء بنت أَبي بكر قِطْعَةً من نطاقِها - وفي لفظ قطعت نِطَاقَها قطعتَيْن فأَوْكَت بقطعة منه الجِراب وشَدَّت فم القِرْبَة بالباقي فسُمِّيَتْ ذات النطاق وفي لفظ النِّطَاقَيْن. وعند البلاذُري أَن رسول الله ﷺ قال: «إِن لها نِطاقَيْن في الجَنَّة»[1] فسميت ذات النطاقين.

قال ابن إِسحاق: وأَعْلَمَ رسولُ الله ﷺ عَلِياً بخروجه وأَمره أَن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عنه الودائع التي كانت عنده للناس وكان رسول الله ﷺ ليس بمكة أَحد عنده شيء يخشى عليه إِلا وضعه عنده لما يعلم من صدقه وأَمانته». قالت عائشة: «ولحق رسول الله ﷺ بغارٍ في جبل ثَوْر». وفي حديث عُمَر عند البيهقي أَنهما خرجا ليلاً. وذكر ابن إِسحاق والواقدي أَنهما خرجا من خَوْخة في ظَهر بيت أَبي بكر. وروى أَبو نُعَيم عن عائشة بنت قُدَامة أَن النبي ﷺ قال: «لقد خرجت من الخَوْخَة متنكراً فكان أَول من لقيني أَبو جهل فأَعْمَى الله عز وجل بَصَرَه عَنِّي وعن أَبي بكر حتى مَضَيْنَا». قالت أَسماء: «وخرج أَبو بكر بماله خمسة آلاف دِرْهَم». قال البَلاذُري: «وكان مال أَبي بكر يوم أَسلم أَربعين أَلف درهم، فخرج إِلى المدينة للهجرة وماله خمسة آلاف أَو أَربعة، فبعث ابْنَه عبد الله فحملها إِلى الغار». قالت: «فدَخَل علينا جَدِّي أَبو قُحَافة وقد ذهب بَصَرُه فقال: «والله إِني لأَراه قد فَجَعَكُم بماله مع نفسه». قالت: «قلت: كَلاَّ يا أَبَت إِنه قد ترك لنا خيراً كثيراً». قالت: «فَأَخَذْتُ أَحجاراً فَوَضَعْتُها في كُوَّة في البيت، كان أَبي يضع ماله فيها، ثم وضعتُ عليها ثوباً، ثم أَخذت بيده

---

(١) أخرجه البخاري ٦/١٥٠ (٢٩٧٩).

فقلتُ: يا أَبت ضَعْ يَدَكَ على هذا المال. قالت: فوضع يَدَه عليه. فقال: لا بأْس إِن كان ترك لكم هذا فقد أَحْسَنَ، وفي هذا بَلاَغٌ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً ولكن أَردت أَن أُسَكِّن الشيخ بذلك».

وفي حديث عند البيهقي أَن أَبا بكر رضي الله عنه لما خرج هو ورسول الله ﷺ إلى الغار، جعل أَبو بكر يمشي مَرَّةً أمام النبي ﷺ، ومرةً خَلْفَه ومرةً عن يمينه ومرةً عن شِمَاله، فسأَله رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «يا رسول الله أَذْكُرُ الرَّصَدَ فأَكون أَمَامَك وَأَذْكُرُ الطَّلَبَ فأَكون خَلْفَكَ، ومرةً عن يمينك ومرةً عن يسارك لآمن عليك، فلما انتهينا إلى فم الغار قال أَبو بكر: والذي بعثك بالحق لا تَدْخُلْهُ حتى أَدخلَه قبلك، فإِن كان فيه شيء نزل بي قبلك». فدخله فجعل يلتمس بيده، فجعل كلما دَخَل جُحْراً قام إلى ثوبه فشَقَّهُ ثم أَلْقَمَه الجُحْر حتى فعل ذلك بثوبه أَجمع: فبقي جُحْر» فوضع عَقِبَيه عليه، ثم دَخَل رسول الله ﷺ فَجَعَلَتْ الْحَيَّات يَلْسَعْنَ أَبا بكر رضي الله عنه وجعلت دموعه تنحدر.

وروى ابن أَبي شيبة وابن المنذر عن أَبي بكر أَنهما لما انتهيا إلى الغار إذا جُحْر فأَلقمه أَبو بكر رجليه. قال: «يا رسول الله إن كان لَدْغَة أَو لسعة كانت بي». وروى ابن مَرْدَوِيه عن جُنْدَب بن سُفْيَان قال: «لما انطلق أَبو بكر مع رسول الله ﷺ إلى الغار قال أَبو بكر: يا رسول الله لا تدخل الغار حتى أَسْتَبْرِئَه. فدخل أَبو بكر الغار فأَصاب يَدَه شيءٌ فجعل يمسح الدم عن إصبعِه ويقول

هَـلْ أَنْـتِ إلاَّ إِصْبَـعٌ دَمِـيـتِ وَفـي سَـبِـيـلِ الـلـهِ مَـا لَـقِـيـتِ

وفي حديث أَنَس عند أَبي نُعَيْم أَن رسول الله ﷺ لما أَصبح قال لأَبي بكر «أَيْنَ ثَوْبُك»؟ فأَخبره بالذي صنع فرفع رسول الله ﷺ يَدَيْه فقال: «اللهم اجْعَلْ أَبا بكر معي في دَرَجَتِي في الجنة». فأَوحى الله إليه: «قد استجاب الله تعالى لك»[1]. وروى ابن سعد وأَبو نُعَيْم والبيهقي وابن عساكر عن أَبي مُصْعَب المكي قال: «أَدركتُ أَنس بن مالك، وزيد بن أَرْقَم، والمُغِيرة بن شُعْبَة يتحدثون أَن النبي ﷺ ليلةَ الغار أَمَرَ شجرة - وفي رواية عند قاسم بن ثابت: أَنبت الله شجرة الرَّاءة، فنبتت في وجه رسول الله ﷺ، فسترته، وبعث الله العنكبوت فنَسَجَتْ ما بينهما فسترت وجه رسول الله ﷺ، وأَمر الله حمامتين وحشيتين فوقفتا في فَمِ الغار، وأَقبل فتيان قريش من كل بطن بِعِصِيِّهم وهَراويهم وسيوفهم، حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على أَربعين ذراعاً، جعل بعضهم ينظر في الغار فلم يَرَ إلا حمامتين وحشيتين بفَم الغار، فرجع إلى أَصحابه، فقالوا له: ما لك؟ قال: رأَيتُ حمامتين وحشيتين فعرفتُ أَنه ليس فيه

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣٣/١ وذكره السيوطي في الجامع الكبير (٩٣٣٨).

أَحد، فسمع النبي ﷺ ما قال، فعرف أَن الله قد درأَ عنه بهما فبارك عليهما النبي ﷺ وفرض جزاءهن وانحدرتا في الحَرَم فَأَفْرَخَ ذلك الزوج كل شيء في الحَرَم. وروى الإمام أَحمد بِسَنَدَ حَسَن عن ابن عباس رضي الله عنهما، أَن المشركين قَصُّوا أَثر رسول الله ﷺ، فلما بلغوا الجَبَل اختلط عليهم، فصعدوا الجَبَل فمرُّوا بالغار فرَأَوْا على بابه نسيج العنكبوت، فمكث فيه ثلاثة أَيام.

وروى الحافظ أَبو بكر أَحمد بن سعيد[١] القاضي شيخ النسائي في مسند الصديق عن الحسن البصري قال: «جاءت قريش يطلبون النبي ﷺ، وكانوا إِذا رَأَوْا على باب الغار نَسْجَ العنكبوت قالوا: لم يدخله أَحد. وكان النبي ﷺ قائماً يصلي وأَبو بكر يرتقب. فقال أَبو بكر: يا رسول الله هؤلاء قومك يطلبونك، أَمَا والله ما على نفسي أَبكي ولكن مخافة أَن أَرى فيك ما أَكره. فقال له النبي ﷺ: «لا تخف إِن الله معنا» وروى الإمام أَحمد والشيخان عن أَبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «قلت للنبي ﷺ ونحن في الغار: لو أَن أَحدهم نَظَرَ إِلى قدمه لأَبصرنا تحت قدميه» فقال: «ما ظَنُّك باثنَيْن الله ثالثهما»[٢]. وروى أَبو نعيم في الحِلْيَة عن عطاء بن ميسرة قال: «نَسَجَتْ العنكبوت مَرَّتَيْن مرة على داود حين كان طالوت يطلبه ومرة على النبي ﷺ في الغار».

وذكر البلاذري في تاريخه وأَبو سعيد في الشرف أَن المشركين استأجروا رجلاً يقال له عَلْقمة بن كُرز بن هلال الخزاعي ـ وأَسلم عام الفتح ـ فقفا لهم الأَثر حتى انتهى إِلى غار ثور[٣] وهو بأَسفل مكة فقال: ههنا انقطع أَثره ولا أَدري أَخذ يميناً أَم شِمالاً أَم صعد الجبل. فلما انتهوا إِلى فمِ الغار قال أُمية بن خَلَف: ما أَرَبُكُم في الغار؟ إِن عليه لعنكبوتاً كان قبل ميلاد محمد. ثم جاء فبال.

وروى البيهقي عن عروة أَن المشركين لما فقدوا رسول الله ﷺ رَكِبُوا في كل وجه يطلبونه وبعثوا إِلى أَهل المياه يأمرونهم به ويجعلون لهم الجُعْل العظيم وأَتوا على ثور الجبل الذي فيه الغار الذي فيه النبي ﷺ حتى طلعوا فوقه، وسمع رسول الله ﷺ وأَبو بكر أَصواتهم، فأَشفق أَبو بكر وبكى وأَقبل عليه الهَمّ والحزن والخوف، فعند ذلك يقول رسول الله ﷺ ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ [التوبة ـ ٤٠] ودعا رسول الله ﷺ فنزلت السكينة من الله

(١) أحمد بن سعد بن الحكم بن محمد بن سالم الجمحي أبو جعفر بن أبي مريم المصري الحافظ عن أبيه وأبي اليمان وحبيب كاتب مالك وسأل ابن معين عن الرجال. وعنه وقال: لا بأس به. قال ابن يونس: توفي يوم عرفة سنة ثلاث وخمسين ومائتين. الخلاصة ١/١٤.

(٢) أخرجه البخاري ٥/٤ ومسلم في فضائل الصحابة (١) وأحمد في المسند ١/٤.

(٣) انظر. مراصد الاطلاع ١/٣٠٢.

تعالى. وروى ابن أَبي حاتم وأَبوالشيخ وابن مردويه والبيهقي وابن عساكر عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ﴾، قال: على أَبي بكر لأَن النبي ﷺ لم تزل السكينةُ معه[1][التوبة ـ ٤٠].

وروى أَبو نعيم عن أَسماء بنت أَبي بكر رضي الله عنهما أَن أَبا بكرٍ رأَى رجلاً مواجهاً الغار فقال: «يا رسول الله إِنه يرانا». «قال: كلا إِن الملائكة تستره الآن بأَجنحتها». فلم ينشَب أَن قعَد يبول مستقبلنا، فقال رسول الله ﷺ: «يا أَبا بكر لو كان يراك ما فَعَل هذا».

ويرحم الله الشَّرَف البوصيري حيث قال:

وَيْحَ قَوْمٍ جَفَوْا نَبِيّاً بِأَرْضٍ ... أَلِفَتْهُ ضِبَابُهَا والظِّبَاءُ
وَسَلَوْهُ وَحَنَّ جِذْعٌ إِلَيْهِ ... وَقَلَوْهُ وَوَدَّهُ الغُرَبَاءُ
أَخْرَجُوهُ مِنْهَا وَآوَاهُ غَارٌ ... وحَمَتْهُ حَمَامَةٌ وَرْقَاءُ
وَكَفَتْهُ بِنَسْجِهَا عَنْكَبُوتٌ ... مَا كَفَتْهُ الحَمَامَةُ الحَصْدَاءُ

وحيث قال:

أَقْسَمْتُ بالقَمَرِ المُنْشَقِّ أَنَّ لَهُ ... مِنْ قَلْبِهِ نِسْبَةً مَبْرُورَةَ القَسَمِ
وَمَا حَوَى الغَارُ مِنْ خَيْرٍ وَمِنْ كَرَمٍ ... وَكُلُّ طَرْفٍ مِنَ الكُفَّارِ عَنْهُ عَمِ
فالصِّدْقُ في الغَارِ والصِّدِّيقُ لَمْ يَرِدَا ... وَهُمْ يَقُولُونَ مَا بالغَارِ مِنْ أَرِمِ
ظَنُّوا الحَمَامَ وظَنُّوا العَنْكَبُوتَ عَلَى ... خَيْرِ البَرِيَّةِ لَمْ تَنْسِجْ وَلَمْ تَحُمِ
وِقَايَةُ اللهِ أَغْنَتْ عَنْ مُضَاعَفَةٍ ... مِنَ الدُّرُوعِ وَعَنْ عَالٍ مِنَ الأُطُمِ

لطيفة: سئل بعضهم عن الحكمة في اختفائه ﷺ في غار ثَوْر دون غيره فأُجيب بأَنه ﷺ كان يحب الفَأْلَ الحَسَن، وقد قيل إِن الأَرض مستقرةٌ على قرن الثَّوْر فناسب استقراره ﷺ في غار ثَوْر تفاؤلاً بالطُمَأْنِينَة والاستقرار فيما يقصده هو ورفيقه.

وروى ابن عَدِيّ وابن عساكر عن أَنس أَن رسول الله ﷺ قال لحَسَّان: «هل قلت في أَبي بكر شيئاً»؟ قال: نعم. قال: «قُلْ وأَنا أَسمع»، فقال:

وَالثَّانِيَ اثْنَيْنِ فِي الْغَارِ المُنِيفِ وَقَدْ ... طَافَ العَدُوُّ بِهِ إِذْ صَعَّدَ الجَبَلاَ
وَكَانَ حِبَّ رَسُولِ اللهِ قَدْ عَلِمُوا ... مِنَ البَرِيَّةِ لَمْ يَعْدِلْ بِهِ رَجُلاَ

فضَحِك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ثم قال: «صَدقْتَ يا حَسَّان هو كما قلت[2].

---

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٦٢٨١).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٧٧/٣ وابن سعد في الطبقات ١٢٣/١/٣ والطبراني ١٥٦/٨.

قالت عائشة رضي الله عنها: «فكَمَنا في الغار ثلاث ليال وكان عبد الله بن أَبي بكر يبيت عندهما، وهو غلام ثَقِفٌ[١] لَقِن، فيُدْلِج من عندهما بسَحَر فيصبح مع قريش [بمكة كبائت]، فلا يَسْمَع بأَمْرٍ يُكَادان به إلا وعاه حتى يأْتيهما بخَبَر ذلك حين يختلط الظلام. وعند ابن إسحاق أَن أَسماء بنت أَبي بكر كانت تأتيهما إذا أَمست بما يُصْلِحُهما من الطعام. وكان عامر بن فُهَيْرة يَرْعَى غَنَماً لأَبي بكر في رُعْيَان أَهل مكة فإذا أَمْسَى يُرِيحُهما عليهما حين تذهب ساعة من العِشاء، فَيَبِيتان في رِسْل وهو لَبَن مِنْحَتِهما ورَضِيفهما[٢] [حتى يَنْعَق بها عامر بن فُهَيْرَة بِغَلَس]، يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث.

فلما مضت الثلاث وسَكَنَ عنهما الناس أَتاهما صاحبهما الذي استأْجراه فَرَكِبا وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل الدِّيلي. وأَردف أَبو بكر عامر بن فهيرة مولاه ليخدمهما في الطريق ـ وعند البخاري في غزوة الرَّجِيع كان عامر بن فُهَيْرَة غلاماً لعبد الله بن الطُّفَيْل بن سَخْبَرَة أَخو عائشة لأُمها ـ وأَخذ بهما الدليل طريق الساحل أَسفل من عُسْفَان[٣] ثم أَجاز بهما حتى عادا من الطريق على أَمَج.

وروى أَبو نُعَيْم من طريق إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق قال: «بلغني أَن رسول الله ﷺ لما خَرَج مُهاجِراً قال: «الحمد لله الذي خلقني ولم أَكُ شيئاً، اللهم أَعِنِّي على هَوْل الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأَيام، اللهم اصْحبني في سَفَري واخْلُفْنِي في أَهلي وبارِكْ لي فيما رزَقْتَنِي، ولك فَذَلِّلني، وعلى صالح خَلْقِي فقَوِّمْني، وإلى رَبِّي فَحَبِّبْنِي، وإلى الناس فلا تَكِلْنِي، أَنت رَبُّ المُسْتَضْعَفِين وأَنت رَبِّي، أَعُوذُ بِوَجْهِكَ الكريم الذي أَشْرَقَتْ له السموات والأَرض فكشفت به الظُلُمات وصَلُح عليه أَمْرُ الأَولين والآخرين، أَن يَحِلَّ بي غَضَبُك أَو يَنْزِلَ عَلَيَّ سُخْطُك، أَعوذ بك من زوال نعْمَتِك وفُجَاءةِ نِقْمَتِك وتَحَوّلِ عَاقِبَتِك وجميع سُخْطِك، لَكَ العُتْبى خير ما استطعت، ولا حَوْلَ ولا قوَّةَ إلا بك»[٤].

وروى الإمام أَحمد والشيخان ويعقوب بن سفيان عن البَرَاء بن عازِب رضي الله عنه أَن أَباه قال لأَبي بكر رضي الله عنه: كيف صَنَعْتُما ليلة سَرَيْتَ مع رسول الله ﷺ؟ قال: خرجنا

---

(١) ثقف: أي ذو فطنة وذكاء. ورجل ثَقِفٌ، وثَقُفٌ، وثقف والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه. انظر النهاية ٢١٦/١.

(٢) الرضيف: اللبن المرضوف، وهو الذي طرح فيه الحجارة المحماة ليذهب وخمه. انظر النهاية ٢٣١/٢.

(٣) عسفان بضم أوله، وسكون ثانيه، ثم فاء، وآخره نون. قيل: منهلة من مناهل الطريق. بين الجحفة ومكة. وقيل: عسفان بين المسجدين، وهي من مكة على مرحلتين. وقيل: هو قرية جامعة على ستة وثلاثين ميلاً من مكة، وهي حدُّ تهامة. وبين عسفان إلى ملل موضع يقال له الساحل. مراصد الاطلاع ٩٤٠/٢.

(٤) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (٩٢٣٤) وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٧٦١٥) وابن كثير في البداية والنهاية ١٧٨/٣.

فأَدْلَجْنَا فأَحْيَيْنا يَوْمَنا وليلتنا حتى أَظهرنا وقام قائم الظهيرة فضربت ببصري هل أرى ظِلاً نأوي إِليه فإِذا أنا بِصَخْرةٍ فَأَهْوَيْتُ إِليها فإِذا بَقِيَّةُ ظِلِّها فَسَوَّيْتُه لرسول الله ﷺ وفرشت له فَرْوَة ثم قلت: اضطجع يا رسول الله وأَنا أَنْفُض لك ما حولك، ثم خرجتُ هل أرى أَحداً من الطَّلَب فإِذا براعٍ مُقْبِل بغنمه يريد من الصخرة ما أردنا: فَلَقِيتُه فقلت له: لمن أَنت يا غلام؟ فقال: لرجل من أَهل مكة، فسَمَّاه فعرفته فقلت: هل في غَنَمك من لبن؟ قال: نعم. قلتُ: هل أَنت حَالِبٌ لي؟ قال: نعم. فأَمرته فاعتقل شاة منها. فقلت: انفض الضرع من التراب والقَذَى، فحلب لي في قَعْبٍ معه كُثْبَةً من لبن ومعه إِداوة أَرتوى فيها للنبي ﷺ يشرب منها وَيَتَوَضَّأُ، على فمها خِرْقة، فَأَتَيْتُ النبيَّ ﷺ، وكَرِهْتُ أَن أُوقظه من نومه، فوقفت حتى استيقظ، فَصَبَبْتُ على اللبن من الماء حتى بَرَدَ أَسْفَلُه، فقلت: يا رسول الله اشرب من هذا اللبن. فشَرِب حتى رَضِيت. ثم قال: «أَلَم يأن الرحيل؟» قلت: بلى. قال: فارتحلنا بعد ما زالت الشمس[1].

قِصَّة أُم مَعْبَد رضي الله عنها

روى الطبراني والحاكم وصحَّحه، وأَبو نُعَيْم وأَبو بكر الشافعي عن حُبَيْش بن خالد الأَشْعر الخُزَاعي القُدَيْدِي[2]، أَخي أم مَعْبَد رضي الله عنهما، وأَبو بكر الشافعي عن أَبي سَلِيط - بفتح السين المهملة وكسر اللام فمُثَنَّاة تحتية فطاء مهملة - واسمه أُسَيْرَة - بضم أوله وفتح ثانيه وسكون المُثَنَّاة التحتية - ابن عَمْرو الأَنصاري رضي الله عنه، وابن سعد والبيهقي عن أَبي مَعْبَد، وابن السَّكَن عن أُم مَعْبَد رضي الله عنها، والبَزَّار أَن رسول الله ﷺ حين خرج من مكة مهاجراً إِلى المدينة هو وأَبو بكر، ومولى أَبي بكر عامر بن فُهَيْرَة ودليلهم الليثي عبد الله بن الأُرَيْقِط، مَرُّوا على خَيْمَة أُم مَعْبَد الخُزَاعية، وهي لا تعرفه، وكانت بَرْزَةً جلدة تحتبي بِفِنَاء القُبَّة ثم تَسْقِي وتُطْعِم فسأَلوها لَحماً وتَمْراً ليشتروه منها، فلم يُصيبوا عندها شيئاً من ذلك، وإِذا القَوْمُ مُرْمِلُون مُسْنِتُون. فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أَعوزناكم. فنظر رسول الله ﷺ إِلى شاةٍ في كِسْر الخَيْمَة - وفي لفظ في كِفَاء البيت - فقال: «ما هذه الشاة يا أم مَعْبَد»؟ قالت: شاة خَلَّفَها الجَهْد عن الغَنَم. قال: «هل بها من لبن»؟ قالت: هي أَجْهَد من ذلك. قال: «أَتأْذنين لي أَن أَحْلُبها»؟ قالت: بأَبي أَنت وأَمي نعم إِن رَأَيْتَ بها حَلْباً فَاحْلُبها فوالله ما ضربها فحل قط

---

(١) أخرجه البخاري ٤/٢٤٥ ومسلم في كتاب الزهد (٧٥).

(٢) حبيش بن خالد بن منقذ بن ربيعة بن أصرم بن حبيش بن حزام بن حبشية بن كعب بن عمرو: وقيل: حبيش بن خالد بن حليف بن منقذ بن ربيعة. وقيل: حبيش بن خالد بن ربيعة لا يذكرون منقذاً، الخزاعي الكعبي، أبو صخر، وأبوه خالد يقال له: الأشعر. وقال ابن الكلبي: حبيش هو الأشعر، وزاد في نسبه، فقال: حبيش بن خالد بن حليف بن منقذ بن أصرم، ووافقه ابن ماكولا إلا أنه جعل الأشعر خالداً. وقال إبراهيم بن سعد، عن ابن إسحاق: خنيس، بالخاء المعجمة والنون، والأول أصح، يكنى أبا صخر، وهو أخو أم معبد، وصاحب حديثها. أسد الغابة ١/٤٥١.

فشأنك بها. فَدَعَا بها رسول الله ﷺ فَمَسَحَ بيده ضَرْعَها وظَهْرَها وسَمَّى الله عز وجل ودعا لها في شاتها فتَفَاجَّتْ عليه ودَرَّتْ واجْتَرَّتْ، ودعا بإِناءٍ يُرْبِضُ الرَّهْطَ[1] فحلب فيه ثَجاً حتى عَلاَه البهاء - وفي لفظ الثُّمَال - ثم سقاها حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رَوَوْا، ثم شَرِب ﷺ آخرهم، وقال: «ساقي القَوْمِ آخِرُهُمْ شُرْباً»[2]. ثم حَلَبَ فيه ثانيةً بعد بدء حتى ملأَ الإِناء ثم غادره عندها. فبايعها وارتحلوا عنها.

وروى ابن سعد وأَبو نعيم عن أم معبد قالت: «بقيت الشاة التي لمس رسول الله ﷺ ضرعها عندنا حتى كان زمان الرمادة وهي سنة ثماني عشرة من الهجرة زمان عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وكنا نحلُبها صَبُوحاً وغَبُوقاً، وما في الأَرض قليل ولا كثير». وقال هشام بن حُبَيْش: «أَنا رأَيْتُ الشاة وإِنها لتَأْدُم أُمَّ مَعْبَد وجميع صِرْمَتِها»، أي أَهل ذلك الماء.

فَقَلَّ ما لَبِثَتْ أَن جاء زوجها أَبو معبد يسوق أَعْنُزاً حِيَالاً[3] عِجَافاً يَتَسَاوَكْنَ هزالاً مخهن قليل.

فلما رأَى اللبن عَجِب فقال: من أَين لَكِ هذا اللبن يا أم معبد والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قالت: «لا والله إِلا أَنه مَرَّ بنا رجل مُبَارَك من حاله كذا وكذا». قال: «صِفِيهِ لي يا أَم مَعْبَد». قالت: «رأَيْتُ رجلاً ظاهِرَ الوَضَاءة أَبْلَجَ الوَجْهِ حَسَن الخُلُق، لم تَعِبْهُ ثُجْلة ولم تُزْرِ به صَعْلة، وَسِيمٌ قَسِيم، في عَيْنَيْه دَعَج وفي أَشفاره وَطَف وفي صوته صَحل - أَو قالت صهل - وفي عنقه سَطَع، وفي لحيته كثاثة، أَزَجّ أَقْرَن، إِن صَمتَ فعليه الوَقَار، وإِن تكلم سَما وعَلاَهُ البَهَاء، أَجملُ الناس وأَبهاه من بعيد وأَحسنه وأَحلاه من قريب، حُلْو المنطق فَصْل لا نَزْر ولا هَذْر، كأَن منطقه خَرَزَات نظم يَتَحَدَّرْن، رَبْعَةٌ لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عَيْنٌ من قِصَر، غُصْنٌ بين غُصْنَيْن، فهو أَنْضَرُ الثلاثة منظراً وأَحسنُهم قدراً، له رُفَقَاء يحفون به، إِذا قال استمعوا لقوله وإِذا أَمر تبادروا إِلى أَمره، مَحْفُود[4] محشود لا عابس ولا مُفَنَّد». فقال أَبو معبد: «هذا والله صاحب قريش الذي ذُكِر لنا من أَمره بمكة ما ذُكِر ولقد هممت أَن أَصحبه ولأَفْعَلَنّ إِن وجدت إِلى ذلك سبيلاً».

قالت أَسماء رضي الله عنها: «لما خرج رسول الله ﷺ وأَبو بكر أَتانا نَفَرٌ من قريش

(١) يربض الرهط: أي يرويهم ويثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض. من ربض في المكان يربض إذا لصق به وأقام ملازماً له. انظر النهاية ١٨٤/٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٧٢٥) والترمذي (١٨٩٤) وابن ماجه (٣٤٣٤) وأحمد في المسند ٣٥٤/٤ والدارمي ١٢٢/٢ والبيهقي في السنن ٢٨/٧.

(٣) قال ابن الأثير: أي غير حوامل، حالت تحول حيالاً وهي شاء حيال، وإبل حيال. والواحدة حائل، وجمعها حول أيضاً بالضم. انظر النهاية ٤٦٣/١.

(٤) المحفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته. انظر النهاية ٤٠٦/١.

فيهم أَبو جَهْل بن هشام فخرجت إِليهم فقالوا: أَين أَبوكِ يا بنت أَبي بكر؟» فقلت «والله لا أَدري أَين أَبي». فرفع أَبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلَطَم خَدِّي لَطْمَةً خرج منها قُرطِي، ثم انصرفوا، فمكثنا ثلاثة أَيام ما ندري أَين توجه رسول الله ﷺ حتى أَتى رجل من الجِنّ من أَسفل مكة يتغنّى بأَبيات من شعر غناء العرب وتبعه الناس يسمعون صوته وما يَرَوْنَه حتى خرج من أَعلا مكة وهو يقول:

جَزَى اللهُ رَبُّ النَّاسِ خَيْرَ جَزَائِهِ ... رَفِيقَيْنِ قَالاَ خَيْمَتَيْ أُمِّ مَعْبَدِ
هُمَا نَزَلا بِالْبِرِّ وَارْتَحَلا بِهِ ... فَأَفْلَحَ مَنْ أَمْسَى رَفِيقَ مُحَمَّدِ
فَيَالَقُصَيٍّ مَا زَوَى اللهُ عَنْكُمْ ... بِهِ مِنْ فَعَالٍ لاَ تُجَارَى وَسُودَدِ
لِيَهْنِ بَنِي كَعْبٍ مَقَامَ فَتَاتِهِمْ ... وَمَقْعَدَهَا لِلْمُؤْمِنِينَ بِمَرْصَدِ
سَلُوا أُخْتَكُمْ عَنْ شَاتِهَا وَإِنَائِهَا ... فَإِنَّكُمْ إِنْ تَسْأَلُوا الشَّاةَ تَشْهَدِ
دَعَاهَا بِشَاةٍ حَائِلٍ فَتَحَلَّبَتْ ... لَهُ بِصَرِيحٍ ضَرَّةُ الشَّاةِ مُزْبِدِ
فَغَادَرَها رَهْناً لَدَيْها لِحَالِبٍ ... يُرَدِّدُها فِي مَصْدَرٍ ثُمَّ مَوْرِدِ[1]

فلما سمع ذلك حسّان بن ثابت الأَنصاري رضي الله عنه قال يجاوب الهاتف:

لَقَدْ خَابَ قَوْمٌ غَابَ عَنْهُمْ نَبِيُّهُمْ ... وَقُدِّسَ مَنْ يَسْرِي إِلَيْهِ وَيَغْتَدِي
تَرَحَّلَ عَنْ قَوْمٍ فَضَلَّتْ عُقُولُهُمْ ... وَحَلَّ عَلَى قَوْمٍ بِنُورٍ مُجَدَّدِ
هَدَاهُمْ بِهِ بَعْدَ الضَّلاَلَةِ رَبُّهُمْ ... وَأَرْشَدَهُمْ مَنْ يَتْبَعِ الحَقَّ يُرْشَدِ
وَهَلْ يَسْتَوِي ضُلاَّلُ قَوْمٍ تَسَفَّهُوا ... عَمًى وَهُدَاةٌ يَهْتَدُونَ بِمُهْتَدِ
لَقَدْ نَزَلَتْ مِنْهُ عَلَى أَهْلِ يَثْرِبٍ ... رِكَابُ هُدًى حَلَّتْ عَلَيْهِمْ بِأَسْعُدِ
نَبِيٌّ يَرَى مَا لاَ يَرَى النَّاسُ حَوْلَهُ ... وَيَتْلُو كِتَابَ اللهِ فِي كُلِّ مَسْجِدِ
وَإِنْ قَالَ فِي يَوْمٍ مَقَالَةَ غَائِبٍ ... فَتَصْدِيقُها فِي اليَوْمِ أَوْ في ضُحَى الغَدِ
لِيَهْنِ أَبَا بَكْرٍ سَعَادَةُ جَدِّهِ ... بِصُحْبَتِهِ مَنْ يُسْعِدِ اللهُ يَسْعَدِ[2]

وروى البيهقي بسَنَدٍ حَسَّنه والحافظ ابن كثير عن أَبي بكر رضي الله عنه أَنه قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ من مكة، فانتهينا إِلى حَيٍّ من أَحياء العرب فنظر رسول الله ﷺ إِلى بيت مُنْتَحِياً فقصد إِليه، فلما نزلنا لم يكن فيه إِلا امرأَة فقالت: يا عَبْدَيْ الله إِنما أَنا امرأَة وليس معي أَحد فعليكما بعظيم الحَيِّ إِن أَردتم القِرَى. قال: فلم نُجِبْها، وذلك عند المساء، فجاء ابنٌ لها بأَعْنُزٍ له يسوقها. فقالت له: يا بني انطلق بهذه العنزة والشفرة إِلى هذين الرجلين

(١) الأبيات في الروض الأنف ٢٣٤/٢ وديوان حسان ص ٥٩.

(٢) القصيدة في الروض الأنف ٢٣٥/٢ وانظر ديوان حسان ص ٥٩، ٦٠.

فقل لهما: تقول لكم أُمّي: اذبحا هذه وأَطْعِمَانا. فلما جاء قال له النبي ﷺ: «انْطَلِقْ بالشفرة وجئني بالقدح». قال: إنها عازب وليس لها لبن. قال: «انْطَلِقْ». فانطلق فجاء بقدح فمسح النبي ﷺ ضَرْعَها ثم حَلَب مِلْءِ القَدَح ثم قال: انْطَلِقْ به إلى أُمِّك. فشَرِبَتْ ثم رَوِيَتْ ثم جاء به. فقال: انطلِق بهذه وجئني بأخرى ففعل بها كذلك. ثم سقى أبا بكر، ثم جاء بأخرى ففعل بها كذلك ثم شرب النبي ﷺ».

«فلبثنا ليلتين ثم انطلقنا، وكانت تسميه المبارك، وكثرت غَنَمُها حتى جَلَبَتْ حَلْباً إلى المدينة فمر أبو بكر رضي الله عنه فرآه ابنها فعرفه، فقال: يا أُمه إن هذا الرجل الذي كان مع المبارك، فقامت إليه فقالت: يا عبد الله مَنْ الرجل الذي كان معك؟ قال: وما تَدْرين؟ قالت: لا. قال: هو نَبِيُّ الله ﷺ. قالت: فأَدْخِلْنِي عليه. قال: فأدخلها فأَطعمها وأَعطاها. وفي رواية: فأَهْدَتْ إليه شيئاً من أَقِط ومتاع الأَعراب، فكساها وأَعطاها»، قال - ولا أَعلمه إلا قال: «أَسلمت»(١).

قال البيهقي في الدلائل: «وهذه القصة وإن كانت تنقص عما رَوَيْنَا في قصة أَم معبد وتزيد في بعضها، فهي قريبة منها ويشبه أَن تكونا واحدة، وقد ذكر ابن إسحاق في قصة أم معبد شيئاً يدل على أَنها وهذه القصة واحدة. ثم روى البيهقي من طريق يونس بن بكير عن ابن إسحاق قال: «فنزل رسول الله ﷺ بخيمة أم معبد وهي التي تَمَرَّدَ بها الجِنّ بأَعلا مكة. واسم أم معبد عاتكة بنت خالد بن خليف بن مُنْقِذ بن ربيعة بن أَصْرَم [الـخُزَاعية]، فأَراد القِرَى فقالت: والله ما عندنا طعام ولا لنا منحة ولا لنا شاة إلا حائل، فدعا رسول الله ﷺ ببعض غَنَمها فمسح ضرعها بيده فدعا الله تعالى فَحَلب في العُسّ حتى رَغَّى، وقال: «اشربي يا أم معبد». قالت: اشرب أَنت به أَحق. فَرَدَّهُ عليها فشَرِبت. ثم دعا بحائل أخرى ففعل بها مثل ذلك، فسقى دَلِيلَه ثم دعا بحائل ففعل بها مثل ذلك فسقى عامر بن فُهَيْرَة، ثم استراح.

وطلبت قريش رسولَ الله ﷺ حتى بلغوا أم معبد فسألوها عنه فقالوا: «أَرَأَيْتِ محمداً من حِلْيَتِه كذا وكذا»؟ فوصفوه لها، فقالت: «ما أَدري ما تقولون فقد ضَافَنِي حالِبُ الحائل»؟ قالت قريش: «فذلك الذي أَردنا». قاله البيهقي: فيُحْتَمَل أَولاً أَنه رأَى التي في كِسْر الخيمة، كما رَوَيْنَا في حديث أم معبد، ثم رجع ابنها بأَعْنُز كما روينا ثم لما أَتى زوجُها وصفته له، والله أَعلم.

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٢٢/٢ وذكره المتقي الهندي في الكنز (٤٦٢٨٧) وابن كثير في البداية والنهاية ١٩١/٣.

قِصَّة سُراقة رضي الله عنه

روى الإمام أحمد ويعقوب بن سفيان والشيخان عن سُرَاقة بن مالك رضي الله عنه، والإمام أحمد والشيخان ويعقوب عن أبي بكر رضي الله عنه قال سُرَاقة بن جُعْشُم: جاءنا رُسُل كُفَّار قريش يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دِيَةَ كُلٍّ واحد مِنْهُما مائة ناقة من الإبل لمن قَتَله أو أَسَره، فبينا أنا جالس في مجلس من مجالس قومي بني مُدْلِج أقبل رجل منهم حتى قام علينا [ونحن جلوس] فقال: يا سُرَاقة إني قد رأيت آنفاً أَسْوِدَة بالساحل - وفي لفظ: رَكَبَةً ثلاثة - أَرَاها محمداً وأَصْحابه. قال سراقة: فعَرَفْتُ أنهم هم، فأومأت إليه بعيني أن اسْكُتْ، فسَكَتَ، ثم قلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيتَ فلاناً وفلاناً انطلقوا يبتغون ضَالَّةً لهم. ثم لَبِثْتُ في المجلس ثم قُمْتُ فدَخَلْتُ بَيْتي فأَمَرْتُ جاريتي أن تَخْرُجَ بفرسي وهي من وراء أَكَمَة فتَحْبسها عَلَيَّ، وأَخذتُ رُمْحِي فخرجتُ به من ظَهْر البيت فَخَطَطْتُ بزُجِّه الأَرْضَ وخَفَضْتُ عالِيَه حتى أَتيتُ فرسي فركِبْتُها، فرفَعْتُها تُقرِّبُ بي حتى رأَيتُ أَسْوِدَتَهُما، فلما دَنَوْتُ منهم عَثَرَتْ بي فَرَسِي فَخَرَرْتُ عنها فقُمْتُ فَأَهْوَيْتُ بيدي إلى كِنَانَتِي فاستخرجتُ منها الأَزلام فاستقسمتُ بها أَضُرُّهُمْ، أم لا أَضُرُّهُمْ، فخرج الذي أَكره: أَني لا أَضُرُّهُم، وكنت أرجو أَن أَرُدَّه فآخذ المائة ناقة، فرَكِبْتُ فَرَسي وعَصَيْتُ الأَزلام فرفعتُها تُقرِّب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله ﷺ وهو لا يلتفت وأَبو بكر يُكْثِر الالتفات ساخت يدا فَرَسي في الأَرض حتى بَلَغت الرُّكْبَتَيْن فَخَرَرْتُ عنها، ثم زَجَرْتُها فنَهَضَتْ فلم تَكَدْ تُخْرِج يَدَيْهَا فلما استوت قائمة إذا لِأَثَرِ يَدَيْهَا عُثَان ساطعٌ في السماء مثل الدُّخَان فاسْتَقْسَمْتُ بالأَزلام فخرج الذي أَكره - أَلا أَضُرَّهُمْ - قال: فعَرَفْتُ حين رأَيتُ ذلك أَنه قد مُنِع مني وأَنه ظاهر، فناديتهم بالأَمان وقلت: أَنْظِروني فوالله لا آذيتكم ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه. قال: فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «قُلْ له وما تبتغي منا»؟ فقلت: إن قَوْمَكَ قد جعلوا فيكما الدِّيَة وأَخبرتهما أَخبار ما يريد الناس بهم وعَرَضْتُ عليهم الزاد والمتاع فلم يَرْزآني شيئاً ولم يسأَلاني إلا أَن قال: «أَخْفِ عَنَّا» فسأَلْتُه أَن يكتب لي كتاب موادعة آمَن به، قال: «اكتب له يا أَبا بكر» - وفي رواية: فأَمر عامر بن فُهَيْرَة فكتب في رقعة من أَدِيم، ثم مضى رسول الله ﷺ.

[ثم رجعت] فسَكَتُّ فلم أَذكر شيئاً مما كان حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفَرَغ من حُنَيْن والطائف خرجتُ لأَلقاه ومعي الكتاب الذي كتب لي [فلَقِيتُه بالجِعْرانة]. قال: «فبينا أَنا عامِدٌ له دخلت بين ظَهْرَيْ كتيبة من كتائب الأَنصار، فطَفِقُوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك حتى إذا دنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته،

والله لكأني أنظر إلى ساقه في غَرْزِه[(١)] كأنها جُمَّارة[(٢)]. قال: فرفعتُ يدي بالكتاب. ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابُك لي وأنا سُراقة بن مالك قال: فقال رسول الله ﷺ: «يَوْمُ وفاءٍ وبِرٍّ أُدْنُـهْ»، فدنوت منه فأسلمت، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره، إلا أني قلت: يا رسول الله الضَّالَّة من الإبل تَغْشَى حياضي وقد مَلأتُها لإبلي هل لي من أجر [في أن أسقيها]؟ قال: «نعم في كل ذات كَبِدٍ حَرَّى أجر» قال: ثم رجعت إلى قومي فسُقْتُ إلى رسول الله ﷺ صدقتي[(٣)].

وقال أبو بكر رضي الله عنه: «وتَبِعَنا سُرَاقة بن مالك ونحن في جَلْدٍ من الأرض فقلت: يا رسول الله هذا الطلب قد لَحِقَنا. قال: «لا تحزن إن الله معنا». فلما دَنَا مِنَّا وكان بيننا وبينه قَدْر رُمْح أو رُمْحَيْنِ أو ثلاثة قلت: هذا الطلب قد لَحِقَنا وبكيت. [قال ﷺ: «ما يبكيك»؟] قلت: «أَمَا والله ما على نفسي أبكي ولكني أبكي عليك». فدعا عليه رسول الله ﷺ فقال: «اللهم اكفناه بما شئت». قال: فساخَتْ به فَرَسُه في الأرض إلى بطنها فوثب عنها، ثم قال: يا محمد قد عَلِمْتُ أن هذا عَمَلُك فادْعُ الله أن يُنْجِيَني مما أنا فيه، فوالله لأُعَمِّيَنَّ على مَنْ ورائي من الطلب وهذه كنانتي فَخُذْ منها سهماً فإنك سَتَمُرُّ على إبلي وغنمي بمكان كذا وكذا فَخذْ منها حاجَتَك، فقال رسول الله ﷺ: «لا حاجة لنا في إبلِك وغنمك»، ودعا له رسول الله ﷺ. فانطلق راجعاً إلى أصحابه لا يَلْقَى أحداً إلا قال: قد كُفِيتُم ما ههنا، ولا يَلْقَى أحداً إلا رَدَّه، وَوَفَى لنا.

وعند ابن سعد أن سُرَاقة لما رجع قال لقريش: قد عرفتم بصري بالطريق وقد استبرأت لكم فلم أَرَ شيئاً، فرجعوا. وقال ابن سعد والبلاذري: عارضهم سراقة بِقُدَيْد يوم الثلاثاء.

وروى ابن عساكر عن ابن إسحاق قال: قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه ـ فيما يذكرون والله أعلم في دخوله الغار مع رسول الله ﷺ، وفي مسيرهم وفي طلب سُرَاقة إياهم:

قَالَ النَّبِيُّ وَلَمْ يَجْزَعْ يُوَقِّرُنِي ... وَنَحْنُ فِي شِدَّةٍ مِنْ ظُلْمَةِ الغَارِ
لاَ تَخْشَ شَيْئاً فَإِنَّ الله ثَالِثُنَا ... وَقَدْ تَوَكَّلَ لِي مِنْهُ بِإِظْهَارِ
وَإِنَّمَا كَيْدُ مَنْ تُخْشَى بَوَادِرُهُ ... كَيْدُ الشَّيَاطِينِ كَادَتْهُ لِكُفَّارِ
وَاللهُ مُهْلِكُهُم طُراً بِمَا كَسَبُوا ... وَجَاعِلُ المُنْتَهِي مِنْهَا إِلَى النَّارِ

---

(١) الغرز: ركاب كور الجمل إذا كان من جلد أو خشب وقيل: هو الكور مطلقاً، مثل الركاب للسرج. انظر النهاية ٣/٣٥٩.
(٢) الجمارة: قلب النخلة وشحمتها، شبه ساقه ببياضها. انظر النهاية ١/٢٩٤ (جمر).
(٣) أخرجه الطبراني في الكبير ٧/١٥٨ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ٣/١٨٥.

وَأَنْتَ مُرْتَحِلٌ عَنْهُمْ وَتَارِكُهُمْ ... إِمَّا غُدُوًّا وَإِمَّا مُدْلِجٌ سَارِي
وَهَاجِرٌ رَضْمَهُم حَتَّى يَكُونَ لَنَا ... قَوْمٌ عَلَيْهِم ذَوُو عِزٍّ وَأَنْصَارِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ وَارَتْنَا جَوَانِبُهُ ... وَسُدَّ مِنْ دُون مَنْ تَخْشَى بِأَسْتَارِ
سَارَ الأُرَيْقِطُ يَهْدِينَا وأَيْنُقُه[1] ... يَنْعَبْنَ بِالقَوْمِ نَعْباً تَحْتَ أَكْوَارِ
يَعْسِفْنَ عُرْضَ الثَّنَايا بَعْدَ أَطْوَلِها ... وَكُلَّ سَهْبٍ رِقَاقِ التُّرْبِ مَوَّار[2]
حَتَّى إِذَا قُلْت قَدْ أَنْجَدْنَ عَارَضَهَا ... مِنْ مُدْلِجٍ فَارِسٍ فِي مَنْصِبٍ وَارِي
يُرْدِي بِهِ مُشْرِفَ الأَقْطَارِ مُعْتَزِمٌ ... كَالسِّيدِ ذِي اللِّبْدةِ المُسْتَأْسِدِ الضَّارِي
فَقَالَ: كُرُّوا فَقُلْنَا: إِنَّ كَرَّتَنَا ... مِنْ دُونِها لَكَ نَصْرُ الخَالِقِ البَارِي
أَن يَخْسِفَ الأَرْضَ بِالأَحْوَى وَفَارِسَهُ ... فَانْظُرْ إِلَىٰ أَرْبَعٍ فِي الأَرْض غَوَّارِ
فَهِيلَ لما رأَى أَرْسَاغ مُهْرَتِهِ ... قد سِخْنَ في الأَرْضِ لم تُحْفَر بِمِحْفَارِ
فقال: هل لَكُمْ أَن تُطْلِقُوا فَرَسِي ... وتأخذوا مَوْثِقاً في نُصْحِ أَسْرَارِ
وأَصْرِفَ الحَيَّ عَنْكُمْ أَنْ لَقِيتُهُمْ ... وأَن أُعَوِّرَ منهم عَيْنَ عُوَّارِ
فَادْعُ الذي هو عنكم كَفَّ عَوْرَتَنَا ... يُطْلِقْ جَوَادِي وأَنْتُمْ خَيْرُ أَبْرَار
فَقَالَ قَوْلاً رسولُ الله مُبْتَهِلاً ... يَا رَبِّ إِن كان منه غَيْرُ إِخْفَارِ
فَنَجِّهِ سَالِماً من شرِّ دعْوَتِنَا ... ومُهْرَهُ مُطْلَقاً من كَلْمِ آثارِ
فَأَظْهَر اللهُ إِذ يدعو حَوَافِرَهُ ... وَفَازَ فَارِسُهُ من هَوْلِ أَخْطَارِ[3]

وَرَوَى البخاري عن عُرْوَة والحاكم عنه عن أبيه أن رسول الله ﷺ لَقِيَ الزبير في رَكْبٍ من المسلمين كانوا تُجَّاراً قافلين من الشام فَكَسَا الزبير رسولَ الله ﷺ ثياباً بِيضاً. وروى البيهقي عن موسى بن عُقْبَة أَن رسول الله ﷺ لما دنا من المدينة هو وأبو بكر وقدم طلحة بن عُبَيْد الله من الشام خرج عامداً إلى مكة لما ذُكِر له رسول الله ﷺ وأبو بكر، خرج إما مُتَلَقِّياً لهما وإما عامداً عُمْرَةً بمكة ومعه ثياب أهداها لأَبي بكر من ثياب الشام، فلما لَقِيَه أَعطاه الثياب، فلبس رسولِ الله ﷺ منها وأبو بكر.

وروى أبو نُعَيْم عن أنس بن مالك عن... الأَوسي الأَسلمي عن أبيه قال: «لما هاجر رسول الله ﷺ وأَبو بكر مَرُّوا بإِبِل لنا بالجُحْفَة فقال رسول الله ﷺ: «لِمَنْ هذه الإِبل»؟

(١) الأينق: جمع قلّة لناقة، وأصله أنوق، فقلب وأبدل واوه ياء. وقيل: هو على حذف العين وزيادة الياء عوضاً عنها، فوزنه على الأول: أعفل لأنه قدم العين، وعلى الثاني: أيفل؛ لأنه حذف العين. انظر النهاية ١٢٩/٥.

(٢) يقال: مار التراب إذا ثار.. ورياح مُوَّارَة: مُثِيرة للتراب. انظر المعجم الوسيط ٨٩٨/٢.

(٣) انظر الروض الأنف ٢٣٤/٢.

فقالوا: لِرَجُلٍ من أَسْلَم فالتفت رسول الله ﷺ إلى أَبي بكر فقال: «سلمنا إن شاء الله». فأَتاه أَبي وحمله على فَحْلٍ من إبله وبعث معه غُلاَمَه مسعود». وروى أَبو يَعْلَى والطبراني والحاكم والبيهقي وأَبو نُعَيْم عن قيس بن النُّعْمَان قال: «لما انطلق رسول الله ﷺ وأَبو بكر مُسْتَخْفِين مَرُّوا بعبْدٍ يَرْعَى غَنَماً فاستسقياه اللبن فقال: ما عندي شاةٌ تُحْلَب، غير أَن ههنا عَنَاقاً حَمَلَتْ أَوَّل الشتاء وقد أَخْدَجَتْ وما بقي لها من لَبَن فقال: «ادْعُ بها»، فَدَعَا بها، فاعتقلها النبي ﷺ ومَسَح ضَرْعَها حتى أَنْزَلَتْ. ودعا أَبو بكر بِمِجَن، فَحَلَبَ وسقى أَبا بكر، ثم حَلَبَ فسقى الراعي، ثم حَلَبَ فشَرِب، فقال الراعي: من أَنت؟ فوالله ما رأَيتُ مِثْلَكَ قط. قال: «أَوَتَرَاكَ تَكْتُمُ عَلَيَّ حتى أُخْبِرَك؟ قال: نعم. قال: «فإني محمد رسول الله». قال: أَنْتَ الذي تَزْعُمُ قريش أَنك صابىء؟ قال: «إنهم ليقولون ذلك». قال: فأَشهد أَنك نَبِيٌّ الله وأَشهد أَن ما جِئْتَ به حَقّ، وأَنه لا يفعل ما فَعَلْتَ إلا نَبِيٌّ».

وروى البيهقي عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال لأَبي بكر مدخله المدينة: «أَلْهِ عَنِّي الناس فإنه لا ينبغي لِنَبِيٍّ أَن يَكْذِب». فكان أَبو بكر إذا سُئِل: من أَنت؟ قال: باغٍ، وإذا قيل: من الذي معك؟ قال: هادٍ يَهْدِيني». وروى البخاري عن أَنَس رضي الله عنه قال: «أَقبل النبي ﷺ وهو مُرْدِفٌ أَبا بكر، وأَبو بكر شَيْخ، والنبي ﷺ شابٌّ لا يُعْرَف، فيلقى الرجل أَبا بكر فيقول: مَنْ هذا بين يَدَيْك؟ فيقول: هذا الذي يهديني السبيل فَيَحْسَب الحاسِب إنما يعني الطريق وإنما يعني سبيل الخَيْر».

وروى الزبير بن بَكَّار في المُوَفقِيَّات، وأَبو نُعَيْم عن طريق شَهْر بن حَوْشَب عن ابن عباس عن سعد بن عبادة قال: «لما بايعنا رسول الله ﷺ بيعة العقبة، خرجت إلى حضرموت لبعض الحاجة فقضيت حاجتي ثم رجعت حتى إذا كنت ببعض الأَرض نمت ففزعت من الليل فإذا بصائح يقول:

أَبَا عَمْرو تَأَوَّبَنِي السُّهُودُ وَرَاحَ النَّوْمُ وَانْقَطَعَ الهُجُودُ

ثم صاح آخر: «يا خَرْعَب، ذَهَبَ بِكَ اللَّعِب، إن أَعْجَبَ العَجَب بين مَكَّة ويَثْرِب». قال: وما ذاك يا شاهب؟ قال: «نَبِيُّ السلام، بُعِث بخير الكلام، إلى جميع الأَنام، فأُخْرِجَ من البَلَد الحَرَام، إلى نخيلٍ وآطام» ثم طلع الفَجْر فذهبت أَتفكر فإذا عظاية[1] وثعبان ميتان، فما علمت أَن النبي ﷺ هاجر إلا بهذا الحديث».

ولما شارف رسول الله ﷺ المدينة لقيه أَبو عبد الله بُرَيْدَة بن الحُصَيْب الأَسلمي في

---

(١) العظاية السام الأبرص. انظر النهاية ٣/٢٦٠.

سبعين من قومه من بني سَهْم، فقال نبي الله ﷺ: «من أنت»؟ قال: بُرَيْدَة، فقال لأبي بكر: «برد أمرُنَا وصَلُح». ثم قال: «مِمَّنْ»؟ قال: من أسلم. فقال لأبي بكر: «سَلِمْنَا». ثم قال: «مِنْ بَنِي مَنْ»؟ قال: من بني سهم. قال: «خَرَج سَهْمُك [يا أبا بكر]». فقال بُرَيْدَة للنبي ﷺ: من أنت؟ قال: «أنا محمد بن عبد الله رسول الله». فقال بُرَيْدَة: أشهد ألا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. فأسلم بُرَيْدَة وأسلم من كان معه جميعاً. قال بُرَيْدَة: الحمد لله الذي أسلم بنو سَهْم طائعين غير مُكْرَهِين، فلما أصبح قال بُرَيْدَة للنبي ﷺ: «يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء». فَحَلَّ عمامته ثم شَدَّها في رُمْح ثم مشى بين يديه حتى دخلوا المدينة(١).

تنبيهات

الأول: قال الحافظ: كان بين ابتداء هجرة الصحابة وبين العقبة الأُولى والثانية وبين هجرته ﷺ شهران وبعض شهر على التحرير.

الثاني: قول عائشة رضي الله عنها: «ما كنت أرى أحداً يبكي من الفرح حتى رأيتُ أبا بكر يبكي من الفرح». قال في الروض: «قالت ذلك لصِغَر سِنِّها وأنها لم تكن عَلِمَتْ بذلك» وقد تطرقت الشعراء لهذا المعنى فأخذته استحساناً له فقال الطائي يصف السحاب:

دُهْمٌ إِذَا وَكَفَتْ فِي رَوْضَةٍ طَفِقَتْ ... عُيُونُ أَزْهَارِهَا تَبْكِي مِنَ الفَرَحِ

وذكر لأبي الطيب وزاد على هذا المعنى:

فَلاَ تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً ... فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ ما يَقْتُلُ

وقال بعض المُحْدَثين:

وَرَدَ الكِتَابُ مِنَ الحَبِيبِ بِأَنَّهُ ... سَيَزُورُنِي فَاسْتَعْبَرَتْ أَجْفَانِي
غَلَبَ السُّرورُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّه ... مِنْ فَرْطِ مَا قَدْ سَرَّنِي أَبْكَانِي
يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عندَكِ عَادَةً ... تَبْكِينَ فِي فَرَحٍ وَفِي أَحْزَانِ

قال في الزهر: «وفيه من عدم التَّثَبُّت ما ترى، أيجوز أن يُحْتَجَّ على عائشة بِقَوْل مُحْدَثٍ؟ إنما كان يُحْتَجُّ عليها لو كانت العَرَب قالته، أما إذا لم تَقُلْهُ العَرَب فلا حُجَّةَ عليها والله أعلم. قلتُ: السهيلي لم يَحْتَجّ بذلك على عائشة رضي الله عنها، وإنما ذكره استطراداً للفائدة.

الثالث: نُقِل في الروض عن بعض شيوخ أهل المغرب أنه سئل عن امتناعه من أخذ الراحلة مع أن أبا بكر أنفق عليه ماله، فقال: أَحَبَّ ألاَّ تكون هجرتُه إلا من مال نفسه.

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢/٢٢١.

الرابع: كانت هجرته ﷺ في شهر ربيع الأَول سنة ثلاث عَشْرة من النبوة وذلك يوم الاثنين. روى الإِمام أَحمد عن ابن عباس أَنه قال: «وُلِد نَبِيُّكم ﷺ يوم الاثنين وخرج من مكة يوم الاثنين ودخل المدينة يوم الاثنين وتوفي يوم الاثنين». قال الحاكم: «تواترت الأَخبار أَن خروجه كان يوم الاثنين ودخوله المدينة كان يوم الاثنين، إِلا أَن محمد بن موسى الخوارزمي قال: إِنه خرج من مكة يوم الخميس». قال الحافظ «يُجْمَع بينهما بأَن خروجه من مكة كان يوم الخميس وخروجه من الغار كان ليلة الاثنين لأَنه أَقام فيه ثلاثَ ليالٍ: هي ليلة الجمعة وليلة السبت وليلة الأَحد وخرج في أَثناء ليلة الاثنين».

الخامس: ذكر بعض أَهل السِّيَر أَن أَبا بكر لما رأَى المشركين وهو في الغار، ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «لو جاؤونا من ههنا خرجنا من ههنا». فنظر أَبو بكر إِلى الغار وقد انفرج من الجانب الآخر، وإِذا البحر قد اتصل به وسَفِينَةٌ مشدودة إِلى جانبه». قال الحافظ ابن كثير: وهذا ليس بمُنْكَر من حيث القُدْرَة العظيمة ولكن لم يردْ ذلك بإِسناد قوي ولا ضعيف، ولسنا نثبت شيئاً من تِلْقَاءِ أَنفسنا ولكن ما صَحَّ أَو حَسُنَ قلنا به والله أَعلم.

السادس: السِّرُّ في اتخاذ رافضة العجم اللُّبَد المُقَصَّصَة على رؤوسهم التعظيم للحَيَّات لِلَدْغِهِنَّ أَبا بكر ليلة الغار.

السابع: روى الإِمام أَحمد والحاكم أَن النبي ﷺ قال: لقد لَبِثْتُ مع صاحبي ـ يعني أَبا بكر ـ ليلة الغار بضعة عَشَر يوماً ما لنا طعام إِلا البَرِير» قال الحاكم «معناه: مكثنا مُخْتَفِين من المشركين في الغار وفي الطريق بضعة عَشَر يوماً».

قال الحافظ: «لم يقع في رواية أَحمد ذِكْرُ الغار، وهي زيادة في الخَبَر من بعض رواته، ولا يَصِحّ حملُه على حالة الهجرة لِمَا في الصحيح من أَن عامر بن فُهَيْرَة كان يَرُوح عليهما في الغار باللبن، ولِمَا وقع لهما في الطريق من لقاء الراعي ومن النزول بخيمة أُم معبد وغير ذلك، ويظهر أَنها قصة أُخرى».

الثامن: قال السهيلي: «انْتَبِهْ أَيها العبد المأْمور بِتَدَبُّر كتاب الله تعالى لقوله: ﴿**إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا**﴾ [التوبة ٤٠] الآية، كيف كان معهما بالمعنى وباللفظ؟ أَما المعنى: فكان معهما بالنصر والإِرفاد، والهداية والإِرشاد. وأَما اللفظ: فإِن اسم الله تبارك وتعالى كان يُذْكَر إِذا ذُكِر رَسُولُه وإِذا دُعِيَ فقيل يا رسولَ الله أَو فَعَل رسولُ الله. ثم كان لصاحبه كذلك، يُقَال: يا خليفة رسول الله، وفَعَل خليفة رسول الله، فكان يُذْكَر معهما بالرسالة والخلافة ثم ارتفع ذلك فلم يكن لأَحد من الخلفاء ولا يكون».

التاسع: قال المُهَلَّب بن أَبي صُفْرَة[١] رحمه الله: «أنما شرب النبي ﷺ من لبن الغَنَم لأَنه حينئذٍ كان في زمن المُكَارَمة ولا يعارضه: «لا يَحْلُبَنَّ أَحدٌ شاةً إلا بإذْنه»[٢] لأَن ذلك وقع في زمن التَّشَاحّ، أَو الثاني محمول على التَّسَوُّر، والأَول لم يقع فيه ذلك، بل قَدَّم أَبو بكر سؤال الرَّاعي: هل أَنت حالب؟ فقال: نعم، كأَنه سأَله: هل أَذِن صاحب الغَنَم في حَلْبها لمن يَرد عليه؟ فقال: نعم، أَو جَرَى على العادة المأْلوفة للعرب في إباحة ذلك والإِذْن في الحَلْب للمارّ وابن السبيل، فكان كُلُّ راعٍ مأْذوناً له في ذلك».

وقال الداودي: «إنما شرب من ذلك على أَنه ابن سبيل، وله شُرْبُ ذلك إذا احتاج ولا سيما النبي ﷺ، وأَبْعَدَ مَنْ قال: «إنما استجازه لأَنه مال حربي لأَن القتال لم يكن فُرِض بعد ولا أُبيحت الغنائم» وقال الحافظ: «قولُ أَبي بكر: أَفي غَنَمِك لبن؟ الظاهر أَن مرادَه بهذا الاستفهام: أَمَعَكَ إذْنٌ في الحَلْبِ لمن يَمُرُّ بك على سبيل الضِّيَافة؟ ويحتمل أَن أَبا بكر لما عرف مالكَ الغَنَم عرف رضاءه بذلك لصداقته له أَو إذْنِهِ العامّ بذلك».

العاشر: ذكر أَبو نُعَيْم هنا قصة إسلام ابن مسعود، لِمَا وقع في بعض طرقه، قال: «كنتُ غلاماً يافِعاً أَرعى غَنَماً لعُقْبة بن أَبي مُعَيْط بمكة فأَتى رسول الله ﷺ وأَبو بكر، وقد فَرَّا من المشركين، فقالا: «يا غلام هل معك من لبن»؟ فذكر الحديث، ويأْتي بتمامه في المعجزات.

قال في البداية والفتح: «قوله في هذا السياق: «وقد فَرَّا من المشركين»، ليس المراد به وقت الهجرة، وإنما ذلك في بعض الأَحوال قبل الهجرة، لأَن ابن مسعود كان ممن أَسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة كما تقدم ذلك، وقصته ثابتة في الصحاح.

الحادي عشر: ذكر في «العيون» قصة سُرَاقة قبل قصة أُم معبد والتزم في أَولها أَنه يُرَتِّب الوقائع. وذكر في «الإشارة» قصتها قبل قصة سراقة، وتَبِعْتُه في ذلك وهو الصحيح الذي صرّح جماعة.

الثاني عشر: ذكر رَزِين أَن قريشاً أَقامت أَياماً لا يدرون أَين أَخذ رسول الله ﷺ، فسمِعوا صوتاً على أَبي قُبَيْس وهو يقول:

---

(١) المُهلَّب بن أبي صفرة ظالم بن سراق الأزدي العتكي، أبو سعيد أمير بطاش، جواد، قال فيه عبد الله بن الزُّبير: هذا سيد أهل العراق، وقدم المدينة مع أبيه في أيام عمر. وَوَلي إمارة البصرة لمصعب بن الزبير. وفقئت عينه بسمرقند وانتدب لقتال الأزارقة، وكانوا قد غلبوا على البلاد، وشرط له أن كل بلد يجليهم عنه يكون له التصرف في خراجه تلك السنة فأقام يحاربهم تسعة عشر عاماً لقي فيها منهم الأهوال. وأخيراً تمَّ له الظفر بهم، فقتل كثيرين وشرد بقيتهم في البلاد. ثم ولاه عبد الملك بن مروان ولاية خراسان، فقدمها سنة ٧٩هـ ومات فيها سنة ٨٣هـ. كان شعاره في الحرب: «حم لا ينصرون» وهو أول من اتخذ الركب من الحديد، وكانت قبل ذلك تعمل من الخشب. الأعلام ٣١٥/٧.

(٢) أخرجه البخاري ١٦٥/٣ ومسلم في كتاب اللقطة (١٣).

فَإِنْ يُسْلِمِ السَّعْدَانِ يُصْبِحْ مُحَمَّدٌ بِمَكَّةَ لاَ يَخْشَى خِلاَفَ الْمُخَالِفِ

كما سمعوا أيضاً البيتين السابقين في إسلام سَعْد بن مُعَاذ وسَعْد بن عُبَادة:

فَيَا سَعْدَ سَعْدَ الأَوْسِ كُنْ أَنتَ نَاصِراً وَيَا سَعْدَ سَعْدَ الْخُزرجيِّينَ الغَطَارِفِ

أَجِيبَا إِلَى دَاعِي الهُدَى وَتَمَنَّيَا عَلَى اللهِ فِي الْفِرْدَوْسِ مُنْيَةَ عَارِفِ

قال السيد: والأقرب ما تقدم من إنشاد هذه الأبيات قبل ذلك لأن السَّعْدَيْن كانا قد أسلما قبل ذلك.

الثالث عشر: في بيان غريب ما سبق:

«قِبَل المدينة»، بكسر القاف وفتح الموحدة: أي جهتها.

«على رِسْلِك»[1] بكسر أوله: أي على مَهْلِك والرِّسْل السير الرقيق.

«بِأَبِي أَنْتَ»: أَنت مُبْتَدَأ وخَبَرُه: بأبي أي: مُفِيداً بأبي، ويُحْتَمَل أن يكون أنت تأكيداً للفاعل يرجو وبأبي قَسَم.

«حَبَس نَفْسَه»: مَنَعها من الهجرة.

«السَّمُر»: بسين مهملة مفتوحة وضَم الميم: وهو الخَبَط بفتح المعجمة والموحدة وبالطاء المهملة، هذا المُدْرَج في تفسير الزهري. ويقال: السَّمُرَة اسم شجرة أُم غيلان، وقيل ورق الطَّلْح، والخَبَط ما يُخْبَط بالعصا فيسقط من ورق الشجر.

«نَحْر الظهيرة»: أَي أَول الزوال وهو أَشد ما يكون من حرارة النهار، والغالب في الحَرّ القيلولة.

«مُتقَنِّعاً»[2]: أي مُتَطَيْلِساً وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى في أبواب لباسه ﷺ.

«فِدَى»: بكسر الفاء والقَصْر وفي رواية فِدَاء بالمَدّ.

---

(١) والرسْلُ الرِّسْلَة: الرفق والتؤدة قال صخر: ويئس من أصحابه أن يلحقوا به وأحدق به أعداؤه. وأيقن بالقتل فقال:

لو أن حولي من قريم رجلاً لمنعوني نجدة أو رسلا

اللسان ١٦٤٣/٣.

(٢) القِناع والمقنعة: ما تتقنع به المرأة من ثوب تغطي رأسها ومحاسنها وقال الليث: المقنعة ما تقنع به المرأة رأسها. وفي الحديث: أتاه رجل مقنع بالحديد هو المتغطي بالسلاح وقيل: هو الذي على رأسه بيضة وهي الخوذة لأن الرأس موضع القناع. انظر اللسان ٣٧٥٥/٥.

«الصحابة»: بالنَّصْب أَي أُريد أَو أَسأَلك المصاحبة ويجوز الرفع على أَنه خَبَر مبتدأ محذوف.

«أَمِنَّاه»: بكسر الميم.

«أَحَثُّ»: بحاء مهملة فمثلثة افعل تفضيل من الحَثّ وهو الإِسراع وفي رواية: أَحَبّ بالموحدة والأَول أَصَحّ.

«الجَهَاز»(١): بفتح الجيم أَفصح من كسرها، وهو ما يحتاج إِليه المسافر.

«ذات النِّطاق»: وفي رواية: ذات النِّطاقين - بكسر النون - وهو ما يُشَدّ به الوسط، وقيل هو ثوب تلبسه المرأَة، ثم تشد وسطها بحبل، ثم ترسل الأَعلى على الأَسفل. والمحفوظ في هذا الحديث أَن أَسماء شَقَّت نِطاقها نصفين فَشَدَّت بأَحدهما الزاد واقتصرت على الآخر، ثم قيل لها: ذات النطاق وذات النطاقين، فالتثنية والإِفراد بهذين الاعتبارين. وعند ابن سعد أَنها شَقَّت نِطاقَها فَأَوْكَتْ بقطعة منه الجِرَاب وشَدَّت فم القِرْبة بالباقي فسميت ذات النطاقين.

«الخَوْخَة»(٢): بخاءين معجمتين مفتوحتين بينهما واو ساكنة: باب صغير.

«ثور»: بالمثلثة.

الرَّصَد»: بفتحتين جمع راصد كخادم وخَدَم.

«استبرأه»: يقال: استبرأْتُ الشيءَ طلبتُ آخِرَه لقطع الشبهة عني.

«أَلْقَمَه الجُحْر»: الجحر بجيم فحاء مهملة: أَي أَدخله فيه.

«العَقِب»(٣): بعين مهملة مفتوحة فقاف مكسورة فموحدة: مُؤَخَّر الرِّجْل.

«لَدَغَهُ»: بالدال المهملة والغين المعجمة: عَضَّه.

«الرَّاءة»: وهي شجرة معروفة قال أَبو حنيفة الدينوري: هي من أَغْلاث الشَّجَر - بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وتُعْجَم - وتكون مثل قامة الإِنسان ولها خيطان وزهر أَبيض تُحْشَى به المخاد فيكون كالرِّيش. لخفته ولينه لأَنه كالقطن. قال في النور: وغالب ظني أَن هذه الشجرة التي وصف أَبو حنيفة أَنها العشر كذا رأَيتها بأَرض بركة الحاج خارج القاهرة وهي تنفتق عن مثل قطن يشبه الريش في الخِفَّة ورأَيت من يجعله في اللحف في القاهرة.

---

(١) بفتح وبكسر قال الليث: وسمعت أهل الحجاز يخطئون الجهاز بالكسر. قال الأزهري: والقراء كلهم على فتح الجيم في قوله تعالى ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ قال: وجهاز بالكسر لغة رديئة. انظر اللسان ٧١٢/١.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٢٦٠/١.

(٣) انظر المصباح المنير ٤١٩.

«فتيان»: جمع كثرة لِفَتى وهو الشابّ الحَدَث.

«الهَراوَى» بفتح الهاء: جمع هِرَاوة بكسرها.

«ذرأ»[١]: بمعجمة فمهملة فهمزة: أي دفع.

«أَثَر»: مُحَرَّكَة والأَثَر بقية الشيء أَو الخَبَر، وخَرَج في أَثَرِه بعده.

«الأَرَب» بالفتح: الحاجة.

«يَنْشَب»: يَلْبَث.

«حُوّ» بالحاء المهملة والواو: جمع.

«الغار»: نَقْبٌ في الجَبَل.

«الطَّرْف»: بفتح الطاء [المهملة] وسكون الراء.

«فالصِّدْقُ»: أي ذو الصِّدْق وهو النبي ﷺ.

«لم يَرِما» بفتح أَوَّله وكَسْر ثانيه: أَي لم يَبْرَحا.

«من أَرِم»: أَي أَحَد.

«ظَنُّوا»: حَسِبُوا.

«الحَمَام»: اسم جِنْس جمعى وَاحِدُه حَمَامة يقع على الذَّكر والأُنثى.

«البَرِيَّة»: بتخفيف الراء: الخَلْق.

«النَّسْج»: بالجيم الحياكة.

«الحَوْم»[٢]: الطَّوَاف.

«الوِقاية»: بكسر الواو: الحِفْظ.

«أَغْنَتْ»: أَجْزَأَتْ.

«الدروع المُضَاعَفَة»: المنسوجة حلْقَتَيْن حلقتين تُلْبَس للحِفْظ من العَدُوّ.

«الأُطُم» بضمتين: الحصون.

«المنيف»: العَالِي.

---

(١) انظر المعجم الوسيط ٣٠٩/١، ٣١٠.

(٢) من حام حول الشيء وعليه حوماً وحوماناً: أي دار وفي الحديث «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه» المعجم الوسيط ٢١٠/١.

«حِبُّ»(١) رسول الله ﷺ: أي مَحْبُوبُه.

نَواجِذُه»:(٢): بفتح النون وكسر الجيم وضَمّ الذال المعجمة: جمع ناجذ وهو السِّنّ من الأَضْرَاس ويأْتي الكلام على ذلك في باب ضَحِكِه وتَبَسُّمِه.

«كَمَنَا»: بفتح الكاف والميم ويجوز كَسْرُها أَي اختفيا فيه.

«ثَقِف»: بثاء مُثَلَّثَة مفتوحة فقاف مكسورة ويجوز إِسكانها وضَمُّها ففاء: أَي فَطِن يُدْرِك حاجته بسرعة.

«لَقِف»(٣): بفتح اللام وكسر القاف ويجوز سكونها: أَي سريع الفهم.

«يَدَّلِج» بتشديد الدال المهملة بعدها جيم: أَي يخرج بسَحَر.

«يُكَادَان»: وفي رواية يُكْتَادان: أَي يُطْلَب لهما فيه المكروه وهو الكَيْد.

«مِنْحَة»: بكسر الميم وسكون النون فحاء مهملة.

«رِسْل» بكسر الراء بعدها مهملة ساكنة: اللَّبَن.

«الرَّضِيف»: براء فضاد معجمة ففاء وزن رغيف: اللَّبَن المرضوف الذي رُضِفَتْ فيه الحجارة المُحْمَاة بالشمس أَو النار لينعقد وتزول رَخَاوتُه، وهو بالرفع ويجوز الجَرّ.

«يَنْعِق»: بكسر العين المهملة أَي يصيح بغَنَمه، والنَّعْق هو صوت الراعي إِذا زَجَر الغَنَم، وفي رواية: يَنْعِقُ بهما بالتثنية أَي يُسْمِعُهُمَا صوْتَه إِذا زجَرَ غَنَمَه.

«الدِّيل»: بكسر الدال المهملة وسكون التحتية.

«الخِرِّيت»: بكسر الخاء المعجمة وتشديد الراء فمثناة تحتية ساكنة فمثناة فوقية، وهو الماهر بهداية الطريق.

«العُتْبَى»: بضم العين المهملة الرِّضَا.

«بوائق الدَّهْر»(٤): غوائلُه وشروره واحدُها بائقة وهي الداهية.

---

(١) الحب: هو الحبيب مثل حزن وحزين. قال ابن بري رحمه الله: الحبيب يجيء تارة بمعنى المحب كقول المخبل:

أتهجر ليلى بالفراق حبيبها وما كان نفساً بالفراق تطيب

أي محبها، ويجيء تارة بمعنى المحبوب كقول ابن الرهينة:

وإن الكثيب الفرد من جانب الحمى إليّ وإن لم آته لحبيب

اللسان ٢/ ٧٤٣ .

(٢) وقيل: الناجذ: آخر الأضراس وهو ضرس الحلم لأنه ينبت بعد البلوغ وكمال العقل وقيل: الأضراس كلها (نواجذ) قال في البارع: وتكون النواجذ للإنسان والحافر وهي من ذوات الخف الأنياب. المصباح المنير ص ٥٩٣.

(٣) لقف الشيء لقفاً ولقفاناً: تناوله بسرعة، وأخذه بفمه فابتلعه. واللقف: يقال: رجل ثقف لقف سريع الأخذ لما يرمي إليه باليد وسريع الفهم لما يرجى إليه من كلام باللسان. الوسيط ٢/٨٣٥.

(٤) المفرد بائقة: أي داهية، ويقال: داهية بؤوق أي شديدة، قال الكسائي: باقتهم الباقة تبوقهم بوقاً أصابتهم. اللسان ٣٨٨/١.

«قائمُ الظَّهيرة»[١]: أي نصف النهار، سُمِّيَ قائماً لأَن الظِلّ لا يظهر حينئذ فكأَنه واقف.

«رُفِعَتْ لنا صَخْرَة»: أي ظهرت.

«الفَرْوَة» معروفة ويقال فيها فَرْو بحذف الهاء وهو الأَشهر في اللغة ولا يتجه أَن يكون المُرَادُ بها الفَرْوَة من الحشيش لقوله: كانت معي.

«وأَنا أَنْفُضُ لَكَ ما حَوْلَكَ» أَنْفُضُ بفتح الهمزة وسكون النون وضَمّ الفاء بعدها ضاد معجمة، أَي أَتَحَسَّسُهُ وأَتَعَرَّفُ ما فيه مِمَّن تَخَافُهُ ـ قاله في التقريب وفي النهاية ـ أَي أَحرسك وأَطوف هل أَرى طلباً.

«لِرَجُل من المدينة أَو مكة»: شك في ذلك أَحمد بن يزيد، ورواه مسلم من طريق الحسن بن محمد بن أَعين عن زهير فقال فيه: «لرجل من أَهل المدينة»، ولم يَشُكّ. ووقع في رواية ابن جُرَيْج: «فَسَمَّى رجلاً من أَهل مكة»، ولم يَشُكّ. قال الحافظ: «والمراد بالمدينة مكة، ولم يُرِدْ المدينة النبوية لأَنها حينئذ لم تكن تسمى المدينة، وإِنما كان يُقَال لها يَثْرِب. وأَيضاً لم تَجْرِ العادة للرُّعَاة أَن يُبْعِدوا في الرعي هذه المسافة البعيدة. ووقع في رواية إِسرائيل فقال: «لِرَجُل من قريش سَمَّاه فعرفتُه»، وهذا يؤيد ما قررته لأَن قريشاً لم يكونوا يسكنون المدينة النبوية».

«أَفي غنمك لَبَن»؟ بفتح اللام والموحدة، وحكى القاضي أَن في روايةٍ لُبَّن، بضم اللام وتشديد الموحدة جمع «لاَبِن»[٢] أَي ذات لَبَن.

«العَنَاق»[٣]: بفتح العين المهملة: الأُنثى من المعز: «فأَخَذْتُ قدحاً فَحَلَبْتُ»: وفي رواية: «أَمَرْتُ الراعي فحلب»، ويُجْمَع بأَنه يجوز في قوله «فَحَلَبْتُ»: مراده أَمَرْتُ بالحَلْب.

«كُثْبَة»[٤]: بضم الكاف وسكون المثلثة وفتح الموحدة: أَي قَدْر قَدَح، وقيل: حَلْبَة خفيفة..

«بَرَد أَسْفَلُه»: بفتح الراء على المشهور وقال الجوهري بضمها.

---

(١) الوسيط ٢/٥٧٨.

(٢) يقال: شاة لبون ولبنة وملبنة وملبن: صارت ذات لبن وإذا كانت ذات لبن في كل أحابينها فهي لبون وولدها في تلك الحال ابن لبون واللبن جمع اللبون لسان العرب ٥/٣٩٩٠.

(٣) الأنثى من أولاد المعيز والغنم من حين الولادة إلى تمام حول جمعها أعنق وعنق وعنوق. الوسيط ٢/٦٣٢.

(٤) كل قليل مجتمع من طعام أو لبن أو غير ذلك جمعها كثب. الوسيط ٢/٧٧٧.

شرح قصة أم معبد رضي الله عنها

«الخزاعية»: بضم الخاء المعجمة فزاي فعين مهملة.

«بَرْزَة»: يقال امرأة بَرْزَة إذا كانت كهلة لا تحتجب احتجاب الشوابّ وهي مع ذلك عفيفة عاقلة تجلس للناس وتُحدِّثُهم، من البروز وهو الظهور.

«جَلْدَة»: إما قوية وإما عاسِيَة.

«الفِنَاء» سعة أمام البيت، وقيل: ما امْتَدَّ من جوانبه.

«تَسْقِي»: تُنَاوِلهُم السَّقْي ليشربوا منه.

«مُرْمِلُون»: بضم الميم وسكون الراء، نَفَدَ زَادُهم وأصله من الرَّمْل كأنهم لَصِقوا بالرَّمْل كما قيل للفقير التَرِب بفتح التاء وكَسْر الراء.

«مُسْنِتون»: بكسر النون والمثناة الفوقية، أي أَجْدَبُوا أي أصابتهم سَنَة وهي القَحْط يقال: أَسْنَتَ فهو مُسْنِت إذا أجدب.

«أَعْوَزْنَاكم»: أَحْوَجْنَاكُمْ.

«كَسْر الخَيْمة»[1]: بفتح الكاف وكَسْرِها وسكون المهملة، أي جانبها، ولكل بيت كِسْرَان عن يمين وشِمَال.

«كِفَاءُ البيت»: قال في القاموس: الكِفَاءُ كَكِتاب سُتْرَةٌ من أعلى البيت إلى أسفله من مُؤَخَّرِه أو الشُّقَّة في مُؤَخَّر الخِبَاء أو كِسَاءٌ يُلْقَى على الخِباء حتى يَبْلُغَ الأَرْضَ وقد أَكفأْتُ البَيْتَ.

«الجُهْد»: بالفتح ويُضَمّ: الطَّاقة، وقيل: بالفتح المشقة وبالضم الطاقة والمراد هنا الهُزَال.

«ضَرَبَها فَحْل»: أَلْقَحها..

«شَأْنَكَ»: منصوب، أي أَصْلِحْ شَأْنَك، أو نحو هذا، فهو مفعول بِفِعْل مُقَدَّر.

«فَفَاجَّتْ»: بالمد وتشديد الجيم: فتحت ما بين رِجْلَيْها للحَلْب.

«يُرْبِض»: بضم المثناة التحتية فراء ساكنة فَمُوَحَّدَة مكسورة فضاد معجمة. قال في النهاية: أي يُرْوِيهم ويُثْقِلُهُمْ حتى يناموا ويمتدوا على الأرض، من رَبَض في المكان يَرْبِضُ إذا لَصِقَ به وأقام ملازماً له، يقال: أَرْبَضَتْ الشمسُ إذا اشْتَدَّ حَرُّها حتى تَرِيضَ الوَحْش في كِنَاسِها، أي تجعلها تَرْبِضُ فيه ويُرْوَى بمثناة تحتية بعد الراء: يُرِيضُ[2] الرَّهْطَ أي يُرْوِيهم من

(١) الكسر بفتح الكاف وكسرها: الشقة السفلى من الخباء، والكسر أسفل الشقة التي تلي الأرض من الخباء، وكسر أكل كل شيء ناحيتاه حتى يقال لناحيتي الصحراء كسرها لسان العرب ٣٨٧٣/٥.

(٢) من أراض الوادي واستراض أي استنقع فيه الماء، وكذلك أراض الحوض. ومنه قولهم: شربوا حتى أراضوا أي رووا فنقعوا بالري اللسان ١٧٧٥/٣.

أَرَاضَ الحَوْضَ إذا صَبَّ فيه من الماء ما يُوَاري أَرْضَه. والرَّوْضُ نحو من نصف قِرْبَة.

«الرَّهْطَ»: بسكون الهاء وفتحها: ما دون العشَرة من الرجال ليس فيهم امرأَة أَو منها إِلى الأَربعين.

«ثَجّاً»: أَي لبناً سائلاً كثيراً.

«عَلاَهُ البهاء»: أَي علا الإِناء بهاء اللبن وهو بريق رَغْوَتِه، وفي رواية: الثُّمَال بضم المثلثة الرَّغْوَة.

«العَلَل»: بفتح العين المهملة ولامَيْن الأُولى مفتوحة: الشُّرْب الثاني.

«النَّهَل»[1] بفتح النون والهاء وتُسَكَّن وباللام: الشّرْب الأَول.

«غَادَرَهُ»: بالغين المعجمة: تَرَكَهُ.

«الصَّبُوح». بفتح المهملة وبالموحدة: ما يُشْرَب بالغداة فما دون القائلة.

«والغَبُوق»: بفتح الغين المعجمة: الشرب بالعَشِيّ.

«الحِيال»[2]: جَمْع حائل وهي التي لم تَحْمِلْ.

«عِجَافاً»: بكسر العين المهملة: جمع عَجْفَاء وهي المهزولة من الغَنَم وغيرها.

«الشَّاء» جمع شاة.

«عازب»[3]: بعين مهملة فزاي فموحدة: أَي بعيدة المَرْعَى لا تأْوي إِلى المنزل في الليل.

«لا حلوب في البيت»: أَي لا شاة تُحْلَب.

«الوَضَاءة»: بفتح الواو وبالضاد المعجمة والهمزة: الحُسْن والبهجة.

«أَبْلَج الوجه»: بالموحدة وبجيم: أَي مُشْرِقُهُ مُسْفِرهُ، ومنه تَبَلَّج الصبح وانْبَلَج. فأَما الأَبْلَج فهو الذي قد وَضَحَ ما بين حاجبيه فلم يَقْتَرِنا، والاسم البَلَج بفتح اللام، ولم تُرِدْ هذا أُم معبد لأَنها قد وصفته في حديثها بالقَرَن.

«الأَشْفَار»: جمع شُفْر بضم الشين المعجمة وقد تُفْتَح: وهو طرف جَفْن العَيْن الذي يَنْبُت عليه الشَّعْر، والمراد هنا الشَّعْر النابت.

---

(١) الوسيط ٩٥٩/٢.

(٢) من حالت الناقة تحيل حيالاً: لم تحمل والواو في ذلك أعرق قال الشاعر:

من سَرَاةِ الهِجَان صَلَّبَها العُضْـ ـضُ ورَعْيُ الحِمَى وطولُ الحَيَالِ

اللسان ١٠٧٣/٢.

(٣) العازب: البعيدَ المُطلب وأَنْشَدَ

وعازب نَوَّرَ في خلائِه

اللسان ٢٩٢٣/٤.

«الوَطَف»(١): بفتح الواو والطاء المهملة وبالفاء: الطول، فمعنى الكلام أن في شعر أجْفَانه طولاً، قال في الإملاء: يُرْوَى الغَطَف والعَطَف بالغين المعجمة والعين المهملة، فمعناه بالمعجمة مثل معنى الوَطَف، وأما بالمهملة فلا معنى لها، وقد فَسَّره بعضهم فقال: هو أن تطول أشفار العَيْن حتى تنعطف.

«الدَّعَج»: بفتح الدال والعين المهملتين وبالجيم والدُّعْجَة بإسكان العين: السواد في العَيْن يريد ـ والله أعلم ـ أن سواد عينه شديد السواد.

الصَّحَل»(٢): بفتح الصاد والحاء المهملتين وباللام: وهو كالبُحَّة وألا يكون حَادّ الصوت، يقال منه صَحِل الرَّجُلُ بالكسر يَصْحَلُ بالفتح صَحَلاً بفتحَتَيْن إذا صار أَبَحّ فهو صَحِل وأصْحَل.

«ولا يَشْنَؤُهُ»: بالشين المعجمة والنون وقبل هاء الضمير همزة مضمومة: أي لا يبغضه لِفَرْطِ طوله ـ ويُرْوَى لا يُتَشَنَّى من طول، أبدل الهمزة ياءً، يقال شنئته أشنؤه شَناً وشنآناً.

«ولا تَقْتَحِمُهُ عَيْنٌ من قِصَر»: أي لا تتجاوزه إلى غيره احتقاراً له، وكل شيءٍ ازْدَرَيْتَه فقد اقْتَحَمْتَه.

«لم تَعِبْهُ ثُجْلَة»(٣): الثُّجْلَة: بضم الثاء المثلثة ثم جيم ساكنة ثم لام مفتوحة: هي عِظَم البطن وسعته، ويُرْوَى بالحاء المهملة والنون أي نحولٌ ودِقَّة.

«لم تُزْرِ به»: أي لم تُقَصِّر.

«صَعْلَة»: بفتح الصاد وإسكان العين المهملتين، والصَّعْلَة(٤) صِغَر الرأْس وهي أيضاً الدِّقَّة والنحول في البدن. وفي رواية: لم تُزْرِ صُقْلَة بالقاف أي دِقَّة ونحول وقيل: أرادت أنه لم يكن مُنْتَفِخَ الخاصِرة جِدّاً ولا ناحِلاً جِدّاً، ويُرْوَى بالسين على الإبدال من الصاد. قال أبو ذَرّ الخُشَنِي: الصُّقْلَةُ جِلْدةُ الخاصِرة تريد أنه ناعم الجسم ضامر الخاصِرَة وهو من الأوصاف الحسنة.

«الهاتف»: الصائح.

«أبو قُبَيْس»: بضم القاف وفتح الموحدة فمثناة تحتية ساكنة: جَبَلٌ بمكة معروف سُمِّيَ

---

(١) كثرة شعر الحاجبين والعينين والأشفار مع استرخاءٍ وطول، وقد يكون ذلك في الأُذُن، رَجُل أَوْطَف بَيْن الوطف وامرأة وَطْفَاء إذا كَانَا كَثِيري شعر أهداب العين. لسان العرب ٤٨٦٨/٦.

(٢) انظر اللسان ٢٤٠٥/٤.

(٣) من ثجل ثجلا عظم بطنه واسترخى فهو أثجل وهي ثجلاء جمعها ثُجل. انظر المعجم الوسيط ٩٤/١.

(٤) الصعل والأصعل: الدقيق الرأس، والعنق، والأنثى صعلة وصعلاء. انظر اللسان ٢٤٥١/٤.

باسم رجل من مَذْحِج حَدَّاد لأنه أَول مَنْ بَنَى فيه. وكان أَبو قُبَيْس الجبل هذا يسمى الأَمين لأَن الركن أَي الحجر الأَسود كان مستودعاً فيه.

«قَالاً»: من القيلولة وهي نصف النهار.

الهَدْي»: بفتح الهاء وإسكان الدال المهملة: والهَدْي الطريق، ولا يصح ضمها للوزن، ويعني بالطريق الطريق الموصلة إلى الجنة.

«قُصَيّ»: بضم القاف وفتح الصاد المهملة وتشديد التحتية: تقدم الكلام عليه في النسب.

«ما زَوَى»(١): بفتح الزاي والواو: أَي جَمَعَ وقَبَض.

«من فَعَال»: الظاهر أَنه بفتح الفاء وتخفيف العين وهو الكَرَم، ويجوز أَن يكون بكسر الفاء جمعاً.

«لا يُجَارَى»: بالراء وفي رواية: يُجَازى بالزاي.

«السُودَد»: بضم السين وإسكان الواو، يقال سَادَ قَوْمَه سيادةً وسُودَداً وهو مصدر.

«الصريح»: بالصاد والحاء المهملتين: وهو اللَّبَن الخالص الذي لم يُمْذَق.

«الضَّرَّة»(٢): بفتح الضاد المعجمة وتشديد الراء والمثناة الفوقية: أَصل الضَّرْع.

«مُزْبِد»: بضم الميم وإسكان الزاي فموحدة مكسورة فدال مهملة: أَي علاه الزَّبَد.

«غادرها»: بالغين المعجمة والدال المهملة: تركها..

«في مَصْدَرٍ ثم مَوْرِد»: أَي يحلبها مرةً ثم أُخرى.

شرح شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه

«قُدِّس»: بضم القاف وكسر الدال المهملة المشددة وبالسين المهملة مبني للمفعول أَي طُهِّرَ.

«يَرْشُدِ»: بضم الشين المعجمة وبفتحها كنصَرَ يَنْصُر وفرح يَفْرَح، والمصدر رُشْداً ورَشَداً ورشاداً: أَي يهتدي.

«بِأَسْعُد»: بضم العين، جمع سَعْد جمع قِلَّة.

---

(١) زواه: قبضه قال الأعشى:

يزيد بغضّ الطرف عندي كأنما زوى بين عينيه على المحاجم

اللسان ١٨٩٤/٣.

(٢) انظر المعجم الوسيط ٥٣٨/١.

«سَعَادةُ»: بالرفع: فاعل يَهْنَأَ، وأَبو بكر مفعوله.

«جَدُّه»[(١)]: بفتح الجيم وهو حظه.

«مَنْ يُسْعِدِ الله يُسْعَدِ»: يجوز أَن يكون مبنياً للفاعل وللمفعول أَيضاً.

«عُظْم الحَيّ»: بضم أَوَّلِه وسكون ثانيه أَي أَكثره.

«القِرَى»: بكسر القاف.

«مُتَنَحِّياً»: مُنْفرِداً.

«الشَّفْرَة»: بفتح الشين المعجمة وسكون الفاء وفتح الراء: المُدْيَة وهي السِّكِّين العريض والجمع شِفَار مثل كَلْبَة وكِلاَب وشَفْرَات مثل سَجْدَة وسَجْدَات.

«الجَلَب»[(٢)]: بفتح الجيم واللام: ما يُجْلَبُ من بلدٍ إِلى بلد.

«الأَقِط»: ككَتِف ويُسَكَّن مُثَلَّث الهمزة: شيءٌ يُتَّخَذ من اللبن المَخِيض، قال ابن الأَعرابي: من أَلبان الغَنَم خاصَّةً.

شرح قصة سراقة بن مالك رضي الله عنه

«مُدْلِج»: بضم الميم.

«أَسْوِدَة»: جمع سَوَاد وهو الشخص.

«رَكَبَة»: بفتح الراء والكاف: أَقَلّ من الرَّكْب وهو عشرة فما فوقها وهم أَصحاب الإِبل، والأُرْكُوب أَكثر من الرَّكْب والرُّكْبان الجماعة منهم.

«أُرَاها»: بضم الهمزة: أَي أَظُنُّها.

الأَكَمَة: بفتح الهمزة والكاف والميم: الرَّابِية.

«فَخَطَطْتُ به» بالخاء المعجمة وفي رواية: بالحاء المهملة أَي أَمسكت بأَعلاه وجعلتُ أَسفله في [الأَرض].

الزُّجّ[(٣)]: بضم الزاي بعدها جيم: الحَدِيدة التي في أَسفل الرُّمْح.

«خَفَضْتُ عالِيَه»: أَي أَمسكه بيده وجَرَّ رمحه لئلا يظهر بريقه لمن بَعُد منه، لأَنه كَرِه أَن يَتْبَعَه منهم أَحد فيَشْركه في الجَعَالة.

---

(١) الجد: البخت والحظوة، والحظ والرزق. اللسان ١/٥٦٠.

(٢) من جلب الشيء جلباً أي اجتمع، وجلب الشيء ساقه من موضع إلى آخر فهو جالب وجلاب وفي المثل: رب أمنية جلبت منية. الوسيط ١/١٢٨ .

(٣) زججت الرمح زجًا من باب قتل جعلت له زجاً وزججت الرجل زجاً طعنته بالزج. المصباح المنير ص ٢٥١.

«دَفَعْتُها»: بتخفيف الفاء يقال: دَفَعَ الفَرَسَ في السَّيْر إذا بالغ ودَفَعه يَتَعَدَّى ولا يَتَعَدَّى.

«تُقَرِّبُ بي»: التقريب السَّيْر دون العَدْو وفوق العادة وقيل أَن ترفع الفَرسُ يَدَيْهَا معاً وتضعهما معاً.

«أَهْوَيْتُ» بيدي: بَسَطْتُها للأَخذ.

الكِنَانة»: بكسر الكاف: الخريطة المستطيلة التي يجعل فيها السهام.

الأَزلام»: واحدها زلم بفتحتين وبفتحة فَضَمَّة وهو القِدْح واحِدُ القِدَاح بكسر القاف وهو عيدان السهام قبل أَن تُرَاش ويركب فيها النِّصَال، فإذا فُعِل ذلك فهي سِهَام. وكان أَهل الجاهلية يَسْتَقْسِمُونَ بها مكتوبٌ عليها الأَمر والنهي أَي: إِفْعَلْ: لا تَفْعَلْ، فما خَرَج منها عَمِلوا به. والاستقسام بها هو الضَّرْبُ بها لإخراج ما قَسَم الله لهم من أَمْر وغيره بِزَعْمِهم. قال الحافظ أَبو العَبَّاس تَقِيّ الدين الحَرَّاني: «إِن القُرْعة التي مع الطرقية التي فيها ا ب ج د من الأَزلام، ونقل ذلك عن أَبي جعفر النَّحَّاس.

«سَاخَتْ»[1]: بسين مهملة فأَلف فخاء معجمة: أَي غاصت.

«ارتطَمَتْ به»: أَي سَاخَتْ قَوَائِمُها في الأَرض.

«عُثَان»: بضم العين المهملة والثاء المثلثة المخففة: شبه الدُّخَان.

«أَن سيظهر»: مرفوع، و «أَن» قبله مُخَفَّفة من الثقيلة وتقديره: سيظهر.

«فلم يَرْزَآني»: براء فزاي: لم يُنْقِصَاني مما معي شيئاً.

«أَخْفِ عَنَّا»[2]: بفتح الهمزة.

«قُدَيْد»: بضم القاف وفتح الدال المهملة ثم مثناة تحتية ساكنة فدال مهملة أُخرى، موضع بين مكة والمدينة.

«بمِجَن»[3]: بكسر الميم وفتح الجيم وتشديد النون: التُّرْس سُمِّيَ مِجَنًّا لأَنه يواري حامله أَي يستره.

---

(١) انظر المصباح المنير ٢٩٤.

(٢) أَخْفِ عَنَّا: أَي استُر الخبر لِمَنْ سألك عنّا. انظر النهاية ٥٧/٢.

(٣) انظر المعجم الوسيط ١٣٧/١، ١٤١.

الباب الخامس

في تلقي أهل المدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزوله بقباء وتأسيس مسجد قباء

روى البخاري عن عائشة، وابن سعد عن عبد الرحمن بن عُوَيْم بن ساعدة عن جماعة من الصحابة أَن المسلمين بالمدينة لما سمعوا بِمَخْرَج رسول الله ﷺ من مكة وتَوَكَّفوا قدومَه كانوا يخرجون إذا صَلُّوا الصبح إلى ظاهر الحَرَّة ينتظرونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال، ويؤذيهم حَرُّ الظهيرة. فإذا لم يجدوا ظِلاً دخلوا، وذلك في أيّام حَارَّة حتى كان اليوم الذي قَدِم فيه رسول الله ﷺ حين دخلوا البيوت فَأَوْفَى رجل من اليهود على أُطُم من آطامهم لأَمر ينظر إليه، فَبَصُرَ برسول الله ﷺ وأصحابه مُبَيَّضِين، يلوح بهم السَّراب، فلم يَمْلِك اليهودي نَفْسَه فصرخ بأعلى صوته: «يا بني قَيْلَة»، وفي لفظ: يا مَعْشَر العرب، «هذا جَدُّكم»، وفي لفظ: هذا صاحبكم الذي تنتظرون، «قد جاء». فثار المسلمون إلى السلاح، فَتَلَقَّوْا رسولَ الله ﷺ بظَهْر الحَرَّة وذلك يوم الاثنين لشهر ربيع الأَول، فخرجوا إلى رسول الله ﷺ وهو في ظِلِّ نَخْلَة ومعه أَبو بكر في مثل سِنِّه. وقام أَبو بكر للناس، وجلس رسول الله ﷺ صامِتاً، فطَفِقَ مَنْ جاء من الأَنصار مِمَّنْ لم يرَ رسولَ الله ﷺ يُحَيِّي أَبا بكر حتى أَصابت الشمس رسولَ الله ﷺ فأقبل أَبو بكر حتى ظَلَّلَ عليه بردائه فعرف الناس رسول الله عند ذلك.

وفي رواية: «فلما رَأَوْا أَبا بكر ينحاز له عن الظِلِّ عرفوا رسول الله ﷺ فعَدَل بهم رسول الله ﷺ ذات اليمين حتى نزل بهم عُلُوَّ المدينة بقُبَاء في بني عَمْرو بن عوف على كلثوم بن الهِدْم بكسر الهاء وسكون الدال المهملة، قيل: «وكان يومئذ مشركاً، وبه جَزَم محمد بن الحَسَن بن زَبَالة»، وقيل: «إنما نَزَلَ على سَعْد بن خَيْثَمَة». قال رَزِين: «والأَول أَصَحّ» وقال الحاكم إنه الأَرْجَح، [قال]: «وقد قاله ابنُ شهاب وهو أَعْرَف بذلك من غيره» وقال الدمياطي: «إنه أَثْبَت». وقال بعضهم «إن رسول الله ﷺ نزل على كلثوم بن الهِدْم وكان يخرج للناس من منزله فيجلس للناس في بيت سعد بن خَيْثَمَة لأَنه كان عَزَباً لا أَهل له هناك وكان مَنْزِل العُزَّاب من أَصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين فمن هنالك يقال: نزل على سعد بن خيثمة. ونزل أَبو بكر على خُبَيْب بن إساف[1] أَحد بني الحارث بالسُّنْح - بسين مهملة مضمومة فنون ساكنة فحاء مهملة. ويُقال: على خارجة بن زيد بن أَبي زهير أَخي بني الحارث بن الخزرج».

---

(١) خبيب بن إساف، وقيل: يساف، ابن عتبة بن عمرو بن خديج بن عامر بن جشم بن الحارث بن الخزرج بن ثعلبة، الأنصاري الخزرجي، شهد بدراً وأحداً والخندق، وكان نازلاً بالمدينة وتأخر إسلامه حتى سار النبي ﷺ إلى بدر فلحق النبي ﷺ في الطريق فأسلم أسد الغابة ١١٨/٢.

وروى الزبير بن بَكّار عن عبد الله بن حارثة قال: «نزل رسول الله ﷺ على كلثوم بن الهِدْم، فصاح كلثوم بغلام له فقال: يا نُجَيْح. فقال رسول الله ﷺ: «أَنْجَحْتَ يا أبا بكر» وأقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمكة بعد مَخْرج رسول الله ﷺ أياماً ـ قال بعضهم: ثلاثة ـ حتى أدّى للنّاس ودائعهم التي كانت عند رسول الله ﷺ وخَلّفَهُ لِيَرُدّها، ثم خرج فلَحِقَ برسول الله ﷺ بقُبَاء فنزل على كلثوم بن الهِدْم.

وقال عَلِيٌّ فيما رواه ابن إسحاق ورزين: «كنتُ نزلت بقُبَاء وكانت امرأة مسلمة لا زوج لها، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل فيَضْرِب عليها بابَها، فتخرج إليه فيعطيها شيئاً معه فتأخذه فاسْتَرَبْتُ شَأْنَه، فقلت لها: يا أَمَةَ الله، مَنْ هذا الرجل الذي يَضْرِب عليكِ بَابكِ كُلّ ليلة فَتَخْرجين إليه فيُعْطِيكِ شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأةٌ مسلمة لا زوج لك؟ قالت: هذا سَهْل بن حُنَيْف، قد عَرَف أني امرأة لا أَحَدَ لي، فإذا أَمْسَى عَدَا على أوثان قومه فكسرها ثم جاءني بها. فقال: احْتَطِبِي بها، فكان عليّ يَأثِرُ ذلك من أمر سَهْل بن حُنَيْف حين هلك عنده بالعراق.

وكان لكلثوم بن الهِدْم مِرْبَد، والمِرْبَد الموضع الذي يُبْسَط فيه التَّمْر ليجفَّ، فأخذه منه رسول الله ﷺ فَأَسَّسَه وبناه مَسْجِداً. وفي الصحيح عن عُرْوَة: «فَلَبِث في بني عَمْرو بن عَوْف وأَسَّسَ المسجد الذي أُسّس على التقوى». وفي رواية عبد الرَّزَّاق عنه قال: «الذين بَنى فيهم المسجد الذي أُسّس على التقوى» هم بنو عَمْرو بن عَوْف وكذا عند ابن عائذ ولفظه: «ومَكَثَ في بني عَمْرو بن عَوْف ثلاث ليالٍ واتَّخَذَ مكانَه مسجداً فكان يصلي فيه ثم بناه بنو عَمْرو بن عَوْف فهو الذي أُسّس على التقوى».

وروى يونس بن بكير في زيادات المغازي عن المسعودي عن الحَكَم بن عُتَيْبة ـ بضم العين المهملة وفَتْح الفوقية وسكون التحتية وبالمُوَحّدَة ـ قال: لما قدم النبي ﷺ فَنَزَلَ بِقبَاء قال عَمّار بن يَاسِر: «ما لرسول الله ﷺ بُدّ من أن يجعل له مكاناً يَسْتَظِلُّ به إذا استيقظ ويُصَلِّي فيه». فجَمَعَ حِجَارةً فَبَنَى مَسْجِدَ قبَاء فهو أول من بنى مسجداً ـ روى الحافظ والسيد ـ يَعْني لعَامّة المسلمين أو للنبي ﷺ بالمدينة، وهو في التحقيق أوّل مسجدٍ صَلّى فيه بأصحابه جَمَاعةً ظاهِراً، وإن كان قد بُنِيَ غَيْرُه من المساجد، فقد روى ابن أبي شيبة عن جابر رضي الله عنه قال: لقد لَبِثْنا بالمدينة قبل أن يَقْدَمَ علينا النبي ﷺ سَنَتَيْن نَعْمرُ المساجِدَ ونقِيمُ الصلاة، ولذا قيل: كان المُتَقَدِّمُونَ في الهجرة من أصحاب رسول الله ﷺ والأنصار بقُبَاء قد بَنَوْا مسجداً يُصَلُّون فيه، يعني هذا المسجد، فلما هاجر رسول الله ﷺ، وَوَرَدَ قُبَاء صَلَّى بهم فيه إلى بيت المقدس، ولم يُحْدِث فيه شيئاً أي في أوّل الأمر لأن ابن شَبّة ـ بالشين المعجمة

والـمُوَحَّدة الـمُشَدَّدَة المفتوحتَيْن - روى ذلك، ثم روى أن النبي ﷺ بنى مسجد قُبَاءٍ، وقَدَّم القِبْلَة إلى موضعها اليوم وقال: «جبريل يَؤُمّ بي البيت»(١).

وروى الطبراني عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه قال: لما سَأَلَ أَهْلُ قُبَاء النَّبيَّ ﷺ أن يبني لهم مسجداً قال رسول الله ﷺ: لِيَقُمْ بعضكُم فيركب الناقة، فقام أبو بكر رضي الله عنه فَرَكِبَها فحرَّكها فلم تنبعث فرجع فقعد فقام عُمَر رضي الله عنه فركبها فلم تَنبعث فرجع فقعد فقال رسول الله ﷺ لأَصحابه: «ليَقُمْ بعضُكم فيركب الناقة»، فقام عَلِيّ رضي الله عنه، فلما وَضَع رِجْلَه في غَرْز الرِّكاب وثَبَتَ به فقال رسول الله ﷺ: «أَرْخِ زِمَامَها وابْنُوا على مَدَارها فإنها مأمورة». وروى الطبراني بَسَنَدٍ رَجالُه ثقات عن الشَّمُوس - بفتح الشين المعجمة - بنت النعمان رضي الله عنها قالت: «نظرتُ إلى رسول الله ﷺ حين قَدِمَ ونَزَلَ وأَسَّس هذا المسجد: مسجد قُبَاء، فرأيته يأخذ الحَجَر أو الصَّخْرَة حتى يَهْصِرَهُ الحَجرُ، وأَنظر إلى بياض التراب على بَطْنه أو سُرَّته فيأتي الرجل من أصحابه ويقول: يا رسول الله بأبي أنت وأُمي اعْطِنِي أَكْفِكَ، فيقول: «لا خُذْ مِثْلَه»، حتى أَسَّسَه، ويقول: «إن جبريل عليه السلام هو يَؤُمّ الكعبة» قالت: فكان يُقَال: إنه أَقْوَمُ مَسْجِدٍ قِبْلَةً.

قال السيد: «قد صَحَّ أنه ﷺ كان يستقبل بيت المقدس حتى نُسِخَ ذلك وجاء نقباؤهم في صلاة الصبح فأخبرهم وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، فيُحْتَمَل أن جبريل عليه السلام كان يَؤُمّ [به] البيت ليُسْتَدَلّ به على جهة بيت المقدس لتقابل الجهتَيْن ويُعْلِمه بما يؤول إليه الأمر من استقبال الكعبة. أو أنه ﷺ كان مُخَيَّراً في ابتداءِ الهجرة في التَّوَجُّه إلى بيت المقدس أو إلى الكعبة، كما قاله الربيع، فَأَمَّ به جبريل البَيْتَ لذلك، واختياره الصلاةَ لبيت المقدس أولاً لاستمالة اليهود أو أن استقبال الكعبة كان مشروعاً في ذلك الوقت ثم نُسِخَ ببيت المقدس ثم نُسِخ بالكعبة كما قاله القاضي أبو بكر بن العربي وغيره من أن القبلة نُسِخَتْ مرتين، أو أن ذلك تأسيس آخر غير التأسيس الأول. ويدل على هذا ما قَدَّمناه من رواية ابن شَبَّة».

وروى ابن شَبَّة أيضاً أن عبد الله بن رواحة كان يقول وهو يبنون في مسجد قُبَاء: «أَفْلَحَ مَنْ يَعْمُرُ المساجِدَا»، فقال رسول الله ﷺ: «المساجدا»، فقال عبد الله: «ويَقْرأُ القرآن قائماً وقاعِداً»، فقال رسول الله ﷺ: «وقاعِدَا» فقال عبد الله: «ولا يبيتُ اللَّيْلَ عنه راقِدا»، فقال رسول الله ﷺ: «رَاقِدَا».

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/٢/٥.

تنبيهات

الأول: اختُلِف في قَدْر إقامته في بني عَمْرو بن عَوْف، ففي الصحيح عن ابن شهاب عن عُرْوة بن الزبير أَنه ﷺ لَبِثَ فيهم بضع عشرة ليلة. وفيه عن أَنس أَنه أَقام فيهم أَربع عشرة ليلة، وقدمه في الإِشارة، وقيل: خمس ليال قاله ابن إِسحاق. وقال ابن حِبَّان: أَقام بها الثلاثاء والأَربعاء والخميس، يعني وخرج يوم الجمعة فلم يَعْتَدّ بيوم الخروج. وقال ابن عباس وابن عُقْبَة: ثلاث ليل، فكأَنهما لم يَعْتَدًّا بيومَيْ الخروج ولا الدخول. وعن قَوْمٍ من بني عَمْرو بن عوف أَنه أَقام فيهم اثنين وعشرين يوماً.

الثاني: المُعْتَمَد أَنه ﷺ دخل قُبَاء يوم الاثنين كما في الصحيح، قال ابن عُقْبَة: لهلال ربيع الأَول أَي أَول يوم منه، وفي رواية جرير بن حازم عن ابن إِسحاق قَدِمَها لليلتَيْن خَلَتَا من شهر ربيع الأَول، وفي رواية إِبراهيم بن سعد عن ابن إِسحاق: قَدِمها لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأَول، وعند أَبي سعيد في شرف المصطفى من طريق أَبي بكر بن حزم قال: قَدِم المدينة لثلاث عشرة من ربيع الأَول، وهذا يُجْمَع بينه وبين الذي قبله بالحمل على الاختلاف في رؤية الهلال.

الثالث: قال الحافظ: الأَكثر أَنه قَدِم نهاراً، ووقع في رواية مسلم ليلاً ويُجْمَع بأَن القدوم كان آخر الليل فدخل نهاراً.

الرابع: في بيان غريب ما سبق:

«تَوَكَّفوا»: انتظروا.

«الظهيرة»: بفتح الظاء المعجمة وكسر الهاء بعدها مثناة تحتية: وهي نصف النهار.

«أَوفى»: طلع إِلى مكانٍ عالٍ.

الأُطُم»[1]: بضم أَوله وثانيه وهو الحِصْن، ويقال: بناء من حجارة كالْقصْر.

«مُبَيَّضين»: أَي عليهم الثياب البيض التي كساهم إِياها الزُّبير أَو طلحة.

«يزول بهم»: أَي يرفعهم ويُظْهِرُهم.

«السَّراب»: الذي يكون نصف النهار لاطئاً بالأَرض كأَنه ماء.

«قَيْلَة»: بفتح القاف وسكون التحتية: الجَدَّة الكبرى للأَنصار.

---

(١) الأَطم: حصن مبني بحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مسطح والجمع القليل آطام قال الأعشى:

فلما أتت آطام جَوٍّ وأهله ... أُنيخت فألقت رَحْلَها بفنائكا

والكثير أطوم: وهي حصون لأهل المدينة. اللسان ٩٣/١.

«جَدُّكم»: بفتح الجيم: أَي حَظُّكم وصاحب دولتكم الذي تَتَوَقَّعُونَه.

«طَفِق»: بكسر الفاء وفتحها: أَي جَعَلَ.

«انحاز»، بالحاء المهملة والزاي: مال.

«جَوْفُ اللَّيْل»: وَسَطُهُ.

«اشْتَرَبْتُ شَأْنَه»: أَي شَكَكْتُ فيه.

«يأْثُر ذلك»: أَي يُحَدِّث به.

«يَهْصِرُهُ»[1]: يُمِيلُهُ.

«يؤُمّ»: بفتح المثناة التحتية بعدها همزة مضمومة: أَي يقصد.

«الغَرْز»: بغين معجمة مفتوحة فراء ساكنة فزاي: أَي ركاب الإِبل.

---

(١) اللسان ٦/٤٦٧٠.

الباب السادس

في قدومه صلى الله عليه وسلم باطن المدينة وما آلت إليه وفرح أهل المدينة برسول الله صلى الله عليه وسلم

روى الإمام أحمد والشيخان عن أبي بكر، وسعيد بن منصور عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهم والبيهقي عن موسى بن عُقْبَة، وابن إسحاق عن عويم بن ساعدة، ويحيى بن الحسن عن عُمَارة بن خزيمة أن رسول الله ﷺ لما أراد أن يدخل المدينة أرسل إلى بني النَّجَّار، وكانوا أخواله لأن أم عبد المطلب منهم كما تقدم في باب النَّسب. فجاؤوا متقلدين السيوف، فقالوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه: «ارْكَبُوا آمنين مُطَاعِين». وكان اليوم يوم الجمعة فلما ارتفع النهار دعا رسول الله ﷺ براحلته وحُشِد المسلمون ولَبِسُوا السلاح، وركب رسول الله ﷺ ناقَته القَصْوَاء والناس معه عن يمينه وعن شِمَاله وخلفه منهم الماشي والراكب فاجتمعت بنو عَمْرو بن عَوْف فقالوا: يا رسول الله أَخَرَجْتَ ملالاً لنا أم تريد داراً خيراً من دارنا؟ قال: «إني أُمِرْتُ بقريةٍ تأكل القُرَى فخَلُّوها ـ أي ناقته ـ فإنها مأمورة»، فخرج رسول الله ﷺ من قُبَاء يريد المدينة فَتَلَقَّاه الناس فخرجوا في الطرق وعلى الأباعر وصار الخدم والصبيان يقولون: «الله أكبر، جاءنا رسول الله جاء محمد» قال أنس فيما رواه البيهقي: «إني لأسعى مع الغلمان إذ قالوا: محمد جاء فننطلق فلا نرى شيئاً، حتى أقبل وصاحبه أبو بكر فكمنا في بعض جُدُر المدينة وبعثا رجلاً من أهل البادية ليؤذِن بهما الأنصار فاستقبلهما زُهَاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا إليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمِنين مُطَاعَيْن. فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظْهُرِهم، فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق لَفَوْقَ البيوت يَتَرَاءَيْنَه يَقُلْنَ: أيُّهم هو؟ أيُّهم هو؟ فما رأينا منظراً شبيهاً به يومئذ.

روى الإمام أحمد وأبو داود عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «لما قَدِم رسول الله ﷺ وسلم المدينة لَعِبَتْ الحبشة بحرابها فرحاً بقدومه». وروى البيهقي ورزين عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يَقُلْنَ:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيَّاتِ الْوَدَاعِ
وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا للهِ دَاعِ[1]

زاد رزين:

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالأَمْرِ الْمُطَاعِ

---

(١) انظر البداية والنهاية ١٩٧/٣.

وروى البخاري عن البراء رضي الله عنه أنه قال: «ما رَأَيْتُ أَهْلَ المدينة فَرِحُوا بشيء فَرَحَهُم برسول الله ﷺ». وروى ابن ماجه عن أَنَس رضي الله عنه أنه قال: «لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أَضَاء منها كُلُّ شيء». وروى ابن أَبي خيثمة رضي الله عنه قال: «شَهِدْتُ يوم دخل رسول الله ﷺ المدينة فلم أَرَ يوماً أَحْسَنَ منه ولا أَضوأَ».

فلم يَمُرّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأَنصار إلا قالوا: «هَلُمَّ يا رسول الله إلى العِزّ والمَنَعة والثروة». فيقول لهم خَيْراً ويدعوا أَو يقول: «إِنها مأمورة خَلُّوا سبيلَها»، فَمَرَّ ببني سالم فقام إِليه عِتْبَان - بكسر العين المهملة - ابن مالك، ونَوْفَل بن عبد الله بن مالك بن العَجْلان، وهو آخِذٌ بِزِمام راحلته، فقال: «يا رسول الله انْزِلْ فينا فإِن فينا العَدَد والعشيرة والحَلْقَة، ونحن أَصحاب الفضاء والحدائق والدَّرَك، يا رسول الله قد كان الرجل من العرب يدخل هذه البُحَرَة خائفاً فيلجأُ إِلينا فنقول له: «قَوْقِلْ حيث شئت». فجعل رسول الله ﷺ يَتَبَسَّم ويقول: «خَلُّوا سبيلَها فإِنها مأْمورة»(١)، فقام إِليه عُبَادة بن الصامت، وعباس بن عُبَادة بن نَضْلَة بن مالك بن العَجْلان، فجعلا يقولان: «يا رسول الله انْزِل فينا»، فيقول النبي ﷺ: «بَارَكَ الله عليكم إِنها مأْمورة».

فلما أَتى مسجد بني سالم وهو المسجد الذي في الوادي: وادي رانوناء، أَدركته الجمعة هناك فَصَلاَّها فيه وكانت أَول جُمُعَة صَلاَّها في المدينة، وقيل إِنه كان يُصَلِّي الجُمُعَة بمسجد قُبَاء، وعند ابن سعد أَنه صلى معه الجمعة مائة نفس، ثم أَخذ رسول الله ﷺ عن يمين الطريق [حتى جاء بنو الحُبْلَى]، فأَراد أَن ينزل على عبد الله بن أُبيّ [بن سلول]، وهو يومئذ سَيِّد الخزرج في أَنفسها فقال: اذْهَبْ إِلى الذين دعوك فانْزِل عليهم. فقال سعد بن عُبَادة: «لا تَجِد يا رسول الله في نفسك من قوله، فقد قَدِمْتَ علينا والخزرج تريد أَن تُمَلِّكَه عليها، فلما رَدَّ الله ذلك بالحق الذي أَعطاك شَرِق بذلك ولكن هذه داري، ذكره موسى بن عُقْبَة ورَزِين. قال السيد: «الذي في الصحيح ذِكْرُ سعد بن عُبَادة لذلك في قصة عيادته ﷺ له من مَرَض بعد سُكْنَاه بالمدينة». قُلْتُ: ويُحْتَمَل أَن سَعْداً قال ذلك مَرَّتَيْن، والله أَعلم.

فَمَرَّ رسولُ الله ﷺ ببني ساعدة فقال له سعد بن عُبَادة، والمُنْذِر بن عَمْرو، وأَبو دُجَانة: «هَلُمَّ يا رسول الله إِلى العِزّ والثروة والقوة والجَلَد»، وسَعْد يقول: «يا رسول الله ليس من قومي رَجُلٌ أَكثر عَذْقاً ولا فم بئرٍ مني مع الثروة والجَلَد والعدد فيقول رسول الله ﷺ: «يا أَبا ثابت خَلِّ سبيلَها فإِنها مأْمورة». فمضى واعترضه سَعْد بن الرَّبيع، وعبد الله بن رَوَاحَة، وبَشير بن سعد، فقالوا: «يا رسول الله لا تُجَاوِزْنا فإِنا أَهْلُ عَدَد وثروةٍ وحَلْقَة»، قال: «بارك الله

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١/١٦٠.

فيكم، خَلُّوا سبيلها فإنها مأمورة»، واعترضه زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، من بني بياضة، فقالا: «يا رسول الله هَلُمَّ إلى المواساة والعِزّ والثروة والعَدَد والقوة، نحن أهل الدرك يا رسول الله»، فقال رسول الله: «خَلُّوا سبيلَها فإنها مأمورة». وفي حديث البَرَاء فقال: «إني أنزل على أخوال عبد المطلب أُكرِمُهم بذلك». ثم مَرَّ ببني عَدِيّ بن النَّجّار وهم أخواله فقام أبو سَلِيط وصِرْمَة بن أبي أَنَس في قومهما فقالا: «يا رسول الله نحن أَخْوَالُك هَلُمَّ إلى العَدَد والمَنَعَة والقوة مع القرابة، لا تُجَاوِزْنَا إلى غيرنا يا رسول الله، ليس أَحَدٌ من قومنا أَوْلَى بك منا لقرابتنا بك». فقال رسول الله ﷺ: «خَلُّوا سبيلَها فإنها مأمورة».

فسار حتى إذا أتت دار بني عدِيّ بن النَّجّار قامت إليه وجوههم، ثم مضى حتى انتهى إلى باب المسجد، فَبَرَكَتْ راحلته على باب مسجده ﷺ وذكر الأَقْشَهْرِي في روضته عن ابن نافع صاحب مالك في أثناء كلام نقله عن مالك أن «ناقته ﷺ لما أتت موضع مسجده بركت وهو عليها وأخذه الذي كان يأخذه عند الوَحْي». ثم وثبت فسارت غير بعيد، ورسول الله ﷺ واضِعٌ لها زِمَامَها لا يثنيها به، ثم التفتت خلْفَها فرجعت إلى مَبْرَكِها أول مرة، فبركت فيه ثم تلحلحت وأَرْزَمَتْ، ووضعت جِرَانَها. وجعل جَبَّار بن صخر ينخسها رجاء أن تقوم فتنزل في دار بني سَلِمَة فلم تفعل. فنزل رسول الله ﷺ عنها وقال: «هنا المنزل إن شاء الله» ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٩] وجاء أبو أيوب فكَلَّمُوه في النزول عليهم فقال رسول الله ﷺ: «أَيُّ بيوت أهلنا أقرب»؟ فقال أبو أيوب: أنا يا نَبِيّ الله، هذه داري وهذا بابي وقد حَطَطْنَا رَحْلَكَ فيها. قال: «فانْطَلِقْ فَهَيِّىء لنا مقيلاً»[1]، فذهب فَهَيَّأَ لهما مقيلاً. وروى الطبراني عن عبد الله بن الزبير أنه كان هناك عَرِيشٌ يَرُشُّونَه ويَعْمُرُونَه ويبتردون فيه حتى نزل رسول الله ﷺ عن راحلته فأَوَى إلى الظِّلّ فنزل فيه فأتاه أبو أيوب الأنصاري فقال: يا رسول الله منزلي أقرب المنازل إليه فانقل رَحْلَك. قال: «نعم»، فذهب بِرَحْلِه إلى المنزل، فأتاه آخر فقال: يا رسول الله انْزِلْ عَلَيّ، فقال رسول الله ﷺ: «المَرْءُ مع رَحْلِه حيث كان»، فَمَضَتْ مَثَلاً فنزل رسول الله ﷺ في منزل أبي أيوب وقَرَّ قرارُه واطْمَأَنَّتْ دارُه ونزل معه زيد بن حارثة[2].

وذكر ابن سعد أن أسعد بن زُرَارة أخذ بزمام النَّاقة فكانت عنده. وعند عائذ وسعيد بن منصور أن ناقته استناخت به أولاً فجاءه ناس فقالوا: المنزل يا رسول الله، فقال: «دَعُوها»، فانبعثت حتى استناخت عند موضع المنبر من المسجد ثم تلحلحت فنزل عنها فأتاه أبو أيوب

---

(١) أخرجه البخاري ٥/٨٠ والبيهقي في الدلائل ٢/٢٤٩ وأبو نعيم في الدلائل (١١٤).

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/١/١٦٠.

فقال: منزلي أقرب المنازل فائذن لي أن أنقل رَحْلَك. قال: «نعم»، فنقل رَحْلَه وأَناخ الناقة في منزله.

وروى الحاكم وأبو سَعيد النيسابوري أن رسول الله ﷺ لما نزل على أبي أيوب خرج جوارٍ من بني النَّجّار يَضْرِبْنَ بالدفوف ويَقُلْنَ:

نَحْنُ جَوَارٍ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ ... يَا حَبَّذَا مُحَمَّدٌ مِنْ جَارِ[1]

فقال رسول الله ﷺ: «أَتُحِبِبْنَني»؟ قُلْنَ: نعم يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «وأَنا والله أُحِبُّكُنّ»، قالها ثلاثاً. وذكر ابن إسحاق في المُبْتَدَأ وابن هِشَام في التيجان أن بيت أبي أيوب الذي نزل فيه رسول الله ﷺ مَقْدِمَهُ المدينة بناه تُبّع الأول واسمه تُبَان ـ بضم المُثنّاة الفوقية وتخفيف المُوَحّدة ـ أسعد، وكان معه أربعمائة حَبْر، فتعاقدوا على ألاّ يخرجوا منها. فسألهم تُبّع عن سِرّ ذلك، فقالوا: إنا نجد في كُتُبِنا أن نَبِيّاً اسمُه محمد هذه دار هجرته، فنحن نُقيم لعلنا نلقاه. فأَراد تُبّع الإقامةَ معهم، ثم بنى لكل واحد من أُولئك داراً واشترى له جارية وزَوَّجها منه وأعطاه مالاً جزيلاً وكتب كتاباً فيه إسلامُه ومنه:

شَهِدْتُ عَلَى أَحْمَدَ أَنَّهُ ... رَسُولٌ مِنَ اللهِ بَارِي النَّسَمْ

فَلَوْ مُدَّ عُمْرِي إِلَى عُمْرِهِ ... لَكُنْتُ وَزِيراً لَهُ وَابْنَ عَمْ

[وَجَاهَدْتُ بِالسَّيْفِ أَعْدَاءَهُ ... وَفَرَّجْتُ عَنْ صَدْرِهِ كُلَّ هَمْ]

وَخَتَمَهُ بالذهب ودفعه إلى كبيرهم وسأله أن يدفعه إلى النبي ﷺ إن أَدْرَكَهُ وإلا فَمَنْ أدركه من وَلَدِه أو وَلَد وَلَدِه، وبنى للنبي ﷺ داراً يَنْزِلُها إذا قَدِم المدينةَ، فتداول الدّارَ المُلاّك إلى أن صارت لأبي أيوب، وهو من وَلَد ذلك العالِم، وأَهْلُ المدينة الذين نَصَرُوه كُلُّهم من أولاد أُولئك العلماء. ويقال إن الكتاب الذي فيه الشِّعْر كان عبد أَبي أيوب حتى دفعه إلى رسول الله ﷺ، وهو غريب. فما نزل رسول الله ﷺ إلا في بيته.

وروى الترمذي وصَحّحَه، ويحيى بن الحَسَن العلوي عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لَمّا قدم رسول الله ﷺ المدينةَ انْجَفَلَ الناس إليه فجئت لأنظر إليه، فلما تبيّنْتُ وَجْهَه عَلِمْتُ أن وَجْهَهُ ليس بوجه كَذّاب، فكان أَوّلُ شيءٍ سَمِعْتُه يتكلم به أن قال: «أيُّها النَّاس أَفْشُوا السَّلامَ وأَطْعِمُوا الطَّعَام وصِلُوا الأَرْحَامَ، وَصَلُّوا والنَّاسُ نِيَامٌ تَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بسلام»[2]. وروى ابنُ إسحاق ومسلم عن أبي أيوب رضي الله عنه قال: «لَمّا نَزَلَ عَلَيَّ رسولُ الله ﷺ في بَيْتِي نَزَلَ في السُّفْل وأنا وأُمُّ أيوب في العِلْو: فَقُلْتُ له: يا نَبِيَّ الله، بأبي أنت

(١) انظر البداية والنهاية ٣/٢٠٠.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/٤٥١ والدارمي ١/٣٤٠ والترمذي ٤/٦٥٢ (٢٤٨٥) وابن ماجه ١/٤٢٣ (١٣٣٤).

وأُمّي، إني لأَكْرَهُ وأُعْظِمُ أن أكون فَوْقَكَ وتكون تحتي، فاظهر أَنْتَ فَكُنْ في العُلْوِ، ونَنْزِل نحن فنكون في السُّفْل، فقال: «إنّ أَرْفَق بنا وبِمَنْ يَغْشَانا أَن نكون في سِفْل البيت». قال: فكان رسول الله ﷺ في سُفْلِه وكُنَّا فوقه في المَسْكَن، فلقد انكسر حُبٌّ لنا فيه ماء، فَقُمْتُ أَنا وأُمّ أيوب بقطيفة لنا ما لنا لِحَافٌ غَيْرُها نُنَشِّفُ بها الماء [تَخَوُّفاً أَن يقْطُرَ على رسول الله ﷺ منه شيءٌ فيؤذيه. وذُكِر أن أبا أيوب لم يزل يَتَضَرَّع إلى النبي ﷺ حتى تَحَوَّل رسول الله ﷺ في العُلْو وأَبو أيوب في السُّفْل.

قال أَبو أَيوب: وكُنَّا نصنع له العَشَاء ثم نبعث به إليه، فإذا رَدَّ علينا فضْلَهُ تَيَمَّمْتُ أَنا وأُمّ أيوب مَوْضِعَ يده فأَكلنا منه نبتغي بذلك البَرَكَة، حتى بعثنا إليه لَيْلَةً بعَشَائه وقد جعلنا له فيه بَصَلاً أَو ثَوْماً، فَردَّهُ رسول الله ﷺ، ولم أَرَ لِيَدِهِ فيه أَثَراً. قال: فجئتُه فَزِعاً فقُلْتُ: يا رسول الله بأَبي أَنت وأُمّي رَدَدْتَ عَشَاءك، ولم أَرَ فيه مَوْضِع يَدِك وكُنْتَ إذا رَدَدْتَه علينا تَيَمَّمْتُ أَنا وأُم أيوب مَوْضِعَ يَدِك نبتغي بذلك البَرَكَة. قال: «إني وَجَدْتُ فيه رِيحَ هذه الشَّجَرَة وأَنا رَجُلٌ أُنَاجي، فأَما أَنتم فكلوه». قال: فأَكلناه ولم نضع له تلك الشجرة بعد.

وفي كتاب أَخبار المدينة ليحيى بن الحَسَن، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: «لما نزل رسول الله ﷺ على أَبي أَيوب لم يدخل منزل رسول الله هدية وأَول هدية دخلتُ بها عليه قَصْعَة مثرودة خُبْزَ بُرٍّ وسَمْناً وَلَبَناً، فأَضعها بين يديه، فقلت: «يا رسول الله أَرسلت بهذه القَصْعَة أُمّي»، فقال: «بَارَكَ اللهُ فيها»، ودعا أَصحابَه فأَكلوا فلم أَرِمْ البابَ حتى جاءته قصعة سعد بن عُبَادة، على رأس غُلام مغطاة فأَقف على باب أَبي أيوب فأَكشف غِطَاءهَا لأَنظر فرأَيتُ ثريداً عليه عُرَاق[1]، فَدَخَلَ بها على رسول الله ﷺ». قال زيد: «فلقد كُنَّا في بني مالك بن النَّجَّار ما مِنْ ليلةٍ إلا على باب رسول الله ﷺ منا الثلاثة والأَربعة يحملون الطعام ويتناوبون بينهم حتى تَحَوَّلَ رسول الله ﷺ من بيت أَبي أَيوب وكان مُقَامُه فيه سبعه أَشهر وما كانت تخطئه جَفْنَة سعد بن عُبَادة وجفنة أَسعد بن زُرَارة كل ليلة». وفيه أَنه قيل لأُم أَيوب: «أَي الطعام كان أَحب إلى رسول الله ﷺ فإنكم عرفتم ذلك لمُقَامِه عندكم؟ فقالت: ما رأَيتهُ أَمر بطعام فصُنِع له بعينه، ولا رأَيناه أُتِيَ بطعام فَعَابَهُ. وقد أَخبرني أَبو أَيوب أَنه تَعَشَّى عنده ليلة من قَصْعَةٍ أَرسل بها سعد بن عُبَادة طَفَيْشَل. قال أَبو أَيوب. فرأَيت رسول الله ﷺ ينهل تلك القِدْر ما لم أَرَهُ ينهل غيرها، فكنا نعملها له، وكنا نعمل له الهريس وكانت تُعْجِبُه. وكان يحضر عَشَاءه خمسة إلى ستة عشر كما يكون الطعام في الكثرة والقِلَّة».

---

(١) العَرْق: بالسكون: العَظْم إذَا أخذ عنه مُعْظَم اللَّحم، وجمعُه: عُرَاق، وهو جمع نادر، يقال: عَرَقْتُ العظْمَ، واعترقْتُه، وتعرَّقْتُه إذا أَخذْتَ عَنْهُ اللَّحْمَ بأَسْنانك. انظر النهاية ٣/٢٢٠.

قال ابن إسحاق: «وبعث رسول الله ﷺ زَيْد بن حارثة وأبا رافع إلى مكة وأعطاهما بَعِيرَيْن وخمسمائة درهم فقدِما عليه بفاطمة وأم كلثوم ابنتَيْه وسودة بنت زمعة زوجته وحمل زيد بن حارثة امرأتَه أُمّ أَيْمَن مع ابنها أُسَامة بن زيد، وخرج عبد الله بن أبي بكر بعيال أبي بكر فيهم عائشة وأختها أسماء زوج الزبير وأم رومان [أم عائشة] فلما قَدِمُوا المدينة أُنزلوا في بيت حارثة بن النعمان. وذكر رزين أن أبا بكر أرسل عبد الله بن أُرَيْقط مع زيد ليأتيه بأهله.

قال ابن إسحاق: «وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ فلم يَبْقَ بمكة منهم أحد إلا مفتون أو محبوس. ولما اطمأنت برسول الله ﷺ دارُه، وأظهر الله بها دينَه، وسَرَّه بما جمع إليه من المهاجرين والأنصار من أهل ولايته، قال أبو قيس صِرْمَة بن أبي أَنَس، أخو بني عَدِيّ بن النَّجّار، يذكر ما أكرمهم الله به من الإسلام وما خَصَّهم به من نزول رسول الله ﷺ عليهم:

ثَوَى فِي قُرَيْشٍ بِضْعَ عَشْرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّرُ لَوْ يَلْقَى صَدِيقاً مُوَاتِياً
وَيَعْرِضُ فِي أَهْلِ الْمَوَاسِمِ نَفْسَهُ ... فَلَمْ يَرَ مَنْ يُؤْوِي وَلَمْ يَرَ دَاعِيَا
فَلَمَّا أَتَانَا أَظْهَرَ اللهُ دِينَهُ ... فَأَصْبَحَ مَسْرُوراً بِطَيْبَةَ رَاضِيَا
وأَلْفَى صَدِيقاً وَاطْمَأَنَّتْ بِهِ النَّوَى ... وَكَانَ لَنَا عَوْناً مِنَ اللهِ بَادِيَا
يَقُصُّ لَنَا مَا قَالَ نُوحٌ لِقَوْمِهِ ... وَمَا قَالَ مُوسَى إِذْ أَجَابَ الْمُنَادِيَا
فَأَصْبَحَ لا يَخْشَى مِنَ النَّاسِ وَاحِداً ... قَرِيباً وَلاَ يَخْشَى مِنَ النَّاسِ نَائِيَا
بَذَلْنَا لَهُ الأَمْوَالَ مِنْ جُلِّ مَالِنَا ... وَأَنْفُسَنَا عِنْدَ الْوَغَى وَالتَّآسِيَا
وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ لاَ شَيْءَ غَيْرُهُ ... وَنَعْلَمُ أَنَّ اللهَ أَفْضَلُ هَادِيَا
نُعَادِي الَّذِي عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... جَمِيعاً وَإِنْ كَانَ الحَبِيبَ الْمُصَافِيَا
أَقُولُ إِذَا أَدْعُوكَ فِي كُلِّ بَيْعَةٍ ... تَبَارَكْتَ قَدْ أَكْثَرْتَ لاسْمِكَ دَاعِيَا
أَقُولُ إِذَا جَاوَزْتَ أَرْضاً مَخُوفَةً ... حَنَانَيْكَ لا تُظْهِرْ عَلَيَّ الأَعَادِيَا
فَطَأْ مُعْرِضاً إِنَّ الحُتُوفَ كَثِيرَةٌ ... وَإِنَّكَ لاَ تُبْقِي لِنَفْسِكَ بَاقِيَا
فَوَاللهِ مَا يَدْرِي الفَتَى كَيْفَ يَتَّقِي ... إِذَا هُوَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ اللهُ وَاقِيَا
وَلاَ تَحْفِلِ النَّخْلُ الْمُعِيمَةُ رَبَّهَا ... إِذَا أَصْبَحَتْ رِيًّا وَأَصْبَحَ ثَاوِيَا[1]

تنبيه: في بيان غريب ما سبق

«حَشَدَ» المسلمون بالدال المهملة: اجتمعوا.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣/٢٠٤.

«مُتَقَلِّدِين» السيوف: جعلوا سيورَها في أَعناقهم إِلى جَنْبهم الأَيسر، عادة العَرَب الآن لا كفِعْل الأَتراك وغيرهم بجَعْلها في أَوساطهم.

«مَلالاً»: سآمةً.

«الدَّار»: هنا القبيلة وكل قبيلة اجتمعت في مَحَلَّة سُمِّيَتْ تلك المَحَلَّة داراً، وسُمِّي ساكنوها بها مجازاً، أَي أَهْلُ الدَّار.

«تأْكل القُرَى»: يأْتي بيانُه في بيان أَسماء المدينة.

«كَمِنَّا»[1]: بفتح الكاف وكسر الميم بعدها نون مُشَدَّدَة، أَي اسْتَتَرْنَا.

«زُهَاء»: بضم الزاي وبالمَدّ: أَي قَدْر.

«العَوَاتِق»: جمع عاتق وهي الشابَّة أَول ما تُدْرِك، وقيل: هي التي لم تَبِنْ من والدتها ولم تُزَوَّج وقد أَدْرَكَتْ وشَبَّتْ.

«الولائد»: جَمْع وليدة وهي الأُنثى، والوليد الطفل جَمْعُهُ وِلْدان.

«الثُّنِيَّات»: جَمْع ثَنِيَّة وثَنِيَّةُ الوَداع بفتح الواو. قال المَجْد اللغوي: «هي ثنية مشرفة على المدينة يطؤها من يريد مكة، وقيل: من يريد الشام واختُلِف في تسميتها بذلك فقيل لأَنها موضع وداع المسافرين من المدينة إِلى مكة، وقيل لأَن النبي ﷺ وَدَّع بعض من خَلَّفَه بالمدينة في آخر خَرَجَاته، وقيل: في بعض سراياه المبعوثة عنه، وقيل: الوَدَاع اسم وادٍ بمكة، والصحيح أَنه اسم جاهلي قديم سُمِّيَ به لتوديع المسافرين، هكذا قال أَهْلُ السِّيَر والتاريخ وأَصحاب المسالك إِنها من جهة مكة، وأَهل المدينة [اليوم] يظنونها من جهة الشام، وكأَنهم اعتمدوا قول ابن قَيِّم الجوزية في هَدْيِه، [فإنه قال]: «من جهة الشام ثَنِيَّاتُ الوَدَاع ولا يطؤها القادم من مكة البتة». ووجه الجمع أَن كلتا الثَّنِيَّتَيْن تُسَمَّى بثنية الوداع». انتهى كلام المجد.

قُلْتُ: وقال ياقوت[2] في المُشْتَرِك: «ثنية الوداع مشهورة قُرْب المدينة وسُمِّيت بذلك لأَن الناس كانوا يودعون المسافرين إِلى مكة عندها». فاقتضى كلامُه أَنه يطؤها قاصِدُ مكة، وتَبِعَه على ذلك في التقريب وسبقهما إِليه القاضي، وأَيَّدَ السَّيِّد كلام صاحب الهَدْي فقال: الروايات متظاهرة على أَن هذه الثَّنِيَّة هي المعروفة بذلك، اليوم: شامِيّ المدينة بين مسجد الرَّاية الذي على ذُبَاب ومَشْهَد النَّفْس الزَّكِيَّة، يَمُرُّ فيها المارّ بَيْنَ صَدَّيْن مرتفعين قُرْب سَلْع،

(١) كَمَن كُمُونا: اختفى، وكمن له يكمن كموناً وكمن: استخفى اللسان ٥/٣٩٣٣.

(٢) ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، أبو عبد الله، شهاب الدين: مؤرخ ثقة، من أئمة الجغرافيين، ومن العلماء باللغة والأدب. أصله من الروم. أسر من بلاده صغيراً. من كتبه «معجم البلدان» و «إرشاد الأريب» ويعرف بمعجم الأدباء. توفي سنة ٦٢٦هـ. الأعلام ١٣١/٨.

ومن تَأَمَّل كلام ابن شَبَّة في المنازل وغيرها لم يَرْتَبْ في ذلك، ويوضحه ما رواه ابن إسحاق في غزوة الغابة قلت: وسيأتي سياقه فيها.

ثم قال السَّيِّد: «وكَوْنُها شاميّ المدينة لا يمنع كون هذه الأَبيات أُنْشِدَتْ عند الهجرة لأَنه ﷺ رَكِبَ ناقته وأَرْخَى لها زِمَامَها وقال: «دَعُوها فإنها مأْمورة»، ومَرَّ بِدُور الأَنصار كما سبق حتى مَرَّ ببني ساعِدة، ودارُهم شاميّ المدينة قُرْب ثَنِيَّة الوَدَاع، فلم يدخل باطن المدينة إلا من تلك الناحية حتى أَتى منزله بها. وقد عَرَج النبي ﷺ في رجوعه من بَدْر إلى ثَنِيَّة الوَدَاع، كما ذكره ابن عُقْبَة: [أَنه ﷺ سَلَكَ حين خرج إلى بدر حتى نُقْب بني دينار، ورَجَع حين رَجَع من ثَنِيَّة الوداع] قُلْتُ: فتَحَصَّلَ من كلامه أَن ثَنِيَّة الوَدَاع ليست من جهة مكة وإنما هي شاميّ المدينة، خَرَج النَّبيُّ ﷺ إلى جهتها في دخوله باطن المدينة، ولا حُجَّةَ لمن قال إنها من جهة مكة إلا ما سَبَق من قول الولائد: «طَلَع البَدْرُ علينا من ثَنِيَّات الوَدَاع»، وقد عَلِمْتَ ما فيه.

وروى البخاري عن السائب بن يزيد قال: «أَذْكُر أَني خَرَجْتُ مع الصبيان نَتَلَقَّى النبي ﷺ إلى ثنية الوداع مَقْدمه من تَبُوك». قال الحافظ في فتح الباري: «أَنكر الداوُدي هذا، وتَبِعَه ابن القَيِّم وقال: ثَنِيَّةُ الوَدَاع من جهة مكة لا من جهة تَبُوك بل هي في مقابلها كالمَشْرِق من المَغْرِب إلا أَن يكون هناك ثَنِيَّة أُخرى في تلك الجهة». قال ابن حجر: «ولا يمنع كونها من جهة مكة أن يكون الخروج إلى الشام من جهتها. وهذا أَوضح كما في دخول مكة من ثنية والخروج منها من أخرى، وينتهين كلهن إلى طريق واحدة». قلتُ: وقد راجعت الهَدْي في غزوة تَبُوك فرأَيته ذكر أَن ثنية الوَدَاع شامِيّ المدينة كما نقله عنه صاحب القاموس والسَّيِّد لا كما نقله عنه الحافظ ولم يَذْكُرْ في الهَدْي في الكلام على الهجرة شيئاً من ذلك.

«أَضوأَ»: أَنْوَر.

«المَنَعَة»: بفتح النون يقال: فلان في مَنَعَة أَي في عِزّ من قومه فلا يقدر عليه من يريده.

«الثروة»: بفتح الثاء المثلثة: كثرة المال.

«البُحَيْرَة»: يأْتي الكلام عليها في باب أَسماء المدينة.

«قَوْقِل»: بقاف مفتوحة فواو ساكنة فقاف مكسورة: أَي سِرْ حيث شئت فإنك آمن.

«رانوناء»: [وهو وادٍ في المدينة صلى فيه النبي الجمعة].

«على فَتْرةٍ من الرُّسُل»: أَي على انقطاع بَعْثهم ودروس أَعلام دينهم.

«ولو بِشِقّ تَمْرَة»: بكسر الشين المعجمة: أي نصف تَمْرَة، يريد: لا يستقلون[1] من الصَّدَقة شيئاً.

«مُزَاحِم»: بضم الميم فزاي وكسر الحاء المهملة: أُطُم كان بين ظهراني بني الحُبْلَى.

«بنو الحُبْلَى». الحُبْلَى لقب سالم بن غَنْم بن عَوْف لُقِّب به لعِظَمِ بطنه ومن وَلَدِه بنو الحُبْلى بَطْنٌ من الأنصار.

«مُحْتَبِياً»: أي جمع ظَهْرَه وساقيه بثَوْب أو غَيْرِه، وقد يَحْتَبي بيده والاسم الحِبْوَة بالكسر.

«شَرِق لذلك»: بشين معجمة مفتوحة فراء فقاف، أي ضاق صَدْرُه كمن غَصَّ.

«تجلجلت» بجيمين: تَحَرَّكَت.

«الأَقْشَهْرِي»: هو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أمين الأقشهري عمل كتاباً سماه الروضة فيه أسماء من دُفِن بالبَقِيع.

«أَرْزَمَتْ»: براء فزاي: صَوَّتَتْ.

«الجِرَان»[2]: بكسر الجيم: مُقَدَّم عُنُق البعير من مذبحه إلى مَنْحَرِه، فإذا بَرَك البعير ومَدَّ عُنُقَه على الأرض قيل ألقى جِرَانَه بالأرض.

«انجفل الناس»: أسرعوا.

«الحُبّ»: بضم الحاء المهملة: الخابية ويقال لها الزير.

«تَيَمَّمْتُ»: قصدت.

«القطيفة»: دِثَارٌ له خَمْل. طَفَيْشَل: بفتح الطاء المهملة وفتح الفاء وسكون المثناة التحتية وفتح الشين المعجمة وباللام: نوع من المَرَق.

ثَوَى: أقام.

«البِضْع»: بالكسر ويُفْتَح: من الثلاث إلى التسع.

---

(١) قال ابن الأثير: تَقَلَّلَ الشيءَ، واسْتَقَلَّه، وتَقالَّه: إذا رآه قليلاً. انظر النهاية ١٠٣/٤.

(٢) الجران: باطن العنق، وقيل: مقدم العنق من مذبح البعير إلى منحره وقيل: الجران هي جلدة تضطرب على باطن العنق من ثغرة النحر إلى مُنْتَهى العنق في الرأس قال الشاعر:

فَقَدْ سَرَاتَها والبَرْكَ منها فخرت لليدين وللجران

اللسان ٦٠٨/١.

«الحِجَّة»[1]: بالكسر هنا: السَّنَة.

«مُوَاتياً»: موافقاً.

«أَلْفَى»: وَجَد.

«النَّوَى»: بلفظ نَوَى التَّمْر: البُعْد.

«بادياً»: ظاهراً.

«نائياً»: بعيداً.

«من جُلِّ مالِنا»: مُعْظَمِه.

«الوَغَى»: بفتح الواو والغين المعجمة: الحرب.

«التَّأَسِّي»: التعاون.

«البِيْعَة»: المَسْجِد.

«حَنَانَيك»[2]: أَي تَحَنُّناً بعد تَحَنُّن والتَّحَنُّن الرأْفة والرحمة.

«فطاً مُعْرِضاً»: بضم الميم وسكون العين المهملة وكَسْر الراء والضاد المعجمة: أَي مُتَّسَعاً.

«الحتوف» جَمْع حَتْف وهو الموت، والحتوف هنا أَسباب المَوْت وأَنواعه.

«ولا تَحْفِلْ»: بحاء مهملة ففاء: أَي لا تُبَالِي، يُقَال حفلت بكذا: باليت به.

«النَّخل» بالخاء المعجمة: اسم جنس جمعي واحده نَخْلة.

«المعيمةُ»[3] بضَمّ الميم وكَسْر العين المهلمة: أَي العاطشة من العَيْمَة بفَتْح العين المهملة وهو العَطَش، وأَكثر ما يُقال في اللَّبَن.

«رَبّها»: صاحبها.

«ريَّا»: أَي مرتوية من الماء.

«ثاوياً»[4]: بالمثلثة وآخره مُثَنَّاة تحتية، ويُرْوَى «تاوياً» بالمثناة الفوقية من التَّوَى وهو الهلاك.

---

(١). والجمع حجج مثل سورة وسور ص ١٢١.

(٢) انظر اللسان ١٠٣٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٣١٩٥/٤.

(٤) ثوي ثَواءً، وثُوياً: أقام واستقرّ. انظر المعجم الوسيط ١٠٣/١.

جماع أبواب بعض فضائل المدينة الشريفة

الباب الأول

في بدء شأنها

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «مَكَّة بَلَدٌ عَظَّمَه الله، وعَظَّمَ حُرمَتَه، خَلَقَ مكة وحَفَّها بالملائكة قبل أن يَخْلُقَ شيئاً من الأرض بألف عام، ووَصَلَها بالمدينة، ووَصَل المدينةَ ببيت المَقْدِس، ثم خَلَقَ الأرْضَ كُلَّها بعد ألف عام خَلْقاً واحِداً». وعن عَلِيّ رضي الله عنه: قال: «كانت الأرْضُ ماءً فبعث الله ريحاً فمسحت الأرضَ مسحاً فظهرت على الأرض زبدة فقسمها أربع قطع، خلق من قطعة مكة والثانية المدينة والثالثة بيت المقدس والرابعة الكوفة». رواهما الحافظ أبو بكر بن أحمد بن محمد الواسطي الخطيب في كتابه فضائل بيت المقدس بِسَنَدٍ لا بأس به خلافاً لقول السيد إنهما واهيان، فإني لم أجد في سندهما من تُكُلِّم فيه سوى ابن لهيعة وهو صدوق اختلط بآخِرَة والترمذي يُحَسِّنُ له.

وروى الطبراني عن ذي مِخْبَر، وهو بكَسْر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الموحدة وقيل بَدَلُها ميم، وهو ابن أخي النجاشي رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إن الله عز وجل اطَّلَع إلى أهل المدينة وهي بطحاء قبل أن تعمر، ليس فيها مَدَرة ولا وَبَرَة، فقال: «يا أَهْلَ يَثْرِب إني مُشْتَرِطٌ عليكم ثلاثاً، وسَائِقٌ إليكم من كل الثَّمَرَات: لا تعصي ولا تعلي ولا تكبري، فإن فَعَلْتِ شيئاً من ذلك تَرَكْتُكِ كالجَزُور لا يمنع من أكله»[1]. وقيل: أَوَّلُ مَنْ عَمَر بها الدُّور والآطام، وزَرَع وغَرَس، العماليق بنو عِمْلاَق بن أَرْفَخْشَد بن سام بن نوح، وأخذوا ما بَيْنَ البَحْرَيْن وعُمَان والحجاز إلى الشام ومصر، ومنهم الجبابرة والفراعنة.

وقال أبو المُنْذِر الشَّرْقي بن القطامي: سَمِعْتُ حديث تأسيس المدينة من سليمان بن عبد الله بن حنظلة الغسيل، وسَمِعْتُ أيضاً بَعْضَ ذلك من رَجُلٍ من قريش عن أبي عُبَيدة بن عبد الله بن عَمَّار بن ياسر، فَجَمَعْتُ حديثهما لكثرة اتفاقه وقلة اختلافه، قالا: «بَلَغَنَا أنه لمَّا حَجَّ موسى صلوات الله عليه حَجَّ معه أُنَاسٌ من بني إسرائيل، فلما كان في انصرافهم أَتَوْا على

(١) ذكر الهيثمي في المجمع ٣٠٢/٣ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: وفيه سعيد بن سنان والشامي وهو ضعيف وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٤٩٠١).

المدينة فَرَأَوْا مَوْضِعَها صِفَةَ بَلَدِ نَبِيٍّ يجدون وَصْفَه في التوراة بأنه خاتَم النَّبِيِّين، فاشتورت طائفة منهم على أَن يتخلَّفوا به، فنزلوا في موضع سوق بني قَيْنُقَاع، ثم تَأَلَّفَتْ إليهم أُنَاسٌ من العرب فرجعوا إِلى دينهم، فكانوا أَوَّلَ من سَكَن مَوْضِعَ المدينة. ويُذْكَر أَن قوماً من العمالقة سكنوه قبلهم.

وروى أَبو نُعَيْم وابن عساكر عن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: «بلغني أَن بني إِسرائيل لما أَصابهم ما أَصابهم من ظهور بختنصَّر عليهم وفُرْقتِهم وذِلَّتِهم تَفَرَّقُوا، وكانوا يجدون محمداً ﷺ مَنْعُوتاً في كتابهم، وأنه يظهر في بعض هذه القُرَى العربية في قرية ذات نَخْلٍ، ولما خرجوا من أرض الشام كانوا يَعْبُرُونَ كُلَّ قريةٍ من تلك القرى العربية بين الشام واليمن يجدون نَعْتَها نَعْتَ يَثْرِب فينزل بها طائفةٌ منهم يرجون أَن يَلْقُوا محمداً فَيَتَّبِعُونَه حتى نزل طائفةٌ من بني هارون ممن حمل التوراة إِلى يَثْرِب، فمات أُولئك الآباء وهم يؤمنون بمحمد ﷺ وَيُحِثُّون أَبناءهم على اتِّباعه، فأَدركه من أَدركه من أَبنائهم، فكفروا به وهم يعرفونه لحَسَدهم الأَنصار حيث سبقوهم إِليه.

وروى الزبير بن بكار عن عثمان بن عبد الرحمن التيمي وغيره من أَهل المدينة قالوا: «كان بالمدينة في سالف الزمان قوم يقال لهم: صَعْل وفالِج، فغزاهم داود النبي عليه الصلاة والسلام وأَخذ منهم مائة أَلف عذراء، قالوا: وسَلَّط الله عليهم الدود في أَعناقهم فهلكوا. ولم تزل اليهود ظاهرين على المدينة حتى كان سيل العَرِم. قال المُفَسِّرون: كانت أَرض سَبَأ المَعْنِيَّة بقوله تعالى: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ ١٥] أَخصب بلاد الله لم تكن سبخة وقيل: لم يكن فيها بعوض ولا ذباب ولا برغوث ولا عقرب. ولا حَيَّة، ويمر الغريب بواديهم وفي ثيابه القمل فيموت، وتخرج المرأَة وعلى رأْسها مِكْتَلُها فتعمل بمغزلها وتسير بين ذلك الشَّجَر فيمتلئ مما يتساقط من الثَّمَر، وكان طول بلدهم أَكثر من شهرين للراكب المُجِدّ وكذلك عَرْضها، وأَهلها في غاية الكثرة مع اجتماع الكلمة والقوة. وكانوا كما قَصَّ الله تعالى من خبرهم بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً﴾ [سبأ ١٨] أَي يُرَى بعْضُها من بعض لتقاربها فكانوا آمنين في بلادهم، تخرج المرأَة لا تتزود شيئاً تبيت في قرية وتَقِيل في أُخرى حتى تأْتي الشام. فبطروا النعمة ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، أَي بمفاوز بينهم وبين الشام يركبون فيها الرَّوَاحِل، فَعَجَّل الله لهم الإِجابة كما قال تعالى ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ومَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ ١٩].

«وكانوا يقتتلون على ماء واديهم فأَمرت بلقيس بواديهم فسُدَّ بالعَرِم وهو المُسَنَّاة بلغة حِمْيَر، فَسَدَّتْ ما بين الجَبَلَيْن بالصَّخْر والقار، وجعلت له أَبواباً ثلاثة بَعْضُها فوق بعض، وبَنَتْ من

دونه بِرْكةٌ ضخمة، وجعلت فيها اثني عشر مخرجاً على عدة أنهار يفتحونها إذا احتاجوا إلى الماء، وإذا استغْنَوْا سَدُّوها، فإذا جاء ماء المطر اجتمع إليه ماءُ أودية اليمن فاحتبس السَّيْلُ من وراء السَّدّ، فأمرت بالباب الأعلى فَفُتِح فجرى ماؤه في البِرْكة، فكانوا يستقون من الباب الأعلى ثم من الثاني ثم من الثالث فلا يَنْفَد الماء حتى يرجع الماء من السنة المقبلة، فكان السيل يأتيهم من مسيرة عشرة أيام حتى يستقر في واديهم فيجتمع الماء من تلك السيول والجبال في ذلك الوادي. وكان السَّدُّ فرسخاً في فرسخ بناه لقمان الأكبر العاديّ وقيل سبأ بن يَشْجُب، ومات قبل إكماله فأكمله ملوك حِمْيَر.

«وكان أولاد حمير بن سبأ وأولاد كهلان بن سبأ سادة اليمن في ذلك الزمان وكان كبيرهم عَمْرو مُزَيْقِيَاء بن عامر ماء السماء، وكانت زوجة عَمْرو يقال لها طريفة، من حمير وكانت كاهنة، فولدت له ثلاثة عشر ولداً: ثعلبة أبو الأوْس والخزرج، وحارثة والد خزاعة، وجَفْنَة والدغشان ـ وقيل فيهم غير ذلك ـ وَوَلَدَتْ له وَدَاعة وأبا حارثة والحارث وعَوْفاً وكعباً ومالكاً وعمراناً هؤلاء أعقبوا كُلُّهم والثلاثة الباقون لم يُعْقِبُوا. وكان لعمرو مُزَيْقِيَاء من القصور والأموال ما لم يكن لأحد فرأى أخوه عمران وكان كاهناً أن قَوْمَه سَيُمَزَّقُون وتَخْرَبُ بلادُهُم فذكره لعمرو. ثم أن طريفَة الكاهنة سَجَعت له بما يدل على ذلك فقال: وما علامته؟ قالت: إذا رأيتَ جُرَذاً يُكْثِرُ في السَّدِّ الحَفْر، ويَقْلِبُ منه بيديه الصَّخْر [فاعلم أنْ قد وَقَعَ الأمر].

«فلما غَضِبَ الله تعالى عليهم وأذِن في هلاكِهِم دخل عَمْرو بن عامر فرأى جُرَذاً تَنْقُلُ أولادَها من بطن الوادي إلى أعلى الجَبَل فقال: ما نَقَلَتْ هذه أولادَها من ههنا إلا وقد حَضَرَ أهل هذه البلاد عَذَابٌ فخرقت ذلك العَرِم فَنَقَبَتْ نَقْباً، فسال الماءُ من ذلك النَّقْب إلى جنْبِه فأمر بذلك النَّقْب فَسُدَّ، فأصبح وقد انفجر بأعظم مما كان، فأمر به أيضاً فَسُدَّ، ثم انفجر بأعظم مما كان فلم يَتْرُكْ فُرْجةً بين حَجَرَيْن إلا أمر بربط هِرَّةٍ عندها فما زاد الأمر إلا شِدَّة، وكان الجُرَذ يَقْلِب بيديه ورِجْلَيْه الصَّخْرَة ما يَقْلِبُها خمسون رجلاً. فلما رأى ذلك دعا ابن أخيه فقال: إذا جَلَسْتُ العَشِيَّةَ في نادي قومي فَأْتِنِي فَقُل: عَلامَ تَجْلِس على مالي؟ فإني سأقول لك: ليس لَكَ عندي مال ولا تَرَك أبوك شيئاً وإنك كاذب. فإن كَذَّبْتُك فكَذِّبْنِي وارْدُدْ عَلَيَّ مِثْلَ ما قُلْتُ لك، فإذا فعلْتَ ذلك فإني سَأَشْتُمُكَ إذا أنت شَتَمْتَنِي وإن أنا لَطَمْتُكَ فالطمني. قال: ما كنتُ لأستقبلك بذلك يا عَمّ. قال: بَلَى فافعل فإني أُريد بذلك صَلاحَك وصلاحَ أهل بيتك. فقال الفتى: نعم، حيث عرف رأي عَمْرو. فجاء، فقال ما أَمَرَه به حتى لَطَمَه فتناول الفتى عَمَّه فلطمه. فقال الشيخ: «يا مَعْشَر بني فلان أَأُلْطَمُ فيكم؟ لا سَكَنْتُ في بَلَدٍ لطمني فيه فلان أبداً، من يبتاع مني؟» فلما عرف القوم منه الجِدَّ أَعْطَوْه، فنظر إلى أفضلهم عَطِيَّةً فأَوْجَبَ له البَيْع،

فدعا بالمال، فَنَقَدَهُ، وتَـحَمَّل هو وبنوه من ليلته، وفي رواية: أن الثَّمَنَ لَماً صار في يده قال: أَيْ قَوْم إِن العذابَ قد أَظَلَّكُم، وزوالَ أَمْرِكم قد دَنَا فمن أَراد منكم مَنْزِلاً جديداً وجَمَلاً شديداً وسفراً بعيداً فَلْيَلْحَقْ بِعُمَان، ومن أَراد منكم الـخَمْرَ والـخَمِير والديباجَ والحرير، والأَمْرَ والتأْمير فَلْيَلْحَقْ ببُصْرَى وسَدير ومن أَراد منكم الرَّاسِخَات في الوَحْل الـمُطْعِمَات في الـمَحْل، الـمُقِيمات في الضَّحْل فليلحق بيثْرِب ذات النَّخْل، فخرج أَهْلُ عُمَان إلى عُمَان، وخرجت غَسَّان إلى بُصْرَى، وخرجت الأَوس والخزرج وبنو كعب بن عَمْرو إلى يَثْرِب، فلما كانوا ببطن مَرّ قال بنو كعب: هذا مَكَانٌ صالح لا نَبْغِي به بدلاً، فلذلك سُمُّوا خُزَاعة لأَنهم انخزعوا عن أَصحابهم، وأَقْبَلَتْ الأَوْس والخزرج حتى نزلوا بيثرب».

«ولما أَراد اللهُ ما أَراد من تفريق من بَقِيَ وخرابَ بلادهم أَقبلت فأْرةٌ حمراء إِلى هِرَّةٍ من تلك الهِرَر فساوَرَتْها حتى استأْخرت عنها الهِرَّة، فدخلت الفأْرةُ في الفُرْجَة التي كانت عندها فتغلغلت بالسَّدِّ فَحَفَرَتْ فيه حتى وَهَّنَتْهُ للسَّيْل وهم لا يَدْرُون، فلما جاء السَّيْل وجد خَلاَءَ فدخل فيه حتى قَلَع السَّدَّ وفاض من الماء على الأَموال فاحتملها، فلم يَبْقَ منها إلا ما ذكر الله تعالى».

«ولما قَدِمَتْ الأَوس والخزرج المدينة تَفَرَّقُوا في عاليتها وسافلتها ومنهم من نزل مع بني إسرائيل في قُرَاهم ومنهم من نزل وحده لا مع بني إِسرائيل ولا مع العرب الذين تَأَلَّفُوا إِلى بني إِسرائيل، وكانت الثروة في بني إِسرائيل، ولهم قُرَى عَمَرُوا بها الآطام. فمكثت الأَوس والخزرج ما شاء الله، ثم سأَلوا اليهود في أَن يَعْقِدوا بينهم جِواراً وحِلْفاً يَأْمَنُ به بَعْضُهم من بعض، ويمتنعون به مِمَّن سِوَاهم، فتحالفوا وتعاقدوا واشتركوا وتعاملوا فلم يزالوا على ذلك زماناً طويلاً، وأَمِرَت الأَوْسُ والخزرج، وصار لهم مالٌ وعَدَد، فخافت قُرَيْظَةُ والنَّضير أَن يَغْلبوهم على دُورهم وأَموالهم، فَتَنَمَّرُوا لهم حتى قطعوا الحِلْفَ الذي كان بينهم فأَقامت الأَوس والخزرج في منازلهم خائفين أَن يُجْلِيَهُمْ يهود، حتى نَجَمَ منهم مالك بن العَجْلان، أَخو بني سالم بن عَوْف بن الخزرج وسوَّدَهُ الحَيَّان الأَوس والخزرج».

«وكان ملك اليهود الفِطْيَون شَرَط أَلا تُهْدَى عروس إِلى زوجها حتى تَدْخُلَ عليه، فلما سَكَن الأَوس والخزرج المدينة أَراد أَن يسير فيهم بتلك السيرة. فتزوَّجت أُخت مالك بن العَجْلان رَجُلاً من بني سالم، فأَرسل الفِطْيَوْن رسولاً في ذلك، وكان مالك غائباً، فخرجت أُخْتُه في طلبه، فَمَرَّتْ به في قَوْم، فنادته، فقال: لقد جِئْتِ بِسُبَّة، تُنَادِيني ولا تَسْتَحِي. فقالت: إِن الذي يُرَاد بي أَكبر، فأَخْبَرَتْهُ. فقال لها: أَكْفِيكِ ذلك. فقالت: وكيف؟ فقال: أَتَزَيَّى بِزِيِّ النساء وأَدخل مَعَكِ عليه بالسيف، فأَقتلُه. ففعل. ثم خرج حتى قَدِم الشام على أَبي جُبَيْلَة،

وكان نزلها حين نزلوا هم بالمدينة فَجَيَّش جيشاً عظيماً وأقبل كأنه يريد اليَمَن، واختفى معهم مالك بن العجلان، فجاء فنزل بذي حُرُض، وأرسل إلى أهل المدينة من الأوس والخزرج فأتوا إليه فوصلهم ثم أرسل إلى بني إسرائيل وقال: من أراد الحِبَاء من الملك فليخرج إليه مخافة أن يتحصنوا في الحصون فلا يَقْدِر عليهم فخرج إليه أشرافُهم، فأمر لهم بطعام حتى اجتمعوا فقتلهم فصار الأوس والخزرج أَعَزَّ أهل المدينة».

تنبيه: في بيان غريب ما سبق

«حَفَّها»: أحدق بها.

«الزَّبَدة»[١]: بفتحتين: الرَّغْوَة.

«البَطْحاء»: الأرض المتسعة.

«مَدَرَة»: جَمْعُها مَدَر، مثل قَصَبَة وقصب قال الأزهري: المَدَر قِطَع الطين.

«المِكْتَل»[٢]: بكسر الميم وسكون الكاف وفتح المثناة الفوقية: الزِّنْبِيل.

«صَعْل»: بصاد فعَيْن مهملتين فلام.

«فالِج»: بالجيم.

«المُسَنَّاة»: حائط يبنى في وجه الماء ويسمى السَّدّ.

«العَرِم»: جمع عَرِمَة.

«السَّكْر»: بفتح السين المهملة وسكون الكاف: أي السَّدّ الذي يحبس الماء، قال ابن الأعرابي: السَّيْل الذي لا يُطَاق وقيل العَرِم الوادي وأصله من العرامة وهي الشِّدَّة والقوة.

«الضَّحْل»[٣]: بالضاد المعجمة والحاء المهملة الساكنة: القليل من الماء وقيل الماء القريب:

«الفِطْيَوْن»: [بكسر الفاء وإسكان الطاء المهملة ثم مثناة تحتية مفتوحة وواو ساكنة فنون. والفطيون هو الذي تَمَلَّكَ بيثرب].

---

(١) انظر المفردات في غريب القرآن ٢١١.

(٢) انظر اللسان ٣٨٢٢/٥.

(٣) انظر اللسان ٢٥٥٩/٤.

الباب الثاني

في أسماء المدينة مرتبة على حروف المعجم

الأَول فالأَول مستقصاة لأَن كثرة الأَسماء تدل على شَرَف المُسَمَّى، فما ذكره، الزَّرْكَشِي في الإِعلام، وصاحب القاموس في غيره، والسيد في تاريخه بلغ بها خمسةً وتسعين اسماً وهي:

ـ «**أَثْرِب**»: بالفتح وإِسكان المثلثة وكسر الراء فموحدة، لُغَةٌ في يَثْرِب، اسم من سكنها أَولاً، سُمِّيَتْ به أَرضُ المدينة كلها عند أَبي عُبَيْدَة أَو هي فقط عند ابن عباس أَو ناحية منها. وعلى الثالث فإِطلاقه على المدينة مع ذلك صحيح ثابت إِما وَضْعاً لها أَو من إِطلاق اسم البعض على الكل أَو المشتهر من باب عكسه، وورد النَّهْيُ عن تسميتها بذلك كما سيأْتي.

ـ «**أَرْضُ الله**»: لقوله تعالى ﴿**أَلَـمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِـيهَا**﴾ [النساء ٩٧] قال جماعة: المراد المدينة، وفي هذه الإِضافة من مزيد التعظيم ما لا يَخْفَى.

«**أَرْضُ الهِجْرَة**»: لحديث فيه [المدينة قُبَّة الإِسلام].

ـ «**أَكَّالة البُلْدَان**»: لتسلطها على جميع الأَمصار وارتفاعها على سائر بلدان الأَقطار وافتتاحها منها على أَيدي أَهلها فغنموها وأَكلوها.

ـ «**أَكَّالة القُرَى**»: لحديث «أُمِرْتُ بقريةٍ تأْكل القُرَى»(١).

«**الإِيـمان**»: لقوله تعالى في الأَنصار. ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيْمَان من قَبْلِهِمْ**﴾ [الحشر ٩] قال عثمان بن عبد الرحمن وعبد الله بن جَعْفَر: «سَمَّى الله تعالى المدينةَ الدَّارَ والإِيمان»، رواه محمد بن الحَسَن المخزومي عنهما. وابنُ شَبَّة عن الثاني. وقال البيضاوي: «سَمَّى الله المدينة بالإِيمان لأَنها مظهره ومصيره». وعن أَنَس بن مالك [أَن مَلَك] الإِيمان قال: «أَنا أَسكن المدينة»، فقال [مَلَك] الحياء: «وأَنا معك»، رواه الدينوري في كتابه المُجَالَسَة.

ـ «**البارَّة**»: بتشديد الراء.

ـ «**البَرَّة**»: بالتشديد أَيضاً لكثرة بِرِّها لأَهلها خصوصاً ولجميع العالم عموماً، لأَنها منبع الفيض والبركات.

ـ «**البَحْرَة**»: بالفتح وسكون المهملة.

ـ «**البُحَيْرَة**»: تصغير ما قبله.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧١) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٨) وأحمد في المسند ٢/٢٣٧ ومالك في الموطأ (٨٨٧).

ـ «**البَحِيرة**»: بالفتح والكسر: نقل الزركشي الثلاثة في الإعلام عن منتخب كُرَاع، ونقل غَيْرُه الأَوَّلَيْن عن معجم ياقوت، والاستبحار السعة لأَنها بمُتَّسَع من الأَرض ولقول سعد بن عُبَادة: ولقد اصطلح أَهْلُ هذه البُحَيْرة - بالتصغير - على أَن يعصبوه بالعِصَابة فلما رَدَّ اللهُ ذلك بالحق الذي أَعطاك شَرِقَ بذلك، ويقال «البَحْر» أَيضاً بغير تاء، سَاكِن الحاء وأَصْلُه القُرَى وكل قريةٍ بَحْرَة.

ـ «**البَلاَط**»: بفتح الموحدة، نُقِل عن [كتاب: لَيْسَ] لابن خالويه وهو لُغَة الحجارة المفروشة [التي تُفْرَش على الأَرض، والأَرض المفروش بها، والمستوية الملساء فكأَنها] سُمِّيَتْ به لكثرته فيها أو لاشتمالها على موضع تُعْرَف به.

ـ «**البَلَد**»: قال تعالى: ﴿**لاَ أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ**﴾ [البلد ١]: قيل: المدينة وقيل: مكة ورَجَّحه القاضي، لكن السورة مكية والبلد لغة صَدْرُ القُرَى. قال الواسطي فيما نقله عن القاضي: «أَي يَحْلِف لك رَبُّك بهذا البَلَد الذي شَرَّفْتَهُ بمكانك فيه حيّاً وببركتك ميتاً»، يعني المدينة.

ـ «**بلد رسول الله**» ﷺ: روى البَزَّار عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الشياطين قد يَئِسَتْ، أَن تُعْبَدَ ببلدي»، هذا يعني المدينة وجزيرة العرب، «ولكن في التحريش بينهم»(١).

ـ «**بيت رسول الله**» ﷺ: قال تعالى ﴿**كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ**﴾: أَي من المدينة لاختصاصها به اختصاصَ البَيْتِ بساكنه، أَو المراد: بَيْتُه بها.

ـ «**تَنْدَدُ**»: بمثناة فوقية فنون وإهمال الدَّالَيْن، كَجَعْفَر.

ـ «**تَنْدَر**»: براء بَدَل الدال الأَخيرة مما قبله كما سيأْتي في «يَنْدَر» بالتحتية.

ـ «**الجابرة**»: ذُكِر في حديث للمدينة عَشْرةُ أَسماء، سميت بها لأَنها تَجْبُر الكسير وتُغْنِي الفقير وتَجْبُر على الإذعان لمطالعة بركاتها وشهود آياتها ولأَنها جبرت البلاد على الإسلام.

ـ «**جَبَار**» كحَذَام رواه ابنُ شَبَّة بدل الجابرة في حديثه المذكور.

ـ «**الجَبَّارة**»: نُقِل عن التوراة.

ـ «**جزيرة العرب**»: لقول بعضهم إنها المرادة من الحديث: «أَخْرِجُوا المشركين من

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٢/٣ وعزاه للبزار وقال: فيه السكن بن هارون الباهلي ولم أجد من ترجمه.

جزيرة العرب»، وفي حديث ابن عباس: «خرجت مع رسول الله ﷺ من المدينة فالتفت إليها وقال: «إن الله برأ هذه الجزيرة من الشِّرْك»، رواه أبو يعلى والبزار والطبراني.

ـ «الجُنَّة الحصينة»: بضم الجيم وهي الوقاية، أخذاً من قوله ﷺ في غزوة أُحُد: «أنا في جُنَّة حصينة»[(١)] ـ يعني المدينة ـ [«دعوهم يدخلون نقاتلهم»].

ـ «الحبيبة»: لحبه ﷺ لها ودعائه لها.

ـ «الحَرَم»: بالفتح [بمعنى الحرام لتحريمها، وفي الحديث: «المدينة حَرَم»[(٢)]، وفي رواية أنها: «حَرَمٌ آمن».

ـ «حرم رسول الله»: ﷺ لأنه الذي حَرَّمَها، وفي الحديث: «من أخاف أَهْلَ حَرَمي أخافه الله»، وفي حديث آخر: حَرَم إبراهيم مكة وحَرَمي المدينة»، رواه الطبراني.

ـ «حَسَنة»: بلفظ مقابل السيئة، وقال تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل ٤١] أي مَبَاءةً حسنة وهي المدينة، وقيل: هو اسمها لاشتمالها على الحسن الحِسِّي والمعنوي، نقله الإمام فخر الدين الرّازي.

ـ «الخَيِّرة»: بالتشديد.

ـ الخِيرَة» بالتخفيف تقول: امرأة خَيِّرَة وَخِيرَة بمعنى كثيرة الخير، وإذا أردت التفضيل قلتَ: فلان خَيْرُ الناس، وفي الحديث: «والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون».

ـ «الدَّار»: لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ﴾ على ما سبق في الإيمان سميت به لأَمْنِها والاستقرار بها وجَمْعِها البناء والعَرْصَة.

ـ «دار الأبرار».

ـ «دار المختار»: لأنها دار المصطفى المختار والمهاجرين والأنصار، ولأنها تَنْفِي شرارَها، ومن أقام بها منهم فليست في الحقيقة له بدار، وربما نُقِلَ منها بعد الإقبار.

«دار الإيمان»: روى الطبراني بسَنَدٍ لا بأس به عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة قُبَّةُ الإسلام ودار الإيمان وأرض الهجرة ومبوأ الحلال والحرام»، وروى الشيخان عن أبي هريرة، والبزار عن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن الإيمان لَيَأْرِز إلى المدينة كما تَأْرِز الحَيَّةُ إلى جُحْرِها»، تأْرز بفتح أولِه وسكون الهمزة وكسر الراء ـ وقد تُضَمّ ـ

---

(١) ذكره السيوطي في الدر ٩٤/٢ وعزّاه لعبد بن حُميد وابن جرير.
(٢) أخرجه البخاري ٤٩/٣ (١٨٦٧).

بعدها زاي، أَي أَنها كما تخرج في طلب ما تعيش به فإِذا راعها شيءٌ رجعت إِلى جحرها كذلك الإِيمان انتشر في المدينة، فكل مؤمن، له من نفسه شائق إِلى المدينة لمحبته في النبي ﷺ.

ـ «دار السُّنَّة».

ـ «دار السلامة».

ـ «دار الفَتْح»: ففي الصحيح قول عبد الرحمن بن عوف لعُمَر رضي الله عنهما: «حتى تقدم المدينة فإِنها دار الهجرة والسنة» - وفي رواية الكَشْمَيْهَنِي أَحد رواة البخاري - «والسلامة، وقد فُتِحت منها مكة وسائر الأَمصار وإِليها هجرة المختار ومنها انتشرت السُّنَّة في الأَقطار.

ـ «الدِّرْع الحصينة»: لحديث أَحمد برجال الصحيح: «رَأَيْتُ كأَني في دِرْع حصينة، فأَوَّلْتُ الدِّرْع الحصينة المدينة».

ـ «ذات الحُجَر»: بضم الحاء المهملة وفتح الجيم لاشتمالها عليها.

ـ «ذات الحِرَار»: بكسر الحاء وراءيْن مهملات، جمع حَرَّة بفتح الحاء وهي الحِجَارة السُّود لكثرتها بها.

ـ «ذات النَّخْل»: لوصفها بذلك/ ولِمَا قبله في خَبَر خُنَافِر مع رَئِيِّه، وفي سَجْع عِمْرَان بن عامر: فليلحق بيثرب ذات النَّخْل، وفي الحديث: «أُريت دَارَ هجرتي ذات نَخْل وَحَرة».

ـ «السَّلِقة»[1]: ذكره أَبو عبد الله محمد بن أَحمد بن أَمين الأَقْشَهْرِي في أَسمائها المنقولة عن التوراة، وهو محتمل، والسلقة بفتح اللام وكسرها إِذ السَّلَق بالتحريك القاع الصفصف والسلاق البليغ، وربما قيل للمرأَة السليطة سِلْقَة بالكَسْر، وسلقت البَيْضَ سلقاً أَغليته بالنار. فسميت المدينة به لاتساعها وتباعد جِبَالها أَو لتسلُّطها على البلاد فَتْحاً أَو لِلأْوَائِها وشِدَّة حَرِّها وما كان بها من الحُمَّى.

ـ «الشَّافية»: لحديث، «تُرَابُها شفاء من كل داء»، ولِمَا صَحَّ في غبارها. وذكر ابن مُسْدِي: الاستشفاء من الحُمَّى بكتابة أَسمائها وتعليقها على المحموم، وسيأْتي أَنها تَنْفِي الذنوب فتشفي من دائها.

(١) السَّلَق: الواسعُ من الطرقِ والقاعُ المُطمئن من الأَرض المستوي لا نباتَ فيه والجمع أَسلاق وسُلِقانٌ. انظر المعجم الوسيط ٤٤٧/١.

ـ **«طابَة»**: كشَامَة، روى مسلم عن جابر رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله تعالـى سَمَّى الـمدينة طابة**»[1].

ـ **«طَيْبَة»**: بسكون المثناة التحتية كهَيْبَة وعَيْبَة.

ـ **«طَيِّبَة»**: بتشديد المثناة التحتية.

ـ **«طائب»**: ككاتب، وهذه الأربعة مع اسمها المُطَيِّبة أخوات لفظاً ومَعنى، مختلفات صِيغَة ومَبْنىً. وفي الحديث: «للمدينة عَشْرة أسماء هي المدينة وطَيْبَة وطابة»، وعن وَهْب بن مُنَبِّه: «إن اسمها في كتاب الله ـ يعني التوراة ـ طَيْبَة وطابة». ونقل عن التوراة أيضاً تسميتها بالطَّيِّبة وكذلك المُطَيِّبَة. وتسميتها بهذه الأسماء إما من الطَّيِّب بتشديد المثناة وهو الطاهر لطهارتها من أدناس الشِّرْك، أو لحلول الطَّيِّب بها ﷺ، أو لكونها كالكير تنفي خَبَثَها ويَنْصَعُ طِيبُها. قال الإشبيلي: «لِتُرْبَةِ المدينة نَفْحَةٌ ليس طِيبُها كما عُهِد من الطِّيب بل هو أعجب من الأعاجيب». قال بعض أهل العلم: «وفي طِيب تُرَابِها وهوائها دليلٌ شاهد على صِحَّة هذه التسمية، لأن من أقام بها يجد من تُرْبَتِها وحيطانها رائحةً طيبة لا تكاد توجد في غيرها».

ـ **«طِبابا»**: ذكره ياقوت وهو بكسر المهملة يعني القطعة المستطيلة من الأرض أو بفتح المعجمة ظَبابا من ظبّ، وظبظب إذا حُمَّ لما كان بها من الحُمَّى.

«العاصِمة»: لعصمتها للمهاجرين من المشركين ولأنها الدِّرْع الحصينة، أو هي بمعنى المعصومة فلا يدخلها الدَّجّال ولا الطاعون ومن أرادها بسوء أذابه الله.

ـ **«الْعَذْرَاء»**: بالمهملة فالمعجمة، نُقِل عن التوراة لصعوبتها وامتناعها على الأعداء حتى تسلمها مالكها الحقيقي سيد الأنام ﷺ.

ـ **«العَرّاء»**: بإهمال أوله وثانيه، قال أئمة اللغة: العَرَاء الجارية العذراء كأنها شُبِّهَت بالناقة العراء التي لا سَنَام لها أو صَغُر سَنامها كصِغر نهد العذراء فيجوز أن تكون تسمية المدينة بذلك لعدم ارتفاع أبنيتها في السماء.

ـ **«العَرُوض»**: بعين مهملة فراء فواو فضاد معجمة كصبور وقيل: هو اسم لها ولما حولها لانخفاض مواضع منها ومسايل أودية فيها، أو لأنها من نجد على خط مستقيم طولاً، والمدينة معترضة عنها ناحية.

ـ **«الغَرّاء»**: بالغين المعجمة تأنيث الأغرّ ذي الغُرَّة والبياض في مُقَدَّم الوجه والغُرَّة أيضاً خيار كل شيء وغُرَّةُ الإنسان وَجْهُه والأغَرّ الأبيض من كل شيء، والذي أخذت اللحية جميع

---

(١) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٤٩١) وأحمد في المسند ٩٤/٥ وابن أبي شيبة في المصنف ١٧٩/١٢.

وجهه إلا القليل، والرجل الكريم، واليوم الشَّدِيد الحَرّ. والغَرَّاءَ نَبْتٌ طَيِّبُ الرائحة، والسيدة الكبيرة. فسميت المدينة بذلك لأنها سادت على القُرَى، وطاب ريحُها في الورى، وأُكْرِمَ أَهْلُها وَكَثُر غَرْسُها وابْيَضَّ نُورُها وسطع ضياؤها.

ـ «**غَلَبَة**»: مُحَرَّكة بمعنى الغَلَب لظهورها على البلاد، وكانت في الجاهلية تُدْعَى «غَلَبَة»: نزلت يَهُود بها على العماليق فغلبتهم عليها، ونزلت الأَوس والخزرج على يهود فغلبوهم عليها، ونزل المهاجرون على الأَوس والخزرج فغلبوهم عليها، ونزل الأَعاجم على المهاجرين فغلبوهم عليها.

ـ «**الفاضِحة**»: بالفاء وضاد معجمة وحاء مهملة، نُقِل عن كُرَاع: إذ لا يُضْمِر بها أَحَدٌ عقيدةً فاسدةً أو يُبْطِن أَمْراً إلا ظهر عليه وافْتُضِح به، وهو مَعْنَى كونها تنفي خَبَثَها.

ـ «**القاصمة**»: بقاف وصاد مهملة. نُقِل عن التوراة لقَصْمِها كُلَّ جَبَّارٍ عناها وكسر كل مُتَمَرِّد أَتاها، ومَنْ أَرادها بسوء أَذابه الله.

ـ «**قُبَّة الإسلام**»: لحديث «المدينة قُبَّة الإِسلام».

ـ «**قرية الأَنصار**»: وتقدَّم الكلام على الأَنصار.

ـ «**قرية رسول الله**» ﷺ، لحديث الطبراني برجال ثقات: «ثم يسير ـ يعني الدَّجَّال ـ حتى يأْتي المدينة ولا يُؤْذَن له فيها فيقول: هذه قرية ذاك الرجل»، يَعْني النبي ﷺ.

ـ «**قلب الإِيمان**»: أَورده ابن الجوزي في حديث: «المدينة قُبَّة الإِسلام».

ـ «**المُؤْمِنَة**»: لتصديقها بالله تعالى حقيقةً لِخَلْقِه قابلية ذلك فيها كما في تسبيح الحَصَى، أَو مجازاً لاتصاف أَهلها بالإِيمان وانتشاره منها واشتمالها على أَوصاف المؤمن أَو لإِدخالها أَهْلَها في الأَمْن من الأَعداء والطاعون والدَّجَّال. وقد روي في حديث: «والذي نفسي بيده إِن تربتها لمؤمنة»، ورُوِي في آخر: «إِنها لمكتوبة في التوراة مؤمنة».

ـ «**المباركة**»: لأَن الله تعالى بارك فيها بدعائه ﷺ وحلوله بها.

ـ «**مبوأ الحلال والحرام**: رواه الطبراني في حديث: «المدينة قُبَّة الإِسلام»[١]، والتَّبَوُّء التَّمَكُّن والاستقرار، سُمِّيتْ به لأَنها مَحَلّ تمكن هذين الحُكْمَيْن واستقرارهما.

ـ «**مُبَيِّن الحلال والحرام**»: رواه ابن الجوزي وغيره بدل الذي قبله في الحديث المتقدم لأَنها محل بيانهما.

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠١/٣ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: فيه عيسى بن مينا قالون وحديثه حسن وبقية رجاله ثقات وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٤٨٠٢).

ـ «**المَجْبُورة**»: ذُكِر في الحديث: «للمدينة عشرة أَسماء»، ونُقِل عن الكتب المتقدمة، سُمِّيَتْ به لِجَبْرِها بخلاصة الوجود حَيًّا ومَيِّتًا لِحَثِّه على سكناها، بعد نقل حِماها وتكرر دعائه لها.

ـ «**المُحِبَّة**»: بضم الميم وبالحاء المهملة وتشديد المُوَحَّدَة، نُقِل عن الكتب المتقدمة.

ـ «**المُحَبَّبَة**»: بزيادة مُوَحَّدة على ما قبله.

ـ «**المحبوبة**»: نُقِل عن الكتب المتقدمة أَيضاً، وهذه ثلاثة مع ما تقدم من اسمها الحبيبة من مادة واحدة، وحُبُّه ﷺ لها ودعاؤه به معلوم، وحُبُّه تابع لحُبِّ رَبِّه.

ـ «**المَحْبُورَة**»: من الحَبْر وهو السرور أَو من الحَبْرَة بمعنى النعمة أَو المبالغة فيما وُصِف بجميل، والمِحْبَار من الأَرض السريعة النَّبات الكثيرة الخيرات.

ـ «**المُحَرَّمَة**»: لتحريمها.

ـ «**المحروسة**»: لحديث: «المدينة مشتبكة بالملائكة على كل نقب منها مَلَك يحرسها»، رواه الجندي.

ـ «**المَحْفُوفَة**»: لأَنها حُفَّتْ بالبركات وملائكة السموات، وفي خَبَر: «تأْتي مكة والمدينة محفوفتان بالملائكة»(١).

ـ «**المَحْفُوظَة**»: لحفظها من الطاعون والدَّجَّال وغيرهما، وفي خبر: «القُرَى المحفوظة أَربع»، وذكر المدينة منها.

ـ «**المُخْتَارَة**»: لأَن الله تعالى اختارها للمُخْتار من خَلْقه في حياته ومماته.

ـ «**مُدْخَل صِدْق**»: قال الله تعالى: ﴿**وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً**﴾ [الإسراء ٨٠] فَمُدْخَل صِدْق المدينة كما تقدم.

ـ «**المدينة**»: لتكرره في القرآن ونُقِل عن التوراة، والمدينة من مَدَنَ بالمكان أَقام به، أَو من دَانَ إِذا أَطاع، إِذ يُطَاع السلطان بالمدينة لسُكْنَاه بها، وهي أَبيات كثيرة تُجَاوِز حَدَّ القُرَى ولم تَبْلُغ حَدَّ الأَمصار، وقيل: يُقَال لكل مصر، وتُطْلَق على أَماكن كثيرة، ومع ذلك فهو عَلَم للمدينة النبوية، بحيث إِذا أُطْلِق لا يتبادر الفَهْم إِلى غيرها، ولا يُسْتَعْمَل فيها إِلا المَعْرِفة، أَما

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣١٢ بلفظ «المدينة ومكة محفوفتان بالملائكة وعزاه لأحمد وقال: رجاله ثقات، والحديث أخرجه أحمد ٢/٤٨٣ والبخاري في التاريخ ٦/١٨٠.

النَّكِرة فاسم لكل مدينة، ونسبوا للكل مَدِينِيّ، وللمدينة النبوية مَدَنِيّ للفَرْق.

ـ «**مدينة رسول الله**»: ﷺ، لقوله في حديث الطبراني: «مَنْ أَحْدَثَ في مدينتي هذه حَدَثاً أو آوى مُحْدِثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً»(١)، فأضافها إليه لسُكْناه بها، وله ولخلفائه دانت الأمم.

ـ «**المَرْحُومة**»: نُقِل عن التوراة، سُمّيَتْ به لأنها دار المبعوث رحمةً للعالمين وبها تَنْزِل الرحمات.

ـ «**المرزوقة**»: لأن الله تعالى رَزَقَها أَفْضَلَ الخَلْق فسكنها أو المرزوق أهْلُها، ففي الحديث: «لا يَخْرُج أَحَدٌ منها إلا أبدلها الله خَيْراً منه».

ـ «**مَسْجِد الأَقصى**»: نقله ابن الملقن في الإشارات عن صاحب المطالع.

ـ «**المِسْكينة**»: نُقِل عن التوراة، وذُكِر في حديث: «للمدينة عشرة أسماء»، وروى الزبير بن بكار عن كعب الأحبار قال: «نجد في كتاب الله تعالى الذي أُنْزِل على موسى أن الله قال للمدينة: ﴿**يا طَيْبَة يا طابة يا مسكينة لا تقبلي الكنوز أرفع أجاجيرك على أجاجير القُرَى**﴾، والأجاجير السطوح، والمسكنة الخضوع، والخشوع خلقه الله فيها، أو هي مسكن الخاشعين والخاضعين.

ـ «**المُسْلِمة**»: كالمؤمنة لخلق الله تعالى فيها الانقياد والانقطاع له أو لانقياد أهلها وفتح بلدهم بالقرآن.

ـ «**مضجع رسول الله**»: ﷺ كما في الحديث: «المدينة مهاجري ومضجعي في الأرض».

ـ «**المُطَيَّبَة**»: بضم أوله وفتح ثانيه تقدم في طيبة.

ـ «**المُقَدَّسَة**»: لتنزهها عن الشِّرْك وكونها تنفي الذنوب.

ـ «**المَقَرّ**»: بالقاف كالمَمَرّ من القَرَار، نقله السيد من بعض كتب اللغة، وفي دعائه ﷺ لها قوله: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً».

ـ «**المَكّتان**»: قال سعد بن أبي السَّرْح في حصار عثمان رضي الله عنه: «وأنصارُنا بالمكَّتَيْن قليلُ». وقال نصر بن حَجَّاج بعد نَفْيِه من المدينة:

فأَصْبَحْتُ مَنْفِياً على غَيْر رِيبَةٍ وقد كان لي بالمَكّتَين مُقَامُ

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣١٠ عن أبي أمامة بن ثعلبة وقال: له في الصحيح حديث في اليمين غير هذا رواه الطبراني في الأوسط.

قال السيد: «والظاهر أن المُرَاد المدينة لأَن قصة عثمان ونصر بن حَجَّاج كانتا بها وأَطلق ذلك عليها لانتقال أَهل مكة أَو غالبهم إِليها وانضمامهم إِلى أَهلها». أَو أَنه من قبيل التغليب والمراد مكة والمدينة.

ـ «المَكِينة»: لِتَمَكُّنِها في المكانة والمنزلة عند الله تعالى.

ـ «مهاجر رسول الله»: ﷺ لقوله «المدينة مهاجري».

ـ «الموفية»: بتشديد الفاء وتخفيفها لتوفيتها الوافدين حِسًّا ومعنى وأَهْلُها الموفون بما عاهدوا الله عليه.

ـ «النَّاجِية»: بالجيم لنجاتها من العُتَاة والطاعون والدَّجّال أَو لإِسراعها في الخيرات فحازت أَشرف المخلوقات ولارتفاع شأْنها.

ـ «نَبْلاَء»: نُقِل من كراع، قال السيد: وأَظنه بفتح النون وسكون الموحدة مأْخوذ من النُّبْل بالضم والسكون وهو الفضل والنَّجابة.

ـ «النَّحْر»: بفتح النون وسكون الحاء المهملة، سميت به إِما لشدة حَرِّها كما يقال نَحْر الظهيرة وإِما لإِطلاق النَّحْر على الأَصل وهما أَساس بلاد الإِسلام.

ـ «الهَذْراء»: ذكره ابن النَّجّار بدل العَذْراء نقلاً عن التوراة، رُوِي بالذال المعجمة وذلك لشدة حَرِّها، يقال: يوم هاذر شديد الحَرّ، أَو لكثرة مياهها وأَصوات سوانيها، ويقال هَذَر في كلامه إِذا أَكثر، ويحتمل أَن يكون بالمهملة من هَدَرَ الحمام إِذا صَوَّت، والماء انْصَبّ وانهمر والعشب طال، وأَرض هادِرة: كثيرة النبات.

ـ «يَثْرِب»: لغة في أَثْرب وقد تقدم الكلام عليه فيه، وستأْتي أَحاديث النهي عن تسميتها بذلك.

ـ «يَنْدَد»: بدالين مهملتين ذكره كراع وهو إِما من النَّدّ وهو الطِّيب المعروف أَو النَّدّ التَّلّ المُرْتَفِع أَو من النَّادّ وهو الرِّزْق.

ـ «يَنْدَر»: كَحيْدَر براء بدل الدال الثانية مما قبله، كذا في حديث: «للمدينة عشرة أَسماء» في بعض الكتب، وفي بعضها الآخر بمثناة فوقية ودالين تَنْدَد، وفي بعضها كذلك بفوقية ودال وراء تندر، وصَوَّب المجد اللغوي «يَنْدَد» فقط بالتحتية ودالين، وفيه نظر. والحديث رواه ابن زَبَالة إِلا أَنه سردها تسعة، ورواه ابن شَبَّة وسردها ثمانية فحذف منه الدار، ثم رُوِي من طريقه أَيضاً عن عبد الله بن جعفر بن أَبي طالب تسميتها بالدار والإِيمان ثم قال: «[وجاء في الحديث الأَول ثمانية أَسماء وجاء في هذا الحديث اسمان] فالله أَعلم أَهُمَا تمام

العشرة أَم لا». ورواه ابن زبالة كذلك إلاَّ أنه سرد تسعة فزاد اسم «الدار» وأسقط العاشر، ونقل ابن زبالة أن عبد العزيز بن محمد الدراوردي قال: بلغني أَن للمدينة في التوراة أَربعين اسماً، انتهى ما ذكره السيد رحمه الله مع زيادات فيه.

وروى الزبير بن بَكَّار عن القاسم بن محمد قال: بلغني أَن للمدينة أَربعين اسماً. وروى أَيضاً عن زيد بن أَسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «للمدينة عشرة أَسماء هي: المدينة وطَيْبَة وطابة ومسكينة وجابرة ومجبورة ويَنْدَد ويَثْرِب والدار». ورُوِيَ أَيضاً عن إِبراهيم بن الحَسَن قال: «للمدينة في التوراة أَحد عشر اسماً: المدينة وطَيْبَة وطابة والمسكينة والجابرة والمجبورة والمرحومة والعذراء والمحبوبة والقاصمة.

الباب الثالث

في النهي عن تسميتها يثرب

روى الإمام أحمد ومالك والشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ بقرية تأكل القُرَى يقولون يثرب وهي المدينة، تَنْفِي الناس كما يَنْفِي الكير خَبَثَ الحديد»(١). وروى الإمام أحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه بسند جَيِّد عن البَرَاء بن عازب رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَمَّى المدينة بِيَثْرِب فليستغْفِر الله: هي طابة هي طابة»(٢). وروى ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَدْعُوها يثرب فإنها طَيْبَة»(٣)، يعني المدينة، «ومَنْ قال يثرب فليستغفر الله ثلاث مرات، هي طَيْبَة هي طَيْبَة هي طَيْبَة». وقال الإمام عيسى بن دينار(٤) أحد أئمة المالكية: «من سَمَّى المدينةَ يثرب كُتِبَتْ عليه خطيئة، وبذلك جزم الإمام العلاَّمة الشيخ كمال الدَّميري(٥) في منظومته في كتاب الحج حيث قال:

ومَنْ دَعَاهَا يَثْرِباً يَسْتَغْفِرْ فَقَولُهُ خَطِيئَةٌ لِتُنْظَرْ

وسبب الكراهة إما لكون ذلك مأخوذاً من الثَّرَب بالتحريك وهو الفساد، أو من التثريب وهوالمؤاخذة بالذَّنْب. وكان ﷺ يحب الاسم الحَسَن، ولهذا أسماها طابة وطيبة كما تقدم. وأما تسميتها في القرآن يثرب فذلك حِكاية عن قول المنافقين، وأما قولهﷺ: «فذهب وَهَلِي إلى اليمامة أو هَجَر فإذا هي المدينة يثرب»، وقوله في حديث آخر: «لا أراها إلا يثرب»، فذلك قبل النهي عن تسميتها بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري ٥٠/٣ (١٨٧١) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٨) وأحمد في المسند ٢٣٧/٢.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٢٨٥/٤ وذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٣/٣ وعزاه لأحمد وأبي يعلى وقال: ورجاله ثقات وذكره السيوطي في الدر ١٨٨/٥ وعزاه لأحمد وابن أبي حاتم وابن مردويه.

(٣) ذكره السيوطي في الدر ١٨٨/٥ وعزاه لابن مردويه.

(٤) عيسى بن دينار بن واقد الغافقي، أبو عبد الله: فقيه الأندلس في عصره، وأحد علمائها المشهورين. أصله من طليطلة. سكن قرطبة، وقام برحلة في طلب الحديث. وعاد، فكانت الفتيا تدور عليه بالأندلس لا يتقدمه أحد. وكان ورعاً عابداً. توفي ٢١٢هـ الأعلام ١٠٢/٥.

(٥) ٩٤/٣ محمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبو البقاء، كمال الدين: باحث، أديب، من فقهاء الشافعية. من أهل دميرة (بمصر) ولد ونشأ وتوفي سنة ٨٠٨هـ بالقاهرة. وكانت له في الأزهر حلقة خاصة، وأقام مدة بمكة والمدينة. من كتبه «حياة الحيوان»، و «حاوي الحسان من حياة الحيوان» و «الديباجة» في شرح كتاب ابن ماجه، في الحديث، و «النجم الوهاج» الأعلام ١١٨/٧.

الباب الرابع

في محبته صلى الله عليه وسلم لها ودعائه لها ولأهلها ورفع الوباء عنها بدعائه صلى الله عليه وسلم

عن أَنس رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ كان إذا قَدِم من سفر فنظر إلى جدر المدينة، وفي لفظ: دَوْحاتها، وفي لفظ: درجاتها طَرَح رداءه عن منكبيه وقال: «هذه أرواح طَيْبَة»، وأَوضع راحِلَته، وإن كان على دابة حَرَّكَهَا من حُبّه، وفي لفظ: «تباشراً بالمدينة» وقال: «اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حَسَناً»(١). رواه الشيخان والمحاملي ومحمد بن الحَسَن المخزومي. وروى الإمام أَحمد والشيخان وابن إسحاق واللفظ له عن عائشة رضي الله عنها أَنها قالت: «لما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة قَدِمَها وهي أَوْبأ أرض الله من الحُمَّى، وكان واديها يَجْري نَجْلاً - يعني ماءً آجناً - فأَصاب أَصْحَابَه منها بلاءٌ وسَقَم، وصَرَف الله ذلك عن نبيه». قالت: «فكان أَبو بكر وعامر بن فُهَيْرَة وبلال مَوْليا أَبي بكر في بيت واحد، فأَصابتهم الحُمَّى، فاستأذنتُ رسول الله ﷺ في عيادتهم، فأَذِن، فدخلتُ إليهم أَعودُهم، وذلك قبل أَن يضْرَب علينا الحجاب، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوَعْك، فدَنَوْتُ من أَبي بكر فقلت: يا أَبَتِ كيف تجِدُك؟ فقال:

كُلُّ امْرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهْلِهِ ... وَالْمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ(٢)

قالت: فقلتُ: والله ما يَدْرِي أَبي ما يقول، ثم دنوتُ من عامر بن فُهَيْرَة فقلت: كيف تجِدُك يا عامر؟ فقال:

لقد وَجَدْتُ المَوْتَ قَبْلَ ذَوْقِهِ ... إنَّ الجَبَانَ حَتْفُهُ مِنْ فَوْقِهِ
كُلُّ امْرِئٍ مُجَاهِدٌ بِطَوْقِه ... كَالثَّوْرِ يَحْمِي جِلْدَه بِرَوْقِه(٣)

قالت: فقلتُ: والله ما يَدْرِي عامِرٌ ما يقول. قالت: وكان بلال إذا أَقلع عنه الحُمَّى اضطجع بِفِنَاء البيت ثم يرفع عقيرته ويقول:

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِوَادٍ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيلُ
وَهَلْ أَرِدَنْ يَوْماً مِيَاهَ مَجَنَّةٍ ... وَهَلْ يَبْدُوَنْ لِي شَامَةٌ وَطَفِيلُ(٤)

قالت: فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، وما سَمِعتُه منهم. قلتُ. إنهم ليَهْذُون وما

---

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٨١٥٧).
(٢) انظر البداية والنهاية ٣/٢٢١.
(٣) انظر البداية والنهاية ٣/٢٢٢.
(٤) انظر البداية والنهاية ٣/٢٢١.

يَعْقِلون من شدة الحُمَّى، فنظر إلى السماء وقال: «اللهمّ حَبِّبْ إلينا المدينة كما حَبَّبْتَ إلينا مكة» - وفي لفظ للجندي ورزين «وأَشَدّ»، بالواو بدلاً من «أو» - «وصَحِّحْها وبارِكْ لنا في صاعِها ومُدِّها، ثم انقل وباءها إلى مهيعة[1] - وهي الجُحْفَة»، وإنه لَيتَّقِي شُرْبَ الماء من عينها التي يُقَال لها عَيْن خُمّ.

وروى البخاري والترمذي والنسائي وابن ماجه ومحمد بن الحَسَن المخزومي عن ابن عُمَر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: رأَيتُ امرأَةً سوداء ثائرة الرأْس، خرجت من المدينة حتى نزلت مهيعة، فأَوَّلْتُها أَن وباء المدينة نُقِل إلى مهيعة. وروى الزبير بن بَكّار عن عروة بن الزبير مُرْسَلاً قال: «أَصبح رسول الله ﷺ يوماً، فجاء إنسان قَدِمَ من ناحية طريق مكة، فقال له: «هل لَقِيتَ أَحداً»؟ قال: لا يا رسول الله إلا امرأَة سوداء عريانة ثائرة الشَّعر. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الحُمَّى ولن تعود بعد اليوم أَبداً». ورُوِي أَيضاً عن موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أَبيه قال: لما قَدِم رسول الله ﷺ المدينةَ وَعَكَ أَصْحَابُه، وقَدِم رَجُلٌ فتزوج امرأَةً كانت مهاجرة، فجلس رسول الله ﷺ على المِنْبَر فقال: يا أَيها الناس «إنما الأَعمال بالنيات» - ثلاثاً - «فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرتُه إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يطلبها أَو امرأَة يخطبها فإنما هجرته إلى ما هاجر إليه»[2]، ثم رفع يديه وقال: «اللهم انقل عنا الوباء» - ثلاثاً - فلما أَصبح قال: أُتِيتُ الليلةَ بالحُمَّى فإذا عجوزٌ سوداء مُلَبَّبَة في يَدَيْ الذي جاء بها فقال: هذه الحُمَّى فما ترى فيها؟ فقلت: «اجعلوها بِخُمّ». وروى البيهقي عن هشام بن عروة قال: كان وباء المدينة معروفاً في الجاهلية، وكان إذا كان الوادي وبيئاً فأَشرف عليه إنسان فقيل له: انهق نهيقَ الحِمار، فإذا فعل ذلك لم يضرّه، قال الشاعر:

لَعَمْرِي لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى ... نَهِيقَ الحِمَارِ إِنَّنِي لَجَزُوعُ

قال هشام: وكان المولود إذا وُلِد بالجُحْفَة لم يَبْلُغ الحُلُم حتى تصرعه الحُمَّى. وقال ابن إسحاق: وذكر ابن شهاب الزهري عن عمرو بن العاص أَن رسول الله ﷺ لما قَدِم المدينة هو وأَصحابُه أَصابتهم حُمَّى المدينة حتى جهدوا مَرَضاً، وصَرَف الله ذلك عن نبيه ﷺ حتى ما كانوا يُصَلُّون إلا وهم قعود، قال: فخرج رسول الله ﷺ وهم يُصَلُّون كذلك فقال لهم: «اعلموا أَن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم»[3]، فَتَجشَّمَ المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والسقم التماساً للفَضْل.

---

(١) أخرجه البخاري ٣٠٨/٧ (٣٩٢٦).

(٢) أخرجه البخاري ٩/١ (١) ومسلم ١٥١٥/٣ (١٥٥- ١٩٠٧).

(٣) أخرجه البخاري بنحوه ٦٨٠/٢ (١١١٥) وانظر البداية والنهاية ٢٢٤/٣.

وعن أَنَس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اجعل بالمدينة ضِعْفَيْ ما جعلت بمكة من البَرَكة»[١]، رواه الشيخان. وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن إبراهيم حَرَّم مكة وإني حَرَّمْتُ المدينة ودَعَوْتُ لها في مُدِّها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة» ـ حديث مُتَّفَق عليه ـ وعن عبد الله بن الفضل بن العباس رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «أَدعوك لأَهل المدينة بمثل مكة»، قال عبد الله: إنا لنتعرف ذلك، إنا ليُجْزِىء المُدُّ عندنا والصاع بِمثَليْ ما يُجزىء بمكة، رواه البخاري في تاريخه. وروى الزبير بن بكار عن إسماعيل بن النعمان قال: «دعا رسول الله ﷺ لِغَنَم كانت تَرْعَى بالمدينة فقال: «اللهم اجعل نصف أَكراشها مثل ميلها بغيرها من البلاد».

وعن عليّ بن أَبي طالب أَن رسول الله ﷺ قال: «اللهم إن إبراهيم عَبْدُك وخليلُك دعا لأَهل مكة بالبركة وأَنا محمد عَبْدُك ورسولُك وأَنا أَدعو لأَهل المدينة أَن تُبارك لهم في صاعهم ومُدِّهم مثلما باركت لأَهل مكة واجعل مع البركة بَرَكَتَيْن»[٢]، رواه الترمذي وصَحَّحه والطبراني برجال الصحيح.

وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال: كان الناس إذا رَأَوْا أول الثَّمر جاؤوا به إلى النبي ﷺ، فإذا أَخذه رسول الله ـ زاد الطبراني: وضعه على عينيه ـ قال: «اللهم بارِك لنا في ثمرنا وبارك لنا في مدينتنا، وبارك لنا في صاعنا، وبارك لنا في مُدِّنا، اللهم إن إبراهيم عَبْدُك وخليلُك ونَبيُّك وإنه دعاك لمكة، وإني أَدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه». قال ثم يدعو أَصغر وليد فيعطيه ذلك الثَّمَر[٣]. رواه مسلم والترمذي والطبراني.

تنبيهات

الأَول: اقتضى هذا الحديث تكرير الدعاء بتكرير ظهور الثمرة والإتيان بأَولها.

الثاني: تكرير دعائه ﷺ بتحبيبه المدينة، والظاهر أَن الإجابة حصلت بالأَول والتكرير لطلب المزيد.

الثالث: الوَبَاء عموم الأَمراض، وهو أَعَمّ من الطاعون، ولا يُعَارِض قدومَهم المدينة ـ وهي وبيئة ـ نَهْيُه ﷺ عن القدوم على الطاعون، لأَن ذلك كان قبل النَّهْي، أَو أَن النَّهْي يَخْتَصّ بالطاعون ونحوه من الموت الذَّرِيع، لا المَرَض ولو عَمّ.

الرابع: هذه البركة المذكورة في الحديث في أَمر الدين والدنيا، لأَنها النَّمَاء والزيادة،

---

(١) أخرجه البخاري ٢٩/٣ (دار الفكر) ومسلم (٩٩٤).

(٢) ذكره الهَيْثَمي في المجمع ٣٠٨/٣ وعزاه للطبراني في الأوسط وقال: ورجاله رجال الصحيح.

(٣) أخرجه مسلم ١٠٠٠/٢ (٤٧٣ـ ١٣٧٣) وأخرجه الترمذي ٤٧٢/٥ (٣٤٥٤).

فالبَرَكة حاصلة لها في نفس الكَيْل، بحيث يكفي المُدّ بها مَنْ لا يكفيه بغيرها، وهذا أمر محسوس لمن سكنها.

الخامس: تحويل الوباء عن المدينة من أعظم المعجزات إذ لا يَقْدِر عليه جميع الأطباء، قال النووي: وهذا عَلَمٌ من أعلام نُبوّته ﷺ، فإن الجُحْفَة من يومئذ وبيئة ولا يشرب أحَدٌ من مائها إلا حُمّ، وقال الخَطّابي: كان أهل الجُحْفَة إذ ذاك يهوداً.

السادس: في بيان غريب ما سبق:

«الجُدُر»: جمع جِدَار كَكِتاب وكُتُب، والجِدَار الحائط.

«الدَّوْحَات»(١): بالدال والحاء المهملتين: جمع دَوْحَة مثل تَمْرَة وتَمَرات، والدَّوْحة الشجرة العظيمة.

«الدَّرَجَات»: جمع دَرَجَة وهي هنا الطُّرُق.

«الأَرواح»: جمع ريح بمعنى رائحة وهي عَرَضٌ يُدْرَك بحاسة الشَّمّ.

«أَوْضَعَ رَاحِلَتَه»(٢): أَوْضَع بالضاد المعجمة والعين المهملة، أَي حَثَّها على السرعة.

«القَرَار»: بالقاف: المُسْتَقِرُّ من الأَرض.

«بُطْحَان»: بضم المُوَحَّدة فسكون الطاء المهملة وقيل بفتح أَوَّلِه وكَسْر ثانيه: واد من أَودية المدينة. رَوَى ابنُ شَبَّة والبَزَّار عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً أَنّ بَطِحَان على ترعة من تُرَع الجَنَّة.

«نَجْلاً»(٣): بفتح النون وسكون الجيم أَي أَن واديها كان نَزًّا. قال: النَّجْل: الماء حين يَسِيل، وفَسَّره البخاري ماءً آجِناً. قال القاضي: «وهو خَطَأٌ»، وقال الحافظ: «وليس كما قال فإن عائشة قالت ذلك في مقام التعليل لكون المدينة كانت وبيئة، ولا شك أَن النَّجْل إذا فُسِّر بكونه الماء الحاصل من النَّزّ، فهو بصدد أَن يَتَغيَّر، وإذا تَغَيَّر كان استعماله مما يُحدِث الوباء في العادة».

«وَعْك»: الوَعْك بفتح الواو وسكون العين المهملة الحُمَّى.

---

(١) الدَّوْح: البيت الضخم الكبير من الشجر، والدوحة: الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة من شجرها الوسيط ٣٠٢/١.

(٢) أوضع بين القوم: أفسد، وأوضع في الشرأ سرع فيه، وأوضع الراكب الدَّابة: حملها على السير السريع. الوسيط ١٠٣٩/٢.

(٣) النجل: الماء السائل، والنجل: الماء استنقع والولد والنز والجمع الكثير من الناس والمحجة الواضحة، ويقال: استنجل الموضع: أي كثر به النجل وهو الماء يظهر من الأرض. انظر اللسان ٤٣٥٦/٦.

«كيف تَجِدُك»: أي تَجِدُ نَفْسَك أو جَسَدَك «مُصَبَّح»: بميم مضمومة وصاد مهملة فمُوَحَّدَة، وزن مُحَمَّد، أي مصاب بالموت صباحاً، وقيل: المراد يُقال صَبَّحَك اللهُ بالخير، وقد يَفْجَأُه الموت في بقية النهار وهو مُقِيمٌ بأهله، ويُرْوَى بالخاء المعجمة وهو أيضاً مكان بمكة.

«شِرَاك النَّعْل»: بكسر الشين المعجمة وتخفيف الراء: السير الذي يكون في وجه النَّعْل، والمعنى أن الموت أقرب إلى الشخص من شِراك نعله برِجْلِه.

«بِطَوْقِه»[1]: الطَّوْق هنا الطاقة والعُدَّة.

«الرَّوْق» بالراء والقاف: القَرْن.

«عقيرته»: أي صوته، قال الأصمعي: إن رَجُلاً عُقِرت رِجْلُه فرفعها على الأخرى وجعل يصيح فصار كل من رفع صَوْتَه يُقَال رفع عَقيرَتَه وإن لم يرفع رِجْلَه، قال ثعلب: وهذا من الأسماء التي استُعْمِلَت على غير أصلها.

«بوَادِ»: أي بوادي مكة.

«الإذْخِر»[2]: بكسر الهمزة والخاء المعجمة بينهما ذال معجمة: نَبْتٌ طَيِّب الرائحة.

«جليل»: بالجيم واللام: والثُّمَام بضم الثاء المثلثة: نَبْتٌ ضعيف له خوص أو ما يشبهه.

«مِجَنَّة»: بكسر الميم وفتحها: سوق بأسفل مكة.

«يَبْدُوَنْ»: أي يَظْهَرَنْ.

«شَامة»: بالشين المعجمة «وطَفِيل» بطاء مهملة مفتوحة وفاء مكسورة فمثناة تحتية: جَبَلان. قال البكري: جبلان مُشْرِفان على مَجَنَّة على بَرِيدٍ من مكة.

«يَهْذُون»: بالذال المعجمة: يَخْلِطون ويتكلمون بما لا ينبغي.

«مَهْيَعَة»[3]: بفتح الميم وسكون الهاء وفتح المُثَنَّاة التحتية والعين المهملة.

«الجُحْفَة»: بجيم مضمومة فحاء مهملة ساكنة ففاء مفتوحة: قرية جامعة لأن السيول اجتحفتها.

---

(١) يقال: هو في طوقي أي في وسعي قال الليث: الطوق مصدر من الطاقة وأنشد

كل امرئ مجاهد بطوقه
والثور يحمي أنفه بروقه

اللسان ٤/٢٧٢٥.

(٢) انظر اللسان ٢/١٤٩٠.

(٣) انظر الوسيط ٢/١٠٠٣.

«ثائرة الرأس»: بالمثلثة: مُنْتَشِرة شَعر الرأس.

«مُلَبَّبة»[1]: بضم الميم وفتح اللام والموحدة الأُولى المشددة وتخفيف الثانية، يقال: لَبَّبْتُه بالتشديد إذا جمعت ثيابَه عند نَحْرِه ثم جَرَرْتَه.

«خُمّ»: بخاء معجمة مضمومة فميم مُشَدَّدة: غَدِيرٌ على ثلاثة أَميال من الجُحْفة يَسْرَةً عن الطريق.

«جُهِدوا»: بالضم مبني للمفعول: أي حصل لهم الجَهْد وهو بالفتح المَشَقَّة فَتَجَشَّمَ المسلمون القيام أَي تَكَلَّفُوه.

«التماس الفضل»: أَي طلبه.

«الأَكراش»[2]: جمع كِرْش بكسر الكاف يُذَكَّر ويُؤَنَّث وهو لذي الخُفّ والظِّلْف كالمعدة للإنسان.

(١) انظر اللسان ٣٩٨٢/٥.
(٢) انظر المصباح المنير ٥٣٠، ٥٣١.

الباب الخامس

في عصمتها من الدجال والطاعون ببركته صلى الله عليه وسلم

عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «على أَنقاب المدينة ملائكة يَحْرُسُونها، لا يدخلها الطاعون ولا الدَّجّال»(١) رواه الشيخان. وعن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس من بلد إِلا سيطؤه الدَّجّال إِلا مكة والمدينة، ليس من نقب من أَنقابها إِلا عليه ملائكة صافِّين يحرسونها فينزل السبخة، ثم ترجف المدينة بأَهلها ثلاث رجفات فيخرج إِليه كل كافر ومنافق»(٢)، حديث مُتَّفَق عليه. وعن أَبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يدخل المدينة رعب المسيح الدجال، لها يومئذ سبعة أَبواب على كل باب ملكان»(٣)، رواه البخاري.

وعن تميم الداري رضي الله عنه في حديثه الطويل في رؤية الدَّجّال في اليقظة أَن الدَّجّال قال: يوشك أن يُؤذَن لي في الخروج فأَخرج فأَسير في الأَرض، فلا أَدَعُ قريةً إِلا هَبَطْتُها في أَربعين ليلة غير مكة وطيبة، هما مُحَرَّمَتان عَلَيّ، كلما أَردتُ أَن أَدخل واحدةً منهما استقبلني مَلَكٌ بيده السيف صَلْتاً، يصدني عنها، وأَن على كل نقب منها ملائكة يحرسونها»، قال رسول الله ﷺ وطعن بمخصرته في المنبر: «هذه طَيْبَة، هذه طيبة»(٤)، رواه مسلم. وعن أَنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «المدينة يأْتيها الدَّجّال فيجد الملائكة يحرسونها فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إِن شاء الله تعالى»، قوله: إِن شاء الله تعالى للتبرك وللجزم به في بقية الأَحاديث. وعن أَبي سعيد الخدري رضي الله عنه أَنه قال: «يأْتي الدَّجّال وهو مُحَرَّمٌ عليه أَن يدخل أَنقاب المدينة، فينزل بعض السباخ التي تلي المدينة، فيخرج إِليه يومئذ رَجُلٌ هو خَيْرُ الناس أَو من خَيْر الناس فيقول: أَشهد أَنك الدَّجّال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه، فيقول الدَّجّال: أَرأَيتم إِن قتلتُ هذا ثم أَحييتُه هل تَشُكُّون في الأَمر؟ فيقولون: لا، فيقتله ثم يحييه، فيقول: والله ما كنتُ فيك أَشد بصيرة مني اليوم، فيريد الدَّجّال أَن يقتله فلا يُسَلَّط عليه»(٥)، رواه البخاري.

تنبيهات

الأَول: صَحَّ في أَحاديث كثيرة أَن الطاعون شهادة. قيل: وإِذا كان كذلك فكيف قُرِن

---

(١) أخرجه البخاري ٣/٥٣ (١٨٨٠- ٧١٣٣) ومسلم في كتاب الحج (٤٨٥).

(٢) أخرجه البخاري ٣/٢٨ ومسلم في كتاب الفتن (١٢٣).

(٣) أخرجه البخاري ٣/٥٣ (١٨٧٩).

(٤) تقدم.

(٥) أخرجه البخاري ١٣/١٠٩ (٧١٣٢).

بالدَّجَّال، وكيف مُدِحت المدينة الشريفة بأنه لا يدخلها؟ والجواب أنه كونه شهادةً ورحمةً ليس المراد بوصف ذلك ذاته، وإنما المراد أن ذلك يَتَرَتَّب عليه وينشأ عنه، وأنه سببه، فإذا تَقَرَّر ذلك واستُحْضِر ما ورد في الأحاديث من أن طعن الجِنّ(٢) ظهر به مدح المدينة بأنه لا يدخلها إشارة إلى أن كُفَّار الجِنّ وشياطينهم ممنوعون من دخول المدينة الشريفة، ومن اتفق دخوله إليها منهم لا يتمكن من آحاد أهلها بالطعن حمايةً من الله تعالى لهم منهم. فإن قيل: طعن الجِنّ لا يختص بوقوعه من كُفَّارهم في مؤمني الإنس، بل يقع من مؤمني الجِنّ في كُفَّار الإنس، فإذا سلم منع الجِنّ الكُفار من المدينة لم يُمْنَع من آمن منهم من دخولها فالجواب: إن دخول كفار الإنس المدينة غير مُبَاح، فإنه إذا لم يسكن المدينة إلا من أظهر الإسلام، جَرَتْ عليه أحكام المسلمين، وصار من لم يكن خالص الإسلام تَبَعاً للخالص، فحصل الأمن من دخول الجِنّ إليهم، فلذلك لا يدخلها الطاعون أصلاً. قال الحافظ في بَذَل الطاعون في أخبار المدينة: وهذا الجواب أَحْسَن من جواب القرطبي في المُفْهِم حيث قال: «المعنى لا يدخلها من الطاعون مثل الذي في غيرها كطاعون عِمِوَاس(١) والجارف». وهو جواب صالح على تقدير التَّنَزُّل أن لو وقع شيءٌ من ذلك بها. وقال غيره: سبب الرحمة لم ينحصر في الطاعون وقد قال ﷺ: «غير أن عافيتك أوسع لي»، فإن ذلك من خصائص المدينة الشريفة، ولوازم دعاء النبي ﷺ لها بالصحة. وأجاب المنبجي بأجوبة منها أنها صغيرة، فلو وقع بها الطاعون أفنى أهلها، ومنها أنه عَوَّضهم عن الطاعون بالحُمَّى لأن الطاعون يأتي بعد مدة والحُمَّى تتكرر في كل مدة فتعادلا. قال الحافظ: «ويظهر لي جواب أخص من هذه الأجوبة بعد استحضار حديث أبي عسيب أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني جبريل بالحُمَّى والطاعون فأمسكت الحُمَّى بالمدينة وأرسلت الطاعون إلى الشام»، الحديث، وهو أن الحكمة في ذلك أنه ﷺ لما دخل المدينة كان في قلة من أصحابه عَدَداً ومَدَداً من زادٍ وغَيْره، وكانت المدينة وبيئة كما سبق، فناسب الحال الدعاء بتصحيح المدينة لتصِحّ أجساد المقيمين بها لِيَقْوَوْا على جهاد الكفار، وخُيِّر النبي ﷺ في أمْرَيْن، يحصل لمن أصاب كلاً منهما عظيم الثواب، وهما الحُمَّى والطاعون، فاختار الحُمَّى بالمدينة لأن أمرها أخف من أمر الطاعون لسرعة الموت به غالباً.

فلما أُذِن له في القتال كانت قضية استمرار الحُمَّى ضعف الأجساد التي تحتاج إلى القوة في الجهاد، فدعا حينئذ بنقل الحمى إلى الجُحْفَة فأُجيب دعاؤه، وصارت المدينة من أَصَحّ بلاد الله، فإذا شاء الله موت أَحَدٍ منهم، حصل له التي كانت من الطاعون بالقتل في

---

(١) عِمِواس رواه الزمخشري بكسر أوله، وكسر ثانيه. وغيره بفتح أوله وثانيه وسين مهملة آخره: كورة من فلسطين قرب بيت المقدس وكانت عمّواسُ قصبتها قديماً، وهي ضَيْعةٌ جليلة على ستة أميال من بيت المقدس منها كان ابتداء الطاعون المنسوب إليها في زمن عمر، قيل مات فيه خمسة وعشرون ألفاً. من مراصد الاطلاع ٢/٩٦٢، ٩٦٣.

سبيل الله الذي هو أعلى درجة، ومن فاته ذلك منهم مات بالحُمَّى التي هي حظ المؤمن من النار، كُلُّ يَوْمٍ منها يُكَفِّر سَنَةً.

واستمر ذلك بالمدينة بَعْدَه ﷺ تحقيقاً لإجابة دُعائه ﷺ. نَعَمْ شاركتها في ذلك مكة المُشَرَّفة فلم يدخلها الطاعون فيما مضى من الزمان كما يرويه ابن قتيبة في المعارف، ونقله جماعة من العلماء عنه وأقروه إلى زمان الإمام النووي رحمه الله. ذكر ذلك في كتاب الأذكار وغيره، لكن قد قيل إنه دَخَلها بعد ذلك في الطاعون العام الذي وقع في سنة تسع وسبعين وسبعمائة، صَرَّح بذلك غَيْرُ واحد من أهل ذلك الزمان.

الثاني: مَنْعُ الطاعون عن المدينة معجزة عظيمة لأن الأطباء من أولهم إلى آخرهم عجزوا أن يدفعوا الطاعون عن بلد من البلاد بل عن قرية من القُرَى وقد امْتنع الطاعون، عن المدينة بدعائه ﷺ هذه المدة الطويلة.

الثالث: ظاهر الأحاديث أن الدَّجَّال يدخل جميع البلاد، وبذلك قال الجمهور، وشَذَّ ابن حَزْم فقال: «المراد أن يدخله بَغْتَةً هو وجنوده. وكأنه استبعد إمكان دخول الدجال جميع البلاد لِقِصَر مُدَّته، وغَفَل عَمَّا ثبت في صحيح مسلم أن بعض أيامه يكون قَدْرَ السَّنَة.

الرابع: في بيان غريب ما سبق:

«الأنقاب»: بالقاف جمع نَقْب بفتح النون والقاف بعدها موحدة، والنِّقاب بالكسر جمع نقْب بالسكون وهما بمعنى والمراد الطريق في الجبل وغيره.

«السَّبَخة»: بفتح السين المهملة والباء الموحدة والخاء المعجمة: موضع بالمدينة بين موضع الخندق وبين جبل سَلْع.

«ترجف المدينة»: أي يحصل بها زلزلة بعد أُخرى ثم ثالثة حتى يخرج منها من ليس مخلصاً في إيمانه، ويبقى بها الدين الخالص فلا يُسَلَّط عليها الدَّجَّال، ولا يُعَارِضُ هذا ما في حديث أبي بكر: «لا يدخل المدينة رُعْب الدَّجَّال» لأن المراد بالرُّعْب ما يحدث من الفَزَع من ذِكْرِه، والخوف من عُتُوِّه، لا الرَّجْفَة التي تقع بالزلزلة لإخراج مَنْ ليس بِمُخْلِص.

«صَلْتاً»: أي مُجَرَّداً من غِمْدِهِ.

«المِخْصَرَة»: بكسر الميم وسكون الخاء المعجمة وفتح الصاد المهملة، وهي العصا أو نحوها، يأخذها الرجل بيده.

«يُوشِك»: أي يَقْرُب.

الباب السادس

في الحث على الإقامة والموت بها والصبر على لأوائها ونفيها الخبث والذنوب واتخاذ الأصول بها والنهي عن هدم بنيانها

عن الصُّمَيْتَة ـ بصاد مهملة فميم مفتوحة فَمُثَنَّاة تحتية ساكنة فَمُثَنَّاة فوقية مفتوحة فهاء تأنيث ـ اللَّيْثِيَّة رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استطاع منكم أَلاَّ يموت إلا بالمدينة فَلْيَمُتْ بها، فإن مَنْ يمت بها يُشْفَع أو يُشْهَد له»[١]. رواه ابن حِبَّان والبيهقي.

وعن ابن عُمَر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استطاع أن يموت بالمدينة فَلْيَمُتْ بها فإني أشفع لمن يموت بها»[٢]. رواه الإمام أحمد والترمذي وصَحَّحه ابن حِبَّان. وعن سفيان بن أبي زهير رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُفْتَحُ اليَمَن فيخرج قَوْمٌ من المدينة بأهليهم ومن أطاعهم يَبُسُّون، والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون، ويُفْتَح العراق، فيخرج قوم بأهليهم ومن أطاعهم، والمدينة خَيْرٌ لهم لو كانوا يعلمون»[٣]. رواه الشيخان.

وروى الإمام أحمد والبزار برجال الصحيح عن جابر بن عبد الله، ومسلم عن أبي هريرة، والطبراني برجال ثقات عن أبي أيوب وزيد بن ثابت، والطبراني برجال ثقات عن أبي أُسَيْد الساعدي[٤] رضي الله عنهم أن رسول الله ﷺ قال: «سيأتي على الناس زمان يُفْتَح فيه فتحات الأرض فيخرج إليها دجّال ـ وفي لفظ: فيخرج الناس إلى الأرياف يلتمسون الرّخاء، فيجدون رخاء، وفي لفظ: مَطْعَماً ومَلْبساً ومركباً، فيقال لهم: هلم إلينا فإنكم بأرض حجاز جدوبة والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وفي لفظ: فيكتبون إلى أهليهم هلموا إلينا، فإنكم بأرض حجاز جدوبة، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون، وفي لفظ: فيمرون على إخوان لهم حُجّاجاً أو عُمّاراً، فيقولون: ما يقيمكم في لأواء العيش وشدة الجوع؟ قال رسول الله ﷺ: فذاهبٌ وقاعد، حتى قالها مراراً والمدينة خير لهم، لا يثبت فيها أحد فيثبت لِلأوائها وشدتها حتى يموت إلا كُنْتُ له يوم القيامة شهيداً أو شفيعاً، والذي نفسي بيده لا يخرج أَحَدٌ رغبةً

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٩١٧) وابن حبان (١٠٣١) وابن حجر في المطالب (١٢٤٧).

(٢) ذكره العراقي في تخريجه على الإحياء ٢٤٤/١ وعزاه للترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر وقال الترمذي: حسن صحيح.

(٣) أخرجه البخاري ١٠٧/٤ (١٨٧٥) ومسلم ١٠٠٩/٢ (٤٩٧ـ ١٣٨٨).

(٤) مالك بن ربيعة بن البدّن، بفتح الموحدة والمهملة بعدها نون، أبو أسيد الساعدي، مشهور بكنيته، شهد بدراً، وغيرها، ومات سنة ثلاثين، وقيل: بعد ذلك، حتى قال المدائني: مات سنة ستين، قال: هو آخر من مات من البدريين. التقريب ٢٢٥/٢.

عنها إلا أخلف الله فيها خيراً منه، ألاَ إن المدينة كالكير تُخْرِج الخبيث، لا تقوم الساعة حتى تَنْفِي المدينة شِرَارَها كما يَنْفِي الكير خَبَث الحديد»(١).

وعن سعد بن أَبي وَقَّاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يَصْبِر على لأْوَاء المدينة وشِدَّتها أَحَدٌ من أمتي إلا كنتُ له شفيعاً يوم القيامة»، رواه مسلم(٢). وعن عُمَر رضي الله عنه أنه قال: «اللهم ارزقني قتالاً في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك»، رواه البخاري(٣).

وعن يحيى بن سعيد مُرْسَلاً أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض بقعة أَحَبّ إِليّ أن يكون قبري بها منها»، ثلاث مرات، يعني المدينة، رواه الإمام مالك في المُوَطَّأ. وعن أبي سعيد مَوْلَى المَهْري - بالراء - أنه جاء إلى أبي سعيد الخُدْرِيّ ليالي الحَرَّة فاستشاره في الجلاء عن المدينة وشكا إليه أَسْعَارهَا وكثرة عياله، وأخبره ألاَّ صَبْرَ له على جَهْد المدينة ولأوائها. فقال له: وَيْحَك لا آمُرُكَ بذلك، الزم المدينة فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَصْبِر أَحَدٌ على لأوائها فيموت إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة إذا كان مسلماً»(٤). وفي حديث أخرجه مسلم: «لا يريد أحد أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار ذوب الرصاص أو ذَوْبَ المِلْح في الماء»(٥). وعن عبد الله بن عَمْرو رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من صَبَر على لأوائها وشدتها كنت له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة»(٦). رواه مسلم. وعن أبي هريرة بنحوه، رواه الترمذي.

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من كان له بالمدينة أَصل فليتَمَسَّك به، ومن لم يكن له بها أَصل فليجعل له بها أَصلاً، فليأتينَّ على الناس زمان يكون الذي ليس له بها أَصل كالخارج منها المجتاز إلى غيرها»(٧)، وفي رواية: «فليجعل له بها أَصلاً ولو قَصَرَة»، رواه الطبراني وابن شَبَّة بسند لا بأس به. وروى ابن شَبَّة عن الزُّهْري مُرْسَلاً: «لا تتخذوا الأَموالَ بمكة واتخذوها بدار هجرتكم، فإن المرء مع ماله». وعن أبي هريرة رضي الله

(١) أخرجه مسلم ١٠٠٥/٢ (٤٨٧- ١٣٨١).
(٢) أخرجه مسلم ١٠٠٤/٢ (٤٨١- ١٣٧٧).
(٣) أخرجه البخاري ٥٧/٣ (١٨٩٠).
(٤) انظر تخريجه بأسانيد مختلفة في صحيح مسلم ١٠٠٤/٢ كتاب الحج باب الترغيب في سكن المدينة.
(٥) أخرجه مسلم ٩٩٢/٢ (٤٦٠- ١٣٦٣).
(٦) تقدم انظر مسلم الموضع السابق.
(٧) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٤/٣ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: ورجاله ذكرهم ابن أبي حاتم ولم يذكر فيهم

عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أُمِرْتُ بقرية تأكل القُرَى يقولون يثرب وهي المدينة تَنْفِي الناس كَما ينفي الكير خَبَث الحديد».

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن أعرابياً بايع رسول الله ﷺ، فأصاب الأعرابِيَّ وَعْك فسأل النبي ﷺ فقال: يا محمد أقلني بيعتي. فأبى. ثم جاءه فقال: أقلني بيعتي. فأبى. فخرج الأعرابي. فقال رسول الله ﷺ: «إنما المدينة كالكير تنفي خَبَثها ويَنْصَع طيبُها»[1] رواه الشيخان. وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنها طيبة - يعني المدينة - وإنها تنفي الخبث كما ينفي الكير خَبَث الفِضَّة»[2]، رواه مسلم. والمراد هنا الإقالة من الإسلام وقيل من الهجرة [كأنه كان قد بايع على هجرة الإقامة]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ نهى عن آطام المدينة أن تُهْدَم. وروى البزار بسَنَد حَسَن عن عمر رضي الله عنه قال: غلا السعر بالمدينة فاشتد الجَهْد، فقال رسول الله ﷺ: «اصبروا وأبْشِروا فإني قد باركتُ على صاعكم ومُدِّكم، وكلوا ولا تتفرقوا فإن طعام الواحد يكفي الاثنين وطعام الاثنين يكفي الأربعة وطعام الأربعة يكفي الخمسة والستة، وإن البركة في الجماعة، فمن صَبَر على لأوائها وشدتها كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة، ومن خرج رغبةً عنها أبدل الله به من هو خَيْرٌ منه فيها، ومن أرادها بسوء أذابه الله كما يذوب المِلْح في الماء»[3]. وروى البخاري عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنها أي المدينة طيبة تنفي الذنوب كما ينفي الكير خَبَث الفضة»[4].

تنبيهات

الأول: قال القاضي رحمه الله». «سئلت قديماً عن معنى قوله ﷺ: «كنت شهيداً أو شفيعاً»، ولِمَ خَص ساكن المدينة بالشفاعة هنا مع عموم شفاعته وادِّخاره إياها لأُمته؟ وأُجيب بأن «أو» ليست هنا للشك، خلافاً لمن ذهب إليه، إذ قد رواه جابر، وأبو هريرة، وأبو سعيد، وسعد بن أبي وقاص، وابن عُمَر، وصفية بنت أبي عبيد، وأسماء بنت عُمَيْس رضي الله عنهم بهذا اللفظ، ويبعد اتفاق الكل واتفاق رواياتهم على الشك، ووقوعه بصيغة واحدة، بل الظاهر أنه ﷺ قال كذلك هكذا، فإما أن يكون هو أعلم بهذه الجملة هكذا، وإما أن تكون «أو» للتقسيم، ويكون النبي ﷺ شفيعاً لبعض أهل المدينة وشهيداً لبعضهم الآخر، إما شهيداً

---

(١) أخرجه البخاري ٩/٩٨ ومسلم في كتاب الحج (٤٨٩) والترمذي (٣٩٢٠) والنسائي ٧/١٥١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الحج (٤٩٠).

(٣) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣٠٨ وعزاه للبزار، وقال: ورجاله رجال الصحيح وذكره المتقي الهندي في الكنز (٣٨١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري ٦/٩٣ (٤٥٨٩).

للطائعين وشفيعاً للعاصين، أو شهيداً لمن مات في حياته، شفيعاً لمن مات بعده، أو غير ذلك مما الله أعلم به، وهذه خصوصية زائدة على الشفاعة لكافة المذنبين، وعلى الشهادة لكافة الأُمة، وقد قال ﷺ في شهداء أُحُد: «أنا شهيد على هؤلاء»، فيكون في تخصيصهم زيادة منزلة، وقد تكون «أو» بمعنى الواو، فيكون لأهل المدينة شهيداً وشفيعاً بالشفاعة العامة. وإن جعلنا «أو» للشك كما ذهب إليه بعضهم، فإن كانت اللفظة الصحيحة فلا إشكال، إذ هي زائدة على الشفاعة المُدَّخَرة، وإن كانت الصحيحة شفيعاً فاختصاص أهل المدينة بهذا مع ما جاء في عمومها وادخاره لجميع الأُمة أن هذه شفاعة أُخرى غير العامة التي هي لإخراج أمته من النار وإخراج بعضهم منها بشفاعته ﷺ يوم القيامة، وتكون هذه الشفاعة لأهل المدينة زيادة في الدرجات أو تخفيف الحساب بما شاء الله من إكرامهم يوم القيامة بأنواع من الكرامة.

الثاني: قوله ﷺ: «تَنْفِي الناس»، وفي لفظ «الرجال»، قال القاضي: «كان هذا يختص بزمنه لأنه لم يكن يصبر على الهجرة والمُقَام معه بها إلا من ثبت إيمانه». وقال النووي: «ليس هذا بظاهر لأن عند مسلم لا تقوم الساعة حتى تنفي المدينة شِرَارَها كما ينفي الكير خَبَث الحديد، وهذا والله أعلم زمن الدَّجال». قال الحافظ: «ويحتمل أن يكون المراد كُلاً من الزمانَيْن، وكان الأمر في حياته ﷺ السبب المذكور، ويُؤَيِّدُه قِصَّة الأعرابي الذي استقاله فإنه ﷺ ذكر هذا الحديث مُعَلِّلاً به خروجَ الأعرابي وسؤالَه الإقالة من البَيْعَة، ثم يكون ذلك أيضاً آخِرَ الزمان، عندما ينزل الدَّجال فترجف الأرض بأهلها فلا يبقى منافِق ولا كافِر إلا خرج إليه».

وقال السيد[٢]: «وقد أبعد الله عنها أرباب الخَبَث الكامل وهم الكُفَّار، وأما غيرهم فقد يكون إبعاده إن مات بها بنقل الملائكة له كما أشار إليه الأَقْشَهْرِي أو المراد إبعاد أهل الخَبَث الكامل فقط وهم أهل الشقاء والكفر لا أهل السعادة والإسلام لأن القسم الأول ليس قابلاً للشفاعة ولا للمَغْفِرة، أو المراد، فيما عدا قِصَّة الأعرابي والدَّجال أنها تُخَلِّص النفوس من شَرِّها وظلمات ذنوبها، بما فيها من اللأْواء والمشقات ومضاعفة المثوبات وتوالي الرحمات، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود ١١٤]، ويُحْتَمَل أن يكون بمعنى أنه لا يخفى حال من انطوى فيها على خَبَث بل تظهر طويته كما هو مُشَاهَدٌ بها، ولم أرَ إلى الآن مَنْ نَصَّ على هذا الاحتمال وهو في حفظي قديماً ويؤيده ما في غزوة أُحُد في الصحيح من أنه ﷺ لما خرج إلى أُحد رَجَع ناسٌ من أصحابه أي وهم المنافقون فقال ﷺ: «المدينة كالكِير» (الحديث)، والذي ظهر لي من مجموع الأحاديث واستقراء أحوال هذه البلدة الشريفة أنها تنفي خَبَثَها بالمعاني الأربعة».

وقوله ﷺ: «لو كانوا يعلمون» أي بفضلها من الصلاة في المسجد النبوي أو ثواب الإقامة فيها وغير ذلك. ويحتمل أن «لو» بمعنى «لَيْتَ» ولا يحتاج إلى تقدير، وعلى الوَجْهَيْن ففيه تَجْهيل لمن فارقها وآثَرَ غَيْرَها. قالوا: والمراد به الخارجون من المدينة رَغْبَةً عنها كارهين لها. وأما من خَرَجَ لحاجة أو تجارة أو جهاد أو نحو ذلك فليس بداخل في معنى الحديث.

قال الطيب: «الذي يقتضيه هذا المَقَام أن ينزل أولئك الذين «لا يعلمون» منزلة اللازم لتنتفي عنهم المعرفة بالكلية، ولو ذهبوا مع ذلك التَّمَنِّي لكان أبلغ لأن التمني طلب ما لا يمكن حصوله، أي لَيْتَهُمْ كانوا من أهل العلم تغليظاً وتشديداً». قال البيضاوي: «المعنى أنه يفتح اليمن، فيُعْجِب قوماً بلادُها، وعَيْشُ أهلها، فيحملهم ذلك على المهاجرة إليها بأنفسهم وأهليهم حتى يخرجوا من المدينة، والحال أن الإقامة في المدينة خير لهم لأنها حَرَمُ النبي ﷺ وجِوَارُه ومهبط الوَحْي ومنزل البركات لو كانوا يعلمون ما في الإقامة بها من الفوائد الأخروية التي يُسْتَحْقَر دونها ما يجدونه من الحظوظ الفانية العاجلة بسبب الإقامة في غيرها». وقَوَّاه الطيبي لتنكير قومه ووصفهم بِكَوْنِهم يَبِسون، ثم توكيده بقوله: لو كانوا يعلمون، لأنه يشعر بأنهم ممن رَكَن إلى الحظوظ البهيمية والحُطَام الفاني، وأَعْرَضَ عن الإقامة في جِوَار النبي ﷺ، ولذلك كَرَّر قوماً» ووَصَفَهُمْ في كل مرتبة بقوله يَبُسُّون بسبب اتخاذهم لتلك الهيئة القبيحة.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«يَبُسُّون»[1]: بمثناة تحتية فموحدة مضمومة وتُكْسَر، قال أبو عُبَيْدَة: معناه يسوقون دوابَّهُمْ والبَسُّ سوق الإبل بقول بِس بِسْ عند السَّوْق وإرادة السرعة.

«الأَرياف»: جمع رِيف بكسر الراء، موضع الخِصْب ـ بكسر الخاء المعجمة ـ والسعة في المطعم.

«اللَّأْوَاء»: بالفتح والمد: الشدة وضيق المعيشة.

«تَنْفِي الخَبَث»: أي بإظهاره وإخراجه.

«الكِير»: بكسر الكاف وسكون التحتية وهو المعروف بين الناس أنه الزِّقّ الذي يُنْفَخ فيه، لكن أكثر أهل اللغة على أن المراد بالكير كانون الحدَّاد والصائغ، وقيل: الكير هو الزِّقّ والكانون هو الكور.

---

(١) انظر اللسان ٢٨١/١.

«خبث الحديد»: بضم الخاء المعجمة والموحدة فمثلثة: وَسَخُه الذي تُخْرِجه النار، والمراد هنا: لا يُتْرَك فيها مَنْ في قلبه دَغَل وغِشٌّ ونفاق يُمَيِّزه عن القلوب الصادقة ويُخْرِجه منها كما يميز الحَدَّاد ردئ الحديد من جَيِّده، ويُنْسَب التمييز للكير لكونه السبب الأَكيد في اشتعال النار التي يقع التمييز بها.

«تَنْصَع»: بمثناة فوقية فنون ساكنة فصاد فعين مهملتين: من النصوع وهو الخلوص، والمعنى أَنها إِذا نَفَتْ الخَبَث تَمَيَّز الطِّيبُ، واستقر بها طِيبُها. رواه الأَكثر بالنصب على المفعولية أَي تَنْصَعُ طِيبَها وذكر بعضُ رواة الصحيح يَنْصَعُ طِيبُها على الفاعلية.

«الآطام»: بالمَدّ جمع أُطُم بضمتين وهي الحصون التي تُبْنَى بالحجارة، وقيل: هو كل بيت مربع مُسَطَّح.

الباب السابع

في وعيد من احدث بها حدثاً أو آوى محدثاً أو أرادها وأهلها بسوء أو أخافهم والوصية بهم

روى الطبراني برجال الصحيح عن أَبي أُمَامة، وعن عَلِيّ رضي الله عنهما أَن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحدث في مدينتي هذه حَدَثاً أَو أَوى مُحْدِثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجمعين، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً». وعن السائب بن خَلاَّد أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَخاف أَهل المدينة ظُلْماً أَخافه الله عز وجل، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أَجمعين لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً»(١)، رواه الإمام أَحمد. وعن أَبي سعيد رضي الله عنه أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرادها ـ يعني المدينة ـ بسوء أَذابه الله كما يذوب المِلْح في الماء»(٢)، رواه الإمام أَحمد والشيخان.

وعن مَعْقِل بن يسار(٣) رضي الله عنه أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة مهاجري وفيها مَضْجَعي ومنها مبعثي، حقيقٌ على أُمَّتِي حِفْظُ جيراني ما اجتنبوا الكبائر، ومَنْ حفظهم كنت له شهيداً وشفيعاً يوم القيامة، ومن لم يحفظهم شقِي من طينة الخَبَال»، قيل لمَعْقِل: وما طينة الخبال؟ قال: عُصَارة أَهل النار(٤)، رواه أَبو عمرو بن السَّمَّاك، وابن الجَوْزِي في «مثير الغرام السَّاكن».

وروى الجندي أَن رسول الله ﷺ قال: «أَيـما جَبَّار أَراد المدينة بسوء أَذابه الله كما يذوب المِلْح في الماء»(٥). وروى البَزَّار بسَنَدٍ حَسَن عن سعد بن أَبي وَقَّاص رضي الله عنه أَنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفهم من دَهَمَهُم ببأس ـ يعني المدينة ـ ولا يريدها أَحَدٌ بسوء إِلا أَذابه الله كما يذوب المِلْح في الماء»(٦). وروى محمد بن الحسن المخزومي عن سعيد بن المُسَيَّب مُرْسَلاً أَن رسول الله ﷺ قال: «اللهم من أَرادني وأَهْلَ بلدي بسوء فعَجِّلْ بهلاكه». وروى الإمام أَحمد برجال الصحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أَن رسول الله ﷺ قال: «من أَخاف أَهل المدينة أَخافه الله»(٧)، رواه ابن حبَّان. وعن عُبَادة بن الصامت

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٤/٥٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ١٨٤- ٢/ ٣٣١. والبخاري ٤/ ١١٢ (١٨٧٧) ومسلم ٢/ ٩٩٣ (٤٦٠- ١٣٦٣).

(٣) معقل بن يَسَار المُزَني أبو علي بايع تحت الشجرة. له أربعة وثلاثون حديثاً، اتفقا على حديث وانفرد (خ) بآخر، و (م) بحديثين. وعنه عمران بن حصين. مات في خلافة معاوية. الخلاصة ٣/ ٤٥.

(٤) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ٣١٣ وعزاه للطبراني في الكبير وقال: وفيه عبد السلام بن أبي الحبوب وهو متروك.

(٥) أخرجه الحميدي في المسند (١١٦٧).

(٦) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/ ٣١٠ وعزاه للبزار بإسناد حسن وقال: وفي الصحيح طرفٌ من آخره.

(٧) أخرجه أحمد في المسند ٣/ ٣٩٣ والطبراني في الكبير ٧/ ١٦٩ وابن حبان (١٠٣٩) والبخاري في التاريخ ١/ ١١٧ وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٧٢.

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم من ظَلَم أهل المدينة وأخافَهم فأخِفْهُ، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً»[1]، رواه الطبراني بإسناد حسن.

وفي المدارك للقاضي قال محمد بن مَسْلَمة: سمعت مالكاً يقول: دخلت على المهدي فقال: أوْصِني، فقلت: أُوصِيكَ بتقوى الله وَحْدَه والعطف على أهل بلد رسول الله ﷺ وجيرانه، فإنه بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «المدينة مهاجري ومنها مبعثي وبها قبري وأهلُها جيراني، وحقيق على أُمتي حفظ جيراني، فمَنْ حَفِظَهم فيّ كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة، ومن لم يحفظ وَصِيَّتِي في جيراني سقاه الله من طينة الخَبَال».

وقال مُصْعَب: «لما قَدِم المهدي المدينة استقبله مالك وغيره من أشرافها على أميال، فلما بَصُرَ بمالك انحرف المهدي إليه فعانقه وسَلَّم عليه وسايَرَه فالتفت إليه مالك فقال: يا أمير المؤمنين إنك تدخل الآن المدينة، فتمر بقوم عن يمينك ويسارك، وهم أولاد المهاجرين والأنصار، فسَلِّم عليهم، فإن ما على وجه الأرض قوم خَيْرٌ من أهل المدينة، ولا خَيْرٌ من المدينة قال: ومن أَيْنَ قُلْتَ ذلك يا أبا عبد الله؟ فقال: لأنه لا يُعْرَف قَبْرُ نَبِيٍّ اليوم على وجه الأرض غير قبر محمد ﷺ، ومن كان قبر محمد ﷺ عندهم فينبغي أن يُعْرَف فَضْلُهم على غيرهم. ففعل المهدي ما أمره به، وفيه إشارة إلى التفضيل بمجاورة قبر رسول الله ﷺ، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»، ولم يخصّ جاراً دون جار.

ومن تأمَّل هذا الفضل لم يَرْتَبْ في تفضيل سُكْنَى المدينة على مكة، مع التسليم بمزيد المضاعفة لمكة، [إذ جهة الفضل غير منحصرة في ذلك] فتلك لهامزيد العَدَد، وهذه تُضَاعِف البركة والمَدَد ولتلك جِوار بيت الله، ولهذه جِوار حبيب الله وأكرم الخلق على الله.

تنبيهات

الأول: قوله ﷺ: «لا يَدَعُها أَحَدٌ رَغْبَةً عنها إلا أبدل الله فيها من هو خَيْرٌ منه». قال القاضي: اختلفوا فيه فقيل: هو مُخْتَصّ بمدة حياته ﷺ، وقال آخرون: هو عامّ أبداً، وهذا أصح. وقال المحب الطبري: إنه الأظهر لقوله ﷺ في الحديث الآخر: «سيأتي على الناس زمان يُفتَح فيه فتحات الأرض فيخرج الناس إلى الأرياف يلتمسون الرخاء».. إلى آخر ما تَقَدَّم.

الثاني: قوله ﷺ في حديث: «ولا يريد أَحَدٌ أهل المدينة بسوء إلا أذابه الله في النار...» إلى آخر الحديث، قال القاضي عياض: قوله: «في النار» يدفع إشكال الأحاديث التي

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣/٣٠٩ وعزاه للطبراني في الأوسط والكبير وقال: ورجاله رجال الصحيح.

لم تُذْكَر فيها هذه الزيادة، ويبين أَن هذا حُكْمُهُ في الآخرة. وقال: قد يكون المراد به أَن من أَرادها في حياته ﷺ، كُفِيَ المسلمون شَرّه واضمحلّ كَيْدُه كما يضمحل الرصاص في النار، قال: «ويحتمل أَن يكون المراد مَنْ كادها اغتيالاً وطلباً لِغِرَّتِها فلا يتم له أَمر بخلاف من أَتى ذلك جهاراً». قال: «وقد يكون في اللفظ تقديم وتأخير أَي أَذابه الله كذوب الرصاص في النار ويكون ذلك لمن أَرادها في الدنيا فلا يُمْهِلُه الله ولا يُمَكِّنُ له سلطاناً، بل يهلكه عن قُرْب، كما انقضى شأْن من حاربها أَيام بني أُمية مثل مسلم بن عُقْبَة فأُهْلِك في منصرفه عنها، ثم هلك يزيد بن معاوية الذي أَرسله على أَثر ذلك وغيرهما ممن صنع صنيعهما.

الثالث: في بيان غريب ما سبق:

«الحَدَث» بالتحريك: الأَمر الحادث المُنْكَر الذي ليس بمعروف في السُّنَّة.

«المُحْدِث»: بكسر الدال اسم فاعل: أَي من نَصَر جانياً وأَواه وأَجاره من خَصْمه وحال بينه وبين أَن يُقْتَصَّ منه، وبفتحها الأَمر المُبْتَدَع نفسه، ويكون معنى الإِيواء الرِّضا، فإِنه إِذا رَضِي به وأَقَرَّ فاعِلَه من غير إِنكار فقد آواه. والمراد بلعنة الملائكة والناس المبالغة في الإِبعاد من رحمة الله تعالى، والمراد باللَّعْن هنا العذاب الذي يستحقه على ذنبه في أَول الأَمر، وليس هو كَلَعْن الكافر.

«الصَّرْف والعَدْل»: بفتح أَولهما: اخْتُلِف في تفسيرهما فَيَعُدّ الجمهور الصَّرْف الفريضة، والعدل النافلة. وعن الأَصمعي الصَّرْف: التوبة، والعدل: الفدية، وقيل غير ذلك.

«انماع»[1]: ذاب وسال.

---

(١) انظر اللسان ٤٣٠٩/٦.

الباب الثامن

في تفضيلها على البلاد لحلوله صلى الله عليه وسلم فيها

نقل أبو الوليد الباجي والقاضي عياض وغيرهما الإجماع على تفضيل ما ضَمَّ الأعضاء الشريفة حتى على الكعبة كما قاله أبو اليمن بن عساكر في تحفته، وجزم بذلك أبو محمد عبد الله بن أبي عُمَر البِسْكَرِي[1] - بموحدة مكسورة وقيل بفتحها وسين مهملة ساكنة فكاف مفتوحة وكسرها فراء، - رحمه الله.

جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الأَرْضِ مَا ... قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُصْطَفَى وَحَوَاهَا
وَنَعَمْ لَقَدْ صَدَقُوا بِسَاكِنِها عَلَتْ ... كَالنَّفْسِ حِينَ زَكَتْ زَكَا مَأْوَاهَا

بل نقل القاضي تاج الدين السبكي[2] عن ابن عقيل[3] الحنبلي أنها أفضل من العَرْش، وجزم بذلك أبو عبد الله محمد بن رزين البحيري الشافعي أحد السادة العلماء الأولياء فقال في قصيدته في الوفاة النبوية:

وَلاَ شَكَّ أَنَّ الْقَبْرَ أَشْرَفُ مَوْضِعٍ ... مِنَ الأَرْضِ وَالسَّبْعِ السَّمَوَاتِ طُرَّةِ
وَأَشْرَفُ مِنْ عَرْشِ الْمَلِيكِ وَلَيْسَ فِي ... مَقَالِي خِلاَفٌ عِنْدَ أَهْلِ الْحَقِيقَةِ

وصَرَّح التاج الفاكهي بتفضيلها على السموات، قال: بل الظاهر المُتَعَيِّن تفضيل جميع الأرض على السماء لحلوله ﷺ بها، وحكاه الشيخ تاج الدين إمام الفاضلية عن الأكثرين

---

(١) البِسْكَري: بكسر الباء المنقوطة بواحدة وسكون السين المهملة وفي آخرها الراء، هذه النسبة إلى بسكرة، وهي بلدة من بلاد المغرب، وقدم علينا فقيه فاضل سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة من هذه البلدة مرو عندنا وتوفي في هذه السنة وكان يذكر نسبته البَسكري. الأنساب ١/٣٥٤.

(٢) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام، العلامة قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر بن الشيخ الإمام شيخ الإسلام تقي الدين أبي الحسن، الأنصاري، الخزرجي، السبكي. مولده بالقاهرة سنة سبع - بتقديم السين - وعشرين وسبعمائة، وقيل: سنة ثمان، وقرأ على الحافظ المزي، ولازم الذهبي وتخرج به، وطلب بنفسه، ودأب. قال الحافظ شهاب الدين بن حجي: أخبرني أن الشيخ شمس الدين بن النقيب أجازه بالإفتاء والتدريس، ولما مات ابن النقيب كان عمر القاضي تاج الدين ثماني عشرة سنة، وأفتى، ودرس وحدث وصنف، وأشغل، وناب عن أبيه بعد وفاة أخيه القاضي الحسين، ثم استقل بالقضاء بسؤال والده في شهر ربيع الأول سنة ست وخمسين، ثم عزل مدة لطيفة، ثم أعيد، ثم عزل بأخيه بهاء الدين، ومن تصانيفه «شرح مختصر ابن الحاجب» «رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب». توفي شهيداً بالطاعون في ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وسبعمائة. انظر الطبقات لابن قاضي شهبة ٣/١٠٥، ١٠٦، والبداية والنهاية ١٤/٣١٦، والدرر الكامنة ٢/٤٢٥ والنجوم الزاهرة ١١/١٠٨، والبدر الطالع ١/٤١٠ وشذرات الذهب ٦/٢٢١، والأعلام ٤/٣٣٥.

(٣) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، أبو الوفاء، ويعرف بابن عقيل: عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته. كان قويّ الحجة، اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته. وكان يعظم الحلاج، فأراد الحنابلة قتله، فاستجار بباب المراتب عدة سنين. ثم أظهر التوبة حتى تمكن من الظهور. له تصانيف أعظمها «كتاب الفنون» قال الذهبي في تاريخه: كتاب الفنون لم يصنف في الدنيا أكبر منه. وله «الواضح في الأصول و «الفرق» و «الفصول» في فقه الحنابلة، عشرة مجلدات، الأعلام ٤/٣١٣.

لِخَلْقِ الأَنبياء منها ودفنهم بها. وقال النووي: «المختار الذي عليه الجمهور أن السموات أَفضل من الأَرض، أَي ما عدا ما ضَمَّ الأَعضاء الشريفة. وأَجمعوا بعد على تفضيل مكة والمدينة على سائر البلاد، واختلفوا فيهما، فذهب عمر بن الخطّاب رضي الله عنه وبعض الصحابة وأَكثر المدنيين، كما قال القاضيّ إِلى تفضيل المدينة، وهو مذهب الإِمام مالك، وإِحدى الروايتَيْن عن الإِمام أَحمد، والخِلاَف في غير الكعبة الشريفة فهي أَفضل من بقية المدينة اتفاقاً. وإِيراد حجج الفريقين مِمَّا يطول به الكتاب.

ويدل لما ذُكِر من أَن النفس تُخْلَق من تربة الدَّفْن ما رواه الحاكم وصَحَّحه عن أَبي سعيد رضي الله عنه قال: مَرَّ النبي ﷺ بِقَبرٍ، فقال: «قَبْرُ مَنْ هذا»؟ فقالوا: قَبْر فلان الحَبَشِيّ يا رسول الله. فقال: «لا إِله إِلا الله سِيقَ من أَرضه وسمائه إِلى التُّرْبَة التي منها خُلِق».

وتقدم في أَول باب من هذا الكتاب أَثَرُ كعب: «أَن النبي ﷺ خُلِق من القبضة التي أُخِذَتْ من قبره الشريف». وروى [يزيد الجريري قال: سمعت ابن سيرين يقول: «لو حَلَفْتُ لحَلَفْتُ صادقاً باراً غَيْرَ شَاكٍّ ولا مُسْتَثْنٍ أَن الله تعالى ما خَلَق نَبِيَّه ﷺ ولا أَبا بكر ولا عُمَر إِلا من طينةٍ واحدة، ثم رَدَّهم إِلى تلك الطينة».

وروى الإِمام أَحمد والترمذي وحَسَّنه، والطبراني والحاكم عن مَطَر بن عُكَامِس - بضم العين المهملة وتخفيف الكاف وكَسْر الميم فسين مهملة - والترمذي وصَحَّحه عن أَبي عَزَّة رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال: «إِذا قَضَى الله لعَبْدٍ أَن يموت بأَرض جعل له إِليها حاجة»(١). قال الحكيم الترمذي: «إِنما صار أَجَلُه هناك لأَنه خُلِق من تلك البقعة وقد قال الله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه ٥٥] قال: فإِنما يُعَاد المَرْءُ من حيث بدئ منه».

وروى ابن الجوزي في الوفا عن عائشة رضي الله عنها أَنها قالت: «لما قُبِض النبي ﷺ وسلم اختلفوا في دَفْنِه» فقال عَلِيّ رضي الله عنه: «إِنه ليس في الأَرض بقعة أَكرم على الله من بقعة قُبِض فيها نَفْسُ نبيه ﷺ». وروى أَبو يَعْلي عن أَبي بكر رضي الله عنه أَنه قال: «سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «لا يُقْبَضُ النبي إِلا في أَحب الأَمكنة إِليه»(٢).

قال السيد: «وأَحَبُّها إِليه أَحَبُّها إِلى رَبّه لأَن حُبَّه تابع لحبّ رَبّه. وما كان أَحَبّ إِلى الله ورسوله كيف لا يكون أَفضل؟ قال: ولهذا سلكت هذا المسلك في تفضيل المدينة فقد صَحّ

(١) أخرجه الترمذي (٢١٤٦) وذكره العجلوني في كشف الخفا ٩٧/١ وزاد نسبته لعبد الله بن الإمام أحمد.
(٢) انظر البداية والنهاية ٢٦٦/٥.

قَوْلُه ﷺ: «اللهم حبِّبْ إلينا المدينة كَحُبِّنا مكةَ أو أَشَدّ، أي «بل أَشَّد» أو «وأَشَدّ»، كما رُوِي به. وأُجِيبَت دعوته حتى كان يُحرِّك دابَّته إذا رآها من حُبِّها».

تنبيه: قال سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام: «معنى التفضيل بين مكة والمدينة أن ثواب العمل في إحداهما أكثر من ثواب العمل في الأُخرى، فيُشْكِل قول القاضي: «أجمعت الأُمة على أن موضع القبر الشريف أفضل»، إذ لا يمكن لأحد أن يعبد الله فيه. وأجاب غيره بأن التفضيل في ذلك للمُجَاورة ولذا حُرِّم على المُحْدِث مَسّ جِلْد المصحف لا لكثرة الثواب وإلا فلا يكون جِلْدُ المصحف بل ولا المصحف أفضل من غيره لِتعذر العمل فيه. وقال شيخ الإسلام تقي الدين السبكي: قد يكون التفضيل بكثرة الثواب وقد يكون لأَمْرٍ آخر، وإن لم يكن عملاً، فإن القبر الشريف ينزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة وله عند الله من المحبة ولساكنه ما تقصر العقول عن إدراكه وليس ذلك لمكان غيره فكيف لا يكون أفضل الأماكن؟ وليس مَحَلّ عَمَلٍ لنا فهذا معنى غير تضعيف الأعمال فيه، وأيضاً فباعتبار ما قيل: إن كل أحد يُدْفَن في الموضع الذي خلق منه، [وأيضاً فقد تكون الأعمال مُضَاعَفَة فيها باعتبار أن النبي ﷺ حَيّ وأن أعماله مضاعفة] أكثر من كل أحد فلا يَخْتَصّ التضعيف بأعمالنا نحن.

قال السيد: «[وهذا من النَّفَاسَة بمكان على أني أقول] الرحمات والبركات النازلة بذلك المَحَلّ يَعُمّ فَيْضُها الأُمة وهي غير متناهية لدوام ترقياته ﷺ [وما تناله الأُمة بسبب نبيها هو الغاية في الفضل ولذا كانت خير أُمة بسبب كون نبيها خير الأنبياء، فكيف لا يكون القبر الشريف أفضل البقاع مع كونه] منبع فيض الخيرات، [ألا ترى أن الكعبة على رأي من] منع الصلاة فيها ليست محل عملنا أفيقول عاقل بتفضيل المسجد حولها عليها، لأنه محل العمل مع أن الكعبة هي السبب في إنالة تلك الخيرات؟... وسيأتي أن المجيء المذكور في قوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾ [النساء ٦٤] الآية، حاصِلٌ بالمجيء إلى قبره الشريف، وكذا زيارته ﷺ وسؤال الشفاعة منه والتوسُّل به إلى الله والمجاورة عنده من أفضل القربات، وعنده تُجَاب الدعوات أيضاً، فكيف لا تكون أفضل وهو السبب في هذه الخيرات؟ وأيضاً فهو روضة من رياض الجنة بل أفضل رياضها، وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم [في الجنة] خير من الدنيا وما فيها».

الباب التاسع

في تحريمها

عن سعد بن أَبي وَقَّاص أَن رسول الله ﷺ قال: «إني حَرَّمْتُ المدينة ما بين لاَبَتَيْهَا لا يُقْطَع عِضَاهُها ولا يُقْتَل صَيْدُها»[١]، رواه مسلم. وعن أَبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه قال: «سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول: «إني حَرَّمْتُ ما بين لاَبَتَيّ المدينة، وفي رواية: ما بين مأْزميها، أَلاَّ يُهْرَاقَ فيها دم ولا يُحْمَل فيها سلاح ولا يُخْبَطَ فيها شَجَر إِلا لِعَلْف»[٢] وعن عَلِيّ رضي الله عنه أَن النبي ﷺ قال في المدينة: «لا يُخْتَلَى خَلاَهَا ولا ينفر صيدها ولا تحل لُقَطَتُهَا إِلا لمن أَشادها ولا يصلح لرجل أَن يحمل فيها السلاح لقتال ولا يصلح أَن يُقْطَع منها شجر إِلا أَن يعلف رجل بعيره»[٣] رواه الإِمام أَحمد وأَبو داود. وعن علي رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المدينة حرام ما بين عير إِلى ثور»[٤]، رواه الخمسة. وعن أَنس رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ طلع له أُحد فقال: «هذا جَبَلٌ يُحِبُّنا ونُحِبُّه، اللهم إِن إِبراهيم حَرَّم مكة وإِني أُحَرِّم ما بين لابَتَيْهَا»[٥]، يعني المدينة، رواه الشيخان.

تنبيهات

الأول: قوله ﷺ: «إني حَرَّمْتُ المدينة»، حُجَّة في أَنها حَرَم، وبه قال الجمهور، ونقله عن النبي ﷺ أَكثر من عشرة من الصحابة خِلاَفاً لمن قال بخلاف ذلك. وذِكْرُ دليل وروده مما يطول به الباب.

الثاني: في بيان غريب ما سبق:

«لابتي المدينة»[٦]: تثنية لاَبَة وهي الحَرَّة: أَرض ذات حجارة سود، وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهي بينهما، ويُقَال: لابة ولوبة ونوبة بالنون ثلاث لغات، وجمع اللاَّبة في القِلَّة لابات وفي الكثرة لابٌ ولُوب.

---

(١) أخرجه مسلم ١٠٠١/٢ (٤٧٥- ١٣٧٤) وقد تقدم.

(٢) انظر مسلم الموضع السابق.

(٣) أخرجه أبو داود (٢٠٣٥) وأحمد في المسند ٢٥٣/١ وعبد الرزاق في المصنف (٩١٩٣).

(٤) أخرجه البخاري ٩٧/٤ (١٨٧٠) والترمذي (٢١٢٧) وأبو داود (٢٠٣٤) والبيهقي في السنن ١٩٦/٥.

(٥) أخرجه البخاري ٢٢٩/٥ (٤٠٨٣) ومسلم ١٠١١/٢ (٥٠٤- ١٣٩٣).

(٦) اللابة واللوبة: الحرة: والجمع لاب ولوب، ولابات، وهو الحرار، فأما سيبويه فجعل اللوب جمع لابة، كقارة وقور وقد فسر ابن منظور اللابية في الحديث بأنها حرتان تكتفانها قال الأصمعي: هي الارض التي قد ألبستها حجارة سود، وجمعها لابات ما بين الثلاث إلى العشر فإذا كثر فهي اللاب واللوب اللسان ٤٠٩٢/٥.

«العِضَاه»: بالقَصْر وكَسْر العين المهملة وتخفيف الضاد المعجمة: كُلّ شَجَرٍ فيه شَوْك، واحِدَتُها عِضاهَة وعَضِيهة.

«المأْزِمان»: بهمزة بعد الميم وبكسر الزاي تثنية مأْزِم: الطريق بين جَبَلَين، أَي حَرَم ما بين جَبَلَيْ المدينة.

«يُهْرَاق»: يُصَبّ.

«يُخْبَط»: يُضْرَب.

«العَلْف» بسكون اللام مصدر عَلَفْتُ وأَما العَلَف بالفتح فهو اسم للحشيش والتِّبْن ونحوهما.

«يُخْتَلَى»: يُجَزّ ويُقْطَع.

«الخَلاَ»: بالقصر: الرَّطْب من الحشيش الواحدة خلاة.

«لا يُنَفَّر»: بمثناة تحتية فنون ففاء: أَي لا يُزْجَر ويُمْنَع من الرَّعْي.

«أَشاد»: بشين معجمة ودال مهملة: أَي أَشاعها والإِشادة رفع الصوت والمراد به تعريف اللُّقَطَة. وإِنشادُها.

«عَيْر»(١): بفتح العين المهملة وسكون المثناة التحتية وبالراء: الحِمار، ويقال عَيْر جَبَل يسمى باسمه، ويمين الأَوَّل بالوارد والثاني بالصادر.

«ثَوْر»: بالمثلثة: مرادف فحل البقر، جبل صغير خَلْف أُحُد، قال المَطَري بعد أَن رَدَّ على من أَنكر كون ثور بالمدينة وقال إِنه خَلْفَ أُحُد من شماليِّه مُدَوَّرٌ صغير يعرفه أَهْلُ المدينة خَلَف عن سَلَف. وقال القطب الحلبي: «حكى لنا شيخنا الإِمام أَبو محمد عبد السلام بن مزروع البَصْري أَنه خرج رسولاً إِلى العراق فلما رجع إِلى المدينة كان معه دليل أَي من عرب المدينة، فكان يذكر له الأَماكن والجبال». قال: «فلما وصلنا إِلى أُحُد إِذا بِقُرْبِه جَبَلٌ صغير، فسأَلته عنه فقال: هذا يُسَمَّى ثَوْراً، فعَلِمْتُ صِحَّةَ الرواية». وقال المحب الطَّبري: «أَخبرني الثقة العالِم أَبو محمد عبد السلام البَصْري أَن حِذَاء أُحُد، عن يَسَارِه، جانحاً إِلى ورائه جَبَلاً صغيراً يُقَال له ثَوْر، وأَخبرني أَنه تكرر عنه سؤاله لطوائف من الأَعراب العارفين بتلك الأَرض وما فيها من الجِبَال، فكُلٌ أَخبر أَن ذلك الجبل اسمه ثَوْر، وتواردوا على ذلك»: «فعلمنا أَن ذِكْر ثور في الحديث صحيح وأَن عدم علم أَكابر العلماء به [هو] لعدم شهرته وعدم بحثهم عنه»، قال: «وهذه فائدة جليلة».

(١) انظر اللسان ٣١٨٩/٤.

الباب العاشر

في ذكر بعض خصائصها

وهي تزيد على المائة فقد امتازت بتحريمها على لسان أشرف الأنبياء بدعوته ﷺ. وكون المُتَعَرِّض لصيدها وشجرها يُسْلَب كقتيل الكفار، وهو أبلغ في الزَّجْر مما في مكة، وعلى القول بعدمه هو أدَلّ على عظيم حُرْمتها حيث لم يُشْرَع له جزاء. ويجوز نقل ترابها للتداوي، واشتمالها على أشرف البقاع وهو محل القبر الشريف، ودَفْن أفضل الخَلْق بها وأفضل هذه الأمة وكذا أكثر الصحابة والسلف الذين هم خير القرون، وخَلْقِهم من تربتها، وبعث أشراف هذه الأمة يوم القيامة منها على ما نقله [عياض] في المدارك عن الإمام مالك، قال: «وهو لا يقول من عند نفسه».

وكونها محفوفة بالشهداء كما قاله الإمام مالك أيضاً، وبها أفضل الشهداء الذين بذلوا أنفسهم في ذات الله بين يَدَيْ نَبِيِّهم ﷺ، فكان شهيداً عليهم، واختيار الله تعالى إيَّاها لأفضل خلقه وأحَبِّهم إليه، واختيار أهْلِها للنُّصْرَة والإيواء، وافتتاحها بالقرآن وسائر البلاد بالسيف والسِّنان، وافتتاح سائر بلاد الإسلام منها، وجعلها مظهر الدين، ووجوب الهجرة إليها قبل فتح مكة والسكنى بها لنصرته ﷺ ومواساته بالأنفس على ما قاله القاضي عياض أنه مُتَّفَقٌ عليه، قال: «ومن هاجر قبل الفتح فالجمهور على مَنْعِه من الإقامة [بمكة] بعد الفتح، ورَخَّص له ثلاثة أيام بعد قضاء نُسُكِه، والحث على سُكْنَى المدينة وعلى اتخاذ الأصل بها وعلى الموت بها، والوَعْد على ذلك بالشفاعة أو الشهادة أو هُمَا، واستحباب الدعاء بالموت بها، وتَحْريضه ﷺ على الموت بها وشفاعته أو شهادته لمن صبر على لأوائها وشِدَّتها، وطلبه لزيادة البركة بها على مكة ودعاؤه بحبها وأن يجعل الله لديها قراراً ورزقاً حسناً، وطرح الرداء عن منكبيه إذا قاربها، وتسميته لها طَيْبة» وغيرها مما سبق. «وطيب ريحها، وللعِطْر بها رائحة لا توجد في غيرها» قاله ياقوت.

وطيب العيش بها وكثرة أسمائها، وكتابتها في التوراة مؤمنة وتسميتها فيها بالمحبوبة والمرحومة وإضافتها إلى الله تعالى في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء ٩٧]، وإلى النبي بلفظ البيت في قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنفال ٥] وإقسام الله تعالى في قوله تعالى: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد ١] والبداءة بها في قوله تعالى: ﴿وَقُل رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء ٨٠]، مع أن المخرج مُقدَّم على المدخل. ودعاؤه ﷺ لها خصوصاً بالبركة، ولثمارها ومكيالها وأسواقها وأهلها.

ولقوله إنها تَنْفِي الذنوب وتنفي خَبَثَها، وأنه لا يَدَعُها أحَدٌ رَغْبَةً عنها إلا أبدل الله فيها خَيْراً منه ومن أرادها وأهْلَها بسوء أذابه الله، الحديث، فَرَتَّبَ الوعيدَ فيها على الإرادة، كما قال

تعالى في حَرَم مكة. ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج ٢٥] والوعيد الشديد لمن أحدث فيها حَدَثاً أو آوى مُحْدِثاً. والحَدَث يشمل الصغيرة فهي بها كبيرة، أي يَعْظُم جزاؤها لدلالتها على جرأة مرتكبها بِحَرَم سَيِّد المُرْسَلين وحضرته الشريفة. والوعيد الشديد لمن ظَلَم أَهْلَها أو أخافهم، ووعيد من لم يُكْرِم أهلها وأن إكرامهم وتعظيمهم حَقٌّ على الأمة، وأنه ﷺ شفيعٌ أو شهيدٌ لمن حَفِظَهم فيه، وقوله: «مَنْ أخافَ أَهْلَ المدينة فقد أخاف ما بين جَنْبيَّ».

واختصاصها بِمَلَك الإيمان والحياء، ويكون الإيمان يَأْرِزُ إليها، واشتباكها بالملائكة وحراستهم لها، وإنها دار الإسلام أبداً لحديث: «إن الشياطين قد أَيِسَتْ أن تُعْبَد بِبَلدِي هذا»[١]، وأنها «آخر قُرَى الإسلام خراباً»، رواه الترمذي، وحَسَّنه، ويأتي بَسْطُه في المعجزات إن شاء الله تعالى، وعصمتها، من الدَّجال وخروج الرجل الذي هو خير الناس أو من خير الناس منها لِلدَّجَّال ليُكَذِّبَهُ، ونقل وبائها وحُمَّاها والاستشفاء بترابها وبتمرها كما سيأتي في الخصائص.

وقَوْلُه في حديث للطبراني: «وحقٌّ على كل مسلم أن يأتيها»، وسماعُه ﷺ لمن صَلَّى عليه بها عند قبره الشريف، ووجوب شفاعته لمن زاره بها، وغير ذلك مما سيأتي في باب فضل زيارته. وكَوْنُها أَوَّلَ مسجدٍ اتخذه بها لعامة المسلمين في هذه الأمة، وتأسيس مسجدها على يده ﷺ، وعمل فيه بنفسه، ومعه خَيْرُ الأُمة، وأن الله سبحانه وتعالى أنزل في شأنه ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة ١٠٨] وكونه آخر مساجد الأنبياء، والمساجد التي تُشَدُّ إليها الرِّحَال، وكونه أَحَقَّ المساجد أن يُزَار وما يُدْخَرُ لزائره من الثواب المُضَاعَف كما سيأتي وأن من صَلَّى فيه أربعين صلاة كتب له براءة من النار وبراءة من العذاب، وأنه بَرِيءٌ من النفاق، وأن من خرج على طُهْر لا يريد إلا الصلاة فيه كان بمنزلة حِجَّة، وما ثبت من أنَّ إتيان مسجد قُبَاء والصلاة فيه تَعْدِل عُمْرَة وغير ذلك مما ثبت في فضلها.

وأن بين بيته وقبره روضة من رياض الجنة، مع ذهاب بعضهم إلى أن ذلك يَعُمّ مسجده ﷺ، وأنه المسجد الذي لا تُعْرَف بُقْعَة في الأرض من الجنة غيره، وأنه على حَوْضه ﷺ، وما جاء في أن «ما بين منبره الشريف والمُصَلَّى روضة من رياض الجنة»[٢] وسيأتي ما يقتضي أن المُرَاد مُصَلَّى العيد وهو جانب كبير من هذه البلدة.

وقَوْلُه في أُحُد [هذا جَبلٌ] يُحِبُّنَا ونُحِبُّه، وأنه على تُرْعة من تُرَع الجَنَّة. وفي وادي

---

(١) ذكره الهيثمي في المجمع ٣٠٢/٣ وعزاه للبزار وقال: فيه السكن بن هارون الباهلي ولم أجد من ترجمه.
(٢) أخرجه مسلم ١٠١٠/٢ (٥٠٠، ١٣٩٠).

بَطْحَان أَنه على تُرْعةٍ من تُرَع الجَنَّة. وَوَصْفُهُ لواديها العقيق بالوادي المُبَارك، وأَنه يُحِبُّنَا ونُحِبُّه. وقَوْلُه في ثِمَارِها: «إِن العَجْوةَ من الجَنَّة». وسيأْتي في بئر غَرْس أنه ﷺ رأَى أنه أَصْبَح على بِئْرٍ من آبار الجَنَّة فأَصبح عليها. ورؤيا الأَنبياء حق.

واختصاص مسجدها بمزيد الأَدب. ويُكْتَب لمن صَلَّى بمسجدها صلاةً براءةٌ من النار وبراءةٌ من العذاب وأَنه بَرِئٌ من النِّفاق، رواه الإِمام أَحمد والطبراني برجالٍ ثِقَات. وخَفْضُ الصَّوْتِ في تأكيد التَّعَلُّم والتعليم به. والحديث: أَنه «لا يَسْمَعُ النِّدَاء في مَسْجِدي، ثم يَخْرُج منه إِلا لِحَاجَةٍ ثم لا يرجع إِليه إِلا مُنَافِق»[1] واختصاصُه عند بعضهم بِمَنْع آكِل الثُّوْم من دخوله لاختصاصه بملائكة الوَحْي والوعيدُ الشديد لمن حَلَف يميناً فاجرة عند مِنْبَرِها ومضاعفة سائر الأَعمال بها كما صَرَّح به الإِمام الغزالي. وأَن صلاة الجمعة بها كأَلف جمعة فيما سواها إِلا المسجد الحرام. وأَن صيام شهر رمضان بها كصيام أَلف شهر في غيرها، كما رواه البيهقي عن جابر بن عبد الله، والطبراني في الكبير عن بلال بن الحارث، وابن الجَوْزِي عن ابن عُمَر رضي الله عنهما.

وَكَوْنُ أَهْلِها أَوَّلَ من يشفع لهم النبي ﷺ، واختصاصهم بمزيد الشفاعة والإِكرام. وجاء بَعْثُ المَيِّت بها من الآمنين، وأَنه يُبْعَثُ من بقيعها سبعون أَلفاً على صورة القمر يدخلون الجنة بغير حِسَاب، وتُوَكَّلُ الملائكة بمقبرة بقيعها كلما امتلأَت أَخذوا بأَطرافها فكفئوها بالجَنَّة وبَعْثُه ﷺ منها وبعث أَهلها من قبورهم قبل سائر الناس واستحباب الدعاء بها في الأَماكن التي دعا بها ﷺ وسيأْتي بيانها إِن شاء الله تعالى ويقال إِنه يُسْتَجَاب بها عند الأُسطوانة المُخَلَّقة، وعند المنبر وفي زاوية دار عقيل بالبقيع وبمسجد الفتح.

[واختصاصها] بكثرة المساجد والمشاهد بها، واستخباث من عَابَ تُرْبَتَهَا، وأَفتى الإِمام مالك أَنه من قال: تربتها رديئة أَن يُضْرَب ثلاثون دِرَّة، وأَمر بحبسه وكان له قَدر، وقال: ما أَحوجه إِلى ضرب عنقه، تُرْبَةٌ دُفِن فيها رسول الله ﷺ يَزْعُم أَنها غير طَيِّبة.

واستحباب الدخول لها من طريق والرجوع من أُخرى، والاغتسال لدخولها، واختصاص أَهلها بأَبعد المواقيت، وذهب بعض السلف إِلى تفضيل البداءة بها قبل مكة، وأَن نَفَراً من أَصحاب النبي ﷺ كانوا يبدأُون بالمدينة إِذا حَجُّوا ويقولون: نَبْدَأُ من حيث أَحْرَم رسول الله ﷺ. وعن علقمة، والأَسود، وعَمْرو بن ميمون أَنهم بدأُوا بالمدينة وعن العبدي من المالكية أَن المَشْي لزيارة قبر النبي ﷺ أَفضل من الكعبة. وسيأْتي أَن من نَذَرَ زيارة قبر النبي ﷺ لَزِمَهُ الوفاء قولاً واحداً. وفي وجوب الوفاء في زيارة قبر غيره وجهان [قاله ابن كَجّ

(١) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب ١/١٨٩.

وأقره عليه الرافعي والنووي وغيرهما] والاكتفاء بزيارة قبر رسول الله ﷺ لمن نَذَر إتيان مسجد المدينة كما قال الشيخ أبو علي تَفْرِيعاً على القول بلزوم إتيانه كما قاله الشافعي والبُوَيْطِي، على أنه لا بد من [ضَمّ] قُرْبَة إلى الإتيان كما هو الأصَحّ [تفريعاً على اللزوم وعَلَّله الشيخ أبو علي بأن زيارته ﷺ من أعظم القُرُبَات، وتوقف في ذلك الإمام من جهة أنها لا تتعلق بالمسجد وتعظيمه، قال: وقياسه أنه لو تَصَدَّقَ في المسجد أو صام يوماً كفاه، وفيه نَظَر، على أن الصحيح ما نُصّ عليه في المُخْتَصَر من] عدم لزوم الإتيان.

وجاء في سُوقِها أن الجالب إليه كالمجاهد في سبيل الله، وأن المُحْتَكِرَ كالمُلْحِد في كتاب الله تعالى. واخْتُصَّتْ بظهور نار الحجاز المُنْذَر بها من أرْضِها ومن انطفائها عند حَرَمها كما سيأتي في المعجزات، لما تَضَمَّنَه حديث الحاكم وغيره. [وفي حديث النسائي والبزار والحاكم واللفظ له:] «يُوشِك الناس أن يضربوا أكباد الإبِل فلا يجدون عالِماً أعلم من عالِم المدينة». وكان سفيان بن عُيَيْنَة يقول: نرى هذا العالِم مالك بن أنس. وقيل غير ذلك. وما نُقِل عن مالك من أن إجماع أهلها يُقَدَّم على خَبَر الواحد، لشُكْنَاهم مَهْبِط الوَحْي ومعرفتهم بالناسخ والمنسوخ.

واختصاص أهلها في قيام رمضان بستٍ وثلاثين ركعة على المشهور عند الشافعية. قال الإمام الشافعي: رأيت أهل المدينة يقومون بتسع وثلاثين ركعة منها ثلاث للوِتْر. ونقل الروياني / وغيره عن الشافعي أن سببه إرادة أهل المدينة مساواة أهل مكة فيما كانوا يأتون به من الطواف ورَكْعَتَيْن بين الترويحات فجعلوا مكان كل أسبوع[1] ترويحة. قال الإمام الشافعي: «لا يجوز لغير أهل المدينة أن يباروا أهل مكة ولا ينافسوهم لأن الله فَضَّلهم على سائر العباد».

وشاركتها مكة في تحريم قطع الرطب من شجرها وحشيشها وصيدها واصطياده وتنفيره، وحَمْل السلاح للقتال بها، ولا تَحِل لُقَطَتُها إلا لمن أشاد بها، ونقل ترابها ونحوه منها أو إليها، ونبش الكافر إذا دُفِن بها. وأن كلاً من مسجد الرسول والمسجد الحرام يقوم مقام المسجد الأقصى لمن نذر الصلاة أو الاعتكاف فيه، ولو نذرهما بمسجد المدينة لم يُجزِه الأقصى وأجزاه المسجد الحرام بناء على زيادة المضاعفة، وإذا نذر المشي إلى بيت المقدس يُخَيَّر بين المشي إليه أو إلى أحدهما، والذي رَجَّحوه ما اقتضاه كلام البغوي من عدم لزوم المشي في غير المسجد الحرام.

وإذا نذر تطييب مسجد المدينة والأقصى ففيه تردد لإمام الحرمين، واقتضى كلام الغزالي اختصاصه بالمسجدين لأنا إن نظرنا إلى التعظيم ألحقناهما بالكعبة أو إلى امتياز الكعبة

(١) التنطُّع: هو كل تَعَمُّق قولاً وفعلاً. انظر النهاية ٧٤/٥.

بالفضل فلا. قال السيد: فينبغي الجَزْم في نذر تطييب القبر الشريف على ساكنه أفضل الصلاة والسلام. ورحم الله الإمام مالك أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي المالكي الأعمى حيث قال:

هُنَا وَكَمْ يَا أَهْلَ طَيْبَةَ قَدْ حَقَى ... فَبِالْقُرْبِ مِنْ خَيْرِ الْوَرَى حِزْتُمُ السَّبْقَا
فَلاَ يَتَحَرَّكْ سَاكِنٌ ثَوَى بِرُبُوعِهَا ... إِلَى سِوَاهَا وَإِنَّ جَارَ الزَّمَانُ وَلَوْ شَقَّا
فَكَمْ مَلِكٍ رَامَ الْوُصُولَ لِمِثْلِ مَا ... وَصَلْتُمْ فَلَمْ يَقْدِرْ وَلَوْ مَلَكَ الْخَلْقَا
فَبُشْرَاكُمْ نِلْتُمْ عِنَايَةَ رَبِّكُمْ ... فَهَا أَنْتُمْ فِي بَحْرِ عِنَايَتِهِ غَرْقَى
تَرَوْنَ رَسُولَ اللهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ ... وَمَنْ يَرَهُ فَهُوَ السَّعِيدُ بِهِ حَقَّا
مَتَى جِئْتُمْ لاَ يُغْلَقُ البَابُ دُونَكُمْ ... وَبَابُ ذَوِي الإِحْسَانِ لاَ يَقْبَلُ الغَلْقَا
فَيَسْمَعُ شَكْوَاكُمْ وَيَكْشِفُ ضُرَّكُمْ ... وَلاَ يَمْنَعُ الإِحْسَانَ ضَرٌّ وَلاَ رِقَّا
بِطَيْبَةَ مَثْوَاكُمْ وَأَكْرَمُ مُرْسَلٍ ... يُلاَحِظُكُمْ فَالدَّهْرُ يَجْرِي لَكُمْ وَفْقَا
وَكَمْ نِعْمَةٍ لِلَّهِ فِيهَا عَلَيْكُمْ ... فَشُكْراً وَنِعَمُ اللهِ بِالشُّكْرِ تُسْتَبْقَى
أَمِنْتُمْ مِنَ الدَّجَّالِ فِيهَا فَحَوْلَهَا ... مَلاَئِكَةٌ يَحْمُونَ مِنْ دُونِهَا الطُّرْقَا
كَذَاكَ مِنَ الطَّاعُونِ أَنْتُمْ بِمَأْمَنٍ ... فَوَجْهُ اللَّيَالِي لاَ يَزَالُ لَكُمْ طَلْقَا
فَلاَ تَنْظُرُوا إِلاَّ لِوَجْهِ حَبِيبِكُمْ ... وَإِنْ حَادَتِ الدُّنْيَا وَمَرَّتْ فَلاَ فَرْقَا
حَيَاةً وَمَوْتاً تَحْتَ رُحْمَاهُ أَنْتُمْ ... وَحَشْراً فَسِتْرُ الْجَاهِ فَوْقَكُمْ مُلْقَى
فَيَا رَاحِلاً عَنْهَا لِدُنْيَا تُرِيدُهَا ... أَتَطْلُبُ مَا يَفْنَى وَتَتْرُكُ مَا يَبْقَى؟
أَتَخْرُجُ عَنْ حَوْزِ النَّبِيِّ وَحِرْزِهِ ... إِلَى غَيْرِهِ تَشْفِيهُ غَيْرَكَ قَدْ حُقَّا
لَئِنْ سِرْتَ مِنْ فَيْضِ الْمَكَارِمِ عِنْدَهُ ... فَأَكْرَمُ مِنْ خَيْرِ البَرِيَّةِ مَا تَلْقَى
هُوَ الرِّزْقُ مَقْسُومٌ فَلَيْسَ بِزَائِدٍ ... وَلَوْ سِرْتَ حَتَّى كِدْتَ تَخْتَرِقُ الأُفْقَا
فَكَمْ قَاعِدٍ قَدْ وَسَّعَ اللهُ رِزْقَهُ ... وَمُرْتَحِلٍ قَدْ ضَاقَ بَيْنَ الْوَرَى رِزْقَا
فَعِشْ فِي حِمَى خَيْرِ الأَنَامِ وَمُتْ بِهِ ... إِذَا كُنْتَ فِي الدَّارَيْنِ تَطْلُبُ أَنْ تَرْقَى
إِذَا قُمْتَ فِيمَا بَيْنَ قَبْرٍ وَمِنْبَرٍ ... بِطَيْبَةَ فاعْرِفْ أَيْنَ خَيْرٌ لَكَ الأَرْقَى
لَقَدْ أَسْعَدَ الرَّحْمَنُ جَارَ مُحَمَّدٍ ... وَمَنْ حَالَ فِي تَرْحَالِهِ فَهُوَ الأَشْقَى

ومن أعظم ما نُظِم في ذلك وأعجبه قصيدة الإمام الوَلِّي العارف بالله أبي محمد عبد الله بن أبي عُمَر البِشكَرِيّ. قال العَلاَّمة بدر الدين فَرْحُون أحد أصحاب ناظمها: إن بعض الصالحين رأى النبي ﷺ في المنام، قال البدر: «وأشك هل كان الشيخ أو غيْرُه؟ وأنشد هذه القصيدة، فلما بلغ آخِرَها قال رسول الله ﷺ: رَضِينَاهَا رَضِينَاهَا». وخَمَّسَها الإمام أبو عبد الله التونسي رحمه الله. وقد رأيت إيرادَ ذلك هنا:

أَعْلامُ طَيْبَةَ لاَ تَهِمْ بِسِوَاهَا   فَحَبِيبُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ثَوَاهَا
وَاعْمُرْ فُؤَادَكَ دَائِماً بِهَوَاهَا   دَارُ الْحَبِيبِ أَحَقُّ أَنْ تَهْوَاهَا
وَتَحِنُّ مِنْ طَرَبٍ إِلَى ذِكْرَاهَا
لاَ تُخْلِ خَدَّ تُرَابِهَا مِنْ قُبْلَةٍ   وَبِكُلِّ عَامٍ قُمْ إِلَيْهِ بِرِحْلَةٍ
لا تَقْنَعَنَّ مِنَ الْمَزَارِ بِمَرَّةٍ   وَعَلَى الجُفُونِ مَتَى هَمَمْتَ بِزَوْرَةٍ
يَا بْنَ الْكِرَامِ عَلَيْكَ أَنْ تَغْشَاهَا
اقْطَعْ زَمَانَكَ إِنْ سَعَدْتَ بِبَلْدَةٍ   حَوَتِ الرَّسُولَ فَتِلْكَ أَطْيَبُ تُرْبَةٍ
جَاوِرْهُ تَأْمَنْ أَنْ تُصَابَ بِشِدَةٍ   فَلأَنْتَ أَنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بِطَيْبَةَ
وَظَلَلْتَ تَرْتَعُ فِي ظِلاَلِ رُبَاهَا
هِيَ جُنَّتِي مِمَّا أَخَافُ وَجَنَّتِي   وَبِجَاهِ مَنْ فِيهَا تُخَلِّصُ مُهْجَتِي
وَإِذَا نَظَرْتُ لَهَا فَذَلِكَ بُغْيَتِي   مَعْنَى الجَمَال مُنَى الخَوَاطِرِ وَالَّتِي
سَلَبَتْ عُقُولَ الْعَاشِقِينَ حُلاَهَا
تِلْكَ الْمَنَازِلُ لاَ نَعِيمَ كَتُرْبِهَا   تِلْكَ الْمِيَاهُ لَنَا الشِّفَاءُ بِشُرْبِهَا
يَا طِيبَ نَفْحَتِهَا وَحُسْنَ مَهَبِّهَا   لاَ تَحْسَبِ الْمِسْكَ الذَّكِيَّ كَتُرْبِهَا
هَيْهَاتَ أَيْنَ الْمِسْكُ مِنْ رَيَّاهَا
لِمَ لاَ تَطِيبُ ثَناً وَتَكْرُمُ مَنْبِتاً   وَالْمُصْطَفَى حَيًّا حَوَتْهُ وَمَيِّتاً
فَنَسِيمُهَا يحْكِي الْعَبِيرَ إِذَا أَتَى   طَابَتْ فَإِنْ تَبْغِ التَّطَيُّبَ يَا فَتَى
فَأَدِمْ عَلَى السَّاعَاتِ لَثْمَ ثَرَاهَا
لَوْ لَمْ تَكُنْ أَزْكَى البِلاَدِ وَأَطْهَرَا   مَا اخْتَارَهَا لِرَسُولِهِ لَمَّا سَرَى
فَبِطِيبِهَا أَيْقِنْ وَخَلِّ مَنِ افْتَرَى   وَابْشِرْ فَفِي الْخَبَرِ الصَّحِيحِ مُقَرَّرَا
أَنَّ الإِلَهَ بِطَابَةٍ سَمَّاهَا
دَارُ الحَبِيبِ لَنَا فَلُذْ بِرَحِيبِها   فَالنَّفْسُ مُولَعَةٌ بِدَارِ حَبِيبِها
اللهُ شَرَّفَهَا بِهِ لِنَصِيبِهَا   وَاخْتَصَّهَا بِالطَّيِّبَيْنِ لِطِيبِهَا
وَاخْتَارَهَا وَدَعَا إِلَى سُكْنَاهَا
مَدَّتْ بِهَا رُحْمَى الإِلَهِ ظِلاَلَهَا   مِنْ أَجْلِ مَنْ مَنَعَ النُّفُوسَ ضَلاَلَهَا
جُلْ فِي البِلادِ فَلَنْ تُصِيبَ مِثَالَهَا   لاَ كَالْمَدِينَةِ مَنْزِلٌ وَكَفَى لَهَا
شَرَفاً حُلُولُ مُحَمَّدٍ بِفِنَاهَا

مَنْ لِي بِأَنْ أَلْقَى الْحَبِيبَ وَأَظْفَرَا   وَأَشَمَّ مِنْ مَثْوَاهُ مِسْكاً أَذْفَرَا
وَأَرَى الَّتِي شُغِفَتْ بِهَا مُهَجُ الْوَرَى   خُصَّتْ بِهِجْرَةِ خَيْرِ مَنْ وَطِئَ الثَّرَى
وَأَجَلِّهِمْ قَدْراً فَكَيْفَ تَرَاهَا؟
كَلَفِي بِهَا طَبْعٌ بِغَيْرِ تَكَلُّفِ   صَفَتِ القُلُوبُ لَهَا لأَجْلِ مَنْ اصْطُفِي
وَجَلاَلُ تِلْكَ الأَرْضِ مَا هُوَ بِالْخَفِي   كُلُّ البِلاَدِ إِذَا ذَكَرْتَ كَأَحْرُفِ
فِي اسْمِ الْمَدِينَةِ لاَ خَلاَ مَعْنَاهَا
هِيَ لِلْقُلُوبِ الصَّافِيَاتِ حَبِيبَةٌ   وَلأَهْلِهَا وَالنَّازِلِينَ رَحِيبَةٌ
فَاقَتْ جَمِيعَ الأَرْضِ فَهْيَ غَرِيبَةٌ   حَاشَا مُسَمَّى القُدْسِ فَهْيَ قَرِيبَةٌ
مِنْهَا وَمَكَّةَ إِنَّهَا إِيَّاهَا
فَاجْعَلْ مَزَارَكَ لِلثَّلاَثِ وَظِيفَةً   وَأْمَنْ بِمَكَّةَ وَالمَدِينَةِ خِيفَةً
فَكِلاَهُمَا تَدَعُ القُلُوبَ نَظِيفَةً   لاَ فَرْقَ إِلاَّ أَنَّ ثَمَّ لَطِيفَةً
مَهْمَا بَدَتْ يَجْلُو الظَّلاَمَ سَنَاهَا
فَافْهَمْ وَأَرْجُو أَنْ تُفِيقَ وَتَفْهَمَا   أَمْرَ الَّذِي هُوَ قَدْ سَمَا فَوْقَ السَّمَا
إِنَّ الْفَضِيلَةَ حَيْثُ أَصْبَحَ مِنْهُمَا   جَزَمَ الجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الأَرْضِ مَا
قَدْ حَاطَ ذَاتَ المُصْطَفَى وَحَوَاهَا
فَمِنَ الْعَجَائِبِ مُهْجَتِي عَنْهَا سَلَتْ   وَهِيَ الَّتِي بِضَرِيحِ أَحْمَدَ فُضِّلَتْ
مِثْلَ العُقُودِ بِقَدْرِ جَوهرِهَا غَلَتْ   وَنَعَمْ لَقَدْ صَدَقُوا بِسَاكِنِهَا عَلَتْ
كَالنَّفْسِ حِينَ زَكَتْ زَكَا مَأْوَاهَا
إِنِّي أَقُولُ فَلاَ تَكُنْ ذَا غَيْبَةٍ   قِفْ عِنْدَ حُجْرَتِهِ بِمَوْقِفِ هَيْبَةٍ
فَاسْأَلْ فَإِنَّكَ لَنْ تَرَى ذَا خَيْبَةٍ   وَبِهَذِهِ ظَهَرَتْ مَزِيَّةُ طَيْبَةٍ
فَغَدَتْ وَكُلُّ الفَضْلِ فِي مَعْنَاهَا
مِنْهَا بَدَا لِلْخَلْقِ وَاضِحُ سُنَّةٍ   فَعَلَى البِلاَدِ لَهَا عَظِيمَةُ مِنَّةٍ
وَلَهَا خَصَائِصُ فَضْلِهَا ذُو مُكْنَةٍ   حَتَّى لَقَدْ خُصَّتْ بِرَوْضَةِ جَنَّةٍ
اللهُ شَرَّفَهَا بِهَا وَحَبَاهَا
هِيَ غَيْرُ خَافِيَةٍ لِقَلْبٍ مُبْصِرِ   فَاغْسِلْ مِنَ الأَهْوَاءِ قَلْبَكَ وَانْظُرِ
وَابْسُطْ هُنَاكَ الخَدَّ مِنْكَ وَعفِّرِ   مَا بَيْنَ قَبْرٍ لِلنَّبِيِّ وَمِنْبَرِ
حَيَّا الإِلَهُ رَسُولَهُ وَسَقَاهَا

مَحْرُوسَةٌ مِنْ كُلِّ رِجْزٍ طَارِقٍ وَدُخُولِ دَجَّالٍ وطَعْنٍ لاَحِقِ
فَالْمَرْءُ فِيهَا ذُو فُؤَادٍ وَاثِقِ هَذِي مَحَاسِنُهَا فَهَلْ مِنْ عَاشِقِ
كَلِفٍ شَحِيحٍ بَاخِلٍ بِنَوَاهَا

رَبِّي أَدِمْنِي فِي حِمَايَةِ صَوْنِهَا وَمَتَى هَمَمْتُ بِغَيْبَةٍ عَنْ عَيْنِهَا
فَاجْعَلْ مَمَاتِي قَبْلَ سَاعَةِ كَوْنِهَا إِنِّي لأَرْهَبُ مِنْ تَوَقُّعِ بَيْنِهَا
فَيَظَلُّ قَلْبِي مُوجَعاً أَوَّاهَا

يَا خَيْرَ مَسْئُولٍ وَأَكْرَمَ مَنْ دُعِي لاَ تُقْصِ عَنْهَا رِحْلَتِي وَتَوَدُّعِي
فَمِنَ الخَسَارِ فِرَاقُ ذَاكَ المَوْضِعِ وَلَقَلَّمَا أَبْصَرْتُ حَالَ مُوَدِّعِ
إِلاَّ رَثَتْ نَفْسِي لَهُ وَشَجَاهَا

لاَ تَجْعَلُوا عَنْهَا الرَّحِيلَ صِنَاعَةً إِنِّي أَرَى ذَاكَ الرَّحِيلَ إِضَاعَةً
وَإِذَا أَقَمْتُمْ كَانَ ذَلِكَ طَاعَةً فَلَكَمْ أَرَاكُمْ قَافِلِينَ جَمَاعَةً
فِي إِثْرِ أُخْرَى طَالِبِينَ ثَوَاهَا

فِيمَ التَّرَحُّلُ فِي الْمَدِينَةِ صَوْنُكُمْ وَبِجَاهِ خَيْرِ الخَلْقِ يَحْصُلُ عَوْنُكُمْ
فَالْخَيْرُ مُكْثُكُمْ هُنَاكَ وَكَوْنُكُمْ قَسَماً لقد أَذْكَى فُؤَادِي بَيْنُكُمْ
جَزَعاً وَفَجَّرَ مُقْلَتِي مِيَّاهَا

ضَيَّعْتُمْ وَاللهِ كُلَّ جَمِيلَةٍ عُودُوا فَمَا خَيْرَاتُهَا بِقَلِيلَةْ
مَا لِي إِذَا لَمْ يَقْبَلُوا مِنْ حِيلَةٍ إِنْ كَانَ يُزْعِجُكُمْ طِلاَبُ فَضِيلَةْ
فَالْخَيْرُ أَجْمَعُهُ لَدَى مَثْوَاهَا

أَوْ كَانَ يَدْعُوكُمْ إِلَى أَنْ تَرْحَلُوا جَاهٌ يُنَالُ فَجَاهُ أَحْمَدَ أَكْمَلُ
أَوْ نَالَكُمْ ظَمَأٌ فَهَذَا المَنْهَلُ أَوْ خِفْتُمْ ضُرّاً بِهَا فَتَأَمَّلُوا
بَرَكَاتِ بُلْغَتِهَا فَمَا أَزْكَاهَا

فَإِذَا امْرُؤٌ لَمْ يَرْتَحِلْ مِنْ شِدَّةٍ فِيهَا وَعَاشَ بِهَا بِأَيْسَرِ بُلْغَةِ
فَاقْنَعْ هُنَاكَ وَلَوْ بِأَدْنَى لُقْمَةٍ أُفٍّ لِمَنْ يَبْغِي الْكَثِيرَ لِشَهْوَةِ
لِرَفَاهَةٍ لَمْ يَدْرِ مَا عُقْبَاهَا

لاَ تُرْحَلَنَّ لِشَهْوَةٍ وَتَلَذُّذِ وَانْظُرْ إِلَى ذَاكَ الْحِمَى وَتَلَذَّذِ
وَبِمَا يُقِيمُ النَّفْسَ فَاقْنَعْ وَاغْتَذِ فَالْعَيْشُ مَا يَكْفِي وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي
يُطْغِي النُّفُوسَ وَلاَ خَسِيسَ مُنَاهَا

لِلهِ مَنْ لَمْ يَكْثُرتْ بِمَجَاعَةٍ فِيهَا وَعَاشَ بِهَا مُلاَزِمَ طَاعَةٍ
وَرَأَى الْمُقَامَ بِهَا سِنِينَ كَسَاعَةٍ يَا رَبِّ أَسأَلُ مِنْكَ فَضْلَ قَنَاعَةٍ
بِيَسِيرِهَا وَتَحَصُّناً بِحِمَاهَا
هِيَ نِعْمَةٌ فَأَفِضْ عَلَيَّ نَعِيمَهَا وَتَوَلَّ زَائِرَهَا وَأَرْضِ مُقِيمَهَا
وَأَنَا السَّعِيدُ إِذَا رُزِقْتُ قُدُومَهَا وَرِضَاكَ عَنِّي دَائِماً وَلُزُومَهَا
حَتَّى تُوَافِيَ مُهْجَتِي أُخْرَاهَا
سَهِّلْتَ يَا رَبِّي عَلَيَّ وُصُولَهَا وَحَثَثْتُ نَفْسِي أَنْ تَنَالَ دُخُولَهَا
والنَّفْسُ تَسْأَلُ يَا كَرِيمُ قَبُولَهَا فَأَنَا الَّذِي أَعْطَيْتُ نَفْسِي سُؤْلَهَا
وَقَبِلْتُ دَعْوَتَهَا فَيَا بُشْرَاهَا
إِنْ كُنْتَ ذَا صِدْقٍ وَصَاحِبَ هِمَّةٍ فَاخْدِمْ حِمَاهُ فَلَيْسَ ضَائِعَ خِدْمَةٍ
وَأَقِمْ فَإِنَّكَ لاَ تَزَالُ بِنِعْمَةٍ بِجِوَارِ أَوْفَى الْعَالَمِينَ بِذِمَّةٍ
وَأَعَزُّ مَنْ بِالْقُرْبِ مِنْهُ يُبَاهَى
مَعَ كُلِّ رَكْبٍ أَمَّ طَيْبَةَ فَانْفُذِ وَبِمِلْءِ كَفٍّ إِنْ تَيَسَّرَ فَاغْتَذِ
وَبِكُلِّ عَامٍ فِي زِيَارَتِهِ خُذِ مَنْ جَاءَ بِالآيَاتِ وَالنُّورِ الَّذِي
دَاوَى الْقُلُوبَ مِنَ الْعَمَى فَشَفَاهَا
وَلَهُ مِنَ الإِسْرَاءِ أَشْرَفُ رُتْبَةٍ وَهُوَ الشَّفِيعُ لَنَا الْكَرِيمُ الْمُنْيَةِ
وَهُوَ الْمُكَرَّمُ بِاخْتِصَاصِ الرُّؤْيَةِ أَوْلَى الأَنَامِ بِخُطَّةِ الشَّرَفِ الَّتِي
تُدْعَى الْوَسِيلَةُ خَيْرُ مَنْ يُعْطَاهَا
كُلُّ الْمَكَارِمِ هُنَّ طَيُّ بُرُودِهِ وَلَقَدْ أَضَاءَ الْكَوْنَ عِنْدَ وُرُودِهِ
وَالْبَحْرُ يَقْصُرُ عَنْ مَوَاهِبِ جُودِهِ إِنْسَانُ عَيْنِ الْكَونِ سِرُّ وجُودِهِ
يَاسِينُ إِكْسِيرُ الْحَيَاةِ طَاهَا
كَانَتْ حَمَامُ الْغَارِ بَعْضَ حُمَاتِهِ وَالذِّئْبُ فِي الْبَيْدَاء بَعْضَ دُعَاتِهِ
مَاذَا أُعَدِّدُ مِنْ جَلاَلَةِ ذَاتِهِ حَسْبِي فَلَسْتُ أَفِي بِبَعْضِ صِفَاتِهِ
وَلَوَ أَنَّ لِي عَدَدَ الْحَصَى أَفْوَاهَا
حكْمُ الشَّفَاعَةِ فِي يَدَيْهِ وَأَمْرُهَا وَغَزَالَةٌ نَادَتْهُ أَذْهَبَ ضُرَّهَا
والرُّوحُ حِينَ أَتَتْهُ شَرَّفَ قَدْرَهَا كَثُرَتْ مَحَاسِنُهُ فأَعْجَزَ حَصْرَهَا
فَغَدَتْ وَمَا نَلْقَى لَهَا أَشْبَاهَا

اللهُ أَرْسَلَهُ بِكُلِّ هِدَايَةٍ وَحَبَاهُ فِي الدَّارَيْنِ كُلَّ عِنَايَة
فَلَقَدْ حَوَى فِي الْمَجْدِ أَبْعَدَ غَايَةٍ إِنِّي اهْتَدَيْتُ مِنَ الْكِتَابِ بِآيَةٍ
فَعَلِمْتُ أَنَّ عُلاَهُ لَيْسَ يُضَاهَى

فَشَهِدْتُ أَنَّ اللهَ خَصَّ مُحَمَّدَا فَغَدَا بِأَمْلاَكِ السَّمَاءِ مُؤَيَّدَا
وَعَلَى لِسَانِ الأَنْبِيَاءِ مُمَجَّدَا وَرَأَيْتُ فَضْلَ العَالَمِينَ مُحَدَّدا
وَفَضَائِلُ الْمُخْتَارِ لاَ تَتَنَاهَى

أَمْدَاحُهُ تَبْقَى عَلَى مَرِّ الزَّمَنْ كَمْ آيَةٍ فِينَا لَهُ مَدْحٌ حَسَنْ
أَعْيَتْ مَدَائِحُهُ الحِسَانُ ذَوِي اللَّسَنْ كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى تَقَصِّي مَدْحِ مَنْ
قَالَ الإِلٰهُ لَهُ وَحَسْبُكَ جَاهَا

مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ فَخُصَّ وَكُرِّمَا وَبِقَوْلِ مَا كَذَبَ الفُؤَادُ لَقَدْ سَمَا
وَكَفَاهُ مَا قَدْ قَالَهُ رَبُّ السَّمَا إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
فِيمَا يَقُولُ يُبَايِعُونَ اللهَ

شَهِدَتْ جَمِيعُ الأَنْبِيَاءُ بِفَضْلِهِ فَلأَجْلِ خَتْمِهِمُ أَتَوْا مِنْ قَبْلِهِ
وَلَهُ لِوَاءُ الحَمْدِ خُصَّ بِحَمْلِهِ هَذَا الفَخَارُ فَهَلْ سَمِعْتَ بِمِثْلِهِ
وَاهاً لِنَشْأَتِهِ الكَرِيمَةِ وَاهَا

يَا أُمَّةَ الْهَادِي وَمَنْ كَمِثَالِكُمْ فَجَلاَلُ أَحْمَدَ شَاهِدٌ بِكَمَالِكُمْ
هُوَ سِتْرُكُمْ هُوَ ذُخْرُكُمْ لِمَآلِكُمْ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا فَبِذَلِكُمْ
تُهْدَى النُّفُوسُ لِرُشْدِهَا وَغِنَاهَا

مَا فِي عِبَادِ اللهِ مِثْلُ مُحَمَّدِ فَمَقَامُه المَحْمُودُ يُعْرَفُ فِي غَدِ
وَلِحَوْضِهِ المَوْرُودِ أَكْرَمُ مَوْرِدِ صَلَّى عَلَيْهِ اللهُ غَيْرَ مُقَيَّدِ
وَعَلَيْهِ مِنْ بَرَكَاتِهِ أَنْمَاهَا

إِنَّ الصَّلاَةَ عَلَيْهِ تُنْجِينَا غَدَا فَإِذَا هُمُو ذَكَرُوا لَدَيْك مُحَمَّدَا
غِظْ بِالصَّلاَةِ عَلَيْهِ أَكْبَادَ العِدَا وَعَلَى الأَكَابِرِ آلِهِ سُرُجِ الهُدَى
أَكْرِمْ بِعِتْرَتِهِ وَمَنْ وَالاَهَا

أَعْزِزْ بِآلِ مُحَمَّدٍ فَلَدَيْهِمُ يُعْطَى المُنَى فَالْجُودُ مِلْكُ يَدَيْهِمُ
وَإِلَيْهِ صَرْفُ ثَنَائِنَا وَإِلَيْهِمُ وَكَذَا السَّلاَمُ عَلَيْهِ ثُمَّ عَلَيْهِمُ
وَعَلَى عِصَابَتِهِ الَّتِي زَكَّاهَا

كَانُوا إِذَا الْتَمَسَ السَّمَاحُ سَحَابَهُ   وَلَقَدْ أَتَوْا عِنْدَ الْحَوائِجِ بَابَهُ
مَلَكُوا مِنَ المَجْدِ الأَثِيلِ لُبَابَهُ   أَعْنِي الكِرَامَ أُولِي النُّهَى أَصْحَابَهُ
فِئَةُ التُّقَى وَمَنِ اهْتَدَى بِهُدَاهَا
مَدْحِي لأَحْمَدَ لاَ حِمَى كَمَلاذِهِ   فَإِنِ ارْتَضَاهُ وَجَادَ لِي بِنَفَاذِهِ
فَلَنِعْمَ مَا أَنَا عَائِذٌ بِمُعَاذِهِ   وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْكَرِيمِ وَهَذِهِ
نُجِزَتْ وظَنِّي أَنَّه يَرْضَاهَا
زاد مُخَمِّسُها الشيخ أبو عبد الله محمد، عفا الله تعالى عنه بِمَنِّه ولُطْفِه وكَرَمِه آمين:
مُنِحَتْ قَصِيدُ البِشكَرِيِّ قَبُولاً   وسُئِلْتُ فِي تَخْمِيسِهَا لِتَطُولاَ
فَأَرَدْتُ فِي بَابِ الثَّوابِ دُخُولاً   وَأَطَلْتُ فِي نَسْجِ الكَلاَمِ ذُيُولاَ
قِيلَ الرِّيَاضُ نَمَتْ فزَادَ شَذَاهَا
غَفَرَ الإِلٰهُ لَهُ وَلِي وَلِمَنْ قَرَا   وَأَعَدَّ فِي دَارِ النَّعِيمِ لَنَا القِرَى
وحَبَاهُ أَجْرَ المُخْلِصِينَ لَنَا القِرَى   فَعَلَى قَصِيدَتِهِ سَنَا صِدْقٍ يُرَى
وَكَفَتْهُ رُؤْيَا فِي الْمَنَامِ رَآهَا
قَالَ الرَّسُولُ لَهُ رَضِيتُ فَيَا لَهَا   بُشْرَى بِنِيَّتِهِ الجَمِيلَةِ نَالَهَا
فإِنِ ارْتَضَيْتُ بِأَنْ أَنَالَ مِثَالَهَا   فَهِيَ السَّعَادَةُ قَدْ مُنِحْتُ نَوَالَهَا
وَهُنَاكَ تَظْفُرُ مُهْجَتِي بِمُنَاهَا
يَا رَبِّ بِالْمُخْتَارِ يَسِّرْ أَمْرَنَا   وَاغْفِرْ خَطَايَانَا وَأَذْهِبْ ضُرَّنَا
وَاجْزِلْ عَطَايَانَا وَأَجْمِلْ سَتْرَنَا   وَاجْعَلْ بِطَيْبَةَ فِي حِمَاه مَقَرَّنَا
وَأَجِبْ سُؤَالَ نفُوسِنَا وَدُعَاهَا
يا رَبِّ صَلِّ على النَّبِيِّ مُحَمَّدِ   وَالآلِ والصَّحْبِ الكِرَامِ المَحْتِدِ
القَائِمِينَ الرَّاكِعِينَ السُّجَّدِ   بِحُمَاةِ دِينِكَ باللِّسَانِ وباليَدِ
وَالْمَالِ حُبّاً لِلرَّسُولِ وَجَاهَا
تنبيه: سيأتي في المعجزات وفي الخصائص أشياء تتعلق بالمدينة الشريفة الكريمة إن شاء الله تعالى.

جماع أبواب بعض حوادث من السنة الأولى والثانية من الهجرة

الباب الأول

في صلاته صلى الله عليه وسلم الجمعة ببني سالم بن عوف

وهي أَوَّلُ جمعةٍ صَلاَّها وأَوَّلُ خُطْبَةٍ في الإسلام كما جزم به [أَبو سَلَمة بن عبد الرحمن] في العيون [نقلاً عن] ابن إسحاق، والبيهقي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: «كان أول خُطْبَة خطبها رسول الله ﷺ بالمدينة أنه قام فيهم فحَمِدَ اللهَ وأَثنى عليه بما هو أَهْلُه ثم قال: «[أَما بعد]: أيها الناس فَقَدِّموا لأَنفسكم تعلَمُنَّ والله [ليُصْعَقَنَّ] أَحَدُكم ثُمَّ لَيَدَعَنَّ غَنَمَهُ ليس لها راعٍ، ثُمَّ لَيَقُولَنَّ له رَبُّه، وليس له تَرْجُمَانٌ ولا حاجِبٌ يَحْجُبُهُ دُونَهُ: أَلَمْ يَأْتِكَ رَسُولِي فَبَلَّغَكَ وآتَيْتُكَ مالاً وأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ فما قَدَّمتَ لنَفْسِك؟ فَلَيَنْظُرَنَّ يميناً وَشِمَالاً فلا يَرَى شيئاً، ثُمَّ لَيَنْظُرَنَّ قُدَّامَه فلا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّم، فمن استطاع أَن يَقِيَ وَجْهَهُ من النَّارِ ولو بِشِقٍّ من تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ، ومَنْ لم يَجِدْ فَبِكَلمةٍ طَيِّبَةٍ، فإِنَّ بها تُجْزَى الحَسَنَةُ عَشْرَ أَمْثَالِها إلى سَبْعِمائةِ ضِعْفٍ، والسلام [عليكم] وعلى رسول الله ورحمة الله وبركاته».

ثم خَطَبَ رسول الله ﷺ مَرَّةً أُخرَى فقال: «إِن الحَمْدَ لله أَحْمَدُهُ وأَستَعِينُه، نَعُوذُ بالله من شرورِ أَنفسنا وسَيِّئَاتِ أَعمالنا، من يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له، وأَشهد أَلاَّ إِلٰه إلا الله وَحْدَه لا شريكَ له، إِنَّ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابُ الله تبارك وتعالى، قد أَفْلَحَ من زَيَّنَه الله في قلبه، وأَدخله في الإِسلام بعد الكُفْر، واختاره على ما سواه من أَحاديث الناس، إنه أَحْسَنُ الحديثِ وأَبْلَغُه، أَحِبُّوا من أَحَبَّه الله، أَحِبُّوا الله من كل قلوبكم ولا تَمَلُّوا كلامَ الله وذِكْرَه، ولا تَقْسُ عنه قلُوبُكُم، فإنه من كل ما يَخْلُق الله يَخْتَار وَيَصْطَفِي قد سَمَّاه اللهُ خِيرَتَه من الأَعمال ومُصْطَفَاهُ من العِبَاد والصَّالِحَ من الحديث، ومن كل ما أُوتِيَ النَّاسُ من الحَلالِ والحَرَامِ، فاعْبُدوا اللهَ ولا تُشْرِكوا به شيئاً واتَّقُوهُ حَقَّ تُقَاتِه واصْدُقُوا اللهَ صالِحَ ما تقولون بأَفواهكم، وتَحَابُّوا بِرُوحِ اللهِ بينكم، إن الله يَغْضَبُ أَن يُنْكَثَ عَهْدُهُ. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وروى ابن جرير عن سعيد بن عبد الرحمن الجُمَحِيّ أنه بلغه عن خُطْبَة رسول الله ﷺ في أَول جمعة صَلاَّها بالمدينة في بني سالم بن عوف: «الحَمْدُ لله أَحْمَدُهُ وأَسْتَعِينُه، وأَسْتَغْفِرُهُ وأَسْتَهْدِيه، وأُومِنُ به ولا أَكْفُرُهُ، وأُعَادِي من يَكْفُرُه، وأَشهد أَلاَّ إِلٰه إِلاَّ الله وَحْدَه لا شريك له،

وأن محمداً عَبْدُه ورسولُه أرسله بالهُدَى ودين الحقّ، والنور والمَوْعِظَة، على فَتْرةٍ من الرُّسُل، وقِلَّةٍ من العِلْم، وضلالةٍ من الناس، [وانقطاعٍ من الزمان]، ودُنُوٌّ من الساعة، وقُرْبٍ من الأَجَل، مَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشِدَ، ومن يَعْصِهِمَا فقد غَوَى وفَرَّط وَضَلَّ ضَلالاً بعيداً. أُوصِيكُمْ بتقوى الله، فإنه خَيْرُ ما أَوْصَى به المُسْلِمُ المُسْلِمَ أن يَحُضَّه على الآخرة، وأن يَأْمُرَه بتقوى الله عزَّ وجَلَّ، فاحْذَرُوا ما حَذَّرَكم اللهُ من نفسه ولا أَفْضَل من ذلك ذِكْراً، وإن تقوى الله لمن عَمِلَ به على وَجَلٍ ومَخَافَةٍ مِنَ رَبِّه عَوْنُ صِدْقٍ على ما تَبْغُونَ من أَمر الآخرة، ومَنْ يُصْلِح [الذي] بينه وبين الله تعالى من [أمره في] السِّرِّ والعلانية لا يَنْوِي بذلك إلا وَجْهَ الله يَكُنْ له ذِكْراً في عاجل أَمْرِه [وذُخْراً فيما بعد الموت، حين يفتقر المرء إلى ما قَدَّم. وما كان مما سِوَى ذلك يَوَدُّ لو أَنَّ بَيْنَهُ وبَيْنَهُ أَمَداً بعيداً ﴿**وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بالعِبَادِ**﴾ [آل عمران: ٣٠] هو الذي صَدَقَ قَوْلَه، وأَنجَزَ وَعْدَه، لا خُلْفَ لذلك، فإنه يقول عَزَّ وجَلّ ﴿**مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [ق ٢٩] فاتَّقُوا اللهَ في عاجِلِ أَمْرِكم وآجِلِه في السِّرِّ والعلانية فإنَّه ﴿**وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِه ويُعْظِمْ لَهُ أَجْراً**﴾ [الطلاق ٥] وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ فقد فاز فوزاً عظيماً. وإن تَقْوَى اللهِ تُوَقِّي مَقْتَه وتُوَقِّي عقوبَتَه وَتُوَقِّي سَخَطَه وإن تَقْوَى الله تُبَيِّضُ الوجوه، وتُرْضِي الرَّبَّ، وتَرْفَعُ الدَّرَجة. فَخُذُوا بِحَظِّكم ولا تُفَرِّطُوا في جَنْبِ الله، فقد عَلَّمكم كتابَه، ونَهَجَ لكم سَبِيلَه، لِيَعْلَم الذين صَدَقُوا وَيَعْلَمَ الكاذبين. فَأَحْسِنُوا كما أَحْسَنَ اللهُ إليكم، وعادوا أعداءه، وجاهدوا في الله حَقَّ جِهَادِهِ، هو اجْتَبَاكُمْ وسَمَّاكم المسلمين ﴿**لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ**﴾ [الأنفال ٤٢] ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله. فَأَكْثِرُوا ذِكْرَ اللهِ تعالى واعملوا لما بعد الموت، فإنه من يُصْلِحْ ما بينه وبين الله يَكْفِه الله ما بينه وبين الناس، ذلك بأن الله يَقْضِي على الناس ولا يَقْضُونَ عليه، ويَمْلِكُ من الناس ولا يَمْلِكُونَ منه. الله أكبر، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله العَلِيّ العظيم»(١).

تنبيهات

الأول: قال في الرَّوْض: قَوْلُه ﷺ: «أَحِبُّوا اللهَ من كل قلوبكم»، يريد أن تستغرِقَ مَحَبَّةُ الله تعالى جميعَ أجزاء القَلْب، فيكون ذِكْرُه وَعَمَلُه خارجاً من قلبه خالصاً لله. وتَقَدَّم الكلام على مَحَبَّتِه لعَبْده، وَمَحَبَّة العَبْدِ لِرَبِّه في اسمه ﷺ: «حبيب الله».

وقوله ﷺ: «ولا تَمَلُّوا كلامَ الله وذِكْرَه. فإنه من كل ما يَخْلُقُ الله يَخْتَارُ وَيَصْطَفِي» قال السهيلي: الهاء في قوله: (فإنَّهُ) لا يجوز أن تكون عائدة على كلام الله تعالى، ولكنها

(١) أخرجه ابن جرير في التاريخ ٢/٢٥٥.

ضمير الأَمر والحديث، فكأَنه قال: إن الحديث من كل ما يَخْلقُ الله يختار، فالأَعمال إذاً كُلُّها من خَلْق الله، قد اختار منها ما شاء، قال سبحانه: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾.

وقوله: «قد سَمَّاه الله خِيرَتَه من الأَعمال»، يعني الذِّكْر وتلاوة القرآن [لقوله سبحانه: «ويختار» فقد اختاره من الأَعمال]. وقَوْلُه: «والمُصْطَفَى من عِبَاده»: أَي سَمَّى المصطفى من عباده بقوله تعالى: ﴿اللهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج ٧٥] ويجوز أَن يكون معناه المصطفى من عباده أَي العَمَل الذي اصطفاه منهم واختاره من أَعمالهم، فلا تكون «من» على هذا للتبعيض، إنما تكون لابتداء الغاية، لأَنه عمل استخرجه منهم لتوفيقه إياهم، والتأْويل الأَول أَقرب مأْخذاً. والله أَعلم بما أَراد رسولُه».

وقوله في أَول الخُطْبَة: «إن الحمدُ لله أَحْمَدُه»، هكذا برفع الدال [من قوله: الحمد لله](٤) وَجَدْتُهُ مُقَيّداً مُصَحَّحاً عليه، وإعرابه ليس على الحكاية، ولكن على إضمار الأَمر، كأَنه قال: «إن الأَمر الذي أَذكره»، حَذَفَ الهاء العائدة على الأَمر كي لا يُقَدِّم شيئاً في اللفظ من الأَسماء على قوله: «الحمد لله». وليس تقديم «إنَّ» في اللفظ من باب تقديم الأَسماء لأَنها حَرْفٌ مُؤَكِّدٌ لِمَا بَعْدَهُ مع ما في اللفظ من التَّحَرِّي للفظ القرآن والتَّيَمُّن به والله أَعلم.

الثاني: اخْتُلِفَ في تسمية اليوم بذلك، مع أَنه كان اتفاقاً يُسَمَّى في الجاهلية: «العَرُوبة» - بفتح المهملة وضَمّ الراء وبالمُوَحَّدَة - قلتُ: قال أَبو جعفر النَّحَّاس في كتابه: «صناعة الكتابة»: لا يعرفه أَهل اللغة إلا بالأَلف واللام إلاَّ شَاذًّا، ومعناه اليوم المُبَيَّن المُعَظَّم من أَعْرَبَ إذا بَيَّنَ. فقيل: سُمّي بذلك لأَن الخلائق جمعت فيه، ذكره أَبو حذيفة البخاري في المبتدا عن ابن عباس، وإسناده ضعيف. وقيل: لأَن خَلْق آدم جمع فيه.

وروى الإمام أَحمد والنسائي وابن خزيمة وابن أَبي حاتم عن سلمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَتَدْري ما يوم الجمعة؟» قلت: الله ورسوله أَعلم. قالها ثلاث مَرَّات. قال في الثالثة: «هو اليوم الذي جمع فيه أَبوكم آدم». الحديث، وله شاهد عن أَبي هريرة رضي الله عنه، رواه ابن أَبي حاتم بإسناد قوي، والإمام أَحمد مرفوعاً بإسناد ضعيف. قال الحَافِظ: «وهذا أَصَحّ. ويليه ما رواه عبد الرَّزَّاق عن ابن سيرين بسند صحيح إليه، في قصة تجميع الأَنصار، مع أَسعد بن زُرَارَة. وكانوا يسمون يوم الجمعة يوم العَرُوبَة، صَلَّى بهم فيه وَذَكَّرهم فسَمَّوْهُ يوم الجمعة حين اجتمعوا إليه». وقيل: «سُمِّيَ بذلك لاجتماع الناس للصلاة فيه». وبهذا جَزَمَ ابنُ حَزْم فقال: إنه اسم إسلامي لم يكن في الجاهلية وإنما كان يُسَمَّى العَرُوبة. وفيه نَظَر، فقد قال أَهل اللغة: إن العَرُوبَة اسم قديم كان للجاهلية، وقالوا: الجمعة هو يوم العَرُوبة. والظاهر أَنهم غَيَّروا الأَيام السَّبْعة بعد أَن كانت: أَوَّل وأَهْوَن وجُبَار ودُبَار ومُؤْنِس وعَرُوبَة وشِيَار.

وقال الجوهري: وكانت العرب تسمي يوم الاثنين «أَهْوَن» في أَسمائهم القديمة. فهذا يُشْعِرُ بأَن لها أَسماء وهي هذه المُتَعَارفَة إلى آخرها الآن. وقيل: إِن أَول من سَمَّى العَرُوبَة «الجمعة» كعب بن لُؤَيّ، فيحتاج من قال إِنهم غَيَّروها إلى الجمعة، فَأَبْقَوْها على تسمية العَرُوبَة إلى نقل خاص.

الثالث: تَقَدَّم أَن صلاة الجمعة صَلَّتْها الصحابة بالمدينة قبل قدوم النبي ﷺ المدينة، فقيل ذلك بإذن من النبي ﷺ لِمَا رواه الدارقطني عن ابن عباس، قال: أَذِنَ رسول الله ﷺ بالجمعة قبل أَن يهاجر، ولم يستطع رسول الله ﷺ أن يجمع بمكة ولا [يبدي] لهم، فكتب إِلى مُصْعَب بن عُمَيْر رضي الله عنه: «أَما بعد فانظر اليوم الذي تَجْهَر فيه اليهود بالزبور لَسَبْتِهِم، فاجمعوا نساءكم وأَبناءكم، فإذا مال النهار عن شطره عند الزوال من يوم الجمعة فَتَقَرَّبُوا إلى الله تعالى بركعتين». قال: فَأَوَّلُ من جَمَّع مُصْعَب بن عُمَيْر حتى قَدِم رسول الله ﷺ المدينة، فَجَمَّعَ عند الزوال من الظهر، وأَظهر ذلك. وفي سنده أَحمد بن محمد بن غالب الباهلي، وهو متهم بالوضع. قال في الزهر: «والمعروف في هذا المتن الإرسال، رَوَيْناه في كتاب الأَوائل لأَبي عروبة الحَرَّاني» قال: «حَدَّثَنا هاشم بن القاسم حدثنا ابن وَهْب حدثنا ابن جُرَيْج عن سليمان بن موسى أَن النبي ﷺ كتب إلى مصعب به». وقيل باجتهاد الصحابة، روى عبد الرَّزَّاق بإسناد صحيح عن محمد بن سيرين قال: جَمَّع أَهْلُ المدينة قبل أَن يَقْدَمَها رسولُ الله ﷺ، وقبل أَن تنزل الجُمُعَة، فقالت الأَنصار: إِن لليهود يوماً يُجَمِّعُونَ فيه كل سبعة أَيام، وللنصارى مثل ذلك فَهَلُمُّوا فلنجعل يوماً نُجَمِّعُ فيه فنذكر الله ونصلي ونشكر. فجعلوه يوم العَرُوبَة، واجتمعوا إلى أَسعد بن زُرَارة، فصَلَّى بهم يومئذ، وأَنزل الله تعالى بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾ [الجمعة ٩] قال الحافظ: وهذا وإِن كان مُرْسَلاً فله شاهد بإسناد حَسَن، رواه أَبو داود وابن ماجه، وصَحَّحه ابنُ خُزَيْمَة وغير واحد من حديث كعب بن مالك قال: «كان أَول مَنْ صَلَّى بنا الجُمُعَةَ قبل مَقْدَم النبي ﷺ المدينة أَسعد بن زُرَارَة»، الحديث وقد تَقَدَّم، فَمُرْسَل ابن سيرين يدل على أَن أُولئك الصحابة اختاروا يوم الجمعة باجتهاد، ولا يمنع ذلك أَن يكون النبي ﷺ عَلِمَه بالوَحْي وهو بمكة، فلم يتمكن من إقامتها كما في حديث ابن عباس والمُرْسَل بعده، ولذلك جَمَّع بهم أَول ما قَدِمَ المدينة كما حكاه ابن إِسحاق وغيره، وعلى هذا فقد حصلت الهداية للجمعة بخَبَرَ نَبِيّ البيان والتوفيق. وقيل: الحكمة في اختيارهم الجمعة وقوع خَلْق آدم فيه، والإِنسان إِنما خُلِق للعبادة، فناسب أَن يشتغل بالعبادة فيه، وكان الله تعالى أَكمل فيه الموجودات وأَوجد فيه الإِنسان الذي يَنْتَفِعُ بها، فناسب أَن يشكر الله على ذلك بالعبادة فيه، ولهذا تَتِمة تأتي في الخصائص إِن شاء الله تعالى.

الباب الثانــي

فـي بناء مسجده الأعظم وبعض ما وقع فـي ذلك من الآيات

تَقَدَّمَ أَن ناقته ﷺ بَرَكَتْ عند باب مسجده، فقال رسول الله ﷺ: «هذا المنزل إن شاء الله»، ثم أخذ في النزول، فقال: ﴿رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون ٢٩]. وكان مِرْبَداً لِيَتِيمَيْن هما: سَهْل وسُهَيْل، قال يحيى بن الحَسَن، والبلاذري وغيرهما: «ابنا رافع بن أبي عَمْرو بن عائذ بن ثعلبة بن غَنْم بن مالك بن النَّجّار، وبذلك صَرَّح ابن حزم، وأبو عُمَر ورَجَّحه، وكانا في حِجْر أَسْعد بن زُرَارة كما في صحيح البُخَاري عند أكثر رواته. وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ أرسل إلى بني النَّجّار بسبب موضع المسجد، فقال: «يا بني النَّجّار، ثَامِنُوني بحائطكم هذا»[1]، فقالوا: «والله لا نطلب ثمنه إلا من الله» وفي رواية: فدعا بالغلامَيْن وساومهما بالمِرْبَد ليتخذه مسجداً. فقالا. بل نهبه لك يا رسول الله. فأبى أن يقبله منهما هِبَةً حتى ابتاعه منهما ثم بناه مَسْجداً. وكان أَسعد بَنَى المِرْبَد مسجداً قبل أن يَقْدَمَ النبي ﷺ.

وروى يحيى بن الحَسَن عن النَّوَار بنت مالك أُم زيد بن ثابت أَنها رأتْ أَسعد بن زُرَارة قبل أن يَقْدَمَ النبي ﷺ، يُصَلِّي بالناس الصلوات الخَمْس، ويُجَمِّع بهم في مسجد بناه في مِرْبَد سهل وسُهَيْل، ابْنَيْ رافع بن أبي عَمْرو بن عائذ قالت: «كأني أنظر إلى رسول الله - ﷺ - لما قَدِم صَلَّى بهم في ذلك المسجد، وبناه فهو مسجده»، وذكر البلاذري نَحْوَه.

وروى الشيخان والبيهقي عن أنس رضي الله عنه قال: كان المسجد جداراً ليس له سَقْف، وقِبْلَتُه إلى القُدْس، فأمر رسول الله - ﷺ - بالنَّخْل بالغَرْقد أن يُقْطَع، وكان فيه قبور جاهلية، فأَمَر بها فنُبِشَتْ وأَمَر بالعِظَام أن تُغَيَّب، وكان في المِرْبَد ماء فَسَيَّره حتى ذهب، وكان فيه خرب فأمر بها فَسُوِّيتْ، فصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةً له، أي جُعِلت سواري له في جهة القِبْلَة فسُقِّفَ عليها وجعلوا عضادتيه حجارة.

وروى ابن عائذ أن النبي - ﷺ - صلى فيه وهو عَرِيش اثنى عشر يوماً ثم سُقِّف، وروى محمد بن الحَسَن المخزومي، ويحيى بن الحَسَن عن شَهْر بن حوشب قال: «لما أراد رسول الله - ﷺ - أن يبني المسجد قال: «ابْنُوا لي عريشاً كَعَرِيش موسى ثُمَامَات وخشبات وظُلَّة كظُلَّة موسى والأمر أَعْجَل من ذلك». قيل: وما ظُلَّة موسى؟ قال: «كان إذا قام أصاب رَأْسَه

---

(١) أخرجه البخاري ١١٧/١ ومسلم في كتاب المساجد (٩) وأبو داود (٤٥٣) وابن ماجه (٨٦).

السَّقْفُ. وعَمِل رسول الله ﷺ مع الصحابة في بناء المسجد، بنفسه الكريمة، كما في الصحيح أنه طَفِقَ ينقل معهم اللَّبِن ترغيباً لهم في العمل» ويقول:

اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْرَ الآخِرَة فَارْحَمْ الأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ[1]

ويُذْكَر أَن هذا البيت لعبد الله بن رَوَاحَة، وعن الزهري أَن رسول الله ﷺ كان يقول: اللهم لا خَيْرَ إلا خير الآخرة فارحم المهاجرين والأنصار. وكان لا يقيم الشِّعْر.

وروى محمد بن الحسن المخزومي عن أُم سلمة رضي الله عنها أَنها قالت: «بنى رسول الله ﷺ مسجده فَقَرَّب اللَّبِن وما يحتاجون إليه، فقام رسول الله ﷺ فوضع رداءه، فلما رأى ذلك المهاجرون الأَولون والأَنصار أَلْقَوْا أَرديتهم وأَكسيتهم وجعلوا يرتجزون ويعملون ويقولون:

لَئِنْ قَعَدْنَا وَالنَّبِيُّ يَعْمَلُ ذَاكَ إذاً لَلْعَمَلُ الْمُضَلَّلُ[2]

وروى البيهقي عن الحَسَن قال: لما بنى رسول الله ﷺ المسجد أَعانه أَصحابه وهو معهم يتناول اللَّبِن حتى اغْبَرَّ صَدْرُه. وكان عثمان بن مظعون رجلاً مُتَنَطِّعاً وكان يَحْمِل اللَّبِنَة فيُجَافي بها ثَوْبَه، فإذا وَضَعَها نَفَضَ كُمَّه ونظر إلى ثَوْبِه، فإن أَصابه شيء من التراب نَفَضَه، فنظر إليه عَلِيٌّ بن أَبي طالب رضي الله عنه فأَنشد يقول:

لاَ يَسْتَوِي مَنْ يَعْمُرُ المَسَاجِدَا يَدْأَبُ فِيهَا قَائِماً وَقَاعِدَا

وَمَنْ يُرَى عَنِ الْغُبَارِ حَائِدَا

فسَمِعَها عَمار بن ياسر، فجَعَل يَرْتَجِز بها وهو لاَ يَدْرِي مَنْ يَعْني بها. فَمَرَّ بعثمان فقال: يا بن سُمَيَّة، ما أَعْرَفَنِي بمن تُعَرِّض، ومعه جريدة، فقال: لَتَكُفَّنَّ أَو لأَعْتَرِضَنَّ بها وَجْهَك. فَسَمِعَه رسول الله - ﷺ -، فغَضِب ثم قال: «إن عَمَّار بن ياسر جِلْدَةُ ما بين عَيْنَيّ وأَنْفِي فإذا بُلِغ ذلك من المرء فقد أَبلغ». ووضع يَدَه بين عَيْنَيه. فكَفَّ الناسُ عن عَمَّار، ثم قالوا لعَمَّار: إن النبي - ﷺ - قد غَضِبَ فيك، ونخاف أن يَنْزِل فينا قرآن. فقال: أَنا أُرْضِيه كما غَضِب. فقال: يا رسول الله ما لي ولأَصحابك؟ قال: «مَا لَكَ ولهم»؟ قال: يريدون قَتْلي، يَحْمِلون لَبِنةً لَبِنَة ويَحْمِلون عَلَيّ لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْن. فأَخذ بيده وطاف به في المسجد، وجعل يَمْسَح وَفْرَته بيديه من التراب ويقول: «يا بْنَ سُمَيَّة، ليسوا بالذين يقتلونك، تقتلك الفِئَةُ الباغية، تَدْعُوهم إلى الجَنَّة ويَدْعُونَك إلى النار»، ويقول عَمَّار: أَعوذ بالله من الفِتَن.

---

(١) انظر البداية والنهاية ٣/٢١٥.

(٢) انظر البداية والنهاية ٣/٢١٦.

وروى عبد الرَّزَّاق بسَنَدٍ على شرط الشيخَيْن عن أُم سَلَمَة، والبخاري والبيهقي[١] عن أَبي سعيد الخُدْرِيّ رضي الله عنه قال: «لما كان رسول الله ﷺ وأَصحابه يبنون المسجد، جَعَل أَصحاب رسول الله ﷺ يحمل كل رجل منهم لَبِنَةً لَبِنَة، وعَمَّار يحمل لَبِنَتَيْن: لَبِنَةً عنه ولَبِنَةً عن رسول الله - ﷺ -، فمسح رسول الله ﷺ ظَهْرَه وقال: «يَا بْنَ سُمَيَّة للناس أَجْر ولَكَ أَجْرَان، وآخرُ زَادِكَ شَرْبَةٌ من لَبَن، وتَقْتُلُكَ الفِئَةُ الباغية، تدعوهم إِلى الجَنَّة ويدعونك إِلى النار»، وعَمَّار يقول: «أَعوذ بالله من الفِتَن».

وروى أَبو يعلى برجال الصحيح إِلا أَن التابعي لم يسمع عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لَمَّا أَسَّس رسول الله ﷺ مسجد المدينة جاء بحجر فوضعه، وجاء أَبو بكر بحجر فوضعه، وجاء عمر بحجر فوضعه، وجاء عثمان بحجر فوضعه، قالت: فسئل رسول الله - ﷺ - عن ذلك فقال: «هذا أَمْرُ الخلافة من بَعْدِي»[٢].

وروى البيهقي بسند قوي جَيِّد عن سَفِينَة[٣] رضي الله عنه نَحْوَه، وفيه قال: «هؤلاء وُلاةُ الأَمر من بعدي». وروى الإِمام أَحمد عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنهم كانوا يحملون اللَّبِن إِلى بناء المسجد ورسول الله ﷺ، قال: «فاستقبلت رسول الله - ﷺ - وهو عارِضٌ لَبِنَةً على بطنه فظنَنْتُ أَنها شَقَّتْ عليه، فقلت: «يا رسول الله نَاوِلْنِيهَا». فقال: «خُذْ غَيْرَها، لا عَيْشَ إِلا عَيْشُ الآخرة». وهذا كان في بنائه المَرَّة الثانية، لأَن أَبا هريرة لم يُسْلِمْ في الأُولى. وروى يحيى بن الحَسَن عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما عن أَبيه، قال: «خرج رسول الله ﷺ، ومعه حجر، فلقيه أُسَيْد بن حُضَيْر، فقال: يا رسول الله أَعطنيه. فقال: «اذهب فاحْتَمِلْ غَيْرَه فإِنك لست بأَفقر إِلى الله مني»[٤].

وروى الإِمام أَحمد ويحيى بن الحسن عن طَلْق بن عليّ رضي الله عنه قال: أَتيتُ رسول الله - ﷺ - وهو يبني المسجد، والمسلمون يعملون فيه معه، وكنتُ صاحبُ علاج وخَلْط طين، فأَخذتُ المِسْحَاة أَخْلِطُ الطين والنبي - ﷺ - ينظر إِليّ ويقول: «إِن هذا الحَنَفِيّ لصاحب طين». وكان يقول: «قَرِّبُوا اليمامِيّ من الطين فإِنه أَحسنكم له مسكاً وأَشَدُّكم مَنْكِباً»[٥].

---

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل ٢٦٩/٢.

(٢) أخرجه أبو نعيم في المسند ٢٩٥/٨ (٤٨٨٤) وذكره الهيثمي في المجمع ١٧٦/٥ وعزاه لأبي يعلى وقال: ورجاله رجال الصحيح، غير التابعي فإنه لم يسم، وذكره ابن حجر في المطالب (٣٨٤١).

(٣) سفينة مولى رسول الله ﷺ.. قيل: كان اسمه مهران وقيل: طهمان وقيل: مروان وقيل: نجران وقيل: رومان وقيل: ذكوان وقيل: كيسان وقيل: سليمان وقيل غير ذلك الإصابة ١٠٩/٣.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ٣٨١/٢.

(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٤٠٢/٥.

وروى يحيى بن الحَسَن من طريق عبد العزيز بن عمر، عن يزيد بن السائب، عن خارجة بن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: «بنى رسول الله ﷺ، مسجده سبعين في ستين ذراعاً أَو يزيد، ولَبِنَ لَبِنَة من بقيع الخبخبة وجعله جداراً وجعل سواريه خشباً شُقَّةً شُقَّة، وجعل وَسَطَه رحبة، وبنى بيتين لزوجتيه».

وروى يحيى أَيضاً عن جعفر بن محمد عن أَبيه قال: كان بناء مسجد رسول الله - ﷺ - بالسميط لبنةً على لبنة، ثم بالسعيد لَبِنَة ونصف أخرى، ثم كَثُر الناس فقالوا: «يا رسول الله لو زِيدَ فيه» فَفَعَل، فبنى بالذَّكَر والأُنثَى وهي لَبِنَتان مختلفتان، وكانوا رفعوا أَساسَه قريباً من ثلاثة أَذْرُع بالحجارة، وجعلوا طُولَهُ مما يلي القِبْلَة إلى مُؤَخَّرِه مائة ذراع، وكذا في العَرْض، وكان مُرَبَّعاً. وفي رواية جعفر: ولم يُسَطَّح فَشَكَوا الحَرّ، فجعلوا خَشَبَهُ وسواريه جذوعاً وظَلَّلُوه بالجريد ثم بالخَصَف، فلما وَكَف عليهم طَيَّنُوه بالطين، وجعلوا وَسَطَه رَحَبَة، وكان جِدَارُه قبل أَن يُسَقَّف قامةً وشيّئاً.

وروى يحيى عن [أُسامة بن] زيد بن حارثة عن أَبيه رضي الله عنهما أَن رسول الله - ﷺ - جعل قِبْلَتَه إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أَبواب في مُؤَخَّرِه: باب أَبي بكر وهو في جهة القبلة اليوم، وباب عاتكة الذي يُدْعَى باب عاتكة ويقال له باب الرحمة، والباب الذي كان يدخل منه رسول الله ﷺ، وهو باب آل عثمان اليوم، وهذان البابان لم يُغَيَّرا بعد أَن صرِفَت القِبلَة، ولما صُرِفَت القِبْلَة سَدَّ النبيُّ ﷺ الباب الذي كان خَلْفَه، وفَتَح هذا الباب، وحذاه هذا الباب أَي ومحاذيه هذا الباب الذي سُدّ.

وروى ابن زَبَالة عن جعفر بن محمد أَن النبي - ﷺ - بنى مسجده مرتين: بناه حين قَدِم أَقل من مائة في مائة، فلما فتح الله عليه خَيْبَر بناه وزاد عليه مثله في الدور. وروى الزبير بن بَكّار عن أَنس رضي الله عنه أَنه قال: بنى رسول الله - ﷺ - مسجده أَول ما بناه بالجريد، وإنما بناه باللَّبِن بعد الهجرة بأَربع سنين.

وروى الطبراني عن أَبي المليح أَنه قال: «قال رسول الله - ﷺ - لصاحب البُقْعَة التي زيدت في مسجد المدينة، وكان صاحبها من الأَنصار، فقال النبي - ﷺ -: «لَكَ بها بَيْتٌ في الجَنَّة». قال: فجاء عثمان، فقال له: لَكَ بها عشرة آلاف دِرْهَم، فاشتراها منه، ثم جاء عثمان إلى النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله اشْتَر مني البُقْعَة التي اشتريتُها من الأَنصاري، فاشتراها منه ببيت في الجَنَّة. فقال عثمان: إني اشتريتها بعشرة آلاف درهم، فوضع رسول الله - ﷺ - لَبِنَة، ثم دعا أَبا بكر فوضع لَبِنَة، ثم دعا عُمَر فوضع لَبِنَة، ثم دعا

عثمان فوضع لَبِنَة، ثم قال للناس: «ضعوا»، فوضعوا[١].

وروى الإمام أَحمد والترمذي وحَسَّنه في حديث قِصَّة إشراف عثمان يوم الدار، عن ثمامة بن حَزَن القُشَيْري، والإمام أَحمد والدارقطني عن الأَحنف بن قيس، أَن عثمان رضي الله عنه، أَشرف على الناس فقال: «أَهٰهُنَا علي»؟ قالوا: نعم. قال: «أَهٰهنا طلحة»؟ قالوا: نعم. قال: «أنشدكم بالله الذي لا إلٰه إلا هو، أتعلمون أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: «مَنْ يبتاع بُقْعة بني فلان فليزيدها في المسجد بخَيْرٍ منها في الجنة»؟ وفي رواية: «غفر الله له». فاشتريتُها من صُلْب مالي بعشرين أَلفاً فأَتيت النبي ـ ﷺ ـ فقلتُ: قد ابتعتُها. فقال: «اجعلها في مسجدنا ولك أَجـرُها». قالوا: «اللهم نعم»[٢].

وروى الزبير بن بَكَّار عن نافع بن جبير، وداود بن قيس، وابن شهاب وإسماعيل بن عبد الله الأَزدي عن رجل من الأَنصار، والطبراني بِسَنَدٍ رجاله ثقات، عن الشَّمُوس بنت النعمان رضي الله عنها، ويحيى بن الحَسَن عن الخليل بن عبد الله الأَسدي عن رجل من الأَنصار، عن ابن عجلان والغرافي ـ بالغين المعجمة والفاء في ذيله ـ عن مالك بن أَنَس عن زيد بن أَسلم عن ابن عُمَر أَن رسول الله ـ ﷺ ـ أَقام رهطاً على زوايا المسجد ليُعَدِّل القِبْلَة، فأَتاه جبريل، فقال: «يا رسول الله ضَعْ القِبْلة وأَنت تنظر إلى الكعبة»، ثم قال بيده هكذا فَانماطَ كُلّ جَبَلٍ بينه وبينها فوضع تربيع المسجد، وهو ينظر إلى الكعبة لاَ يحُول دون نظره شيء. فلما فرغ قال جبريل بيده فأَعاد الجبال والشجر والأَشياء على حالها وصارت قِبْلَتُه إلى الميزاب، فقال رسول الله ﷺ: «ما وضعت قِبْلة مسجدي هذا حتى رُفِعَتْ لي الكعبة فوضعتها أَمامها»[٣].

وقال الإمام مالك رحمه الله كما في العُتْبِيَّة: «سَمِعْتُ أَن جبريل هو الذي أَقام لرسول الله ـ ﷺ ـ قِبْلَةَ مسجد المدينة». وروى البخاري وأَبو داود عن نافع، وأَبو داود عن طريق ابن عطية، كلاهما عن ابن عُمَر رضي الله عنهما أَن مسجد رسول الله ـ ﷺ ـ كانت سواريه على عهد رسول الله ـ ﷺ ـ من جذوع النَّخْل وأَعلاه مُظَلَّل بجريد النَّخْل، ثم أَنها نَخَرَتْ في خلافة أَبي بكر فبناه بجذوع النخل وبجريد النخل، ولم يزد فيه، وزاد فيه عُمَر، وبناه على بنائه في عهد رسول الله ﷺ باللَّبِن والجريد وأَعاد عَمَدَهُ خَشَباً، ثم أَنها نَخَرَتْ في خلافة عثمان، فزاد فيه زيادة كبيرة، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقَصَّة، وجعل عَمَدَه من حِجَارة

(١) أخرجه الطبراني في الكبير ١٦٣/١ وذكره الهيثمي في المجمع ٧٦/٩.
(٢) أخرجه النسائي ٢٣٤/٦.
(٣) ذكره المتقي الهندي في كنز العمال (٣٤٨٣٤).

منقوشة وسَقَّفَه بالسَّاج. زاد في العيون: ونَقَل إليه الحَصْباء من العقيق.

وأَول من اتخذ فيه المقصورة مروان بن الحَكَم بناها بحجارة منقوشة [وجعل لها كُوَى]، ثم لم يُحْدِث فيه شيئاً إلى أَن ولي الوليد بن عبد الملك بن مروان بعد أَبيه، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وبنائه، وبعث إليه بمال وفُسَيْفِساء ورخام وثمانين صانِعاً من الروم والقِبْط من أَهل الشام ومصر، فبناه وزاد فيه، وولى القيام بأَمره والنفقة عليه صالح بن كيسان وذلك في سنة سبع وثمانين ويقال: من سنة ثمان وثمانين.

ولم يُحْدِث فيه أَحَدٌ من الخلفاء شيئاً حتى اسْتُخْلِف المهدي. قال محمد بن عُمَر: بَعَث المهدي عبد الملك بن شبيب الغَسَّاني ورجلاً من ولَد عمر بن عبد العزيز إلى المدينة لبناء مسجدها والزيادة فيه، وعليها يومئذ جعفر بن سليمان بن علي، فمكثا في عمله سنة، وزاد في مُؤَخَّرِه مائة ذراع فصار طوله ثلاثمائة ذراع وعَرْضُه مائتي ذراع. وقال علي بن محمد المدائني: «وَلَّى المهدي جعفر بن سليمان مكة والمدينة واليمامة فزاد في مكة ومسجد المدينة، وتَمَّ بناء مسجد المدينة في سنة اثنتين وستين ومائة. وكان المهدي أَتى إلى المدينة في سنة ستين ومائة قبل الحج فأَمر بقلع المقصورة وتسويتها مع المسجد، ويقال إن المأمون عمره أَيضاً وزاد فيه. والله أَعلم.

ثم لم يزد فيه شيئاً أحد من الخلفاء بعد المأمون، ولم يُعَمِّرُوا إلا مواضع يسيرة، إلى أَن حصل الحريق [في المسجد النبوي] في أَول شهر رمضان سنة أَربع وخمسين وستمائة أَول الليل لدخول أَبي بكر بن أَوحد الفَرَّاش الحاصِلَ الذي في الزاوية الغربية لاستخراج قناديل لمنائر المسجد. وترك الضوء الذي كان في يده على قفص من أَقفاص القناديل وفيه مشاق فاشتعلت النار فيه وأَعجزه إطفاؤها وعَلِقَتْ بِبُسُطٍ وغيرها مما في الحاصل وتزايد الالتهاب حتى اتصلت بالسقف بسرعة [ثم دَبَّتْ في السقوف] آخذةً قِبْلَة فأَعجلت الناس عن إطفائها بعد أَن نزل أَمير المدينة واجتمع معه غالبُ أَهلها، فلم يقْدِروا على قطعها، وما كان إلا أَقل من القليل حتى استولى الحريق على جميع سقف المسجد الشريف وما احتوى من المِنْبَر النبوي والأَبواب والخزائن والمقاصير والصناديق ولم تَبْقَ خَشَبَة واحدة، وكذا الكتب، وكُسْوَةُ الحجرة الشريفة. قال القُطْب القسطلاني: وكان عليها حينئذ إحدى عشرة ستارة، وأَزالت النار تلك الزخارف التي لا تُرْضي، وشوهد من هذه النار صِفَة القهر والعَظَمَة الإِلٰهية مُسْتَولِيَة على الشريف والمشروف. وكان هذا الحريق عَقِب ظهور نار الحجاز المُنْذَر بها من أَرض المدينة، وحماية أَهلها منها لما التجأُوا إلى مسجدها، فانطفأَت عند وصولها لحَرَمِها. قلتُ: وسيأْتي بيان ذلك في المعجزات إن شاء الله تعالى.

وربما خَطَر ببال العوام أَن حَبْسَها عنهم ببركة الجِوَار مُوجِبٌ لحَبْسِها عنهم في الآخرة، مع اقتراف الأَوزار، فاقتضى الحال البيان بلسان الحال الذي هو أَفصح من لسان المقال. والنار مُطَهِّرَةٌ لأدناس الذنوب وقد كان [ذلك] لاستيلاء الروافض حينئذ [على المسجد النبوي والمدينة] وكان القاضي والخطيب منهم، وأَساؤوا الأَدب كما بسط ذلك ابن جبير في رحلته، ولذا وُجدَ عَقِب الحريق على جدران المسجد:

لَمْ يَحْتَرِقْ حَرَمُ النَّبِيِّ لِرِيبَةٍ   يُخْشَى عَلَيْهِ وَمَا بِهِ مِنْ عَارِ
لَكِنَّها أَيْدِي الرَّوَافِضِ لامَسَتْ   تِلْكَ الرُّسُومَ فَطُهِّرَتْ بالنَّارِ

وَوُجِدَ أَيضاً:

قُلْ لِلرَّوَافِضِ بالمَدِينَةِ مَا بِكُمْ   لِقِيَادِكُمْ لِلذَّمِّ كُلُّ سَفِيهِ
ما أَصْبَحَ الحَرَمُ الشَّرِيفُ مُحَرَّقاً   إلاَّ لِسَبِّكُمُ الصَّحَابَةَ فِيهِ

ولم يَسْلَم من الحريق سوى القُبَّة التي أَحدثها الناصر لدين الله لِحفْظ ذخائر الحَرَم. قال المؤرخون: وبقيت سواري المسجد قائمة كأنها جذوع النَّخْل إذا هَبَّت الرياح تتمايل، وذاب الرصاص من بعض الأَساطين فسقطت ووقع السَّقْف الذي كان على أَعلى الحجرة الشريفة على سقف بيت رسول الله ﷺ، فوقعا جميعاً في الحجرة الشريفة وعلى القبور المقدسة.

وفي صبيحة الجمعة عزلوا مَوْضِعاً للصلاة وكتبوا بذلك للخليفة المُسْتَعْصِم بالله [أَبي أَحمد عبد الله] بن المُسْتَنْصِر بالله [في شهر رمضان]، فوصلت الآلات صُحْبَةَ الصُّنَّاع مع رَكْب العِراق في الموسم وابْتُدِئ بالعِمَارة أَول سنة خمس وخمسين وستمائة، وقصدوا إِزالة ما وقع من السقوف على القبور الشريفة، فلم يجسروا على ذلك. واتفق رأَي [صاحب المدينة يومئذ وهو] الأَمير منيف بن شيحه [بن هاشم بن قاسم بن مهنئ الحسيني] مع رأي أَكابر الحَرَم الشريف أَن يُطَالَع الإِمام المستعصِم بالله بذلك فيفعل ما يصل إِليه أَمره. فأَرسلوا بذلك فلم يصل جوابه لاشتغاله وأَهل دولته بإِزعاج التتار لهم واستيلائهم على أَعمال بغداد في تلك السنة. فتركوا الرَّدْم على حاله ولم يَنْزل أَحَدٌ هناك. زاد المجد اللغوي: ولم يَجْسُرْ أَحَد على التَّعَرُّض لهذه العظيمة التي دون مرامها تَزِلُّ الأَقدام ولا يتأتى من كل أَحد بادئ بدئه الدخول فيه والإِقدام. ووصلت الآلات من صاحب اليمن [يومئذ وهو الملك] المُظَفَّر شمس الدين يوسف بن المنصور عُمَر بن رسول. ثم عُزِل صاحب مصر، وتولى مكانَه مملوك أَبيه المظفر سيف الدين قُطُز المُعِزِّي واسمه الحقيقي محمود بن ممدود، وأُمه أُخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وأَبوه ابن عَمِّه، أُسِر عند غَلَبة التتار، فبيعَ بدمشق، ثم [انتقل بالبيع إِلى] مصر،

وتَمَلَّك في ثامن عشر ذي القعدة من سنة سبع [وخمسين وستمائة]. وفي شهر رمضان من سنة ثمان أَعَزَّ الله تعالى الإسلام على يده بوقعه عين جالوت. ثم قُتِل بعد الموقعة بشهر وهو داخل إلى القاهرة.

وكان العمل بالمسجد الشريف في تلك السنة من باب السَّلاَم إلى باب الرحمة [المعروف قديماً بباب عاتكة] ومن باب جبريل إلى باب النساء. وتولى مصر آخر تلك السنة الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس الصالحي البندقداري، فحصل منه اهتمام بأَمر المسجد فَجَهَّز الأَخشاب والحديد والرصاص، ومن الصُّنَّاع ثلاثة وخمسين صانعاً، وما يَمُونُهم، وأَنفق عليهم قبل سفرهم وأَرسل معهم الأَمير جمال الدين مُحْسِن الصالحي وغيره، ثم صار يُمِدُّهم بما يحتاجون إليه من الآلات والنفقات. فعُمِل في أَيامه باقي سقف المسجد كما كان قبل الحريق سقفاً فوق سقف إلا السقف الشمالي فإنه جعل سقفاً واحداً.

ولم يزل المسجد على ذلك حتى جُدِّدَ السَّقُف الشرقي والسَّقْف الغربي اللذان عن يمين صحن المسجد وشِمَالِه وذلك في سنتي خمس وست وسبعمائة في أَوائل دولة الملك الناصر محمد بن قلاون الصالحي، فَجُعِلا سَقْفاً واحداً شبه السقف الشَّمالي [أَي سقف الدِّكاك]. ثم في سنة تِسْع وعشرين وسبعمائة أَمر الملك الناصر محمد المذكور بزيادة رواقين [في المُسَقَّف القِبْلي] متصلين بمُؤَخَّرِه فاتسع مُسَقَّفُهُ بهما وعَمَّ نَفْعُهُمَا. ثم حصل في هذين الرواقين خَلَل فجَدَّدَهُما الملك الأَشرف بَرْسِبَاي سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة من مال جوالي قبرص. وجَدَّد الأَشرف أَيضاً شيئاً من السقف الشامي [مما يلي المنارة السنجارية].

ثم حصل خَلَل في سقف الروضة الشريفة وغيرها من سقف المسجد في دولة الظاهر جقمق، فجدّد ذلك في سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة. ثم جَدَّد السلطان الملك الأَشرف قايتباي كثيراً من سقف المسجد، ثم احترق المسجد النبوي ثانياً في الثلث الأَخير من ليلة الثالث والعشرين من شهر رمضان، سنة ست وثمانين وثمانمائة، وذلك أَن رئيس المُؤَذِّنين وصَدْر المدرسين شمس الدين محمد بن الخطيب قام يُهَلِّل حينئذ بالمنارة الشرقية اليمانية المعروفة بالرَّئِيسِيَّة، وصَعِد المُؤَذِّنون بَقِيَّة المنائر وقد تراكم الغَيْم وحصل رَعْدٌ قاصف، فسقطت صاعقة أَصاب بعضُها هلال المنارة المذكورة فسقط شرقيّ المسجد لَهَبٌ كالنار وَانْشَقَّ رَأْسُ المئذنة، وتوفي الرَّئِيس لحينه صعقاً. وأَصاب ما نزل من الصاعقة سَقْفَ المسجد الأَعلى بين المنَارة الرئسية وقبة الحجرة النبوية فثقبه ثقباً كالتُّرْس فَعلِقَت النار فيه وفي السقف الأَسْفَل، ففُتِحت أَبواب المسجد ونودي بأَن الحريق في المسجد.

فاجتمع أَمير المدينة قَسْطَل بن زُهَيْر الجَمَّازي وأَهلها بالمسجد الشريف، وصعد أَهْلُ

النَّجْدَةِ منهم بالمياه لإطفاء النار وقد التهبت سريعاً في السَّقْفَيْن، وأَخذت في جهة الشمال والغرب، فعجزوا عن إطفائها وكادت أَن تدركهم فهربوا. وسقط بعضهم فهلك، ونَجَا بعضهم مع من حالت النار بينه وبين الأبواب إلى صحن المسجد. وجملة من مات بسبب ذلك بضع عشرة نفساً. وعظمت النار جداً حتى صارت كبحر لُجِّيٍّ من نار، ولها زفير وشهيق وأَلْسُن تصعد في الجو، وصارت ترمي بشرر كالقَصْر وَيَشقُّط بالبيوت المجاورة ومع ذلك فلا تؤثر فيها. وحمل بعض خزائن الكتب والربعات والمصاحف غير ما بادروا بإخراجه، وذلك كله في نحو عشرة أَدراج فأَصابها الشرر فأَحرقها. وأَخبر أَمير المدينة قَسْطَل الجَمَّازي أَن شخصاً من العرب الصادقين رأَى في المنام قبل ذلك بِلَيْلَة أَن السماءَ فيها جَرَادٌ مُنْتَشِر ثم أَعقبته نار عظيمة، فأَخذ النبي ـ ﷺ ـ النار وقال: «أُمسكها عن أُمتي».

قال السيد: وأَخبرني جماعة أَنهم شاهدوا أَشكال طيور بيض تحوم حول النار كالذي يَكُفُّها عن بيوت الجيران، مع هرب كثير منهم لما رأَوا تساقط الشَّرَر. وخرج بعضهم من باب المدينة لِعِظَم ما شاهدوه من الهَوْل وظنوا أنهم قد أُحيط بهم، ثم خمدت النار ثاني يوم وأَرسلوا للسلطان قايتباي يُعْلِمونه بذلك فاهتم بذلك رحمه الله تعالى الذي أَهَّله لهذا الأَمر وعَمَر المسجد الشريف والحجرة الشريفة العمارة المُحْكَمَة الموجودة في زماننا.

تنبيهات

الأَول: اخْتُلِفَ في اسم أَبي اليَتِيمَيْن اللذين كان المسجد لهما فقال [موسى بن عقبة: هما ابنا رافع بن عَمْرو بن أَبي عَمْرو]، وقال الزهري وابن إسحاق هما ابنا عمرو. قال في العيون: إنه الأَشهر. وحاول السهيلي التوفيق بين القولين فقال: «هما ابنا رافع بن عَمْرو»، فعلى هذا نُسِبا إلى جَدِّهما. قال الحافظ: «والأَرجح هو قول الزهري وابن إسحاق».

الثاني: ذكر ابن إسحاق أَنهما كانا في حِجْر مُعَاذ بن عَفْرَاء، وقال أَبو ذَرّ الهَرَوِيّ أَحد رواة الصحيح: أَسعد بن زرارة بإثبات الأَلف في أَسعد. قال الحافظ والسيد: «وهو الوجه». وقال ابن زَبَالة ويحيى إنهما كانا في حِجْر أَبي أيوب وقد يُجْمَع باشتراك مَنْ ذُكِر في كونهما في حُجُورهم، وبانتقال ذلك بعد أَسعد بن زُرَارة إلى مَنْ ذُكِر واحداً بعد واحد، سيما وقد روى محمد بن الحَسَن المخزومي عن ابن أَبي فُدَيْك قال: «سَمِعْتُ بعض أَهل العلم يقولون إن أَسعد توفي قبل أَن يبني رسول الله المسجد، فباعه رسول الله من سهل وسهيل».

الثالث: في الصحيح أَن رسول الله ـ ﷺ ـ أَرسل إلى مَلأ بني النَّجَّار بسبب موضع المسجد، فقال: «يا بني النَّجار ثَامِنُونِي بحائطكم هذا»، فقالوا: «والله لا نطلب ثمنه إلا من الله». وفي رواية: «فدعا بالغلامَيْن فساومهما بالمِرْبَد يتخذه مسجداً». ووقع في رواية ابن

عُيَيْنَة: «فكَلَّم عَمَّهما، أَي الذي كانا في حِجْره، أَن يبتاعه منهما»، فقال: «ما تصنع به»؟ فلم يَجِدْ بُدًّا من أَن يَصْدُقهما، فأَخبرهما أَن رسول الله ﷺ أراده، فقالا: «نحن نعطيه»، فأَعطياه رسول الله ﷺ فبناه. أَخرجه الجندي.

وذكر ابن زَبَالة، ويحيى، أَن أَبا أَيوب قال: يا رسول الله أَنا أُرْضِيهُما. وذكر ابن عُقْبَة أَن أَسعد عَوَّضهما عنه نَخْلاً، قال: وقيل: ابتاعه منهما رسول الله ﷺ. وطريق الجمع بين ذلك كما أَشار إِليه الحافظ أَنهم لما قالوا: «لا نطلب ثمنه إِلا من الله» سأَل عَمَّن يختصّ بمِلْكه منهم، فعَيَّنوا الغُلاَمَيْن، فابتاعه منهما أَو من وَلِيِّهما إِن كانا غَيْرَ بَالِغَين، وحينئذ فيُحْتَمَل أَن الذين قالوا: «لا نطلب ثَمَنَه إِلا من الله تَحَمَّلُوا عنه للغُلاَمَيْن بالثمن. فقد نقل ابن عُقْبَة أَن أَسعد بن زُرَارة عَوَّضَ الغُلامَيْن عنه نخلاً له في بياضَة. وتَقَدَّم أَن أَبا أَيوب قال: أَنا أُرْضِيهما، فأَرضاهما، وكذلك مُعَاذ بن عفراء، فيكون بعد الشِّراء. ويُحْتَمَل أَن كُلاًّ من أَسعد، وأَبي أَيوب وابن عفراء أَرضى اليَتيمَيْنِ بشيءٍ فنُسِبَ ذلك لكل منهم.

وقد رُوِيَ أَن اليتيمين امتنعا من قبول عِوَض، فيُحْتَمَل ذلك على بدء الأَمْر، ولكن قال الواقدي: إِنه ﷺ اشتراه من بني عفراء بعشرة دنانير ذهباً دفعها أَبو بكر الصديق رضي الله عنه، فلعله رَغِب في الخير، فدفع العَشَرة مع أُولئك، أَو أَنه ﷺ أَخذ أَولاً بعض المِرْبَد في بنائه الأَول سَنَةَ قدومه، ثم أَخذ بعضاً آخر لما سَبَق أَنه بناه مرتين وزاد فيه فكان الثمن من مال أَبي بكر في إِحداهما ومن الآخرين في الأُخرى.

الرابع: ذكر السيد أَن قول النبي ﷺ لعَمَّار: «تقتلك الفئة الباغية». كان في البناء الثاني؛ لأَن البيهقي روى في الدلائل عن أَبي عبد الرحمن السُّلَمي أَنه سمع عبد الله بن عَمْرو بن العاص يقول لأَبيه عَمْرو: «قد قتلنا هذا الرجل، وقد قال رسول الله ﷺ فيه ما قال». قال: «أَي رجل»؟ قال: «عَمَّار بن ياسر، أَمَا تَذْكُر يوم بنى رسول الله ﷺ المسجد، وكنا نحمل لَبِنَةً لَبنَة، وعَمَّار يحمل لَبِنَتَيْن لَبِنَتَيْنِ، فَمَرَّ على رسول الله ﷺ [فقال «تحمل لَبِنَتَيْن لبنتين وأَنت تُرْحَض؟ أَمَا إِنك ستقتلك الفِئَة الباغية، وأَنت من أَهل الجَنَّة». فدخل عَمْرو بن العاص على معاوية: فقال: «قتلنا هذا الرجل، وقد قال فيه رسول الله ﷺ ما قال» فقال معاوية: «اسكت فوالله ما تزال تَدْحَضُ[1] في بَوْلِك، أَنَحْنُ قتلناه؟ إِنما قتله عَلِيّ وأَصحابه جاؤوا به حتى أَلْقوه بيننا. قال السمهودي]: «وهو يقتضي أَن هذا القول لعَمَّار كان في البناء الثاني للمسجد؛ لأَن إِسلام عَمْرو بن العاص كان في السنة الخامسة للهجرة».

---

(١) تَدْحَضُ: أي تَزْلَق. ويروى بالصاد: أي تَبْحثُ فيها بِرِجْلِك. انظر النهاية ١٠٥/٢.

الخامس: في بيان غريب ما سبق:

«المِرْبَد»(١) ـ بكسر الميم ـ: الموضع الذي يُجْعَل فيه التَّمْر.

«الملأ» ـ بفتح الميم واللام ـ: أَشراف الناس ورؤساؤهم ومُقَدَّمُوهم الذين يُرْجَع إِلى قولهم.

«النَّجَّار»: بالنون والجيم.

«ثَامِنُونِي»: أَي بايعوني وقاولوني.

«الحائط» هنا: البستان، وتَقَدَّم أَنه كان مِرْبَداً فلعله كان أَولاً حائطاً ثم خَرِبَ فصار مِرْبَداً، ويؤيده قوله: لِيُتَّخَذَ مسجداً.

«النَّوَّار»: بفتح النون وتشديد الواو بعد الألف راء.

«عايذ»: بالمثناة التحتية والذال المعجمة.

«الجِدَار» ككِتَاب: الحائط.

«الغَرْقَد»(٢) بالغين المعجمة والراء والقاف والدال المهملة: ضَرْبٌ من شَجَر العِضَاه، واحده غَرْقَدَةٌ.

«خِرَب» بكسر الخاء المعجمة وفتح الراء وبالمُوَحَّدَة [جَمْع خِرْبَة وهي الموضع الخراب]، وفي لفظ بالحاء المهملة وسكون الراء والمثلثة: [حَرْث].

«العَرِيش»: السَّقْف وما يُسْتَظَلُّ به، وهو المراد هُنا.

«ثمامات»(٣): جمع ثُمَام بضم المثلثة: نبتٌ ضعيف له خوص أَو شبيه بالخوص، وربما حُشِيَ به أَو سُدَّ به خِصَاص(٤) البيوت الواحدة ثُمَامَة.

«العِضَادتان»: تثنية عِضَادة ـ بكسر العين المهملة والضاد المعجمة وبعد الأَلف دال مهملة ـ: جانب الباب.

«طَفِقَ»: جعل.

«الحِمَال»: بكسر الحاء المهملة من الحَمْل، والذي يُحْمَل من خَيْبَر: التَّمْر. أَي أَنَّ هذا

---

(١) انظر اللسان ١٥٥٦/٣.

(٢) انظر اللسان ٣٢٤٦/٥.

(٣) انظر الوسيط ١٠١/١.

(٤) الخُصّ: بَيْت يُعْمَل من الخشب والقَصَب، وجمعه خِصَاص، وأَخْصَاص، سمي به لما فيه من الخصاص وهي الفُرَج والأَنقاب. انظر النهاية ٣٧/٢.

في الآخرة أَفْضَلُ من ذاك وأَحْمَدُ عاقِبَةً، كأنه جمع حِمْل أَو حَمْل ويجوز أَن يكون مصدر حَمَلَ أَو حَامَل.

«خَيْبَر»: يأْتي الكلام عليها في غَزْوَتِها.

«أَرديتهم»: جمع رداء.

«مُتَنَطِّعاً»(١) ـ بميم مضمومة فمثناة فوقية فنون مفتوحتَيْن فطاء مهملة مكسورة فعين مهملة: مِن تَنَطَّع إِذا تَعَمَّق وتَغَالى وتَأَنَّق.

«الوَفْرَة»: بواوٍ مفتوحة ففاء فراء: الشَّعَر المُجْتَمِعُ على الرأْس، أَو ما مال على الأُذُنَيْن منه أَو ما جاوز شَحْمَة الأُذنين ثم الجُمَّة ثم اللِّمَّة.

«وَيْحَ»: كلمة تَرَحُّم وتَوَجُّع، يقال لمن وقع في هَلَكَة لا يَسْتَحِقُّها، وقد يقال بمعنى المَدْح والتَّعَجُّب، وهي منصوبة على المصدر.

«الحَبْحَبَة»(٢): بحاءَيْن مهملتَيْن بعد كل مُوَحَّدَة وهي في الأَصل جَرْي الماء قليلاً قليلاً كالْحَبْحَب والحَبْحَبَة الضعف وسَوْق الإِبل ومن النَّار اتقادُها والبطيخ الشامي الذي يُسَمِّيه أَهل العراق الرَّقِّيّ والفُرْس تُسَمِّيه الهندي.

«بالسَّمِيط»: أَي على لَبِنَة واحدة، والسَّمِيطُ من النَّعْل: الطَّاق الواحد لا رقعة فيها.

«السَّوَاري»: جمع سارِيَة وهي الاسطوانة.

«السَّعْد»: ثُلُثُ اللَّبِنَة والسُّعَيْد كزُبَيْر رُبْعُها.

«وكَفَ»: سال ماؤه.

«الخَّصَف» بخاءٍ معجمة فصاد مهملة مفتوحتين: المنسوج من الخُوص.

«الشَّمُوس» ـ بفتح الشين المعجمة وضم الميم وبالواو والسين: [بنت النُّعْمَان بن عامر بن مجمع] من الأَنصار.

«الرَّحَبَة» ـ بالراء والحاء المهملة والموحدة المفتوحات، قال في الصحاح: رَحَبَةُ المسجد بالتحريك ساحته والجمع رَحَب وَرَحَبَات وَرِحَاب.

«الزوايا» جمع زاوية: الناحية.

---

(١) التنطع في الكلام: التعمق فيه مأخوذ منه وفي الحديث «هلك المتنطعون» وتنطع في الكلام وتنطس إذا تأنق فيه وتعمق وتنطح في شهواته: تأنق. اللسان ٦/٤٤٦١.

(٢) الحجبة: الضعف، والحجاب: الصغير الجسم المتداخل العظام. اللسان ٢/٧٤٧.

«انْمَاطَ»[١]: بالنون والميم والطاء المهملة بعد الألف: أي تَنَحّى.

«نَخِرَتْ»[٢] - بالنون المفتوحة والخاء المعجمة المكسورة والراء: يَبِسَتْ وَتَفَتَّتَتْ.

«المَنْقُوشَة» - بميم مفتوحة فنون فقاف فواو فشين معجمة: المُلَوَّنة بلَونيْن أَو أَلوان.

«السَّاج» - بسين مهملة وجيم مُخَفَفة: نوع من الشجر.

«القَصَّة» - بفتح القاف وتشديد الصاد المهملة المفتوحة فتاء تأْنيث: [الحجارة من الجِصّ].

«الفُسَيْفِسَاء»[٣] قال في النور: بضم الفاء الأُولى وفتح السين المهملة فتحتية ساكنة ففاء مكسورة ثم سين مهملة أُخرى ممدودة، هكذا سُمِع الناس ينطقون به وكذا رأَيتُه مُحَرَّراً بخط كمال الدين بن العديم في تاريخه في غير موضع، وكذا رأَيته مضبوطاً بالقَلَم في مطالع ابن فرفود، وهو فصوص صغار من أَلوان الزجاج تُلْصَق بالحائط وتُطْلَى بماء الذهب، وهي كثيرة بجامع دمشق وبيت المقدس [وهي غاية] في الحُسْن والبهجة.

---

(١) من ماط ميطاً: من باب تباعد ويتعدى بالهمزة والحرف فيقال أماطه غيره إماطة ومنه: إماطة الأذى عن الطريق وهي التنحية لأنها إبعاد. المصباح المنير ص ٥٨٧.

(٢) انظر المفردات للراغب ٤٨٦.

(٣) انظر اللسان ٣٤١٣/٥.

الباب الثالث

في بنائه صلى الله عليه وسلم حجَر نسائه رضي الله عنهن

قال في الروض: «كانت بيوته ﷺ تسعة: بعضها من جريد مُطَيَّن بالطين وسَقْفُها من جريد، وبعضها من حجارة مَرْضُومَة بعضها فوق بعض، وسقفها من جريد أيضاً». قال الحافظ الذهبي في «بُلْبُل الروض»: «لم يبلغنا أنه ﷺ بُنِيَ له تسعة أبيات حتى بنى المسجد ولا أَحْسَبُهُ فَعَل ذلك، إنما كان يريد بيتاً واحداً لسَوْدَة أم المؤمنين رضي الله عنها. ولم يَحْتَجْ إلى بيت آخر حتى بَنَى لعائشة رضي الله عنها في شَوَّال سنة اثنتين، وكان ﷺ بناها في أوقات مختلفة». انتهى.

وتقدم في الباب الثاني أنه ﷺ بنى لِزَوْجَيْه: سَوْدَة وعائشة رضي الله عنهما، على نَعْت بناء المسجد؛ لأن عائشة كانت زَوْجَهُ حينئذ، وإن تأَخَّر الدخول بها، ثم بنى بَقِيَّة الحُجَر عند الحاجة إليها.

قال محمد بن عُمَر الأَسلمي: «كانت لحارثة بن النعمان رضي الله عنه منازل قُرْب المسجد وَحَوْلَه، وكلما أَحدث رسول الله ﷺ أَهْلاً نزل له حارثة عن منزل، أَي مَحَلّ حُجْرَة حتى صارت منازله كلها لرسول الله ﷺ وأَزواجه». «قال محمد بن عُمَر: «حَدَّثنا عبد الله بن يزيد الهُذَلِيّ قال: رَأَيْتُ بيوت أزواج النبي ﷺ حين هَدَمَها عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد بن عبد الملك، كانت بيوتاً من اللَّبِن، ولها حُجَر من جريد مَطْرُورَة بالطِّين، عَدَدْتُ تسعة أَبيات بِحُجَرِها، وهي ما بين بيت عائشة إلى الباب الذي يلي باب النبي ﷺ إلى منزل أَسماء بنت حَسَن اليوم. قال: ورأَيتُ بيت أُم سَلَمة زوج النبي ﷺ وحجرتها من اللَّبِن، فسأَلت ابن ابنها فقال: لما غزا رسول الله ﷺ دُومَةَ الجَنْدل بَنَتْ أُم سَلَمة حجرتها بلَبِن. فلما قَدِم النبي ﷺ نَظَر إلى اللَّبِن ودَخَل عليها أَول نسائه فقال: «ما هذا البناء»؟ فقالت: «أَردتُ يا رسول الله أَن أَكُفَّ أَبْصَارَ الناس». فقال: «يا أُم سَلَمة إن شَرَّ ما ذهب فيه مالُ المسلم البنيان»[(١)].

قال محمد بن عُمَر: فَحَدَّثْتُ بهذا الحديث مُعَاذ بن محمد الأَنصاري فقال: «سَمِعْتُ عَطَاء الخُرَاساني في مجلس فيه عمران بن أَبي أَنَس يقول وهو فيما بين القبر الشريف والمنبر المنيف: أَدْرَكْتُ حُجَر أَزواج النبي ﷺ [من جريد على أَبوابها المسوح من شَعَر أَسود، فحضرت كتاب الوليد بن عبد الملك يُقرأ، يأْمرنا بِهَدْم حُجَر أَزواج النبي ﷺ]، فما رأَيت يوماً كان أَكثر باكياً من ذلك اليوم. قال عطاء: «فسَمِعْتُ سعيد بن المُسَيَّب يقول يومئذ:

---

(١) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٤١٥٢١).

«والله لَوَدِدْتُ أنهم تركوها على حالها، ينشأ ناشِىءٌ من أَهل المدينة ويَقْدَم القادم من الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله ﷺ في حياته، فيكون ذلك مما يُزَهِّد الناس في التفاخر والتكاثر» قال معاذ: «فلما فرغ عطاء الخراساني من حديثه قال عمران بن أَبي أَنَس: كان فيها أَربعة أَبيات بِلَبِن، لها حُجَر من جريد، وكانت خمسة أَبيات من جريد مُطَيَّنة لا حُجَر لها، على أَبوابها مسوح الشَّعَر، ذَرَعْتُ الساتر فوجدته ثلاثة أذرع في ذراع وعظم الذراع أَو أَدنى من العظم. فأَما ما ذُكِر من البُكَاء يومئذ فلقد رَأَيْتُنِي في المسجد وفيه نَفَر من أَبناء أَصحاب النبي ﷺ منهم أَبو سَلَمَة بن عبد الرحمن بن عوف، وأَبو أُمَامة بن سهل بن حنيف، وخارجة بن زيد بن ثابت[1]، وإنهم لَيَبْكُون حتى أَخضلوا لِحَاهم من الدمع. وقال يومئذ أَبو أُمَامَة: «لَيْتَها تُرِكَتْ فلم تُهْدَم حتى يَقْصُلَ الناسُ عن البناء ويَرَوْا ما رَضِيَ الله لِنَبِيِّه ﷺ، ومفاتيح خزائن الدنيا بيده» وروى ابن سعد، والبخاري في الأدب، وابن أَبي الدنيا، والبيهقي في الشُّعَب عن الحَسَن البَصْرِي قال: «كنت وأنا مُراهِق أَدخل بيوت أَزواج النبي ﷺ في خلافة عثمان فأَتناول سقفها بيدي» وروى البخاري في الأَدب، وابن أَبي الدنيا، والبيهقي عن داود بن قيس قال: «رأَيت الحُجَر من جريد النخل تُغَشَّى من خارج بمسوح من الشعر، وأَظن عَرْضَ البيت من باب الحجرة إلى باب البيت نحواً من سِتّ أَو سَبْع أَذرع، وأَحْزِرُ البيت من الداخل عَشْر أَذرع، وأَظُنُّ سُمْكَهُ بين الثَّمانِ والسَّبْع».

وروى محمد بن الحسن المخزومي عن محمد بن هِلاَل قال: «أَدْرَكْتُ بيوت أَزواج النبي ﷺ، كانت من جريد مستورة بمسوح الشَّعَر، مستطيرة في القِبْلَة وفي المشرق وفي الشام، ليس في غربي المسجد منها شيء، وكان باب عائشة يُوَاجِه الشام وكان بمصراعٍ واحد من عرعر أَو ساج». وروى ابن مَنْدَه عن بشر بن صُحَار العبدي قال: «كنتُ أَدخل بيوت أَزواج النبي ﷺ فأَنال سقفها». وروى ابن سعد عن عمرو بن دينار، وعُبَيْد الله بن أَبي مرثد قالا: «لم يكن على عهد النبي ﷺ على بيته من حائط، فكان أَول من بنى عليه جداراً عمر بن الخطاب رضي الله عنه». قال عبيد الله: «كان جداره قصيراً ثم بناه عبد الله بن الزبير».

تنبيهان

الأَول: روى البخاري في تاريخه وفي الأَدب عن أَنَس رضي الله عنه، والبيهقي في المدخل عن المغيرة بن شعبة قال: «كان أَصحاب رسول الله ﷺ يقرعون بَابَه بالأَظافير تأَدباً

---

(١) خارجة بن زيد بن ثابت الأَنصاري أبو زيد أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ثقة. عن أَبيه وأسامة بن زيد وأمِّ العَلاء. وعنه الزُّهري وأبو الزِّناد. قال ابن المديني: مات سنة مائة، وقيل: قبلها بسنة، قاله القَلاَّس، ولما بلغ عمر بن عبد العزيز موته قال: ثُلْمَةٌ والله في الإِسلام. الخلاصة ٢٧٣/١.

وإجلالاً، وقيل إن بابه لم يكن له حَلَق يُطْرَق بها. قال السهيلي: الأَول أَوْلى.

الثانـي: فـي غريب ما سبق:

«الرَّضْـم»(١) - بفتح الراء والضاد المعجمة وتُسَكَّن -: حِجارة مجتمعة بعضها فوق بعض، الواحدة رَضْمَة.

«بَنَى» بفلانة: دَخَل عليها، وقال ابن السِّكِّيت زُفَّت إليه، وأَصله أَن الرجل إذا تزوج بنى للعروس بيتاً وجهزه بما يحتاج إليه، أَو بُنِي له تكريماً، ثم كَثُر حتى كُفِيَ به عن الجماع.

«الحُجَر»: غُرَف البيوت.

«المُسُوح»: جمع مِسْح وهو البَلاَس.

«مستطيرة» في القِبْلة: أَي مُنْتَشِرة.

«المِصْرَاع» من الباب: الشطر، وهما مِصْرَاعان.

«العَرْعَر» بفتح العينين وبالرَّائيْن المهملتين - قال في الصحاح: شجرُ السَّرْو.

«السَّاج» بالسين المهملة والجيم: ضَرْبٌ من الخشب، عظيمٌ من الشَّجَر، يُجْلَب من الهند، وجَمْعُها ساجات. قال الزمخشري: الساج خَشَبٌ أَسود رزين يُجْلَب من الهند ولا تكاد الأَرض تُبْلِيه، والجمع سيجان مثل نار ونيران.

«مطرورة»(٢) بالطين - بالطاء المهملة المُشَالَة -: أَي مُطَيَّنَة به.

«دُومَة الجَنْدَل» دُومَة - بضم الدال المهملة، والجَنْدَل بالجيم والنون والدال المهملة [حِصْن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلي طَيِّئ على سبع مراحل من دمشق].

«الأُفُق» بِضَمَّتَيْن: الناحية.

«يَنْشَأ»: يحدث وَيَتَجَدَّد.

«أَخْضَل» لِحْيَتَه، بخاء فضاد معجمتين: بَلَّها.

«مُرَاهِق»: مقارب الاحتلام.

«أَنال»: أَدرك وأَبلغ.

«المُغَشَّى»: المغطَّى المستور.

---

(١) انظر اللسان ١٦٦٣/٣.

(٢) انظر اللسان ٢٦٥٤/٤.

الباب الرابع

في بدء الأذان وبعض ما وقع فيه من الآيات

روى الشيخان والترمذي والنَّسائي عن ابن عُمَر، وابن إسحاق، وإسحاق بن راهويه، وأبو داود بسند صحيح صَحَّحَه النووي عن محمد بن عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، عن أبيه، وأبو داود بسَنَدٍ صحيح عن ابن عُمَر عن أَنَس بن مالك عن عمومة له من الأنصار رضي الله عنهم، وإسحاق بن راهويه عن الشَّعْبِي مُرْسَلاً بسَنَد حَسَن، وعبد الرَّزَّاق وأبو داود عن عُبَيْد ابن عمير أحد كِبَار التابعين، وابن أبي شَيْبَة، وأبو داود، وابن خُزَيْمَة، وأبو الشيخ، والدارقطني، والبيهقي، والطحاوي عن عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى قال: «حَدَّثَنَا أَصحابُنا. ولفظ ابن أبي شيبة وابن خزيمة والطحاوي والبيهقي: حدثنا، أصحاب رسول الله ﷺ - حين قَدِم المدينة إنما كان يَجْمَع للصلاة حين مواقيتها بغير دَعْوَة، فلما كَثُر الناس اهْتَمَّ النبي ﷺ كيف يجمع الناس للصلاة؟ فاستشار الناس، فقيل له: انْصِبْ رَايَةً عند حضور الصلاة إذا رَأَوْهَا أَعْلَم بعضُهم بعضاً، وَذُكِرَ له القُنْع[1] يعني شَبُّور[2] اليهود، وفي لفظ: البوق، وفي لفظ: القرن الذي يَدْعُونَ به لصلاتهم، فلم يعجبه ذلك وقال: «هو من أَمر اليهود»، فَذُكِرَ له الناقوس فقال: «هو من أَمر النصارى»، فقالوا: لو رفعنا ناراً، فقال: «ذلك للمجوس»[3].

وفي حديث عُمَر عند الشيخَيْن وغيرهما: فقال عُمَر: «أَوَلاَ تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة»؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا بِلاَل قُمْ فَنَادِ بالصلاة». فانصرف عبد الله بن زَيْد، وهو مُهْتَمّ لِهَمّ رسول الله ﷺ، فأُرِيَ الأَذان في منامه. قال: طاف بي وأنا نائم رجل عليه ثَوْبَان أَخْضَران يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله أَتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلتُ: نَدْعُو به إلى الصلاة. قال: أَفَلاَ أَدُلُّك على ما هو خَيْرٌ من ذلك؟ قلتُ: بَلَى. فقال:

---

(١) قال ابن الأَثير في النهاية في حديث الأذان «أنه اهتم للصلاة، كيف يجمع لها الناس، فذكر له القنع فلم يعجبه ذلك» فسر في الحديث أنه الشبور، وهو البوق هذه اللفظة قد اختلف في ضبطها، فرويت بالباء والتاء، والثاء والنون، وأشهرها وأكثرها النون. قال الخطابي: سَأَلْتُ عَنْهُ غير واحد من أهل اللغة فلم يثبتوه لي على شيء واحد، فإن كانت الرواية بالنون صحيحة فلا أَراه سُمِّي إلا لإقناع الصوت به، وهو رفعه. يقال: أَقْنَع الرجل صَوْته ورأسه إذا رفعه. ومن يريد أن ينفخ في البوق يرفع رأسه وصوته.. قال الزمخشري: «أو لأن أطرافه أقنعت إلى داخله: أي عطفت» وقال الخطابي: وأما «القبع» بالباء المفتوحة فلا أَحسبه سمي به إلا لأنه يقبع فم صاحبه: أي يستره، أو من قبعت الجوالق والجراب: إذا ثنيت أطرافه إلى داخل. قال الهروي: وحكاه بعض أهل العلم عن أبي عمر الزاهد: «الفتح» بالثاء قال: وهو البوق فعرضته على الأزهري فقال: هذا باطل. وقال الخطابي: سمعت أبا عمر الزاهد يقوله بالثاء المثلثة، ولم أسمعه من غيره. ويجوز أن يكون من: فتح في الأرض فتوحاً إذا ذهب، فسمي به لذهاب الصوت منه. قال الخطابي: وقد روى «القتع» بتاء بنقطتين من فوق، وهو دود يكون في الخشب الواحدة: قتعة. قال: مداد هذا الحرف على هيثم، وكان كثير اللحن والتَّحريف، على جلاله محلة في الحديث. النهاية ٤/١١٥، ١١٦ .

(٢) الشَّبُّور: هو البوق. وقال ابن الأَثير: اللفظةُ عِبْرَانِيَّة. انظر النهاية ٢/٤٤٠.

(٣) ذكره المتقي الهندي في الكنز (٢٣١٥٣).

تقول: «الله أكبر، الله أكبر - وفي لفظ الشعبي: إيت رسول الله ﷺ فَمُرْهُ أن يقول: - الله أكبر، الله أكبر - أشهد ألاّ إله إلا الله، أشهد ألاّ إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسولُ الله، أشهد أن محمداً رسولُ الله، حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح، حَيَّ على الفلاح، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله» - وفي رواية إسحاق بن راهويه: فقام على جِذْم حائط[1]، وفي رواية: فقام على المسجد فأذَّن - قال: ثم استأخر عَنّي غير بعيد ثم قال: تقول إذا أقيمت الصلاة: الله أكبر، الله أكبر، أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسولُ الله، حَيَّ على الصلاة، حَيَّ على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله». وفي رواية: «فأذَّن ثم قَعَد قَعْدَة، ثم قام فقال مِثْلَها إلا أنه يقول: قد قامت الصلاة، فلما أصبحت أتيتُ رسول الله ﷺ فأخبرتُه بما رأيت، ولولا أن يقول الناس، لَقُلْتُ إني كنت يقظاناً غير نائم».

وفي حديث ابن عُمَر رضي الله عنه عند ابن ماجة أن عبد الله بن زيد أتى رسول الله ﷺ ليلاً. وفي حديثه أيضاً عند ابن سعد «أن رسول الله ﷺ أراد أن يجعل شيئاً يَجْمَع به الناس للصلاة فذُكِر عنده البوق وأَهْلُه فكرهه، وذُكِر الناقوس، وأهلُه فكرهه، حتى أُرِيَ رجل من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد الأذانَ، وأُريه عمر بن الخطاب تلك الليلة فأما عُمَر رضي الله عنه فقال: إذا أصبحت أخبرت رسول الله ﷺ، وأما الأنصاري فطرق رسول الله ﷺ ليلاً فأخبره. فقال رسول الله ﷺ: «إنها لرؤيا حق إن شاء الله تعالى»[2]. وفي رواية: «لقد أراكَ اللهُ خيراً، فَقُمْ مع بِلالَ فَألْقِ عليه ما رأيت». وفي رواية «فَمُرْ بِلالاً فَلْيُؤَذِّن فإنه أنْدَى منك صوتاً» فقُمْتُ مع بِلال فجعلتُ أُلْقِيه عليه ويُؤَذِّن به. فسَمِع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فخرج يَجُرّ رداءه وهو يقول: «والذي بَعَثَكَ بالحق يا رسول الله لقد رأيت مثل الذي رأى».

وفي حديث أبي عُمَيْر بن أنس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان رآه فَكَتَمَه عشرين يوماً. وفي حديث عُبَيْد بن عُمَيْر: «فبينما عمر بن الخطاب يريد أن يشتري خَشَبَتَيْن للناقوس إذ رأى في المنام: «لا تجعلوا الناقوس بل أَذِّنوا»، فذهب عُمَر ليخبر النبي ﷺ بالذي رأى، وقد جاء الوَحْي فما راع عُمَرَ إلا بِلال يُؤَذِّن. قال عبد الله بن زيد: فقال رسول الله ﷺ لعُمَر: «ما مَنَعَك أن تخبرني»؟ فقال: سبقني عبد الله بن زيد فاسْتَحْيَيْتُ. فقال رسول الله ﷺ: «فلِلّه الحمد فذلك ثَبَت»[3]. قال الزهري، ونافع بن جُبَيْر، وابن المُسَيَّب: وبقي

---

(١) جِذْم حائط: أي بقيّة حائط أو قِطْعَة من حائط. انظر النهاية ١/٢٥٢.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٩) وأحمد في المسند ٤/٤٣ والبيهقي في السنن ١/٣٩٩ وابن حبان (٢٨٧) والدارمي ١/٢٦٩ وابن ماجه (٧٠٦).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨) وذكره المتقي الهندي في الكنز (٢٣١٤٥).

ينادي في الناس: «الصلاة جامعة».للأمر يحدث فيحضرون له يُخبَرون به وإن كان في غير وقت صلاة. وروى ابن ماجة عن شيخه أبي عبيد محمد بن عبيد، بن ميمون المدني قال: أخبرني أبو بكر الحكمي أن عبد الله بن زيد قال في ذلك شِعْراً

أَحْمَدُ اللهَ ذا الجَلاَلِ والإ كْرَام حَمْداً على الأذان كَثِيرَا

إِذ أتاني به البشير من اللـ ـه فَأَكْرِمْ به لَدَيَّ بَشيرَا

في لَيالٍ وَالَى بِهِنَّ ثلاثٌ كُلَّما جَاء زادني تَوْقِيرا

قال الحافظ ابن كثير: «وهذا الشِّعْر غريب، وهو يقتضي أنه رأى ذلك ثلاثَ ليالٍ حتى أخبر به رسول الله ﷺ». قلتُ: سَنَدُهُ منقطع وأبو بكر الحكمي مجهول. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان رجل من اليهود تاجراً إذا سمع المنادي ينادي بالأذان قال: «أحرق الله الكاذب». فبينما هو كذلك إذ دخلت جارية بشعلة من نار فطارت شرارة منها في البيت فأحرقته. وروى ابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السُّدِّي قال: «كان رجل من النصارى إذا سمع المنادي ينادي: أشهد أن محمداً رسولُ الله قال: أحرق الله الكاذب: فدخلت خادمة ذات ليلة من الليالي بنارٍ وهو نائم وأهْلُه نيام فأحرقت البيت واحترق هو وأهله».

وروى مسلم عن سهيل بن أبي صالح قال: أرسلني أبي إلى بني حارثة ومعي غلام لنا [أو صاحب لنا] فناداه مُنَادٍ من حائط باسمه، فأشرف [الذي معي] على الحائط، فلم يَرَ شيئاً، فذكرت ذلك لأبي، فقال: [لو شَعَرْتُ أنك تَلْقَى هذا لم أُرْسِلْكَ ولكن] إذا سَمِعْتَ صوتاً فَنَادِ بالصلاة، فإنِّي سَمِعْتُ أبا هريرة يُحَدِّث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الشيطان إذا نُودِيَ بالصلاة وَلَّى وله حُصَاص»(١). وروى البيهقي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «إذا تَغَوَّلَتْ لأحدكم الغيلان فَلْيُؤَذِّن فإن ذلك لا يَضُرُّه». وروى البيهقي عن الحَسَن أن عُمَر بَعَث رجلاً إلى سعد بن أبي وَقَّاص، فلما كان ببعض الطريق عَرَضَتْ له الغول، فأخبر سَعْداً فقال: «إنا كُنَّا نُؤْمَر إذا تَغَوَّلَتْ لنا الغُول أن ننادي بالأذان». فلما رَجَع إلى عُمَر عَرَض له أن يسير معه، فنادى بالأذان، فذهب عنه، فإذا سكت عَرَض له، فإذا أَذَّن ذهب عنه.

تنبيهات

الأول: الأذان لُغَةً: الإعلام، قال الله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة ٣]

(١) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة (١٦) وأحمد في المسند ٤٨٣/٢ والبيهقي في الدلائل ١٠٣/٧ والحاكم ١١٩/٤ وابن خزيمة (٣٩٣).

واشتقاقه من الأَذَنِ بِفَتْحَتَيْنِ وهو الاستماع، وشرعاً: الإعلام بوقت الصلاة المفروضة بألفاظ مخصوصة.

الثانــي: في بعض أَسرار الأَذان وبدائعه، قال القاضي: «الأَذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملةٌ على نَوْعَيْه من العقليات والسمعيات، فَأَوَّلُهُ إِثبات الذات، وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أَضدادها، وذلك بقوله: «الله أَكبر»، وهذه اللفظة مع اختصارها دَالَّةٌ على ما ذكرناه، ثم صَرَّح بإثبات الوحدانية ونَفْي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى، وهذه عُمْدَةُ الإيمان والتوحيد المُقَدَّمَةِ على كل وظائف الدين ثم صَرَّح بإثبات النبوة والشهادة بالرسالة لنبيه ﷺ، وهي قاعدة عظيمة بعد الشهادة بالوحدانية، وموضعها بعد التوحيد لانها من باب الأَفعال الجائزة الوقوع، وتلك المقدمات من باب الواجبات. وبعد هذه القواعد كَمُلَت العقائد العقليات فيما يجب ويستحيل ويجوز في حقه سبحانه وتعالى. ثم دعاهم إلى ما دعاهم الله إليه من العبادات، فدعاهم إلى الصلاة، وعَقَّبها بعد إثبات النبوّة لأَن معرفة وجوبها من جهة النبي ﷺ لا من جهة العقل. ثم دعا إلى الفَلاَح، وهو الفَوْز والبقاء في النعيم المُقِيم، وفيه إشعار بأُمور الآخرة من البعث والجزاء، وهي آخر تراجم عقائد الإسلام. ثم كَرَّر ذلك بإقامة الصلاة للإعلام بالشروع فيها، وهو مُتَضَمِّن لتأْكيد الإيمان، وتكرار ذِكْره عند الشروع في العبادة بالقلب واللسان، وليدخُلَ المُصَلِّي فيها على بَيِّنَةٍ من أَمره وَبَصِيرة بإيمانه، ويستشعر عظيم ما دخل فيه وعَظَمة حق من يعبده وجزيل ثوابه». انتهى كلام القاضي. قال النووي: «وهو من النفائس الجليلة» وبالله التوفيق.

قلتُ: قد أَلَّف الإمام الحافظ برهان الدين البقاعي(١) رحمه الله جزءاً لطيفاً في أَسرار الأَذان سَمَّاه «الإيذان بفتح أَسرار التَّشَهُّد والأَذَان». وأَنا مُورِدٌ هنا ما ذكره في الأَذان ليُسْتَفَاد فإنه نفيس جداً.

قال رحمه الله بعد أَن أَورد أَحاديث بعض الأَذان والتشهد: «مقصودُه ـ أَي الأَذان ـ الإعلام بأَوقات الصلاة تنبيهاً على أَن الدين قد ظَهَر، وانتشر عَلَمُ لوائه في الخافقين واشتهر، وسار في الآفاق على الرؤوس فَبَهَر، وأَذَلَّ الجبابرة وقَهَر وأَعْلَمَ أَنه لما كان الدين المحمدي دين الإسلام الذي لا يَقْبَلُ الله من أَحد ديناً غَيْرَه، قد عَلاَ على كل دين، فَظَهرَ كُلُّ مُخَالِف،

(١) إبراهيم بن عمر بن حسن الرُّبَاط بن علي بن أبي بكر البقاعي، أبو الحسن برهان الدين: مؤرخ أديب. أصله من البقاع في سورية، وسكن دمشق ورحل إلى بيت المقدس والقاهرة، وتوفي بدمشق. له «عنوان الزمان في تراجم الشيوخ والأقران»، و «عنوان العنوان» مختصر عنوان الزمان، و «أسواق الأشواق» اختصر به مصارع العشاق، و «الباحة في علمي الحساب والمساحة» و «أخبار الجلاد في فتح البلاد» و «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور» و «بذل النصح والشفقة للتعريف بصحبة ورقة» وله ديوان شعر سماه «إشعار الواعي بأشعار البقاعي». توفي ٨٨٥هـ. الأعلام ١/٥٦.

وخفقت راياته بعد أن كانت خَفِيَّة، وانتشرت أعلام أَلْوِيَتِهِ بعد أن كانت مَلْوِيَّة، وبِعُتَاةِ أَهل الأَباطيل مَطْوِيَّة. وقد كان الشِّرْكُ منذ أَزمان في غاية الظهور، والباطل هو المعمول به والمشهور، فَتَنَاسَبَ أَن يُصَرَّح بأَذَانِهِ، ويُشْدَى به على غاية إعلانه، ولما كانوا يشركون به سبحانه، ويَتَعَبَّدُون بسواه، كان نَسَب الأُمور البَدَائِه بالتنبيه على تَفَرُّدِهِ بالكِبْرِيَاء، وتَوَحُّدِه بالعَلاَء، فقال بادئاً بالاسم الأَعظم، الدَّالّ على الذَّات، المُسْتَجْمع لجميع الكمالات: «الله» أَي المَلِك الذي لا كُفء له ولا سَمِيّ، ولا ضِدّ ولا نظير، وأَتى بالخَبَر نَكِرَةً لِيَدُلّ على إسناده إليه على الإطلاق، وأَنه لا خَفَاء في انفراده بذلك، فقال: «أَكبر»، ولم يَذْكُرْ مُتَعَلَّقاً، ذَهَاباً بالتعميم إلى أَعلى الغايات وأَنْهَى النهايات ولما كان قد طال ما قَرَّر الشِّرْكُ في الأَذهان، وَصَالَ به أَهْلُ الطُّغْيَان، اقتضى الحالُ تَأْكِيدَ ذلك، ولأَجل هذا ثَنَّى التكبيرَ في الإقامة مع أَنها فُرَادَى.

«ولما كان المراد من جميع كلمات الأَذان مُجَرَّدَ الإعلام بالوقت وبهذه المقاصد المُرَاد بها نسْخُ ما عداه، قال مُؤَكِّداً من غير عَطْف لشيءٍ من الجُمَل: «الله أَكبر». ولما كان الحال من جميع الأَكوان شديد الاقتضاء، لم يُذْكَر التأْكيد لتطاول أَزمان الشِّرْك قال مُلَذِّذاً لأَسماع الموجودات، ومُرْوِياً لِعِطَاش أَكباد الكائنات: «الله أَكبر». ولما تَمَّ تقرير ذلك في الأَذهان، وعُلِم عِلْماً تاماً أَن التوحيد قد عَلاَ، وقهر جميعَ الأَديان، ارتقب كُلُّ سامعٍ ما يُقَال بعده، فقال مبتدئاً دَوْراً جديداً من هذا الإعلام لمزيد التقرير عند جميع الأَنام: «الله أَكبر».

«فلما عُلِم أَن ذلك إلى غير نهاية، ولا حَدَّ تَقِفُ عنده كُلُّ غاية، قال مُتَرْجماً لما أَنْتَجَه، مُلَقِّناً لكل سامع ما وَجَب عليه من الجواب، مُسِرًّا بذلك بَعْضَ الأَسرار، إعلاماً بما كان من حال هذا الدِّين في أَول الأَمر، بُرْهاناً على حُسْن هذا التأْكيد: «أَشْهد» أَي أَعْلَمُ عِلْماً قَطْعِيًّا أَني في مُرِيد بَصَرِي كالناظر إلى مَحْسُوس هو في غاية الجَلاَء: «أَلاَّ إِله إلاَّ الله». ولما كان المَقَام كما مَضَى شدِيدَ الاقتضاء للتأْكيد قال ثانياً: «أَشْهَدُ أَلاَّ إِله إلا الله».

«فلما أَخذ المَقَامُ حَظَّهُ من التأْكيد، ولم يَحْتَجْ إلى مَزِيد، فتَلَقَّى ذلك بالقَبُول العَبِيد، فَثَبَتَتْ رسالةُ الذي أَتى بهذا الدِّين، وجاهد به الجاحدين، حتى قَهَرَهُم وَحْدَه صاغِرين أَجمعين، قال على طريق النتائج المُسَلَّمَة: «أَشهد أَن مُحَمَّداً» ـ ذاكراً أَشْهَرَ أَسمائه وأَطيبها وأَظهرها ـ «رسولُ الله»، مُخَصِّصاً وَصْفَ الرِّسَالةِ الذي هو بين الحَقّ والخَلْق، لأَن المَقَامَ داعٍ إليه، ومَقْصُورٌ عليه، ثم أَتْبَعَ ذلك بما اقتضاه الحال من تأْكيده في تَعْظِيمه وتَمْجِيده فقال: «أَشْهَدُ أَن محمداً رسولُ الله». فلما أَخَذَ المَقَامُ حَظَّه من التأْكيد للإعلام، بما كان فيه للإسلام من الشدائد والآلام، أَتْبَعَه ما اقتضاه الحال، من رَفْع الصَّوْت بهذا المقال مُشِيراً مع ذلك إلى أَن باطِنَ الدِّين وظَاهِرَهُ سواء. ليس فيه حقيقة تُخَالِفُ شريعة، وخاصة أَن المُتَشَرِّعَ به يجب

عليه أَن يكون مِثْلَ الشَّرْعِ، ظَاهِرُه وبَاطِنُه سواء، لا نِفَاق فيه بوَجْهٍ أَصْلاً، فقال: «أَشهد أَلا إِلٰه إِلا الله».

«فلما استقرَّ في الأَذهان سِرُّ هذا الإِعلان، أَتْبَعَهُ ما اقتضى الحال من الشهادة للآتي بهذا الدِّين من صِدْق المَقَال، في دَعْوَى الإِرسال، فقال: «أَشهد أَن محمداً رسولُ الله»، ثم أَكَدَّه كما مضى فقال: «أَشهد أَن محمداً رسولُ الله». ولما ثَبَتَ ذلك، وَانجَلَتْ دَيَاجير تلك الأمور الحَوَالِك، فَتَيَسَّرَ السُّلُوكُ لكل سالك، في أَشرف المسالك، قال ذاكِراً لما آثرته الرسالة من الخلاص من أَشْرَاك الضلالة، والرَّدّ على طُرُقها المَيَّالة، وأَوديتها المُغْتَالَة: «حَيَّ على» - أَي هَلُمُّوا أَقْبِلُوا جَهَاراً غَيْرَ خائفين من أَحَد - إِلى «الصلاة»، بادئاً بما هو نِهَايَةُ الدِّين، الجَامِع لشَمْلِه، المُمَيِّزُ لأَهْلِه.

«ولما كان الناظر لذلك الحال، يستدعي عَجباً من الوصول إِلى هذا المآل، قال مُؤَكِّداً: «حَيَّ على الصلاة». فلما تَقَرَّر ذلك كان كأَنه قيل: هل من عَمَل غيرها؟ فقال: «حيَّ على الفَلاَح»، فكان ذلك، مع أَنه دعاءٌ إِلى كل عمل يوجب الفوز والظَّفَر بكل مُرَاد مُؤَكِّداً للدُّعَاء إِلى الصلاة على أَبلغ وَجْه.

«ولا شَكَّ أَنه أَحْسَن مما ورد في بعض الآثار الموقوفة في المُوَطَّأ، رواية محمد بن الحَسَن، وجاء مع عبد الرَّزَّاق عن ابن عُمَر رضي الله عنهما، وصَرَّح الحُفَّاظ بأَنه لم يَثْبُتْ عن النبي ﷺ قَوْلُه: «حَيَّ على خَيْرِ العَمَل»، لأَنه مع كونه لم يثبت عن النبي ﷺ فقد صار شعار الرَّوَافِض لا يشمل جميع الأَعمال الصالحة، وكان الوارد في الصحيح أَبلغ من وجهين: من جهة أَنه شاملٌ لكل خير، ومن جهة التعبير عن ذلك باللازم الذي هو الغاية المترتبة على العمل تحبيباً فيه، وتشويقاً إِليه، مع أَنه كان يقوله بعد: حَيَّ على الفلاح».

«ولما كان تطاول الصَّوْلَة بالإِذلال والقَهْر، مُوجِباً لاستبعاد الإِقبال على كل عمل من أَعمال الشَّرْع على سبيل القَهْر، أَكَّد هذا الكلام الدَّاعي إِلى كل خير لهذا وللإِشارة إِلى أَنه لِحُسْنِه جَدِيرٌ «بالتأكيد، وأَهْلٌ لأَن يُعْرَف بمقدار لجلالة آثاره، فقال: «حَيَّ على الفلاح»، وفيه إِشارة إِلى أَن الأَمر خطير، والطريق صَعْب، فلا بُدَّ من التَّأَهُّب له بأَعظم الزَّاد، لتحصل الراحة في المآل والمَعَاد.

«ولما كان المَدْعُو قد يكون نائماً، وكان النوم قد يكون خيراً، إما بأَن يكون القَصْدُ به رَاحةَ البَدَن للتَّقَوِّي على الطاعة، أَو أَن يكون للتَّخَلِّي عن المعصية، وكان أَكثر ما يكون ذلك في آخر الليل، كان التثويب خاصًّا بأَذان الصبح، فقال فيه: «الصلاة» ــ التي هي أَعظم الفلاح، ومن أَعظم مقاصد هذا الأذان الإِعلامُ بوقتها والدُّعاءُ إِليها - «خَيْرٌ من النوم». ولما كان مَنْ يَغْلِبُهُ

النوم مُحتاجاً إلى الإزعاج، أكَّد ذلك بالتكرير، فقال: «الصلاة خير من النوم». ولما كان للصبح أذانان كان التثويب ربما كان في الأول، فكان دُعَاءً إلى قيام الليل الذي شُرِّع له ذلك الأذان، كما بَيَّنَ سِرَّه في بعض الروايات في قوله: «لِيَرْجِعَ قائِمُكُمْ وَيُنَبِّهَ نائِمُكُمْ». وربما كان في الثاني، فكان دُعاءً إلى فَرْض الصبح، وهو بالأول أنسب، لأن الفَرْضَ له حاثٌّ يَحُثُّ عليه، وداعٍ مُلِحٌّ يدعو إليه، وهو الوجوب الذي مَنْ أَخَلَّ به عُوقِب، ومَنْ جاوز حَدَّهُ لِيمَ وعُذِّب.

«ولما تَمَّ الدِّينُ بجُمْلَته، وكَمُل أصلاً وفرعاً، قولاً ونيةً وعَمَلاً، بِرُمَّتِه، علَّل الدُّعاءَ إليه مُرَغِّباً مُرَهِّباً، بقوله، مُذَكِّراً بما بَدَأَ الأمْرَ به، لاستحضار عظمته التي أظهر بها الدِّين، وأَذَلَّ بها المعتدين، بعد أن كانوا على ثقة من أنه لا غالب لهم، «الله أكبر»، ثم أكَّد بمسيس الحاجة إلى ذلك في الترغيب والترهيب، فقال: «الله أكبر»». فلما تَمَّ الأمر، وَجَلاَ التشويق والزَّجْر، لم تَدْعُ حَاجَةٌ إلى تربيع التكبير هنا كما كان في الأول، فَخَتَمَ بما بدأ به من التوحيد إعلاماً بأنه لا يُقْبَل شيءٌ من الدِّين إلا به مُقَارِناً له من ابتدائه إلى انتهائه، فقال: «لا إله إلا الله».

«ولما كان قد وصل إلى حَدٍ لا مَزِيد عليه، لم يَحْتَجْ إلى تأكيد، حتى ولا بلفظ الشهادة إعلاماً بأنه ليس وراء هذا إلا السيف لو تَوَقَّف عنه، أو ما عَانَدَ فيه. ولما كان من أَجَلِّ ما يُرادَ بالأذان - كما مضى - الإعلام بظهور الإسلام على جميع الأديان، وأنه قد أَوْرَقَ عُودُه، وزكا وجودُه، وثَبَتَ عَمُودُه، وَعَزَّ أنصارُه وجنودُه، جاء على سبيل التعديد، والتقرير والتأكيد، من غير عاطفٍ ولا لافِتٍ عن هذا المُرَاد ولا صارِف تنبيهاً على أن كُلَّ جُملَةٍ منه رُكْنٌ برأسه، مُسْتَقِلٌ بذلك بنفسه، مُعْرِبٌ عما هو المُرَاد من الإظهار بالتَّعْدَاد.

«هذا ما شرحه الله تعالى لعباده من الأَذَان في حال النوم واليقظة، في الليل والنهار، على وفاءٍ لا مزيد عليه، كما صَرَّح به في قوله - ﷺ -: «اللهم رَبَّ هذه الدعوة التامَّة، فمن زاد حَرْفاً فما فوقه فقد أساء وتَعَدَّى وظَلَم». ومن الواضح البَيِّن أن المعنى في إجابة السامع لألفاظه بها الإيذان باعتقاده، والإذعان لمُرَادِه، وأنه تخصيص الجواب في الدعاء إلى الصلاة والفَلاَح، بالحوقلة، والمراد بها سؤال المعونة على تلك الأفعال الكرام بالتَّبَرُّؤ من القدرة على شيء بغير تقدير الله، رَدًّا للأمر إلى أهلِه، وأَخْذاً له من مَعْدِنِه وأَصْلِه، والإقامة فرادى، لأنه لما ثَبَت بالأذان أَمْرُ الوحدانية والرسالة، وعَلِم المَدْعُوُّ ما نُسِب إليه، صار الأَمْرُ غَنِيًّا عن التأكيد، فلم يَحْتَجْ إلى غير الإعلام بالقيام إلى ما قد دُعِيَ إليه، وأُعْلِم بوقته، وأكَّد التكبير بما ذكر في الأذان نَوْعَ تأكيد لما تَقَدَّم من مزيد الاهتمام والإقامة لإسراع مَنْ عنده بَعْضُ غَفْلَةٍ أو تَوَانٍ». انتهى.

الثالث: اخْتُلِف في السنة التي فيها شُرِع [الأذان]. قال الحافظ: «والرَّاجح أنه كان في السنة الأولى، وقيل: بل في الثانية».

الرابع: قول ابن عُمَر: فقال عُمَر: «أَوَ لا تبعثون رجلاً منكم يُنَادِي بالصلاة». فقال

رسول الله ﷺ: «يا بِلال قُمْ فنادِ بالصلاة». قال النووي: هذا الدعاء دُعاء إلى الصلاة غير الأذان وكان قد شُرِّع قبل الأذان. قال الحافظ: والظاهر أن إشارة عُمَر بإرسال رجل ينادي بالصلاة كان عَقِب المشاورة فيما يفعلونه، وأن رؤيا عبد الله بن زيد كانت بعد ذلك. وكان اللفظ الذي يُنَادِي به بلال هو «الصلاة جامعة»، كما رواه ابن سعد، وسعيد بن منصور عن سعيد بن المُسَيَّب مُرْسلاً. وقد وقع للقاضي أبي بكر العربي هنا كلامٌ غير مُحَرَّر طَعَنَ فيه في صحة حديث ابن عُمَر الثابت في الصحيح» وقد بسط الحافظ الكلام على رَدِّه.

الخامس: روى الطبراني أَن أَبا بكر الصدِّيق رضي الله عنه رأَى الأَذان، وسَنَدُه واهٍ، ووقع في الوسيط للغزالي أَنه رآه بضعة عشر رجلاً. وعبارة الجيلي في شرح التنبيه: أَربعة عشر رجُلاً وأَنكره ابن الصلاح[١] [فقال: لم أَجد هذا بعد إمعان البحث] ثم النووي [في تنقيحه فقال: هذا ليس بثابت ولا معروف وإنما الثابت خروج عُمَر يَجُرُّ رداءه]، ونقل مغلطاي عن بعض كتب الفقهاء أَنه رآه سبعة عشر رجلاً من الأنصار. قال الحافظ: «الحق أَنه لا يثبت شيء من ذلك إلا لعبد الله بن زيد، وقصة عُمَر جاءت في بعض الطرق».

وروى الحافظ ابن أَبي أُسامة عن كثير بن مُرَّة[٢] أَن رسول الله ﷺ قال: أَوَّلُ من أَذَّن بالصلاة جبريل في السماء فسمعه عُمَر وبلال، فسَبَقَ عُمر بلالاً، فأَخبر النبي ﷺ، ثم جاء بلال، فقال: «سَبَقَك بها عُمَر»[٣]. وَسَنَدُه /واهٍ جداً، في سنده سعيد بن سِنان[٤]، قال الذهبي في المغني: «متروك مُتَّهَم».

السادس: وردت أَحاديث تَدُلّ على أَنّ الأَذان شُرِع بمكة قبل الهجرة، منها للطبراني عن عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما، قال: «لما أُسْرِيَ برسول الله ﷺ أَوحى الله تعالى إليه:

---

(١) عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبي نصر، الإمام العلامة مفتي الإسلام، تقي الدين، أبو عمرو بن الإمام البارع صلاح الدين أبي القاسم، النصري - نسبة إلى جده أبي نصر - الكردي، الشهرزوري الأصل، الموصلي المربا، الدمشقي الدار والوفاة. ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة بشهرزور، وتفقه على والده، قال ابن خِلّكَان: كان أحد فضلاء عصره في التفسير والحديث والفقه. وقال ابن الحاجب: إمام ورع، وافر العقل، حسن السمت، متبحر في الأصول والفروع. ويحكى عنه أنه قال: ما فعلت صغيرة في عمري. ومن تصانيفه: مشكل الوسيط في مجلد كبير وكتاب الفتاوى كثير الفائدة، وعلوم الحديث، وكتاب أدب المفتي والمستفتي. توفي بدمشق في حصار الخوارزمية في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وستمائة. الطبقات لابن قاضي شهبة ٢/١١٣، ١١٤، ١١٥، وطبقات الشافعية للسبكي ٥/١٣٧، ووفيات الأعيان ٢/٤٠٨ والطبقات لابن هداية الله ص ٨٤ والبداية والنهاية ١٣/١٦٨.

(٢) كثير بن مُرَّة الحَضْرَمي أبو القاسم الرُّهَاوِي ثم الحمصي تابعي. عن عُمَر ومُعَاذ وعنه خالد بن مَعْدان ويزيد بن أبي حَبِيب. وثقه العجلي. قال أبو مُسْهِر: مات في خلافة عبد الملك.

(٣) انظر فتح الباري ٢/٧٨.

(٤) سعيد بن سنان البرجي الشَّيْبَاني أبو سنان الكوفي الأَصغر نزيل قزوين. عن طاوس والضحاك. وعنه الثوري. وثَّقهُ ابن معين وأبو حاتم. قيل: مات قبل الستين ومائة. الخلاصة ١/٣١٨.

بالأذان، فنزل به، فعَلَّمه بلالاً، وفي سَنَدِهِ، طَلْحَة بْن زيد الرَّقِّي هالك. قال الحافظ أبو الفرج بن رجب: هذا حديث موضوع بهذا الإسناد بغير شك، قلت: وبغيره أيضاً. ولابن شاهين عن علي بن أبي طالب: «عَلِمَ رسول الله ـ ﷺ ـ الأذان ليلةَ أُسْرِي به وفُرِضَتْ عليه الصلاة»، وفي سَنَدِهِ حصين بن مُخَارِق، وهو وَضاع. وللدارقطني في الأفراد، وعن أنس رضي الله عنه «أن جِبْرِيل أَمَرَ النبي ـ ﷺ ـ بالأذان حين فُرِضت الصلاة»، وسَنَده ضعيف.

ولابن مَرْدَوِيه من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «لما أُسْرِيَ بي أَذَّن جبريل، فَظَنَّت الملائكة أنه يُصَلِّي بهم، فقَدَّمني فصَلَّيْت»، وفي سنده من لا يُعْرَف. وقال الذهبي في مختصر الإمام، أصل الإلمام لابن دقيق العيد[1]: «هذا حديث منكر بل موضوع». وللبَزَّار وغيره من حديث قال: «لما أراد الله عز وجل أن يُعَلِّم رسولَه الأَذَان أتاه جبريل بدابَّة يقال لها البُرَاق فركبها [حتى أتى الحجاب الذي يلي الرحمن، فبينما هو كذلك إذ خرج مَلَكٌ من الحجاب، فقال: يا جبريل من هذا؟ قال: والذي بَعَثَكَ بالحق إني لأقرب الخلق مكاناً وأن هذا المَلَك ما رأيته منذ خُلِقت قبل ساعتي هذه فقال المَلَك: الله أكبر، الله أكبر، فقيل من وراء الحجاب: صدق عبدي، أنا أكبر، أنا أكبر]، فذكر بقية الأذان، وفي آخره: «ثم أخذ المَلَك بيده فَأَمَّ أَهل السماء..» وفي إسناده زياد بن المنذر[2] وهو متروك أيضاً. وقال ابن معين[3]: عدو الله كذَّاب. وقال الذهبي: «هذا من وَضْعه». وقال ابن كثير: «هذا الحديث الذي زعم السهيلي أنه صحيح هو منكر، تَفَرَّد به زياد بن المنذر الذي تُنْسَب إليه الفِرقة الجارودية من الرافضة وهو

---

(١) محمد بن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري، الشيخ الإمام، شيخ الإسلام تقي الدين أبو الفتح بن الشيخ القدوة العالم مجد الدين المنفلوطي المصري ابن دقيق العيد. وُلِدَ في شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة. وكان والده مالكي المذهب ثم تفقه على الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فحقق المذهبين وقال ابن كثير في طبقاته: أحد علماء وقته، بل أجلهم، وأكثرهم علماً وديناً، وورعاً وتقشفاً، ومدوامة على العلم في ليله ونهاره، مع كبر السن والشغل بالحكم. وله التصانيف المشهورة والعلوم المذكورة، برع في علوم كثيرة لا سيّما في علم الحديث، فاق فيه على أقرانه، وبرز على أهل زمانه، رحلت إليه الطلبة من الآفاق ووقع على علمه وورعه وزهده الاتفاق، ومن تصانيفه الإلمام في الحديث، وتوفي ولم يبيضه، وكتاب الإمام ـ بهمزة مكسورة بعدها ميم ـ شرح الإلمام، الكتاب الكبير العظيم الشأن. توفي في صفر سنة اثنتين وسبعمائة، ودقيق العيد لقب لجده وهب. الطبقات لابن قاضي شهبة ٢/٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، والطبقات للإسنوي ص ٣٣٦، والطبقات للسبكي ٦/٢، وفوات الوفيات ٢/٢٤٤.

(٢) زياد بن المنذر الهَمْدَاني. وقيل: الثقفي. ويقال: النهدي، أبو الجارود الكوفي الأعمى. عن أبي بُردة، والحسن. وعنه مروان بن معاوية، ومحمد بن سنان العَوَقي. وعدّة. قال ابن معين: كذاب. وقال النسائي وغيره: متروك. وقال ابن حبان: كان رافضيًا يضَعُ الحديث في الفضائل والمثالب. وقال الدارقطني: إنما هو منذر بن زياد. متروك. وقال غيره: إليه ينتسب الجارُودِيّة ويقولون: إن علياً أفضَلُ الصحابة وتبرؤوا من أبي بكر وعُمر، وزعموا أن الإمامة مقصورةٌ على ولد فاطمة. وبعضُهم يرى الرجعةَ ويبيح المتعة. ميزان الاعتدال ٢/٩٣.

(٣) يحيى بن مَعين بن عَوْن الغَطَفَاني أبو زكريا البغدادي الحافظ الإمام العلم. قال أحمد: كل حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث. قال ابن أبي خَيْثَمَة: مات بالمدينة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين، وحمل على أعواد النبي ﷺ ونودي بين يديه هذا الذي يذبّ الكذب عن رسول الله ﷺ. الخلاصة ٣/١٦١.

من المتهمين، ولو كان النبي - ﷺ - سَمِعَه ليلة الإسراء لأَمر به بعد الهجرة». ولابن شاهين من طريق زياد المذكور، قال: «قلت لابن الحنفية: كنا نتحدث أَن الأَذان كان رؤيا، فقال: هذا واللهِ الباطل، لكن رسول الله - ﷺ - لما عُرِجَ به بُعِثَ إِليه مَلَك علَّمه الأَذَان». قال [الحافظ ابن حجر]: «هذا باطل ويمكن على تقدير صحته أَن يُحْمَل على تَعَدّد الإِسراء، فيكون ذلك وقع بالمدينة، وأَما قول القرطبي لا يلزم من كونه سمعه ليلةَ الإِسراء أَن يكون مشروعاً في حقه، ففيه نَظَر لقوله في أَوله: «لما أَراد الله أَن يُعَلِّم رسوله الأَذان»، وكذا قول المحب الطبري، يُحْمَل الأَذَان ليلة الإِسراء على المعنى اللغوي وهو الإِعلام، [وهذا] فيه نَظَر أَيضاً لتصريحه بكيفيته المشروعة فيه».

ولابن شاهين من طريق زياد أَيضاً عن الباقر عن أبيه عن أَبي رافع عن علي رضي الله عنه أَنه قال: قال رسول الله - ﷺ -: «يا عليّ إِن الله عَلَّمني الصلاة والأَذان، أَتاني جبريل بالبُرَاق»؛ وزياد [رَاوِيه] كَذَّاب. ولأَبي الشيخ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزل الأَذان على رسول الله ﷺ مع فَرْض الصلاة»، وفي سنده عبد العزيز بن مروان[1]، وهو تالف. قال الحافظ: «والحق أَنه لا يَصِحّ شيء من هذه الأَحاديث، وقد جزم ابن المنذر «أَنه - ﷺ - كان يُصَلِّي بغير أَذان، منذ فُرِضَت الصلاة بمكة إِلى أَن هاجر إِلى المدينة وإِلى أَن وقع التشاور في ذلك على ما جاء في حديث عبد الله بن عُمَر ثم في حديث عبد الله بن زيد» - انتهى كلام ابن المنذر. وقد حاول السهيلي الجمع بينهما فتكلف وتَعَسَّف والأَخذ بما صَحَّ أَوْلَى، فقال بانياً على صحته الحكم في مجيء الأَذان على لسان الصحابي في المنام فَقَصَّه فوافق ما كان النبي - ﷺ - سَمِعه فقال: «إِنها لرؤيا حَقّ»، وعُلِم حينئذ أَن مراد الله بما أُرِيَه في السماء أَن يكون سُنَّة في الأَرض، وقَوَّى ذلك عنده موافقته رؤيا عُمر للأَنصاري لأَن السكينة تنطق على لسان عمر».. انتهى.

ويؤخذ منه عدم الاكتفاء برؤيا عبد الله بن زيد حتى أُضيف إِليه عُمَر للتقوية التي ذكرها. ولكن قد يقال: فلِمَ اقتصر على عُمَر؟ فيمكن أَن يجاب ليصير في معنى الشهادة. وقد جاء في رواية ضعيفة سَبَقت ما ظاهره أَن بلالاً أَيضاً رأَى، لكنها مُؤَوَّلة، فإِن لفظها: «سَبَقَكَ بها عُمر»، يحمل المراد بالسَّبْق على مباشرة التأذين برؤيا عبد الله بن زيد.

السابع: قال السهيلي: «اقتضت الحكمة الإِلهية أَن يكون الأَذان على لسان غير النبي

---

(١) عبد العزيز بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية، أبو الأَصبغ: أمير مصر. ولد في المدينة، وولي مصر لأبيه استقلالاً، سنة ٦٥هـ، فسكن حلوان. وأعجبته، فبنى فيها الدور والمساجد، وغرس بها كرماً ونخيلاً. وتوفي فيها. وهو والد الخليفة عمر بن العزيز. توفي سنة ٨٥هـ. الأعلام ٢٨/٤.

- ﷺ - من المؤمنين لما فيه من التنويه من الله تعالى بعبده والرفع لِذِكْرِه، فلأن يكون ذلك على لسان غيره أَنْوَهَ به وأَفْخَمَ لشأنه، وهذا معنى بيِّن، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [سورة الشرح، الآية: ٤]، فمِنْ رَفْعِ ذِكْرِه أَن أَشار به على لسان غيره». انتهى كلام السهيلي - وهذا حَسَن بديع.

الثامن: من أَغرب ما وقع في بدء الأَذان ما رواه أبو الشيخ من طريق عبد العزيز بن مروان - وهو تالف - عن عبد الله بن الزُّبير قال: «أُخِذَ الأَذان من أذان إبراهيم عليه السلام ﴿وأَذِّنْ في النَّاس بالحَجِّ﴾ [سورة الحج، الآية: ٢٧] الآية، قال: «فَأَذَّن النبي - ﷺ -»؛ وما رواه أَبو نُعَيْم بِسَنَدٍ فيه مجاهيل عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما: «أَن جبريل نادى بالأَذان لآدم عليه السلام حين أُهْبِط من الجنة».

التاسع: ذكر بعضهم مناسبة اختصاص بلال بالأَذان دون غيره، كونه لما عُذِّب ليرجع عن الإسلام كان يقول: أَحد أَحَد، فجُوزِي بولاية الأَذان المشتمل على التوحيد من ابتدائه إلى انتهائه.

العاشر: اسْتُشْكِلَ إثبات حُكْم الأَذان برؤيا عبد الله بن زيد، ورؤيا غير الأَنبياء لا يَنْبَنِي عليها حكم شرعي. وأُجيب باحتمال مقارنة الوحي لذلك بأَنه - ﷺ - أُمِر بمقتضاها لينظر أَيُقَرُّ على ذلك أَم لا، ولا سيما لما رأَى نَظْمَها يُبْعِد دخول الوسواس فيه، ويؤيد الأَول حديث عُبَيد بن عُمَيْر، أَحد كبار التابعين: «أَن عُمَر لما رأَى الأَذان جاء ليخبر النبي - ﷺ -: فوجد الوَحْيَ قد ورد بذلك فما راعه إلا أذان بلال». فقال له النبي ﷺ: «سَبَقَكَ بذلك الوَحْي»(١). وهذا أَصَحّ كما حكاه الداودي عن ابن إسحاق «أَن جبريل أَتى النبي - ﷺ - بالأَذان قبل أَن يخبره عبد الله بن زيد بثمانية أَيام».

الحادي عشر: قيل إن الحكمة في تثنية الأَذان وإفراد الإقامة أَن الأَذان إعلام للغائبين مُتَكَرِّر ليكون أَوصل إليهم، بخلاف الإقامة فإنها للحاضرين، ومن ثُمَّ اسْتُحِبّ أَن يكون الأَذان في مكان عالٍ بخلاف الإقامة، وأَن يكون الصوت في الأَذان أَرفع منه في الإقامة.

الثاني عشر: في بيان غريب ما سبق:

«بَدْء» الأَذان، بفتح الموحدة وسكون الدال [المهملة] وبالهمزة، أي ابتداؤه.

«الحِين»: الزمان قَلَّ أَو كثر.

(١) أخرجه أبو داود في المراسيل (٨١) حديث (٢٠) وذكره السيوطي في الجامع الكبير من حديث الشعبي مرسلاً وعزاه للضياء في المختارة.

«يَتَحَيَّنُون» الصلاة: أي يطلبون حِينَها.

«المواقيت» جمع ميقات: وهو الوقت المضروب للفعل.

«الدَّعْوَة»: بالفتح: الأَذان.

«القُنْع»[١]: بضم القاف وسكون النون هو البُوق ـ بضم الموحدة ـ شيء مجوف يُنْفَخُ فيه.

«الشَّبُّور»[٢]: بشين معجمة مفتوحة فموحدة مضمومة مُشَدَّدَة وهو البوقْ.

«النَّاقُوس»: آلة من النحاس يُضرَب فيُصَوِّت.

«حَيَّ» على الصلاة: أَقْبِلُوا.

«الفلاح»: أَي الفَوْز، أَي هَلُمُّوا إِلى طريق النجاة والفَوْز.

«أَندى[٣]» صوتاً منك، أَي أَمَدُّ وأَبعد وأَرفع غاية، وقيل: أَحْسَن وأَعْذَب.

«أَلْقِهِ» عليه: أَي عَلِّمْه إِياه.

فما «راعَ» عُمر: أَي ما شعر عُمَر أي ما أَعْلَمه.

«لَدَيَّ»: بفتح اللام وتشديد التحتية: أَي عندي، وإِليّ بذلك تابع.

«التوقير»: التعظيم.

«الحُصَاص»[٤] بحاء مضمومة فصادين مهملتين: الضراط، وقيل شدة العَدْو، ويفعل ذلك الشيطان لئلا يسمع الأَذان فيُضْطَر إِلى الشهادة يوم القيامة.

«الغيلان»: واحدها غول، والغيلان جنس من الجن كانت العرب تَزْعُم أَنها تتراءى للناس في الفلاة فَتَتَمثَّل في صُوَر شَتَّى فَتَغُولُهم أَي تُضِلُّهم عن الطريق وتُهْلِكُهُمْ، فنفاه ﷺ بقوله: «لا غُول [ولا صَفَر]» [وقيل قوله: لا غول]، ليس نَفْياً [لعَيْن الغول] ووجوده وإِنما فيه إِبطال زَعْم العرب في تَلَوُّنِهِ بالصور المختلفة واغتياله، فيكون المعنى بقوله: لا غول أَنَّها لا تستطيع أَن تُضِلَّ أَحداً. ومنه الحديث: «إِذا تَغَوَّلت الغيلان فبادروا بالأَذان»، أَي ادفعوا شرَّها بذكر الله، وهذا يَدُلُّ على أَنه لم يُرِدْ بِنَفْيِها عَدَمَها.

---

(١) وهو بالكسر: الطبق من عسب النخل يوضع فيه الطعام وقال ابن الأثير: يقال له: القع والقنع بالكسر والضم اللسان ٥/ ٣٧٥٦.

(٢) انظر اللسان ٤/٢١٨٤، ٢١٨٥.

(٣) المصباح المنير ص ٥٩٩.

(٤) انظر اللسان ٢/٨٩٨.

الباب الخامس

في مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين أصحابه رضي الله عنهم

قال أَبو عُمَر، وأَقرّه في العيون، والفتح، ونقله في كتاب الصيام عن أَصحاب المغازي: «كانت المؤاخاة مَرَّتَيْن: الأُولى: بين المهاجرين بعضهم بعضاً قبل الهجرة على الحق والمواساة فآخى رسول الله - ﷺ - بين أَبي بكر وعُمَر، وبين حمزة وزيد بن حارثة. وروى أَبو يَعْلَى برجال الصحيح عن عبد الرحمن بن صالح الأَسدي وهو ثِقَة عن زيد بن حارثة أنه قال: «إِن رسول الله - ﷺ - آخى بيني وبين حمزة بن عبد المطلب، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير بن العَوَّام وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وبلال، وبين مُصْعَب بن عُمَيْر وسعد بن أَبي وَقَّاص، وبين عبيدة وسالم مولى أَبي حذيفة، وبين سعد بن أَبي زيد [بن عَمْرو بن نُفَيْل] وطلحة بن عبيد الله، وبين علي بن أَبي طالب ونفسه ﷺ. وروى الحاكم والخِلْعي عن ابن عُمَر رضي الله عنهما قال: «آخى رسول الله - ﷺ - بين أَصحابه، فآخى بين أَبي بكر وعُمَر، وفلاناً، حتى بقي علي رضي الله عنه تَدْمَع عيناه، فقال: يا رسول الله آخَيْتَ بين أَصحابك ولم تؤاخ بيني وبين أَحد، فقال رسول الله - ﷺ: «أَما ترضى أَن أَكون أَخاك»؟ قال: بلى يا رسول الله رَضِيت. قال: «فأنت أَخي في الدنيا والآخرة».

الثانية: قال أَنَس بن مالك رضي الله عنه: «حالف رسول الله - ﷺ - بين المهاجرين والأَنصار في دارنا» رواه الإمام أَحمد والشيخان وأَبو داود. وروى الإِمام أَحمد، وأَبو داود الطيالسي، والبخاري، وأَبو داود [السجستاني] وأَبو الشيخ، والطبراني عن ابن عباس مُخْتَصَراً، وابن أَبي حاتم، وابن مردويه من طريق عنه مُطَوَّلاً، وابن سعد والحاكم وصححه عن الزبير بن العَوَّام، وابن سعد عن الزهري، وإِبراهيم التيمي، وضمرة بن سعيد، قالوا: لما قَدِم رسول الله - ﷺ - المدينة آخى بين المهاجرين والأَنصار، آخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأَرحام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فآخى بينهم على الحق والمواساة، ويتوارثون بعد الممات دون ذوي الأَرحام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «فآخى رسول الله - ﷺ - بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة، وبين أَبي بكر الصديق وخارجة بن زيد بن الحارث، وبين عمر بن الخطاب وعِتْبان بن مالك، وبين الزبير بن العوام وسَلَمة بن سلامة بن وَقْش - ويقال: بينه وبين عبد الله بن مسعود، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، وقال لسائر أَصحابه: «تَوَاخُوا وهذا أَخي» - يعني علي بن أَبي طالب.

قام المسلمون على ذلك حتى نزلت سورة الأنفال، وكان مما شَدَّ الله عَقْدَ نبيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وفَسَادٌ كَبِيرٌ» «والَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم مَغْفِرَةٌ ورِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال ٧٢: ٧٤]

فأَحْكَمَ اللهُ بهذه الآيات العَقْد الذي عَقَد رسول الله - ﷺ - بين أَصحابه من المهاجرين والأنصار، يتوارث الذين آخوا دون من كان مقيماً بمكة من ذوي الأرحام والقرابات. فمكث الناس على ذلك العَقْد ما شاء الله. فلما كان بعد بدر أنزل الله تعالى الآية الأُخرى فنسخت ما كان قبلها، فقال تعالى: ﴿وَالَّذين آمَنُوا مِن بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ الله إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال ٧٥] وانقطعت المؤاخاة في الميراث ورجع كل إنسان إلى نَسَبِه وَوَرِثَه ذَوُو رَحِمِهِ.

وروى الخرائطي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال المهاجرون: «يا رسول الله ما رأَينا مِثْلَ قَوْمٍ قَدِمْنَا عليهم أَحْسَنَ مواساةً في قليلٍ ولا أَحْسَنَ بذلاً من كثير، لقد كَفَوْنَا الْمَؤُونَة، وأَشركونا في المَهْنَأ حتى لقد خَشِينا أَن يذهبوا بالأَجر كُلِّه». قال: «لا ما أَثْنَيْتُم عليهم ودعوتم [الله] لهم»[(١)].

وروى مسلم والنَّسائي والخرائطي عن ابن عُمَر رضي الله عنهما قال: «لقد رأَيتنا وما الرجل المسلم بأَحق بديناره ودرهمه من أَخيه المسلم». قال الزهري، وإِبراهيم التيمي، وحمزة بن سعيد، كما رواه ابن سعد عنهم: «كانوا تسعين رجلاً: خمسة وأَربعون رجلاً من المهاجرين وخمسة وأَربعون من الأَنصار». ويقال: «كانوا مائة: خمسون من المهاجرين وخمسون من الأَنصار». قال ابن إِسحاق، وسُنَيْد بن داود، وأَبو عُمَر، وأَبو الفَرَج: «آخى رسول الله - ﷺ - بين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه وبين نفسه - ﷺ -»، قال أَبو عُمَر: «وقال له: «أَنت أَخي في الدنيا والآخرة».

وروى أَبو بكر الشافعي عن أَبي أُمَامَة رضي الله عنه قال: «لما آخى رسول الله ﷺ بين الناس آخى بينه وبين عَلِيّ، وبين حمزة بن عبد المطلب وأُسَيْد - بضم الهمزة وفتح السين - ابن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند ٢٠٠/٣ وابن أبي شيبة ٦٨/٩ وانظر البداية والنهاية ٢٢٨/٣.

حُضَيْر ـ بضم الحاء المهملة وفتح الضاد المعجمة ـ، وبين جعفر بن أَبي طالب وهو بأَرض الحبشةِ ومُعَاذ بن جَبَل». واسْتُشْكِل ذلك ويأْتي جوابه في ثالث التنبيهات إِن شاء الله، «وبين أبي بكر وخارجة ـ بالخاء والجيم المعجمة ـ ابن زيد، وبين عمر بن الخطاب وَعِتْبَان بن مالك ـ بعين مهملة مكسورة ففوقية ساكنة فموحدة وقد تُضَمّ العين ـ وبين عثمان بن عَفَّان وأَوْس بن ثابت بن المنذر أَخي حَسَّان بن ثابت، وبين طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك»، وذكر أَبو الفَرَج بدل كعب بن مالك، أُبَيَّ بن كعب، وقيل أُبَيّ بن كعب وسعيد بن زيد، وبين الزبير بن العوام وسَلَمة بن سلامة بن وَقْش ـ بفتح الواو وسكون القاف وبالشين المعجمة ـ كما ذكروا في حديث الزبير السابق أَنه وَاخَى بين سعد بن أَبي وَقَّاص ومحمد بن مسملة، وبين سعيد بن زيد وأُبَيّ بن كعب، وبين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع».

وروى البخاري في أَوائل كتاب البيوع بَسَند وعَلَّقه في باب: كيف آخى رسول الله ﷺ بين أَصحابه، والإِمام أحمد والشيخان عن أَنس رضي الله عنه أَن رسول الله ﷺ وَاخَى بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فعَرَض سَعْد على عبد الرحمن أَن يناصفه أَهْلَه ومَالَه. قال سعد: أَنا أَكثر أَهل المدينة مالاً فأَقْسِمُ لك نصف مالي وانظر أَيَّ زَوْجَتيَّ هَوِيت، نزلت لك عنها، فإذا حَلَّتْ تَزَوَّجْتها. فقال عبد الرحمن: بارك الله عَزَّ وجَلّ لك في أَهلك ومالك دُلُّوني على السوق، فاشترى وباع[1]، وسيأْتي الحديث في المعجزات إِن شاء الله تعالى. وَوَاخى بين أَبي عُبَيْدة بن الجراح وأَبي طلحة زيد بن سهل الأَنصاري النجاري، فهذا أَصَحّ مما ذكره ابن إِسحاق وأَبو عُمَر إِلا أَن يكون آخى بين أَبي عُبَيْدة وسعد بن مُعَاذ. وذكر سُنَيْد أَنه واخى بين سعد بن أَبي وقاص ومحمد بن مَسْلَمة بن خالد بن عدي الأَوسي وبين سعد بن زيد وأُبَيّ بن كعب، وبين مصعب بن عُمَيْر وأَبي أَيوب، وبين عَمَّار بن ياسر وحُذَيْفَة بن اليَمَان، وقيل: بين عَمَّار وثابت بن قيس بن الشَّمَّاس لأَن حذيفة إِنما أَسلم زمان أُحُد، وبين أَبي حُذَيْفَة بن عُتْبَة بن ربيعة وَعَبَّاد ـ بموحدة ودال مهملة ـ ابن بِشْر ـ بكسر الموحدة وبالشين المعجمة ـ ابن وَقْش، وبين أَبي ذَرّ الغِفَاري والمنذر بن عمر المُعْنِق لِيَمُوت.

وأَنكر ذلك محمد بن عُمَر الأَسلمي لأَن أَبا ذَرّ إِنما قَدِم المدينة بعد بدر وأُحُد، وعنده طُلَيْب ـ بالتصغير ـ ابن عُمَيْر والمنذر بن عَمْرو، وسيأْتي الجواب عن ذلك في ثالث التنبيهات إِن شاء الله تعالى. وَوَاخى بين عبد الله بن مسعود وسَهْل بن حُنَيْف، وبين سَلْمان الفارسي وأَبي الدرداء عُوَيْمِر بن ثعلبة كما في صحيح البخاري عن أَبي جُحَيْفَة [وهب بن عبد الله]

(١) أخرجه البخاري ٤/٣٣٧ (٢٠٤٩).

رضي الله عنه، وأنكر ذلك محمد بن عُمَر لأَن سَلْمَان إِنما أَسلم بعد وقعة أُحُد، وأَول مشاهده الخندق، ويأتي الجواب عن ذلك.

[وَوَاخَى] بين بلال [ابن رباح مولى أَبي بكر] وأَبي رُوَيْحَة ـ بضم الراء وفتح الواو وبعدها تحتية ساكنة فحاء مهملة ـ واسمه عبد الله بن عبد الرحمن الْخَثْعَمِي، وبين حاطب بن أَبي بَلْتَعَة ـ بموحدة فلام ساكنة ففوقية فعين مهملة ـ وعُوَيْم ـ بلفظ تصغير عام ـ ابن ساعدة، وبين عبد الله بن جَحْش وعاصم بن ثابت بن أَبي الأَقْلَح ـ بفتح الهمزة وسكون القاف فلام فحاء مهملة، وبين عُبَيْدَة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف وعُمَيْر بن الحُمَام ـ بضم الحاء المهملة ـ، وبين الطفيل بن الحارث أخي عُبَيْدَة، وسُفْيان بن نَسْر ـ بفتح النون وسكون المهملة ـ كما ضبطه الأَمير، وقيل بالتصغير ـ ابن زيد بن الحارث الخزرجي، وبين الحصين بن الحارث أَخي عُبَيْدة وعبد الله بن جُبَيْر ـ بلفظ تصغير جبر ـ «[ابن النعمان الأَوسي]، وبين عثمان بن مظعون ـ بالظاء المعجمة المُشَالة ـ [ابن حبيب بن وهب القرشي الجُمَحِيّ] والعباس بن [عُبَادة بن] نَضْلَة ـ بالنون والضاد المعجمة، وذكر سُنَيْد بَدَل العباس أَبا الهيثم بن التَّيِّهان ـ بفتح الفوقية وكَسْر التحتية المُشَدَّدَة، وبين عُتْبَة بن غزوان ـ بغين مفتوحة فزاي ساكنة معجمتين ـ ومُعَاذ بن مَاعِص ـ بعين فصاد مهملتين ويقال فيه ناعص ـ [ابن قيس بن خَلْدَة بن عامر بن زُرَيْق]، وبين صَفْوَان [بن وهب بن ربيعة القرشي الفهري وهو المعروف] بابن بيضاء ورافع بن المُعَلَّى ـ بلفظ اسم المفعول من العُلُوّ بالعين المهملة ـ [ابن لَوْذَان بن حارثة]، وبين المقداد بن عمرو وعبد الله بن رَوَاحة، وبين ذي الشِّمَالين [بن عبد عَمْرو بن نضلة بن غُبْشَان] ويزيد بن الحارث وبين أَبي سَلَمَة بن عبد الأَسد ـ بالمهملة ـ وسَعْد بن خَيْثَمة ـ بخاء معجمة فتحتية فثاء مثلثة، وبين عامر بن أَبي وَقَّاص وخُبَيْب ـ بخاء معجمة مضمومة فموحدة مفتوحة ـ ابن عَدِيّ، وبين عبد الله بن مظعون وقُطْبة ـ بلفظ تأنيث قُطْب ـ ابن عامر، وبين شَمَّاس ـ بشين معجمة مفتوحة فميم مُشَدَّدَة فألف فسين مهملة ـ ابن عثمان وحنظلة بن أَبي عامر[1]، وبين الأَرقم بن أَبي الأَرقم وطلحة بن زيد الأَنصاري، وبين زيد بن الخَطَّاب ومَعْن بن عَدِيّ، وبين عَمْرو بن سُرَاقة وسَعْد بن زيد الأَشهلي، وبين عاقِل

(١) حنظلة بن أبي عامر بن صيفي بن مالك بن أمية بن ضبيعة بن زيد بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس بن حارثة الأنصاري الأوسي المعروف بغسيل الملائكة. وكان أبوه في الجاهلية يعرف بالراهب واسمه عمرو ويقال: عبد عمرو وكان يذكر البعث ودين الحنيفة فلما بُعث النبي ﷺ عانده وحسده وخرج عن المدينة وشهد مع قريش وقعة أحد ثم رجع مع قريش إلى مكة ثم خرج إلى الروم فمات بها سنة تسع، ويقال: سنة عشر، وأعطى هرقل ميراثه لكنانة بن عبد ياليل الثقفي وأسلم ابنه حنظلة فحسن إسلامه واستشهد بأحد لا يختلف أصحاب المغازي في ذلك. الإصابة ٢/٤٤، ٤٥.

ـ بعين مهملة وبعد الألف قاف ـ ابن الْبُكَيْر ـ بموحدة تصغير بَكْر ـ ومُبَشِّر بن عبد المُنْذِر، وبين عبد الله بن مَخْرَمة وفَرْوة بن عَمْرو البياضي، وبين خُنَيْس ـ بخاء معجمة مضمومة ونون مفتوحة فتحتية ساكنة فسين مهملة ـ ابن حُذَافة، والمُنْذِر بن محمد بن عُقْبَة بن أُحَيْحَة ـ بمهملتين ـ تصغير أَحَّة، وبين أَبي سَبْرَة ـ بسين مهملة مفتوحة فموحدة ساكنة ـ ابن أَبي رُهْم ـ وهو بضَمّ الراء وسكون الهاء، وعُبَادة بن الخَشْخَاش ـ بخاءين الأُولى مفتوحة وشينين الأُولى ساكنة مُعْجَمَات، كما ذكره الأَمير، وبين مِسْطَح ـ بميم مكسورة فسين مهملة فطاء مفتوحة وحاء مهملتين ـ ابن أُثَاثَة ـ بالضم ومثلثين مُخَفَّفَة ـ وزيد بن المزين ـ ضبطه الدارقطني والأمير بضم الميم وفتح الزاي وآخره نون مُصَغَّر، وشَدَّد أَبو عُمَر بِخَطِّه التحتية ـ والله أَعلم، وبين أَبي مَرْثَد ـ بفتح الميم وسكون الراء فثاء مثلثة ـ الغَنَوي ـ بالغين المعجمة المفتوحة والنون ـ وعُبَادة بن الصامت، وبين عُكَّاشة بعين مهملة مضمومة فكاف تشديدها أَفصح من تخفيفها ـ ابن مِحْصَن ـ بكسر الميم، ـ والمُجَذَّر ـ بضم الميم وفتح الجيم وتشديد الذال المعجمة المفتوحة ثم راء ـ ابن ذِياد ـ بكسر الذال المعجمة وتخفيف التحتية في آخره دال مهملة، وقيل إنه بفتح أَوله وتشديد ثانيه ـ، وبين عامر بن فُهَيْرَة ـ بالتصغير ـ والحارث بن الصِّمَّة ـ بكسر الصاد المهملة وتشديد الميم، ـ وبين مِهْجَع ـ بكسر الميم وسكون الهاء وفتح الجيم ـ مَوْلَى عُمَر، وسُرَاقة بن عَمْرو بن عطية.

تنبيهات

الأَول: قال في الروض: «آخى رسول الله ﷺ بين أَصحابه حين نزلوا المدينة لتذهب عنهم وَحْشَة الغربة ويؤنسهم من مفارقة الأَهل والعشيرة ويشد أَزر بعضهم ببعض، فلما عَزَّ الإِسلام واجتمع الشَّمْل وذهبت الوَحْشة أَنزل الله سبحانه: ﴿**وأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ**﴾ [الأَنفال ٧٥] أَعني في الميراث، ثم جعل المؤمنين كلّهم إِخوة يعني في التوادّ وشمول الدعوة».

الثاني: اختُلِف في ابتدائها فقيل بعد الهجرة بخمسة أَشهر، وقيل بتسعة، وقيل وهو يبني المسجد، وقيل قبل بنائه، وقيل بسَنَة، وقيل بثلاثة أَشهر وقيل بدر، وتقدم عن أَنس بن مالك أَن ذلك كان في داره، وذكر أَبو سعد النيسابوري في الشرف أَن ذلك كان في المسجد. فالله أَعلم.

الثالث: أَنكر الواقدي مؤاخاة سَلْمَان لأَبي الدرداء لأَن سَلْمان إِنما أَسلم بعد وقعة أُحُد، وأَول مشاهده الخندق. وأَجاب الحافظ بأَن التاريخ المذكور [هو] للأُخوة الثانية وهو ابتداء الأُخوة، واستمر ﷺ يُجَدِّدها بحسب من يدخل في الإِسلام ويحضر إِلى المدينة،

وليس باللازم أَن تكون المؤاخاة وقعت وقعةً واحدة حتى يرد هذا التعقيب. وبما أَجاب به الحافظ يجاب به عن مؤاخاة أَبي ذَرّ والمنذر بن عَمْرو، وعن مؤاخاة حُذَيْفة وعَمّار، وعن مؤاخاة جعفر ومُعَاذ بن جَبل، ويقال بأَن مُعَاذ أُرْصِد لمؤاخاة جعفر حتى يَقْدَم.

الرابع: نقل محمد بن عُمَر، عن الزُّهْرِي أَنه أَنكر كُلَّ مؤاخاة وقعت بعد بدر، ويقول: قَطَعَتْ بَدْرُ المواريث. قال الحافظ رحمه الله تعالى: وهذا لا يدفع المؤاخاة من أَصلها، وإِنما يدفع المؤاخاة المخصوصة التي كانت عُقِدَتْ بينهم ليتوارثوا بها.

الخامس: أَنكر الحافظ أَبو العباس بن تيمية المؤاخاة بين المهاجرين وخصوصاً مؤاخاة النبي ﷺ لعَلِيّ رضي الله عنه. قال: لأَن المؤاخاة شرعت لإِرفاق بعضهم بعضاً ولتتألّف قلوب بعضهم على بعض، فلا معنى لمؤاخاته لأَحد ولا لمؤاخاة مهاجري لمهاجري. قال الحافظ: «وهذا رَدٌّ للنّصّ بالقياس وإِغفال عن حكمة المؤاخاة لأَن بعض المهاجرين كان أَقوى من بعض بالمال والعشيرة والقوة، فَوَاخَى بين الأَعلى والأَدنى ليرتفق الأدنى بالأَعلى ويستعين الأَعلى بالأَدنى، وبهذا تظهر حكمة مؤاخاته ﷺ لعلي رضي الله عنه، لأَنه هو الذي كان يقوم بعَلِيّ من عهد الصِّبَا قبل البعثة واستمرّ، وكذلك مؤاخاة حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة لأَن زيداً مولاهم، فقد ثَبَتَتْ إِخوتهما وهما من المهاجرين، وفي الصحيح في عُمْرَة القضاء أَن زيداً قال: «إِن ابنة حمزة ابنة أَخي». وأَخرج الحاكم وابن عبد البَرّ بسَنَدٍ حَسَن عن أَبي الشعثاء[1] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: آخَى النبي ﷺ بين الزبير بن العَوّام وعبد الله بن مسعود، وهما من المهاجرين، وأَخرجه الضياء المقدسي في المختارة، وابن تيمية يُصَرِّح بأَن أَحاديث المختارة أَصَحّ وأَقوى من أَحاديث المسْتَدْرَك، قلتُ: يأْتي الكلام مبسوطاً على أُخوة النبي ﷺ في ترجمة علي رضي الله عنه عند ذكر تراجم العشرة إِن شاء الله تعالى.

السادس: روى الإِمام أَحمد ومسلم وأَبو داود والنسائي وابن حِبَّان عن شُعْبَة بن التوأَم - بفتح الفوقية والهمزة - أَن رسول الله ﷺ قال: «لا حِلْفَ في الإِسلام»[2]، زاد شعبة بن التوأَم: «ولكن تَمَسَّكوا بحِلْف الجاهلية». انتهى. «وأَيّما - وفي لفظ: كل - حِلْف كان في

---

(١) جابر بن زيد الأزدي أبو الشَّعْثَاء الجوفي بفتح الجيم البصري الفقيه، أحد الأئمة، عن ابن عباس فأكثر ومعاوية وابن عمر. وعنه قتادة وعمرو بن دينار وأيوب وخلق. قال ابن عباس: هو من العلماء. قال أحمد: مات سنة ثلاث وتسعين. وقال ابن سعد: سنة ثلاث ومائة. الخلاصة ١٥٦/١.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ١٩٦١/٤. (٢٠٦ - ٢٥٣٠) وأبو داود (٢٩٢٥) وأحمد في المسند ١/ ١٩٠ والبيهقي في السنن ٢٦٢/٦ وعبد الرزاق (١٠٤٣٧) والطبراني في الكبير ٢٨٢/١١ والحاكم ٢٢٠/٢ والدارمي ٢٤٣/٢.

الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا حِدَّة وشِدَّة، وما يَسُرُّني أن لي حُمْر النَّعم وأني نقضتُ الحلف الذي كان في دار الندوة».

وروى البخاري في الكفالة وفي الاعتصام، ومسلم في الفضائل، وأبو داود في الفرائض عن عاصم بن سليمان الأحول قال: «قلت لأنس بن مالك: أَبَلَغَكَ أن النبي ﷺ قال: لا حِلْفَ في الإسلام؟ قال: قد حالف النبي ﷺ بين قريش والأنصار في داري»[1]. قال الطبراني: ما استدلّ به أنس على إثبات الحلف لا يُنافي الأحاديث السابقة في نفيه، فإن الإخاء المذكور كان في أول الهجرة، وكانوا يتوارثون به، ثم نُسِخَ من ذلك الميراث، وبقي ما لم يُبْطِلْه القرآن وهو التعاون على الحق والنصر والأخذ على يد الظالم، كما قال ابن عباس: «إلا النصر والنصيحة»، ويوصي به فقد ذهب الميراث.

وقال الخَطَّابي: قال ابن عيينة: حالف بينهم: أي آخى بينهم، يريد أن معنى الحِلْف في الجاهلية معنى الحلف في الإسلام جار على أحكام الدين وحدوده، وحلف الجاهلية جارٍ على ما كانوا يتواضعونه بينهم، فَبَطَلَ منه ما خَالَفَ حكم الإسلام وبَقِيَ ما عدا ذلك على حاله.

والحِلْف ـ بكسر الحاء المهملة وسكون اللام بعدها فاء، قال في النهاية: أصله المُعَاقدة والمُعَاهدة على التعاضد والتساعد والاتفاق، فما كان منه في الجاهلية على الفِتَن والقتال بين القبائل والغارات، فذلك الذي ورد النهي عنه في الإسلام بقوله ﷺ: «لا حِلْف في الإسلام». وما كان منه في الجاهلية على نَصْر المظلوم وصِلَة الأرحام كحِلْف المُطَيَّبين وما جرى مُجْرَاه فذلك الذي قال فيه ﷺ: «وأيُّما حِلْف كان في الجاهلية لم يَزِدْهُ الإسلام إلا شِدَّة»، يُريد من المُعَاقدة على الخير ونُصْرة الحق [وبذلك يجتمع الحديثان وهذا هو الحِلْف الذي يقتضيه الإسلام والممنوع منه ما خالف حُكْم الإسلام] والله سبحانه وتعالى أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري ٥١٧/١٠ (٦٠٨٣) ومسلم في الموضع السابق (٢٠٥ ـ ٢٥٢٨).

الباب السادس

في قصة تحويل القبلة

روى ابن إسحاق وابن سعد، وابن أبي شيبة، وعَبْد بن حُمَيْد، والستة، وأبو داود في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والدارقطني، والبيهقي عن البَرَاء بن عازب، وابن إسحاق وابن أبي شيبة، وأبو داود والنحاس في ناسخهما، وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو داود في ناسخه عن أبي العالية مُرْسَلاً، ويحيى بن الحَسَن العلوي في أخبار المدينة عن رافع بن خَدِيج رضي الله عنه، والإمام مالك، وعَبْد بن حُمَيْد والشيخان، وأبو داود في ناسخه، والنسائي، ويحيى بن الحَسَن، عن عثمان بن محمد بن الأخنس، وعَبْد بن حُمَيْد، وابن المنذر عن قتادة، والزبير بن بكار عن عثمان بن عبد الرحمن، وابن سعد عن محمد بن عبد الله بن جَحْش، وابن جرير عن مجاهد، يزيد بعضهم على بعض: «أن أول ما نُسِخ من القرآن القِبْلَة، وذلك أن رسول الله ﷺ كان يصلي وهو بمكة نحو بيت المقدس، والكعبة بين يديه». وقال ابن جُرَيْج، كما عند ابن جرير: «صَلَّى النبي ﷺ أول من صلى إلى الكعبة ثم صُرِف إلى بيت المقدس وهو بمكة فصَلَّى ثلاث حِجَج ثم هاجر». ولما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود أمره الله سبحانه وتعالى أن يستقبل صَخْرَة بيت المقدس، فعَرَّض اليهود بذلك، وكان رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس. وكان يُعْجِبه أن تكون قِبْلَته قِبَل البيت، لأن اليهود قالوا: «خالفنا محمد ويتبع قِبْلَتَنا».

وقال ﷺ لجبريل: «وَدِدْتُ أن الله عزَّ وجَل صرفني عن قِبْلَة يهود إلى غيرها»، فقال جبريل عليه السلام: «إنما أنا عَبْدٌ مثلك لا أَمْلِك لك شيئاً إلا ما أُمِرْتُ به، فادْعُ الله تعالى». فكان رسول الله ﷺ يدعو الله تعالى ويُكْثِر النَّظَرَ إلى السماء ينتظر أمر الله تعالى، وخرج رسول الله ﷺ زائراً أُمَّ بِشْر بن البَرَاء بن مَعْرُور، في بني سَلِمَة - بكسر اللام - فصنعت له طعاماً، وحانت صلاة الظهر، فصَلَّى رسولُ الله ﷺ بأصحابه في مسجد هناك الظهر، فلما صلى ركعتين نزل جبريل فأشار إليه أن صَلِّ إلى البيت، وصلى جبريل إلى البيت فاستدار رسول الله ﷺ إلى الكعبة، واستقبل الميزاب. فتَحَوَّل النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء، فهي القبلة التي قال الله تعالى ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة ١٤٤] فسُمِّي ذلك المسجد مسجد القِبْلَتَيْن. وكان الظُّهْر يومئذ أربعاً: اثنتان إلى بيت المقدس واثنتان إلى الكعبة، فخرج عَبَّاد بن بشر رضي الله عنه، وكان صلى مع رسول الله ﷺ، فمر على قوم من الأنصار بني حارثة - بالحاء المهملة والثاء المثلثة - وهم راكعون في صلاة العَصْر، فقال: «أشهد بالله لقد صَلَّيْت مع رسول الله ﷺ قِبَل البيت». فاستداروا.

قال رافع بن خَدِيج: «وأتانا آتٍ ونحن نصلي في بني عبد الأَشهل فقال: إن رسول الله ﷺ قد أُمِرَ أن يوجه إلى الكعبة، فأدارنا إِمَامُنَا إلى الكعبة ودُرْنا معه». قال ابن عُمَر: «وبينما الناس بقُبَاء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت ـ قال ابن طاهر المقدسي: هو عَبَّاد بن بشر أيضاً ـ فقال: «إن رسول الله ﷺ قد أُنْزِل عليه قرآن، وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبة فاستَقْبِلوها، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة».

وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان رسول الله ﷺ يُصَلّي قِبَل بيت المقدس وأَهْلُ الكتاب فلما وَلَّى وَجْهَه قِبَل البيت أنكروا ذلك. وقال المنافقون: «حَنَّ محمد إلى أرضه». وقال المشركون: «أَراد محمد أن يجعلنا قِبْلَةً له ووسيلة، وعرف أن ديننا أَهْدَى من دينه، ويوشك أن يكون على ديننا».

وقال اليهود للمؤمنين: ما صرفكم عن قِبْلة موسى ويعقوب وقبلة الأنبياء؟ والله إن أنتم إلا قوم تفتنون. وقال المؤمنون: لقد ذهب مِنَّا قومٌ ماتوا وما ندري أَكُنَّا نحن وهم على قِبْلة أَو لا. وأتى رسول الله ﷺ رفاعة بن قيس، وكَرْدَم بن عَمْرو، وكَعْب بن الأَشرف، ورافع بن أَبي رافع، والحَجَّاج بن عَمْرو حليف كعب بن الأَشرف، والربيع وكِنَانة ابنا الربيع بن أَبي الحُقَيْق ـ بلفظ تصغير حق ـ فقالوا: «يا محمد ما وَلاَّكَ عن قِبْلَتِك التي كنت عليها وأنت تَزْعُم أنك على مِلَّة إبراهيم ودينه؟ ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نَتَّبِعك ونُصَدِّقك». وإنما يريدون بذلك فِتْنَتَه عن دينه، فأنزل الله عز وجل: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ**﴾ ـ الجُهَّال واليهود والمشركون والمنافقون ﴿**مَا وَلاَّهُمْ**﴾ ـ أي صرفهم ـ ﴿**عَنْ قِبْلَتِهِمِ**﴾ ـ التي كانوا على استقبالها في الصلاة وهي بيت المقدس، والإتيان بالسين الدَّالَّة على الاستقبال من الإخبار بالغيب ـ ﴿**الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ للهِ المَشْرِقُ وَالمَغْرِبُ**﴾ ـ أَي الجهات كلها، فيأمر بالتوجه إلى أية جهة شاء لا اعتراض عليه ـ ﴿**يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾ ـ هدايته ـ ﴿**إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة ١٤٢] ـ دين الإسلام، أي ومنهم أنتم، دَلَّ على هذا ﴿**وَكَذَلِكَ**﴾ أَي كما هديناكم إليه ﴿**جَعَلْنَاكُمْ**﴾ يا أُمة محمد ﴿**أُمَّةً وَسَطاً**﴾ خياراً عدولاً ﴿**لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾ يوم القيامة أن رُسُلَهم بلَّغَتْهُم ﴿**وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ أنه بَلَّغَكُم ﴿**وَمَا جَعَلْنَا**﴾ صَيَّرنا ﴿**القِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا**﴾ أَولاً وهي جهة بيت المقدس وكان رسول الله ﷺ يُصَلّي إليها تَأَلُّفاً لليهود فصلَّى إليها ستة أَو سبعة عشر شهراً ثم حُوِّل ﴿**إِلاَّ لِنَعْلَمَ**﴾ عِلْم ظهور ﴿**مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ**﴾ فيصَدِّقه ﴿**مِمَّن يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ**﴾ أَي يرجع إلى الكفر شَكًّا في الدين وظَنًّا أن النبيَّ في حيرة من أَمْرِه، وقد ارْتَدَّ لذلك جماعة ﴿**وَإِنْ**﴾ مُخَفَّفَة من الثقيلة واسمها محذوف، أي وإنَّها ﴿**كَانَتْ**﴾ التولية إليها ـ ﴿**لَكَبِيرَةً**﴾ شَاقَّة على الناس ﴿**إِلاَّ**

﴿عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ منهم ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم﴾ أي صَلاتَكُم إلى بيت المقدس بل يثيبكم عليها لأن سبب نزولها السؤال عَمن مات قبل التحويل ﴿إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ﴾ المؤمنين ﴿لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة ١٤٣] في عدم إضاعة أعمالهم، والرأفة شِدَّة الرحمة وقَدَّم الأبلغ للفاصلة.

﴿قَدْ﴾ للتحقيق ﴿نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي تَصَرُّف وجهك في جهة السماءِ تَطَلُّعاً إلى الوَحْي، وتَشَوُّقاً للأمر باستقبال الكعبة وكان يَوَد ذلك لأنها قِبْلة إبراهيم ولأنه أدْعَى إلى إسلام العرب ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ نُحَوِّلَنَّك ﴿قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ تُحِبُّها ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ استقبل في الصلاة ناحية المسجد الحرام أي الكعبة ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ خطاباً للأمة ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ﴾ في الصلاة ﴿شَطْرَهُ﴾ ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أي التَّوَلِّي إلى الكعبة ﴿الْحَقُّ﴾ الثابت ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ لِمَا في كُتُبهم من نَعْت النبي ﷺ من أنه يَتَحَوَّل إليها ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة ١٤٤] [قرئت] بالتاء أي أيها المؤمنون من امتثال أمره، وبالياء أي اليهود من إنكار القِبْلَة.

﴿وَلَئِنْ﴾ لام قَسَم ﴿أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ﴾ على صِدْقِك في أمر القِبْلَة ﴿مَا تَبِعُوا﴾ أي لم يَتَّبِعوا ﴿قِبْلَتَكَ﴾ عِناداً ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ﴾ قَطْعٌ لِطَمَعِه في إسلامهم وطَمَعِهِمْ في عَوْدِه إليها ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ أي اليهود قبلة النصارى وبالعكس ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ التي يدعونك إليها ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ الوَحْي ﴿إِنَّكَ إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة ١٤٥] أي إن اتَّبَعْتَهم فَرْضاً.

تنبيهات

الأول: تصوير ما ذُكِر من تحويل الرجال مكان النساء وتحويل النساء مكان الرجال أن الإمام يتحول من مكانه في مُقَدَّم المسجد إلى مُؤَخَّره، لأن من استقبل الكعبة بالمدينة فقد استدبر بيت المقدس، وهو لو دار كما هو مكانه لم يكن خَلْفَه مكان يَسَع الصفوف، فلما تَحَوَّل الإمام تحولت الرجال حتى صاروا خَلْفَه، وتحولت النساء حتى صِرْنَ خلف الرجال. وهذا يستدعي عَمَلاً كثيراً في الصلاة. ويُحْتَمَل أن ذلك وقع قبل تحريم العمل الكثير، كما كان قبل تحريم الكلام، ويحتمل أن يكون اغْتُفِر العمل المذكور لأجل المصلحة المذكورة، أو لم يَتَوَالَ الخطأُ عند التحويل بل وقعت متفرقة.

الثاني: اختُلِف في تاريخ تحويل القِبْلة، فقال البَرَاء بن عازب كما عند البخاري: كان على رأس ستة عَشَر أو سبعة عَشَر شهراً. وقال ابن عباس كما عند ابن إسحاق، وأبي داود في ناسخه سبعة عشر شهراً. وكذا قال عَمْرو بن عَوْف كما عند البزار والطبراني. وقال ابن عباس

أيضاً كما عند ابن أَبي شيبة وأَبي داود في ناسخه، والطبراني والزهري كما عند البيهقي، وسعيد بن المُسيَّب كما عند الإِمام مالك وأَبي داود فيه، وابن جرير وقتادة كما عند عبْد بن حُمَيْد، وابن المنذر «على رأْس ستة عشَر شهراً». وقال أَنَس بن مالك كما عند البزار، وابن جرير تسعة عشر شهراً. قال الحافظ: «فطريق الجمع بين رواية ستة عشر وسبعة عشر شهراً، ورواية الشّكّ في ذلك: أَن من جَزَم بستة عشر لَفَّق من شهر القدوم وشهر التحويل شهراً وأَلْغى الأَيام الزائدة، ومن جزم بسبعة عشر عَدَّهُما معاً، ومن شَكَّ تَرَدَّد في ذلك، وذلك أَن القدوم كان في شهر ربيع الأَول بلا خلاف وكان التحويل بعد الزوال في نصف شهر رجب من السنة الثانية على الصحيح، وبه جزم الجمهور، ورواه الحاكم بسَنَدٍ صحيح عن ابن عباس. وقول ابن حِبَّان: سبعة عَشَر شهراً وثلاثة أَيام مَبْنِيٌّ على أَن القدوم كان في ثاني ربيع الأَول، وأَسانيد رواية ثلاثة عشر وثمانية عشر وتسعة عشر شهراً، وعشرة أَشهر، ورواية شهرين، ورواية سنتَيْن هي أَسانيد ضعيفة، والاعتماد على الثلاثة الأُول.

الثالث: اختُلِف في أَي شهر كان تحويل القِبْلَة. فقال محمد بن حبيب: في نصف شعبان، وهو الذي ذكره النووي في الروضة وأَقَرّه، مع كونه رَجّح في شرحه على صحيح مسلم رواية ستة عشر شهراً لكونها مجزوماً بها عند مسلم. ولا يستقيم أَن يكون ذلك في شعبان إِلا بِإِلغاء شَهْرَيْ القدوم والتحويل. وجَزَم موسى بن عُقْبَة بأَن التحويل كان في جمادى الآخرة.

الرابع: اختُلِف في أَي صلاة كان التحويل، ففي الصحيح عن البَرَاء بن عازب أَن أَول صلاة صَلاَّها رسول الله ﷺ هي صلاة العصر، والأَكثر على أَنها صلاة الظهر. قال الحافظ: والتحقيق أَن أَوَّل صلاة صَلاَّها في بني سَلِمَة - بكسر اللام - الظهر، وأَوَّل صلاة صَلاَّها بالمسجد النبوي العصر، وأَما الصبح فهو لأَهل قُبَاء.

الخامس: اختُلِف في صلاة النبي ﷺ إِلى بيت المقدس وهو بمكة، فروى ابن ماجه عن طريق أَبي بكر بن عَيَّاش عن البَراء أَنه قال: «صَلَّيْنَا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً، وصُرِفت القبلة إِلى الكعبة بعد دخول المدينة بشهرين». وظاهره أَنه كان يصلي بمكة إِلى بيت المقدس مَحْضاً. وحكى الزهري خِلاَفاً في أَنه جعل الكعبة خَلْفَ ظَهْره أَو أَنه جعلها بينه وبين بيت المقدس، وعلى الأَول فكان يجعل الميزاب خَلْفَه، وعلى الثاني كان يَصَلّي بين الرُكْنَيْن اليمانِيَّيْن. وزعم ناسٌ أَنه لم يزل يستقبل الكعبة بمكة، فلما قَدِم المدينةَ استقبل بيت المقدس، ثم نُسِخ. قال الحافظ: «وهذا ضعيف ويلزم منه دَعْوَى النَّسْخ مَرَّتَيْن، والأَول أَصَحّ لأَنه يجمع بين القَوْلَيْن. وقد صَحَّحه الحاكم وغَيْرُه. وحَمَل أَبو عُمَر هذا

القول على الثاني ويؤيده في حَمْلِه على ظاهره إمامةُ جبريل، ففي بعض طُرُقه أن ذلك كان عند البيت. وروى ابن جرير وغيره بسَنَدٍ جَيِّد قَوِيّ عن ابن عباس قال: «لما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأَمره الله تعالى أَن يستقبل بيت المقدس» إلى آخره، وظاهِرُه أَن استقبال بيت المقدس إنما وقع بعد الهجرة إلى المدينة، لكن روى الإمام أحمد من وجه آخر عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يُصَلِّي وهو بمكة نحو بيت المقدس والكعبة بين يَدَيْه»[1]. ورواه ابن سعد أَيضاً وسَنَدُه جَيِّد قَوِيّ والجمع بينهما ممكن بأن يكون أُمِر لما هاجر أَن يستمر على الصلاة إلى بيت المقدس.

وقوله في حديث ابن عباس الأَول: «أَمره الله» يَرُدّ قَوْلَ من قال: «إنه ﷺ صَلَّى إلى بيت المقدس باجتهاد»، كما رواه ابن جرير عن عبد الرحمن بن زيد بن أَسلم وهو ضعيف. وعن أَبي العالية أَنه صَلَّى إلى بيت المقدس يَتَأَلَّف بذلك أَهْلَ الكتاب، وهذا لا ينبغي إلا بتوقيف.

السادس: الذين ماتوا قَبْل فَرْض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشر أَنفس: بمكة من قريش ١ عبد الله بن شهاب ٢ والمطلب بن أَزهر، الزُّهْرِيّان، ٣ والسكران بن عَمْرو العامري. وبأَرض الحبشة منهم: ٤ حَطَّاب بن الحارث الجُمَحِيّ ـ حَطَّاب بالحاء المهملة ـ ٥ وعمرو بن أُمية الأَسدي، ٦ وعبد الله بن الحارث السهمي. ٧ وعُرْوَة بن عبد العُزَّى، ٨ وعَدِيّ بن نَضْلة ـ بالنون والضاد المعجمة ـ العَدَويَّان ـ ومن الأَنصار بالمدينة: ٩ البَرَاء بن معرور ـ بمهملات، ١٠ وأَسْعَد بن زُرَارة. فهؤلاء العَشَرة مُتَّفَق عليهم، ومات في المدة أَيضاً إياس بن مُعَاذ الأَشهلي لكنه مختلف في إسلامه.

السابع: وقع في رواية زهير بن معاوية في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه في صحيح البخاري وغيره: أنه مات على القبلة ـ أَي قبلة بيت المقدس من قبل أَن تُحوَّل [قِبَل البَيْت] ـ رجالٌ قُتِلوا [فلم نَدْرِ ما نقول فيهم]. قال الحافظ: «ذِكْرُ القتل لم أَرَه إلا في رواية الزهري وباقي الروايات إنما فيها ذكر الموت فقط، ولم أَجد في شيء من الأَخبار أَن أَحداً من المسلمين قُتِل قبل تحويل القبلة، لكن لا يلزم من عدم الذكر عدم الوقوع، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة فتُحْمل على أَن بعض المسلمين مِمَّن لم يشتهر قُتِل في تلك المدة في غير الجهاد ولم يُضْبط لقلة الاعتناء بالتاريخ إذ ذاك». قال: «ثم وجدت في التاريخ ذكر رجل

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٢٥/١ وذكره الهيثمي في المجمع ١٥/٢ وزاد نسبته للطبراني في الكبير والبزار وقال: ورجاله رجال الصحيح.

اختُلِف في إسلامه وهو سويد بن الصامت»(١) فذكر ما تقدم في بدء إسلام الأنصار. ثم قال الحافظ: «فيُحْتَمل أن يكون هو المراد» قال: وذكر لي بعض الفضلاء أنه يجوز أن يُرَاد من قُتِل بمكة من الـمُسْتَضْعَفِين كأبوي عَمَّار فقلت: يحتاج إلى ثبوت أن قتلهما بعد الإسراء.

الثامن: في بيان غريب ما سبق:

«حِجَج»، بكسر الحاء المهملة وفتح الجيم الأولى وكسر الثانية [أي سنين].

«قِبَل» البيت ـ بكسر القاف وفتح الموحدة ـ :أي جهته.

«مَعْرُور»(٢) بعين مهملة.

«حانت» الصلاة: دنا وَقْتُها.

(١) سويد بن الصامت بن خالد بن عقبة الأوسي. ذكره ابن شاهين وقال: شك في إسلامه وقال أبو عمر: أنا أشك فيه كما فيه غيري. الإصابة ١٨٩/٣.

(٢) انظر اللسان ٢٨٧٦/٤.

جماع أبواب بعض أمور دارت
بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود والمنافقين
ونزول صدر من سورة البقرة وغيره من القرآن في ذلك

الباب الأول

في أخذ الله سبحانه وتعالى العهد عليهم في كتبهم أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، إذا جاءهم، واعتراف جماعة منهم بنُبُوَّتِهِ، ثم كُفر كثير منهم بَغْياً وعِناداً

فذكرت أَحاديث كثيرة في أَول الكتاب وأَذكر ما لم أَذكر هناك. قال الله سبحانه وتعالى ﴿يا بَنِي إِسْرائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُم وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة ٤٠] روى ابن إِسحاق وابن جرير وابن أَبي حاتم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن المنذر عن ابن مسعود رضي الله عنه في الآية، قال الله تعالى للأَحبار من يهود: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أَي من بلائي عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم به من فرعون وقومه: ﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الذي أَخذت في أَعناقكم للنبي محمد ﷺ إِذا جاءكم ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ يقول: أَرْضَ عنكم وأُدْخِلْكُم الجنة. وروى ابن جرير عن أَبي العالية في الآية قال: يقول: يا مَعْشَر أَهل الكتاب، آمِنُوا بما أَنزلتُ على محمد مُصَدِّقاً لما معكم لأَنهم يجدونه عندهم مكتوباً في التوراة والإِنجيل، ولا تكونوا أَوَّلَ كافر به، وبمحمد ﷺ. وروى ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه قال: ﴿وَلا تَلْبِسُوا الحَقَّ بالْبَاطِلِ﴾ [البقرة ٤٢] أَي لا تَخْلِطوا الصِّدْق بالكذب ﴿وتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٤٢] أَي لا تكتموا الحَقَّ وأَنتم قد علمتم أَن محمداً ﷺ رسولُ الله. وروى عبْد بن حُمَيْد عن قتادة قال: «لا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالإِسلام وأَنتم تعلمون أَن دين الله الإِسلام، وأَن اليهودية والنصرانية بِدْعَة ليست من الله تعالى: ﴿وتَكْتُمُوا الحَق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون﴾ أَنه رسول الله ﴿يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُم فِي التَّوْراةِ وَالإِنْجِيلِ، يَأْمُرُهُمْ بالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لهم الطَّيِّبَاتِ وَيُحرِّمُ عَلَيْهِمُ الخَبَائِثَ﴾ [الأَعراف ١٥٧] وروى ابن جرير عن السُّدِّي في قوله «وتَكْتُمُوا الحَقَّ» قال: هو محمد ﷺ. وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وَصَف الله محمداً في التوراة، أَكحل العَيْن، رَبْعَة، جَعْد الشَّعَر، حَسَن الوجه، فلما قَدِم رسول الله ﷺ حَسَده أَحبار يهود، فغَيَّروا صِفَتَه في كتابهم وقالوا: لا نَجِد نَعْتَه عندنا، وقالوا: نَجِد النبيَّ الأُمِّيَّ طويلاً أَزرق سَبِط الشَّعَر، وقالوا للسِّفْلَة: «ليس هذا نَعْت النبي الذي يُحرِّم كذا

وكذا» كما كتبوه، وغيّروا نَعْتَ هذا كما وُصِف، فلَبَّسوا بذلك على الناس. وإنما فعلوا ذلك لأن الأحبار كانت لهم مأكلة يُطْعِمهم إياها السَّفْلَة لقيامهم على التوراة، فخافوا أن يُؤْمِنَ السَّفْلة فتقطع تلك المأْكلة.

وروى البيهقي عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم قالوا: «كانت العَرَب تَمُرّ باليهود فيؤذونهم، وكانوا يجدون محمداً ﷺ في التوراة فيسألون الله تعالى أن يَبْعَثَه فيقاتلون معه العرب، فلما جاءهم كفروا به حين لم يكن من بني إسرائيل».

وروى ابن إسحاق وابن جرير، وابن المُنْذِر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأَبو نُعَيْم عنه من طُرُق، وعَبْد بن حُمَيْد، وابن جرير، وأَبو نُعَيْم عن قتادة: أَن يهود أَهل المدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ، كانوا إذا قاتلوا من يليهم من مُشْرِكي العرب من أَسَد وغَطَفان وجُهَيْنة وعُذْرَة يستفتحون يَدْعُون الله على الذين كفروا ويقولون: «اللهمّ إنا نستنصر بِحَقّ محمد النبي الأُمّيّ إلا نصرتَنا عليهم»، فيُنْصَرُون. وكانوا يقولون: «اللهمّ ابْعَث النبيَّ الأُمّيّ الذي نجده في التوراة الذي وَعَدْتَنا أَنك باعثُه في آخر الزمان». فلما جاءهم ما عَرَفُوا، كفروا به حَسَداً للعرب، وهم يعلمون أَنه رسول الله ﷺ. فقال لهم مُعَاذ بن جَبَل، وبِشر بن البَرَاء أَخو بني سَلِمَة: يا معشر يهود اتَّقُوا الله وأَسْلِمُوا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ونحن أَهْلُ شِرْك وتخبروننا أنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته.

وروى ابن جرير، وابن المُنْذِر عن ابن جُرَيْج عن بعض من أَسْلَم من أَهل الكتاب، قال: «والله لَنَحْنُ أَعْرَف برسول الله منا بأبنائنا من أَجل الصِفَة والنَّعْت الذي نجده في كتابنا، أَما أَبناؤنا فلا نَدْري ما أَحْدَث النساء» وروى ابن إسحاق، والبيهقي، وأَبو نُعَيْم عن أم المؤمنين صَفِيَّة بنت حُيَيّ رضي الله عنها أنها قالت: «لم يكن أَحَدٌ من وَلَد أَبي وعَمّي أَبي ياسِر أَحَبَّ إِليهما مِنّي، لم أَلْقَهُمَا قَطّ مع وَلَد لهما إلا أَخذاني دونه. فلما قَدِم رسول الله - ﷺ - قُبَاء قرية بني عَمْرو بن عَوْف غَدَا إِليه أَبي، حُيَيّ بن أَخْطَب وعَمّي أَبو ياسر بن أَخطب مُغَلِّسَيْن، فوالله ما جاءانا إلا مع مَغِيب الشمس، فجاءانا بأَمر أَبي كَبْشَة [كَالَّيْن كَسْلاَنَيْن] ساقِطَيْن يمشيان الهُوَيْنَى فهَشِشْتُ إِليهما كما كنت أَصْنَع، فوالله ما نَظَر إِليّ واحِدٌ منهما، فَسَمِعْتُ عَمّي أَبا ياسِر وهو يقول لأَبي حُيَي بن أَخْطَب: أَهُوَ هُوَ؟ قال: نعم. قال: أَتَعْرِفُه بِنَعْتِه وصِفَتِه؟ قال: نعم والله. قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بَقِيت».

وذكر ابن عُقْبة عن الزُّهْري قال: «إن أَبا ياسِر بن أَخْطَب حين قَدِم رسول الله - ﷺ - المدينةَ ذهب إِليه فَسَمِع منه وحادثه ثم رَجَع إِلى قومه فقال: يا قَوْم اطيعوني فإِن الله تعالى قد جاءكم بالذي تنتظرونه فَاتَّبِعُوه ولا تُخَالفوه. فانطلق أَخوه حُيَيّ بن أَخْطَب، وهو يومئذ سَيِّد

يهود، وهما من بني النَّضِير، فجلس إلى رسول الله - ﷺ - وسَمِع منه، ثم رجع إلى قومه، وكان فيهم مُطَاعاً. فقال: أتَيتُ من عند رجل والله لا أزال له عَدُواً. فقال له أخوه أبو ياسر: يا ابن أم أَطِعني في هذا الأمر واعْصِنِي فيما شئت بعد لأمهلك. فقال: والله لا أُطِيعُك. فاستحوذ عليه الشيطان، وتَبِعَه قَوْمُه على رأيه».

وروى عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد المسند عن جابر بن سَمُرَة رضي الله عنه، أنه قد جاء جَرْمَقَانِيّ[1] إلى أصحاب محمد - ﷺ - فقال: أَيْنَ صاحِبُكُم هذا الذي يَزْعُم أنه نَبِيّ، لئن سَأَلْتُه لأَعلمني نبيٌّ هو أو غير نبي. ثم قال الجَرْمَقَانِيّ: «هذا والله الذي جاء به موسى»، الجَرْمَقَانِيّ بجيم مفتوحة فراء ساكنة فميم مفتوحة فقاف فألف فنون، منسوب إلى الجرامقة. قال في الصحاح: قَوْمٌ بالمَوْصِل أصلهم من العَجَم، وقال غيره: وجرامقة الشام أنباطها.

وروى البيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن حَبْراً من أحبار اليهود دخل على رسول الله - ﷺ - فوافقه يقرأ سورة يوسف فقال: «يا محمد مَنْ عَلَّمَكَها»؟ قال: «الله عز وجل عَلَّمَنِيها»، فعَجِب الحَبْر لِمَا سمع منه. فرجع إلى اليهود فقال: «إن محمداً ليقرأ القرآن، كما أُنزِل في التوراة». فانطلق جماعةٌ منهم حتى دخلوا عليه فعرفوه بالصفة، ونظروا إلى خاتَم النبوة بين كَتِفَيْه، فجعلوا يستمعون إلى قراءته لسورة يوسف، فتعجبوا منه وأسلموا عند ذلك[2].

وذكر محمد بن عُمَر الأسلمي أن النُّعْمَان السَّبَئِيّ وكان من أحبار يهود اليمن فلما سمعوا برسول الله - ﷺ - قَدِم عليه فسأله عن أشياء، ثم قال له: «إن أبي كان يَخْتِمُ على سِفْر ويقول: «لا تَقْرَأْهُ على يهود حتى تسمع بنبيٍّ قد خرج بيثرب، فإذا سَمِعْتَ به فافْتَحْهُ». قال النعمان: «فلما سمعتُ به فَتَحْتُ السِّفْر فإذا فيه صِفَتُكَ كما أراكَ الساعة، وإذا فيه ما تُحِلّ وما تُحَرِّم، وإذا فيه أنك آخر الأنبياء، وأُمَّتُكَ آخر الأُمَم، واسمُكَ أحمد، وأُمَّتُكَ قُرْبَانُهم دِمَاؤُهُمْ، وأَنَاجِيلُهم صدُورُهم، لا يَحْضُرونَ قِتالاً إلا وجبريل معهم، وَيَتَحَنَّنُ اللهُ تعالى عليهم كَتَحَنُّنِ الطَّيْرِ على أَفْراخِه، ثم قال لي: إذا سَمِعتَ به فاخرُج إليه وصَدِّقْهُ». وكان رسول الله - ﷺ - يُحِبُّ أن يُسْمِعَ أصحابَه حديثَه. فأتاه يوماً فقال: «يا نُعْمان حَدِّثْنا»، فابتدأ الحديث من أوَّلِه، فرأى رسولَ الله - ﷺ - يبتسم، ثم قال: «أشهد أني رسول الله». ويقال إن النعمان هذا هو الذي قتله الأسود العَنْسِيّ الكَذَّاب وقَطَّعه عضواً عضواً، والنعمان يقول: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسولُ الله، وأنك كَذَّاب مُفْتَرٍ على الله عز وجل». ثم حَرَّقه بالنار، والآثار في هذا كثيرة لا تُحْصَى.

---

(١) ذكرت هذه الكلمة بضم الجيم والميم وهو على خلاف ضَبْطِ المصنف. انظر اللسان ١/٦٠٧.

(٢) ذكره السيوطي في الدر ٤/٢ وعزاه للبيهقي في الدلائل.

الباب الثانـي

في إسلام عبد الله بن سلام بن الحارث أبي يوسف

وهو من ذرية سيدنا يوسف الصِّدِّيق عليه السلام حليف القواقل من الخزرج، الإسرائيلي ثم الأَنصاري رضي الله عنه. كان اسمه الحُصَيْن فَغَيَّره النبي - ﷺ - وكان عالِم أَهل الكتاب، وكان إِسلامه في اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ دار أَبي أَيوب أَول ما قدِم، كما في رواية عبد العزيز بن صُهَيْب عند البيهقي. وروى ابن إِسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سَلاَم رضي الله عنه قال: «لما قَدِم رسول الله - ﷺ - نزل بقباء في بني عَمْرو بن عَوْف. فأَقبل رجل حتى أَخبر بقدومه..» الحديث. وفيه: «فخرجتُ إِلى رسول الله ﷺ - فأَسلمت ورجعت إِلى أَهل بيتي. قال الحافظ عماد الدين بن كثير: «فَلَعَلَّه رآه أول ما رآه بقُبَاء واجتمع به بعد ما صار إِلى دار بني النَّجّار والله أَعلم».

وروى البخاري والبيهقي عن أَنَس، وابن إِسحاق عن رجل من آل عبد الله بن سَلاَم، والإِمام أَحمد، ويعقوب بن سفيان عن عبد الله بن سَلاَم، والبيهقي عن موسى بن عُقْبَة وعن ابن شهاب، قال: لما سَمِعْتُ برسول الله - ﷺ - وعرفت صفته واسمه وهيئته وزمانه الذي كنا نَتَوكَّفُ له[1]، فكنت مُسِرًّا بذلك صامتاً عليه حتى قَدِم رسول الله - ﷺ - المدينة، فلما قَدِم نزل بقباء في بني عَمْرو بن عوف، فأَقبل رجل حتى أَخبر بقدومه، وأَنا في رأْس نخلة لي أَعمل فيها، وعَمَّتِي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة. فلما سَمِعْتُ الخَبَر بقدوم رسول الله - ﷺ - كَبَّرتُ. فقالت عَمَّتي حين سمعت تكبيري: «لو كُنْتَ سمعت بموسى بن عمران ما زدْتَ». قلت لها: «أَي عَمَّة وهو، الله أَخو موسى بن عمران، وعلى دينه، بُعِث بما بُعِث به». فقالت له: «يا ابن أَخي، أَهو النبي الذي كُنَّا نُخْبَر أَنه يُبْعَث مع نَفَس الساعة»؟[2] قلت لها: «نعم». قالت: «فذاك إِذاً». قال: «فخرجت إِلى رسول الله - ﷺ - فلما تَبَيَّنْتُ وَجْهَه عرفت أَنه ليس بوجه كَذَّاب، فكان أول شيء سمعته يقول: «افشوا السلام، وأَطْعِمُوا الطعام، وصِلُوا الأَرحام، وصَلُّوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»[3].

وعند البيهقي عن أَنس قال: سمع عبد الله بن سلام بقدوم النبي - ﷺ - فأَتى

---

(١) توكف الخبر: إذا انتظر. انظر النهاية ٥/٢٢١.

(٢) بُعِثْتُ في نَفَس الساعة: أي بُعِثتُ وقد حان قِيامُها وقَرُب، إلا أنَّ الله أخَّرها قليلاً، فبَعَثني في ذلك النَّفس، فأطْلق النَّفس على القُرْب. انظر النهاية ٥/٩٤.

(٣) أخرجه الترمذي ٤/٢٨٦ (١٨٥٤) وقال: حسن صحيح غريب.

النبي فقال: «إني سائلك عن خلال لا يعلمهن إلاّ نبي: ما أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمه؟ وما هذا السواد الذي في القمر؟» قال: «أخبرني بِهِنَّ جبريل آنفاً. قال: «جبريل»؟ قال: «نعم». قال «عدو اليهود من الملائكة». «ثم قرأ: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدىً وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة ٩٧] قال: «أما أول أشراط الساعة: فَنَارٌ تخرج على الناس من المَشْرِق [تسوقهم] إلى المَغْرِب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة: فزيادة كبد حوت، وأما الولد: فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد، وأما السواد الذي في القمر: فإنهما كانا شَمْسَيْن. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ [الإسراء ١٢] فالسواد الذي رأيت هو المَحْو». فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأنك رسولُ الله». ثم رجع إلى أهل بيته فأمرهم فأسلموا وكتم إسلامه. ثم خرج إلى رسول الله - ﷺ - فقال: «يا رسول الله، إن اليهود قد علمت أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، وأنهم قوم بُهْت، وأنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم عني بَهَتُونِي، وقالوا فِيّ ما ليس فِيّ، فأحب أن تُدْخِلَني بعض بيوتك». فأدخله رسول الله بعض بيوته، وأرسل إلى اليهود فدخلوا عليه فقال: «يا معشر يهود يا ويلكم اتقوا الله فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أني رسول الله قد جئتكم بالحق فأسلموا». فقالوا: ما نعلمه. فقال: «أي رجل فيكم الحُصَيْن بن سَلاَم»؟ قالوا: «خيرُنا وابنُ خَيرنا وسيدنا وابن سيدنا وأعلمنا وابن أعلمنا». فقال: «أرأيتم إن أسلم» قالوا: «أعاذه الله من ذلك». فقال: «يا بن سَلاَم اخرُج إليهم» فخرج عبد الله فقال: «أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون أنه لَرَسُولُ الله حقاً، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة: اسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله وأُؤمِن به وأُصَدِّقُه وأعْرِفُه. قالوا: «كَذَبْتَ أنت شَرُّنا وابنُ شَرِّنا»، وانتقصوه. قال: «هذا الذي كنتُ أخاف يا رسول الله، ألَمْ أُخْبِرْكَ أنهم قَوْمٌ بُهت، أَهْلُ غَدْرٍ وكَذِبٍ وفجور»؟ قال: «وأَظْهَرْتُ إسلامي وإسلامَ أهل بيتي، وأسْلَمت عَمَّتي خالدة بنت الحارث وحَسُنَ إسلامُها».

بيان غريب ما سبق:

«نَفَس الساعة» بفتح النون والفاء، أي بُعِثْتُ وقد حان وقت قيامها وَقَرب، إلا أن الله أَخَّرها قليلاً، فبَعَثَنِي في ذلك النَّفَس، فأطلق النَّفَس على القُرْب. وقيل معناه: أنه جَعَل للساعة

نَفَساً كَنَفَس الإِنسان أراد: إني بُعِثْتُ في وقتٍ قريب منها أُحسُّ فيه بتَفَسها كما يُحَسُّ بنَفَس الإِنسان إِذا قَرُب [المرءُ] منه. يعني بُعِثْتُ في وقتٍ بانت أَشراطُها فيه وظهرت علاماتها.

«نَزَع»[1] إلى أَبيه في الشَّبَه: أَي ذَهَبَ.

«بُهْت»:[2] جَمْع بَهُوت من بناء المبالغة في البُهْت مثل صَبُور وصُبُر، ثم سُكِّن تخفيفاً، والبُهْت[3] الكذب [والافتراء].

---

(١) انظر اللسان ٦/٤٣٩٥.

(٢) انظر اللسان ١/٣٦٨.

(٣) قال في القاموس: البهت: الباطل الذي يَتَحير مِنْ بُطْلانِهِ. انظر الترتيب ١/٣٣٠.

الباب الثالث

في موادعته صلى الله عليه وسلم اليهود، وكتبه بينه وبينهم كتاباً بذلك، ونصبهم العداوة له ولأصحابه حسداً وعدواناً، ونقضهم للعهد

قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله - ﷺ - كتاباً بين المهاجرين والأنصار وَادَع فيه يهود وعاهدهم وأَقَرَّهم على دينهم وأَموالهم واشترط عليهم وشرط لهم». أي لَمَّا امتنعوا من اتباعه، وذلك قبل الإِذن بالقتال وأَخْذ الجزية مِمَّن أَبى الإِسلام، وذكر ابن إسحاق نسخة الكتاب وهو نحو ورقتَيْن بغير إسناد، ورواه أَبو عُبيْد في كتاب الأموال[1] بسَنَد جَيِّد عن الزُهري، ولعليّ أَذكره في أَبواب مكاتباته - ﷺ -.

---

(١) قال أبو عبيد في الأموال: حدثني يحيى بن عبد الله بن بكير وعبد الله بن صالح قالا: حدثنا الليث بن سعد قال: حدثني عقيل بن خالد عن ابن شهاب أنه قال: بلغني أن رسول الله ﷺ كتب بهذا الكتاب: «هذا الكتاب من محمد النبي رسول الله بين المؤمنين والمسلمين قريش وأهل يثرب ومن تبعهم. فلحق بهم، فحل معهم وجاهد معهم. أنهم أمة واحدة دون الناس. والمهاجرون من قريش - قال ابن بكير: ربعاتهم. قال أبو عبيد: والمحفوظ عندنا رباعتهم - يتعاقلون بينهم معاقلهم الأولى وقال عبد الله بن صالح: ربعاتهم، وهو يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين والمسلمين، وبنو عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الحرث بن الخزرج على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو ساعدة على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو جشم على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين وبنو النجار على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالقسط والمعروف بين المؤمنين وبنو عمرو بن عوف على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو النبيت على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين. وبنو الأوس على رباعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وان المؤمنين لا يتركون مفرحا منهم أن يُعينوه بالمعروف في فداء أو عقل، وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى وابتغى منهم دسيعة ظلم أو اثم، أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعه. ولو كان ولد أحدهم. لا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر. ولا ينصر كافراً على مؤمن، والمؤمنون بعضهم موالي بعض دون الناس: وأنه من تبعنا من اليهود فإن له المعروف والأسوة غير مظلومين، ولا متناصر عليهم، وأن سلم المؤمنين واحد، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله، إلا على سواء وعدل بينهم وأن كل غازية غزت يعقب بعضهم بعضاً، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هذا وأقومه. وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا يعينها على مؤمن، وأنه من اعتبط مؤمناً قتلاً فإنه قود، إلا أن يرضي ولي المقتول بالعقل. وأن المؤمنين عليها كافة. وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة أو آمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه. فمن نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، لا يقبل منه صرف ولا عدل وأنكم ما اختلفتم فيه من شيء فإن حكمه إلى الله تبارك وتعالى وإلى الرسول ﷺ. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأن يهود بني عوف ومواليهم وأنفسهم أمة من المؤمنين، لليهود دينهم، وللمؤمنين دينهم، إلا من ظلم وأثم، فإنه لا يرتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني حشم مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف، وأن ليهود الأوس مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته، وأنه لا يخرج أحد منهم إلا باذن محمد ﷺ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن بيهم النصيحة والنصر للمظلوم. وأن المدينة جوفها حرم لأهل هذه الصحيفة، وأنه ما كان =

وروى ابن عائذ عن عُرْوَة بن الزبير: أَن أَول من أَتى رسول الله - ﷺ - من اليهود أَبو ياسر بن أَخطب أَخو حُييّ بن أَخطب، فسَمِع منه، فلما رجع قال لقومه: «أَطيعوني فإِن هذا هو النبي الذي كُنَّا ننتظره» فعصاه أَخوه، وكان مطاعاً فيهم، فاستحوذ عليهم الشيطان فأَطاعوه.

وروى أَبو سعيد النيسابوري في الشرف عن سعيد بن جبير قال: «جاء ميمون بن يامين، وكان رأس يهود، إِلى رسول الله - ﷺ - فقال: «يا رسول الله ابعَثْ إِليهم واجعلني حَكَماً بينهم فإِنهم يرجعون لي» فأَدخله داخلاً، ثم أَرسل إِليهم، فأَتَوْه، فخاطبوه، فقال: «اختاروا رجلاً يكون حَكَماً بيني وبينكم». قالوا: «قد رَضِينا ميمون بن يامين». فلما خرج إِليهم قال: «أَشهد أَنه رسول الله». فأَبَوْا أَن يُصَدِّقوه. وروى الإِمام أَحمد والشيخان عن أَبي هريرة رضي الله عنه أَنه قال: «قال رسول الله - ﷺ -: «لو آمن بي عَشَرة من أَحبار يهود لآمن بي كل يهودي على وجه الأَرض»[1].

وروى ابن أَبي حاتم وأَبو سعيد النيسابوري وزاد في آخره قال: «وقال كعب: اثني عشر»، وتصديق ذلك في [سورة المائدة]: ﴿وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثنَيْ عشر نَقِيباً﴾ [المائدة ١٢] قال الحافظ: فعلى هذا فالمُراد عشرة مختصة، وإِلاَّ فقد آمن به ﷺ أَكثر من عشرة، وقيل

= بين أهل هذه الصحيفة من حدث يخيف فساده فان أمره إلى الله وإلى محمد النبي، وأن بينهم النصر على من دهم يثرب وأنهم إذا دعوا اليهود إلى صلح حليف لهم فإنهم يصالحونه، وإن دعونا إلى مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين، إلا من حارب الدين، وعلى كل أناس حصتهم من النفقة. وأن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم مع البر المحسن من أهل هذه الصحيفة، وأن بني الشطبة بطن من جفنة، وأن البر دون الاثم فلا يكسب كاسب إلا على نفسه وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره. لا يحول الكتاب دون ظالم ولا آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن، إلا من ظلم وأثم، ولى أولاهم بهذه الصحيفة البر المحسن.

قال أبو عبيد: قوله «بنو فلان على رباعتهم» الرباعة هي المعاقل. وقد يقال: فلان رباعة قومه، إذا كان المتقلد لأمورهم، والوافد على الأمراء فيما ينوبهم. وقوله: «إن المؤمنين لا يتركون مفرحا في فداء» المفرح: المثقل بالدين، يقول: فعليهم أن يعينوه، إن كان أسيراً فك من إساره، وإن كان جنى جناية خطأ عقلوا عنه وقوله: «ولا يجير مشرك مالاً لقريش» يعني اليهود الذين كان وادعهم، يقول: فليس من موادعتهم أن يجيروا أموال أعدائه، ولا يعينوهم عليه. وقوله: «ومن اعتبط مؤمناً قتلاً فهو قود» الاعتباط: أن يقتله بريا محرم الدم. وأصل الاعتباط في الإبل: أن تنحر بلا داء يكون بها. وقوله: «إلا أن يرضي أولياء المقتول بالعقل» فقد جعل رسول الله ﷺ الخيار في القود أو الدية إلى أولياء القتيل. وهذا مثل حديثه الآخر «ومن قتل له قتيل فهو بأحد النظرين إن شاء قتل وإن شاء أخذ الدية» وهذا يرد قول من يقول ليس للولي في العمد أن يأخذ الدية إلا بطيب نفس من العاقل ومصالحة منه له عليها. وقوله: «ولا يحل لمؤمن أن ينصر محدثاً أو يؤويه» المحدث: كل من أتى حداً من حدود الله عز وجل، فليس لأحد منعه من إقامة الحد عليه. وهذا شبيه بقوله الآخر: «من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله في أمره» وقوله: «لا يقبل منه صرف ولا عدل».
حدثنا هشيم عن رجل قد سماه عن مكحول قال: «الصرف التوبة والعدل: الفدية».
قال أبو عبيد: وهذا أحب إلي من قول من يقول الفريضة والتطوع لقول الله تبارك وتعالى. (ولا يؤخذ منها عدل) فكل شيء فدي به شيء فهو عدله وقوله «وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين» فهذه النفقة في الحرب خاصة، شرط عليهم المعاونة له على عدوه. ونرى أنه أنما كان يسهم لليهود إذا غزوا مع المسلمين بهذا الشرط الذي شرطه عليهم من النفقة. ولولا هذا لم يكن لهم في غنائم المسلمين سهم. الأموال ١٩٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧.

(١) أخرجه أحمد في المسند ٣٤٦/٢ وابن عدي في الكامل ٢٢٢١/٦ وذكره المتقي الهندي في الكنز (١٣٤٧).

المعنى: «لو آمن في الزمان الماضي كالزمن الذي قبل قدوم النبي - ﷺ - المدينة أو حال قدومه». قال الحافظ: «والذي يظهر أنهم وهم الذين كانوا حينئذ رؤساءَ في يهود، ومن عداهم كان تَبَعاً لهم، فلم يُسْلِم منهم إلا القليل كعبد الله بن سلام، وكان من المشهورين بالرياسة في يهود بني قينقاع عند قدوم النبي ﷺ. ومن بني النَّضير: أبو ياسر - بتحتية وسين فراءَ مهملتين - ابن أَخْطَبْ - بخاءَ معجمة فطاءَ مهملة فمُوحَّدة - وأخوه حُيَيّ بن أخطب، وكعب بن الأَشرف وأبو رافع سلام بن الربيع بن أبي الحُقَيْق - بقافين مُصَغَّر. ومن بني قَيْنُقَاع: سعد بن حُنَيْف، وفِنْحَاص - بفاء مكسورة فنون ساكنة فحاءَ مهملة فألف فصاد مهملة - ورفاعة بن زيد [ابن التابوت]. ومن بني قُرَيْظَة: الزَّبير - بفتح الزاي - ابن بَاطَى بن وَهْب، وكعب بن أسد وهو صاحب عقد بني قريظة الذي نقض عام الأحزاب وشمويل بن زيد، فهؤلاء لم يثبت أحد منهم، وكان كل منهم رئيساً في اليهود، لو أسلم لتَبِعه جماعة، فيحتمل أن يكونوا المراد. وروى أبو نُعَيْم في الدلائل من وجه آخر عن أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ: «لو آمن بي الزَّبير بن بَاطَى وذووه من رؤساءَ لأسلموا كلهم»(١). وأغرب السهيلي فقال: لم يُسْلِم من أحبار اليهود إلاَّ اثنان: عبد الله بن سَلاَم، وعبد الله بن صوري. قال الحافظ: كذا قال، ولم أرَ لعبد الله بن صوري إسلاماً من طريق صحيحة، فإنما نسبه السهيلي في موضع آخر لتفسير النَّقَّاش.

قال ابن إسحاق: «ونصَبَت بعد ذلك أحبار يهود لرسول الله - ﷺ - العداوةَ بَغْياً وحَسَداً وضِغْناً لما خَصَّ الله تعالى به العرب من اصطفاء رسوله منهم. وكانت أحبار يهود، هم الذين يسألون رسول الله ﷺ وَيَتَعَنَّتُونَه ويأتونه باللَّبْس ليَلْبِسوا الحَقَّ بالباطل، وكان القرآن ينزل فيهم وفيما يسألون عنه، إلا قليلاً من المسائل في الحلال والحرام كان المسلمون يسألون عنها».

وذكر ابن إسحاق وغيره أسماء اليهود، ولا حاجة بي هنا إلى ذكرهم، بل من جاء ذِكْرُه في كتابي تكلمت عليه، وكانوا ثلاث قبائل: قَيْنُقاع - بفتح القاف وتثليث النون وبالعين المهملة، ويجوز صَرْفُه على إرادة الحَيّ وتَرْك صَرْفِه على إرادة القبيلة أو الطائفة - وهم الوسط من يهود المدينة. وإذا قلت: بنو قينقاع فالوجه الصَّرْف، وقُرَيْظَة - بقاف مضمومة فظاء معجمة مشَالة، وهو أخو النضير والوسط من يهود المدينة، والنَّضِير - بضاد معجمة ساقطة وزن كريم. وحاربته الثلاثة، ونقضوا العهد الذي بينه وبينهم، فَمنَّ على بني قينقاع، وأجلى بني النضير، وقتل بني قُرَيْظة، وسَبَى ذريتهم، ونزلت سورة الحشر في بني النضير، وسورة الأحزاب في بني قُرَيْظَة، وسيأتي بيان ذلك مُفَصَّلاً في المغازي إن شاء الله تعالى.

---

(١) انظر فتح الباري ٢٧٥/٧.

الباب الرابع

في سؤال اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الروح

روى الإمام أحمد والشيخان والترمذي والنسائي وابن جرير وابن المُنْذِر وغيرهم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كنتُ أمشي مع رسول الله - ﷺ - في حَرْث المدينة - وفي لفظ: حرث الأنصار وفي لفظ: في نخل - وهو مُتَوَكِّئٌ على عَسيب - وفي لفظ: ومعه جريدة - إذ مَرَّ اليهود - وفي لفظ: إذ مَرَّ بنَفَرٍ من اليهود - فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، وقال بعضهم: لا تسألوه، لا يُسْمِعكم ما تَكْرَهون - وفي لفظ: لا يستقبلكم بشيء تكرهونه - فقال بعضهم لبعض: لنسألَنَّهُ، فقام إليه رجل - وفي لفظ: فقاموا إليه فقالوا: «يا محمد» - وفي لفظ: «يا أبا القاسم ما الروح»؟ - وفي لفظ: «فأَخْبِرْنَا عن الروح، كيف تُعَذَّب الروح الذي في الجَسَد؟ وإنما الروح من الله عزَّ وجَلَّ» فسكَت - وفي لفظ: فما زال مُتَّكِئاً على العسيب، فعلمت أنه يُوحَى إليه، فتأخرت فلما نزل الوحي قال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمِرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1]. [الإسراء: ٨٥] وفي رواية عند ابن جرير بسَنَدٍ رجالُه ثِقات عن مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود رضي الله عنه: فقالوا: «هكذا نجده في كتابنا». فقال بعضهم لبعض: «وقد قلنا لكم: لا تسألوه».

تنبيهات

الأول: دَلَّ حديث ابن مسعود على أَن نزول هذه الآية كان بالمدينة وروى الإمام أَحمد والترمذي وصَحّحه، والنسائي وابن حِبّان عن ابن عباس قال: قالت قريش ليهود: اعطونا شيئاً نسأَل عنه هذا الرجل. فقالوا: سلوه عن الروح. فنزلت: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾. قالوا: «أوتينا عِلْما كثيراً. أُوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً». فأَنزل الله عز وجل ﴿قُلْ لَوْ كَانَ البَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدداً﴾ [الكهف ١٠٩] سند رجاله رجال صحيح مسلم، ورواه ابن إسحاق من وجه آخر نحوه، وسبق في باب امتحان المشركين رسولَ الله - ﷺ - بأشياء لا يعرفها إلا نبي.

وروى ابن إسحاق وابن جرير عن عطاء بن يسار قال: نزلت بمكة: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِن العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾، فلما هاجر رسول الله - ﷺ - إلى المدينة أتاه أَحبار يهود فقالوا: يا محمد، بلغنا أَنك تقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أَفَعَنَيْتَنَا أَم عَنَيْتَ قَوْمَكَ؟ قال: «لا بل

(١) أخرجه البخاري ٢٥٣/٨ (٤٧٢١).

عَنَيْتُكم». فقالوا: «إنك تتلو أنّا أُوتينا التوراة وفيها تِبْيَان كل شيء». فقال رسول الله - ﷺ -: «هي في علم الله قليل وقد آتاكم الله ما إن عَمِلْتُم به انتفعتم»، وأنزل الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ، مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. [لقمان ٢٧، ٢٨] ودَلَّ حديث ابن مسعود، وأَثَر عطاء أن الآية نزلت بمكة، وجُمِع بينهما وبين حديث ابن مسعود رضي الله عنه بتعدد النزول، ويُحْمَل سكوته في المرة الثانية على توقع مزيد بيان في ذلك إن ساغ ذلك، وإلا فما في الصحيح أَصَحّ. وقال الشيخ رحمه الله تعالى في الإتقان: «إذا استوى الإسنادان في الصحة فيرجح أحدهما بكون راويه حاضر القصة أو نحو ذلك من وجوه الترجيحات»، ثم ذكر [مثالاً له] حديث ابن مسعود وحديث ابن عباس المذكورين. ثم قال: «فهذا - أي حديث ابن عباس - يقتضي أَن الآية نزلت بمكة، والحديث الأَول خلافه». وقد رجح أَن ما رواه البخاري أَصح من غيره، وبأَن ابن مسعود كان حاضر القصة.

الثاني: قال أَبو نعيم: «قيل من علامات نبوة سيدنا محمد - ﷺ - في الكتب المُنَزَّلَة أَنه إذا سُئِل عن الروح فَوَّض العلم بحقيقتها إلى منشئها وبارئها، وأَمسك عما خاضت فيه الفلاسفة وأَهل المنطق القائلون بالحَدْس والتخمين، فامتحنه اليهود بالسؤال عنها ليقفوا منه على نعته المُثْبَت عندهم في كتابهم، فوافق كتابه ما ثبت في كتبهم»

الثالث: قال ابن التين: «اختُلِف في الروح المسؤول عنها في هذا الخبر على أَقوال: الأَول: روح الإنسان، الثاني: روح الحيوان. الثالث: جبريل. الرابع: عيسى. الخامس: القرآن. السادس: الوحي. السابع: ملك يقوم وحده صفاً يوم القيامة. الثامن: ملك له سبعون أَلف وجه لكل وجه منها سبعون أَلف لسان لكل لسان منها سبعون أَلف لغة يُسَبِّح الله تعالى [بتلك اللغات كلها] ويخلق الله سبحانه وتعالى من كل تسبيحة ملكاً يطير مع الملائكة، وقيل: ملك رجلاه في الأَرض السفلى ورأْسه عند قائمة العرش. التاسع: خَلْق كَخَلْقِ بني آدم يأْكلون ويشربون، لا يَنْزِلُ مَلَكٌ من السماءِ إلا نزل معه مَلَكٌ منهم. وقيل: هو صِنْفٌ من الملائكة يأْكلون ويشربون». قال الحافظ: «وهذا إنما يجْمَع من كلام أَهل التفسير في معنى لفظ «الروح» الوارد في القرآن لا خصوص هذه الآية، فَمَنْ الذي في القرآن: ١ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء ١٩٣]، ٢ ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى ٥٢]، ٣ ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [غافر: ١٥]، ٤ ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة ٢٢]، ٥ ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً﴾ [النبأ ٣٨]، ٦ ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل ٢]؟ **فالأول**: جبريل، **والثاني**: القرآن، **والثالث**: الوَحْي، **والرابع**: القوة، **والخامس والسادس**: مُحْتَمِل لجبريل أَو غيره، ووقع إطلاق الروح على عيسى.

وروى إسحاق بن راهويه بَسَندٍ صحيح عن ابن عباس قال: «الروح من الله، وخَلْقٌ من خَلْقِ الله، وصُورَ كبني آدم، لا يَنْزِل مَلَكٌ إلا ومعه أَحَدٌ من الروح». وقال الخَطَّابي: «حَكَوْا في المراد بالروح في الآية أقوالاً، وقال الأكثرون: سألوه عن الروح التي تكون بها الحياة في الجَسَد. وقال أهل النظر: «سألوه عن مسلك الروح وامتزاجها بالجَسَد، وهذا هو الذي استأثر اللهُ بعِلْمِه. وقال القرطبي: «الراجح أنهم سألوه عن روح الإنسان؛ لأن اليهود لا تعترف بأن عيسى روح الله، ولا نجهل أن جبريل مَلَك وأن الملائكة أرواح». وقال الإمام فخر الدين: «المختار أنهم سألوه عن الروح الذي هو سبب الحياة، وأن الجواب وقع على أحسن الوجوه، وبيانه: أن السؤال عن الروح يحتمل أن يكون عن ماهيَّتِها، وهل هي مُتَحيِّزَة أم لا، وهل هي حَالَّة في مَتَحَيِّز أم لا، وهل هي قديمة أو حادثة، وهل تَبْقَى بعد انفصالها من الجسد أو تَفْنَى، وما حقيقة تعذيبها وتنعيمها وغير ذلك من تَعَلُّقَاتِها»؟ قال: «وليس في السؤال ما يُخَصِّص أحد هذه المعاني إلا أن الأظهر أنهم سألوه عن الماهِيَّة، وهل الروح قديمة أو حادثة؟ والجواب يَدُلُّ على أنها شيء موجود مغاير للطبائع والأخلاط وتركيبها، فهي جوهر بسيط مُجَرَّد لا يَحْدُث إلا بُمُحْدِث، وهو قوله تعالى: «كن فكان». قال: هي موجودة مُحْدَثَة بأمر الله عز وجل، وتكوينه، ولها تأثير في إفادة الحياة للجسد، ولا يلزم من عدم العلم بكيفيتها المخصوصة نَفْيُها.

الرابع: تَنَطَّع قوم «فتباينت أقوالهم في الروح، فقيل: هي النَّفس الداخل الخارج، وقيل الحياة، وقيل: جسم لطيف يحل في جميع البدن، وقيل: هي الدم، وقيل: هي عَرَض، حتى قيل: إن الأقوال بلغت المائة، ونقل ابن مندة عن بعض المتكلمين أن لكل نبي خمس أرواح، وأن لكل مؤمن ثلاثاً، ولكل حَيٍّ واحدة.

الخامس: قال القاضي أبو بكر بن العربي: «اختلفوا في الروح والنفس، فقيل متغايران وهو الحق، وقيل: هما شيء واحد، وقد يُعَبَّر بالروح عن النفس وبالعكس، كما يُعَبَّر عن الروح وعن النفس بالقلب وبالعكس، وقد يُعَبَّر عن الروح بالحياة حتى يتعدى ذلك إلى غير العقلاء بل إلى الجُهَّال مجازاً.

قال تلميذه السُّهَيْلي: يعني على مغايرة الروح والنفس قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي**﴾ [الحجر: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿**تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ**﴾ [المائدة ١١٦] فإنه لا يصح جَعْل أحدهما موضع الآخر، ولولا التغاير لسَاغَ ذلك.

السادس: في قوله تعالى: ﴿**قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾، قال الإمام فخر الدين الرازي: «يُحْتَمَل أن يكون المراد بالأمر هنا الفِعْل كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ**﴾ [هود ٩٧]

أي فِعْله فيكون الجواب: الروح من فِعْل رَبِّي، إن كان السؤال: هل هي قديمة أو حادثة؟ فيكون الجواب: أنها حادثة».. إلى أن قال: «ولهذا سَكَت السلف عن البحث في هذه الأشياء والتَّعَمُّق فيها». وقال الإسماعيلي: «يُحْتَمَل أن يكون جواباً وأن الروح من جملة أمر الله وأن يكون المراد: اختص الله عز وجل بعلمه ولا سؤال لأحد عنه».

وقال السهيلي بعد أن حكى ما المراد في الآية: «وقالت طائفة: الروح الذي سألت عنه اليهود هو روح الإنسان. ثم اختلف أصحاب هذا القول، فمنهم من قال: لم يُجِبْهُم رسول الله ﷺ على سؤالهم، لأنهم سألوه تَعَنّتاً واستهزاءً، فقال الله عز وجل: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، ولم يَأْمره أن يُبَيِّنَه لهم. وقالت طائفة: بل أخبرهم وأجابهم بما سألوه، لأنه قال لِنَبِيِّه ﷺ: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)، وأَمْرُ الرَّبِّ هو الشرع والكتاب الذي جاء به، فمن دخل في الشَّرْع وتَفَقَّه في الكتاب والسُّنَّة عرَف الروح، فكان معنى الكلام: ادخلوا في الدين تعرفوا ما سألتم عنه، فإنه من أمْر ربِّي أي من الأمر الذي جِئْتُ به مُبَلِّغاً عن الرَّبِّ، وذلك أن الروح لا سبيل إلى معرفتها من جهة الطبيعة ولا من جهة الفلسفة ولا من جهة الرأي والمعرفة، وإنما تُعْرفُ من جهة الشَّرْع. فإذا نظرتَ إلى ما في الكتاب والسُّنَّة من ذِكْرِها نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ﴾ [السجدة ٩] أي من روح الحياة، والحياة من صفات الله سبحانه وتعالى، وإلى ما أَخْبَر به رسول الله ﷺ بأن «الأرواح جنودٌ مُجَنَّدة»، وأنها تتعارف وتَتَشَامّ في الهواء، وأنها تُقْبضَ من الأجساد بعد الموت، وأنها تُسْأَل في القبر فتفهم السؤال وتسمع وترى، وتنعم وتُعَذَّب، وتلتذ وتتألم، وهذه كلها من صفات الأجسام، فإنك تعرف أنَّها أجسام بهذه الدلائل، لكنها ليست كالأجسام في كثافتها وثقلها وإظلامها، إذ الأجسام خُلِقت من طين وحمأ مسنون، فهو أصلها، والأرْوَاح خُلِقت من ماء كما قال الله سبحانه وتعالى، ويكون النَّفْخ المتقدم المضاف إلى المَلَك، والملائكة خُلِقَتْ من النور كما جاء في الصحيح وإن كان قد أضاف النَّفْخ إلى نفسه سبحانه وتعالى وكذلك أضاف قَبْض الأرواح إلى نفسه فقال: ﴿اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر ٤٢]، وأضاف ذلك إلى المَلَك أيضاً فقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة ١١]، والفِعْل مضاف إلى المَلَك مَجَازاً وإلى الرَّبِّ حقيقةً.

فالروح إذاً جسم ولكنه من جنس الريح، ولذلك سُمِّي روحاً من لفظ الريح، ونَفْخَةُ المَلَك في معنى الرِّيح، غير أنه ضُمَّ أوله لأنه نوراني، والريح هواءٌ مُتَحَرِّك. وإذا كان الشَّرْع قد عَرَّفنا من معاني الروح وصفاتها هذا القَدْر، فقد عَرَّف من جهة أَمْرِها كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ [الإسراء ٨٥]، وقوله: «من أمر رَبِّي»، أيضاً، ولم يقل من

أَمر الله، ولا من أَمر ربكم، يدل على خصوص، وعلى ما قَدَّمنا من أنه لا يَعْلَمُه إلا من أخذ معناه من قول الله تعالى وقول رسوله ﷺ، بعد الإيمان بالله ورسوله واليقين الصادق والفقه في الدين، فإن كان لم يخبر اليهود حين سألوا عنها، فقد أحالهم على موضع العلم بها.

السابع: قال ابن القَيِّم: ليس المراد بالأَمر هنا الطلب اتفاقاً، وإنما المراد به المأمور، والأَمر يُطْلَق على المأمور، كالخَلْق على المخلوق، ومنه ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود ١٠١] الآية.

الثامن: قال ابن بَطَّال: «معرفة حقيقة الروح مما استأْثر الله عز وجل بعلمه بدليل هذا الخبر»، قال: «والحكمة في إبهامه اختبار الخَلْق ليُعَرِّفهم عَجْزَهم عن علم ما لا يدركونه حتى يضطرهم إلى رَدّ العلم إليه». وقال القرطبي: «الحكمة في ذلك إظهار عجز المرء، لأنه إذا لم يعلم حقيقة نفسه مع القطع بوجوده كان عجزه عن إدراك حقيقة الحَقّ من باب أَوْلَى».

التاسع: ثَبَت عن ابن عباس رضي الله عنهما أَنه كان لا يُفَسِّر الروح أَي لا يُعَيِّن المراد بها في الآية. وممن رأَى الإمساك عن الكلام في الروح أَستاذ الطائفة أَبو القاسم الجُنَيْد رحمه الله تعالى، كما في عوارف المعارف عَنْهُ بعد أَن نقل كلام الناس في الروح، وكان الأَوْلَى الإمساك عن ذلك، والتَّأَدُّبَ بأَدب النبي ﷺ. ثم نقل عن الجُنَيْد أَنه قال: «الروح شَيءٌ استأْثر الله عز وجل بعلمه، ولم يُطْلِعْ عليه أَحداً من خَلْقِه فلا تجوز العبارة عنه بأَكثر من موجود».

وعلى ذلك جرى ابن عطية وجَمْعٌ من أَهل التفسير، وأَجاب من خَاضَ في ذلك بأَن اليهود سأَلوا عنها سؤال تَعْجيز وتغليظ لكونه يُطْلَق على أَشياء، فأَضمروا بأَنه بأَي شيءٍ أَجاب؟ قالوا: ليس هذا المراد، فَرَدَّ اللهُ كَيْدَهم وأَجابهم جواباً مُجْمَلاً مطابقاً لسؤالهم المُجْمَل.

وقال في العوارف: «ويجوز أَن يكون كلامهم في ذلك بمثابة التأْويل لكلام الله تعالى والآيات المُنَزَّلة حيث حُرِّم تفسيره وجُوِّز تأْويله، إذ لا يسوغ التفسير إلا نقلاً، وأَما التأْويل فتمتد العقول إليه بالباع الطويل وهو ذِكْر ما تتحمل الآية (من المعنى من غير القطع بأَنه المراد). وإذا كان الأَمر كذلك فللقول فيه وَجْهٌ ومَحْمَل. قال: وظاهر الآية المنع من القول فيها، فختم الآية بقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ أَي اجعلوا حكم الروح من الكثير الذي لم تؤتوه فلا تسأَلوا عنه فإنه من الأَسرار.

العاشر: نقل ابن منده في كتاب الروح له عن الإمام الحافظ المطلع على اختلاف الأَحكام من عهد الصحابة إلى عهد فقهاء الأَمصار محمد بن نصر المَرْوَزِيّ أَنه نقل الإجماع على أَن الروح مخلوقة، وإنما نُقِل القول بقِدَمها عن بعض غُلاَة الرافضة والمُتَصَوِّفة.

الحادي عشر: اختُلِف هل تفنى عند فناء العالم قبل البعث أَو تستمر باقية؟ على قولين أَرْجَحُهُما الثاني عند الجمهور.

الثاني عشر: ذكر بعض المفسرين أَن الحكمة في سؤال اليهود عن الروح أَن عندهم في التوراة أَن روح بني آدم لا يعلمها إلا الله عز وجل، فقالوا: نسأَله فإِن فَسرّها فهو نبي، وهو معنى قولهم: لا يجيء بشيءٍ تكرهونه.

الثالث عشر: جنح ابن القَيِّم في كتاب الروح إِلى ترجيح أَن المراد بالروح المسؤول عنها في الآية ما وقع في قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ: ٣٨] وأَما أَرواح بني آدم فلم يقع تسميتها في القرآن إِلا نَفْساً. قال الحافظ: «كذا قال ولا دلالة في ذلك لما رَجَّحه، بل الراجح الأَوَّل: فقد روى ابن جرير من طريق العَوْفي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه القصة أَنهم قالوا: أَخْبِرْنا عن الروح، وكيف يُعَذَّب الروح الذي في الجَسَد؟ إِلى آخره [ما قالوا وقد] تَقَدَّم بتمامه.

الرابع عشر: قال بعضهم: ليس في الآية دلالة على أَن الله سبحانه وتعالى لم يُطلع نَبِيَّه على حقيقة الروح، بل يُحْتَمَل أَن يكون أَطْلَعه، ولم يأْمره أَن يُطْلِعهم، وقد قال في عِلْم الساعة نحو هذا كما سيأْتي مبسوطاً في الخصائص إِن شاء الله تعالى.

الخامس عشر: وقع في الصحيح في العِلْم والاعتصام والتوحيد، وكذا عند مسلم: إِذ مَرَّ بِنَفَرٍ، عند ابن حَجَر من وجه آخر: إِذ مررنا على يهود، ووقع في التفسير: إِذ مَرَّ اليهودُ، بالرفع على الفاعلية، ويُحْتَمَل هذا الاختلاف على أَن الفريقين تَلاَقَوْا فَيَصْدُق أَنْ كلاًّ مَرَّ بالآخر.

السادس عشر: في بيان غريب ما سبق:

«حَرْث»: بفتح الحاء المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة، ووقع عند البخاري في كتاب العلم خَرِب[1] بخاء معجمة مفتوحة فراء مكسورة.

«يَتَوَكَّأُ»: يعتمد.

«عَسِيب»: بعين فسين مهملتين وآخره موحدة بوزن عظيم وهو جريدة [النخل] التي لا خوص عليها. قال ابن فارس: العسبان من النخل كالقضبان من غيرها.

«يَهُود»: هذا اللفظ معرفة تدخله الأَلف واللام تارةً وتارةً يَتَجَرَّد، وحذفوا منه ياء النِّسْبَة تَفْرِقةً بينه وبين مفرده، كما قالوا: زَنْج وَزَنْجيّ.

---

(١) انظر اللسان ١١٢٢/٢.

الباب الخامس

في تحيرهم في مدة مكث هذه الأمة لما سمعوا الحروف المقطعة في أوائل السور

قال ابن إسحاق - فيما ذُكِر لي عن عبد الله بن عباس، وجابر بن عبد الله بن رئاب - «إن أبا ياسر بن أخطَب مَرّ برسول الله ﷺ، وهو يتلو فاتحة البقرة ﴿الم ذَلِكَ الكِتابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى للمُتَّقِين﴾ [البقرة ١،٢]، فأتى أخاه حُيَيّ بن أخطَب في رجال من يهود، فقال: تَعَلَّمُوا، والله لقد سمِعْتُ محمداً يتلو فيما أُنزِل عليه: ﴿الم ذَلِكَ الكِتابُ﴾ فقالوا: أنت سَمِعْتَه؟ قال: نعم. فمشى حُيَيّ بن أخطب في أولئك النفر من يهود إلى رسول الله ﷺ، فقالوا له: «يا محمد، ألم يذكر لنا أنك تتلو فيما أُنْزِل عليك ﴿الم ذَلِكَ الكِتابُ﴾؟ فقال رسول الله ﷺ: «بلى». قالوا: «أجاءك بها جبريل من عند الله؟ قال: «نعم». قالوا: «لقد بَعَثَ الله قَبْلَكَ أنبياء أنبياء ما نَعْلَمُه بَيَّنَ لِنَبِيٍّ منهم ما مُدَّة مُلْكِه وما أَجَلُ أُمَّتِه غيرك». فقام حُيَيّ بن أخطب، وأَقْبَلَ على مَنْ معه فقال لهم: «الألِف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة، أفتدخلون في دين [نَبِيٍّ] إنما مُدَّةُ مُلْكِه وأَجَل أُمَّتِه إحدى وسبعون سنة»؟ ثم أقبل على رسول الله ﷺ فقال: «يا محمد هل مع هذا غيره»؟ قال: «نعم» قال: ماذا؟ قال: ﴿المص﴾ [الأعراف ١] قال: هذا أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا يا محمد غيره»؟ قال: «نعم». [قال: وما ذاك؟] قال: ﴿الر﴾ [يوسف: ١] قال: «هذه أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة فهل مع هذا غيره يا محمد»؟ قال: «نعم» ﴿المر﴾ [الرعد ١]. قال: «هذه والله أثقل وأطول: الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان، فهذه إحدى وسبعون ومائتا سنة». ثم قال: «لقد لُبِّسَ علينا أَمْرُك يا محمد حتى ما ندري أقليلاً أُعْطِيتَ أم كثيراً». ثم قاموا عنه، فقال أبو ياسر لأخيه ولمن معه من الأحبار: «ما يدريكم لَعلَّه قد جُمِع هذا كله لمحمد: إحدى وسبعون [وإحدى وستون ومائة]، وإحدى وثلاثون ومائتان، وإحدى وسبعون ومائتان، فذلك سبعمائة وأربع وثلاثون». فقالوا: لقد تشابه علينا أمْرُهُ. فيزعمون أن هذه الآيات نزلت فيهم: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْه آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران ٧].

[قال ابن إسحاق]: «وقد سَمِعْتُ مَنْ لا أَتَّهِم من أهل العلم يذكر أن هؤلاء الآيات أُنزِلَتْ في أهل نَجْرَان حين قَدِموا على رسول الله ﷺ ليسألوه عن عيسى بن مَرْيَم. وقد حَدَّثني

محمد بن أَبي أُمَامة بن سَهْل بن حُنَيْف أَنه سَمِع أَن هؤلاء الآيات إِنما أُنْزِلَن في نَفَرٍ من يهود ولم يُفَسِّر ذلك لي، فالله أَعلم أَي ذلك كان».

تنبيهات

الأَول: روى البخاري في تاريخه وابن جرير من طريق ابن إِسحاق عن الكلبي عن أَبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد الله فذكر الحديث السابق، فبَانَ سَنَد ابن إِسحاق بذلك. ورواه يونس بن بُكَيْر عن ابن إِسحاق عن محمد بن أَبي محمد، عن عِكْرمة، عن أَبي سعيد. ورواه ابن المنذر من وجه آخر عن ابن جرير مُفَصَّلاً.

الثاني: قال السُّهَيْلي: «وهذا القول من أَخبار يهود، وما تَأَوَّلُوه من معاني هذه الحروف مُحْتَمَل حتى الآن أَن يكون من بعض ما دَلَّتْ عليه هذه الحروف المُقَطَّعة، فإِن رسول الله ﷺ لم يُكَذِّبهم فيما قالوا من ذلك ولا صَدَّقَهم. وقال في حديث آخر: «لا تُصَدِّقوا أَهل الكتاب ولا تُكَذِّبوهم، وقولوا آمَنَّا بالله وبرسوله»(١). وإِذا كان في حَدّ الاحتمال وَجَبَ أَي يُفْحَص عنه في الشريعة، هل يُشير إِلى كتاب أَو سُنَّة؟ فوجدنا في التنزيل ﴿وَإِنَّ يَوْماً عِنْد رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِـمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج ٤٧] ووجدنا في حديث زمل الخزاعي حين قَصَّ على رسول الله ﷺ رُؤْيا قال فيها: «رأَيتُكَ يا رسول الله على مِنْبر له سَبع درجات، وإِلى جَنْبك ناقة عجفاء كأَنك تبعثها». ففَسَّر له النبي ﷺ الناقة بقيام الساعة التي أُنذر بها، وقال في المنبر ودرجاته: «الدنيا سبعة آلاف سنة بُعِثْتُ في آخرها أَلفاً»(٢) والحديث وإِن كان ضعيف الإِسناد فقد رُوِيَ موقوفاً عن ابن عباس من طُرُقٍ صِحَاح أَنه قال: «الدنيا سبعة أَيام كل يوم منها أَلف سنة»(٣)، وبُعِث رسول الله ﷺ في آخر يوم منها، وقد مضت [منه] سنون أَو قال مئون: [قال السهيلي]: ولكن إِذا قلنا: إِنه عليه الصلاة والسلام بُعِث في الأَلف الأَخيرة بعد ما مضت منه سنون، ونظرنا بعد إِلى الحروف المُقَطَّعة في أَوائل السور وجدناها أَربعة عشر حرفاً يجمعها قولك: «أَلَم يسطع نَصّ حق كُرِه»، ثم نأْخذ العدد على حساب أَبي جاد، فنجد «ق» مائة و «ر» مائتين و «س» ثلثمائة فهذه ستمائة و «ع» سبعين، و «ص» ستين، فهذه سبعمائة وثلاثون، و «ن» خمسين و «ك» عشرين، فهذه ثمانمائة و «م» أَربعين و «ل» ثلاثين، فهذه ثمانمائة وسبعون، و «ي» عشرة و «ط» تسعة و «ا» واحد، فهذه ثمانمائة وتسعون، و «ح» ثمانية و «هـ» خمسة، فهذه تسعمائة وثلاثة. ولم يُسَمِّ الله عز وجل في أَوائل السُّوَر إِلا هذه

(١) أخرجه البخاري ٢٣٧/٣ والبيهقي في السنن ١٦٣/١٠.
(٢) انظر فتح الباري ٣٥١/١١.
(٣) أخرجه الفتني في تذكرة الموضوعات (٢٢٤).

الحروف، فليس يَبْعُد أَن يكون من بعض مقتضياتها وبعض فوائدها الإشارة إلى هذا العدد من السنين لِمَا قدمناه في حديث الأَلف السابع الذي بُعِث فيه رسول الله ﷺ. غير أَن الحساب يُحْتَمَل أَن يكون من مبعثه أَو من وفاته أَو من هجرته، وكُلٌّ قريبٌ بعضُه من بعض، فقد جاءت أَشراط الساعة ولكن لا تأْتيكم إلا بَغْتَة. وقد رُوِيَ أَن المتوكل العباسي سأَل جعفر بن عبد الواحد القاضي، وهو عباسي أَيضاً، عَمَّا بَقِيَ من الدنيا فحَدَّثَه بحديث رفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال: «إِن أَحسنت أُمتي فبقاؤها يَوْمٌ من أَيام الآخرة وذلك أَلف سنة، وإِن أَساءت فنصف يَوْم»، ففي هذا الحديث تَتْمِيم للحديث المتقدِّم وبيانٌ له، إِذ قد انقضت الخمسمائة والأُمة باقية والحمد لله». هذا آخر كلام السهيلي، وفيه مناقشات من الزهر والفتح مع زيادتها من غيرها.

الأُولى: قوله: وجدنا في حديث زمل الخزاعي إلخ صوابه: ابن زمل، وسَمَّاه بعضهم: عبد الله، وبعضهم: الضَّحَّاك، وبعضهم: عبد الرحمن، وصَوَّب الحافظ في الإِصابة الأَول، وقوله الخزاعي صوابُه الجهني كما ذكره في الزهر.

الثانية: قوله: وإِن كان إِسناد هذا الحديث ضعيفاً. إلخ، اقتصر على ضَعْفه، قال [ابن حجر] في الفتح: إِسناده ضعيف جداً، وقال في الإِصابة: «تَفَرَّد برواية [حديثه] سليمان بن عَطَاء القرشي الحَرَّاني عن مسلم بن عبد الله الجُهَنِيّ». انتهى. قُلْتُ: وسليمان بن عطاء. قال الذهبي في المغنى: «هالك اتُّهم بالوضع». وقال الحافظ في التقريب: «منكر الحديث». وأَورده ابن الجوزي في الأَحاديث الواهية، ووصف بعض رجاله بوضع الحديث. وقال ابن الأَثير: «أَلفاظه مصنوعة مُلَفَّقَة».

وروى ابن عدي عن أَنس مرفوعاً: «عُمْر الدنيا سبعة أَيام من أيام الآخرة». وفي سنده «العلاء بن زَيْدَل» وهو المتهم به. ورواه ابن عساكر من طريق أَبي علي الحسين بن داود البلخي، قال الخطيب: «ليس بثقة، حديثه موضوع». وقال الحاكم: «روى عن جماعة لا يَحْتَمِل سِنُّه السماعَ منهم، وله عندهم العجائب يُسْتَدَلُّ بها على حاله». وفي سَنَدِه أَيضاً أَبو هاشم الأَيلي. ورواه الحاكم، والترمذي الحكيم في نوادره، عن أَبي هريرة رضي الله عنه، وفي سَنَدِه صالح ابن محمد، عن يَعْلَى بن هِلاَل، عن ليث بن مجاهد.

الثالثة: قوله: «فقد رُوِي موقوفاً عن ابن عباس من طُرُقٍ صِحَاح»، قلت: لم أَقف له إلا من طريق واحد غير صحيح، رواه ابن جرير في مقدمة تاريخه، ومنه أَخذ السهيلي من طريق يحيى بن يعقوب وهو أَبو طالب القاصّ الأَنصاري، قال البخاري: منكر الحديث، وقال أَبو حاتم: مَحَلُّه الصدق. وذكره ابن حِبَّان في الثقات وقال: يُخْطِئ.

الرابعة: ما ذكره في عدد الحروف مبني على طريقة المغاربة: السين بثلثمائة، والصاد بستين، وعند المشارقة: السين سِتُّون والصاد تسعون. فيكون المقدار عندهم ستمائة وثلاثة وتسعون، وقد مَضَتْ وزيادة عليها فإنه في سنة خمس وثلاثين وتسعمائة فالجملة على ذلك من هذه الحيثية باطلة.

الخامسة: ثَبَت عن ابن عباس الزَّجْر عن عدد أَبي جاد، والإِشارة إِلى أَن ذلك من جملة السِّحْر. قال الحافظ: «وليس ببعيد فإِنه لا أَصْلَ له في الشريعة».

السادسة: قال القاضي أَبو بكر بن العربي شيخ السهيلي في قوله ﷺ: «بُعِثْتُ أَنا والساعة كهاتَيْن»، وأَشار بالسَّبَّابة والوُسْطَى. قيل: الوُسْطَى تزيد على السَّبَّابة بنصف سُبْع إِصْبَع، وكذلك الباقي من البعثة إِلى قيام الساعة». قال «وهذا بعيد، ولا يُعْلَم مقدار الدنيا، فكيف يَتَحَصَّل لنا نصف سُبْع أَمَد مجهول؟ فالصواب الإِعراض عن ذلك». وقال القاضي في الإِكمال: «حاول بعضهم في تأْويله أَن نسبة ما بين الإِصبعَيْن كنسبة ما بقي من الدنيا إِلى ما مضى، وأَن جملتها سبعة آلاف سنة، واستند إِلى أَخبار لا تَصِحّ، وذكر ما أَخرجه أَبو داود في تَأَخُّر هذه الأُمة نصف يوم وفَسَّره بخمسمائة سنة، فيُؤْخَذ من ذلك نصف سُبْع، وهو قريب مما يلي السَّبابة، والوُسْطَى في الطول». قال: «وقد ظهر عدم صحة ذلك لوقوع خلافه ومجاوزة هذا المقدار ولو كان ذلك ثابتاً لم يقع خلافُه». انتهى.

وقد انضاف إِلى ذلك منذ عهد القاضي إِلى هذا الحين نحو الأَربعمائة سنة. وقال ابن العربي أَيضاً في فوائد رحلته: «ومن الباطل علم الحروف المُقَطَّعة في أَوائل السُّوَر، وقد تَحَصَّل لي فيها عشرون قولاً وأَزيد، ولا أَعرف أَحداً يحكم عليها بعلم ولا يصل فيها إِلى فَهْم» إِلى آخر ما ذكره. وقد ذكرته مع فوائد أُخرى في الكلام على هذه الحروف في كتابي. «القول الجامع الوجيز الخادم للقرآن العزيز». لا توجد مجموعة في غيره.

السابعة: قال الحافظ: «وأَما عدد الحروف فإِنما جاء عن بعض اليهود، وعلى تقدير أَن يكون ما ذُكِر في عدد الحروف فَلْيُحْمَل على جميع الحروف الواردة ولا يحذف المُكَرَّر فإِنه ما من حرف إِلا وله سِرٌّ يَخُصُّه، أَو يُقْتَصَر على حذف المكرر من أَسماء السُّوَر ولو تكررت الحروف فيها، فإِن السور التي ابتُدِئت بذلك تِسْعٌ وعشرون سورة، وعدد حروف الجميع ثمان وستون حرفاً وهي: الم: ستة، وحم: سبعة، والر: خمسة، وطسم: اثنتان والمص وكهيعص وطه وطس ويس وص وق ون. فإِذا حُذِف ما كُرِّر من السُّوَر وهي خمس من الم وست من حم، وأَربع من الر وواحدة من طسم، بقي أَربع عشرة سورة عدد حروفها ثمان وثلاثون حرفاً.

فإذا حسبت عددها بالجُمَّل المَغْرِبي بلغت أَلفين وستمائة وأَربعة وعشرين، وأَما بالجُمَّل المَشْرِقي فتبلغ أَلفاً وسبعمائة وأَربعة وخمسين. قال الحافظ: «ولم أَذكر ليُعْتَمَد عليه وإنما ليُتَبَيَّن أَن الذي جنح إليه السهيلي لا ينبغي الاعتماد عليه لشدة التخالف فيه».

الثامنة: في جامع مَعْمَر عن مجاهد وعِكْرِمة في قوله تعالى: ﴿**فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ**﴾ [المعارج ٤] لا يدري كم مضى ولا كم بقي إلا الله عز وجل.

التاسعة: ما نقله عن جعفر بن عبد الواحد، فهو شيء موضوع لا أَصل له، ولا يُعْرَف إلا من جهته، وهو مشهور بوضع الحديث عند الأَئمة، مع أَنه لم يسبق له سَنَد بذلك، والعَجَب من السهيلي كيف سكت عليه مع علمه بحاله.

الباب السادس

في سبب نزول سورة الإخلاص

روى أَبو الشيخ في العظمة عن أَنس بن مالك، وابن أَبي حاتم، وابن عدي، والبيهقي في الأَسماء والصفات عن ابن عباس والطبراني في السنة عن الضَّحَّاك، وابن جرير، وابن المنذر عن قتادة، أَن رَهْطاً من اليهود منهم كعب بن الأَشرف وحُيَيّ بن أَخطب، جاؤوا إِلى رسول الله ﷺ فقالوا: «يا محمد، هذا الله خَلَقَ الخَلْقَ فمن خَلَق الله»؟ فغَضِب النبي ﷺ حتى انْتُقِع لَوْنُه، ثم ساوَرَهم غَضَباً لِرَبِّه، فجاء جبريل فَسكَّنَه وقال: «خَفِّضْ عليك يا محمد»، وجاءه من الله عز وجل بجواب ما سأَلوه [عنه] فأَنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص ١](١)، أَصل أَحَد هنا واحد، لأَنه بمعنى الواحد، قُلِبَت الواو هَمْزَة، وهو دَالٌّ على جميع صفات الجلال، كما دَلَّ الله على جميع صفات الكمال، إِذ الواحد الحقيقي ما يكون مُنَزَّهَ الذات عن اتحاد التركيب والتَّعَدُّد، وما يستلزمه أَحدهما كالجسمية والتَّحَيُّز (اللهُ الصَّمَد): المقصود في الحوائج على الدوام، أَو هو الذي قد انتهى في سؤدده، فيصمد الناس إِليه في حوائجهم، والخلائق يفتقرون إِلى رحمته، أَو هو مَنْ لا جَوْفَ له، أَو هو الكامل في جميع صفاته، أَو الذي لا يطعم ولا يخرج منه شيء، أَو الباقي بعد فناء خَلْقه، والله تعالى هو الموصوف بهذا على الإِطلاق، فإِنه مُسْتَغْنٍ عن غيره مطلقاً، وكل ما عداه يحتاج إِليه في جميع جهاته، وتعريفه بصمديته بخلاف أَحديته. وتكرر الاسم الكريم للإِشعار بأَنه من لم يتصف به

(١) قال الرازي: في سبب نزولها وفيه وجوه: الأول: أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحاك: إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا: شققت عصانا وسببت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيراً أغنيناك، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست بفقير، ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته»، فأرسلوه ثانية وقالوا: قل له بين لنا جنس معبودك، أمن ذهب أو فضة، فأنزل الله هذه السورة، فقالوا له: ثلثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت: ﴿والصافات﴾ [الصافات: ١] إلى قول: ﴿إن إلهكم لواحد﴾ [الصافات: ٤] فأرسلوه أخرى، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل: ﴿إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض﴾ [يونس: ٣]. الثاني: أنها نزلت بسبب سؤال اليهود، روى عكرمة عن ابن عباس أن اليهود جاؤوا إلى رسول الله ومعهم كعب بن الأشرف، فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكنه، وقال: اخفض جناحك يا محمد، فنزل: ﴿قل هو الله أحد﴾ فلما تلاه عليهم قالوا: صف لنا ربك كيف عضده، وكيف ذراعه؟ فغضب أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل بقوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ [الأنعام: ٩١]. الثالث أنها نزلت بسبب سؤال النصارى، روى عطاء عن ابن عباس، قال: قدم وفد نجران، فقالوا: صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال: إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء فنزلت ﴿قل هو الله أحد﴾ قالوا: هو واحد، وأنت واحد، فقال: ليس كمثله شيء، قالوا: زدنا من الصفة، فقال: ﴿الله الصمد﴾ فقالوا: وما الصمد؟ فقال: الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا: زدنا فنزل: ﴿لم يلد﴾ كما ولدت مريم ﴿ولم يولد﴾ كما ولد عيسى ﴿ولم يكن له كفواً أحد﴾ يريد نظيراً من خلقه]. تفسير الرازي ١٦١/٣٢.

لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة من العاطف؛ لأنها كالنتيجة للأولى أو الدليل عليها.

(لم يَلِدْ): المفعول محذوف أي لم يلد أحداً، والأصل يَوْلِد، حُذِفت الواو لوقوعها بين ياء مفتوحة ولام مكسورة فصار مثل «يَعِد». (وَلَمْ يُولَد): النائب عن الفاعل محذوف أي لم يَلِدْه أحد، وثبتت الواو في يُولَد لأنها لم تقع بين ياء مفتوحة وكسرة. ولما كان الرَّبّ سبحانه وتعالى واجب الوجود لذاته قديماً، موجوداً قبل وجود الأشياء، وكان كل مولود مُحْدَثاً انتفت عنه الوالدية، ولما كان لا يشبهه أحَدٌ من خَلْقِه ولا يجانسه حتى يكون له من جنسه صاحبة فيتوالد، انتفت عنه الوالدية، ومن هذا قوله تعالى: ﴿أَنَّى يَكُونُ له وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام ١٠١]، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفواً أَحَدٌ﴾: أي لم يكن له أحَدٌ يكافئه أي يماثله من صاحبة وغيرها «وله» متعلق بـ «كُفواً» وقُدِّم عليه لأنه مَحَطّ القصد، وأُخِّر «أحد» وهو اسم «يَكُنْ» عن خبرها رعاية للفاصلة. ولاشتمال هذه السورة مع قِصَرها على جميع المعارف الإلهية والرَّدّ على من أَلْحَد فيها، جاء في الحديث أنها تَعْدِل ثُلُثَ القرآن فإن مقاصده محصورة في بيان الأحكام والقصص، ومن عدلها اعتبر المقصود بالذات[(١)]. قال ابن إسحاق: «فلما تلاها عليهم، قالوا: «فَصِفْ لنا يا محمد رَبَّك كيف خَلْقُه، كيف ذَرْعه، كيف عَضُدُه»؟ فغَضِب النبي ﷺ أَشَدَّ من غضبه الأول، وساورهم غَضَباً لِرَبِّه. فأتاه جبريل، فقال له مثل مقالته وجاءه من الله تعالى بجواب ما سألوه عنه. ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ، وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ والسَّمٰوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانه وَتَعَالَى عَمَّا يُشرِكُونَ﴾ [الزمر ٦٧]، أي ما عرفوه حَقَّ معرفته وما عَظَّموه حق عَظَمته حين أشركوا به وشَبَّهُوه بخَلْقِه. ﴿والأَرْضُ جميعاً﴾، جميعاً: حال، أي السَّبع، ﴿قَبْضَتُه﴾ أي مقبوضة له أي في مِلْكِه وتَصَرُّفِه يوم القيامة، ﴿والسمواتُ مَطْوِيَّات﴾ أي مجموعات، «بيمينه» أي بقدرته سبحانه وتعالى عما يُشْرِكون معه.

تنبيه: كذا ذكر ابن إسحاق سبب نزول هذه الآية. وروى الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه في سبب نزولها غير ذلك والله أعلم.

---

(١) قال الرازي: اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وأما سورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ [الكافرون: ١] فهي معادلة لربع القرآن، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة، وسورة ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني ﴿قل يا أيها الكافرون﴾، و ﴿قل هو الله أحد﴾ في بعض الأسامي فهما المقشقشتان والمبرئتان، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى، إلا أن ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و ﴿قل هو الله أحد﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن ﴿قل يا أيها الكافرون﴾ تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله، و ﴿قل هو الله أحد﴾ تفيد براءة المعبود عن كل ما يليق به. اهـ تفسير الرازي ١٩٢/٣٢.

الباب السابع

في إرادة شأس بن قيس إيقاع الفتنة بين الأوس والخزرج لما رأى كلمتهم مجتمعة

روى ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر وغيرهما عن زيد بن أسلم مُطَوَّلاً، والفريابي وابن جرير وغيرهما عن ابن عباس مُخْتَصَراً، وابن المنذر عن عِكْرِمة، وابن جرير وابن أبي حاتم عن السُّدِّي كذلك واللفظ للأول، قال: كان شأس بن قَيْس شيخاً قد عَسَا، عظيمَ الكُفْر، شديدَ الضِّغْن على المسلمين، شديدَ الحَسَد لهم، فَمَرَّ على نَفَرٍ من أصحاب رسول الله ﷺ من الأَوس والخزرج في مجلس قد جَمَعهم يَتَحَدَّثُون فيه، فغاظه ما رأَى من أُلْفَتِهم وجماعتهم وصَلاَح ذاتِ بَيْنِهم على الإِسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية. فلما أَن جاء الإِسلام اصطلحوا وألَّف الله بين قلوبهم. فقال: «لقد اجتمع مَلأُ بني قَيْلَة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إِذا اجتمع مَلَؤُهُمْ بها من قرار». فأَمَرَ فَتىً شاباً من يهود كان معه فقال: «اعمد إِليهم فاجلس معهم، ثم اذكر يوم بُعَاث وما كان قَبْلَه وأَنْشِدْهُم بَعْضَ ما كانوا تَقَاوَلوا فيه من الأَشعار. ففعل، فأَنشدهم بعض ما قاله أَحد الحَيَّيْن في حَرْبهم، فكأَنهم دَخَلَهُمْ من ذلك [شيء] فقال الحَيّ الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا [فقال الآخرون: وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا. فتَكَلَّم القومُ عند ذلك، وتنازعوا وتفاخروا، حتى تَوَاثَب رجلان من الحَيَّيْن: أَوْس بن قَيْظِي [أَحد بني حارثة بن الحارث] من الأَوْس، وجَبَّار بن صَخْر [أَحد بني سَلِمَة] من الخزرج، فتَقَاوَلا، ثم قال أَحَدُهما لصاحبه: «ان شِئْتُمْ رَدَدْناها الآن جَذَعَة». فغَضِب الفريقان جميعاً، وقالوا: «قد فعلنا، مَوْعِدُكم الظاهرة - والظاهرة الحَرَّة - السِّلاحَ السِّلاحَ». فخرجوا إِليها. [فانْضَمَّتْ الأَوس والخزرج بعضها إِلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية].

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إِليهم فيمن معه من المهاجرين من أَصحابه حتى جاءهم فقال: «يا مَعْشَر المسلمين: اللهَ اللهَ، أَبِدَعْوَى الجاهلية وأَنا بين أَظْهُرِكم بعد أَن هداكم الله للإِسلام وأَكرمكم به، وقطع به عنكم أَمْرَ الجاهلية، واستنقذكم به من الكُفْر، وأَلَّف به بينكم، فترجعون إِلى ما كنتم عليه كُفَّاراً»؟[1] فعَرَف القومُ أَنها نَزْغَةٌ من الشيطان، وكَيْدٌ من عَدُوِّهم، فأَلْقَوْا السلاحَ من أَيديهم وبَكَوْا، وعانق الرجال من الأَوس والخزرج بَعْضُهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مُطِيعِين، قد أَطْفَأَ الله عنهم كَيْدَ عَدُوِّهم: عَدُوّ الله شَأْس بن

(١) ذكره السيوطي في الدر ٥٧/٢ وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

قَيْس، فأَنزل الله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ. قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَها عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَداءُ وَمَا اللهُ بِغافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران ٩٨، ٩٩].

وأَنزل الله في أَوْس بن قَيْظِي، وجَبَّار بن صَخْر، ومن كان معهما من قومهما الذين صَنَعوا ما صَنَعوا ما أَدْخَل عليهم شأس من أَمر الجاهلية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ. وَكَيْفَ تَكْفُرُون وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران ١٠٠، ١٠١]

تنبيه: في بيان غريب ما سبق:

«شَأْس»(١): بشين معجمة فهمزة ساكنة فسين مهملة.

«عَسَا» بعين فسين مهملتين: أَي كَبِرَ وأَسَنّ.

«الضِّغْن» بكسر الضاد المعجمة: الحِقْد.

«قَيْلَة» ـ بفتح القاف وسكون التحتية: أُم الأَوس والخزرج.

«بُعَاث» بعين مهملة ومثلثة ـ وتَقَدَّم الكلام عليها مبسوطاً في أَبواب بَدْء إِسلام الأَنصار.

«جَبَّار»: بالجيم وتشديد المُوَحَّدة.

«جَذَعَة» بفتح الجيم والذال المعجمة: أَي أَحدثنا الحرب.

«الحَرَّة» بفتح الحاء المهملة والراء المُشَدَّدَة: [وهي الأَرض ذات الحجارة السُّود]. والله سبحانه وتعالى أَعلم.

---

(١) انظر اللسان ٤/٢١٧٦.

الباب الثامن

في سبب نزول قوله تعالى: ﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء﴾ [آل عمران ١٨١] وقوله تعالى: ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء﴾ [الأنعام ٩١]

روى ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن ابن عباس، وابن جرير عن السُّدِّيّ، وابن جرير عن عكرمة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه دخل بيت المدراس بعد نزول قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾ [البقرة ٢٤٥] فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له فِنْحَاص [بن عَازُورَاء] وكان من علمائهم وأحبارهم. فقال أبو بكر: وَيْلَك يا فِنْحَاص: «اتَّقِ اللهَ عزَّ وجَلّ وأَسْلِمْ، فوالله إنك لَتَعْلَم أن محمداً رسولُ الله قد جاءكم بالحق من عند الله تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة». فقال فِنْحاص لَعَنه الله: «والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فَقْر، وإنه إلينا لَفَقِير، وما نَتَضَرَّعُ إليه كما يَتَضَرَّع إلينا، وإنَّا عنه لأغنياء [وما هو عَنَّا بغَنِيٍّ] ولو كان عَنَّا غَنِيًّا ما استقرض منا أموالنا كما يَزْعُم صاحِبُكم، ينهاكم عن الرِّبا ويُعْطِيناه ولو كان عَنَّا غَنِيًّا ما أعطانا الرِّبا». فغَضِبَ أبو بكر فضَرَب وَجْه فِنْحاص ضَرْبةً شديدة وقال: «والذي نَفْسِي بيده لولا العَهْد الذي بيننا وبينك لضَرَبْتُ عُنُقك أي عَدُوَّ الله».

فذهب فِنْحَاص إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، انظر ما فعل بي صاحبُك. فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر: «ما حَمَلَك على ما صَنَعْت»؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله [إن عدو الله] قال قولاً عظيماً إنه زَعَم أن الله عز وجل فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غَضِبْتُ لله مِمَّا قال فضربتُ وَجْهَه. فجحد ذلك فِنْحاص، وقال: ما قُلْتُ ذلك. فأنزل الله تعالى فيما قال فِنْحَاص [رَدّاً عليه] وتصديقاً لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ ما قالوا وقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيقِ﴾ [آل عمران ١٨١] ونزل في أبي بكر الصِّدِّيق، وما بَلَغه في ذلك في الغَضَب: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذىً كَثِيراً وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [آل عمران ١٨٦][1].

وروى ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن السُّدِّي في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ، قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الكِتَابَ الَّذِي جَاء بِهِ مُوسَى﴾ [الأنعام ٩١]. قال فِنْحاص اليهودي: ما أنزل الله على محمد من شيء. قال السُّدِّي: والمشهور أنها نزلت في مالك بن

(١) ذكره السيوطي في الدر ١٠٥/٢ وعزاه لابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم.

الضَّيْف. وروى ابن جرير، وابن المنذر عن عِكْرِمة في الآية قال: نزلت في مالك بن الضَّيْف. وروى ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن سعيد بن جُبَيْر، وابن جرير عن محمد بن كعب القُرَظِي قال: جاء رجل من اليهود يقال له مالك بن الضَّيْف، ومعه جماعة فخاصم النبي ﷺ. وفي رواية: فقالوا: يا أبا القاسم، ألا تأْتِنا بكتاب من السماء كما جاء به موسى ألواحاً. فأنزل الله عز وجل: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُبِيناً﴾ [النساء ١٥٣]. فقال له النبي ﷺ: «أَنْشُدُكَ بالذي أنزل التوراة على موسى أَمَا تجد في التوراة أن الله يَبْغَض الحَبْر السَّمينَ»؟ وكان حَبْراً سميناً. فغَضِب وقال: والله ما أنزل الله على بَشَرٍ من شيء. فقال له أصحابه الذين معه: وَيْحَكَ! ولا على موسى؟ فقال: والله ما أنزل الله على بَشَر من شيء فأنزل الله عَزَّ وجَلّ [نقضاً لقولهم وردّاً عليهم]: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللهُ ثم ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام ٩١].

الباب التاسع

في سؤالهم عن أشياء لا يعرفها إلا نبي وجوابه لهم وتصديقهم إياه بأنه أصاب وتمردهم عن الإيمان به

روى ابن إسحاق والطيالسي والفِرْيابي والإمام أحمد، وعَبْد بن حُمَيْد، وابن جرير، والبيهقي، وأبو نُعَيم عن غيرهم بسَنَدٍ حَسَن عن ابن عباس رضي الله عنهما، والبخاري في تاريخه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق آخر عنه مختصراً، قال: «حَضَرَتْ عِصَابَةٌ من اليهود نَبِيَّ الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم حَدِّثْنا عن خِلاَلٍ نسألك عنها لا يعلمها إلا نَبِيّ. قال: «سَلُوني عَمَّا شئتم ولكن اجعلوا لي ذِمَّة الله عز وجل، وما أخذ يعقوب على نبيه لئن حدثتكم شيئاً لَتُبَايُعنّي». قالوا: فذلك لك. قالوا: أربع خلال نسألك عنها: أَخْبِرنا أَيَّ طعام حَرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ وأَخْبِرْنا كيف ماء الرجل من ماء المرأة، وكيف الأُنثى منه والذكر؟ وأَخْبِرْنا كيف هذا النبي الأُمِّيّ في النوم ومن يليه من الملائكة؟ وأَخْبِرْنا ما هذا الرَّعْد؟ فأخذ عليهم عَهْدَ الله وميثاقه: «لئن أخبرتكم لتبايِعُنّي». فأَعْطَوْه ما شاء من عهد وميثاق. قال: فأَنْشُدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى: هل تعلمون أن إسرائيل مَرِضَ مَرَضاً طال سَقَمُه فنذَرَ لئن عافاه الله عَزَّ وجَلّ ليُحَرِّمَنّ أَحَبَّ الطعام والشراب، وكان أَحبُّ الطعام إليه لُحْمَانَ الإبل وأَحَبُّ الشرابِ إليه أَلبانَها»، وفي رواية: كان يسكن البادية فاشتكى عِرْق النِّسا، فلم يجد شيئاً يداويه إلا لحوم الإبل وأَلبانها. فقالوا: اللهم نعم، اللهم اشهد. وقال: «أَنشُدُكم بالله الذي لا إله إلا هو هل تعلمون أن ماء الرجل أبيض غليظ، وأن ماء المرأة أصفر رقيق، فأيهما عَلاَ كان الوَلَد والشَّبَه بإذْنِ الله عَزَّ وجَلّ: إن عَلاَ ماءُ الرجل كان ذكراً بإذْنِ الله تعالى، وإن عَلاَ ماءُ المرأة كان أُنثى بإذن الله تعالى». قالوا: اللهم نعم اللهم اشهد. قال: «فأنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تعلمون أن النبيّ الأُمِّيّ تنام عَيْنُه ولا ينام قَلْبُه؟ قالوا: اللهم نعم اللهم اشهد. قالوا: أنت الآن حَدِّثْنا مَنْ وَلِيُّكَ من الملائكة؟ فعندها نجامعك أو نُفارِقُك قال: «وَلِيِّي جبريل، ولم يبعث الله عز وجل نَبِيًّا قَط إلا وهو وَلِيُّه». قالوا: فعندها نُفارِقُك، لو كان وَلِيُّك سواه من الملائكة لاتَّبَعْنَاك وصدَّقناك. قال: «فما يمنعكم أن تُصَدِّقوني»؟ قالوا: هذا عَدُوُّنا من الملائكة. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ [البقرة ٩٧]. ونزلت: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾[1] [البقرة ٩٠]. وفي رواية فقالوا: يا أبا القاسم نسألك عن خمسة أشياء. وذكر نحو ما تَقَدَّم. وزاد: قالوا: أَخْبِرنا عن هذا الرَّعْد. قال:

(١) أخرجه أحمد في المسند ١/٢٧٨.

«مَلَكٌ من ملائكة الله عز وجل، مُوَكَّلٌ بالسحاب، بيده ـ أو قال: في يده ـ مِخْرَاق[1] من نار يَزْجُر به السحاب فيسوقه حيث أمره الله». قالوا: فما هذا الصوت؟ قال: «صوته». قالوا: صَدَقْتَ.

وروى الإمام أحمد، والبزار، والطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه أن يهودياً قال: يا محمد مِـمَّ يُخْلَق الإنسان؟ قال: «يا يهودي، يُخْلَق من كُلٍ من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، أما نُطْفَةُ الرجل فنُطْفَةٌ غليظة منها العَظْم والعَصَب، وأما نُطْفَةُ المرأة فنُطْفَة رقيقة منها اللَّحم والدَّمُ»[2]. فقال اليهودي: هكذا كان يقول من كان قبلك.

وروى الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والحاكم وصَحَّحه، والبيهقي، وأبو نعيم عن صَفْوَان بن عَسَّال ـ بعين فسين مشددة مفتوحتين مهملتين ـ قال: «قال يهودي لصاحبه اذهب بنا إلى هذا النبي فنسأله. فقال له صاحبه: لا تَقُلْ نبيّ فإنه لو سمعك تقول نبي كان له أربعة أعْيُن، فانطلقا إلى رسول الله ﷺ فسألاه عن قول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء ١٠١] فقال: «لا تُشْرِكوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النَّفْسَ التي حَرَّم الله إلا بالحق ولا تَزْنُوا ولا تَسْرِقوا ولا تَسْحَرُوا ولا تمشوا ببريءٍ إلى ذي سلطان فيقتله ولا تأكلوا الربا ولا تقذفوا مُحْصَنَة ولا تَفِرُّوا من الزَّحْف وعليكم يا معشر اليهود خاصَّةً ألاَّ تعدوا في السبت». فقبَّلا يَدَيْه ورجْلَيْه وقالا: «نشهد أنك نَبِيّ». قال: «فما يمنعكما أن تُسْلِما»؟ فقالا: «إن داود دعا الله ألاَّ يزال في ذُرِّيته نَبِيّ، وإنا نخاف إن أسلمنا أن تقتلنا يهود»[3].

وروى مسلم عن ثَوْبان رضي الله عنه قال: كنت عند النبي ﷺ فجاء حَبْرٌ من اليهود فقال: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض؟ فقال رسول الله ﷺ: «في ظلمة دون الجسر». قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فقراء المهاجرين». فقال: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زيادة كبد نون». قال: «فما غذاؤهم على أثره»؟ قال: «يُنْحَر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها». قال: فما شرابُهم عليه؟ قال: «من عين فيها تسمى سلسبيلاً». قال: صَدقت.

قال: وجئتُ أسأل عن شيء لا يعلمه أحَدٌ من أهل الأرض إلا نَبِيّ أو رجل أو رجلان،

---

(١) انظر النهاية ٢٦/٢.

(٢) ذكره الهيثمي في المجمع ٢٤٤/٨ وعزاه لأحمد والطبراني والبزار بإسنادين وقال: وفي أحد إسناديه عامر بن مدرك وثقه ابن حبّان وضعفه غيره، وبقية رجاله ثقات. وفي إسناد الجماعة عطاء بن السائب وقد اختلط.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٢٤٠/٤ والطبراني في الكبير ٤٣/٧ والحاكم في المستدرك ٣٥١/٤ وأبو نعيم في الحلية ٩٨/٥ والبيهقي في الدلائل ٢٦٨/٦.

جئتَ أَسأَل عن الوَلَد. قال: «ماء الرجل أَبيض وماء المرأَة أَصفر، فإذا اجتمعا فعَلا مَنِيُّ الرجل مَنِي المرأَة فَذَكَرٌ بإذن الله عز وجل، وإذا عَلاَ مَنِيُّ المرأَة مَنِيَّ الرجل فأنثى بإذن الله عز وجل». قال اليهودي: صَدَقْتَ وإنك لَنَبِي. ثم انصرف. فقال رسول الله ﷺ: «إنه سألني عن هذا الذي سألني عنه، وما أعلم شيئاً منه حتى أنبأني الله عز وجل»(١).

وروى ابن أَبي شيبة، وأَحمد بن منيع، وعَبْد بن حُمَيْد، والنسائي في الكبرى، والطبراني بسَنَدٍ صحيح عن زَيْد بن أَرْقَم رضي الله عنه قال: جاء رجل من اليهود يقال له ثعلبة بن الحارث فقال: يا أَبا القاسم أَتَزْعُم أَن أَهل الجنة يأْكلون ويشربون؟ وقال اليهودي لأَصحابه: إن أَقَرَّ بها خَصِمْتُه. فقال رسول الله ﷺ: «تُؤْمِن بشجر المِسْك»؟ قال: نعم. قال: «وتَجِدُها في كتابكم»؟ قال: نعم. قال: «والذي نفسي بيده إن أَحدهم لَيُعْطَى قوة مائة رجل إلى المطعم والمشرب والجِمَاع». فقال اليهودي: الذي يأْكل ويشرب يكون له الحاجة. فقال رسول الله ﷺ: «حاجتُهُمْ عَرَقٌ يَفِيضُ من جلودهم مثل ريح المِسْك، فَتَضْمُر بُطُونُهم».

وروى سعيد بن منصور وأَبو يَعْلَى، وابن جرير، وابن أَبي حاتم، والبزار، والحاكم، والبيهقي، وابن جرير عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: أَتى النبيَّ ﷺ يهوديٌّ فقال: يا محمد أَخْبِرْني عن النجوم التي رآها يوسف عليه السلام ساجدةً له ما أَسماؤها؟ فلم يُجِبْهُ بشيء. فنزل عليه جبريل فأخبره [بأَسمائها]. فبعث إلى اليهودي وقال له: «أَتُسْلِم إن أَخْبَرْتُك بأَسمائها»؟ قال: نعم فقال: «[هي]: حرثان وطارِق والذَّيَّال وذو الكنفات وذو الفَرْغ ووَثَّاب وعَمُودَان وقَابِس والضَّرُوح والمُصَبِّح والفَلِيق والضياء والنور. رآها يوسف عليه السلام في أُفق السماء ساجدةً له». فقال اليهودي: هذه والله أَسماؤها. قال الحَكَم بن ظُهَيْر(٢) أَحد رواته: الضِّيَاء هو الشمس وهو أَبوه، والنور هو القمر وهي أُمه. قال الحافظ في حاشية كتبها على مجمع الزوائد: رأَيت في نُسْخَة مُصَحَّحة أَنه من ضعفاء العُقَيْلي.

بيان غريب ما سبق:

«حرثان» بمهملة مفتوحة ثم مثلثة.

«الذَّيَّال»: بمعجمة ثم تحتية ثقيلة.

---

(١) أخرجه مسلم ٢٥٢/١ (٣١٤-٣١٥) والبيهقي ١٦٩/١ والطبراني في الكبير ٨٨/٥ وأبو نعيم ٣٥١/١.

(٢) الحكم بن ظُهير الفزاري الكوفي. وكان أبو إسحاق الفزاري إذا روى عنه قال: الحكم بن أبي ليلى. روى عن عاصم بن بهدلة، والسدّي. وعنه جماعة آخرهم عبد بن يعقوب الأسدي، والحسن بن عرفة. قال ابن معين: ليس بثقة. وقال - مرة: ليس بشيء. وقال البخاري: منكر الحديث. وقال - مرة: تركوه. عاش إلى سنة ثمانين ومائة. ميزان الاعتدال ٥٧١/١.

«الكنفات» بنون ففاء وآخره مُثنَّاة.

«القَرْغ» [بفاء وراء ثم غين معجمة].

«عَمُودَان» [بلفظ تثنية عمود].

«قابِس»: بقاف ومُوَحَّدة ثم مهملة.

«الضَّرُوج»: بفتح الضاد المعجمة وآخره جيم.

«المُصَبِّح»: بضَمّ الميم ثم فتح المهملة ثم مُوَحَّدة مُثْقَلَة ثم مهملة.

«الفَلِيق»: [بالفاء واللام والمثناة التحتية فقاف][(١)].

---

(١) قال السيوطي في الدر: وأخرج سعيد بن منصور، والبزار، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والعقيلي في الضعفاء، وأبو الشيخ، والحاكم وصححه، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي معاً، في الدلائل عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء بستاني اليهودي إلى النبي ـ ﷺ ـ، فقال: يا محمد أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف ـ عليه السلام ـ ساجدة له، ما أسماؤُها، فسكت النبي ـ ﷺ ـ، فلم يجبه بشيء، فنزل جبريل ـ عليه السلام ـ فأخبره بأسمائها، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى البستاني اليهودي، فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟ قال: نعم: قال: حرثان، والطارق، والذيال، وذو الكفتان، وقابس، ودنان، وهودان، والفيلق، والمصبح، والضروح، والفريخ، والضياء، والنور، رآها في أفق السماءِ ساجدة له، فلما قص يوسف على يعقوب، قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله من بعد»، فقال اليهودي: إي والله إنها لأسماؤُها الاسرائيليات ص ٣٠٦.

الباب العاشر

في رجوعهم إليه صلى الله عليه وسلم في عقوبة الزاني وما ظهر في ذلك من كتمانهم ما أنزل الله عز وجل في التوراة من حكمه وصفة نبيه صلى الله عليه وسلم

روى ابن إسحاق وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في السُّنَن عن أبي هريرة رضي الله عنه، وعبد الرَّزَّاق، وأحمد، وعَبْد بن حُمَيد، وأبو داود، وابن جرير، والبيهقي في الدلائل من وجه آخر عنه، وأحمد، ومسلم، وأبو داود، والنَّحَّاس في ناسخه، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن البَرَاء بن عازِب، والشيخان عن ابن عُمَر، وابن جرير، والطبراني عن ابن عباس، وعَبْد بن حُمَيْد في مُسْنَدِه، وأبو داود، وابن ماجه وابن المنذر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما:

أن أحبار يهود اجتمعوا في بيت المِدرَاس حين قَدِم رسول الله ﷺ، وقد زَنَى رَجُلٌ بعد إحصان بامرأة من يهود قد أحصنت. قال جابر: من أهل فَدَك، كتب أهلها إلى أُناس من يهود المدينة «أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجَلْد فخذوه عنه وإن أمركم بالرَّجْم فلا تأخذوه عنه». انتهى. قال أبو هريرة: فلما اجتمعوا في بيت المِدْرَاس قال: ابعثوا بهذا الرجل وبهذه المرأة إلى محمد، وفي لفظ: اذهبوا بنا إلى هذا النبي فإنه بُعِث بتخفيف، فإن أفتانا بفُتْيَا دون الرَّجْم قَبِلْناها واحتججنا بها عند الله وقلنا فُتْيَا نَبِيٍّ من أنبيائك. وفي رواية: فقالوا: وَلُّوه الحُكْمَ فيهما فإن عمل فيهما بعملكم من التَّجْبِية - وهي الجَلْد بِحَبْلٍ من ليف مَطْلِيٍّ بقار ثم تُسَوَّد وجوههما، ثم يُحْمَلان على حِمارين وتجعل وجوههما من قبل أدبار الحِمَارَين - فاتَّبِعوه فإنما هو مَلِك سَيِّد قوم، وإن هو حَكَم فيهما بالرَّجْم فإنه نَبِيٌّ فاحذروه على ما في أيديكم أن يَسْلُبَكُمُوه.

فأَتَوْا رسولَ الله ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: «يا أبا القاسم هذا رجل قد زَنَى بعد إحصانه بامرأة قد أحصنت فاحكم فيهما فقد وَلَّيْنَاكَ الحكم فيهما». فقال رسول الله ﷺ: «ما تجدون في التوراة؟» قالوا: نفضحهما ويُجْلَدان. وفي رواية قالوا: دَعْنا من التوراة وقُلْ ما عندك. فأفتاهم بالرَّجْم، فأنكروه. فلم يُكَلِّمْهم رسول الله ﷺ، حتى أتى بيت مِدْرَاسِهم، فقام على الباب فقال: «يا مَعْشَرَ يهود أخرجوا إليَّ علماءكم». فأخرجوا إليه عبد الله بن صوريا وأبا ياسِر بن أخطب، ووَهْب بن يهوذا، فقالوا: إن هؤلاء علماؤنا.

فقال رسول الله ﷺ: «أَنْشُدُكم الله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة

على من زَنَى بعد إِحصان؟ قالوا: يُحَمَّم ويُجَبَّب. فقال عبد الله بن سَلاَم: كذبتم إِن فيها آية الرَّجْم. فأَتَوْه بالتوراة فنشروها فوضع [أحدهم] يده على آية الرَّجْم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال عبد الله بن سَلاَم: ارفع يَدَك. فرفعها فإِذا آية الرَّجْم تلوح. قال: صَدَقَ محمد. وفي رواية: أَن رسول الله ﷺ لما أَقسم عليهم بالله عز وجل سكت شابٌّ منهم فلما رآه رسول الله ﷺ سكت أَلَظَّ به المسأَلة، فقال: إِذ نشدتنا فإِنا نجد في التوراة الرَّجْم. فقال النبي ﷺ: «فما أَوَّلُ ما رخصتم أَمر الله عز وجل؟» قال: زنى رجل ذو قرابة من مَلِكٍ من ملوكنا فأُخِّرَ عنه الرَّجْم. ثم زنى رَجُلٌ في أُسْرَةٍ من الناس فأَرادوا رَجْمَه فحال قَوْمُه دونه وقالوا: والله لا يُرْجَم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فَتَرْجُمه، فاصطلحوا على هذه العقوبة بينهم. وفي رواية أَن الزِّنى كَثُر في أَشرافنا، فكُنَّا إِذا أَخذنا الشريف تركناه، وإِذا أَخذنا الضعيف أَقمنا عليه الحَدّ، فقلنا: تَعَالَوْا حتى نجعل شيئاً ونُقِيمُهُ على الشريف والوضيع. فأَجمعنا على التحميم والجَلْد، أَما والله يا أَبا القاسم إِنهم ليعرِفون إِنك نبي مُرْسَلٌ ولكنهم يَحْسُدُونك.

فقال النبي ﷺ: «اللهم إِني أَوَّلُ من أَحْيَا أَمْرَكَ إِذ أَماتوه قديماً بالشهوة»[1]. فجاؤوا بأَربعة شهود فشهدوا بأَنهم رَأَوْا ذكره في فَرْجها مِثْل المِيل في المكْحُلَة، فأَمر رسول الله ﷺ بهما فرُجِما عند باب مسجده، وفي رواية: بالبلاط. قال ابن عُمَر: فرأَيتُ الرجلَ يُجْنِئُ على المرأَة لِيَقِيهَا الحجارة، وفي لفظ: فكنت فيمن رَجَمَهما فلقد رأَيتُه يَقِيها الحجارَة بنفسه.

تنبيه: في بيان غريب ما سبق:

«بيت المِدْرَاس»[2]: بكسر الميم وهو البيت الذي يقرأ فيه أَهل الكتاب كُتُبَهم.

«التَّجْبِيه»[3]: بفتح الفوقية وسكون الجيم وكسر الموحدة بعدها تحتية ساكنة ثم هاء، فُسِّرَ الحديث بالجَلْد والتحميم والمخالفة في الركوب قال ثابت بن قاسم: وقد يكون معناه التعيير والإِغلاظ من جَبَهْتُ الرجل أَن قابلته بما يكره، وضبطها بعضهم بمثناة في آخره وقبلها حركة، وأَصْلُه البروك وهو بعيد هنا.

«صوريا»: بصاد مهملة مضمومة وآخره ياء وأَلف.

«ياسِر»: بتحتية وسين مهملة.

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢٧) وأبو داود (٤٤٤٦) وابن ماجه (٢٠٥٥ـ ٢٠٥٨) وأحمد في المسند ٢٨٦/٤ والطبراني في الكبير ١٥٠/٦.

(٢) انظر اللسان ١٣٦٠/٢.

(٣) انظر اللسان ٥٤٢/١.

«أَخطب»: بوزن أَفعل التفضيل من الخُطْبَة.

«أَنْشُدكم بالله»: أُذَكِّرُكم أَو سأَلْتُكم به مُقْسِماً عليكم.

«تلوح»: تبدو.

«أَلَظَّ» به: لازمه.

«النِّشْدة»: بكسر النون من المناشدة.

«الأُسْرَة»(١): القُوَّة.

«البَلاط»(٢) - بفتح الموحدة: الحِجَارة المفروشة، وموضع بالمدينة وهو المراد هنا.

«يُجْنِئ عليها»: يَكِبُّ ويميل عليها.

(١) انظر اللسان ١/٧٨.

(٢) انظر اللسان ١/٣٤٤.

الباب الحادي عشر

في سؤاله لهم أن يَتَمَنَّوُا المَوْتَ إن كانوا صادقين في دَعَاوَى ادَّعَوها

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا المَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٩٤] روى ابن جرير عن أبي العالية أنه قال: «قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نَصَارَى، وقالوا: نحن أبناء الله وأَحِبَّاؤُه». فأنزل الله تعالى الآية الأُولى فلم يفعلوا. وروى البيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية الأُولى لما نزلت قال لهم رسول الله ﷺ: «إن كنتم في مقالتكم صادقين قولوا اللهم أَمِتْنَا فوالذي نفسي بيده لا يقولها رجل منكم إلا غَصَّ بِرِيقه فمات مكانه»، فأَبَوْا أن يفعلوا وكرِهوا ما قال لهم، فنزل: ﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [سورة البقرة، آية: ٩٥] يعني عملته أَيديهم. فقال رسول الله ﷺ عند نزول هذه الآية: «والله لن يَتَمَنَّوْه أبداً». وروى ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم من طريق آخر عنه، قال: «لو تَمَنَّى اليهود الموت لَشَرِقَ أَحَدُهم بِرِيقه». وروى الإمام أحمد، والبخاري، والترمذي، والنسائي، وابن مَرْدَوِيه، وأبو نُعَيْم، عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لو أن اليهود تَمَنَّوْا المَوْتَ، لماتوا ولَرَأَوْا مقاعدهم من النار».

الباب الثاني عشر

في سِحْرِهم إيَّاه صلى الله عليه وسلم

روى الشيخان والإسماعيلي، وابن مَرْدَويه، والبيهقي عن عائشة رضي الله عنها، والإمام أحمد، وعَبْد بن حُمَيْد، والبخاري، والنسائي عن زيد بن أَرْقَم، وابن مَرْدَويه عن أَنَس بن مالك رضي الله عنه، وابن سعد، والبيهقي، وابن مَرْدَويه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن سعد عن عُمَر بن الحكم مُرْسَلاً، قال عُمَر بن الحكَم: لما رجع رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَة في ذي الحجة ودخل المُحَرَّم سنة سَبْع جاءت رؤساء يهود [الذين بَقَوا في المدينة مِمَّن يُظْهِر الإسلام وهو منافق] إلى لَبِيد بن الأَعْصَم، وكان حليفاً في بني زُرَيْق وكان ساحراً [قد علمت ذلك يهود أنه أَعلمهم بالسِّحْر وبالسموم] فقالوا له: يا أَبا الأعصم أَنت أَسْحَرُنا، وقد سَحَرْنا محمداً فلم نصنع شيئاً وأَنت ترى أَثَره فينا، وخِلافَه دينَنا، ومن قتل منا وأَجْلَى ونحن نجعل لك على ذلك جُعْلاً على أَن تسحره لنا سِحْراً يَنْكَؤُه فجعلوا له ثلاثة دنانير على أَن يسحر رسول الله ﷺ.

وقالت عائشة رضي الله عنها في رواية عبد الله بن عُمَيْر: سحر رسولَ الله ﷺ يهودي من يهود بني زُرَيْق. وفي رواية ابن عُيَيْنَة: رجل من بني زُرَيْق حليف يهود وكان منافقاً[(١)]. وفي حديث عبد الرحمن بن كعب بن مالك عند ابن سعد: إنما سَحَرَه بنات أَعْصَم أَخوات لَبِيد وكُنَّ أَسْحَر من لبيد وأَخْبَث وكان لبيد هو الذي ذهب به فأَدخله تحت رَاعُوفَة البئر[(٢)]، فلما عَقَدُوا تلك العُقَد أَنكر رسول الله ﷺ تلك الساعة بَصَرَه، ودَسَّ بناتُ أَعْصَم إِحداهن فدخلت على عائشة رضي الله عنها [فَخَبَّرتها عائشة أَو سمعت عائشة تذكر ما أَنكر رسول الله ﷺ من بَصَره] ثم خرجت إلى أَخواتها [وإلى لبيد] فأَخبرتهم بذلك. فقالت إِحداهن: «إِن يَكُنْ نَبِيّاً فَسَيُخْبَر وإِن يَكُ غَيْرَ ذلك فسوف يُدَلِّهُهُ هذا السِّحْر حتى يذهب عقله».

وفي رواية في الصحيح [عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ سُحِر] حتى كان يرى أَنه يأْتي النساء ولا يأْتيهنّ»[(٣)]. قال سفيان: وهذا شَرّ ما يكون إِذا كان كذا.

وفي مُرْسَل يحيى بن يعمر عن عبد الرَّزَّاق: حتى أَنكر بَصَرَه، فدخل عليه أَصحابه

---

(١) أخرجه البخاري ١٠/٢٣٢ (٥٧٦٣).

(٢) راعوفة البئر: هي صَخْرَةٌ تُتْرك في أَسْفَل البئر إذا حُفِرَت تكون ناتئة هناك، فإذا أرادوا تنقية البئر جلس المُنَقِّي عليها. وقيل: هي حَجَرٌ يكونُ على رَأْس البِئر يقوم المُستقي عليه. ويُروى بالثاء المثلَّثة. انظر النهاية ٢/٢٣٥.

(٣) أخرجه البخاري ١٠/٢٤٣ (٥٧٦٥).

يعودونه فخرجوا من عنده وهم يرون أنه لما به [مطبوب]. وفي رواية عمرة عن عائشة عند البيهقي: فكان يذوب وما يدري ما وَجَعُه فاشتكى لذلك أياماً. وفي رواية أبي ضمرة عند الإسماعيلي: مكث أربعين ليلة. وفي رواية وهيب عند الإمام أحمد: ستة أشهر، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله عز وجل ثم دعا ثم قال: «يا عائشة أشَعَرْتِ أن الله أفْتَاني فيما اسْتَفْتَيْتُه فيه؟» قلت: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «أتاني رجلان[1] ـ وفي حديث ابن عباس: جبريل وميكائيل ـ فقعد أحدهما عند رأسي ـ قال الدمياطي: هو جبريل ـ والآخر عند رِجْلَيّ. ثم قال أحدهما لصاحبه ـ وفي حديث ابن عباس: فقال ميكائيل: يا جبريل إن صاحبك شاكٍ. قال: أجل. قال: وما وَجَع الرجل؟ فقال: مطبوب. قال: ومَنْ طَبّه؟ قال: لَبِيد بن الأعْصَم اليهودي. قال: فبماذا؟ قال: «في مُشْطٍ ومُشَاطَة ـ وفي لفظ: مُشْطٍ ومُشَاقة وجُفّ طَلْعِ نخلةٍ ذَكَر».

وفي حديث عائشة من طريق ابن عيينة، «فقال الذين عند رأسي». قال الحافظ: «وكأنها أصوب». وفي حديث ابن عباس عند البيهقي قال: وأين هو؟ قال: في بئر ذي أروان ـ وفي لفظ: بئر ذِرْوَان ـ وفي حديث ابن عباس عند ابن مَرْدَويه: وهو بئر ميمون في كُدْيَة[2] تحت صخرة في الماء. قال: فما دواء ذلك؟ قال: تُنْزَح البئر ثم تُقْلَب الصخرة فتؤخذ الكدية فيها مثال إحدى عشرة عُقْدَة فتُحْرَق فإنه يَبْرَأ بإذن الله تعالى. فبعث رسول الله ﷺ عَلِيّاً وعَمَّاراً. وفي حديث آخر: ذهب رسول الله ﷺ في أُناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها، وعليها نَخْل، فدخل رجل فاستخرج جُفَّ طَلْعَة [ذكر] من تحت الراعوفة، فإذا فيها مُشْط رسول الله ﷺ، وإذا وَتَر معقود فيه إحدى عشرة عُقْدَة مُغرزة بالإبَر، فنزل جبريل عليه السلام بالمعوذتين: سورة الفَلَق وسورة الناس [وهما إحدى عشرة آية على عدد تلك العُقَد وأمر أن يُتَعَوَّذَ بهما] فجعل كلما قرأ آية انْحلَّتْ عُقْدَة، وكلما نَزَع إبرة وجد لها ألَماً ويجد بعدها راحة. فقام رسول الله ﷺ كأنما أُنْشِط من عِقَال. قالت عائشة: فلما رجع قال: «لكأنَّ ماءها نُقَاعةُ الحِنَّاء وكأنّ رؤوس نخلها الذي يشرب ماءها قد التوى سَعَفُه كأنَّه رؤوس الشياطين». قلت: يا رسول الله أفَلاَ استخرجته؟ قال: «لا» ـ وفي رواية من حديث عائشة في الصحيح وغيره: فقلت يا رسول الله: أَفَلا ـ قال سفيان: أي تَنَشَّرْتَ ـ فقال: «أما والله» ـ وفي رواية: «أمَّا أنا فقد عافاني الله وشفاني، وَخَشِيتُ أن أُثوِّرَ ـ وفي رواية أُثِيرَ ـ على الناس منه شَرّاً». وأَمَر بها فَدُفِنَتْ. فقيل: يا رسول الله لو قتلته فقال: «ما وراءه من عذاب أشَدُّ». وفي رواية: فأخذه رسول الله ﷺ فاعترف فعفا عنه ولم يقتله.

---

(١) أخرجه البخاري ١٧٧/٧ (دار الفكر) وابن ماجه (٢٦١).

(٢) الكُدية: قطعة غليظة صلبة لا تعمل فيها الفأس. وأكْدَى الحافر: إذا بَلَغها. انظر النهاية ١٥٦/٤.

تنبيهات

الأول: السّحر يُطْلَق ويراد به الآلة التي يُسْحر بها، ويطلق ويراد به فِعْل الساحر، وتكون الآلة تارةً معنى من المعاني فقط كالرُّقى والنَّفْث في العُقَد، وتارةً تكون بالمحسوسات. وتارةً تجمع الأمرين الحسي والمعنوي وهو أبلغ.

الثاني: اختُلِف في السحر، فقيل: هو تخييل فقط ولا حقيقة له، وهو اختيار أبي جعفر الأَستراباذي من الشافعية، وأبي بكر الدارمي من الحنفية، وابن حزم الظاهري وطائفة. قال النووي: «والصحيح أن للسحر حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة» انتهى. ولكن محل النزاع: هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا؟ فمن قال إنه تخييل فقط، منع. وقيل إن له حقيقة. واختلفوا هل له تأثير فقط بحيث يُغَيِّر المزاج فيكون نوعاً من الأمراض، وينتهي إلى حالة بحيث يصير الجماد حيواناً مثلاً وعكسه؟ فالذي عليه الجمهور، الأول. وذهبت طائفة قليلة إلى الثاني.

فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمُسَلَّم به، وإن كان بالنظر إلى الواقع فهو محل الخلاف، فإن كثيراً ممن يَدَّعي ذلك لا يستطيع إقامة البرهان عليه. وذكروا قوماً أنكروا السحر مُطْلَقاً وكأنهم عنوا القائلين بأنه تخييل وإلا فهذه مكابرة. قال المازري: جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة، ونفى بعضهم حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر، ولأن العقل لا ينكر أن الله تعالى قد يخرق العادة عند نُطْق الساحر بكلام مُلَفَّق أو تركيب أجسام أو بمزج بين قُوىً على ترتيب مخصوص، ونظير ذلك ما يقع من حُذَّاق الأطباء من مزج بعض العقاقير ببعض حتى ينقلب الضَّارّ منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعاً. وقيل: لا يزيد تأثير السحر على ما ذكر الله تعالى في قوله: ﴿**يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ**﴾[1] [سورة البقرة، آية ١٠٢] لكَوْن المقام مَقَامَ تهويل، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لَذكرَه. قال المازري: «والصحيح من جهة العقل أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك، والآية ليست نصاً في منع الزيادة ولو قلنا إنها ظاهرة في ذلك». ثم ذكر الفرق بين السِّحْر والمُعْجزة والكرامة، وقد ذكرته في أبواب المعجزات.

الثالث: قال النووي: «عمل السحر حرام وهو من الكبائر بإجماع، وقد عَدَّه النبي ﷺ من السبع المُوبقات، ومنه ما يكون كُفْراً، ومنه ما لا يكون كُفْراً بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فِعْل يقتضي الكُفْر فهو كفر كالتَّعَبُّد للشياطين أو الكواكب. وأما تَعْلِيمُه وتَعَلُّمُه فحرام، فإن كان فيه ما يقتضي الكفر اسْتُتِيبَ منه [متعاطيه] ولا يُقْتَل. فإن تاب قُبِلَتْ تَوْبَتُه، وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكُفْر عُزِّر. وعن الإمام مالك: السَّاحِر كافر يُقْتَل ولا يُستَتَاب. بل يَتَحَتَّم

قَتْلُه كالزِّنْدِيق. قال القاضي: «وبقَوْلِ مالك قال أَحمد، وجماعة من الصحابة والتابعين». انتهى. وإلى ذلك جنح البخاري.

الرابع: قال الحافظ: «أَجاز بعض العلماء تَعَلُّمَ السِّحْر لأَحد أَمرين: إما لِتَمَيُّزِ ما فيه من كُفْر من غَيْرِه، وإما لإِزالته عَمَّن وقع/ فيه. فأَما الأَوَّل فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد، فإذا سَلِم الاعتقاد فمعرفة الشيء معرفةً مجردة لا تستلزم مَنْعاً، كمن يعرف عبادة أَهل الأَوثان؛ لأَن كيفية ما يعرفه السَّاحر إنما هي حكاية قَوْلٍ وفِعْلٍ، بخلاف تعاطيه والعَمَل به. وأَما الثاني فإن كان لا يَتِمّ كما زَعَم بعضُهم إلا بنوع من أَنواع الكُفْر أَو الفِسْق فلا يحل أَصلاً، وإلا جاز للمعنى المذكور، ولهذا مزيد بَسْط يأتي إن شاء الله في أبواب عصمته ﷺ.

الخامس: لَبِيد ـ بفتح اللام وكسر الموحدة بعدها تحتية ساكنة ثم مهملة ـ ابن الأَعصم بوزن أَحمر بمهملتين ـ وُصِف في رواية بأَنه من يهود بني زُرَيْق. وفي رواية [أُخرى] بأَنه رجل من بني زُرَيْق حليف يهود، وكان منافقاً. ويُجْمَع بينهما بأَن من أَطلق أَنه يهودي نظر إلى ما في نفس الأَمر، ومن أَطلق عليه منافقاً نظر إلى ظاهر أَمره. قال أَبو الفرج: وهذا يدل على أَنه أَسلم نفاقاً وهو واضح.

السادس: في مدة مُكْثِه ﷺ مَسْحُوراً: وقع في رواية أَبي ضَمْرَةَ عند الإسماعيلي في صحيحه أَنه ﷺ مَكث أَربعين ليلة. وفي رواية وُهَيْب عن هشام عند الإِمام أَحمد ستة أشهر. ويمكن الجمع بينهما بأَن تكون الستة أَشهر من ابتداء تغيُّر مِزَاجه والأَربعين يوماً من استحكامه. قال السهيلي: لم أَقف على شيءٍ من الأَحاديث المشهورة على قَدْر المدة التي مَكَث ﷺ فيها من السحر، حتى ظَفِرْتُ به في جامع مَعْمَر [بن راشد] عن الزُّهْري قال: «سُحِر رسول الله ﷺ سَنَة [يُخَيَّل إليه أَنه يفعل الفِعْل ولا يفعله]. وقد وجدناه موصولاً بإسنادٍ صحيح فهو المعتمد.

السابع: قوله: «فدعا الله عز وجل ثم دعا الله عز وجل»: قال الإمام النووي: «فيه استحباب الدعاء عند حصول الأُمور المكروهات وتكريره وحُسْن الالتجاء إلى الله تعالى في رفع ذلك». قال الحافظ: «سَلَك النبي ﷺ في هذه القضية مَسْلَكَيْ التفويض وتعاطي الأَسباب، ففي أَول الأَمر فَوَّضَ وسَلَّم لأَمر ربِّه، واحتسب الأَجْر في صبره على بلائه. ثم لما تمادى ذلك وخَشَى من تماديه أَن يَضْعُفَ عن عبادته جنح إلى التداوي ثم إلى الدعاء. وكل من المَقَامَيْن غايةٌ «في الكمال».

الثامن: وقع في حديث ابن عباس عند ابن سعد: أَن رسول الله ﷺ أرسل علياً وعمَّاراً لاستخراج السحر. وفي رواية عائشة في الصحيح: أنه ﷺ تَوَجَّه إلى البئر مع جماعة. وعند

ابن سعد عن عُمر بن الحَكَم مُرْسَلاً: «فَدَعَا جُبَيْر بن إياس الزُّرَقي فدَلَّه على مَوْضِعِه في بئر ذَرْوَان تحت أُرعوفة البئر فخرج جُبَيْر حتى استخرجه. قال ابن سعد: ويقال: إن الذي استخرج السِّحر بأَمر رسول الله ﷺ قيس بن مِحْصَن الزُّرَقِي. ويُجْمَع بأنه أَعان جُبَيْراً على ذلك وباشره بنفسه فنُسِب إليه

التاسع: في بيان غريب ما سَبَق:

«الحُدَيْبِيَة»: يأْتي الكلام عليها في غزوتها.

«الحليف»[1]: المُعاهِد.

«بنو زُرَيْق» بتقديم الزاي تصغير أَزرق.

«أَشَعَرْتِ؟»: أَعَلِمْتِ؟.

«مطبوب»: مَسْحُور. يقال: طُبَّ الرجل ـ بالضَّمّ ـ إذا سُحِر وكَنَوْا بالطِّبِّ عن السِّحْر تفاؤلاً بالبُرْء كما كَنَوْا بالسَّلِيم عن اللَّدِيغ. وقال القرطبي في المُفْهِم: «إنما قالوا للسحر طِبّ؛ لأَنَّ أَصل الطِّبِّ الحِذْق بالشيء والتَّفَطُّن له، فلما كان كل من عَالَج المَرَض والسِّحْرَ إنما يأْتي عن فِطْنَة وحِذْق، أُطْلِقَ على كل منهما هذا الاسم.

«مُشْط»: معروف وتقدم الكلام عليه في شرح غريب قصة المعراج.

«مُشَاطَة». ما مُشِط من الرأْس.

«مُشَاقة» قيل: مُشَاقة الكَتَّان. وقيل المُشَاقة هي المُشَاطة بعينها، والقاف تُبْدَل من الطَّاء لِقُرْب المَخْرَج وهما بمعنى واحد.

«جُفّ»: بالجيم والفاء: وهو الغشاء الذي يكون على الطَّلْع.

«الطَّلْع»[2]: يطلق على الذكر والأُنثى، فلهذا قَيَّدَه بالذَّكر، وفي رواية في الصحيح بتنوين طَلْعَةٍ ذَكرٍ فهو صفة أَلحقت إلى ذَكَرٍ.

«بئر ذَرْوَان»: بالذال المعجمة وزن مَرْوَان. وفي رواية «ذي أَرْوَان» وهي الأَصل فسُهِّلَت الهمزة لكثرة الاستعمال فصارت ذَرْوَان. وفي رواية السهيلي: ذي روان بإسقاط همزته [وهو] غلط.

«الرَّاعُوفة»: كذا لأَكثر رواة الصحيح بزيادة أَلف خِلافاً لابن التِّين حيث زَعَم أَن رعوفة

---

(١) انظر اللسان ٩٦٤/٢.

(٢) انظر اللسان ٢٦٩١/٤.

للأَصيلي فقط وهو المشهور في اللغة. وفي لغة أَرعوفة. وفي رواية عند أَحمد «رعوثة»، بثاء مثلثة بدل الفاء وهي لغة أُخرى معروفة. وفيها لغة أُخرى «زَعُوبة» بالزاي والموحدة، وهما بمعنى واحد. والراعوفة(١) حَجَرٌ يُوضَع عند رأس البئر لا يُسْتَطَاعُ قَلْعُه، يقوم عليه المُسْتَقِي، وقد يكون في أَسفل البئر إِذا احْتُفِرَتْ، يجلس عليها الذي يُنَظِّف البئر، وهو حجر يُوجَد صلباً لا يستطاع قَلْعُه.

«أَفتاني فيما استفتيته فيه»: أَجابَنِي فيما دَعَوْتُه، فأطلق على الدعاء استفتاء لأن الداعي طالب، والمُجِيب مُسْتَفْتَى، والمعنى: أجابني عما سألته عنه؛ لأن دعاءه كان الله أَطلعه على حقيقة ما هو فيه لما اشتد عليه الأَمر.

«أُنْشِطَ من عِقال»(٢): بضم الهمزة. وفي رواية إِسقاط الأَلف، أي حُلّ كما قال في النهاية، وكثيراً ما يجيء في الرواية «كأَنما نَشِطَ من عِقال» وليس بصحيح، يقال: نَشَطْتُ العُقْدَةَ إِذا عَقَدْتَها، وأَنْشَطْتُها وانتشطتها إِذا حَلَلْتَها. انتهى. قال في البارع تقول العرب: «كأَنما أُنشِط من عقال»، بضم الهمزة. ويقال في المَثَل للمريض: يُسْرِع بُرْؤُه، والمَغْشِيّ عليه تُسْرِع إِفاقته في أَمر شَرَعَ فيه عزيمته: «كأَنما أُنْشِط من عِقال»، ويقال نشط، انتهى. فأَثبت ما في الرواية لغةً، وهو أَعرف باللغة من صاحب النهاية.

«تَنَشَّرْت»: ظاهر صحيح البخاري أَنه من النّشْرَة، ويحتمل أَنه من النَّشْر بمعنى الإِخراج فيوافق رواية من رواه بلفظ «أَفَأَخرجته؟» ورواية «أَفلا» وحُذِف المفعول للعلم به ويكون المُرَاد بالمُخْرَج ما حواه الجُفّ لا الجُفّ نفسه، ليتأَكد الجَمْع المتقدم ذِكْرُه. والنُّشْرَة ضَرْبٌ من العلاج يُعَالَج به من يُظَنُّ أَنَّ به سِحْراً أَو مَسًّا. قيل للنُّشْرَة ذلك لأَنه يُكْشَف بها عنه ما خالطه من الداء. والله أَعلم.

---

(١) انظر اللسان ٣/١٦٧٣.

(٢) انظر اللسان ٦/٤٤٢٨.

الباب الثالث عشر

في معرفة بعض طُغَاة المنافقين الذين انضافوا إلى اليهود وبعض أُمور دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم

سَرَد ابن إسحاق وجماعة أَسماء المنافقين، وأَنا ذَاكِرٌ هنا بعض من نزل القرآن الكريم بكشف حاله، وأُقدِّم قبل ذلك معنى النِّفاق. النفاق: اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به، وهو فِعْل المنافق الذي يَسْتُر كُفْرَه ويُظْهِر إيمانه كما يَتَستَّر الرجل بالنَّفَق الذي هو السَّرَب[١]، فقيل هو اشتقاقه من هذا. وقيل من قولهم نافق اليربوع إذا دخل في قاصعائه وخرج من نافقائه وبالعكس. وذلك أَن اليربوع له جِحَرَة أَربعة: النافِقاء والقاصِعاء والرَّاهِطَاء والدَّامَّاء، فهو يُرَقِّق أَقصى النافقاء ويكتمها ويظهر غيرها. فإذا قصد من غيرها من الجُحْر ضرب النافقاء برأسه فانتفق منها أَي خرج. وقيل: إنها نافذة بعضها إلى بعض، فمن أَيِّها قصد خرج من الأُخرى. فكذلك المنافق يدخل في الإيمان من جهة ويخرج من جهة أُخرى فاشتقاقه من فعل اليربوع. وقيل: اشتقاقه من صورة النافقاء لا من فعل اليربوع، وذلك أَن النافقاء ظاهره مدخل وباطنه مخرج ومَهْرَب، فكذا المنافق ظاهِرُه إيمان وباطنه كُفْر، ومحل النفاق القلب.

ولما قَدِم رسول الله ﷺ المدينةَ أَسلم بَشَر كثير مِمَّن أَراد الله عز وجل هدايَتَه. وانضاف إلى اليهود أُناسٌ من الأَوس والخزرج ممن كان عَسَا في الجاهلية، فكانوا أَهل نِفَاق على دين آبائهم من الشِّرْك والتكذيب بالبعث، إلا أَن الإسلام قهرهم بظهوره، واجتماع قومهم عليه، فتظاهروا بالإسلام واتخذوه جُنَّةً من القتل ونافقوا في السِّرّ، وكان هواهم مع يهود لتكذيبهم برسول الله ﷺ وجحودهم الإسلام.

وقد ذكر الله أَخبارهم في سورة براءة وغيرها. فمن المنافقين: الجُلاَس - بجيم مضمومة فلام مُخَفَّفَة فأَلِف فسين مهملة - ابن سُوَيْد بن الصامت. قال ابن إسحاق: وكان مِمَّن تَخَلَّف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. وروى ابن إسحاق، وابن أَبي حاتم عن كعب بن مالك، وابن أَبي حاتم عن ابن عباس، وعبد الرَّزَّاق، وابن سعد، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم، وأَبو الشيخ عن عُرْوَة قالوا: لما نزل القرآن فيه ذِكْرُ المنافقين قال الجُلاَس: «والله لئن كان هذا الرجل صادقاً [على إخواننا الذين هم ساداتُنا وخيارُنا] لنحن شَرٌّ من الحمير». فسمعها عُمَيْر بن سعد رضي الله عنه، وكان في حجر جُلاَس خَلَفَ على أُمه بعد أَبيه. فقال له عُمَيْر: «والله يا جُلاَس إنك لأَحَبُّ الناس إليّ وأَحسنه عندي يَداً وأَعَزُّه عَلَيّ أَن يُصِيبَه شيءٌ يكرهه، ولقد قُلْتَ مقالةً

---

(١) السَّرَب: المَسْلَك في خُفْيَة. انظر النهاية ٢/٣٥٦.

لئن رَفَعْتُها عليك ـ لأَفْضَحَنَّك ولئن صَمَتُّ لَيَهْلِكَنَّ ديني ولإحداهما أَيْسَرُ عليّ من الأُخرى». فمشى إلى رسول الله ﷺ فذكر ما قال له جُلاَس. فأرسل رسول الله ﷺ إليه فحلف جُلاَس بالله لرسول الله ﷺ: «لقد كَذَب عَلَيَّ عُمَيْر وما قلتُ ما قال عُمَيْر. فقال عُمَيْر: «بل والله قُلْتَه فَتُبْ إلى الله تعالى، ولولا أن ينزل قرآن فيجعلني معك ما قلته». فجاء الوحي إلى رسول الله ﷺ، فسكتوا لا يتحرك أَحَد. وكذلك كانوا يفعلون لا يتحركون إذا نزل الوَحْي، فَرُفِع عن رسول الله ﷺ فقال: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لهم وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [التوبة ٧٤] فقال [جُلاَس]: «قد قُلْتُه وقد عَرَض الله عَلَيَّ التوبة فأَنا أَتوب». فقُبِل ذلك منه، وكان هَمَّ أَن يلحق بالمشركين. [وقال ابن سيرين لما نزلت هذه الآية: أَخذ النبي ﷺ بأُذُن عُمَيْر وقال]: «يا غُلاَم وَفَتْ أُذُنك وصَدَّقَك ـ رَبُّك».

تنبيهات

الأول: ذُكِر في سبب نزول هذه الآية شيءٌ آخر: وهو قول عبد الله بن أُبَيّ في غزوة المُرَيْسِيع: «والله ما مَثَلُنا ومَثَلُ محمد إلا كما قال القائل: سَمِّنْ كَلْبَك يَأْكُلْك. والله لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ». فسعى بها زيد بن أَرقم إلى رسول الله ﷺ. فأرسل خَلْفَ ابن أُبَيّ فحلف بالله ما قاله، فأَنزل الله تعالى الآية. رواه ابن جرير، وابن المنذر، وابن أَبي حاتم عن قَتَادة. وسيأتي بيان ذلك في غزوة المُرَيْسِيع إن شاء الله تعالى.

الثاني: روى محمد بن عمر عن عبد الحميد بن جعفر، أَن الجُلاَس تاب وحَسُنَت تَوْبَتُه، ولم ينزع عن خَيْرٍ كان يصنعه إلى عُمَيْر، وكان ذلك مما عُرِفت به توبته.

ومن المنافقين: نَبْتَل ـ بنون مفتوحة فموحدة ساكنة ففوقية مفتوحة فلام ـ ابن الحارث، وكان رجلاً جسيماً، أَدْلَم، ثائر شَعر الرأس أَحمر العينين، أَسْفَع الخَدَّيْن، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من أَحَبَّ أَن ينظر إلى الشيطان فلينظر إلى نَبْتَل بن الحارث».

وروى ابن إسحاق عن بعض بني العَجْلاَن أَنه حُدِّث أَن جبريل أَتى رسول الله ﷺ فقال له: «إنه يجلس إليك رجل أَدْلَم ثائر شعر الرأس أَسْفَع الخَدَّيْن أَحمر العينين كأَنهما قِدْران من صُفْر، كَبِدُه أَغلظ من كَبِد الحِمَار، يَنْقُل حديثَك إلى المنافقين فاحْذَرْه». وكانت تلك صفة نَبْتَل بن الحارث يأتي رسول الله ﷺ فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين. وهو الذي قال لهم: «إنما محمد أُذُن، مَنْ حَدَّثه بشيء صَدَّقَهُ». فأَنزل الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قل أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ

﴿وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة ٦١].

تنبيه: في بيان غريب ما سَبَق:

«الأَدْلم»(١): بدال مهملة: الأَسود الطويل.

«ثائر شعر الرأْس»: منتشر الشعر.

«أَسْفَع الخَدَّيْن»(٢): السُّفْعَة ـ بالضَّم: سَوَادٌ مُشْرَبٌ بحُمْرَة أَو زُرْقة.

«الصُّفْر» بضم الصاد المهملة وبالفاء: النُّحَاس.

ومنهم: مِرْبَع ـ بميم مكسورة فراء ساكنة فموحدة مفتوحة فعين مهملة ـ ابن قَيْظيٍّ ـ بقاف فتحتية فظاء معجمة مُشَالَة ـ وهو الذي قال لرسول الله ﷺ حين أَجاز في حائطه، ورسول الله ﷺ عامِدٌ إلى أُحُد: «لا أُحِلُ لك يا محمد إن كنتَ نبياً أَن تَمُرَّ في حائطي». وأَخذ في يده حفنة من تراب ثم قال: «والله لو أَعلم أَني لا أُصيب بهذا التراب غَيْرَك لَرَمَيْتُكَ به». فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ: «دَعُوه فهذا الأَعمى أَعمى القلب أَعمى البَصَر»(٣).

ومنهم عبد الله بن أُبَيّ بن سَلُول، وسَلُول هي أُم أُبَيّ وهو أُبَيّ بن مالك العَوْفِي أَحد بني الحُبْلَى. وكان رأس المنافقين وإليه يجتمعون، وهو الذي قال: «لئن رجعنا إلى المدينة لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ» في غزوة بني المُصْطَلق. وفي قوله ذلك نزلت سورة المنافقين بأَسرها. وقَدِم النبي ﷺ المدينةَ وعبد الله بن أُبَيّ سيد أَهلها لا يختلف عليه في شرفه من قومه اثنان، لم يجتمع الأَوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أَحد الفريقين غَيْرِه حتى جاء الإِسلام. وكان قومه قد نظموا له الخرَزَ ليتوّجُوه ثم يُمَلِّكوه عليهم، فجاءهم الله عز وجل برسوله ﷺ وهم على ذلك فلما انصرف قَوْمُه عنه إلى الإِسلام ضَغِنَ، ورأَى أَن رسول الله ﷺ قد استلبه مُلْكاً. فلما أَن رأَى قومه قد أَبَوْا إلا الإِسلام دخل فيه كارِهاً مُصِرًّا على نِفاق وضِغْن.

وروى ابن إسحاق، والإمام أَحمد، والشيخان عن أُسامة بن زيد رضي الله عنهما. قال: رَكِب رسول الله ﷺ حِماراً عليه إِكاف فوقه قطيفة فَدَكِيَّة مُخْتَطمة بحبل من ليف. قال: وأَردفني رسول الله ﷺ خَلْفَه يعود سعد بن عُبَادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بَدْر،

(١) انظر اللسان ١٤١٥/٢.

(٢) انظر اللسان ٢٠٢٧/٣.

(٣) انظر البداية والنهاية ٢٣٩/٣.

فمر بعبد الله بن أُبَيّ وذلك قبل أَن يُسْلِم وهو في ظِلّ أُطُم وفي مجلس أَخلاط من المسلمين والمشركين عَبَدة الأَوثان، واليهود في مجلِس عبد الله بن رواحة. فلما غَشِيت المجلس عجاجة الدَّابَّة خَمَّر عبدُ الله بن أُبَيّ أَنْفَه بردائه وقال: لا تُغَبِّروا علينا. فسَلَّم رسول الله ﷺ ووقف فنزل فدعاهم إلى الله فقرأ عليهم القرآن وحَذَّر وبشَّر وأَنذر فقال له عبد الله بن أُبي: «يا أَيها المرء إنه لا أَحْسَنَ من حديثك هذا إن كان حَقًّا فلا تؤذونا به في مجلسنا، وارجع إلى رَحْلِك فمن جاءك فاقصص عليه». قال: فقال ابن رواحة: «بلى يا رسول الله فَاغْشَنَا به في مجالسنا فهو والله مما نُحِبّ». فاستبّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون. فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضهم حتى سكتوا. فركب رسول الله ﷺ دابته حتى دخل إلى سعد بن عُبَادة، فقال له: «أَي سعد أَلم تسمع ما قال أَبو حُبَاب»؟ يريد عبد الله بن أُبَيّ. فقال سعد: «يا رسول الله اعْفُ عنه واصْفَحْ فلقد أَعطاك الله ما أَعطاك، ولقد اجتمع أَهل البُحَيْرَة على أَن يُتَوِّجُوه فيعصبوه، فلما رُدَّ ذلك بالحق الذي أَعطاك شَرِق، فذلك الذي فعل به ما رأَيت»[(١)].

وعن أَنس رضي الله عنه قال: قلت: يا نَبِيَّ الله لو أَتيت عبد الله بن أُبَيّ؟ فانطلق إليه النبي ﷺ، فركب حِماراً، وانطلق المسلمون يمشون، وهي أَرض سَبِخَة. فلما أَتاه رسول الله ﷺ، قال: إِلَيْكَ عَنِّي فوالله لقد أَذَاني نَتْنُ حِمَارِك. فقال رجل من الأَنصار: والله لحمار رسول الله ﷺ أَطْيَبُ ريحاً منك.

فغَضِب لعبد الله رجل من قومه فشتمه، وغَضِب لكُلٍّ واحدٍ منهما أَصحابُه، فكان بينهم ضَرْبٌ بالجَريد - وفي لفظ بالحديد - والأَيدي والنِّعَال، فبلغنا أَنه أُنزِل فيهم ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾ [الحجرات ٩]. رواه الشيخان.

قال ابن إسحاق: وقال عبد الله بن أُبَيّ حين رأَى من خلاف قومه ما رأَى:

مَتَى مَا يَكُنْ مَوْلاَكَ خَصْمَكَ لاَ تَزَلْ ... تَذِلُّ وَيَصْرَعْكَ الَّذِينَ تُصَارِعُ
وَهَلْ يَنْهَضُ الْبَازِي بغَيْرِ جَنَاحِهِ ... وَإِنْ جُذَّ يَوْماً رِيشُهُ فَهْوَ وَاقِعُ

ومنهم أَبو عامر الفاسق واسمه: عبد عمرو بن صيفي بن النعمان الأَوسي أَحَد بني ضُبَيْعَة بن زيد، وهو أَبو حَنْظَلَة غَسِيل الملائكة. وكان أَبو عامر قد تَرَهَّب في الجاهلية ولَبِس المسوح، فكان يقال له الراهب. وكان شريفاً مُطاعاً في قَوْمِه فشقى بشرفه وضَرَّهُ.

ولما قَدِم رسول الله ﷺ المدينة أَتاه أَبو عامر قبل أَن يخرج إلى مكة فقال: يا محمد ما

(١) أخرجه البخاري ١٥٤/٧ ومسلم في كتاب الجهاد (١١٦) وأحمد في المسند ٢٠٣/٥ وعبد الرزاق (٩٧٨٤) والطبراني في الكبير ٦٧/٦.

هذا الدين الذي جئت به؟ فقال رسول الله ﷺ: «جئت بالحنيفيّة دين إبراهيم». قال: فإني عليها. فقال رسول الله ﷺ: «لَسْتَ عليها [لأنك أَدْخَلْتَ فيها ما ليس منها]. قال: بل أُدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها. قال: «ما فعلت بل جئت بها بيضاء نَقِيّة». فقال أَبو عامر: أَمات الله الكاذبَ [منا] طَريداً وحيداً. وإنما قال ذلك يُعَرِّض برسول الله ﷺ حيث خرج من مكة. فقال رسول الله ﷺ: «نعم أَمات اللهُ الكاذبَ منا كذلك». فكان ذلك هو عَدُوّ الله فخرج إلى مكة. فلما فتح رسول الله ﷺ مكة، خرج إلى الطائف فلما أَسلم أَهل الطائف لحق بالشام فمات بها طريداً غريباً وحيداً[(١)].

(١) أخرجه أبو نعيم في الدلائل ١٩/١ وذكره القرطبي في التفسير ٣٢٠/٧.

فهرس الجزء الثالث
من
سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد

جماع أبواب معراجه صلى الله عليه وسلم

جماع أبواب بدء إسلام الأنصار

جماع أبواب الهجرة إلى المدينة الشريفة

جماع أبواب بعض فضائل المدينة الشريفة

جماع أبواب بعض حوادث من السنة الأولى والثانية من الهجرة

جماع أبواب بعض أمور دارت بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين اليهود والمنافقين

